دولة قطر
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مجموع مؤلفات الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله ١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ

(يطبع كاملًا لأول مرة)

إشراف ومتابعة وتنسيق

أبناء الشيخ

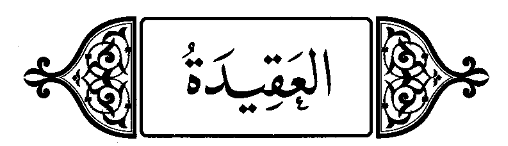
محمد بن عبد الرحمن السعدي — مساعد بن عبد الله السعدي

ماهر بن عبد العزيز الشبل — رامي بن عبد العزيز الشبل

الدار العربية

سليمان بن عبد الله الميمان — أيمن بن عبد الرحمن الحنيحن

المجلد السادس

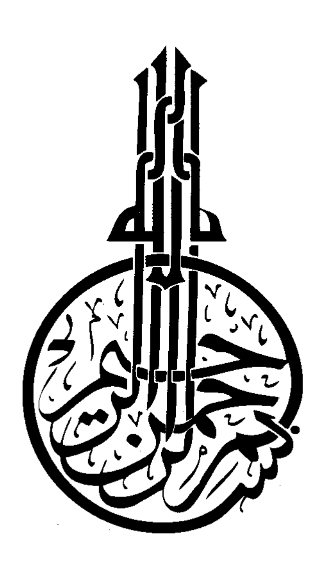


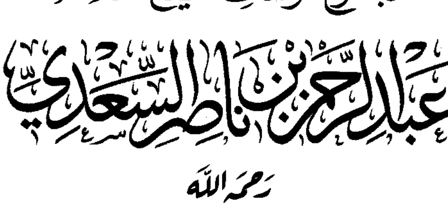
طبع على نفقة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر




مجموع مؤلفات الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله


٦

طبع على نفقة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جمعه ورتبه وأعاد صفه وتنضيده وراجعه وحققه وضبطه على أصوله

قسم تحقيق التراث والنشر العلمي

شركة الدار العربية لتقنية المعلومات



للنشر والتوزيع بالرياض

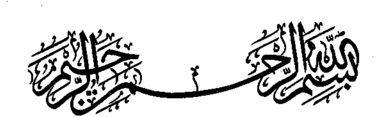
الرياض: هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ فاكس: ٤٦١٢١٦٣

بريد إلكتروني: Info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com

الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد : فإن الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين، وجعلهم الهداة والأئمة إلى كل علم صحيح نافع ودين صحيح، وإلى كل صلاح وخير، وخص محمدًا ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم، وأنزل عليه الكتاب والحكمة؛ فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية، إليهما ينتهي كل علم وحق وكمال. وقد وضح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقي ونال الصفقة الخاسرة.

وأعظم الناس انحرافًا عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وهم شرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء، فإنهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها، وزين لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها واحتقروا لأجلها ما جاءت به الرسل، ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. وقد أصلوا لباطلهم أصولا يقلد فيها بعضهم بعضًا، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق.

أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول «أرسطو» اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله.

وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه. وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه. وهذا أصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم. وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعًا وعقلًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها، كل وجه منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت؟ فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله.

قال رحمه الله في نقض التأسيس لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث، والكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن هذا الكلام هو وما ذكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجهل والضلال، ومن لا يدري ما يخرج منه من المقال، من كلام أهل العلم والعقل والبيان. وهو أشبه بكلام قصاص الجهال، والمغالطين من كلام العلماء والمجادلين بالحق. وما أحسن ما قال الإمام أحمد في بشر المريسي: كان صاحب خطب، ولم يكن صاحب حجج. بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج.

الوجه الثاني: أن يقال: ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية.

الوجه الثالث: أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي قد علموا أنهم أقل الناس نصيبًا في معرفة العلم الإلهي وأكثر اضطرابًا وضلالًا؛ فإن كلامه وكلام ذويه في الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام بقية الناس، والغلط في ذلك قليل نادر وكلامهم في الطبيعيات دون ذلك، وكلامهم في ذلك غالبه حق وفيه باطل، وأما كلامهم في الإلهيات ففي غاية الاضطراب ومع قلته كثير الضلال عظيم المشقة، وهذا أمر يعرفه كل من له نظر صحيح في العلوم الإلهية فلا يستدل بكلام هؤلاء في العلم الإلهي وحالهم هذه الحال. وقد اعترف أساطين الفلسفة بأن العلم الإلهي لا سبيل لهم إلى العلم واليقين فيه وإنما يؤخذ فيه بالأولى والأخلق والأحرى فيه، فإذا كانوا معترفين بأنهم ليس عندهم علم ولا يقين في العلم الإلهي كيف يستدل بكلامهم فيه؟

الوجه الرابع: ما معنى قوله: فليستحدث لنفسه فطرة أخرى؟ والفطرة هي الخلقة التي فطر الله عباده عليها أتريد أن تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة، فهذا غير مقدور للبشر فإن الله فطر عباده عليها، أم تريد أن يترك ما فطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك؟ وهذا الذي يصلح أن تريده، فهذا أمر بتبديل فطرة الله التي فطر عباده عليها، وهي طريقة المبتدعين المبدلة لفطرة الله وشرعته كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة..**». الحديث[1]. فأهل الكتاب المنزل بدلوا وحرفوا من كتاب الله ما بدلوه وحرفوه، وهم مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلي بدلوا من فطرة الله التي فطر العباد عليها وغيروا منها ما غيروا، ولهذا قيل: إن أرسطو هذا بدل طريقة الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن. والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها، وبعث إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة. وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته - خلقه وأمره - وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم - إدراكهم وحركاتهم، قولهم وعملهم - من

(١) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).

هذا وهذا، كما بدل بنو إسرائيل القول الذي أمروا به، والعمل الذي أمروا به.

الوجه الخامس: أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله فيهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة غير مؤمن بالرسول، ولا متلقٍّ عنه الأخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به، فإن ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به. انتهى كلامه رحمه الله.

الوجه السادس: أن يقال: هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسله وأنزل كتبه، فإنه بعث رسله مذكرين للعباد ما فطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب شكر نعمه، وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله، المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، ومذكرين لهم بالأمر بما فطرت العقول على استحسانه؛ كالصدق والبر والإحسان والأخلاق الجميلة، وبالنهي عما فطرت العقول على استقباحه؛ من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة، فكيف يؤمر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور؟ وهل هذا إلا نهي عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأمر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد؟ وفي هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق، ما لا منتهى لشره وضرره.

الوجه السابع: أن يقال: هذه الوصية تتضمن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغي، ورفض الإيمان بالكلية. فإن الإنسان في الأصل خلق ظلومًا جهولًا؛ ليس فيه هدى، ولا علم صحيح، ولا برهان ويقين في المطالب العالية المقصودة، إلا من جهة الطرق التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه. ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر إليها المكلفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب وما به قوام حياتهم المادية. فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هو هدى

الله، فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمده أن يترك العباد مهملين سدًى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالًا ومآلًا، فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمن تمسك بوصية هذا الملحد الضال فقد أمر بمحو ما جاءت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووحي الشيطان، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم جحد ما جاءت به الرسل، وأهلها أحق الناس بالدخول تحت قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١].

الوجه الثامن: أن يقال: هذا الكلام باطل شرعًا وعقلًا.

أما الشرع: فجميع الكتب المنزلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله في فطر الخلق؛ من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقه وصدق رسله وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب؛ اعتقادًا وتخلقًا وتصديقًا ودعوة إليها وهداية لها من جميع الوجوه. ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة، مادة للجهالات البسيطة والمركبة وأنواع الضلالات، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة. ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصل، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية.

وأما العقل: فإن أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق والأخلاق العالية، التي من اتصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقامًا،

فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه، بل ينكرونه أشد الإنكار، ويرونه من فظائع المنكرات، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد العقائد الصحيحة إلا العقائد الباطلة؟ وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلا الأخلاق الرذيلة السافلة؟ وماذا بعد الرشد إلا الغي والفساد؟

الوجه التاسع: أن يقال: هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفاسد، ومن كل معرفة حاصلة في القلب، فهو أعظم معول لهدم العلوم كلها؛ لأن لازم ذلك يوجب ألا يثبت في القلوب شيء من العلوم الصحيحة، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق، ويتدرج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقي. وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد.

الوجه العاشر: أن يقال على وجه التنزل: أيهما أولى محو ما يقارب في القلوب وما اتصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ثم بعد ذلك يوجهه صاحبه بزعمه إلى طلب الحقائق من غير أساس صحيح يبنى عليه ولا معارف نافعة يعتمد عليها؟ وقد علم ما يرد على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شيء من أنواع الوساوس والخيالات الفاسدة والضلالات المتنوعة، وأنها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقادًا وتخلقًا تأتي بالغرائب المزعجة والخيالات المضحكة، أي هذه الحالة التي لا يرتضيها من له مسكة من عقل، وحالة قلب ملآن من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق القوي المستمد من معين الرسالة ومن هدى الله الذي هدى به الخلق، وفيه من الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ما يميز به الحقائق إذا وجهت صاحبه إلى طلب الحقائق والحق من أبوابها واستخراج المعارف من طرقها، فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يهتدي به إلى المطالب العالية، فمن سوى بين

الحالتين والقلبين فليبك على ذهاب عقله بعد ذهاب دينه. فالعلوم التي لها أساس قوي تعتمد عليه ولها براهين قطعية تستمد منها وتهتدي بها، وصاحبها عنده من الأصول ما يفرق به بين الحق والباطل؛ هي التي يعتبرها أولو الألباب، وينافسون في تحصيلها، ويرون إدراكها أجل نعمة أنعم الله بها عليهم. وهؤلاء الملحدون يوصون بتركها ومحوها من القلوب التي يلج الباطل فيها من غير معارض يعارضه من العلم واليقين والإيمان. فالعلوم والمعارف والأدلة والبراهين محال أن تكون صحيحة نافعة حتى تستنير بنور الوحي وبرهان الحقيقة، وتبني علومها وأعمالها على الإيمان.

الوجه الحادي عشر: أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة، فالله يقول: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وفي الصحيح أنه ﷺ قال لمن قال له: قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[1]. أي على الإيمان. وهؤلاء الملحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد التي لا أصح منها ولا أنفع ولا يسعد العبد غيرها من قلوبكم، وشكوا لتستحدثوا علومًا وعقائد جديدة تجيش بها القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التي أعرضت عن الحق وعارضته وتوجهت إلى الباطل، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسله.

الوجه الثاني عشر: أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب وطلب الشك فيها محال غير ممكن، ومن حاول ذلك فهو مكابر، فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه؛ لأن الحق إذا تمت معرفته احتل القلوب وثبت فيها واستقر وصارت له السيطرة على كل باطل، وزهق الباطل عند مقابلته. ولهذا قال

(١) مسلم (٣٨).

تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. وقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال عن كفار المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فهؤلاء الملحدون إنما غرضهم الوحيد صد الناس عما جاءت به الرسل، ومقاومة ذلك بكل طريق، فرأوا هذا طريقًا راج على الأغمار وضعفاء البصائر، ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. أما أولو البصائر والألباب فإنهم يسعون لإزالة ما وقع ويقع في القلوب من الشبهات والشهوات المعارضة للحق؛ فإن الشبهات والشهوات الواردة على القلوب تضعف علمها ويقينها وإيمانها. ودواء ذلك أن يقابل بالعلم الصحيح والبراهين الصادقة، فإن الشكوك لا ثبوت لها عند ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]. وكذلك إزالة ما يقع في القلوب من الشهوات والأغراض الفاسدة التي يقدمها صاحبها على الحق والتعصب للمقالات بغير مستند صحيح، فدواء ذلك بتوجيه القلب لقصد الحق الصرف والإخلاص لله وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على هوى النفوس، فهذا هو المطلب الصحيح لكل موفق؛ أن يكون فطنًا في إدراك الحق وفي نفي الشبهات المنافية له، وأن يكون حسن القصد في ترجيح ما يرجحه الدليل الصحيح من المقالات.

الوجه الثالث عشر: أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه، وإلا فأهله من أكذب الناس، فإنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي ما زالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليدًا أعمى، فالغرض من كلامهم معروف، وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين.

الوجه الرابع عشر: قال الشيخ: ومن المعلوم أن الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال، وإنما يحب الدين والعلم واليقين. وقد ذم الحيرة بقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وقد أمرنا أن نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به، والقرآن هو الشفاء والهدى والنور، والشك والحيرة ليست محمودة باتفاق المسلمين، وغاية ما يكون أن من لم يكن عنده علم بالشيء فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحق الذي في القلوب لتتوجه القلوب إلى غيره مخالفون للكتاب والسنة ولإجماع العقلاء المعتبرين، متابعون لأئمتهم الضالين. انتهى.

الوجه الخامس عشر: أنه لو فرض وقدر أن الإنسان يمحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خاليًا من الحق والباطل، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر ويزنها بحق وعدل وإنصاف وفهم صحيح فإنه يظهر له الفرق العظيم، ويتضح له أن من سوَّى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوي بين الليل والنهار والضياء والظلمة، فكيف بمن فضل الإلحاد على دين رب العباد؟! فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار.

الوجه السادس عشر: أن الأمور اليقينية والحقائق الصادقة يستحيل أن تقدح فيها الشبهات والتشكيكات بوجه من الوجوه، وقد علم بالأدلة والبراهين المتنوعة، نقلًا وعقلًا وفطرة أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق، وبراهين ذلك لا تحصى كثرة وقوة ووضوحًا، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف في تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به وأنه الحق والهدى، وأن كل ما نافاه وخالفه إذا قيس به وقرن معه اضمحل وبطل، ولم يكن له إليه نسبة بوجه من الوجوه؛ فمتى علم المنصف ذلك عرف أنه

ليس بعد الحق إلا الضلال والمحال، وأن تأصيل هؤلاء الملحدين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يدل على فساد أديانهم، وسفاهة عقولهم، وسوء مقاصدهم.

الوجه السابع عشر: أن العلوم النافعة التي اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين:

أحدهما: أن يعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وسائر الغيوب، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التي يتعبد المكلفون بها ويتعاملون، ويعتقد ذلك ويعمل به.

الثاني: معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية، والوقوف على أسرارها وحكمها. فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق وأرسلت بها الرسل وتتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها، فالسعي في إزالتها من القلوب أعظم معاندة ومشاقة ومحاربة لله ورسله، وإنما المطلوب الأعلى حصولها في القلوب وثبوتها. فتبًّا لطائفة زائغة قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسوله.

الوجه الثامن عشر: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمحق ما يقع في القلوب مما ينافي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك، وإزالة كل شبهة تعرض للقلوب تقدح في هذا الأصل أو تخل به بالبراهين القاطعة الواضحة، ليكون الإيمان صحيحًا والقلب سليمًا من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة، والقرآن والسنة مملوءان من ذلك، وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك، فهم أئمة الكفر والجحود حادُّوا الله ورسله أعظم محادة.

الوجه التاسع عشر: أن من أعظم الأصول التي جاءت بها جميع الرسل، خصوصًا خاتمهم وإمامهم محمدًا ﷺ - الإيمان بالقضاء والقدر، مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة في الدين والدنيا. والكتاب والسنة مملوءان من ذلك، وأن جميع الحوادث

مربوطة بقضاء الله وقدره، ونواصي العباد بيده، وأنه لا حول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا هو، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله. فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وهو أصل توحيد الربوبية، وقصد تقريره في القلوب، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير. وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأسًا؛ لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة. وكفى بقول جهلًا وضلالًا أن يصل إلى هذا الحد الفظيع.

الوجه العشرون: أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه. فأنكروا من أجل ذلك علوم الغيب كلها، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلوه من صفاته وأفعاله، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة. وهذا باطل شرعًا وعقلًا:

أما الشرع فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة ما لا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.

قال الشيخ: وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل إلى وزنه بها، فهي يوزن بها المتاع الخسيس، دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذي ليس للنفوس عنه عوض، وليس سعادتها إلا فيه. فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم، ولم يستدلوا بالآيات البينات التي هي العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التي فاز بالسعادة عالمها وخاب بالشقاوة جاهلها. وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلا أمورًا كلية مقدرة في الذهن لا في الخارج، والعلوم الموروثة عن الأنبياء

أجل وأعظم من أن يكون لها التفات أو حاجة إلى علمهم، بل إدخال علمهم في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيدًا، واليسير منه عسيرًا، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق، مع قلة العلم والتحقيق. والأمور الموجودة المحققة تعلم بالحس الباطن والظاهر، وتعلم بالقياس التمثيلي، وتعلم بالقياس الذي ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم. انتهى.

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة. فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله، وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدى للخلائق، وتوضيح للحقائق، وتنبيه للعقول على توجيهها لكل علم نافع. ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم، وهذا ميراث محقق من مكذبي الرسل الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات، وأنكروا ما لم يحيطوا به علمًا، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذي تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفي ما أثبتوه وتثبت ما نفوه، ولا يزالون هكذا في أمر مريج حين كذبوا بالحق. وقد ذكر الله الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء إلى تكذيب الحق، وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل، والكبر الذي في قلوبهم ما هم ببالغيه، وتقليد أئمتهم الضالين. فضعف التمييز، وتقليد أئمة الملاحدة، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التي مكنت هؤلاء من لزوم الباطل.

الوجه الحادي والعشرون: أن هؤلاء الماديين الملحدين لما سدوا على أنفسهم بهذا الأصل الخبيث أكمل الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها، وهي العلوم التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية وفطر الله عليها عقول العباد إلا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة، فسد هؤلاء هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم، وحصروا علومهم ومعارفهم في الأسباب المادية فقط، وتوسعوا فيها ومهروا

واخترعوا وبلغوا حيث انتهت إليه معارفهم وأفهامهم، وانقطعت بذلك صلتهم بالله ورسله وكتبه وبعلوم الرسل وبالهداية الصحيحة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة، فوقعوا في أمر مريج، وتخبطت نظرياتهم. وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا في المواد الأولية وفي سبب الأسباب، فينقضون ما اتفقوا عليه، ويبطلون ما كانوا أسسوه، ولا يزالون كذلك ما داموا لم ينفذوا من الأسباب إلى مسببها، ومن المخلوقات إلى خالقها. فما داموا كذلك فإنهم لا يستطيعون الاستقرار على رأي جامع لجماعتهم ومسعد لهم في الدنيا والآخرة. ونهاية ما يصلون إليه ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. نسوا الله فنسيهم وتركهم في طغيانهم وغيهم وضلالهم يعمهون ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

الوجه الثاني والعشرون: أنهم حين أصلوا هذا الأصل الباطل الذي جعلوه ميزان العلوم كلها تجرءوا جراءة فظيعة على تحليل حياة الرسل بناء على هذا الأصل، وتجرهموا بعقولهم[1] الفاسدة وعلومهم القاصرة إلى القدح بالرسل وإسقاط منزلتهم من قلوب السماعين لهم المستجيبين لدعوتهم حتى أبطلوا بذلك الوحي والرسالة والمعاد، وأنكروا الرب تصريحًا وتعريضًا، وتدرجوا بذلك إلى القدح في جميع الأديان، ولم يجعلوا للرسل ميزة على غيرهم، بل فضلوا طواغيتهم وفلاسفتهم عليهم. فأصل هذه آثاره الخبيثة، وهذه ثمراته السمية المنتنة الحنظلية، كيف يليق بمن له أدنى معقول أن يصغى إليه أو يبني عليه شيئًا من علومه ومعارفه؟ فإنه مفسد للأديان والعلوم، ومخبط للأذهان، فهو أعظم أصول الغي والضلال. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الوجه الثالث والعشرون: أن العلوم المدركة بالحس إذا نسبت إلى علوم الرسل - كالعلوم المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأحوال الآخرة، والجزاء على

(١) كذا، ولعل الصواب: « تجرهم عقولهم ».

الخير والشر وأمور الغيب، والإخبار بما كان وما يكون، وما يسعد النفوس ويشقيها - كانت كقطرة في بحر لجي. فأمور الغيب التي تتوقف على إخبار الرسل ووحي الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة؛ إذ ضيقوا دائرة المعلومات جدًّا في مدركات حواسهم، فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقر لهم قرار على أقوال تتفق عليها آراؤهم، لأنهم أنكروا العلم الحقيقي النافع الذي يزكي النفوس ويسعدها ويرقيها في مدارج الكمال.

ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به علوم الفلسفة وما نتج عنها، ونفوا العلم عما سواها، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق، وإلا فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه في كتابه علوم الرسل وهداية الوحي المنزل من عند العليم الخبير، وما سواها فإما علوم ضارة، وإما قليلة النفع، وإما نافعة في أمور الدنيا دون أمور الدين. وقد نفخت روح الكبر في قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدين والدنيا، فما أضرها وأضر ثمراتها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع.

الوجه الرابع والعشرون: أنه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكمًا فظيعًا باطلًا، وهو أن الرجوع إلى الماضي رجعية فاسدة، وأنه يجب إهدار كل قديم. وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وقالوا: إن البشر لم يبلغوا سن الرشد إلا في هذا الوقت الذي طغت فيه علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارة المهلكة، حتى تفاقم الشر وعم الطغيان واضمحل الخير، وهذا من أعجب العجائب، كيف يكون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وخصوصًا سيدهم وإمامهم محمدًا ﷺ وعليهم أجمعين - ومن اهتدى بهداهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى وخواص الخلق لم يبلغوا سن الرشد، وهم الذين كانوا على الهدى المطلق وبهم هدى الله البشر وأرشدهم إلى كل علم نافع صحيح وعمل صالح وخير ورشد وصلاح، كيف يكونون هم وأتباعهم ومن سلك طريقهم من الهادين المهديين المهتدين لم يبلغوا سن الرشد، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة هم الذين بلغوا سن الرشد؟! سبحانك هذا

بهتان عظيم. ويكفي تصور هذا القول وتصور أحكامه ولوازمه معرفة ببطلانه، فإن أكبر الدلائل على رشد الرشيد وسفه السفيه تصرفاته ونتائج أعماله وثمراتها.

انظر إلى أحوال الرسل وأتباعهم كيف هدَوْا إلى كل عقيدة صالحة نافعة وإلى كل خلق جميل وعمل صالح، وكيف نهَوْا وحذروا عما يضاد ذلك ويناقضه، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد، وكيف تم بإرشادهم الصلاح الذي ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح، فهل تجد علمًا نافعًا أو خلقًا فاضلًا أو خيرًا ناميًا أو شرًّا مدفوعًا أو ضررًا مرفوعًا إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم؟

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك، فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية إلى أسفل سافلين، وشقوا في دنياهم كما شقوا في دينهم وعقولهم. وهذه المخترعات التي تكبروا بها وطغوا وبغوا هل توسلوا بها إلى الخير والحياة الطيبة والرحمة، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذي لا يمكن أحدًا إنكاره؟ ولكن الكبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فجرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهو والغرور. فيا من عافاه الله من هذه البلية ومنَّ عليه بهداية الرسل، احمد الله حمدًا كثيرًا، واشكره شكرًا متتابعًا، فإن الله أنعم عليك بنعم لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها، وسل ربك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيد بالعقل الصريح والفطرة السليمة والطرائق المستقيمة.

الوجه الخامس والعشرون: أنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السبعية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب؛ من توحيد الله وعبادته والحث على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها. وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذي جاءت به الرسل وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم، وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات

النفسية، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغي وإعطاء النفوس مناها، ولم تقف عند حد فاستباحت كل قول وفعل محرم، ووقعوا في الإباحية المحضة، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالا منهم.

ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فجعلوا يدعون إلى هذه الأخلاق السافلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتابين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كم هدموا من محاسن وفضائل، وكم أقاموا من شرور ورذائل! ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا تغترر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال، فإن الذكاء وتوابعه إذا لم يصرف فيما خلق له العبد، وإذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها، كان ضررًا كبيرًا على صاحبه مآله الهلاك كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فذكر أن جحودهم لآياته أوجب لهم ألا ينتفعوا بما أوتوا من هذه الإدراكات، وصارت النعم جالبة للنقم. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. فهم عظموا علومهم التي تبجحوا بها وتكبروا وقاوموا الرسل وسخروا بما جاءتهم به الرسل فانحرفت علومهم إلى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزئون.

الوجه السادس والعشرون: قال الشيخ: ما أخبرت به الرسل من الغيب هي أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشهده نحن في هذه الدار، وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك؛ ليست عقلية قائمة بالعقل كما تقوله الفلاسفة، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشهدها أن تلك غيب وهذه شهادة، وكون الشيء غائبًا أو شاهدًا أمر إضافي بالنسبة إلينا، فإذا

غاب عنا كان غيبًا وإذا شهدناه كان شهادة. وليس هو فرقًا يعود إلى أن ذاته تعقل ولا تشاهد ولا تحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يشهدوا ويروا، والرب تعالى يمكن رؤيته بالأبصار، والمؤمنون يرونه في القيامة وفي الجنة كما تواترت بذلك النصوص. انتهى.

وهذا يبطل أصل الملاحدة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة، فإنه ثبت بالبراهين القوية صدق الأنبياء عليهم السلام، وقد تواترت عنهم هذه الأمور وحصل اليقين التام لجميع من صدقهم، فإنكار الملحدين لذلك إبطال لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحها وأوضحها، وذلك مكابرة منهم ومباهتة.

وقال الشيخ: واستدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله، فيقال لهم: انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة، وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثًا وباطلًا، بل لأجل الجزاء، فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة، وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض، بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء، فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل، كما قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة فتسوي بين المتماثلات، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته، ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين. فهذه السنة تقتضيها حكمته، سبحانه وتعالى، فلا انتقاض لها، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضًا، ومن سننه التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل. لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح

أحد المتماثلين بلا مرجح، فإن هؤلاء ليس له عندهم سنة لا تتبدل ولا حكمة تقصد، وهذا خلاف النصوص والعقول، فإن السنة تقتضي تماثل الآحاد، وأن حكم الشيء حكم نظيره، فيقتضي التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم. اهـ.

الوجه السابع والعشرون: قال الشيخ: ما جاءت به الرسل، صلوات الله عليهم، لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشموا رائحتها، ولا في علومهم ما يدل عليها. وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر ترجيحه على الفلسفة فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به، لزم أمران:

أحدهما: أنه لا حجة لهم على ما يكذبون به مما ليس في قياسهم دليل عليه.

الثاني: أن ما علموه خسيس بالنسبة إلى ما جهلوه، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة؟ والرسول أخبر عن أمور معينة، مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة، ومثل إبراهيم وأحواله المعينة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعينة، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم؛ لا البرهاني ولا غيره، فإن أقيستهم لا تفيد إلا أمورًا كلية، وهذه أمور خاصة. وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة، حتى أخبر عن التتر بما ثبت في **الصحيحين** من غير وجه أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك؛ صغار الأعين ذلف الأنوف**[1] **حمر الخدود ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة**[2]»[3]. فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمي معين أو أمة معينة فضلًا عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة؟

---

(١) قصر الأنف وانبطاحه.

(٢) أي التراس التي ألبست العقب شيئا فوق شيء.

(٣) البخاري (٢٩٢٨)، ومسلم (٢٩١٢).

وكذلك إخباره بخروج النار التي خرجت سنة ٦٥٥هـ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلة والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره، فإن ذاك إنما يدل على أمر مطلق لا على شيء معين، وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجود ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن، ولا معهم ما ينفي تمثل الأرواح أجسامًا حتى ترى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثابتة بإخبار الأنبياء وببراهين أخر إلا الجهل المحض، فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرون بذلك، وكذلك أئمة الأطباء. وطريق هؤلاء الملاحدة لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء. انتهى.

وقال في سبب إلحاد بعض الملحدين: من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزًا عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها، فإذا جاءته العلوم الدينية النافعة التي لم تدخل في علمه نفاها فخسر دينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالًا عليه. وهكذا تجد من عرف نوعًا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه يبقى بجهله نافيًا لما لا يعلمه، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدقوا به وأثبتوه. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]. وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شيئا وصدقوا به كان حقًّا بخلاف ما نفوه، فإن غالبهم أو كثيرًا منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا به علمًا. ويتفرع على هذا الأصل الباطل: الجهل بالإلهيات وبما جاء به الرسل، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات، وبهذا ضل زنادقة الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب، إذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة، فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. انتهى.

الوجه الثامن والعشرون: أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله: لم أنكرتموها؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على

إدراكات الحواس والتجارب. فيقال لهم: قدروا أنها لم تدخل في ذلك، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الإدراك، فكيف تنفون بقية العوالم؛ عوالم السماوات، وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف رب العزة وعظمته، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك؟ فإن هذا النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنما هذا مكابرة.

وإذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال: إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه، فيقال: أولا: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق وافتراق، ولو قدر على وجه الفرض اتفاقهم على الإنكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم بل عرف كذبهم وخطؤهم في ذلك ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم إلى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم، وهم متفقون على ذلك؟ والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم، وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم إلى آخرهم.

فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم، وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح، إنما معهم ظنون كاذبة وآراء خاطئة ونظريات مضطربة وتقليد أعمى للضالين الحائرين ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ

أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الوجه التاسع والعشرون: أن هؤلاء الملحدين كاذبون في دعواهم إثبات كل ما دخل تحت حواسهم، فإنه قد تواترت آيات الرسل وشاهدها الخلق العظيم، واعترفوا وخضعوا لها وشاهدوا ما فعله الله في الأرض، من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم، وإهلاك الأمم المكذبة. وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها، ولم يشتهر ويتواتر شيء كاشتهارها وتواترها، ولم يعترف البشر بشيء من الأشياء أعظم من اعترافهم بها؛ لأنهم شاهدوها رأي عين ونقلتها الأمم قرنًا بعد قرن، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويجحدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

الوجه الثلاثون: أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها إلى آخرها حوادث الطبيعة، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال، وإنما هي آلة محضة، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التي هي في غاية الإبداع والإتقان، وفي نهاية الحكمة والرحمة، وفي غاية الارتباط الوثيق الذي استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم، وهَذَوْا بما لا شعور لهم فيه، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم، فضلًا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وأنه الفاعل لما يريد، وأنه مبدع السماوات والأرض ومودع فيها من بدائع حكمته وأسرار حمده وسعة عظمته ورحمته وعموم بره وفضله، وأنه لا يخرج موجود ولا حادث عن قدرته ومشيئته، وأن رسله صادقون في كل ما أخبروا به وشرعوه، والحمد لله

على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذي جاءت به الرسل، والعافية من هذا البلاء الذي هو أكبر المصائب على العبد، وهو اتباع كل ملحد مارق من العقل والدين.

الوجه الحادي والثلاثون: أن يقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم - فضلًا عن عوامهم ومقلديهم -: أنتم لا تزالون في علومكم التي افتخرتم بها، لا تزالون تحدثون نظريات تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها وتقررونها وتعتقدونها وتجزمون بصدقها، ثم مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكون فيها، وربما تجزمون ببطلانها وتحدثون ما يضادها من النظريات التي باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك والقدح فيها، وهي عرضة للاضمحلال. وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقًّا، وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين، فعلومكم العالية عندكم وهذه حالها ومآلها. كيف يسوغ من له أدنى معقول أن يجعلها معارضة لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب وأيقن بها الأئمة الفضلاء والهداة المهتدون؟

الوجه الثاني والثلاثون: قد تقرر عند جميع الأمم - سوى هذه الطائفة التي كابرت وباهتت - صدق الرسل بما كانوا عليه من الأخلاق العلية والأوصاف الرفيعة، وبما جاءوا به من الدين الحق الذي أصلح الله به الدين والدنيا وهدى به العباد إلى كل خير وصلاح وفلاح خاص وعام عاجل وآجل، وأيدهم بالآيات البينات والبراهين القاطعات التي تواترت تواترًا لم يقاربه شيء من المتواترات، حتى تناقلتها الأمم والقرون، وصارت في مقدمة الحقائق وفي أعلى مراتب الصدق، وخصوصًا إمامهم وسيدهم محمدًا ﷺ فإن جميع الخلق شهدوا بصدق ما جاء به واعترفوا به وخضعوا - أولياؤه وأعداؤه - ولو لم يجئ إلا بهذا القرآن الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة وأسلوبه الجميل الجليل وأحكامه التي هي أحسن الأحكام، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة بالخلق والمتعلقة بالخالق، فمن عرف شيئًا من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم؛ عرف أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابروا المحسوسات وباهتوا

المعقولات وعاندوا العلوم الصحيحة وردوا المعارف اليقينية، وأنهم بلا شك معاندون للحق أو مقلدون للمعاندين تقليدا أعمى، فهم كما قال الله عن أئمتهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. فإذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الوجه الثالث والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملاحدة: ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع وحي من الله، جاء على يد الرسولين جبريل ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهو مؤيد بشهادة الآيات والبراهين القاطعة، والعقول تهتدي به وتسترشد إلى جميع المطالب العالية فتشهد بكمال حسنه، وتعترف بحاجتها وضرورتها العظيمة إلى إرشاده وتستنير به، وتعرف أنه لا سبيل لها إلى الوصول إلى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة، وأنه ليس في علومها ما يدل على ذلك، فسلمت لما جاء به الوحي والشرع، ولم تعبأ بعقول بنيت على الشبه والخيالات، فإنها لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت إليها لم يكن لها إليها نسبة، وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، وهي متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه وإبطال ما يضاد ذلك وينافيه، فابتداؤها من الله وانتهاؤها إليه سالمة من هذيانات الملحدين وافتراء المفترين.

وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته إلى عقل ونقل سواه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ولا يمكن أن يعارضه عقل صحيح ولا علم صادق. ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقول جملة وتفصيلًا، أو تعرفه جملة ولا تهتدي إلى تفصيله،

أو تخبر بأمور لا تهتدي إليها العقول بمجردها لا جملة ولا تفصيلًا، ومحال أن تخبر بما تحيله العقول الصحيحة. وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشريعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم، وقد تتبع كبار العلماء وأساطين الحكماء وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك في جميع الحقائق التي جاءت بها الرسل، وبرهنوا أن كل ما خالفها هو ضلالات وجهالات وخيالات، حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلًا عن أولي الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المغتذية بالوحي والهداية النبوية، فإنهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية والجزائية هو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهدوا به الخليقة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]. ولما ذكر صفات أولي الألباب قال عنهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

الوجه الرابع والثلاثون: أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فإنها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت إلى عظمة الله وجلاله وكماله، وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات، أعيانها وأوصافها وأفعالها، ومن سواه مخلوق، وأنه مالك الملك المطلق، ومن سواه عبد مملوك، وأنه العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي علا على

كل شيء وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعًا وقدرًا وجزاء، إلى آخر ما وصلت إليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصي أحد ثناء عليه، لو علموا شيئًا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل، وأشنع الكذب، وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]. فهؤلاء الملحدون لمَّا لم تصل معارفهم الضئيلة إلى شيء من ذلك وحصروها في بعض الأسباب، ولم ترتق إلى مسبب الأسباب، ولم يصلوا من المخلوقات إلى خالقها؛ ظنوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلًا وضلالًا، ومنهم من كان كذلك ظلمًا وعنادًا. فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم، والسلامة من عقوبة الإلحاد التي هي أكبر النقم.

الوجه الخامس والثلاثون: أن هؤلاء الدهريين لمَّا كانوا يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما هي إلا الطبيعة تتولد عنها الموجودات والحوادث؛ حصروا مداركهم؛ في هذه الحياة الدنيا، فأدركوا منها ما أدركوا وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب وما أخبرت به الرسل من الغيوب والأحكام، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدين وامتلأت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل، وساءت قصودهم، وختم الله على مداركهم القلوب والأسماع والأبصار فلم ينتفعوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]. فنعوذ بالله من هذا الكبر الذي هبط بصاحبه إلى هذه الدركات ومنعه من الوصول إلى العلوم النافعة والسعادة والفلاح، وحسن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح.

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: المعلومات المعاينة التي لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التي تدرك بالحس والعقل، بل لا نسبة بينها بوجه من الوجوه، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر، فإنه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة. والمعلومات التي لا تدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس إليها كقطرة من بحر، ولا سبيل إلى العلم بها إلا بالخبر الصادق. وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء، وأطلعهم منها على ما لم يطلع عليه غيرهم، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره، ولهذا كان أكمل الأمم علمًا أتباع الرسل وإن كان غيرهم أحذق منهم في علم النجوم والهندسة وعلم الكم المتصل والمنفصل ونحوها من العلوم التي لمَّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل.

وهي كما قال الواقف على نهايتها: ظنون كاذبة وعلوم غير نافعة، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلبًا وخبرًا، فهو العلم المزكي للنفوس، المكمل للفطر، المصحح للعقول، الذي خصه الله باسم «العلم» وسمى ما عارضه «ظنًّا» لا يغني من الحق شيئًا وخرصًا وكذبًا. وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كله خرصًا، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته، وهدى به أنبياءه وأتباعهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا. انتهى.

الوجه السادس والثلاثون: أن آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومعجزاتهم التي

شاهدها الخلق العظيم، وتناقلتها القرون، واجتمعت عليها الدلالات المتنوعة: دلالة العقل، ودلالة الحس، واضطرار الخلق الذين شاهدوها أنها من عند الله ومن آياته وبراهينه، تهدم الأصل الذي أصله الملاحدة حيث لم يثبتوا إلا ما دل عليه الحس، فإن أكثر المحسوسات إذا نسبت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها إليها نسبة من هذه الجهة، فضلًا عن بقية الاستدلالات عليها، فهي من أقوى الطرق وأوضحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم رحمه الله: وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس ودلالة العقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله «آيات بينات»؛ فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمر به ثم يعود عصًا كما كانت، وكذلك اليد، وفلق البحر طرقًا والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رءوسهم، وضرب حجر مربع بعصًا فتسيل منه اثنتا عشرة عينًا تكفي أمة عظيمة، وإخراج الناقة لصالح، وتصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرًا ذا لحم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وإنزال العقوبات المتنوعة على المكذبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومن معه من المؤمنين، وإيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث رآه الحاضر والغائب ويخبر به كما يراه الحاضرون، وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي ﷺ وهي متنوعة جدًّا، وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلهم بها، كما دلهم بما يشاهدون من أحوال الحيوانات والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو، وأحوال العلويات من السماء والشمس والقمر والنجوم، وأحوال النطفة وتقلبها طبقًا بعد طبق. انتهى.

وفي هذا إبطال لقول من يستهين بمعجزات الأنبياء ويجاري الملحدين في تحليلها تحليلًا يعلم بالضرورة بطلانه، وأنه قدح في الضروريات والمحسوسات، ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثير من أصولهم الباطلة أوصلهم إلى حالة

الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيديهم مما هو معلوم بالحس والعقل والخبر والمشاهدة، ومنقول نقلًا متواترًا لا يشبهه شيء من المتواترات، والله تعالى ينوع آياته ويجعلها في كل فن وتصريف لتقوم الشواهد على توحيده وصدق رسله، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وليعلم العباد أن قدرته تعالى يصرف بها الأمور بأسباب يعرفها العباد وأسباب لا يعرفون وجهها، وإنما يعرفون نتيجتها وفائدتها الدالة على صدق رسله وكذب أعدائه وبطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرسل. والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

الوجه السابع والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملحدين الدهريين ما قالته الرسل لأسلافهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]. فالله تعالى وجوده أظهر الموجودات، وهو واجب الوجود، وغيره وجد بعد العدم. وهو تعالى فاطر السماوات والأرض، فكل الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة، وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخلقه وتسخيره وتدبيره وتصريفه، أوجدها بعد العدم، أمدها بكل ما تحتاج إليه، وحفظها من الزوال والاضمحلال، وهو يحييها ويميتها ويعدمها ويبقيها ويتصرف فيها بكمال الحكمة وبديع العناية، قد شهدت بوحدانيته جميع الموجودات، وخضعت لعظمته جميع الكائنات، وافتقرت إليه جميع البريات في كل شئونها، كل يوم هو في شأن؛ شئون يبديها ولا يبتديها.

وقد قامت البراهين القواطع التي لا تعد ولا تحصى على هذا الأمر، وشهدت به الكتب والرسل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة، لا يمكن أحد له مسكة من عقل أن ينكر هذا إلا هؤلاء الملحدون الذين فسدت عقولهم ومرجت أخلاقهم واقتدوا بكل شيطان مريد، كفرعون وأشباهه الذي قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. وحيث خاطب موسى عليه السلام حين أمره بالإيمان: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا

﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. فاستدل عليه بجميع الكون، ناطقه وصامته، وأنه الذي انفرد بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك، وهدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه المشاهدة.

فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به، ولا ينكره إلا كل مكابر مباهت، مثل فرعون وأئمة هؤلاء، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنكارًا له ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]. فكل عاقل لا بد أن يعترف به، ومن لم يعترف به فإنه إما مجنون أو معاند مباهت، أو ضال مقلد تقليدا أعمى، فقال فرعون، مموها على أهل مجلسه: ألا تسمعون ما يقول موسى؟ فقال موسى: ربكم ورب آبائكم الأولين، إنكارًا عليهم أنهم أنكروا أمرًا لم يزالوا ولا يزالون إليه مضطرين مفتقرين كل وقت، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الأولين التي لا يمكن إنكارها، فهو الذي رباهم بخلقه ونعمه صغارًا وكبارًا، هم وأصولهم وفروعهم وسائر الخلق، ولكنهم باهتوا. ومن مباهتتهم ومكابرتهم رميه لموسى بالجنون، وهو يعلم أنه أكمل الناس عقلًا، وهو الذي أقامه وأقعده وأحرجه في أحواله كلها، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. فلما رآه يكابر ويجحد ربوبية الله للخلق التي لا يمكن المكابرة فيها قال له: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَىۡءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]. ظاهر واضح قوي دال على صدقي وصحة ما جئت به، وإن الجاحدين هم المبطلون، فذكر الآيات وما جرى له مع فرعون وكيف اعترف السحرة كلهم أنه من عند الله وأثر فيهم وآمنوا الإيمان الصحيح الصادر عن قوة وبصيرة وخبرة تامة ولم يبالوا بالمعارضات وما أصابهم من فرعون، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون. فهذه في الحقيقة حالة هؤلاء الملحدين مع جميع الرسل. ولقد قص الله علينا من نبئهم ما فيه عبرة للمعتبرين وحجة على المعاندين، وكم في الكتاب والسنة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك، فمن جحد ذلك أو شك فيه فبأي حقيقة يعترف؟ ومن أنكره فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرًا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

الوجه الثامن والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملحدين الماديين: هاتوا برهانكم وميزانكم الذي تزعمون أنه ميزان الحقائق، وقابلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدين. زنوا الحقائق مفصلة حقيقة حقيقة، واعرضوها على ذوي العقول الصحيحة والأذهان والمعارف الصادقة فإنه يتضح عند ذلك أنهم كانوا كاذبين مبطلين.

أول ذلك أن يقال: قابلوا بين أي موجود من الموجودات التي اختصصتم بإثباتها أو التي اشترك بنو آدم في إثباتها وبين وجود الخالق، فإن وجود الخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه وجود واجب، مستحيل وممتنع ثبوت نقيضه، فهو أعظم الموجودات وأظهرها، بل لا وجود لشيء من الأشياء إلا بإيجاده، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقر غاية الافتقار إلى ربه، ليس لشيء منها من نفسه وجود، فليس لها إلا العدم، فهي حادثة بعد العدم ومضطرة إليه كل وقت بعد الوجود، لو قطع عنها الأمور التي حفظها بها وأبقاها لاضمحلت، والله تعالى وجوده مركوز في العقول والفطر، معلوم بالضرورة وبالطرق التي هي أقوى الطرق الدالة على الحق ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢]. فحصر الحق فيه إذ هو الحق الواجب في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا حق لشيء من الأشياء إلا باستناده إليه، فهو واجب الوجود الموجد لكل موجود.

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحِدُ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩]. عن الحق الذي هو أظهر الأشياء وأوضحها، ولكن العلة والسبب الذي حملهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٧٠]. فتكذيبهم بجميع الكتب المنزلة من عند الله، وبجميع الرسل، منعهم من قبول الحق الذي لا حق غيره وتركهم في ضلالهم وطغيانهم يعمهون، ثم ذكر وعيده لهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١]. زنوا أيها العقلاء ما ثبت لربكم

العظيم من الوحدانية في أوصاف الكمال، والتفرد بكل جلال وجمال، والتفضل بكل خير ونعم جزال، وما شاهدته الخليقة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات في غاية الإحكام والانتظام العجيب الذي حسب العقول والأفهام، إذ تهتدي إلى ما بثه في المخلوقات من حسن الخلق وبديع الصنع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التي لا تحصى المترتبة على ذلك، ثم انظروا إلى ما نشره من رحمته التي وسعت كل شيء، فما من مخلوق يستغني عن رحمة خالقه طرفة عين، فما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خفية أو جلية إلا من الله، وهو الذي لا يأتي بالخير والحسنات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، وهذا من أكبر الأدلة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره.

وانظر ما في العالم العلوي والسفلي من الحوادث والتدبيرات المتنوعة والأفعال العظيمة، وما تدل عليه من عظمة مدبرها وجلاله وكبريائه ومجده، وأنه المتفرد بالوحدانية والكمال الذي لا غاية له. وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة، فهل يستوي من أثبت ما دلت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل؟ وهل يستوي الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، والقيام بحمده وذكره وشكره والإنابة إليه التي هي أفرض الفروض التي جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب، أم الأمر بضد ذلك من الشرك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها؟

وهل يستوي ما أمرت به الرسل من الصدق في الأقوال والأفعال، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبر والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم؟ أم الأمر بضد ذلك؟ وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البر والتقوى، أم الأمر بضد ذلك؟ وهل

تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به؟ وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذي هو أساس الخيرات والصلاح المطلق؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لا ينفع غيرها: أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء، وأنها قديمة، والقديم يجب أن يزهد فيه ويحذر عنه؟ هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح؟ وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟ وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه؛ من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه، والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نهت عن ضده، ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد - عرف أن الخير والفلاح والصلاح الديني والدنيوي العاجل والآجل، الظاهر والباطن، مع ما دعت إليه الرسل، وأن الملحدين ترمي دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل والحث على كل خلق رذيل، ومآلها الفوضوية التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمه، وأن يثبتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه.

ومن أعجب العجائب أن كثيرًا من الكتاب العصريين والسياسيين الذين يسعون في معالجة كثير من مشاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحي، ومشكلة الإلحاد الذي

جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلها ومداواتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق من جميع الوجوه، بل تركوهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يترددون، وازدادت المشكلات التي يريدون حلها مشكلات أخرى تعذر حلها كما هو المأمول، فكل مشكلات الحياة إذا لم تبن على الإيمان والدين الصحيح ازدادت تعقدًا وعظم ضررها وبعد خيرها، فلو أنهم أسسوا معالجاتهم المتنوعة على الدين الصحيح، ووجهوا النشء إلى عقيدته والتخلق بأخلاقه؛ لأثمرت مساعيهم كل زوج كريم، ولتوجهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح، وانصرفت عن الشر والأضرار والأعمال القباح، فالفساد لا يسود إلا إذا عدم الإيمان الذي ينافيه ولا يجامعه.

الوجه التاسع والثلاثون: أن يقال لهؤلاء الملاحدة الماديين: من الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة، ومن الذي أحكمها هذا الإحكام البديع، ومن الذي نظم حركاتها العجيبة التي تحار الأفكار في حسنها وحسن نظامها؟ فسيجيبون: أن هذا كله أثر المصادفة، وأعمال الطبيعة العمياء التي ليس عندها علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف. وهذا قولهم الذي صرحوا به واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالين، فحينئذ يتضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون؛ فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة، بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية، لزالت السماوات والأرض واختبطت العوالم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطلة لقولهم أجابوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا؛ احتمالات في غاية الضعف والوهى.

فيا عجبًا لمن اغتر باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراءتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فأبطلوها وأنكروها، ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية؛ فإنها لا تغني من الحق شيئًا ولا تدل على

فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. والله تعالى جعل للعقول حدًّا لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جدًّا في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتدبيره؟! ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها ولا محدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها، سبحانك هذا بهتان وجرم عظيم: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]. فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية؟

الوجه الأربعون: أن يقال: من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدينه، فإنهم يبحثون في الموجودات بحوثًا ضافية كثيرة ويستخرجون منها فوائد كثيرة، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها، ولا يشكرون من أنعم بها، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها، حتى يظن الظانون، بل يظن كثير من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التي وقع البحث فيها هي حاصل الوجود لا وجود سواها، فيقعون في الجحود والإنكار الصريح، ويصيرون في خبط وخلط من جهة العقيدة الصحيحة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. فإهمال أصل الأصول من علمهم وذكرهم وتوجههم وتوجيههم أضل خلقًا كثيرًا، فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها، والموجودات على موجدها، والنعم على مسديها والمتفضل بها؛ لهدوا إلى صراط مستقيم، وسلموا من الخيانة وطرق الجحيم.

الوجه الحادي والأربعون: أن الله أيد رسوله محمدًا ﷺ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة، كل واحد منهما يشتمل على براهين كثيرة قطعية تدل على وحدانية الله وصدق رسوله؛ أحدهما شهادة الله له، والثانية هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فأما شهادته لرسوله ولما جاء به فبقوله الذي أنزله في كل كتاب وعلى لسان كل رسول، وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد، وإظهار دينه على الدين كله، وبما أنزله في شرعه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصلاح المطلق في جميع الأمور، فما بقي خير إلا أمر به ولا شر إلا نهى عنه وحذر، ولا طيب إلا أحله، ولا خبيث إلا حرمه، وذلك في الأصول والفروع، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التي هي أعلى الأوصاف وأكملها، فجمع الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقًا في الكمل من الخلق، وفي جميع الشرائع، وهي مشاهدة محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم لا يمتري فيها إلا جاهل أو مكابر.

وأما شهادة هذا القرآن فإن الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدى به الإنس والجن، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدحون به في هذا الدين لبلاغته العظيمة وحسن أسلوبه وإخباره بالغيوب وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الديني والدنيوي، وما حذر عنه من الشر والأضرار والعقوبات العاجلة والآجلة، وما كان فيه من الأحكام التي تصلح لكل زمان ومكان، وما شرع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم، إلى غير ذلك من آيات القرآن التي لا يمكن أن يعارضها علم صحيح ولا عمل نافع، وكل خير لا شر فيه فإنه من أحكامه ومما دل عليه، فليأت المنكر بمثال واحد صحيح خارج عن هذا الأصل.

فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق

ما جاء به الرسول، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين، لأنه إذا اتضح الحق علم يقينًا أن ما خالفه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالحمد لله على ما بينه لعباده من الآيات التي لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفة متنوعة، شاهدة بصدقه وصدق رسله، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله.

الوجه الثاني والأربعون: النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقي أحوال الحياة والتطورات المتنوعة، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة. فإنه لا بد للأفراد والجماعات من حصول نعم ومسار ومحن ومضار، فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النعم والمسار بشكر المنعم والثناء عليه بها والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية وأداء حقوق النعم من كل وجه، وعند المكاره يأمر بالصبر والرضا والاحتساب ورجاء الأجر، مع السعي في دفعها قبل نزولها، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب في كل الحالات وهذه هي الحياة الطيبة، مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل.

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هي غايتهم؛ لها يعملون ولها يطلبون، ولا غاية لهم سواها ولا إيمان لهم بغيرها، فإنهم يتلقون التطورات المختلفة كما تتلقاها البهائم بقلوب جشعة ونهم كنهم الأنعام أو أعظم؛ لا يشكرون على النعماء، بل يكفرون ويبطرون ويطغون، ولا يصبرون على المحن بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]. فآثار الإيمان الصحيح في العاجل والآجل خير وسعادة وفلاح، وآثار الجحود شر وضر وعواقب وخيمة.

الوجه الثالث والأربعون: يقول الملحدون: الترقي شامل لكل شيء. وقصدهم بذلك إبطال الأديان، وأن أفكارهم المنحرفة عن الحق ما زالت تترقى حتى في نبذهم الدين واختيارهم للجحود، وهذا تكذبه الأديان كلها، والواقع يشهد بكذبه، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقي المشاهد الآن إنما هو منحصر في الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية، وأما ترقي الأرواح والأخلاق فإنه بالعكس، فإن المادة التي يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقت ترقيًا عظيمًا وخصوصًا في هذا القرن، وأما الأديان والأخلاق فإنها في هذا الوقت هبطت هبوطًا عظيمًا. ولهذا لما كان النوع الأول خاليا من الدين والإيمان صار هذا الترقي الدنيوي الصناعي ضرره كبيرًا من وجهين:

أحدهما: أنه صار سببًا لاغترار كثير من الخلق، وظنوا بجهلهم أن الترقي الدنيوي دليل على أن أهله أولى بكل خير من غيرهم. وجهلوا بل ضلوا ضلالًا مبينًا، فإن الإنسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل.

الوجه الثاني: أن هذه المخترعات - حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته - صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتب عليها من الحروب التي لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعجز ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيبة، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر، وهذا أمر حتم لا بد منه، وجريان الأحوال يدل عليه، فالخير كله في الدين الصحيح، والشر كله في الإنكار والجحود. والله أعلم. يؤيد هذا ويوضحه توضيحًا بينًا واقعًا:

الوجه الرابع والأربعون: وهو أن الماديين - رؤساءهم وعلماءهم - لا زالوا مكرسين علومهم وجهودهم وأعمالهم في حل مشكلات الحياة وقد عجزوا عنها كل العجز، فكلما حلوا مشكلة نتج عنها مشكلات، وكلما وجهوها من جهة تبين فيها النقص والخلل والاضطراب. أما هذا الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ فإنه هو الطريق الوحيد الذي

تنحل به جميع مشكلات الحياة، واحدة بعد الأخرى، وتزول به الشرور والأضرار، وتحصل به الخيرات.

ولنذكر نموذجًا من المشكلات التي اضطرب فيها الخلق اضطرابًا عظيمًا ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيئوا إلى الدين. فمن أعظمها مشكلة العلم، فإنه إذا صح صحت العقائد والأفكار وصلحت الأعمال المبنية عليه، وقد كانت شريعة الإسلام تحض على العلم وترغب فيه، وتأمر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة في أمور دينهم وفي أمور دنياهم، ومع حضها وترغيبها في العلوم فقد تكفلت ببيانها وتفصيلاتها، فقد بين الله في كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد والأخلاق والأحكام والأصول والفروع والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات.

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلًا بعدما أصلتها تأصيلًا، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد وهدت إليها وأرشدت لها العباد، فما من علم نافع إلا بينته. وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فجمع في هاتين الآيتين بين علم المسائل الصحيحة وهي الحق النافع، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم، المبرهنة عن جميع المعارف. وأما الماديون فهم يخصون بالعلم؛ علوم الدنيا التي هي وسائل لغيرها، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التي لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرها حتى تستند وتعتمد عليها، وبهذا تخبطت علومهم وبقوا في أمر مريج متناقضين، متضاربة آراؤهم غير مستقرة أفكارهم، فلم يحلوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه، بل علومهم القاصرة أطغتهم واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين.

ومن المشكلات: مشكلة الغنى والفقر، وقد تقدم أن هذا الدين حلها حلًّا تتم به الأمور وتحصل الحياة الطيبة، وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة في أسباب الرزق، المناسبة

لكل زمان ومكان وشخص، فقد أمر بالاستعانة بالله في تحصيلها، وأن تجتنب الطرق غير المشروعة، وأن نقوم بواجبات الغنى المتنوعة، وكذلك عند حلول الفقر أمر بالصبر وتلقي ذلك بالتسليم وعدم التسخط، مع السعي في طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال، ونهى عن البطالة والكسل الذي يضر في الدين والدنيا، ومع أمره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له فقد نهى عن ظلم الخلق في دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثب على حقوقهم بغير حق، كما هو دأب الفقراء الذين لا دين لهم.

ومن ذلك مشكلات السياسات الكبار والصغار أمر بحلها، وذكر الطرق الموصلة إلى ذلك بفعل ما توضحت مصلحته وترك ما تبينت مفسدته، والمشاورة في الأمور المشكلة والمشتبهة في كل قليل وكثير، وهذه أصول لا يمكن بسطها في هذه الرسالة المختصرة، ولكن نموذج منها يكفي اللبيب.

ومن ذلك مشكلات الحقوق والمعاملات، فقد أتى الدين فيها بغاية العدل، وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها: الحقوق الراتبة والحقوق العارضة، وهي في أكمل ما يكون من الحسن، وبها يندفع الضرر والشر والخصام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وبالجملة فما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة إلَّا إذا بنيت على الشريعة الإسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها، وصلحت من جميع الوجوه، لا فرق بين مكافأة المحسنين في الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين كذلك. والله أعلم.

الوجه الخامس والأربعون: أن هؤلاء الملحدين روجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا سمعها الجاهل هالته واغتر بها وظن صدقها، وكل منصف عارف يعرف كذبها وبطلانها، فزعموها تجديدًا ورقيًّا وتقدمًا إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغتر بها الجاهلون. وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقي روحي ومادي فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد، فإن الدين كما أمر بإصلاح الدين فقد أمر

بإصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقي النافع، عاجلًا وآجلًا، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدر مفتر.

فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح كما قد فصل في موضع آخر، فمحاسن الدين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من النجوم الدراري، وأجلى نورًا من الشمس المشرقة، لا يقابلها ضدها ولا يقاومها الباطل المبهرج: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. ولولا أن الباطل قد زخرف وروج بالعبارات والدعايات المتنوعة، ونصرته الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب، ولعرف الناس أنه أعظم ظلمة من الليل وأضعف من كل ضعيف. وإذا أردت أن تعرف ذلك فقابل بين أصول الدين ومسائله وما يرغِّب فيه وما يحذر عنه، وبين ما يناقضها من أقوال أهل الإلحاد، تجد أقوالهم تضمحل وتتلاشى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة، فإن الضد يعرف بضده، فلولا الليل ما عرف النهار، ولولا الباطل لما ظهرت براهين الحق هذا الظهور في قوتها وحقيقتها ووضوحها وصدقها وحسنها، وهذا من الحكمة في مقابلة الباطل للحق، كما أن من الحكمة أن يتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من ضده والصحيح من الفاسد: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحق يشبه بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض في غاية الإحكام والإتقان: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وتجد الباطل يبطل بعضه بعضًا وأهله في غاية التناقض، بل تجد الواحد منهم متناقضًا متهافتة أقواله.

ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دل عليه من الكتاب والسنة وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة والعقول الصريحة قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. فالحق مسائله هي الصادقة النافعة، وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة.

وأما ضده فإن مسائله باطلة وضلال، وحدوده في غاية القلق والالتواء والصعوبة والهذر

الكثير الذي ليس له حاصل ولا معاني يحصلها القارئ بسهولة، وإذا وصل إليه وجده: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]. ظلمة الضلال، والجهل المركب والبسيط، وظلمة الكبر والغرور.

الوجه السادس والأربعون: أن يقال: إنه ممتنع كل الامتناع، ومستحيل أن تتهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذي يتوقف عليه صلاح البشر، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذب للأفكار وحاثٌّ على الفضائل وزاجر عن الرذائل، فروح ما دعا إليه الدين الإيمان بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله وبما له من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حسنها وسيئها التي لا تعرف إلا من جهة الرسل، فعلم بهذا أنه يتعذر الإصلاح الحقيقي بغير الإيمان الصحيح والدين الإسلامي، فعلوم المادة وإن ارتقت فوق ما يعلمه الناس أضعافًا مضاعفة فإنها لا تبلغ قريبًا من علوم الأنبياء، ولا تصل إلى ما وصلت إليه، ولا تذعن لها النفوس، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فإن النفوس لا تذعن إلا عند إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبدون ذلك يمتنع الإذعان كما هو معلوم من الطباع البشرية.

الوجه السابع والأربعون: القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلة الدالة على وحدانية الله وكماله، وصدق رسله، بأنواع إعجازه، ببلاغته وأسلوبه وتأثيره، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، واتفاقه وعدم اختلافه، وتشريعه، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر،

وأنه على اتساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئًا من أصوله، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله، وكون الذي أتى به لم يكن يقرأ كتابًا ولا يخطه بيمينه ولا تعلَّم من أحد، بل زكى به العباد، وكمل به الفضائل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وهذه المجملات تحتاج إلى تفصيل كثير، فمن نظر إلى هذا جزم جزمًا لا يمترى فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلابًا عظيمًا لم يعهد له مثيل، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح، فهو الدليل والبرهان، وهو الحجة على توالي الزمان ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فالقرآن زلزل بتأثيره عقائد الجاحدين وأقضَّ مضاجعهم، وبدل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أصلح العقائد وأنفعها، وأخلاق هي أحسن الأخلاق وأحمدها، وأعمال هي أكمل الأعمال.

الوجه الثامن والأربعون: من عرف حال النبي محمد ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العالية، وما أعطي من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق، وما أيد به من الآيات والبراهين المتنوعة من كل وجه لا تعد ولا تحصى، كل جنس من آياته، بل كل نوع، بل كل فرد منها؛ يدل أكبر دلالة على أنه رسول الله حقًّا وأن ما جاء به حق وما خالفه باطل، فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول في نفسه وفي شرعه وفيما أيد به يعرف به بطلان أقوال الملحدين، وبطلان مذهب الماديين المنكرين لله ولرسله ودينه، وأن هذا الإنكار منهم أكبر برهان على ضلالهم وجهلهم البليغ بالحق المبين، وتفصيل هذا الوجه يستدعي مجلدات، ولهذا كل نوع من آيات الرسول صنفت فيه المؤلفات على حدته فازداد به المؤمنون إيمانًا وقامت الحجة على المعاندين المنكرين، وقد قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ولكن هؤلاء الماديين

يشاهدون من آيات الله ما يضطر كل عاقل إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمسون لها التحريفات والتحليلات الباطلة ليدخلوها في علمهم القاصر وينكروا بذلك قدرة الله، خصوصًا في هذه الأوقات التي ارتقت فيها علوم المادة ارتقاء هائلًا وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته ورحمته، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. فصارت علومهم ضررًا عليهم، وخطرًا عظيمًا على جميع البشر؛ ضررًا عليهم لأنهم تكبروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزءوا بما جاءت به الرسل، وصارت خطرًا على جميع البشر بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير؛ تدمير النفوس وتدمير الأخلاق، نسأل الله العافية والسلامة بمنه وكرمه.

الوجه التاسع والأربعون: أن يقال لهؤلاء الملحدين القادحين في الدين: قد علم أولو الألباب والنهى وأهل البصائر والعقول أن دين الإسلام، الذي جاءت به الرسل ثم جاء به محمد ﷺ مكملًا متممًا معممًا هو دين الفطرة السليمة والحكمة العلمية والعملية والعقل والفكر والبرهان والحجة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح، كما وصفه الله ورسوله في آيات كثيرة وأخبار صحيحة، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس في هذا الدين، واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة يعلم به علمًا يقينيًا لا شك فيه أنه الحق، وما ناقضه فهو الباطل، فهذه الأوصاف التي وصف بها الدين وحققتها المطابقة والمشاهدة تضطر العقلاء إلى الجزم بأخباره، والتحقق بأخلاقه وآدابه، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوعة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الوجه الخمسون: أن الإصلاح العلمي الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا، بأنواعه من جميع الوجوه التي جاء بها محمد ﷺ مع تنفيذه عملًا - من أكبر الأدلة على وحدانية الله، وأنه الحق، وقوله حق، ورسله حق، ودينه هو الحق، فإن البشر - الأمم السابقين واللاحقين - لم يشهدوا لهذا الإصلاح نظيرًا ولا مقاربًا بوجه من الوجوه، والاستقراء والتتبع أكبر شاهد

لهذا الأمر. وهذا البرهان الواسع الكبير مما تضمحل معه جميع أصول الملحدين، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده وما لم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع والحمد لله رب العالمين، وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفي بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين. وإذا شككت في هذا فانظر آثارها وما ترتب عليها من الشرور التي تفاقم شرها وتعذر حسمها وعظمت فجائعها وقلت رحمتها وعدلها، وهي كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم؛ لأنها بنيت على الكفر والإلحاد، والجحد لدين رب العباد، فصارت ملازمة للشرور والفساد.

الوجه الحادي والخمسون: قال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]. فذكر وحدانيته التي هي أظهر الأشياء وأوضحها، وأن الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين:

قسم سد على نفسه باب الإيمان بالآخرة فانسدت حوله أبواب الهداية فصارت قلوبهم منكرة لأظهر الأمور وأعظمها الذي وجوده وصفاته أوصاف واجبة لازمة يستحيل ضدها، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهرًا وباطنًا فهم ملحدون متمردون، وصفهم الإنكار والاستكبار، ومن كان على هذا الوصف فإنه قد برهن على مكابرته ومباهتته ولو جاءته كل آية وبرهان لم يؤمن ولم ينقد.

وأما القسم الثاني: فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعلمون أن البشر لم يخلقوا سدى مهملين، بل خلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم، فهؤلاء قلوبهم معترفة بالله مؤمنة بوحدانيته؛ وحدانية الذات ووحدانية الصفات، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهرًا وباطنًا، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا من الفضل والكمال البشري ما شهد لهم به الواقع والتاريخ، والمحسوس من الكمال العلمي والعملي والرشاد والإرشاد، فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين في أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]. ففي هذا الجانب الرسل العظام وأصحابهم الكرام وأئمة الهدى والأحبار وطبقات العلماء وأكابر العارفين وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين، بهم قام الدين وبه قاموا، وبهم صلحت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه. وفي الجانب الأخير: كل ملحد زنديق وكل جبار عنيد الذين قال الله في وصفهم ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢] فمن لم يؤمن بالله وبآياته ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الجاثية: ٦ - ٩] جزاء لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها، وبهذا الإنكار والاستهزاء سلبوا منافع عقولهم ومرجت أخلاقهم وسفهت آراؤهم وصارت البهائم أحسن حالة منهم حتى ولو كان لهم أذهان وذكاء وعقول كما قال الله عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

الوجه الثاني والخمسون: ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا: خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فلينته وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وليقل: آمنت بالله»[1].

وهذا مصداقه ما وقع من ملاحدة الماديين الذين لا يزالون يخوضون في مادة المخلوقات ولهم نظريات متنوعة كلها خاطئة، لأن مبناها على الخرص والظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، بل على خلاف المعلوم شرعًا وعقلًا وفطرة فيتكلمون في علل الموجودات علة بعد أخرى ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها بل أطلق عليه كثير من هؤلاء المتجرئين أنه علة

(١) البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٤).

العلل، فقطع النبي ﷺ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم ونبه على جهلهم وجراءتهم، وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهي إلى موجد واحد أحد، فرد صمد، الأول الذي ليس قبله شيء، الموجد لكل شيء، وأمر بالتعوذ من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة وبالإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه ليس له مثيل ولا نديد ولا مشارك في شيء من كماله. وبما أرشد إليه ﷺ يندفع ما قاله الملحدون ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرصون الذين ينكرون ما لا يعلمون بل يجحدون ما هم به مستيقنون، وما زال الشيطان يزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال فهم في غيهم يعمهون.

الوجه الثالث والخمسون: أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شيء ويقدر على كل شيء، ووصفوه بأوصاف الرب، وهذا أمر لم يصل إليه أحد من بني آدم إلا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخجلوا من مكابرة المحسوسات ومباهتة المشاهدات، فإن كل أحد يعلم حق العلم أن الإنسان ناقص من كل وجه، وأن ما به من علم وقدرة فبتعليم الله وإقداره، وأن الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حدًّا لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه، لأنه في طور البشر. فكما أن الله هو الذي خلقه ولم يكن شيئًا مذكورًا فهو الذي أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وأسباب القدرة البشرية. وأما القدرة الربانية والعلم الإلهي فمن زعم أن أحدًا من الخلق يشارك الله في شيء منها فهو مبرسم[1] مجنون وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم، وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم، وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر، ولا لتعليمه لهم فيها أثر، فالله خلقكم وما تعملون، والله وحده الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فما حصل من قدرة البشر فبإقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه.

(١) مرض معروف وورم في الدماغ يتغير منه عقل الإنسان ويهذي.

ومع ذلك فعلومهم وقدرهم مهما بلغت وترقت فإنها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] وقال موسى للخضر حين رأى عصفورًا نقر بمنقاره من البحر: ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العصفور. وفي الصحيح مرفوعًا أن الله يقول: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**»(١) فتبًّا لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه، وما أعظم جهلهم وضلالهم وعنادهم وجراءتهم، والله تعالى للطاغين بالمرصاد.

الوجه الرابع والخمسون: أن يقال لهؤلاء الملحدين ما قاله الله لإخوانهم المكذبين، الذين هم دونهم بدرجات مبطلًا كل احتمال يوجه للقدح في الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٢٩، ٣٠] إلى آخر الآيات هل هذا الرسول محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعر أو كاهن أو متقول أو ساحر أو ما أشبه ذلك، مما تضاربت به أقوالهم؟ أو هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم، وأخشاهم لله وأجمعهم لكل فضيلة وأبعدهم من كل رذيلة كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر وهذا هو الواقع؟ أم الذي أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامهم وعقولهم؟ فبئست الأحلام والعقول التي تجحد أكبر الأشياء وأوضحها، وتكذب بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار.

فعقول وأحلام هذه آثارها مسلوبة النفع مكفول لها الشر والضرر، أم الذي حملهم على هذا التكذيب لا حد له ولا يتورع صاحبه عن محرم ولا يمتنع عن جريمة، والطغيان مرد

(١) مسلم (٢٥٧٧).

لأصحابه مهلك لهم لا محالة أم يقولون: إنه ﷺ تقول هذا القرآن الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤] وهذا التحدي قائم من حين نزله الرب العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كل منكر له مكذب له أن يأتي بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية.

أم الذي حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيء بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادفة؟ فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل، أم خلقوا السماوات والأرض وما فيها من العوالم التي لا يعلمها إلا الله؟ فإنهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيء وأعجز شيء أم عندهم خزائن رحمة ربك يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويحكمون بما شاءوا، فهم مسيطرون على الملك والمملكة؟ كل هذا يعترفون ببطلانه فهم يعترفون أنهم فقراء مماليك لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ولا دفعًا للمكاره ولا جلبًا للمصالح. أم الذي حملهم على هذا البهت والتكذيب الكيد للرسول ولدينه ونصر باطلهم حتى بالطرق التي يعرف كل عاقل بطلانها؟ وهذا هو الواقع، وأن الذي ينتصر للباطل وقد صمم على ذلك لو جاءته كل آية لم يؤمن ولم يهتد، لأنه وطن نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق، أم الذي حملهم على ذلك أن لهم إلهًا غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يعبد مع الله ويرد الحق لأجله؟ فسبحان الذي اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون، فهو الإله الحق المبين الذي له جميع أوصاف الكمال، وبيده التدبير للعالم العلوي والسفلي الذي لا يستحق العبادة إلا هو، والذي لا يأتي بالحسنات والخيرات إلا هو، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو، الذي ليس له ند ولا كفؤ بوجه من الوجوه، فذكر تعالى كل احتمال يوجهه أعداء الرسول إلى رسالته ورد ما جاء به وأن ذلك باطل قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة. وهذه الاحتمالات التي ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياء ولا خجل، تشابهت قلوبهم في الكفر فتشابهت أقوالهم، فلا دين

ولا خلق ولا عقل ولا حياء من الخلق في هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التي قالوها، فلم يبق إلا أن يعذبهم الله، قال الله تعالى في آخر هذه الاحتمالات: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٣].

الوجه الخامس والخمسون: أن يقال لهم: من الذي خلق الأرض والسماوات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بث فيهما من دابة، والذي أنزل من السماء رزقا فأنبت به من كل زوج كريم متاعًا للعباد ولأنعامهم، ومن الذي أحكمها غاية الإحكام، وأودع فيها من بدائع حكمته ولطيف صنعته وأنواع جوده وكرمه ورحمته وجعلها أدلة وبراهين على وحدانيته وقدرته وعظمته، ومن الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكمل ظاهره وباطنه بالقوى المتعددة التي يحتاج إليها، وعلمه كيف يهتدي إلى مصالح دينه ودنياه، فعلمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي حتى تم له من الخير والصلاح والهدى ما لم يتم لغيره، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض يستدل بآياتها ويستخرج منافعها ويستدر خيراتها؟ فإن قالوا: هذا عمل الطبيعة، وهذا فعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذي لم يبلغه ضلال أحد، فأي عمل للطبيعة التي توجب هذه الآثار العظيمة؟ وأي أثر جعلها تعمل هذه الأعمال؟ وأي عقل وفكر هداها إلى هذه الأمور؟

أما أهل العلم والبصائر والألباب، بل وجميع من له نوع من العقل، فسيقولون: هذا تقدير العزيز العليم، وهذا صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه، بديع السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

الوجه السادس والخمسون: قد شاهد الخلق من جزاء الله للطائعين، وهم الرسل وأتباعهم، وعقابه للعاصين المكذبين له ولرسله، آيات بينات وبراهين قاطعات، شاهدوها رأي عين، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها القرون قرنًا بعد قرن وتواترت تواترًا لم يتواتر له نظير من كل وجه، فمن الذي أرسل الطوفان العظيم الذي غشي الأرض والجبال وأهلك الله به المكذبين لنوح أجمعين، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون؟ ومن الذي أرسل على عاد الريح العقيم

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾؟ [الذاريات: ٤٢]. ونجى الله من هذا العذاب هودًا ومن معه من المؤمنين؟ ومن الذي أرسل الصيحة والرجفة على ثمود فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجى الله صالحًا ومن تبعه من المؤمنين؟ ومن الذي جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقلب على قوم لوط ديارهم، وأهلك قوم شعيب بعذاب الظلة؟ ومن الذي فلق البحر حتى صار اثني عشر طريقًا وعبره موسى وقومه ناجين، وأهلك الله فرعون ومن معه أجمعين؟ ومن أيد موسى بالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم، وفجر له الحجر اثنتي عشرة عينًا ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠]. وأعطاه من الآيات ما فيه بلاء مبين؟ ومن الذي أعطى عيسى آيات بينات مشاهدات جعله يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله؟ ومن الذي أيد محمدًا ﷺ بالآيات البينات والنصر العظيم، وشق له القمر، وسلم عليه الشجر والحجر، وكم أجاب الله دعوته في إنزال الغيث وإمساكه، وفي شفاء الأمراض المتنوعة، وأنبع الماء من بين أصابعه فروى الخلق الكثير، وبارك في الطعام الذي باشره حتى أشبع الخلق الكثير، وعصمه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب، وحفظه وحفظ ما جاء به؟ فبعض هذه الآيات توجب لكل منصف أن يعترف بوحدانية الله وكماله وصحة ما جاءت به الرسل وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان. وذلك أن الباطل يعرف تارة بتصويره وتقريره وببيان أدلته الواهية وشبهه الساقطة، وتارة يعرف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية المشاهدات والمحسوسات والمتواترات. فإذا علم الحق علم أن ما سواه باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى يصرف الملحدون، وإلى أي شيء يذهبون؟ والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المفضي إلى العذاب الأليم.

الوجه السابع والخمسون: أن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بشبه باطلة تروج على من لا بصيرة له، ويروجها المأجورون من الزنادقة المتنسبين للإسلام، يقولون: انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف، وأنهم متأخرون في أمور الحياة، والذي أخرهم دينهم. فيروجون هذا من وجوه متنوعة، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الإسلامي في نفسه وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم، وما فيه من

الهدايات إلى كل خير والذود عن كل شر وضرر. وتنظر أيضًا إلى حالة القائمين به المنفذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول، فإنك ترى فيه ما يبهج الناظرين، وتقوم به الحجة على المعاندين. وأما النظر إلى المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية، المنحرفين عنه من وجوه كثيرة، فهذا ظلم ووضع للشيء في غير موضعه، فكما لا يقدح ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادعاها من لم يتصف بها ولا يحتج بحالهم على ذم العلم، فهذا أبلغ وأولى ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عود المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكمالهم وعودهم إلى دينهم الصحيح وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]. فحال المسلمين اليوم في تفرقهم وتشتتهم وتركهم جمهور مقومات دينهم حتى انحلوا وضعفوا صار فتنة للكفار والمنافقين، وحجابًا حائلًا وشبهة لمن يريد التلبيس، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الوجه الثامن والخمسون: قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وهذا أمر مشاهد محسوس: أكثر أهل الأرض ضلال منحرفون دعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة وتخرصات ونظريات فاسدة. واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التي لا يزالون يحدثون عنها بأحاديث متناقضة، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجربات في علة العلل فيبطلونها،لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح في ذلك حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات والقادر على كل شيء، الذي جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته، ليس لها من الأمر شيء، وإنما هو حكيم في وضعها مواضعها وتنزيلها منازلها، وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل وقولهم بشمول الترقي لكل موجود عمومًا وللإنسان خصوصًا في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته، حتى أخذها المغترون عنهم قضية مسلمة، وهي لا تحتاج إلى نظر كثير، بل يعلم

بالبداهة والضرورة أن الترقي إنما هو في الأوقات القريبة في علوم الصناعات والمخترعات، وبهذا اغتروا وغروا غيرهم.

أما الترقي في الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق الفاضلة فإنها هبطت هبوطًا لا يمكن التعبير عنه، وإذا أردت أن تعرف ذلك يقينًا فخذ نموذجًا من الأمثلة وقس أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة. مثال ذلك أن أفكار الماديين حصروها في المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم، فهذه أفكارهم في أمور ضيقة أوجبت لهم جحد ما سواها وضيقت علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل. وأما الأفكار الدينية فإن أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له، علموا أن الله خلقهم لمعرفته وعبادته وحده لا شريك له، وأنهم إذا قاموا بذلك أتم الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحًا دائمًا. ومع ذلك فقد سخر لهم ما في السماوات والأرض، وأدر عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود مما خلقوا له فيصلح دينهم ودنياهم وليحيوا في هذه الدار حياة طيبة، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدينية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية؟ وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة، فالماديون قصروها على علوم المادة فتم لهم منها ما تم، والمؤمنون عرفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه، ظاهره وباطنه، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الأخر. ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة في علمهم الذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم ودنياهم، فإن دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم.

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالًا ذائبًا حتى صاروا كالبهائم بل أضل منها وأخس، مرجت أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباحت كل محرم، وانطلقوا في شهوات الغي لا يثنيهم عنها دين ولا خلق ولا حياء من الله ولا من خلقه كما هو معروف من أحوالهم، فذهب دينهم ولم تستقم دنياهم فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة،

خسروا الدنيا والآخرة، وأما المؤمنون فإن أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلًا وشرعًا وعرفًا، وهي الأخلاق التي تجعل صاحبها في المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم مشاهد.

الوجه التاسع والخمسون: أن الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكامًا جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلا بها؛ لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير، وتذودهم عن الشرور، أما باطنها فلأن المتصفين بها الملتزمين للدين على وجهه قد توجهت قلوبهم إلى القيام بالدين، واعتبروه أفرض الفروض وأوجب الواجبات، راجين بذلك فضل الله وثوابه، محتسبين خيره، ومن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يعينه على التزامه في عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء. وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم. وأما القوانين الملحدة فإن غايتها إذا قويت أن تسيطر على بعض الظواهر، وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصد أن يكون البشر كالبهائم، إباحيين فوضويين في أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم، وتفضي إلى الشرور وتنتهي إلى الحروب، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل. ومما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية التي أرشد إليها الشارع باقية ببقاء البشر، صالحة لكل زمان ومكان، بل لا تصلح الأمور إلا بها، وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التي لم تبن على الدين فإنها موقتة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارهم في الوقت الذي هم فيه، ثم تتغير وتتبدل وربما غيّرها واضعوها؛ لأنها من صنيع البشر، وصنعهم كله ناقص، والشريعة الإسلامية من صنع العزيز الحكيم العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا، وعلم مصالح العباد في كل الأوقات والأحوال فشرعها صالحة لهم موافقة لمصالحهم دافعة لمضارهم، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدين، والله أعلم.

واعلم أنه لا يوجد قانون صحيح أخذت به الأمم إلا وهو في الدين على أكمل ما يكون

وأصح ما يكون وأسلم ما يكون من النقص، فليأت المرتاب بمثال واحد خارج عن هذا الأصل إن كان صادقًا.

الوجه الستون: قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١]. فذكر - جل جلاله - أمرين عظيمين يمتنع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلا من معاند ومكابر، فلا عبرة به ولا حيلة في هدايته:

أحدهما: آيات الله التي تتلى على العباد وفيها الآيات البينات والحجج القاطعات المتنوعة من كل وجه، فمن عرف القرآن وتأمله، ورأى اتفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته وصدق ما أخبر به من الغيب والشهادة وحسن ما شرعه وحكم به عرف أنه من عند الله، وأن البشر، بل الإنس والجن والخلائق لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وكذلك من عرف الرسول محمدًا ﷺ وما هو عليه من الكمال المتنوع الكامل في روحه وخلقه، الكامل في عقله ومعرفته، والكامل في إنسانيته بجميع مظاهرها، الذي اجتمع به الكمال الإنساني من كل وجه، من عرفه على هذ الوجه عرف وتيقن أنه رسول الله حقًا ونبيه صدقًا، وامتنع مع ذلك أن ينكر رسالته، بل تحقق صدقها وبطلان ما ناقضها والله أعلم. وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. فتعجب تعالى ممن يكفر به وهو يشاهد - وكل أحد له عقل يشاهد - أنه الخالق للموجودات عمومًا وللآدمي خصوصًا الموجد له بعد العدم، المتصرف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، فكيف يستسيغ أحد بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الإلحاد والكفر والإنكار؟ ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وهو الذي يطعم ولا يطعم وهو الغني بذاته، والكون كله فقير إليه بذاته من كل وجه.

الوجه الحادي والستون: أن هؤلاء الملاحدة الماديين فسدت عقولهم، مداركها وأعمالها

وسلوكها، وذلك أن صحة العقل أن يدرك الحق، وأن يعمل به ويسلك الطريق النافع، وهؤلاء أنكروا وجحدوا الحق، فإن الله هو الحق، وقوله حق ودينه حق ووعده ووعيده حق، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التي هي أقوى البراهين وأصدقها، وشهد بذلك لنفسه وشهد به خيار الخلق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وشهد به جميع العقلاء، وعليه فطرت الخليقة. فمن أنكر هذا فهو إما معاند مكابر قد فسد سلوكه وعمله وقصده التي هي ثمرة العقل، وإما مشتبه عليه الأمر، فهذا أعظم الناس على الإطلاق جهلًا وضلالًا؛ لأنه ضل بأوضح الأشياء واشتبه عليه الليل والنهار والضياء والظلمة، وكل من فسد إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإن أقواله لاغية باتفاق العقلاء، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكل من يقبل قول هؤلاء الملحدين فهو أحد رجلين: إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علوًّا في الأرض وفسادًا، أو جامع بين الوصفين. وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. وحال القرامطة مع رؤسائهم، وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. اهـ.

الوجه الثاني والستون: أن قول هؤلاء الملحدين الماديين إذا تصور على حقيقته جزم العاقل ببطلانه وقال: كيف اشتبه هذا على أحد؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه. قال شيخ الإسلام: ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس. ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]. فهم لا يفقهون ولا يعقلون، وأنهم: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وأنهم في ريبهم يترددون ويعمهون. انتهى كلامه. فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم لها ولا قصد ولا شيء من الشعور العلمي ولا الشعور الإرادي، فلو صورت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشده مكابرة للعقول لم يهتد المصور إلى تعبير عن شيء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنوني، وهذا من جزاء من جاءه الحق فرده، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الوجه الثالث والستون: أنه قد تقرر في الفطر والعقول أن الله له الكمال المطلق والحمد المتنوع. وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وهذا متقرر مستقر في قلوب جميع أهل الأديان، وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله، وأنه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه وأفعاله، ولم ينكر هذا إلا فرقة وشرذمة من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات ; فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة، وإن اختلفت طرائقهم وتباينت دياناتهم وتنازعوا في الأصول أو في الفروع، فهذا الأصل لا ينكره منهم منكر، ولا يجحده إلا المعاندون الذين خرجوا من الشرع والعقل والفطرة، وإن كان لهم عقول وأفئدة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة؛ حيث وجهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها، ولكنهم لم تغن عنهم هذه العقول شيئًا في أنفع الأشياء، بل كانت حجة عليهم، فما علموه من علوم الكون حجة عليهم فيما أنكروه مما هو مقصود أصلي، وعلوم الكون كلها وسيلة إليه، فانقطعوا في الوسائل عن المقاصد، وبالدليل عن المدلول، وبالكون عن المكون، وبالصنعة عن صانعها، وبقوا في غيهم وضلالهم وطغيانهم يعمهون.

والله تعالى له المثل الأعلى، وهو معطي الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات، وهو أحق بالكمال من كل موجود، فالذي علم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوعة، وأقدره على كثير من مواد الطبيعة وعناصرها، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره، أفبهذه النعم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون، ويجحده الجاحدون. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

الوجه الرابع والستون: أن كل برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود؛ لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر، ولكنهم يشركون في عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره، فأبطل الله شركهم بأمور كثيرة:

منها: أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلهية والعبادة.

ومنها: أن الله تعالى، كما هو المنفرد بالنعم وجلب الخيرات ودفع السوء والسيئات، فهو الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويثنى عليه.

ومنها: أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه، فهم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فيجب أن ينزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتي بالإيجاد والإمداد إلا هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته.

ومنها: أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحاب، ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة، فإذا بطل الشرك بالله وتقرر وجوب الإخلاص لله ثبتت وحدانية الله وتفرده بكل كمال، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين.

الوجه الخامس والستون: أن البراهين الدالة على رسالة محمد ﷺ ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عمومًا ومحمد خصوصًا - لا تعد ولا تحصى، متنوعة من كل وجه، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافي للرسالة وللعقول والفطر. والله أعلم.

الوجه السادس والستون: البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين، وقد استدل تعالى على البعث بقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فإنه سيعيدهم للجزاء، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، واستدل بكمال قدرته، واستدل بحكمته، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سدى، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وبغير ذلك من البراهين، وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكل واحد من هذه الأصول

لو بسطت براهينه لبلغت شيئًا كثيرًا، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وهي تهدم أساس التعطيل والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وعبادته وحده لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله.

الوجه السابع والستون: قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. هذه الآية دلت على كمال علم الرسول محمد ﷺ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه للهدى والصلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحد من البشر - الأولين والآخرين - وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة في شخص واحد، وحصول التعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضلال المبين، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع؟ ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده - أو وجود ما يقاربه - في شخص واحد نفذ ﷺ في الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال، إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وآيات لأولي الألباب، حيث بعث هذا النبي الأمي الذي لا يقرأ كتابًا ولا يخط بيمينه ولا جالس أحدًا من العلماء السابقين فتعلم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين، فزالت به الجهالات والضلالات، وتقشعت عن القلوب به الظلمات، وحصل كمال الرشد والهدى، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى، شهد بهذا الأولياء والأعداء، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحد أو يدانيه وكل خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها، وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدح في هذا إلا كل مباهت مكابر. ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

الوجه الثامن والستون: لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيقي والدين

الإسلامي أقوى حصن وأعظم سلاح لمقاومتهم، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان، وحملوا حملات متنوعة، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيرًا، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الإسلام وعقائده وأخلاقه، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة، وساعدوها بالقوة، ودرسوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلوا أهلها، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسلام وما يدعو إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام، وقالوا: إنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء عن التقدم المطلوب، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد في الدين من كل وجه. ولكن – ولله الحمد – قد علم أهل البصائر مقاصدهم وعرفوا الخونة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدو للإسلام في صورة صديق، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون يقولون ما يعلمون خلافه، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياة طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر، وأن آثاره الشر الكبير والإباحية والفوضوية وتقويض دعائم العمران والسير إلى الهلاك والشقاء. فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية وذم كل قديم ويأمر بنبذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين: إما ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل ونبذ ما جاءوا به، وإما مغرور مخدوع مقلد لهم، قد غرته هذه المدنية الزائفة وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شيء، وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد الصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟ وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملًا على كل خير، هاديًا إلى كل رشد وصلاح، حاثًا على كل فلاح؟

الوجه التاسع والستون: من محاسن الإسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقًا فقط، وإنما هو - مع ذلك - موجه وحاكم وصاحب دولة وجهاد، فالدين الإسلامي - بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة، كما هو مشروح مفصل - من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يبق خيرًا إلا دل عليه وحث عليه، ولا شرًّا إلا حذر منه، ولا حقًّا إلا أقامه، ولا عدلًا إلا جعل له مسالك وطرقًا يقوم عليها. فهو دين ودولة، وجامع بين مصالح الدين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزة والقوة والمقاومة لكل معاند محاد معاد للدين وأهله، عكس ما نبذه الملحدون أنه دين بلا دولة وآخرة لا دنيا معها، فإنهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله وكانوا أجراء وسماسرة للأعداء، والله أعلم.

الوجه السبعون: أن من أكبر أسباب الإلحاد الإعراض عن علوم الدين، وإلا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع معه الإلحاد جهلًا وضلالًا، فإن الدين - بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين - يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله وصدق رسله وبطلان ما ناقض ذلك، فلا تجد ملحدًا إلا معرضًا من أعظم الجاهلين أو معاندًا عارفًا من أكبر المباهتين المكابرين.

ومن المصائب الكبيرة أن كثيرًا من العصريين ليس عنده بصيرة ولا معرفة بالدين لا قليلة ولا كثيرة، وإنما عنده إقبال على الصحف المشتملة على الخير والشر، وكثير منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرق متنوعة، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين، وتملأ أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة، وليس عندهم من العلم والدين ما يصدهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادي، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة، وليس لهؤلاء دواء إلا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه، فنسأل

الله السلامة والعافية، ولا يعرف الدين بتتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرف عنه، فإن هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر، وقد صار هذا المسلك طريقًا لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين، فقد حملوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين وأمراء مستبدين وأدعياء منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حجاب للمغترين وأعظم حجة للمعاندين العارفين.

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلي، وهو كتاب الله وسنة رسول الله القولية والفعلية وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد، فإن هذا هو الدين، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الإنصاف. أما من يريد الاعتساف، وقصده معروف، فإنه يزور على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التمويهات، وينسب إلى الدين ما هو منه بريء، وإذا كانت فنون العلم - كالطب والحساب والهندسة وما أشبهها - لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهل بها، فكيف بهذا الدين الذي تفرعت عنه جميع العلوم النافعة والمعارف الراقية والأخلاق العالية وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسي، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد والجماعات والحكام والمحكوم عليهم والظاهر والباطن والدنيا والآخرة؟ فتبًّا لمن قدح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد الناس عنه، سبحانه هذا بهتان عظيم.

الوجه الحادي والسبعون: أن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم وعرض العلوم والحقائق عليها، فما وافقها قبلوه وما ناقضها نفوه وأنكروه، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم، وعقولهم قد عرف فسادها وتناقضها وتهافتها، فهذا الأصل الذي بنوا عليه كل شيء أصل منهار متهافت في غاية الفساد والاضطراب، وقد فتحوا به للناس المغترين بهم باب الفوضى في الآراء والنظريات حتى صار كل طائفة، بل كل شخص منهم، يدعي أن الصواب معه والخطأ مع غيره، ولهذا تجرأ كل جاهل على القدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب السماوية، حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية

المحضة، واستجاب لدعوتهم رعاع الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق، وخيف أن يقع - ولابد من وقوعه - ما أخبر به النبي ﷺ حيث ثبت عنه أنه قال: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله. ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»**[1] وصرنا في وقت القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والميل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والإقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة، ويحرفون لذلك نصوص الكتاب والسنة، فانحرفوا بهذا انحرافًا عظيمًا وضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سبيل الله، ولو أنهم دعوا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين وما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل والتوسل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين والقيام بعبودية الله التي خلق الله لها الخلق وأن يجعلوا ما متعوا به من النعم معونة لهم على ما خلقوا له، لكان خيرًا لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل، ولنالوا السعادتين، ولسلموا من الفساد وانهيار العقائد والأخلاق، ولكنهم متعوا ونعموا وبطروا ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٥ - ٤٧]. ولهذا نسأل الله العافية، تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهكمون بالجزاء الدنيوي والأخروي ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم في الحقيقة أعلى الناس علوما وأخلاقا وأعمالا ومقامات، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما متع به هؤلاء الملحدون من أموال وأولاد، ويتلون عند ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

---

(١) مسلم (١٤٨).

الوجه الثاني والسبعون: إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود في قدحهم في القديم أو العتيق، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها، فاعرض نموذجًا من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه تعرف بها أن المنكرين لها في فساد من عقولهم، وانعكاس من آرائهم، وسفاهة من علومهم وخسة من أخلاقهم، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعًا وعقلًا وفطرة. ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء، فالدين الإسلامي - الذي هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل - يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر، والاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وتفرده بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهرًا وباطنا، والتوجه إليه وحده، وخوفه ورجائه وحده، والإنابة إليه في جميع النوائب والملمات، والشكوى إليه في كل المهمات، والقيام بحمده وشكره، واللهج بذكره ودعائه، والتعلق به وحده في كل شيء، وترك التعلق بالمخلوقين، فهل هذا خير أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه وكفر نعمه والطغيان والاستكبار عن عبادته وتعلق القلوب بالمخلوقين رغبة ورهبة ورجاء كما هو حال الملحدين؟

والدين الإسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وإلى البر والنصح للخلق كلهم. والقيام بحق الوالدين والأقارب ومن للإنسان بهم تعلق وصلة، ومن لهم حق عليه، ويأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كلها، والقيام بالحقوق كلها، وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والوفاء بالعهود والعقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها ليوفيها حقها ويبتعد عن شرورها ومفاسدها خوفًا من الله ورجاء لثوابه.

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله، وإنما

هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل، فحيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم واغتنام الخيانات وتضييع الأمانات اندفعوا إليها، ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة، إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعًا يجدي.

وبالجملة، الدين الإسلامي يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وهدى مستقيم وطريق قويم وصلاح متنوع، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تعس وانتكس من عبر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية، والرجوع إلى القديم، والعبارات الوسخة التي هي أكبر معبر عن سخافة عقول معبريها وسقوطهم في كل رذيلة وخلوهم من كل فضيلة ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

الوجه الثالث والسبعون: ذكرنا فيما سبق أن أعظم ما يبطل الإلحاد معرفة دين الإسلام والعمل به، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحل معه كل باطل من كل وجه، خصوصًا أقبح الباطل وأشنعه وأشده منافاة للعقل والدين وهو الإلحاد، وقد عرف أهله هذا منه وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحية الدين عن المتعلمين، وأبعدوه عن المدارس، فإن لم يتمكنوا جعلوا التعليم في الدين ضعيفًا أو اسمًا بلا مسمى، فهم عند التمكن ينحون الدين جملة ويدخلون في تعليم المدارس أصول الإلحاد فيخرج المتعلمون ملحدين صرفًا، فإن لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا في إضعاف علوم الدين، واقتصروا على العلوم العصرية ليذهب من قلوب الناشئة حب الدين ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده، فإن البصيرة في الدين إذا ضعفت، والقلوب إلى غيره توجهت، انهارت الأديان

والأخلاق كما هو مشاهد معلوم في كل المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا. فيتعين على المسلمين وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء بعلوم الدين وأخلاقه، فإن هذا من أفرض الفروض، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر، فإن الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكنوا من علوم الدين وصار عندهم بصيرة صحيحة فيه فإنهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم، وإلا فليعلموا أنهم رعاة، وكل راع مسئول عن رعيته، فهم مسئولون عن الناشئة المتعلمين في المدارس فإذا لم يثقفوهم ثقافة دينية صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمتهم، فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضار بأعداء الإسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم؟ فإنه ما شاع الإلحاد في البلاد الإسلامية إلا بهذه الطريقة، فكيف إذا نصرتها قوة الولاة وصاروا هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات وطردوا عنها الدين أو أضعفوه؟ فنرجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم لهذا الأمر العظيم الذي خطره كبير وشره مستطير، وإلا فلا يلومن إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا، والله المستعان.

الوجه الرابع والسبعون: قال شيخ الإسلام رحمه الله: الرب تعالى أعرف من أن ينكر، وأعظم من أن يجحد، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟. وهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، فإن افتقار كل ما سوى الله هو حكم وصفة ثبتت لما سواه، فكل ما سواه - سواء سمي محدثًا أو ممكنًا أو مخلوقًا أو غير ذلك - هو مفتقر محتاج إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته ففقر الممكنات من لوازم ذاتها، وهي لا حقيقة لها إلا إذا كانت موجودة، فإن المعدوم ليس بشيء، فكل ما هو موجود سوى الله فإنه مفتقر إليه دائمًا حال حدوثه وحال بقائه وهذا يوجب افتقاره إليه دائمًا. انتهى.

فعلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغني القائم بنفسه القائم بكل موجود، أو إنكار وحدانيته أو حق من حقوقه من أسخف الجنايات وأطمها، وأن هذا

المخلوق الفقير من وجه قد تعدى حده وطوره، قال الشيخ: وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتبعهم - وهم أمم لا يحصي عددهم إلا الله - قد أخبروا بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال وهم مستيقنون ذلك لا يرتابون فيه، وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أي تواتر قدر، قد اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك، علم أنه هو الحق الذي لا ريب فيه وما سواه باطل. انتهى.

الوجه الخامس والسبعون: قال شيخ الإسلام في رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين في قولهم: إن العقل يجب تقديمه على السمع، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة. انتهى.

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطرارًا لا محيد لهم عنه أن محمدًا رسول الله حقًا، فلو قدمنا شيئًا مما قيل إنه معقول على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقول فاسد، لئلا يلزم تناقض قضايا العقل، فأعظم القضايا التي حكم بها العقل قضية صدق الرسول ﷺ، فمتى أنكر هؤلاء الملاحدة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل، كما أنهم معاندون للشرع، وإذا تقرر أن العقل دل دلالة عامة مطلقة على صدق الرسول في كل خبر وحكم كان إيراد المورد على بعض جزئيات الشريعة معلوم الفساد، وكان علمنا العام بصدق الرسول في كل شيء يقضي على جميع الجزئيات، ونهاية الأمر أن يكون الذي وقع فيه الإشكال من المشتبهات، والمشتبهات يتعين ردها إلى المحكمات، وهو الأصل العظيم المحكم الذي تواردت عليه جميع البراهين اليقينية، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به. والله أعلم.

قال الشيخ: وإذا كان الأمر كذلك فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينازعه في خبره، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع

إلى من هو أعلم به منه، وألا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وبين أهل العلم بالطب، فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من مقدرات الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص - مع ما في ذلك من الكلفة والألم - لظنه أن هذا أعلم بهذا مني وأني إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لي، مع علمه بأن الطبيب يخطئ كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب، بل يكون استعماله لما يصفه سببًا في هلاكه، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، والرسل صادقون مصدقون، لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لم يخطئ قط بما لم يصب في معارضة له قط؟ انتهى.

وقال أيضًا: والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولًا صريحًا يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورًا لا ارتياب فيه، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه، والناس إذا تنازعوا في العقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى، بل يرجع في ذلك إلى الفطر السليمة التي لم تتغير باعتقاد بغير فطرتها ولا هوى، وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو

جهل بسيط أو جهل مركب؛ فالأول: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]. والثاني: ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ [النور: ٤٠]. وأصحاب القرآن والإيمان في نور على نور؛ وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله من الخبر والطلب، لا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم، فوجب أن كل ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون في ذلك شيء مناقض لدليل عقلي ولا سمعي، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشيء من ذلك جزم جزمًا قاطعًا أنه حق، وأنه لا يجوز أن يكون في الباطن بخلاف ما أخبر به، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي ولا عقلي ولا سمعي، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فإنما هو حجج داحضة، وشبه من جنس شبه السوفسطائية، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح، كان هذا العقل شاهدًا بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل، فيكون هذا العقل والسمع جميعًا شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع. انتهى.

وقال رحمه الله حين تكلم عن الفلاسفة: ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين، فيكفي في ذلك إخبار الرسل عن خلق السماوات والأرض وحدوث هذا العالم، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به، وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها، وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفوس ويشقيها منهم، وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدًا في الآخرة ومن كذبهم كان شقيًّا في الآخرة، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقيًّا، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدًا في الآخرة وإن لم يعلم شيئًا من ذلك. ولكن سلفهم أكثروا الكلام في ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل ما يهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع في الآخرة، وكان الشرك مستحوذًا عليهم، وكان منتهى عقلهم أمورًا عقلية كلية، كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علة ومعلول وجوهر وعرض، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض، وهذا هو

عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، ليس فيها علم بموجود معين لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك، وليس فيها محبة لله ولا عبادة له، فليس فيها علم نافع ولا عمل صالح ولا ينجي النفوس من عذاب الله فضلًا عن أن يوجب لها السعادة.

الوجه السادس والسبعون: قال شيخ الإسلام: من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيمانًا مطلقًا جازمًا عامًّا بتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل ما أمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به، فهو متناقض فاسد العقل ملحد في الشرع. وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]. والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذي قد يكون ناسخًا له أو مفسرًا له كان قد جادل في آيات الله بغير سلطان أتاه. انتهى.

الوجه السابع والسبعون: جميع الأمم - أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين - متفقون على إثبات ربوبية الله، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الخالق لكل شيء، الرازق المدبر لكل شيء، وأئمتهم في هذا الأنبياء والمرسلون وأهل الهدى من العلماء الربانيين، أهل العلوم الغزيرة والعقول الوافية والمعارف الصافية، الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم، متفقون على علم وبصيرة ويقين، قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار في قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها.

وخالفهم من هذا شرذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وسلك سبيلهم زنادقة الماديين، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلهم عليه ولا سمع ولا عقل ولا فطرة، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات، ومع ذلك فأقوالهم فيما يثبتون من النظريات والقول في العلل غير متفقة، كل فريق بنظرياتهم الخاطئة فرحون، ولإخوانهم من الزنادقة معارضون، فدعهم في طغيانهم يعمهون، وفي اضطرابهم وتخالفهم يترددون، وفي غيهم وجهلهم وسفاهة عقولهم وما انتهت إليه معارفهم في هذا الأمر من المضحكات يمرحون، واحمد الله الذي عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامة الكبرى، وقل معترفًا بنعمة الله متبجحًا بفضل الله: آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

الوجه الثامن والسبعون: أن الله ضرب الأمثال في كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعاد وإبطال قول من ينفيها أو يقدح في شيء منها، والأمثال أقيسة عقلية تنبه العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]. إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبطلة لأقوال المبطلين والمعطلين، وكذلك ما ضربه الرسول محمد ﷺ من الأمثلة المقررة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والكتاب والسنة يدل بالأخبار تارة ويدل بالبينة تارة

والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة، وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية قد جاء به الكتاب والسنة مع زيادات وتكميلات لم يهتد إليها إلا من هداه الله بخطابه. فكل ما قد جاء به الرسول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين. انتهى.

وقال أيضًا: معلوم بالسمع اتصاف الله بالأفعال الاختيارية القائمة به: كالاستواء إلى السماء وعلى العرش والقبض والطي والإتيان والمجيء والنزول، ونحو ذلك، بل والخلق والإحياء والإماتة، فإن الله وصف نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدية والفعل المتعدي مستلزم للفعل اللازم، فإن الفعل لا بد له من فاعل، سواء كان متعديًا إلى مفعول أو لم يكن. والفاعل لا بد له من فعل سواء كان فعله مقتصرًا عليه أو متعديًا إلى غيره، والفعل المتعدي إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله إذ كان لا بد من الفاعل، وهذا معلوم سمعًا وعقلًا، والله تعالى حي قيوم لم يزل موصوفًا بأنه يتكلم بما شاء فعال لما يشاء. انتهى.

الوجه التاسع والسبعون: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. فأخبر أنه يقول الحق وهو الصدق فيما أخبر به، والعدل فيما حكم به، وأنه يهدي السبيل فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق، ويري العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، وما أخبر به من الحق، ودل عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة مما يقرر به جميع الأصول التي هدى بها عباده على ألسنة رسله، وما أجاب به كل مبطل أورد الشبه على الحق - الجواب القاطع لشبهته المبطل لحجته، فهو ظاهر واضح للعباد، وهو من الحقائق التي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علم صحيح ينافيها. بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أما على وجه الإجمال فالله يقول الحق: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] فكل ما ناقض ذلك فهو باطل فماذا بعد الحق إلا الضلال.

وأما على وجه التفصيل فما يأتي المبطلون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطله الله وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يبطله. وقد تتبع العلماء الأعلام جميع ما أورده المبطلون مسألة مسألة فوضحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعية السمعية ومن جهة الدلالة العقلية، وتحدوا أهل الباطل تحديًا صحيحًا أنهم لا يأتون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية. والله أعلم.

الوجه الثمانون: قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وهذا برهان عقلي قاطع صوره الله لعقول العقلاء، وأنه يدل على ربوبية الله ووحدانيته وتوحده وتفرده بالتدبير، فإنه لو فرض معه إله آخر فإما أن يعارضه ويقاومه، وحينئذ فلا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب، أو يمتنع مراد كل منهما وهو محال؛ لأنه يدل على عجز كل منهما، أو يوجد مراد الجميع وهذا محال؛ لأنه يقتضي عجز كل واحد منهما مع الانفراد لا مع الاجتماع؛ فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار، فإذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع الله يقتضي في العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هي التي أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها، وهي مع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة، هل فوق هذا المحال محال؟ وهل يتصور أبلغ من هذا الضلال؟

الوجه الحادي والثمانون: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]. فهاتان الآيتان العظيمتان، اللتان تجمعان آيات كثيرة وبراهين قاطعة، توصل إلى كمال العلم واليقين، وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وتبطل كل شرك وإلحاد وجحود آياته المشهودة وآياته المسموعة، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير

الحكيمة، وتفكر في آيات الله القرآنية التي فصلها الله أحسن تفصيل، وأحكم فيها الأحكام وأصل الأصول المحكمة، وجعلها هداية عامة ورحمة شاملة، ودعوة إلى كل خير وصلاح، وسببًا إلى كل رشد وهدى وفلاح - علم علمًا لا يمترى فيه أن الذي دبر المخلوقات وفصل الآيات هو الرب العظيم، الذي تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته، وأنه المتوحد بالربوبية والإلهية وسائر صفات الكمال، وأن رسله صادقون مصدقون، وأن أعداء الرسل في مكابرة ومباهتات وعناد، وفي غي وجهل وضلال.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. على أحسن خلق خلق وأبدعه وأجمعه لجميع المحاسن وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته؟ فتبارك الله رب العالمين، وقد ألزم الله المكذبين وقررهم باعترافهم واعتراف الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ إلى قوله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٥]. كما أخبر أن في إنزال القرآن يتلى عليهم كفاية تامة عن جميع البراهين، كفاية لتقدير الحق وإبطال كل باطل قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

الوجه الثاني والثمانون: نذكر كلامًا جامعًا مفصلًا يعترف به كل من له معقول صحيح في القول في المعقولات، قاله شيخ الإسلام، به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوى باطلة.

قال رحمه الله: المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فطروا عليها، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين، أعني اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين، فإن لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العلميات هي التي ذم الله من خالفها بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ

أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وأما ما يسميه بعض الناس «معقولات» ويخالفه فيه كثير من العقلاء فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها رد الحس والسمع وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية، بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلوم بفطرة الله، فإذا جاء في الحس أو في الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك علم أنه غلط، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط، وإن كان صادقًا فيما يشهده في الحس الباطن أو الظاهر، لكن الغلط وقع في ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا في مجرد الحس، فإن الحس ليس فيه علم بنفي أو إثبات، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون، لا يقولون على الله إلا الحق. ولا ينقلون عنه إلا الصدق، فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذبًا، بل لا بد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول غير صحيح، فما علم يقينًا أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون في العقل ما يناقضه، وما علم يقينًا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون في أخبارهم ما يناقضه. انتهى.

وهذا تفصيل عظيم يعترف به جميع أذكياء العقول المنصفين، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كل ملحد ومارق يزعم خلاف ذلك في جميع المسائل، وقد تكفل بهذا التحدي على وجه التفصيل هذا الشيخ الإمام في كتابه العقل والنقل وأبطل كل مسألة أصولية أو فروعية زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقل، وبين أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح في جميع المسائل والدلائل، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن، فإنه تمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا، ومن أصدق من الله قيلًا، وأحسن منه حديثًا؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون، الذي أحسن كل شيء خلقه، صنع الله الذي أتقن كل شيء.

الوجه الثالث والثمانون: قد تقرر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط أو جحود مع العناد، لأن رؤساءهم وأساطينهم، أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث، لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم،

بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب، كما عرف ذلك من مقالاتهم. فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم في الذكاء والفطنة والبحث؟ فهم كما قال عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ [النور: ٣٩]. إلى آخر الآيات. والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نور من ربهم ويقين من إيمانهم، حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة، وهي نصوص الكتب المنزلة من السماء ونصوص الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر المستقيمة، ففازوا بخير الدنيا والآخرة، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة؛ فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علمًا ويقينًا وإيمانًا وطمأنينة به وبذكره، وسلوكًا للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به، الموصل إلى كل خير وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين، وأن يصلي على رسوله محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكاها وأتمها، ويسلم عليه تسليمًا كثيرًا هو وجميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتحصل البركات.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢هـ.

وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن في ٦ رمضان سنة ١٣٧٢هـ بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان غفر الله له ولوالديه.







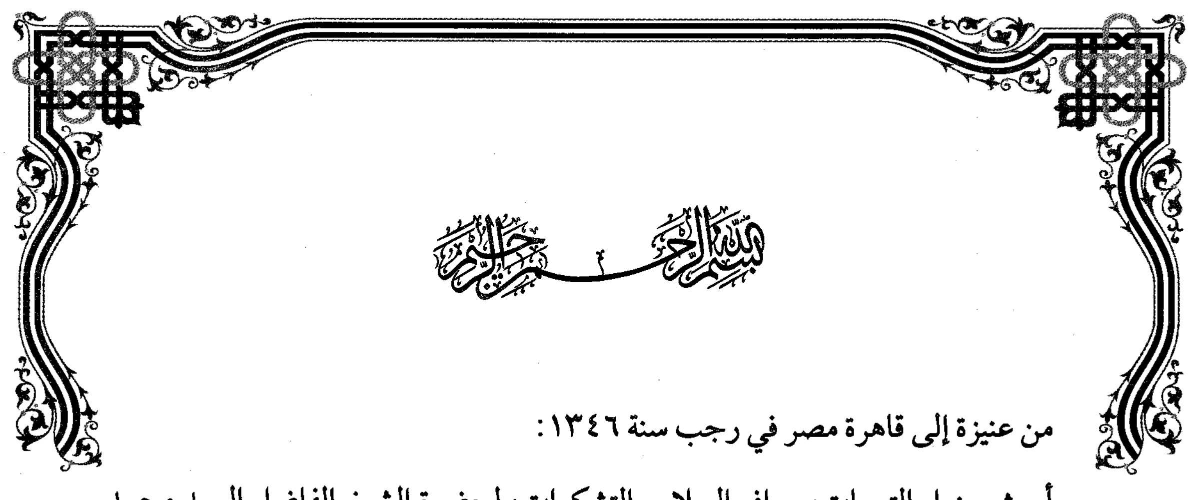
الرد على الزنادقة

والقائلين بوحدة الوجود

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

مقال في مجلة المنار المصرية





من عنيزة إلى قاهرة مصر في رجب سنة ١٣٤٦:

أبعث جزيل التحيات، ووافر السلام والتشكرات، لحضرة الشيخ الفاضل السيد محمد رشيد رضا المحترم، حرسه الله تعالى من جميع الشرور، ووفقه وسدده في كل أحواله آمين. أما بعد؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فالداعي لذلك ما اقتضاه الحب ودفعه الود المبني على ما لكم من المآثر الطيبة التي تستحقون بها الشكر من جميع المسلمين التي من أعظمها تصديكم في مناركم الأغر لنصر الإسلام والمسلمين، ودفع باطل الجاهلين والمعاندين، رفع الله قدركم وأعلى مقامكم، وزادكم من العلم والإيمان ما تستوجبون خير الدنيا والآخرة، وأنعم عليكم بنعمه الظاهرة والباطنة، ثم إننا نقترح على جنابكم أن تجعلوا في مناركم المنير بحثًا واسعًا لأمر نراه أهم البحوث التي عليها تعولون، وأنفعها لشدة الحاجة، بل دعاء الضرورة إليه ألا وهو ما وقع فيه كثير من فضلاء المصريين وراج عليهم من أصول الملاحدة والزنادقة من أهل وحدة الوجود والفلاسفة بسبب روجان كثير من الكتب المتضمنة لهذه الأمور ممن يحسنون بهم الظن ككتب ابن سينا وابن رشد وابن عربي ورسائل إخوان الصفا بل وبعض الكتب التي تنسب للغزالي وما أشبهها من الكتب المشتملة على الكفر برب العالمين، والكفر برسله وكتبه واليوم الآخر، وإنكار ما علم بالضرورة من دين الإسلام، فبعض هذه الأصول انتشرت في كثير من الصحف المصرية، بل رأيت تفسيرًا طبع أخيرًا منسوبًا للطنطاوي قد ذكر في مواضع كثيرة من تفسير سورة البقرة شيئًا من ذلك، ككلامه على استخلاف آدم وعلى قصة البقرة والطيور ونحوها بكلام ذكر فيه من أصول وحدة الوجود وأصول الفلسفة المبنية على أن الشرائع إنما هي تخييلات

وضرب أمثال لا حقيقة لها، وأنه يمكن لآحاد الخلق ما يحصل للأنبياء ما يجزم المؤمن البصير أنه مناقض لدين الإسلام وتكذيب لله ورسوله وذهاب إلى معانٍ يعلم بالضرورة أن الله ما أرادها وأن الله بريء منها ورسوله، ثم مع ذلك يحث الناس والمسلمين على تعلمها وفهمها، ويلومهم على إهمالها وينسب ما حصل للمسلمين من الوهن والضعف بسبب إهمال علمها وعملها.

ويح من قال ذلك لقد علم كل من عرف الحقائق أن هذه العلوم هي التي أوهنت قوى المسلمين وسلطت عليهم الأعداء وأضعفتهم لزنادقة الفرنج وملاحدة الفلاسفة، وكذلك يبحث كثير منهم في الملائكة والجن والشياطين ويتأولون ما في الكتاب والسنة من ذلك بتأويلات تشبه تأويلات القرامطة الذين يتأولون العقائد والشرائع فيزعمون أن الملائكة هي القوى الخيرية التي في الإنسان، فعبر عنها الشرع بالملائكة كما أن الشياطين هي القوى الشريرة التي في الإنسان فعبر عنها الشرع بذلك، ولا يخفى أن هذا تكذيب لله ولرسله أجمعين، ويتأولون قصة آدم وإبراهيم بتأويل حاصله أن ما ذكر الله في كتابه عن آدم وإبراهيم ونحوهما لا حقيقة له وإنما قصد به ضرب الأمثال، وقد ذكر لي بعض أصحابي أن مناركم فيه شيء من ذلك وإلى الآن ما تيسر لي مطالعته، ولكن الظن بكم أنكم ما تبحثون عن مثل هذه الأمور إلا على وجه الرد لها والإبطال كما هي عادتكم في رد ما هو دونها بكثير. وهذه الأمور يكفي في ردها في حق المسلم المصدق للقرآن والرسول مجرد تصورها، فإنه إذا تصورها كما هي يجزم ببطلانها ومناقضتها للشرع وأنه لا يجتمع التصديق بالقرآن وتصديقها أبدًا وإن كان غير مصدق للقرآن ولا للرسول صار الكلام معه كالكلام مع سائر الكفار في أصل الرسالة وحقية القرآن.

وقد ثبت عندنا أن زنادقة الفلاسفة والملحدين يتأولون جميع الدين الإسلامي التوحيد والرسالة والمعاد والأمر والنهي بتأويل يرجع إلى أن القرآن والسنة كلها تخييلات وتمويهات لا حقيقة لها بالكلية ويلبسون على الناس بذلك ويتسترون بالإسلام وهم أبعد الناس عنه كما ثبت أيضًا عندنا أنه يوجد ممن كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ويعظم الرسول

وينقاد لشرعه وينكر على هؤلاء الفلاسفة ويكفرهم في أقوالهم أنه يدخل عليه شيء من هذه التأويلات من غير قصد ولا شعور لعدم علمه بما تئول إليه ولرسوخ كثير من أصول الفلسفة في قلبه ولتقليد من يعظمه، وخضوعًا أيضًا ومراعاة لزنادقة علماء الفرنج الذين يتهكمون بمن لم يوافقهم على كثير من أصولهم ويخافون من نسبتهم للبلادة وإنكار ما علم محسوسًا بزعم، فبسبب هذه الأشياء وغيرها دخل عليهم ما دخل، فالأمل قد تعلق بأمثالكم لتحقيق هذه الأمور وإبطالها؛ فإنها فشت وانتشرت وعمت المصيبة بها الفضلاء فضلًا عمن دونهم ولكن لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة يهتدي به الضالون، وتقوم به الحجة على المعاندين، وقد ذكرت لحضرتكم هذه الأشياء على وجه التنبيه والإشارة لأن مثلكم يتنبه بأدنى تنبيه ولعلكم تجعلونه أهم المهمات عندكم؛ لأن فيه الخطر العظيم على المسلمين وإذا لم ير الناس لكم فيه كلامًا كثيرًا وتحقيقًا تامًّا فمن الذي يعلق به الأمل من علماء الأمصار، والرجاء بالله أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه ويجعلنا وإياكم من الهادين المهتدين إنه جواد كريم وصلى الله على محمد وسلم.

محبكم الداعي

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رد المنار

إنا لا نألو جهدًا في الرد على كل ما نطلع عليه من البدع المخالفة لكتاب الله والصحيح من سنة رسوله ﷺ، وفي الدعوة إليهما على الوجه الذي كان عليه جمهور السلف الصالح وفي الرد على خصومهما كما يرى في مقالة (أعداء الإسلام) من هذا الجزء. والذي نعلمه أن بدعة وحدة الوجود وفلسفة اليونان في الإلهيات والرسالة التي فتن الناس بها الباطنية وغيرهم في عصرهم قد نسخت وزالت في هذا العصر فلم يبق لها دعاة، وإن كان لها أتباع قليلون. وتفسير الشيخ طنطاوي جوهري لم نطلع عليه وإنما رأينا جزءًا واحدًا منه عند أحد أصدقائنا فتصفحت قليلًا منه في بضع دقائق فرأيت أن همه منه حث المسلمين على علوم الكون، وشرح الكثير من مسائلها بمناسبة الآيات التي ترشد الناس إلى آياته تعالى في خلقه ونعمه على عباده كما جرى عليه في كتب أخرى له، وما نعرفه إلا مسلمًا يغار على الإسلام ويحب أن يجمع المسلمون بين الاهتداء به والانتفاع بعلوم الكون التي تتوقف عليها قوة الدول وثروة الأمم في هذا العصر، ونحن قد سبقناه بالدعوة إلى هذا وبيناه بالدلائل في مواضع كثيرة من تفسيرنا ومن المنار، وإن كنا أشرنا إلى الانتقاد على خطة الأستاذ المذكورة في تفسيره فيما بيناه من أساليب المفسرين في فاتحة الجزء الأول من تفسيرنا. ولعلنا نتحرى عند سنوح الفرصة الاطلاع على تفسيره ومراجعة ما كتبه في الآيات التي ذكرتموها ويجب عليكم أن تفرقوا بين علوم الكون التي ندعو إليها وبين الفلسفة قديمها وحديثها، فالفلسفة آراء ونظريات فكرية. وعلوم الكون عبارة عن العلم بما أودع الله تعالى في خلقه من المنافع؛ كمنافع الماء وبخاره والهواء وما تركبا منه، ومنافع الكهرباء التي منها التلغراف والتليفون وغيرهما، فجميع الصناعات العجيبة والآلات الحربية من برية وبحرية وهوائية، وجميع العقاقير الطبية مأخوذة من هذه العلوم، فهي حقائق قطعية ثابتة بالحس، فمن يزعم أنها

تخالف ما بعث به الله رسله فقد طعن في دين الله وصدَّ العلماء بها عنه لأنهم لا يستطيعون أن يكذبوا حواسهم.

وأما كفر من يكفرون في هذا العصر فأكثره من تأثير فلسفة الإفرنج المخالفة لفلسفة اليونانيين ومن جرى على طريقتهم كالعرب، وإن خالفهم في بعض النظريات كابن سينا وابن رشد وغيرهما، والرد على هؤلاء بما يرجى أن ينفعهم أو يقي كثيرًا من الناظرين في فلسفة العصر من إضلالهم يتوقف أحيانًا على تأويل بعض الآيات والأحاديث تأويلًا ينطبق على مداولات اللغة في مفرداتها وأساليبها، ويتفق مع العلم والعقل وليعلم أخونا صاحب هذه الرسالة أن الملاحدة والمعطلين في مصر وأمثالها قد يصرحون بكفرهم ولا يخشون عقابًا ولا إهانة فهم لا يحتاجون إلى التستر بالإسلام كزنادقة الباطنية المتقدمين. وقصارى ما يلقونه من النقد إذا صرحوا بكفرهم في الكتب أو الجرائد أن يرد عليهم بعض المسلمين بالكتابة والناس أحرار فيها، فإذا ادعى بعضهم مع نشر الكفر أنه مؤمن وجد من ينصره ويقول: إن ما كتبه لا ينافي الإيمان ولا يصادم الإسلام، ولم يصرح أحد من المصريين في هذا العهد بالطعن في الإسلام وتكذيب القرآن بمثل ما صرح به الدكتور طه حسين المشتغل بالجامعة المصرية تدريسًا وتأليفًا، ولم يلق أحد من التفكير والتجهيل والطعن على ذلك مثل ما لقي من الكتاب والمؤلفين من علماء الدين وعلماء الدنيا، حتى اقترح بعض أعضاء مجلس النواب عزله من الجامعة، فلم تعزله الحكومة لأن أنصاره فيها كانوا أقوى من خصومه، وكان منهم عدلي باشا رئيس الوزارة وثروت باشا وزير الخارجية الذي طرز الدكتور طرة كتاب الطعن باسمه، وعلي باشا الشمسي وزير المعارف وأحمد لطفي بك السيد مدير الجامعة.

وقد بينا في فاتحة تفسيرنا وفي مواضع أخرى منه مسألة التأويل؛ فذكرنا أننا نلم بتأويل بعض الآيات لأجل الدفاع عن القرآن ورد بعض الشبهات التي يوردها الفلاسفة أو غيرهم عليها؛ حتى لا يكون لهم حجة مقبولة عليها مع تصريحنا بأن اعتقادنا الذي ندعو إليه ونرجو أن نموت كما نحيا عليه هو اتباع مذهب السلف في كل ما يتعلق بعالم الغيب من الإيمان

بالله وصفاته وملائكته وجنته وناره.

والتأويل قد يكون المنقذ الوحيد لبعض الناس من الكفر وتكذيب القرآن؛ إذ من المعلوم أن الموقن بصدق القرآن لا يخرج من الملة بفهم بعض آياته فهمًا مخالفًا لفهم غيره إذا لم يكن في فهمه هذا جحد لشيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة. ونرجو أن يقرأ أخونا صاحب هذه الرسالة الجزء الأول من تفسير المنار المشتمل على هذا البحث ويكتب إلينا بما يراه فيه، فإنني كنت منذ سنين كثيرة أتمنى لو يطلع بعض علماء نجد على المنار ويفتح بيني وبينهم البحث والمناظرة العلمية الدينية فيما يرونه منتقدًا لينجلي وجه الصواب فيها، وقد كنت كتبت إلى إمامهم بذلك وأنني سأرسل إليه عشر نسخ من كل جزء ليوزعها على أشهرهم، وفعلت ذلك عدة سنين، ولكن لم يأتني منه جواب ثم ترجح عندي أن تلك النسخ كانت تختزل من البريد البريطاني في سني الحرب وما بعدها.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (١٧)

النصيحة الربانية

في الرد على

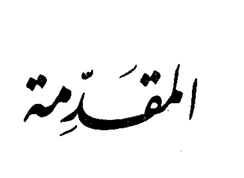
المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية

(انتصار الحق)

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الدكتور
عبد الله الطيار





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعًا.

فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك؟

فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون. فحايله صاحبه وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب فأعيته الحيلة في ذلك، وعرف أن ذلك علة عظيمة ومرض يفتقر إلى استئصال الداء ومعالجته بأنفع الدواء.

وعرف أن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته والطرق التي أوصلته إلى هذه الحالة المخيفة وإلى فحصها وتمحيصها وتخليصها وتوضيحها، ومقابلتها بما يضادها ويقمعها على وجه الحكمة والسداد.

الاحتجاج على الدين بتفريط المسلمين ظلم مبين:

- فقال لصاحبه مستكشفًا له عن الحامل له على ذلك:
- يا أخي، ما هذه الأسباب التي حملتك على ما أرى؟

- وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه؟

فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت شريكين، وإن كان غير ذلك فأعرف من عقلك ودينك وأدبك أنني وأنك لا ترضى أن تقيم على ما يضرك.

- فأجابه صاحبه قائلًا:

لا أكتمك أني قد رأيت المسلمين على حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية؛ رأيتهم في جهل وذل وخمول!

وأمورهم مدبرة وأحوالهم سيئة وأخلاقهم منحلة!

وقد فقدوا روح الدين والدنيا جميعًا!!

ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة وتفننوا في الفنون الراقية والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة.

فرأيتهم قد دانت لهم الأمم، وخضعت لهم الرقاب، وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاءوا ويعدونهم كالعبيد والأجراء.

فرأيت فيهم العز الذي بهرني، والتفنن الذي أدهشني.

فقلت في نفسي: لولا أن هؤلاء القوم هم القوم وأنهم على الحق والمسلمون على الباطل لما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك. فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خير لي وأحسن عاقبة فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت!!

- فقال له صاحبه حين أبدى ما كان خافيًا:

إذا كان هذا هو السبب الذي حولك إلى ما أرى فهذا ليس من الأسباب التي يبني عليها أولو الألباب والعقول عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ومستقبل أمرهم.

فاسمع يا صديقي تمحيص هذا الأمر الذي غرك وحقيقته:

إن تأخر المسلمين فيما ذكرت ليس ناشئًا عن دينهم، فإنه قد علم كل من له أدنى نظر وبصيرة أن دين الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاح، في أمور الدين وفي أمور الدنيا، ويحث على الاستعداد، من تعلم العلوم والفنون النافعة.

ويدعو إلى تقوية القوة المعنوية والمادية لمقاومة الأعداء، والسلامة من شرهم وأضرارهم، ولم يستفد أحد منفعة دنيوية فضلًا عن المنافع الدينية إلا من هذا الدين.

وهذه تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها: هلم إلى الاشتغال بجميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم.

أفبتفريط المسلمين تحتج على الدين؟!... إن هذا لهو الظلم المبين!

أليس من قصور النظر ومن الهوى والتعصب النظر في أحوال المسلمين في هذه الأوقات التي تدهورت فيها علومهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفقدوا فيها جميع مقومات دينهم، وترك النظر إليهم في زهرة الإسلام والدين في الصدر الأول، حيث كانوا قائمين بالدين، مستقيمين على الدين، سالكين كل طريق يدعو إليه الدين، فارتقت أخلاقهم وأعمالهم حتى بلغت مبلغًا ما وصل إليه ولن يصل إليه أحد من الأولين والآخرين، ودانت لهم الدنيا من مشارقها إلى مغاربها وخضعت لهم أقوى الأمم وذلك بالدين الحق والعدل والحكمة والرحمة، وبالأوصاف الجميلة التي كانوا عليها؟!

أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا، ويقوموا بكل ما في وسعهم لينالوا المقامات الشامخة ولينجوا من الهوة العميقة التي وقعوا فيها؟

أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذه الحال؟ فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين فيه له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا على هذه الحالة التي وصفت؟ فإن الجهاد لا يمكن التعبير عن فضائله وثمراته.

ففي هذه الحال يكون الجهاد على قسمين:

أحدهما: السعي في تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة، وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، وهذا أشق الأمرين وهو أنفعهما وأفضلهما.

والثاني: السعي في مقاومة الأعداء وإعداد جميع العدد القولية والفعلية والسياسية، الداخلية والخارجية، لمناوأتهم والسلامة من شرهم!

أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت، وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخالفين؟

فكيف مع ذلك تنضم إلى حزب المحاربين؟!

الله الله يا أخي، لا تكن أقل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

قاتلوا لأجل دينكم أو ادفعوا لأجل قومكم ووطنكم!

لا تكن مثل هؤلاء المنافقين.

فأعيذك يا أخي من هذه الحال التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات.

فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعنصرهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في وقت اشتدت فيه الضرورة إلى نصرة الأولياء ورد عدوان الأعداء؟

فهل رأيت قومًا خيرًا من قومك أو شاهدت دينًا أفضل من دينك؟

حضارة ظاهرها مزخرف مزوق وباطنها خراب:

فقال المنصوح:

الأمر هو ما ذكرت لك، ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات، وترقوا في هذه الحياة!

قال له صاحبه وهو يحاوره:

رفضت دينًا قيمًا كامل القواعد ثابت الأركان مشرق البرهان، يدعو إلى كل خير ويحث على السعادة والفلاح، ويقول لأهله هلم إلى كل صلاح وإصلاح، وإلى كل خير ونجاح، واسلكوا كل طريق يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

دينا مبنيًا على الحضارة الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والعلم والشفقة وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة.

وسلمت من الظلم والجشع والأخلاق السافلة.

وشملت بظلها الظليل وإحسانها الطويل وخيرها الشامل، وبهائها الكامل، ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمنصف المخالف.

أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الطمع والجشع والقسوة وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، عادمة لنور العلم وحكمته؟!

حضارة ظاهرها مزخرف مزوق، وباطنها خراب، وتظنها تعمر الوجود، وهي في الحقيقة مآلها الهلاك، والتدمير؟

ألم تر آثارها في هذه الأوقات، وما احتوت عليه من الآفات والويلات، وما جلبته للخلائق من الهلاك والفناء والتدمير؟

فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر البشرية التي انتهى إليها شوط هذه الحضارة نظيرًا أو مثيلًا؟

فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما

زادتهم غير تتبيب؟

فلا يخدعنك ما ترى من المناظر المزخرفة والأقوال المموهة، والدعاوى الطويلة العريضة، وانظر إلى بواطن الأمور وحقائقها، ولا تغرنك ظواهرها!

وتأمل النتائج الوخيمة، والثمرات الذميمة فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها؟!

أما تراهم يتنقلون من شر إلى شرور؟! ولا يسكنون في وقت إلا وهم يتحفزون إلى شرور فظيعة ومجازر عظيمة؟

فالقوة والمدنية والحضارة والمادة بأنواعها إذا خلت من الدين الحق فهذه طبيعتها وهذه ثمراتها وويلاتها ليس لها أصول وقواعد نافعة، ولا لها غايات صالحة.

ثم هب أنهم متعوا في حياتهم واستدرجوا فيها بالعز والرياسة ومظاهر القوة والحياة، فهل إذا انحزت إليهم وواليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأبناء قومهم؟

كلا والله، إنهم إذا رضوا عنك جعلوك من أرذل خدامهم!

وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم، وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم، ولم ترهم رفعوك حتى ساووا معك أدنى قومهم وبني جنسهم!!

فالله الله يا أخي في دينك وفي مروءتك وأخلاقك وأدبك!!

والله الله في بقية رمقك!!

فالانضمام إلى هؤلاء- والله - هو الهلاك!

الرفقة الصالحة وخطر البعد عنها:

فقال له المنصوح:

لقد صدقت فيما قلت، ولكن لي على هذا المذهب أصحاب مثقفون... ولي

على هذا الرأي شبيبة مهذبون، قد تعاقدت معهم على التمسك بالإلحاد واحتقار المستمسكين بدين رب العباد، قد أخذنا نصيبًا وافرًا من اللذات، واستبحنا ما تدعو إليه النفوس من أصناف الشهوات فأنى لي بمقاطعة هؤلاء السادة الغرر؟

وكيف لي بمباينتهم وقد اتصلت بهم غاية الاتصال؟!

فالآن يتنازعني داعيان:

داعي الحق بعدما بان سبيله واتضح دليله.

وداعي النفس والاتصال بهؤلاء الأصحاب المنافي للحق غاية المنافاة. فكيف الطريق الذي يريحني ويشفيني؟

وما الذي عن هذا الأمر يسليني؟

فقال له صاحبه الناصح:

ألم تعلم أن من أوجب الواجبات وأكبر فضائل الرجل اللبيب أن يتبع الحق الذي تبين له ويدع ما هو فيه من الباطل، وخصوصًا عند المنازعات النفسية والأغراض الدنيوية؟ وأن الموفق، إذا وقع في المهالك، طلب الوسيلة إلى تحصيل الأسباب المنجية؟

أما علمت أن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ويسعون في سعادته وفلاحه؟

ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

ثم اعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال ثم تراجع إلى الحق، الذي هو حبيب القلوب، كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه!

فارجع إلى الحق صادقًا وثق بوعد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

مقارنة بين حال الملحدين وحال المؤمنين:

فقال المنصوح:

لا يخفى عليك يا أخي أن الباطل إذا دخل في القلوب وتمكن منها لا يخرج بسهولة، فأريد أن توضح لي توضيحًا تامًّا بطلان ما عليه هؤلاء الملحدون، فإنهم يقيمون الشبه المتنوعة في ترويج قولهم ليغتر به من لا بصيرة له!

- فقال له الناصح:

اعلم أن الحق والباطل متقابلان، وأن الخير والشر متنافيان.

وبمعرفة واحد من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه.

فأنبئك على وجه الإجمال والتنبيه اللطيف:

إذا أردت أن تقابل بين الأشياء والمتباينات فانظر إلى أساسها الذي أسست عليه، وإلى قواعدها التي انبنت عليها.

وانظر إلى آثارها ونتائجها وثمراتها المتفرعة عنها.

وانظر إلى أدلتها وبراهينها التي بها ثبتت، وانظر إلى ما تحتوي وتشتمل عليه من الصلاح والمنافع ومن المفاسد والمضار.

فعند ذلك إذا نظرت لهذه الأمور بفهم صحيح وعقل رجيح، ظهر لك الأمر عيانًا.

فإذا عرفت هذه الأصول فهذا الدين الحق الذي دعت إليه الرسل عمومًا وخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ خصوصًا، قد بني وأسس على التوحيد والتأله لله وحده، لا شريك له حُبًّا وخوفًا ورجاء وإخلاصًا وانقيادًا وإذعانًا لربوبيته واستسلامًا لعبوديته.

قد دل على هذا الأصل الذي هو أكبر جميع أصول الأدلة العقلية والفطرية.

ودلت عليه جميع الكتب السماوية، وقرره جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من أهل

العلوم الراسخة والألباب الرزينة والأخلاق العالية والآداب السامية.

كل أولئك اتفقوا على:

أن الله منفرد بالوحدانية منعوت بكل صفة كمال، موصوف بغاية الجلال والعظمة والكبرياء والجمال.

وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وأنه منزه عن كل صفة نقص، وعن مماثلة المخلوقين.

وأنه لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر إلا هو.

فالدين الإسلامي على هذا الأصل أسس وعليه قام واستقام.

وأما ما عليه أهل الإلحاد فإنه ينافي هذا الأصل غاية المنافاة.

فإنه مبني على إنكار البارئ رأسًا، فضلًا عن الاعتراف له بالكمال وعن القيام بأوجب الواجبات وأفرض الفروض وهو عبوديته وحده لا شريك له.

فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرة وإنكارًا لأظهر الأشياء وأوضحها فمن أنكر الله فبأي شيء يعترف؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وهؤلاء أبعد الناس عن عبودية الله والإنابة إليه، وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع، وتخضع لها العقول الصحيحة.

ومع خلو قلوبهم من توحيد الله والإيمان به وتوابع ذلك فهم أجهل الناس، وأقلهم بصيرة ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه، فتجدهم يكتبون ويتكلمون ويدعون لأنفسهم من العلم والمعرفة والثقافة واليقين ما لا يصل إليه أكابر العلماء، ولو طلب من أحدهم أن يتكلم عن أصل من أصول الدين العظيمة الذي لا يسع أحدًا جهله، أو على حكم من الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة لظهر عجزه ولم يصل إلى ما وصل إليه كثير من صغار طلبة العلم الشرعي.

فكيف يثق العاقل - فضلًا عن المؤمن - بأقوالهم عن الدين؟ فأقوالهم في مسائل الدين لا قيمة لها أصلًا.

ولو سبرت حاصل ما عليه رؤساؤهم لرأيتهم قد اشتغلوا بشيء يسير من علوم العربية، وترددوا في قراءة الصحف التي على مشربهم، وتمرنوا على الكلام الذي من جنس أساليب كثير من هذه الصحف الرديئة الساقطة فظنوا بأنفسهم وظن بهم أتباعهم الاضطلاع بالمعارف والعلوم.. فهذا أسمى ما يصلون إليه في العلم.

أما الأخلاق:

فلا تسأل عن أخلاق من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يعتقد الأديان الصحيحة.

فإن الأخلاق نتائج الاعتقادات الصحيحة والفاسدة، فغاية ما عند هؤلاء التملق القولي والفعلي، والخضوع الكاذب للمخلوقين.

وهم مع هذا الخضوع السافل تجد عندهم من العجب والكبر واحتقار الخلق والاستنكاف عن مخالطة من يستنقصونهم شيئًا كثيرًا، فهم أوضع خلق الله وأعظمهم كبرًا وتيهًا.

ثم إنهم يستعينون على هذا الخلق المسمى عندهم بالثقافة، بالتصنع، والتجمل بالملابس، والفرش، والزخارف، ويفنون كثيرًا من أوقاتهم بذلك وقلوبهم خراب خالية من الهدى والأخلاق الجميلة، فالجمال الظاهر الباطل ماذا يغني عن الجمال الحقيقي؟

ثم إذا لحظت إلى غاياتهم ومقاصدهم فإذا هي أغراض دنية ومقاصد سفلية ومطامع شخصية.

وإذا سبرت أحوالهم رأيتهم إذا اجتمعوا تظنهم أصدقاء مجتمعين فإذا افترقوا فهم الأعداء: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وما وصفت لك من أحوالهم - وأنت تعرف ذلك - قليل من كثير.

فكيف ترضى أن يكون هؤلاء أحبابك وأصدقاءك ترضى لرضاهم وتسخط لسخطهم، وتقدمهم على حظوظك الحقيقية وسعادتك الأبدية؟

فانظر إلى صفاتهم نظر التحقيق والإنصاف، وقارن بينها وبين نعوت البررة الأخيار الذين امتلأت قلوبهم من محبة الله والإنابة إليه والإيمان وإخلاص العمل لأجله، وفاضت ألسنتهم بذكر الله والثناء عليه. واشتغلت جوارحهم في كل وسيلة تقربهم إلى الله وتدنيهم من رضوانه وثوابه ونفع الخلق.

أشجع الناس قلوبًا وأصدقهم قولًا وأطهرهم أخلاقًا وأزكاهم عملًا وأقربهم إلى كل خير وأبعدهم من كل شر.

يكفون عن الخلق الأذى ويبذلون لهم ويصبرون منهم على الأذى، أفتقدم على هؤلاء الأنجاب الغرر من ملئت قلوبهم من الشك والنفاق وفاضت على ظاهرهم، فاكتسبوا لذلك أرذل الأخلاق؟

يقومون بالنفاق والرياء ويقعدون بالتملق والإعجاب والكبرياء، وصفهم القسوة والطمع والجشع.

ونعتهم الكذب والغش والبهرجة والخنوع.

قد منعوا إحسانهم كل مخلوق واتصفوا بكل فسوق.

قد خضعوا في بحوثهم العلمية لكل مارق.

وتبعوا في أخلاقهم كل رذيل وفاسق.

الطريق للسعادة الدنيوية والأخروية:

قال المنصوح:

والله ما تعديت في وصفهم مثقال ذرة، ولكني أريد أن تدلني على طريق يجمع بين

السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية؛ لأن نفوس من تربى وتخلق بأخلاق هؤلاء لا ترجع عما ألفته إلا بأمر قوي، إما بترغيب وهوى يجذبها، وإما بترهيب وخوف يقمعها.

فقال له صاحبه الناصح:

والله لقد أدركت في هذا الدين مطلوبك، وفيه والله كل مرادك ومرغوبك، فإنه الدين الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة، وفيه اللذات القلبية والروحية والجسدية، ولا تفقد من مطالب النفوس الحقيقية شيئًا إلا أدركته، ولا من أنواع المسرات شيئًا إلا حصلته، ففيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وسأوضح لك ذلك:

فاعلم أن أصول اللذات المطلوبة هي:

أولًا: راحة القلوب وسكونها وطمأنينتها، وفرحها وبهجتها وزوال همومها وغمومها.

ثانيًا: القناعة والطمأنينة بما أوتيه العبد من المطالب الجسدية.

ثالثًا: استعمال ذلك على وجه يحصل به السرور والاغتباط.

فهذه الأمور الثلاثة، من رزقها واستعملها على وجهها فقد نال كل ما تعلق به طمع الطامعين، فإن جميع اللذات ترجع إلى ما ذكرنا.

فأما لذات القلوب وحصول سرورها وزوال كدرها:

فإنما أصل ذلك بالإيمان التام بما دعا الله عباده إلى الإيمان به.

من الإيمان بتوحده بجميع نعوت الكمال وامتلاء القلب من تعظيمه وإجلاله ومن التأله له وعبوديته.

والإنابة إليه وإخلاص العمل الظاهر والباطن لوجهه الأعلى.

وما يتبع ذلك من النصح لعباد الله ومحبة الخير لهم وبذل المقدور من نفعهم والإحسان إليهم.

والإكثار من ذكر الله والاستغفار والتوبة.

فمن أوتي هذه الأمور فقد حصل لقلبه من الهداية والرحمة والنور والسرور وزوال الأكدار والهموم والغموم ما هو نموذج من نعيم الآخرة.

وأهل هذا الشأن لا يغبطون أرباب الدنيا والملوك على لذاتهم ورياساتهم بل يرون ما أعطوه من هذه الأمور يفوق ما أعطيه هؤلاء بأضعاف مضاعفة.

وهذا النعيم القلبي لا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاقه وجربه فإنه كما قيل:

من ذاق طعم نعيم القوم يدريه ومن دراه غـدًا بالروح يشريه

فهذه إشارة لطريق هذا النعيم القلبي الذي هو أصل كل نعيم.

وأما الأمر الثاني:

فإن الله أعطى العباد القوة والصحة وما يتبع ذلك من مال وأهل وولد وحول وغيرها.

والناس بالنسبة لهذه الأشياء نوعان:

قسم صارت هذه النعم في حقهم محنا ونقما.

وقسم صار في حقهم نهما وخيرات ومنحا.

أما أهل الدين الحقيقي فقد قابلوا هذه النعم وتلقوها على وجه الشكر لله والاغتباط بفضله وتناولوها على وجه الاستعانة بها على طاعة المنعم.

وعلموا أنها من أكبر الوسائل لهم إلى رضا ربهم وخيره وثوابه إذا استعملوها فيما هيئت له وخلقت لأجله.

وقد رضوا بها عن الله كل الرضا؛ فإنهم علموا أنها من عند الله الذي له الحكمة التامة في جميع أقضيته وأقداره، وله الرحمة الواسعة في جميع تدابيره، وله النعمة السابغة في كل عطاياه وهو أرحم بهم من الخلق أجمعين.

فحيث علموا العلم اليقيني صدورها ممن هذا شأنه قنعوا بما أعطوه منها، من قليل وكثير كل القناعة، وسكنت قلوبهم عن التطلع والتطلب لما لم يقدر لهم.

ومتى حصلت الطمأنينة والقناعة والرضا عن الله بما أعطى فقد حصلت الحياة الطيبة.

فإذا أدركت حق الإدراك نعتهم هذا عرفت أن نعيم الدنيا في الحقيقة هو نعيم القناعة برزق الله، وطمأنينة القلوب بذكر الله وطاعته.

وأن الواحد من هؤلاء لو لم يكن عنده من هذه الأمور - وهي القوة والصحة والمال والأهل والولد وتوابع ذلك - إلا الشيء القليل لكان في راحة وسرور من جهتين:

جهة القناعة وعدم تطلع النفس وتشوفها للأمور التي لم تحصل.

وجهة ما ترجوه من ثواب الله العاجل والآجل على هذه العبادة القلبية التي تزيد على كثير من العبادات البدنية.

فإن التعبد لله بمعرفة نعمه والاعتراف بها والرضا بها والرجاء لله أن يديمها ويتمها وأن يجعلها وسيلة إلى نعم أخرى وأن يجعلها طريقًا للسعادة الأبدية لا ريب أن هذه الأحوال القلبية من أفضل الطاعات وأجل القربات، فكم من فرق بين سرور هذا الذي تعبد بروح الدين وحصلت له الحياة الطيبة، وبين من تلقى هذه النعم بالغفلة وعدم الاعتراف بنعمة المنعم وشقي بهمومها وغمومها، وكان إذا حصل له شيء من مطالب النفوس لم يرض به بل تشوف إلى غيره وتطلع لسواه فهذا يتنقل من كدر إلى كدر آخر؛ لأن قلبه قد تعلق تعلقًا شديدًا بمطالب الجسد، فحيث جاءت على خلاف ما يؤمله ويريده قلق أشد القلق، وهو لا يزال في قلق مستمر، لأن المطالب النفسية متنوعة جدًّا، فلو وافقه واحد لم يوافقه الآخر.

وربما اجتمع في الشيء الواحد سرور من وجه، وحزن من وجه آخر، فصفوه ممزوج بكدره، وسروره مختلط بحزنه، فأين الحياة الطيبة لهذا؟! وإنما الحياة الطيبة لأرباب البصائر والحجا الذين يتلقونها كلها بالقبول والقناعة والرضا.

وأما الأمر الثالث، وهو جهة استعمال هذه النعم:

فصاحب الدين الصحيح:

يتناولها على وجه الشكر لله على نعمه والفرح بفضله.

وينوي بها التقوي على ما خلق له من عبادة الله وطاعته.

وينفقها محتسبًا بها رضا الله وفضله وخلفه العاجل والآجل.

ويعلم أنه إذا أنفق على نفسه وأهله أو ولده أو من يتصل به فإنما نفقته صادفت محلها ووقعت موقعها.

فلم يتثاقل كثرة النفقة في هذا الطريق لأنه يقول معتقدًا: هذا أولى ما بذلت فيه مالي، وهذا ألزم ما قمت به من الواجبات والفروض، وهذا خير ما قمت به من المستحبات، وهذا أعظم ما أرجو له الخلف من الله حيث يقول وهو الكريم الوفي: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ولا يزال نصب عينيه احتساب الأجر في سعيه بكسبه، وفي مصرفه أجناس ذلك وأنواعه وأفراده متفطنًا لقوله ﷺ: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في في امرأتك**»[1].

فمن كان هذا وصفه فإن لذاته الدنيوية هي اللذات الحقيقية السالمة من الأكدار مما يرجو من الثواب العاجل والآجل من الله.

ومن كانت هذه صفته سهل عليه الأخذ من حلها ووضعها في محلها، ويسرت له أموره غاية التيسير.

وأما من استعمل هذه النعم على وجه الشره والغفلة، ولم يفكر في الاعتراف بفضل الله

(١) البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

في كل الأوقات وبنعم الله، ولم يفرح بالنعم لأنها من فضل الله بل فرح بها فقط لموافقة غرضه النفسي ولا نوى بها الاستعانة على طاعة الله، ولا احتسب في نيلها وصرفها على المنفق عليهم الأجر والثواب.

فمن كان هذا وصفه فإن الكدر والحزن له بالمرصاد!

فإنه إذا فاتته بعض الشهوات النفسية حزن!

وإن أدرك ما أدركه منها ولم يكن على ما في خاطره من كل وجه حزن! وإن أراد منه ولده ومن يتصل به نفقة أو كسوة واجبة أو مستحبة حزن، ولم تخرج منه إلا بشق الأنفس!

وإن خرجت منه خرج معها بضعة من سرور قلبه، لأنه يحب بقاء ماله ويحزن لنقصه على أي وجه كان، وليس عنده من الاحتساب ما يهون عليه الأمر!

هذا إن كان غير بخيل، فإن كان شحيح النفس مطبوعًا على البخل فإن حياته مع أولاده وأهله والمتصلين به حياة شقاء وعذاب وأكدار متواصلة وأحزان مستمرة.

لا إيمان عنده يهون عليه النفقات، ولا نفس سخية لا تستعصي عن نيل المكرمات فيا له من عذاب حاضر وعذاب مستمر.

فأين هذا من ذاك الذي حصلت له الحياة الطيبة بأكملها؟

هذا كله بالنظر إلى هذه الأمور الثلاثة التي هي أصل اللذات عند العقلاء، قد اتضح لنا أن صاحب الإيمان الصحيح هو الذي فاز باللذات الحقيقية وسلم من المكدرات.

مقارنة بين حال المؤمن وغير المؤمن عند المصائب:

ثم إذا عطفنا النظر إلى الطوارئ البشرية التي لا بد لكل عبد منها، وهي المصيبات التي تعتري العباد: من الأمراض المتنوعة وموت الأحبة وفقد الأموال ونقصها ووقوع المكاره بمن تحب وزوال المحاب، وغيرها من أنواع المصائب، دقيقها وجليلها.

رأيت المؤمن حقًّا قد تلقاها بقوة وصبر واحتساب، وقد قام لها بارتقاب الأجر والثواب، وعلم أنها تقدير العزيز العليم، وأنها أقضيته صدرت من الرب الرحيم، فهان عليه أمرها وخفت عليه وطأتها.

فإنه إذا فكر فيما فيها من الآلام الشاقة قابلها بما تتضمنه من تكفير السيئات وتكثير الحسنات ورفعة الدرجات والتخلق بأخلاق الكرام والقوة والشجاعة، وإذا أنهكت بدنه وماله رآها مصلحة لقلبه وروحه، فإن صلاح القلوب بالشكر لله على نعمائه والصبر على بلائه، وانتظار الفرج من الله إذا ألمت الملمات، واللجوء إلى الله عند جميع المزعجات المقلقات.

فأقل الأحوال عند هذا المؤمن أن تتقابل عنده المصائب والمحاب والأفراح والأتراح.

وقد تصل الحال بخواص المؤمنين إلى أن أفراحهم ومسراتهم عند المصيبات تزيد على ما يحصل فيها من الحزن والكدر الذي جبلت عليه النفوس.

فأين هذه الحال من حال من تلقى المصيبات التي لا بد للخلق منها بقلب منزعج مرعوب وخشعت نفسه المهينة لما فيها من الشدائد والكروب، فبقيت الحسرات تنتاب قلبه وروحه، وزادت مصائب قلبه على مصائب بدنه؟

ليس عنده من الصبر وارتقاب الثواب ما يخفف عنه الأحزان، ولا من الإيمان ما يهون عنه الأشجان، تعتريه المصائب فلا تجد عنده ما يخففها، فتعمل عملها في قلبه وروحه وبدنه وأحواله كلها.

القلب مليء من الهم والغم والألم، والخوف السابق واللاحق قد ملأ نفسه فانحل لذلك لبه وانحطم، وقد ضعف توكله على الله غاية الضعف، حتى صار قلبه يتعلق بمن يرجو نفعه من المخلوقين!!

فيا لها من مصائب دنيوية اتصلت بالمصائب الدينية والخلقية وتراكم بعضها فوق بعض

حتى صار عنده أعظم من الجبال الرواسي.

فوالله لو علم أهل البلاء والمصائب بما في الإيمان والروح من التسلية والحياة الطيبة لسارعوا إليه، ولو في هذه الحال التي هم فيه مضطرون إلى ما يخفف عنهم آلامهم، ولا يجدونه إلا في الإيمان الصحيح الحقيقي وما يدعو إليه.

حال المؤمن وغير المؤمن في معاشرة الخلق:

ومما يتعلق به سرور الحياة، ونعيمها، أو همها وغمها، معاشرة الخلق على اختلاف طبقاتهم.

فمن عاشرهم بما يدعو إليه الدين استراح.

ومن عاشرهم بحسب ما تدعو إليه الأغراض النفسية، فلا بد أن يكون عيشه كدرًا، وحياته منغصة.

وتوضيح ذلك أن:

الناس ثلاثة أصناف: رئيس، ومرءوس، ونظير.

أما من له رياسة حكم، أو ثروة، وله أتباع وحاشية.

فله معهم حالان:

حالة فيما يفعله معهم.

وحالة فيما يصيبه من أتباعه من خير وشر، وموافق للطبع ومخالف له.

فإن هو حكَّم الدين والشرع في الحالتين استراح، وله أجر من الله، إذا استعمل العدل معهم، واستعمل النصح والإحسان، وقابل المسيء منهم بالعفو، وشكرهم على فعل المعروف والخير، مبتغيًا بذلك وجه الله، وأيضًا فإنه إذا تأمل فيما فعله من خير اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

فأين هذا من الرئيس الذي لا يبالي بظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يبالي بسلوك طرق العدل والإنصاف، وليس له صبر على أية أذية تصيبه من رعيته؟

فهو مع أتباعه في نكد مستمر، ورعيته قد ملئت قلوبهم من مقته وبغضه، يتربصون به الدوائر والفرص، حتى إذا وقع في أقل شيء أعانوا عليه أعدى أعدائهم، فهو معهم غير مطمئن على حياته ولا على نعمته، لا يدري متى تفجؤه البلايا، ليلًا أو نهارًا!

هذه حالة الرئيس على وجه الإجمال.

وأما حالة المرءوس:

فإن أطاع الدين في وظيفته وأطاع حاكمه أو سيده، أو والده، واستعمل الآداب الشرعية في معاملته، والأخلاق المرضية، فهو مع طاعته لله ولرسوله قد استراح وأراح، وطابت عنه نفس رئيسه، وأمن عقوبته، وأمل إحسانه وبره ومحبته.

وأما من تعدى طوره، وعصى متبوعه والتوى، فإنه لا يزال متوقعًا لأنواع المضار، يمشي خائفًا وجلًا لا يقر له قرار، ولا يستريح له خاطر.

وأما حالة النظير المساوي:

فإن جمهور من تعاشرهم من الخلق إذا خالقتهم بالخلق الحسن، اطمأنت نفسك، وزالت عنك الهموم، لأنك تكتسب بذلك مودتهم، وتخمد عداوتهم، مع ما ترجوه من عظيم ثواب الله على هذه العشرة التي هي من أفضل العبادات.

فإن العبد يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم. وحسن الخلق له خاصية في فرح النفس، لا يعرف ذلك حق معرفته إلا المجربون.

فأين حال هذا ممن عاشر الناس بأسوأ الأخلاق؟ فخيره ممنوع، وشره غير مأمون، وليس له أقل صبر على ما يناله من المكدرات.

فهذا قد تنغصت عليه حياته، وحضرته همومه وحسراته، فهو في عناء حاضر، ويخشى من الشقاء الآجل.

وأما معاشرته مع أهله وأولاده ومن يتصل به فإنه يتأكد عليه القيام بالحقوق اللازمة، تامة لا نقص فيها ولا تبرم.

فمن عامل هؤلاء بما أمر الله ورسوله، راجيًا بقيامه به ثواب ربه ورضاه، عاش معهم عيشة راضية.

ومن كان معهم في نكد وسوء خلق مع الصغير والكبير، يخرج من بيته غضبان ويدخل على أهله وولده متكدرًا ملآن، فأي حياة لمن كانت هذه حاله؟ وما الذي يرجوه حيث ضيع ما فيه فرحه ومسراته؟

وأما عشرته مع معامليه؛ فإن استعمل معهم النصح والصدق وكان سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى - حصلت له الرحمة، وفاز بالشرف والاعتبار، واكتسب مودة معامليه ودوام معاملتهم.

ولا يخفى ما في ذلك من طيب الحياة، وسرور النفس، وما في ضدها من سوء الحال وسقوط الشرف، وتنغص الحياة.

والفارق بين الرجلين هو الدين، فصاحب الدين منبسط النفس، مطمئن القلب.

فقد تبين لك أن السعادة واللذة الحقيقية بجميع أنواعها تابعة للدين.

لذة من تمسك بالدين:

واعلم يا أخي أن الدين نوعان:

أحدهما: أعمال وأحوال وأخلاق دينية ودنيوية.

وكما ذكرنا أنه لا سبيل إلى حصول الحياة الطيبة إلا بالدين.

والثاني: علوم ومعارف نافعة:

وهي علوم الشرع والدين، وما يعين عليها ويتوصل إليها به.

فالاشتغال بها من أجل العبادات، وحصول ثمرتها من أكمل اللذات، ولا يشبهه شيء من اللذات الدنيوية.

واعتبر ذلك بحال الراغبين في العلم تجد أكثر أوقاتهم مصروفة في تحصيل العلم، فيمضي الوقت الطويل، وصاحبه مستغرق فيه يتمنى امتداد الزمن، وهذا عنوان اللذة، فإن المشتاق يقصر عنده الوقت الطويل، ومن ضاق صدره بشيء يطول عليه الوقت القصير.

وذلك أن صاحب العلم في كل وقت مستفيد علومًا يزداد بها إيمانه، وتكمل بها أخلاقه، والمتصفح للكتب النافعة لا يزال يعرض على ذهنه عقول الأولين والآخرين ومعارفهم وأحوالهم الحميدة، وضدها.

ففي ذلك معتبر لأولي الألباب؛ فكم من قصة تمر عليك في الكتب تكتسب بها عقلًا جديدًا، وتسليك عند المصائب، بما جرى على الفضلاء، وكيف تلقوها بالرضا والتسليم، واغتنموا الأجر من العليم الحكيم.

والعلم يعرفك طرقًا تدرك بها المطالب، وتدفع بها المكاره والمضار.

والعقل عقلان:

عقل غريزي:

وهو ما وضعه الله في الإنسان من قوة الذهن في أمور الدين والدنيا.

وعقل مكتسب:

إذا انضم إلى العقل الغريزي ازداد صاحبه حزمًا وبصيرة.

فكما أن العقل الغريزي ينمو بنمو الإنسان حتى يبلغ أشده، فكذلك العقل المكتسب له مادتان للنمو:

مادة الاجتماع بالعقلاء والاستفادة من عقولهم وتجاربهم:

تارة بالاقتداء، وتارة بمشاورتهم ومباحثتهم.

فكم ترقى الرجل بهذه الحال إلى مراقي الفلاح.

ولهذا كان انزواء الرجل عن الناس يفوته خيرًا كثيرًا، ونفعًا جليلًا، مع ما يحدثه الاعتزال من الخيالات وسوء الظن بالناس، والإعجاب بالنفس الذي يعبر عن نقص الرجل، وربما ضر البدن، فإن مخالطة الناس تفتح أبوابًا من المصالح، وتسليك، وتقوي قلبك.

وفي ضعف القلب ضرر على العقل، وضرر على الدين، وضرر على الأخلاق وضرر على الصحة.

وينبغي للإنسان أن يعامل الناس بحسب أحوالهم، كما كان النبي ﷺ يحسن خلقه مع الصغير والكبير.

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أي خذ ما صفا لك من أخلاق الخلق، ودع عنك ما تعسر منها.

فيجالس أبناء الدنيا بالأدب والمروءة، والأكابر بالتوقير، والإخوان والأصحاب بالانبساط، والفقراء بالرحمة والتواضع، وأهل العلم والدين بما يليق بفضلهم.

فصاحب هذا الخلق الجليل تراه مبتهج النفس في حياة طيبة.

وأما المادة الثانية للعقل المكتسب: فهي الاشتغال بالعلوم النافعة.

فتستفيد بكل قضية رأيًا جديدًا، وعقلًا سديدًا، ولا يزال المشتغل بالعلم يترقى في العلم والعقل والأدب.

والعلم يعرفك بالله، وكيف الطريق إليه؟

يعرفك كيف تتوسل بالأمور المباحة إلى أن تجعلها عبادة تقربك إلى الله. والعلم يقوم مقام الرياسات والأموال.

فمن أدرك العلم فقد أدرك كل شيء، ومن فاته العلم فاته كل شيء. وكل هذا في العلوم النافعة.

وأما كتب الخرافات والمجون فإنها تحلل الأخلاق وتفسد الأفكار والقلوب، بحثها على الاقتداء بأهل الشر، وهي تعمل في الإيمان والقلوب عمل النار في الهشيم.

توبة ورجوع إلى الله:

فلما تلا النصيح لصاحبه هذه المواضيع، وبرهن عليها...

قال له المنصوح:

والله لقد انجلى عني ما أجد في أول موضوع تلوته علي، وانزاح عني الباطل في شرحك الأول.

وإن مجلسك يا أخي ونصيحتك بهذه الطريقة النافعة تعدل عندي الدنيا وما عليها.

فأحمد الله أولًا حيث قيضك لي، وأشكرك شكرًا كثيرًا حيث وفيت بحق الصحبة، ولم تصنع ما يصنعه أهل العقول الذين إذا رأوا من أصحابهم ما يسوءهم قطعوا عنهم حبل الوداد في الحال، وأعانوا الشيطان عليهم، فازداد بذلك الشر عليهم، وضاع بينهم التفاهم.

وإني لا أنسى جميل معروفك حيث رأيتني سادرًا في المهامه مغرورًا بنفسي معجبًا برأيي، فأريتني بعيني ما أنا فيه، وأوقفتني بحكمتك على الهلاك الذي وقعت فيه.

فالآن أستغفر الله مما مضى وأتوب إليه، وأسأله الإعانة على سلوك مرضاته، وأفزع إليه أن يختم بالصالحات أعمالي، وأحمد الله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، فإنه مولى النعم، دافع

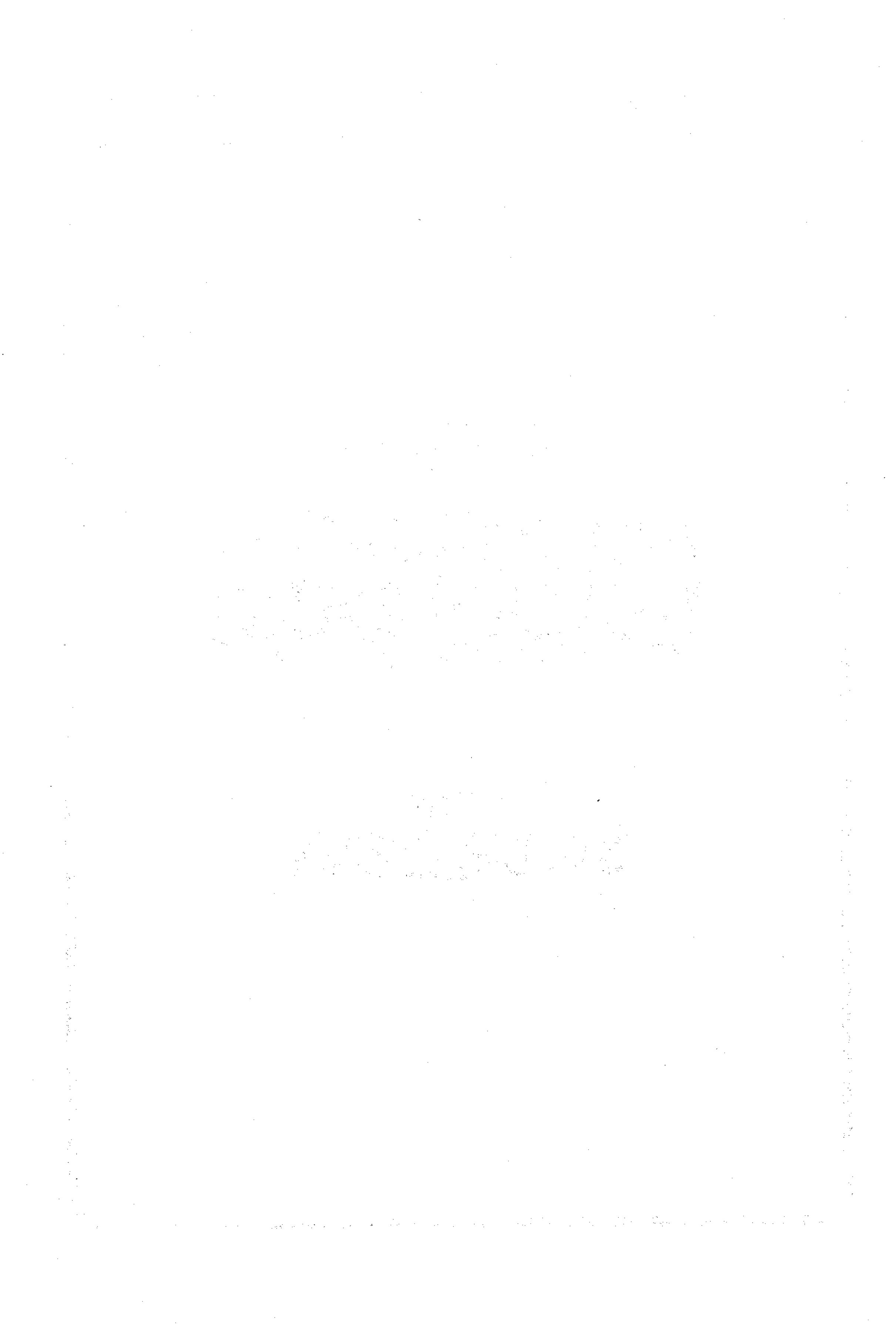
النقم، غزير الجود والكرم.

انتهى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.



التوضيح والبيان لشجرة الإيمان

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





المقدمة

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، واللهج بذكره آناء الليل والنهار، وجعلها تؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين، مستمدًّا ذلك من كتاب الله الكريم - الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقًا لا مزيد عليه - ومن سنة نبيه محمد ﷺ التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيرًا من مطلقاته. مبتدئًا بتفسيره، مثنيًا بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد، مثلثًا بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فمثل الله كلمة الإيمان - التي هي أطيب الكلمات - بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة؛ أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتًا عظيمًا، بحسب تفاوت هذه الأوصاف

التي وصفها الله بها. فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها، ويجتهد في التحقق بها علمًا وعملًا. فإن نصيبه - من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة - بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

الفصل الأول

في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها؛ تقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورًا يميزه عن غيره - أخطأ خطأ فاحشًا.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهرًا وباطنًا. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن. وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله.

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى - من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته - هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو التأله والتعبد لله ظاهرًا وباطنًا - من أصول الإيمان.

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر. كل هذا من أصول الإيمان.

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به في الكتاب

والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن أعظم أصول الإيمان الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة. كل هذا من أصول الإيمان.

ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا؛ من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح؛ لأنه متى فات شيء من ذلك حصل - من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب - بحسبه.

بل أخبر الله تعالى أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]. والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء في الدنيا، وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية أن من حقق الإيمان به وبرسله؛ نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم**». فقالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «**بلى - والذي نفسي بيده - رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين**»[1].

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله. فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه من الانقياد والاستسلام، وأثنى

---

(١) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

على من قام به فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة، والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده - بقوله: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾. كما أثنى على المؤمنين - في آخر السورة - بالقيام بذلك فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فأخبر أن الرسول ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء، بل آمنوا بهم جميعًا، وبما أوتوه من عند الله، وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وطلبوا من ربهم أن يحقق لهم ذلك، وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله؛ يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها. كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء - عيسى وغيره -: إنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: ٥٣]. فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد، وأن يحقق لهم القيام به قولًا، وعملًا، واعتقادًا.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَـٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]. فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه. فإنه وصفهم بالإيمان به إيمانًا ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه - مع ثبوت الإيمان في قلوبهم - يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد

خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله، وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه. وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها، يقيمونها ظاهرًا وباطنًا، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة. ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا. ولهذا قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٤]. الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهرًا وباطنًا. ثم ذكر ثوابهم الجزيل؛ المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

ففسر الله الإيمان - في هذه الآيات - بجميع هذه الخصال. فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾، إلى آخر الآيات المذكورة. فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقًّا. ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات. وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات، كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب على ذلك أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات،

وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات. ومقتصدون، وهم الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات. وظالمون لأنفسهم، وهم الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات. كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد يعطف الله على الإيمان الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف؛ لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفى فيه بما في القلب. فكم في القرآن من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. ثم يذكر خبرًا عنهم. والأعمال الصالحات؛ من الإيمان، ومن لوازم الإيمان. وهي التي يتحقق بها الإيمان. فمن ادعى أنه مؤمن - وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات - فليس بصادق في إيمانه. كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة. ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله؛ من الكفر والفسوق والعصيان. ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. كما وصف الله بذلك خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فهذه أكبر المنن أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في **الصحيح** من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ، قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا**

لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار»[1].

فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله، ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب. وذكر تفريعها: بأن يحب لله، ويبغض لله. فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله، واختصهم من بين خلقه. وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث: أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة. فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعًا - فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره - واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها. من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه. وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وكذلك في **الصحيحين** من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»**[2].

وهذا صريح: أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه. فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته - وهو قول: لا إله إلا الله؛ اعتقادًا، وتألهًا، وإخلاصًا لله - وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي عن الطريق. فكيف بما فوق ذلك من الإحسان. وذكر الحياء - والله أعلم - لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح؛ كما به يتحقق كل خلق حسن. وهذه الشعب - المذكورة في هذا الحديث - هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

---

(١) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

وهذا - أيضًا - صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا كبيرًا. فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.

وقد ذكر النبي ﷺ الإسلام والإيمان في حديث جبريل المشهور، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر**»[1]. وفسر الإسلام بالشرائع الخمس الظاهرة؛ لأنه - كما تقدم - إذا قرن بالإيمان غيره فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية، والإسلام أو الأعمال الصالحة بالشرائع الظاهرة. وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمع.

وفي **الصحيحين** من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[2].

فأخبر ﷺ: أنه إذا تعارضت المحبتان فإن قدم ما يحبه الرسول كان صادق الإيمان وإلا فهو ناقص الإيمان. كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقيادًا، وينشرحوا لحكمه. وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.

وفي **الصحيحين** أيضًا عن أنس مرفوعا: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[3]. وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة فإنه من الإيمان.

---

(١) مسلم (٨).

(٢) البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٣) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

وفي **صحيح مسلم** من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا**»[1].

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، وأن يرضى بالإسلام دينًا، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن؛ حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له ويرضى بمحمد ﷺ نبيًّا إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال. وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، واتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرءوف الرحيم الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم، وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه، وهذا علامة محبة الله: وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي **صحيح مسلم** من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»[2].

---

(١) مسلم (٣٤). (٢) مسلم (٣٨).

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، ثم استقام عليه - قولًا وعملًا، فعلًا وتركًا - فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وفي حديث ابن عباس المتفق عليه في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ حيث قالوا: مرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال: **«أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»**. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **«شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»**. ونهاهم عن أربع: **«عن الحنتم، والدباء، والنقير، والمزفت[1]»**. وقال: **«احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم»**[2].

فهذا - أيضًا - صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان مثل: الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم. وكل هذا يفسر الإيمان تفسيرًا يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، فتدخل فيه الأعمال البدنية فكل ما يقرب إلى الله - من قول وعمل واعتقاد - فإنه من الإيمان.

وفي سنن أبي داود عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»**[3].

---

(١) الحنتم: هي جرار مدهونة خضر، والدباء: القرع، والنقير: هي النخلة تنسج نسجا، والمزفت: هو الإناء الذي طلي بالزفت.

(٢) البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

(٣) أبو داود (٤٦٨١).

فالحب والبغض في القلب والباطن، والعطاء والمنع في الظاهر. واشترط فيها كلها الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال، ويحب من يحبه من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه الله من كفر وفسوق وعصيان، ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]. وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد لا يختص بالعطاء المالي بل هو جزء من العطاء. وكذلك مقابله المنع.

وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[1]. يدل على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه كما قال الحسن وغيره: ليس الإيمان بالتمني والتحلي ولكنه ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال[2].

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

---

(١) الترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٤٩٩٥).

(٢) ابن أبي شيبة (٣٠٨٦٦، ٣٦٢٢٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥)، وفي الدلائل له (٢٠٥٢).

فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده هدى الله قلبه هداية خاصة للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾[يونس: ٩]. فحذف المتعلق ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر، وذلك بسبب إيمانهم. فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى. والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. كثير من المفسرين فسروا الإيمان هنا بالصلاة إلى القبلة التي كانوا عليها؛ بيت المقدس، قبل النسخ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم، فأنزل الله هذه الآية. وذلك أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت التزام منهم لطاعة الله ورسوله وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرى وهي أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين؛ قل ذلك الإيمان أو كثر. كما ورد في **الصحيح**: أن الله يخرج من النار «**من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان**»[1].

وبشارة لكل من عمل عملا قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطئ، أو نسخ ذلك العمل، فإنه إنما عمل ذلك العمل إيمانا بالله، وقصدا لطاعته، ولكنه تأول تأويلا أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله.

ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: ٢٨٦]. قال الله على لسان نبيه: «**قد فعلت**»[2].

(١) البخاري (٧٥١٠).
(٢) مسلم (١٢٦).

وفي الحديث الصحيح: «**إذا اجتهد الحاكم فحكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وخطؤه مغفور له**»[1].

وكذلك من نوى عملا صالحا، وحرص على فعله، ومنعه مانع من مرض، أو سفر أو عجز أو غيرها؛ كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث أبي موسى مرفوعا: «**من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما**»[2]. ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣٢١١).

(٢) مسند أحمد (١٩٧٥٣).

فصل

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان، وتوابع ذلك من أمور الدين - بل هو اسم للدين كله - علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه، لا شرعًا، ولا حسًّا، ولا واقعًا.

وذلك: أن نصوص الكتاب والسنة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة - متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك. فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم. فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة. وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، مايضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة، بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتًا كثيرًا في نفس العلم الذي عرفوه من علوم الإيمان؛ أحدهما: علمه فيه قوي صحيح لا ريب فيه ولا شبهة، والآخر: علمه فيه ضعيف، وعنده

معارضات كثيرة تضعفه أيضًا. وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتًا كثيرًا؛ صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها. وكذلك في العبادات الظاهرة؛ كالصلاة، يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، والآخر يصليها بظاهره وباطنه مشغول بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين، ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب أيضًا أهلها متفاوتون تفاوتًا كثيرًا. والعبد المؤمن – في نفسه – له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحيانًا بالعكس. وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه. وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم – يتعاهدون إيمانهم كل وقت ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له، ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه من علومه وأعماله وأحواله. فنسأل الله أن يزيدنا علمًا ويقينًا، وطمأنينة به وبذكره، وإيمانًا صادقًا.

وخيار الخلق – أيضًا – يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين. كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح ابن مريم، حين طلبوا نزول المائدة، ووعظهم عيسى عن هذا الطلب: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣]. فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية إلى ذلك.

الفصل الثاني

في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية به معرفة واتصافًا؛ وذلك أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد، وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران؛ مجمل ومفصل:

أما المجمل فهو:

التدبر لآيات الله المتلوة من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق. فجميع الأسباب مرجعها إلى الأصل العظيم.

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة:

منها، بل أعظمها: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا - مائة إلا واحدًا

- من أحصاها دخل الجنة»[1]. أي من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها؛ دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته؛ ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول، بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.

ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيمانًا. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وكذلك إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف تيقن أنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه من التناقض والاختلاف أمور كثيرة. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كبير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟! ولهذا كان

(١) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم(٢٦٧٧).

المؤمنون الكمل يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله، كلها من محصلات الإيمان ومقوياته. فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله؛ ازداد إيمانه ويقينه. وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين، الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]. فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع - فكلها من عند الله، وما منه، وما تكلم به وحكم به - كله حق وصدق.

وقال تعالى: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وأخبر تعالى في عدة آيات أن القرآن آيات للمؤمنين، وآيات للموقنين؛ لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره من العلم واليقين والإيمان بحسب ما فتح الله عليهم منه. فلا يزالون يزدادون

علمًا وإيمانًا ويقينًا.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل الجالبة للإيمان، والمقوية له. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فاستخراج بركة القرآن - التي من أهمها حصول الإيمان - سبيله وطريقه تدبر آياته وتأملها كما ذكر أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. أي: فلو تدبروه حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه من الكفر والتكذيب، وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.

وقال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩] أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة فإن من عرفه حق المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة، والدين الحق. كما قال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالى حاثًّا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ١ - ٤].

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة،

وأفعاله الرشيدة. فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو هذا الرسول الكريم: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾. أي: إيمانًا لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات فقالوا: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف - الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يتبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم - مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به. فاستدل هذا العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة - على رسالته فبادر إلى الإيمان به.

ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعظم الرسل، واعترف بذلك اعترافًا جليًّا. ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه، كما منعت كثيرًا ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقًّا. وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر

للسعادة عاجلًا وآجلًا. ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظًا ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة - أعظم إيمانًا ويقينًا من غيرهم، وأحسن عملًا في الغالب.

ومن أسباب الإيمان ودواعيه التفكر في الكون؛ في خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات فإن ذلك داعٍ قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره وإخلاص الدين له. وهذا هو روح الإيمان وسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين، خصوصًا ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار. وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد. فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين. فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعا الله الرسول والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. فالإيمان يدعو إلى الشكر، والشكر ينمو به الإيمان. فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها. وكلما ازداد العبد

ذكرًا لله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر. فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان، بل هي روحه.

ومن الأسباب الجالبة للإيمان: معرفة محاسن الدين؛ فإن الدين الإسلامي كله محاسن، عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها. وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه. كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]. فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[١].

ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى خلقه؛ فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فإن لم يقو على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه. فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه، ولا يزال العبد يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حق اليقين - الذي هو أعلى مراتب اليقين - فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات. وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلى الخلق - بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع - هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان. والجزاء من جنس العمل. فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه؛ أحسن الله إليه أنواعًا من الإحسان، ومن أفضلها أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله ولعباده. فإن «**الدين النصيحة**»[٢]. ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق فقد تحقق نصحه؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن**

---

(١) مسند أحمد (١٨٣٢٤).

(٢) مسند أحمد (١٦٩٤٠).

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، متفق عليه[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ... الآية [المؤمنون:١ - ١٠].

فهذه الصفات الثماني، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود- من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وتقدم أن الله سمى الصلاة إيمانًا، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها، كما قال النبي ﷺ: **«والصدقة برهان»**[2]. أي: على إيمان صاحبها؛ فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو: كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولًا وفعلًا - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم،

---

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) مسلم (٢٢٣).

يقول بعضهم لبعض: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية. فيتجدد بذلك إيمانهم.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصًا فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته. فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها من علائم الإيمان. وفي الحديث: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»(١). وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها مالية أو قولية أو أمانات الحقوق، وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟ فإن كان كذلك فهو صاحب دين وإيمان، وإن لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه، بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات، على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها؛ لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان - كما تقدم - محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي، وهو المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات، وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة، وهو العفة عن المحرمات قولًا وفعلًا. فمتى تمت هذه الأمور حيي هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره. كما أقسم تعالى بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان، والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس،

(١) مسند أحمد (١٢٣٨٣).

والتواصي بالحق - الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق - وبالصبر على ذلك كله، وبهما يكمل غيره.

وذلك أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده من أكبر مقويات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها. وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضًا فإن الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك؛ لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه وروح، بقوة إيمانه، وقوة التوكل. فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء؛ من شياطين الإنس وشياطين الجن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. وأيضًا فإنه متصد لنصر الحق، ومن تصدى لشيء فلا بد أن يفتح عليه فيه - من الفتوحات العلمية والإيمانية - بمقدار صدقه وإخلاصه.

ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات جميع ما ينافي الإيمان؛ من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد - مع ذلك - من دفع الموانع والعوائق، وهي الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان. فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه - لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها؛ من رغبة النفس في الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمانه، وقوي يقينه، وصار مثل بستان إيمانه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

ومتى كان الأمر بالعكس؛ بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علمًا، وعملًا، وحالًا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها، من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني؛ بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيرًا ذليلًا، وإخوان الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم.

الفصل الثالث

في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة، وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجنى اللذيذ، والأُكل الدائم، والخير المستمر، أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى. ومجملها أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير عاجل وآجل.

فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

فكل مؤمن تقي فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى. فإن

التقوى تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١ - ٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار، والإيمان - ولو قليلًا - يمنع من الخلود فيها. فإن من آمن إيمانًا - أدى به الواجبات، وترك المحرمات - فإنه لا يدخل النار. كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في هذا الأصل. كما تواتر عنه ﷺ: أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيرًا.

ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]. أي: يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه الصلاة والسلام وأنه نادى ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. إذا وقعوا في الشدائد، كما أنجينا

يونس. قال النبي ﷺ: «**دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته** ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]».

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]. أي: من كل ما ضاق على الناس: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]. فالمؤمن المتقي ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب. وشواهد هذا كثير، من الكتاب والسنة.

ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح - الذي هو فرعه - يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره. وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها: من الإيمان والإخلاص.

ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل مثل قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. أي: لا يجحد سعيه، ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

---

(١) الترمذي (٣٥٠٥) بنحوه.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]. والسعي للآخرة: هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه، كان السعي مشكورًا مقبولًا مضاعفًا، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره، فإنه غير مقبول. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]. فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يَجُبُّ ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان والقادحة فيه، والمنقصة له تَجُبُّ ما قبلها.

ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، ويهديه في الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [يونس: ٩]. وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]. قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها: وذلك لقوة إيمانه، وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله. فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما. وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد المحاب. فإذا فقد مؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه - من أهل وولد، ومال، وصديق، وشبهها - تسلى بحلاوة إيمانه، والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب - في الحقيقة - معدود من المصائب. ولولا أن يعقوب عليه الصلاة والسلام عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم، بحيث قال لإخوته - لما طلبوا منه بعض يوم أن يذهب معهم ليرتع ويلعب - ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ [يوسف: ١٣]. فأخبر أن المانع له من إرساله أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار. ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم فأرسله ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا ﴾ [الأنفال: ٤٢]. فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت. ولكن قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله أوجب له

أن يتماسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وُعِدَ به المؤمنون.

وكذلك: أم موسى - حين ذهب اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغًا من كل شيء إلا من الحزن على موسى - لولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق - لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها. ولكن هو الإيمان المثبت عند الشدائد، المسلي عند المصائب، المقوي إذا وهنت القوى، المعزي إذا عز العزا.

وقال النبي ﷺ في وصيته العظيمة في حديث ابن عباس، الصحيح الذي في السنن: «**تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة**»[1]. أي تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان - وأنت صحيح غني قوي - يعرفك الله في الشدة؛ يقويك الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها، وأعظم شدة تنزل بالمؤمن شدة الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن - قد تعرف إلى ربه في رخائه - أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير. فإن الله يعينه بتأييده، وروحه ورحمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن **ثمرات الإيمان ولوازمه** - من الأعمال الصالحة - ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين. ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حيًّا وميتًا، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

وهذه **أيضًا من أجل ثمرات الإيمان**: أن يجعل الله المؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

---

(١) أحمد (٢٨٠٣).

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فبالصبر واليقين - اللذين هما رأس الإيمان وكماله - نالوا الإمامة في الدين.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده في الدنيا والآخرة. وإنما نالوا هذه الرفعة بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم، واليقين من أصول الإيمان.

ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه. كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]. فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨]. فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم. وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]. ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢]. فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح - الذي هو: إدراك غاية الغايات؛ فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب - والهدى الذي هو أشرف الوسائل.

كما قال تعالى - بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان - قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل. فلا سبيل إلى الهدى والفلاح - اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما - إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله. فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات.

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧].

ومثل هذا قوله ﷺ: **«المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»**(١). ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر

---

(١) أحمد (٢٣٠٩٨).

وضرر على نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه، وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر، وغلب شره خيره. والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد صارت شرًّا؛ لأن الخير الذي معه يقابله شر نظيره، فيتساقطان ويبقى الشر الذي لا مقابل له من الخير يعمل عمله. ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه: علمًا وعملًا. وكذلك معه الآلة العظيمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضًا فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له. ولهذا يذكر الله - في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ، وقبول الحق الذي جاء به - السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو الكفر الذي في قلوبهم، يعني لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة، والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه. أي فلا تستغربوا هذه الحالة؛ فإنها لم تزل دأب كل كافر.

ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في **الصحيح** عن النبي ﷺ أنه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له؛ وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[1]. والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي **الصحيح** عنه ﷺ: «**لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذى - إلا كفر الله عنه بها من خطاياه**»[2].

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).
(٢) مسلم (٢٥٧٢) بنحوه.

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء نعمتان؛ نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك. وبذلك تتم عليه النعمة. ويجتمع له عند الضراء ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه. لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]. أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن والنفوس الأمارة بالسوء. فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

ولهذا ثبت في **الصحيحين** من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل: آمنت بالله. ولينته، وليتعوذ بالله من الشيطان»**[1].

فذكر ﷺ هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك، وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها؛ ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين، وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة، أعظمها: العلم أنه منافٍ للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

---

(١) مسلم (١٣٤).

فعند المحاب والسرور يلجئون إلى الإيمان، فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجئون إلى الإيمان من جهات عديدة، يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجئون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيمانًا وثباتًا، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]. لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجئون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء، بل يتواضعون ويعلمون أنه من الله ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب، الأمن وأسبابه. ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجئون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها. ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها أن يتمم لهم منها ما انتقصوه.

ويلجئون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠١]. وقال ﷺ: **«مثل المؤمن ومثل الإيمان كالفرس المربوط في آخيته**[1]**، يجول ما يجول، ثم يعود إلى آخيته»**[2]. كذلك المؤمن يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ على بعض الآثام، ثم يعود سريعًا إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها. فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده. وذلك من فضل الله عليه، ومنه.

ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة. كما ثبت في **الصحيح** عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** الحديث[3].

ومن وقعت منه فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه. وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه الأمور - التي هي من مكملات الإيمان - لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

فأخبر أن الإيمان إذا صحبه - عند وجود أسباب هذه الفواحش- فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله - الذي هو من أعظم شعب الإيمان بلا شك - يمنع من مواقعة هذه الفواحش.

ومنها: أنه ثبت عنه ﷺ في **الصحيحين** - من حديث أبي موسى رضي الله عنه - أنه قال: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي**

---

(١) الآخِيَّةُ: حُبَيْلٌ أو عُوَيْدٌ يُعرضُ في الحائط ويُدْفَنُ طرفاه فيه ويَصيرُ وَسَطه كالعرْوة وتشَدّ فيها الدابة.

(٢) أحمد (١١٣٣٥).

(٣) البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها»[1].

وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة، فإن الناس أربعة أقسام:

الأول: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره. وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين. فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره، مبارك أينما كان. كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

والثاني: طيب في نفسه، صاحب خير. وهو المؤمن الذي ليس عنده من العلم ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة، والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم من الإيمان القاصر، والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

والقسم الثالث: من هو عادم للخير، ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

والرابع: من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره. فهذا شر الأقسام: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه، وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده. والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنى قوله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»**[2]. فقسم ﷺ المؤمنين إلى قسمين؛ قسم قوي في عمله وقوة إيمانه وفي نفعه لغيره، وقسم ضعيف في هذه الأشياء. ومع ذلك ففي كل من القسمين خير؛ لأن الإيمان - وآثاره - كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

---

(١) البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧). (٢) مسلم (٢٦٦٤).

الخاتمة

فتبين مما تقدم أن هذه الشجرة المباركة - شجرة الإيمان - أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها. وأن عروقها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه ومعارفه، وساقها وأفنانها شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ. وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر السمت الحسن، والهدي الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه، والنفع لعباد الله - بحسب القدرة - نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال. وجميع طرق النفع. وحقيقة ذلك كله القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه. وأن هذه الشجرة - في قلوب المؤمنين - متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به من هذه الصفات. وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله، وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها له سبحانه. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة بعدما دخلوها، وتبوءوا منازلها - معترفين بفضل ربهم العظيم - ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله؛ حيث وصلوا إلى هذه المنازل العالية وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به، وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله.

فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالإيمان الصادق، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة. إنه هو الوهاب. وصلى الله على محمد

وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

حرر في ٨ شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٤هـ والحمد لله رب العالمين.



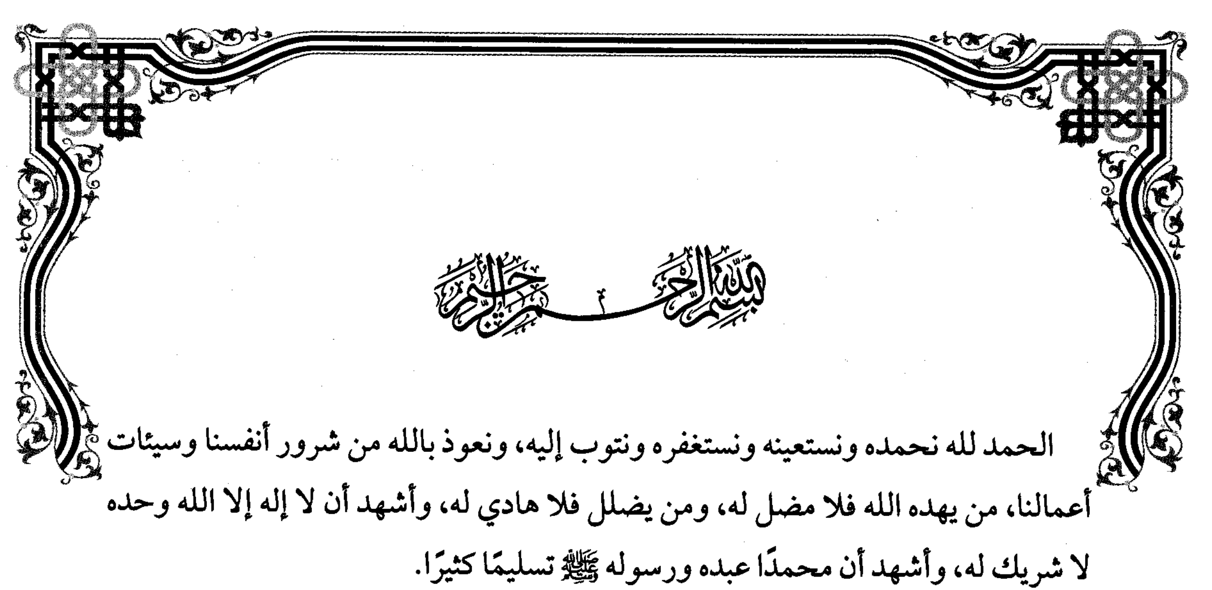
مجموع مؤلفات ابن سعدي (١٩)

تنزيه الدين وحملته ورجاله

مما افتراه القصيمي في أغلاله

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإني قد وقفت على كتاب صنفه عبد الله بن علي القصيمي سماه **هذي هي الأغلال** فإذا هو محتوٍ على نَبْذ الدين، والدعاية إلى نبذه، والانحلال عنه من كل وجه؛ وكان هذا الرجل قبل كتابته، وإظهاره لهذا الكتاب معروفًا بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق، والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة، فلم يَرُعِ الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب، الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقًا.

وبعدما كان في كتبه السابقة معدودًا من أنصار الحق، انقلب في كتابه هذا من أعظم المنابذين له، فاستغرب الناس منه هذه المفاجأة الغريبة لسوابقه؛ ولسنا بصدد التعرض للأسباب التي دعته لكتابة هذا الكتاب، وكثير من الناس يظنون به الظنون التي تدل عليها القرائن، وليست بعيدة من الصواب، لظنِّ بعضهم أنه ارتشى من بعض جهات الدعاية الأجنبية اللادينية، ولكن لما كتب هذا الكتاب، وطبعه ونشره بين الناس، وجعله دعاية بليغة لنبذ دين الإسلام، بَلْه غيره من الديانات والمبادئ الخلقية، فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم، خشية اغترار

من ليس له بصيرة بكلامه، حيث كان معروفًا قبل ذلك من علماء المسلمين، ولم يدر ما طرأ عليه من الانقلاب؛ وإننا نعلم أن الذين يقرءون كتابه، ويقفون عليه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من له بصيرة ومعرفة وتفريق بين الحق والباطل، ومعرفة بحقيقة الدين، فهذا لا يحتاج إلى التنبيه، بل مجرد وقوفه على كلامه وفهمه يكفيه معرفة ببطلانه وفساده؛ لأن هذا القسم من الناس لا تغرهم الألفاظ المزخرفة، ولا الاستدلالات المزورة المبهرجة.

القسم الثاني: من وقف على كتبه السابقة، ثم على كتابه هذا، ورأى ما فيها من الاضطراب والتناقض والتضارب وعدم الاستقرار على قول ورأي واحد، يقول القول اليوم فيهدمه بالغد ويبني ما هدمه ويهدم ما بناه، فبينما تراه يدعي أنه ينصر الدين ويغار على المسلمين، إذ تراه ملحًّا في هدم أصول الدين، وقواعده حاملًا على حَمَلته متهكمًا بالعلماء والمرشدين، مؤيسًا لهم من الرقي في الحياة ما داموا متمسكين بدين الإسلام. وبينا تراه يحط على أئمة الدين، ومصابيح الدجى، إذ يصب الثناء والمدح على أئمة الكفر وزنادقة الملاحدة ويعظمهم غاية التعظيم، وبينا تراه يذم القديم، ويحث على رفضه ومراده به ما جاء به الدين علومًا وأخلاقًا وأعمالًا، ويحث على الأخذ بكل جديد، إذ تراه متناقضًا يحث على اتباع المنحرفين؛ كأرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من المتقدمين والمتأخرين، إلى غير ذلك من مناقضاته، التي توجب للناظر فيها أن يهدر كلامه ويسقطه من الاعتبار، ولو لم يكن من أهل العلم والإبصار.

وأما القسم الثالث: الذين لا بصيرة لهم يميزون بها بين الحق والباطل، ولا وقفوا على تناقضه وعدم استقراره على رأي واحد؛ فإنهم يخشى عليهم من الاغترار بكلامه؛ لأنهم يسمعون عبارات مزخرفة، واستدلالات مموهة، لأنه يردد المعنى الضئيل بعبارات كثيرة، وأساليب متنوعة؛ ونحن لا ننكر ما في كلامه وكتابه من المعاني الصحيحة المطروقة التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويبدونها، من الحث على تعلم العلوم وفنون الصنائع النافعة وما فيه من ذم الجهل وآثاره الضارة، وما فيه من تأخر المسلمين في الفنون العصرية وما فيه من

وصف تفوق غيرهم في فنون المادة، فقد ذكر أهل العلم من هذه الأمور أكثر مما ذكر هذا الرجل، ولم يبيّن ما بيّنوه ولا شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقة ولا كيفية الدواء.

والمقصود أن ما في كتابه من الحقائق لم يكن أول من قالها، بل لم يزل أهل المعرفة يقولون ما هو أتم منها، وإنما المنكر الفظيع والطامّة الكبرى ترويجه بهذه الأمور على من لم يعرف الحقائق، وجعلها له كالأساس الذي يحمل منه على الدين وأهله الحملات المنكرة المتكررة.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

مقدمة ونظرة إجمالية
في محتويات ومواضيع هذا الكتاب

من نظر فيه وتأمله حق تأمله عرف أنه ما كتب أشد وطأةً وأعظم عداوةً ومحاربة للدين الإسلامي ومنفرًا منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب، وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل ولا افترى مفترٍ على الدين كافترائه، ولا حرّف أحد له نظير تحريفاته، وما صرَّح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين وأصوله وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وحَمَلته كاستهزائه وسخريته، فإنه اشتمل على نبذ الدين ومنابذته ومنافقته؛ ثلاثة لا تُبقي من الشر شيئًا إلا تضمنته، فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله فضلًا عن فروعه، وهو أكبر دعاية للإلحاد، ومقاومة للدين وأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات، التي جعلها في صورة نصر الدين، ما يعد من أعظم النفاق والكيد والمكر للإسلام وأهله ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وجملة ذلك أنه تلقى عن جميع أعداء الدين ما وجهوه إلى الدين وإلى أهله من جميع ألوان الشُّبه التي تدعو إلى الكفر والتكذيب بالدين، وزاد عليهم زيادات واستدرك أمورًا لم يصلوا إليها، فإن النافين للباري الجاحدين له؛ كزنادقة الدهرية وفرعون وأشياعه الذين صرحوا بجحد رب العالمين بالكلية وتكذيب رسله جهرًا وعلنًا، ثم أظهره زنادقة الاتحاديين بأسلوب آخر، وهو أن الوجود كله واجبه وممكنه واحد بالعين، فلا ثَمَّ رب ولا مربوب ولا خالق ولا مخلوق؛ الجميع شيء واحد، ثم أظهر هذا الكاتب صاحب كتاب **الأغلال** بأسلوب أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الأنبياء والرسل وأهل الأديان، فهو غالط ضال عنده.

أعداء الرسول تنوّعوا في تكذيبه فقالوا: ساحر وشاعر. وقالوا: مفترٍ كذاب؛ وزنادقة الفلاسفة قالوا: إن الرسل كذبوا لمصلحة الناس، وخيَّلوا للناس تخييلات خالية من الحقائق. وهذا صاحب **الأغلال** جاء بوجه آخر، حيث حلل بزعمه حياة النبي ﷺ ذلك التحليل الخبيث الباطل؛ بأنه يخلو بالطبيعة ويناجيها، وتأخذ بلبّه وعقله، ويظل ليله ونهاره نازعًا إليها وقد افتتح بها رسالته بخلوته بها ومناجاتها في غار حراء، وختمها به حيث كان ينزع إليها وهو في سياق الموت، ويقول: «**في الرفيق الأعلى**»[1]، فهذا التحليل الخبيث الذي لا يروج على الصبيان قد أخذه بعينه من دعاة النصارى ومضلليهم، إذ قالوا هذا القول الذي هو التكذيب المحض، فعند صاحب **الأغلال** ليس ثَمَّ وحي ولا مناجاة لله ولا نزول جبريل بالوحي من عند الله، وإنما ذلك خيال لا حقيقة، فظن بجهله أنه بهذا الكلام المموه يسلم من الشناعة.

أعداء الرسل من الدهريين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وهذا القصيمي يقول: ما هي إلا الطبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم، وتدبره وتنظم الأمور الجليلة والدقيقة، وأنكر قضاء الله وقدره، ورجّع ذلك إلى العلم بانتظام الطبيعة، وهذا إنكار منه لله ولأفعاله ولصفاته؛ وكما أنكر توحيد الربوبية، فقد أنكر توحيد الإلهية والعبادة، ولم يرتض بما قاله المشركون، بل أنكر عبادة الله بالكلية، وأنكر الافتقار إليه، وتهكم بالمفتقرين إلى ربهم الداعين لله المخلصين لربهم وملأ كتابه من السخرية بهم، وكما أنكر الربوبية والإلهية والرسالة، إذ فسرها بذلك التفسير الخبيث الذي يرجع إلى نفي الرسالة، فقد أنكر عقوبات الله ومثوباته الدنيوية والأخروية، وأنكر أسبابها وسَخِر بالمؤمنين بها؛ وكذلك رمى جميع طبقات الأمة، وخصَّ منهم العلماء الأعلام، وهداة الأنام، بضعف العلم والعقل والرأي، وأوجب الكفر بهم وبعلومهم، وبما قالوه وصنّفوه من كتب الحديث والتفسير والفقه والأصول والفروع، وجعلهم مجرمين يستحقون العقوبة، وأهدر فضائلهم بالكلية، وأكبر من ذلك وأطمُّ أنه باهَتَ وصرَّح بتحقير الأنبياء تحقيرًا لم يصل إليه ملحد؛ إذ

---

(١) البخاري (٣٦٦٩)، ومسلم (٢١٩١).

صرَّح بأنَّ جميع الرسل والأنبياء والهداة من أتباعهم، لم ينفعوا الناس في الحياة بشيء من النفع، ولم يقدروا أن يصيروا فيها مخلوقات متألقة لهم فضائل يهتدى بها، وكما رمى الأنبياء وأهل الأديان الصحيحة كلهم، ولم يستثن منهم أحدًا، فإنه عظَّم زنادقة الملحدين الأولين منهم والآخرين، وأوجب الأخذ عنهم، والحذو على منوالهم، وحتَّم نبذ القديم الذي في مقدمته الكتاب والسنة، وما عليه الصحابة والتابعون، وأوجب أن تتخذ ثقافة جديدة إلحادية ينبذ فيها الدين الصحيح، ويكفر به وبحملته.

ويعتقد أن الصحابة في طور الأطفال، أو طور قريب من طور الحيوانات السذج، وأنهم لا يعلمون الأمور على حقيقتها وإنما يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وإنما العلم والفضل منحصر عنده في الأجانب الإفرنج؛ وسلك مسلك الإباحيين في التهتك والإباحة، وكذَّب ما جاء في الكتب، وعلى ألسنة الرسل، من قصّة آدم وزوجه وذريته، فزعم أن الإنسان الأول مخلوق شبيه بالحيوان، لا يقدر على النطق ولا التخاطب بوجه من الوجوه، ثم انتقل إلى طور الإشارات، في مدد طويلة ثم بعد مدد طويلة جدًّا تدرّج شيئًا فشيئًا، حتى انتقل إلى طور التخاطب بالألفاظ المبهمة الساذجة.

وكذّب ما جاءت به الرسل، أن الله علّم آدم الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، واتبع سفهاء الخرافيين، وكذّب جميع النصوص من الكتاب والسنة، الواردة في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وفي فضل الصبر على المصائب وثواب أهلها، واستهزأ بها وبأهلها وملأ كتابه من السخريات والاستهزاءات، وكل هذه الحقائق وما هو أكثر منها قد تضمنها كتابه المذكور، كما سنشير إليها مفصلة مشارًا إلى صفحاتها من كتابه المذكور.

فصل

ولما كان هذا الكتاب موجهًا إلى قلب الدين وروحه، وإلى هدم علومه وأصوله وقواعده وجميع مقوماته، وكان هذا الدين العظيم بذاته وحقيقته واشتماله على أعظم الحقائق وأجلّها وأنفعها، وعلى البراهين الساطعة، والأنوار المتلألئة، يدفع ويبطل كل ما يقوم في وجهه من الشُّبُهات، ويقاومه من الأقوال الباطلة، أحببت أن أشير إشارة لطيفة قبل إبطال قول هذا الكاتب؛ إلى بعض محاسن هذا الدين، وأنه لا سبيل لأحد من الخلق أن يبطل شيئًا من أصوله وقواعده وأسسه، وأن هذا الدين العظيم، تزول السماوات والأرض والجبال وأصوله راسيات، وقواعده ثابتات، وأنواره مشرقة، وبراهينه للباطل محرقة، فهو الميزان الأعظم؛ الذي توزن به الأمور الدينية، والأمور العقلية، والأمور الدنيوية، وأبيّن عند ذلك منافاتها لقول هذا الكاتب؛ وهذا الرجل لا بدَّ قد شعر أنَّ الناس لا يشكّون ولا يمترون في منافاة كتابه وأقواله للدين، فتراه في مطاوي كتابه يعتذر ويدَّعي أنه مؤمن بالله ورسوله وبريء من الإلحاد؛ أفيظن أن الناس يقيمون لاعتذاره وزنًا؛ وكيف تقع اعتذاراته الطفيفة التافهة في جانب حملاته الشديدة على الدين والحث البليغ على نبذه، وعلى سلوك طريق الملحدين؛ كيف يقبل اعتذار من هو مجدٌّ مجتهدٌ في هذه المواضيع الخبيثة الباطلة، فهل هذا إلا من باب السخرية والتمويه على الأغرار؟! ونحن نكتب ما يجب علينا كتابته، من رد اعتداءاته على الدين، والتنبيه على بطلانها، كما هو الواجب المتعين على كل مسلم، ونرجو الله أن يعيده إلى الحق بالتوبة والتنصل، ونقض ما كتبه واجترأ عليه.

واعلم أن مدار ما بنى عليه بحوثه الباطلة، واحتج لها وبرهن عليها ورددها أمران:

أحدهما: أن المسلمين في هذه الأوقات الأخيرة متأخرون عن غيرهم في الفنون العصرية، والاختراعات والصناعات الراقية، وعلوم الطبيعة بأنواعها.

والثاني: أن غيرهم مهر في هذه الأمور مهارة لا تتصورها الأفكار، ثم بنى على هذين الأمرين جميع بحوثه الباطلة، ورتب على ذلك أنه يجب رفض ما عليه المسلمون من عقائد وأخلاق وعلوم وأعمال، وقرر في كتابه أن الدين الإسلامي أغلال وقيود تقيد الإنسانية عن التقدم والارتقاء في درج الكمال، وفي مقابلة ذلك حثّ ورحّب بكل ما أتى به الآخرون من مفاسد وعقائد وأخلاق وأعمال، وخير وشر، وقرر أن هذا هو الرشد والفلاح وبدء النجاح. وكتابه كله يدور على هذا الأصل الذي يعرف كل من له أدنى بصيرة أنه بنيان على شفا جرف هار، وأن أقل نظر يوجه إليه، وأقل برهان يقابله يبطله، وأن هذا الاستدلال هو بالترهات والبهرجات أولى منه بالحقائق الثابتة؛ فإذا تبين بطلان أصله الذي بنى عليه جميع بحوث كتابه بطل كل ما بنى عليه، فنشير هنا إلى هذا ثم نتتبع ما اشتمل عليه كتابه من المواضيع الفاسدة، فنقول:

الدين الإسلامي هو دين العدل والرحمة والعلم والحكمة، وهو دين المدنية الزاهرة المبنية على صلاح القلوب والأرواح وصلاح الدين والدنيا، وعلى السعي إلى الكمال والرقي في معارج السعادة والفلاح، وهو الدين الذي حثّ على كل خير ونَفْع وصلاح وإصلاح، وهو الدين الذي ساوى بين طبقات الخلق في القيام بالعدل والحقوق، فلم يبح الظلم بوجه من الوجوه؛ فالغني والفقير والشريف والوضيع والقوي والضعيف والعزيز والذليل، كلهم عنده سواء، قد شملهم عدلُه ورحمتُه، وهو الدين الذي يحث على القيام بما خلق الله الخلق لأجله، وهو عبادة الله وحده والإنابة إليه، والتعبُّد له ظاهرًا وباطنًا، ودوام الافتقار إليه، وهو الدين الذي يأمر بجميع معالي الأخلاق ومحاسنها، وينهى عن جميع مساويها وأراذلها، وهو الدين الذي تصلح به الأحوال؛ فكما حثَّ على القيام بإصلاح الدين فقد حثَّ على القيام بمصالح الدنيا النافعة، وكما أمر بتعلم العلوم والفنون التي ترجع إلى الإنابة إلى الله وعبوديته، فقد حث على تعلم العلوم والفنون، التي تعين على قيام حياة الأمة، وإصلاح أحوالها واستعدادها لمقاومة الأمم الأخرى، ومغالبتها والوقاية من شرورها وأضرارها،

وكما أمر بتعلم علوم التوحيد والعقائد والأخلاق، التي ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح فقد أمر بالتعلم والتفقه في الأحكام، التي ترجع إلى القيام بالعبادات الظاهرة والمعاملة العادلة، والقيام بجميع الحقوق المتنوعة، على وجه الوفاء والعدل وموافقة الحكمة، وكذلك أمر بتعلم الفنون الحربية والآداب العسكرية، والاستعدادات السياسية والصناعات النافعة، فقال تعالى في جانب مقاومة الأعداء ومهاجمتهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذا شامل لكل ما تتعلق به الاستطاعة، من أنواع العلوم والفنون العسكرية الموجودة في وقت التنزيل، والتي تحدث إلى يوم القيامة، من قوة عقلية وسياسية داخلية وخارجية، وصناعات نافعة وتعلم رمي وركوب، وسائر الفنون التي لا تتم مقاومة الأعداء إلا بها، وقال في جانب المدافعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]. فأمر المؤمنين بأخذ حذرهم من عدوهم، وهو التَّوقِّي والوقاية والاحتماء من عدوان الأعداء، بكل وسيلة وسبب تحصل به الوقاية من شرهم ومكائدهم وأسلحتهم ومداخلهم ومخارجهم؛ وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان.

وكل آية أو حديث فيه الأمر بالجهاد والحث عليه، فإنه يدخل فيه القيام بجميع الشئون التي تعين على الجهاد، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة، وهذا من البراهين على أن هذا الدين والشريعة تنزيل من حكيم حميد عليم بكل شيء، فإن إرشاداته العالية كما ترى تصلح لكل زمان ومحل؛ بل لا تصلح الأمور إلا بها.

وكما أنه أمر بالاستعداد بالقوة المادية، فقد أمر بالاستعداد بالقوة المعنوية، حيث أمر الناس وحثَّهم على الاجتماع والألفة بين المسلمين، والاتفاق على جميع مصالحهم الكلية؛ كما أمر بذلك في المصالح الجزئية، في كل ما يأتون وما يَذَرُون، في أحوالهم الداخلية وأحوالهم الخارجية، وأمرهم بالإيمان الكامل والتوكُّل القوي على الله، وتمرين النفوس على القوة والشجاعة، والتدرب في كل أمر نافع في الدين والدنيا؛ فالدين يحثُّهم على القيام بجميع الأسباب النافعة، التي تصل إليها قواهم واستطاعتهم، وعلى التوكل على مُسبب

الأسباب وخالقها ومدبِّرها، ويبين لهم أن الأمرين متلازمان، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فالأسباب وإن عظمت وقويت فإنها محكومة بقضاء الله وقدره، ولا يتم للقائم بها أمره من كل وجه إلا بتوكله واعتماده على الله تعالى، مسبِّبها ومصرِّفها والقابض على ناصيتها وأزمتها.

ويخبركم الدين مع ذلك أن التوكل وحده، بدون فعل الأسباب، وبدون القيام بالمقدور من الشئون الدينية والدنيوية، ليس بتوكُّل حقيقي، بل هو ضعف وعجز، فكلما قوي توكُّل المسلمين على ربهم، قويت أعمالهم النافعة، وقويت هممهم، وانبعثت عزائمهم إلى جميع مصالحهم، والربُّ تعالى لقيامهم بالأمرين وتحقيقهم للتوكل عليه واجتهادهم في فعل الأسباب، يعينهم وييسر لهم أمورهم، ويحقق لهم رجاءهم وينزِّل عليهم من نصره ومعونته وتأييده، بحسب قيامهم بالأمرين؛ والنصوص من الكتاب والسنة تحثُّ على الأمر بالتوكل على الله في كل الأمور، والأوامر بالأخذ بجميع الأسباب النافعة لا تنحصر، بل الدين كلُّه قيامٌ بالأسباب، وتوكل على مسببها ومصرفها. وهذا الذي نبَّهنا عليه من الدين الإسلامي هو من الكمال الذي لا يقاربه كمال، ويسقط به ويضمحل قول هذا الكاتب الذي يقول: إن الإيمان بقضاء الله وقدره، والتوكُّل على الله يوهن المسلمين ويضعفهم، وأنه يجب عليهم ترك ذلك؛ وأن التوكل على الله هو العلم بنظام الطبيعة، وكذلك الإيمان بالقضاء والقدر، كما صرح بذلك في صفحات (١٧، ٢٩، ٢٦٨، ٣١٥) من كتابه، ويتضح بذلك أن المسلمين حقيقةً المتبعين لإرشادات دينهم وتعاليمه؛ هم المتوكلون على الله حقيقةً، وأنهم أقوى الخلق على فعل الأسباب، امتثالًا لأمر ربهم وطلبًا لمصالحهم، واستمدادًا من قوته وارتقابًا لثوابه، وأن الدين الإسلامي يبطل الطريقين الذميمين: طريق العجز والضعف؛ الذي يتعلل صاحبه أنه متوكل على الله، وإنما هو مهين ساقط الهمة، معتذر بما لا يعذر به، وطريق الملحدين المعطلين، الذين يعتمدون على الأسباب ويرونها مستقلة؛ منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله لا يتصرف في الأسباب عندهم بإيجاد ولا تقوية ولا إضعاف ولا

بمنعها ولا له قدرة على معارضتها، كما قرره صاحب هذا الكتاب في ثنايا كتابه، خصوصًا في الفصل الأخير المعنون بـ: (مشكلة لم تحل)، وهذا هو التعطيل المحض والنفي لربوبية الله ولأفعاله، وهو في الحقيقة مذهب الدهريين الطبائعيين الجاحدين لله بالكلية.

وقد سلك أيضًا مسلك الدهريين في هذا؛ الذين يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، المنكرين للثواب والعقاب؛ حيث أنكر أن الإيمان والتقوى والعمل الصالح سبب للثواب العاجل والآجل، وأن الكفر والفسوق والعصيان أسباب للعقوبات العاجلة والآجلة، وتهكم بذلك وبالقائلين به المعتقدين له؛ كما صرَّح به ورده في الصفحات (٣٥، ١٦٥، ١٧٨، ٣١٥، ٣١٩، ٣٢٥). والسبب الوحيد عنده في المصائب الدنيوية وضدها، إنما هي الأسباب المادية فقط، وعمل الطبيعة. ثم لم يزل يقرر هذا الأصل الخبيث، حتى زعم أن الإيمان بالله وباليوم الآخر يمنع الرقي، ويمنع كون العبد سببًا محضًا منتفعًا بأعماله، وأنه غل ورباط يمنع من الخير والصلاح، وأن الأديان السماوية أكبر المصائب على البشر.

وقولٌ وصل إلى هذا الحد ليس بعده تقدم إلى الكفر، وإنما هو النهاية في الكفر والتعطيل، والجحود لرب العالمين، والخروج من الديانات السماوية كلها، وهو غاية الخروج من العقل والحس، فإن قضية الإيمان بالله ورسوله هي أكبر القضايا وأعظمها وأوضحها وأجلاها براهين وأدلة، وإثبات أنه هو الفعال لما يريد الخالق لكل شيء الذي يدبر الأمور كلها، ويكرم الطائعين، ويعاقب العاصين، فلا ينكر ذلك إلا مكابر مباهت منحل من العقل الحقيقي، بعد انحلاله من الدين، والمقصود أن صاحب الدين الصحيح هو أقوى الناس توكلًا على الله تعالى وعملًا بالأسباب النافعة، لأنه يعلم أن دينه يحثه على ذلك، وقد استصحب التوكل على الله والثقة به، وأن الله لا بدَّ أن يتم أمره، وخصوصًا الأسباب الدينية، والأسباب المعينة على الدين، فإنها من الدين في الحقيقة؛ لأن الدين هو جميع ما دلَّ عليه الكتاب والسنة مطابقة والتزامًا وتضمنًا، فهذا الدين لم يدع خيرًا إلا دعا إليه، ولا منفعة إلا حثَّ عليها، ولا طريقًا يوصل إلى إصلاح الأحوال الدينية والدنيوية النافعة

إلا رغَّب فيه، ولا مفسدة وشرًّا وضررًا إلا حذَّر منه، وأمر بأخذ الوسائل الواقية والدافعة له، فيا ويح هذا الكاتب القصيمي الذي زعم هذا الزعم الباطل؛ أنه مانع من التقدم والرقي ومجاراة الأمم الراقية في الحياة، وهل رقت هذه الأمم وسبقت غيرها في الاختراعات والفنون الصناعية المدهشة، إلا بعدما أدخلت عليها تعليمات هذا الدين، واقتبسوا أصل هذه الصناعات من المسلمين، بعد الحروب الصليبية وغيرها؟ ألم يكونوا في غابر الزمان والقرون التي يسمّونها القرون المظلمة في غاية الجهل والوحشية والهمجية في معرفة هذه الفنون والصناعات؟ ألم يكن المسلمون وقت قيامهم الحقيقي بهذا الدين هم سادات الخلق، الذين قهروا بفضل دينهم وأخلاقه وتعاليمه العالية جميع الأمم، وحطموها وأفنوا صروح أكبر دول الأرض يومئذٍ؟! ألم تكن مدنية الدين الإسلامي هي المدنية الزاهرة الحقيقية، حيث كان روحها الدين والعدل والرحمة والحكمة؛ وقد شملت بظلها الظليل، وإحسانها المتدفق؛ الموافق والمخالف والعدو والصديق؟! فهل أخّرهم دينهم ومنعهم الرقي الحقيقي؟ وهل نفع الآخرين كفرهم بالله وبربوبيته وإلهيته في تلك القرون الطويلة، إذ كانوا هم الأذلين المخذولين في مواقف الحياة، كما زعم هذا الكاتب الذي يهرج على من لا يعرف الحقائق؟

ثم لما ترك المسلمون الاستمساك بتعاليم دينهم وتفرقوا شيعًا، وارتقى الأجانب في علوم المادة وفنون الصناعات والاختراعات ووصلوا إلى أمر لم يسبق له مثيل، فهل أغنت عنهم هذه المدنية وهذا الرقي؟ وهل وَقَتْهم الشرور، إذ كانت مدنيتهم مبنية على الظلم والجشع والطمع المفرط وطلب استعباد الخلق، ولم يكن معها من روح الدين ورحمته شيء؟ فهل ردت عنهم هذه الملاحم والمجازر البشرية والإهلاك والتدمير، الذي لم يسبق له نظير ولا مقارب في تاريخ الخليقة؟ وهذا من أكبر البراهين على أن الرقي في هذه الحياة إذا خلا عن الدين الحق؛ صار ضرره أكبر من نفعه، وشرّه أكثر من خيره، إذا كان فيه خير، كما زعمه هذا الكاتب. فلو كانت هذه الأمم الراقية في الفنون العصرية معهم دين صحيح، وبنوا حضارتهم على الرحمة والعدل والحق والتسوية بين الخلق وبين الأمم القوية والأمم الضعيفة، في

الحقوق فما ظنك أن تصل بهم هذه الحضارة؟ وما ظنك بما ينكف بها من الشرور العظيمة التي جرت وهي جارية وستجري ما داموا على حالهم؟

أما تأخر المسلمين الآن في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات وأشباهها فليس هذا التأخر منسوبًا إلى دينهم، فليس في دين الإسلام أصل من الأصول أو فرع من الفروع يوجب على أهله التأخر بوجه من الوجوه، وإنما الأمر بالعكس، كما تقدم التنبيه عليه بأن الدين الإسلامي قد جمع بين المصالح الدينية والدنيوية، وحثَّ على جميع المنافع وعلى الأعمال والعلوم النافعة، عكس ما رماه به هذا الكاتب من الجمود والتأخر ومنافاة الحضارة والتقدم وخدمة الحياة بزعمه، وإنما السبب الوحيد الذي أخّرهم في هذه الفنون، هو ترك الاستمساك بروح الدين ومقوماته، وترك الأخذ بما يحثُّ عليه من الاجتماع والائتلاف واتفاق الكلمة، والتشاور في الأمور كلها، وترك الأغراض الشخصية للمصالح الكلية، وبتركهم الجهاد القولي والبدني والمالي، وهو مقاومة الأعداء بكل وسيلة تناسب الزمان والمكان بحسب الاستطاعة؛ فالدين يحث على الأخذ التام بهذه الأمور التي لا قوام للأمم بدونها وهم كسلوا وغفلوا عنها علمًا وعملًا، وأهملوا مصالحهم ومالوا إلى الترف والدّعة والرضوخ والاستعباد للأجانب، فلما رآهم الأجانب بهذه الحالة المؤلمة لعبت بهم سياساتهم وفككتهم وفرّقتهم زيادة على ما اتصفوا به من التنافر والاختلاف، وعلى ما زهدوا فيه من الجهاد ومقاومة الأعداء، واستعبدوهم بكل حيلة وحللوا معنويتهم وروحهم الدينية وصاروا يضربون بعضهم ببعض ويقيمون لهم من جنسهم ومن بني قومهم ممن يتسمى بالإسلام من يقيم الدعايات الباطلة في تزويدهم من هذه الحال الحرجة وممن يفتّ في أعضادهم ويخدر أعصابهم، ويسعى بكل مقدوره في تأييسهم من التقدم وفي إماتة هممهم؛ كما ترى هذا الكاتب الذي توسل باسم الدين والغيرة على المسلمين، وسعى في نبذ الدين ومحاربته بهذه الطريقة التي أربت على طرق المنافقين؛ وزعم من بهرجته التي لا تروج على أحد أن المسلمين على اختلاف طبقاتهم من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأصناف المحدثين والمفسرين والفقهاء والأصوليين وسائر طبقات الأمة كلهم زعم أنهم

لم يفهموا الدين، وأنه مستحيل أن يسعوا في مصالحهم، وغير ممكن لهم ذلك إلا بنبذه، وأنه قيود تمنع التقدم؛ كما صرح بذلك في صفحات: (١٧، ٣٦، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ٩٧، ١٤٠، ٣١٥) من كتابه، وهذه دسيسة خبيثة، فإن كان أحد عنده أدنى تمييز يعلم حق العلم أن هذه المباحث التي اشتمل عليها كتابه منافية للدين بالكلية، ومناقضة له من كل وجه، ولكنه جاء بهذه الوسيلة ليقول المفترون: ليس دين الإسلام، ما فهمه المسلمون والأئمة والعلماء على اختلاف طبقاتهم، وإنما هو شيء آخر مجهول عندهم، وقد علمه هذا الكاتب، وهو ما أراده وسعى إليه من معانقة دين الملحدين، ورفض دين المسلمين وسائر المرسلين.

ثم إن هذا الكاتب لم يكفه أن يقدح في هؤلاء المتأخرين من المسلمين، بل وصلت به الحال إلى أن قدح في خير القرون؛ وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الدين والهدى، حيث زعم أنهم لم يفهموا من دينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وأن معارفهم وعلومهم النافعة كلها بالنسبة إلى معارف المستأخرين من الملحدين، كنسبة معارف الأطفال إلى العقلاء الراشدين أو أقل من ذلك، وحثَّ غاية الحث على رفض مقالات هذه القرون المفضلة، وأنه يجب تعليم الناس الكفر بهؤلاء الأئمة وبمعارفهم وفضائلهم وما قالوه وعملوه أو ورثوه، وتهكم بمن يدعو إلى الأخذ بما أخذ به الأولون؛ وملأ كتابه من هذه المواضيع الخبيثة والوقاحة والجراءة التي لم يرتكبها غيره كما صرح به في صفحات (١٤، ١٦، ٢٩، ٦١، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٨٥، ١٢٠، ١٤٠، ١٧٠، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٥). فيا ويحه ما أخسر صفقته وأقل حياءه، وهل يشك أحد أو يرتاب مسلم أو منصف، ولو كان من غير المسلمين أنه لم يوجد ولن يوجد أحد أكمل علمًا وفضلًا وأخلاقًا وعدلًا ورشدًا وعقلًا وكمالًا في كل الخصال العالية من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؟ وأنه ما وصل لأحد غيرهم خير وفضل وعلم إلا على أيديهم؟ وقد كذّب في كتابه هذا ما كتبه عنهم في كتبه السابقة، وقد شهدت الأمم الأجنبية بكمال فضلهم وشمول رحمتهم وعدلهم؛ قال جوستاف لوبون فيلسوف فرنسا الشهير: «ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب».

وكانوا إذا فتحوا البلدان، وجرت عليها أحكامهم العادلة وشفقتهم على بني الإنسان، امتلأت قلوب الأجانب من محبتهم، وتمنوا دوام ملكهم وسلطانهم، واختاروهم على قومهم وأهل دينهم؛ مع أن النفوس مجبولة على التعصب، لما ألفت من الأديان والأوطان والأنساب والمذاهب؛ فلولا أنهم رأوا من رحمتهم وعدلهم، ما لم يشاهدوا له نظيرًا، لم يخضعوا كل هذا الخضوع، ويعطوا ما بأيديهم مذعنين راغبين غير مقهورين على إرادتهم، فإنهم يجدون الفرص الكثيرة لحدوث الثورات، ولكن الرحمة والعدل من المسلمين أوجبا لهم السكون والطمأنينة، لظلِّ هذا الدين القويم، وهذا الكاتب يعلم حق العلم أنه كذّب نفسه بنفسه وأنه ناقض في كتابه هذا ما كتبه في كتبه السابقة، ولهذا جعل يندب نفسه ويندم ويتحسر وينوح على زمانه الماضي، وكيف قضاه في عبادة الله ومتعلقاتها؛ لأنه لا يجهل أن الناس يعرفون منه هذه الحالة، ولهذا كان الكلام معه في هذا الكتاب، لا يشبه الكلام مع المبتدعين من المسلمين، الذين يعظمون الدين ويؤمنون بالله ورسله، وإنما يتكلم معه كما يتكلم مع الأجانب عن الدين والكافرين به، ويناظر كما يناظرون، لأنه في كتابه هذا كشف الغطاء وصرح بالعظائم الكبرى المنافية لدين الإسلام بالكلية.

ثم إن هذا الكاتب يزعم أن تلك القرون المفضلة، التي لم يشاهد الناس لها مثيلًا في الجلال والجمال والكمال، لم تبلغ رشدها بل هم في طور الطفولة، وعنده أن الرشد والكمال المفضل منحصر في الماديين من الملحدين؛ كما صرح به في تلك الصحائف آنفة الذكر؛ والسبب الذي أداه إلى هذه المقالات الجائرة المنحرفة، أن الفضل منحصر عنده في شيء واحد، وهو عبادة الطبيعة ووجوب إعطائها القلب والقالب والظاهر والباطن، والانصراف بالكلية إلى هذه الحياة فقط، والتمتع بزهرتها، والانحلال عن القيود الدينية، وإباحة جميع ما تشتهيه النفوس، وإطلاق العنان لها؛ كما أطال في هذا الموضوع وردد فيه الكلام الساقط، ثم في مقابلة ذلك التحامل على كل ما يعارض هذا الطريق والتهكم بالدين وحملته، فإذا كان هذا هو الكمال عند هذا المنحرف، لم يستغرب بعد هذا قدحه في خير العالمين، وسخريته من علومهم وأخلاقهم وأعمالهم، وما هم عليه في جميع الأحوال، فصار منطبقًا عليه

وعلى أمثاله غاية الانطباق قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣] ولهذا ارتكب العظائم في تحليله لحياة النبي ﷺ وشخصيته الكريمة، بكلام طويل مردد كقوله: كان يعبد الطبيعة، وأنها قد أخذت بقلبه وقالبه ولبّه، وأنه كان يناجي الليل والنهار والضياء والظلمة والنسيم ونحوها مما يشاهد، وأنه افتتح رسالته بمناجاة الطبيعة والخلوة بها في غار حراء، وختم رسالته وحياته بشدة النزوع إليها وقت السياق حيث كان يقول: **«في الرفيق الأعلى»**[(١)].

وهذا بعينه قد أخذه من دعاة النصارى المفترين، الذين لما بهرهم ما جاءهم به محمد ﷺ من الدين الحق والتعاليم العالية والرقي الكامل والفتوح الباهرة والآثار التي لم يحصل عشر معشارها لأحد من الخلق؛ طفقوا يموهون على الناس ويحللون حياته ﷺ تحليل أحد رجال الطبيعة، يعني الذين لا يؤمنون بالله وملائكته وعالم الغيب من الأرواح والجن بله الدار الآخرة، وما وراء المحسوسات والملموسات، فأخذ عنهم هذا المأخذ الخبيث، وأنكر الوحي والرسالة بهذا التحليل؛ ورمى النبي ﷺ بأنه طبيعي لا يعرف الله ولا يعرف الوحي، فلم ينزل عليه جبريل من عند الله، ولا كان يناجي الله ولا يعبده، ولا كان عند السياق إلا مشتاقًا إلى الطبيعة فقط، لأنه لا يعرف الله ولا يريده ولا يحبه ولا يطلبه عند هذا الكاتب الذي تجرأ على ما لم يتجرأ عليه من يتسمى بالإسلام من الملحدين. ولا تستغرب هذا عليه؛ فإنه سيأتي أنه صرح تصريحًا لا تردد فيه بالكفر بالأنبياء والرسل كلهم، وصرح أنهم لم ينفعوا الخلق بوجه من الوجوه، فمن كانت هذه وقاحته وتصريحاته، فلا يستبعد عليه شيء؛ وظهر بهذا غرضه الوحيد، وهو الدعاية البليغة إلى نبذ الدين وأصوله ومحاربته بكل طريق. ومن فضل الله أن طريقته في كتابه قد عرفها الناس، وعرفوا ما ترمي إليه من الغايات، وعرفوا الأيدي المحركة لها، ويأخذهم العجب الكبير؛ كيف صار هذا الرجل بعد سوابقه فريسة لأعداء الدين، وآلة لهم صماء في طريق مآربهم ومقاصدهم؛ فنسأل الله أن

---

(١) البخاري (٣٦٦٧)، مسلم (٢١٩١).

يهدينا وإخواننا المسلمين، وألا يزيغ قلوبنا بعد الهداية. والمقصود أن هذا الكاتب جعل الفضل كله في جانب الأجانب الكفار، ولم يدر - أو درى وتجاهل، وهو الأحرى بمثل هذا الرجل - أن الفضل الحقيقي هو السعي في طرق الكمال، والتخلق بكل خلق جميل، والتنزه عن كل خلق رذيل، وهو الفضل الذي يرقي القلوب والأرواح، ويوصل أهله إلى أعلى الغايات وأشرف السعادات، الذي أصله وأساسه العقائد القلبية المؤسسة على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والأعمال القلبية التي مدارها على الإنابة إلى الله، وانجذاب دواعي القلب كلها إلى الله رغبة ورهبة ومحبة وخوفًا ورجاء وقصدًا وطلبًا وتعبدًا وتألهًا وإخلاصًا صادقًا لله وحده لا شريك له.

ثم القيام بالشرائع الظاهرة؛ من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام والجهاد في سبيل الله، وما يتبع ذلك من القيام بحقوق الوالدين والأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين وتوفية الحقوق كلها بالعدل والإنصاف وعدم الظلم والجور على القريب والبعيد والعدو والصديق، وبذل الجهد بالقيام بكل ما يعين المسلمين على أمر دينهم، والاستعداد الكامل لمقاومة الأعداء، والسعي في جمع كلمة المسلمين، ومحبة الخير لهم وتحصيله بكل مقدور، فإذا كان هذا هو الفضل الحقيقي، وهو كذلك؛ فقد علم كل من له أدنى تمييز أن للصحابة والتابعين لهم بإحسان من هذا أوفر الحظ والنصيب، وأن الصحابة رضي الله عنهم فوق جميع طبقات الأمة، في كل فضل وعلم وعمل، كما أن الأمة أكمل الأمم في كل فضل وخير، وأكمل الأمم المنتسبة إلى الأديان، فكيف بالأمم المنحلة المعطلين لرب العالمين، الذين انحلوا من عبادة الرحمن، فعبدوا الطبيعة، فتبًّا لمن آثرها بظاهره وباطنه، على الله ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]. وزعم هذا الكاتب أن التقيد بالإيمان بالله، وبما أخبر الله به على ألسنة رسله قيد وغل، يحول بين الإنسان وبين المطالب العالية النافعة، ويقيده عن عبادة الطبيعة، التي هي الغاية عند أمثال هؤلاء، فيحق لمن كان هذا منتهى مراده وطلبه أن يكون أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا

كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٨]. وفي قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ١٥]. إلى آخر الآيات.

ثم إن هؤلاء المنحرفين الملحدين، الذين انخدع هذا الكاتب بدعايتهم الخبيثة، يدعون إلى نبذ كل قديم واعتناق كل جديد، وقد أبدى هذا الكاتب في هذا وأعاد، وكرر ذلك مريدًا بهدم القديم هدم أصول الدين وقواعده، كما تجده في صفحات: (١٦، ٣٧، ٦٤، ٦٩، ٧٠، ٩٦، ١٦٠، ٣٠٢، ٣١١) من كتابه، وغيرها من الصفحات، وهذه الدعاية الخبيثة مقصودها الأعظم وأساسها الذي بنيت عليه رفض الشرائع والأديان والانحلال من قيود الدين وحلّه وتحريمه وجميع أحكامه، والانخراط في سلك المعطلين لرب العالمين المنحلين من جميع شرائع الدين، وأول ما يدخلون في هذا الأصل الباطل رفضُ ما جاء به الرسول ﷺ من أصولٍ وأخلاقٍ وأعمالٍ وغيرها، وتوصلوا بهذا إلى الطعن في خير القرون وإهدار أقوالهم وعقائدهم وعلومهم، بل وجميع محاسنهم، والحمل على حَمَلة الشريعة وأئمة الهدى ومصابيح الدجى، كما أشرنا إلى الصفحات الموجود فيها ذلك.

ثم إن هذا الكاتب بهرج على من لم يعرف الحقائق بالاستدلال بأحوال المنحرفين من الصوفية والخرافيين، ومن تسمَّى بالدين وهو منه بريء، وأورد من خرافاتهم وخزعبلاتهم، ما يُظَنُّ أنه يروِّج به باطله، حيث نسبه إلى حملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الدين وأهله الذين هم أهله؛ هم أبعد الناس عن هذه الخرافات، وأعظم المنكرين لها، وأنهم يبرءون منها، وينزهون الدين الإسلامي عنها، فكيف لا يستحي أن يستدل بأحوال ابن عربي، وخرافات الشعراني، وشطحات المتصوفة على الدين وأهله، ويتوسل بذلك إلى القدح في الدين وحملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الإسلام بريء من هذه الأمور والشطحات والخرافات، فكيف لا يستحي من هذه البهرجة والتناقض، أيظن الناس كالبهائم العجم التي لا تفهم شيئًا، أم سحر عقله فصار يهذي بالباطل وبما يغلي به صدره من الغل والإلحاد؟! ألم يعلم أن الدين وأهله الذين هم أهله الذين عرفوا الحقائق، وميَّزوا بين الحق والباطل،

والمحقين والمبطلين ينفون عنه انتساب كل مبطل كما ينفون عن حقائقه كل باطل، وأن المبطل لا يروج أمره عليهم بمجرد انتسابه إلى الدين؟ فكم انتسب إلى الدين من الزنادقة والمشركين والمنافقين من هو شر من اليهود والنصارى، فمن احتج بأحوال من انتسب إلى الدين وأهله، فهو من المزورين المبهرجين، وكذلك من احتج بالآثار والحكايات الباطلة على الدين؛ فهو مفتر كذاب؛ كما فعل هذا الكاتب، وملأ كتابه من الخرافات والحكايات الكاذبة، ونسبها لأهل الدين ليتوصل بذلك إلى القدح فيه وفي أهله، والدين كما يعلم كل من له بصيرة أنه نقي خالص حق في أصوله وفي فروعه وفي أخلاقه وآدابه، وتعاليمه جميعها في غاية العلو والسمو والمكانة العالية، التي لو اجتمع جميع العقلاء أن يقترحوا أحسن منها، أو ما يقاربها لعجزت أفكارهم، وقدرتهم عن ذلك، لأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويعرف هذا بتتبع أصوله وفروعه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. أي يهدي لأصلح الأمور من العقائد والأخلاق والآداب والأعمال للأسباب وغيرها، فليأت هذا الكاتب أو غيره بمثله إن كانوا صادقين، فإن الدين الإسلامي قد فصَّل الحقائق، وبيَّن المناهج الصحيحة والطرائق، وميَّز بين الحق والباطل، وبيَّن أولياء الرحمن من أولياء الشيطان، وبيَّن الخير والشر، وبيَّن العلوم النافعة التي تنفع الخلق في دينهم ودنياهم من العلوم الضارة التي هي بضد ذلك، وهذا الرجل يدعي أن العلوم كلها نافعة، وليس فيها شيء ضار بوجه من الوجوه، والله يقول: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾[البقرة: ١٠٢].

فالدين هو الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال، ويعرف به الطيب من الخبيث، والنافع من الضار، فمن رفض من هؤلاء الملاحدة القديم، وعنى به هذا الدين الحق، فإنه في حقيقة الأمر قد رفض جميع الحقائق الثابتة، ورفض العلوم والأعمال النافعة؛ فمن أين لهذا النشء الحديث علوم نافعة، وأعمال نافعة إلا من معين هذا الدين؟ من أين لهم أن يعرفوا رب العالمين بأسمائه وصفاته، الذي هو أجلّ المعارف وأكبرها وأصلها؟ ومن أين لهم أن يوحدوه ويؤمنوا به، وبما جاءت به الرسل إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يقوموا بحقوقه، وحقوق

خلقه العادلة الفاضلة، ومن أين تأتيهم إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يهتدوا للأخلاق الجميلة، ويتنزهوا عن الأخلاق الرذيلة إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم أن يعرفوا الصراط المستقيم المحتوي على الحق علمًا وعملًا إلا من هذا الدين القويم؟ ومن أين لهم معرفة الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، والعقود والعهود، والشروط والحدود والمواريث وتوابعها إلا من هذا الدين؟ ومن أين لهم الطريق الذي أدركوا به تعلم الصناعات، وأنواع الفنون والمخترعات النافعة إلا بعد أن نشر هذا الدين ظله على الخلق، فأشرقت على الأرض أنواره، فاقتبس من هذا النور كل أهل علم نافع في الدين والدنيا، كل أحد بحسب مشربه؟ فإن هذا الدين هو الذي أسّس أصول الصناعات وقواعدها النافعة، وأمر بها حيث يكون فيها مصلحة للدين ومنافع للناس كافة، كما تقدمت الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وامتن على الإنسان بأن علّمه ما لم يعلم من جميع العلوم والفنون النافعة، فهذه علوم الشريعة على وجه التنبيه والاختصار كما ترى، هل بقي علم نافع إلا دخل فيها؟ وهل بقيت معارف يحتاج الخلق إليها في أمور دينهم ودنياهم، إلا احتوى عليها؟ وهل ندّ عنها وسيلة وسبب وطريق، من الطرق النافعة إلا واشتمل عليها؟ فإذا رفض هؤلاء الملحدون القديم، وعنوا به دين الإسلام فقد رفضوا جميع الأمور النافعة فأي شيء يبقى بأيديهم يؤسسون عليه علومهم وأعمالهم؟ فهؤلاء الذين يذمون القديم - ومؤلف كتاب **الأغلال** حامل رايتهم - مرادهم بذلك التوسل إلى رفض الدين الإسلامي، بل صرحوا بمرادهم، ومع ذلك فهم كذبة يتناقضون في هذا الإطلاق، فإنهم يذهبون إلى تقليد أرسطو وأفلاطون والفارابي وابن سينا ونحوهم من ملاحدة الأولين والآخرين، فهؤلاء وإن كان لهم مهارة في علوم المادة المحضة، فإن كلامهم في الدين وأصوله أضعف بكثير من كلام أدنى طلبة العلم الديني، كما هو معروف من أحوالهم.

ومن أراد الوقوف على جهل هؤلاء الذين عظّمهم هذا الكاتب، فلينظر إلى المناظرات بين أقوالهم وأقوال أئمة الإسلام، ولينظر إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خصوصًا

العقل والنقل الذي وضَّح به بالبراهين العقلية، فضلًا عن النقلية جهلهم البالغ ومعارفهم الضئيلة في أصول الدين، وضلالهم العظيم فيها، وإنما الذي رفع شأنهم عند أتباعهم، معرفتهم في علوم الطبيعة، الذي يشترك فيه البرُّ والفاجر، فهؤلاء وأمثالهم يقدّمهم هذا الكاتب، على ما جاءت به الرسل، ويقدمهم بلا خوف ولا خجل على ما جاء به محمد ﷺ وما ذهب إليه الصحابة والتابعون وأئمة الدين والهدى، وحسبك بقولٍ هذا منتهاه، وهذا حاصله بطلانًا وفسادًا وجهلًا وضلالًا، بل مكابرة وعنادًا، وهذا الكاتب سلك في نصر هذا المذهب الخبيث مسلك الأجانب؛ أي الأجانب عن الدين يريد أعداءه ورافضيه، الذي ليس الغرض منه إلا إضلال الخلق، وهو كما ترى منافٍ للعقل والدين، أما الدين فلا يمتري فيه أحد كما نبهنا عليه، وأما العقل فإن العقل والدين متآزران، لا يردُ الدين بما ينافي العقل الصحيح، ولا يمكن أن يرد شيء معقول مقطوع به يخالف الدين بوجه من الوجوه، وقد أخبرناك بأن الدين قد نبّه على الأصول النافعة كلها، وأن نهاية ما فعله المتأخرون هو ترقية الصناعات وتفريع المخترعات والمهارة العظيمة من أمور الطبيعة، التي كانت أصولها يتناقلها الخلف عن السلف؛ ثم إن هذا الكاذب موّه على الناس، وزعم أن الذي أوصل هؤلاء المتفننين في العلوم العصرية والاختراعات نبذهم للدين، وكل أحد يعلم أن نبذهم الدين لم يوصلهم إلى مصلحة دنيوية، فضلًا عن المصالح الدينية، وإنما الذي أوصلهم إلى الترقي في هذه الفنون، جدّهم البليغ واجتهادهم ومواصلتهم الليل مع النهار في تعلمها وإدراكها وتفريعها وترقيتها، وقد تقدم لك أن الدين الإسلامي، يحث على تعلم كل نافع منها، ويأمر بكل علم يعين الأمة على مقاومة الأمم ويوصلها إلى مصالحها، فمن استدل بتفوق الأجانب في علوم المادة على صلاح دينهم وفساد دين غيرهم؛ فهو من أجهل الخلق، وأبعدهم عن المعارف بالكلية، أو مغرر مموه يقصد الترويج على من لم يعرف الحقائق، كما هو دأب هذا الكاتب الذي يسعى فيه.

ومن تمويهاته الشنيعة التي يريد بها محاربة الدين وأهله، أن يزعم أن المسلمين يحثون على الفقر والبأساء والضراء وأنواع المصائب، ويطلبونها ويسعون في تحصيلها بكل طريق،

ويسخر منهم، ومن ذكر الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على فضيلة الصبر على الفقر والأمراض وأنواع المصائب، كما صرح بذلك في صفحات (١٢٦، ١٤٠، ٣١٩) وكذلك جميع النصوص الدالّة على ذلك من الكتاب والسنة، وهذا من باب قلب الحقائق؛ فإن ذلك من أعظم محاسن الدين الإسلامي، حيث أرشد أهله إلى التربية العالية، التي هي أنفع التربيات وأجلّها وأكثرها آثارًا حميدة، فقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في فضل الصبر على المصائب والأمراض وأنواع المحن، التي لا بدَّ للخلق كلهم منها في هذه الدار، وذكر فضائل الصابرين، وما لهم من عند الله من الثواب، وذلك ليوطنوا أنفسهم على تقلبات هذه الحياة الدنيا من غنى إلى فقر، ومن يسر إلى عسر، ومن بأساء وضرَّاء إلى خير وسرَّاء، ومن عافية إلى مرض، ويعلمهم كيف يتلقون هذه الأمور الملازمة للبشر في أطوار حياتهم، فهي من ضرورات الحياة والوجود، وأمرهم أن يتلقَّوا النِّعم والخيرات، بالشكر والاعتراف بنعمة المنعم، وصرفها في الأمور النافعة، في أمر الدين والدنيا، وعدم الطغيان والبطر فيها، وأن يتلقوا المكاره والمصائب بالصبر والاحتساب والرضا بما مَنّ المولى، والرجاء لثوابها العاجل والآجل، فهم يتقلبون في أحوالهم كلها مسرورين مغتبطين، إن أصابتهم سرَّاء شكروا، وقاموا بحق المنعم، وصرفوها فيما يعود عليهم بالنفع عاجلًا وآجلًا، وإن أصابتهم الضرَّاء صبروا وتضرعوا، فهم أقوى الخلق، وأجلدهم عند المصيبات والمكاره، التي لا يسلم منها بر ولا فاجر، بل كثير منهم يتلقونها بالرضا والطمأنينة والشجاعة التامة وعدم الكراهة، حيث تخور عزائم المنحرفين عن الدين، عند المصائب، ويجري لهم من التسخطات والجزع والهلع والآلام القلبية والزلازل الروحية والفظائع والفجائع، التي قد توصلهم إلى الانتحار، الذي يبرهن على ضعف النفوس وخورها، وأنه بلغ معها المكروه مبلغًا لا تصبر معه على الحياة، فقارن بين هذه الحال الفظيعة وحالة المسلمين القائمين بوظائف دينهم؛ تجد الفرق العظيم بين النفوس والهمم القوية من المهينة، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ٩ - ١١].

وتعرف بذلك أن النصوص التي فيها فضائل الفقر والفقراء والأمراض والمصائب المتنوعة، والحثُّ على الصبر والمرض وبيانُ ما في ذلك من الثواب، لقصد حث النفوس على مقابلتها خير مقابلة، وأن ذلك من محاسن دين الإسلام؛ حيثُ يُمَوِّه هذا الكاتب أنَّ نقل أهل العلم وهداة الأمة هذه النصوص تدل على سوء حال المسلمين، وأنهم بذلك يسعون ويطلبون هذه الأمور بجدّهم؛ وهذا من التمويه الذي لم يصل إليه أحد من الأجانب، فأين دعواه أنه ينصر الدين، وهو من أكبر المحاربين له؟ ولقد علم كل أحد أن هذه النصوص قُصِد بها تربية المسلمين على مجابهة هذه البلايا بصدور منشرحة ونفوس مطمئنة، وكلُّ عارف بدين الإسلام يعرف أنه يأمر بالأخذ بجميع أسباب الصِّحة؛ من تدبير الأغذية والنوم والنظافة الإيمانية والحركة الرياضية ونظافة الأبدان والثياب والفرش والمساكن وغيرها، حيث يَدَّعي هذا الكاتب عكس ذلك، فليأتنا بمثال واحد ونصٍّ واحد من الدين، يدل على ما قاله من رميه الدين وأهله بالدَّنس والوسخ والأخلاق والآداب المزرية؛ فيا ويحه ما أعظم جرأته، وكذلك هذا الدين يحثُّ على التداوي إذا وقعت الآلام، ويخبرهم الشارع أنه «ما من داء إلا وله شفاء ودواء، علمه من علمه وجهله من جهله»[1]؛ لئلا يخلدوا إلى الكسل عن مداواة بعض الآلام، ويظنون أنه لا دواء لها فإنهم إذا علموا أن لها دواء جدُّوا في تعلمه وطلبه، وكذلك المسلمون يسعون في دفع مضرات الفقر والأمراض والبلايا، ويسألون الله العافية منها، فهم يدافعون أقدار الله المكروهة شرعًا وطبعًا، بأقداره المأمور بها شرعًا وطبعًا، وليسوا كما رماهم به هذا الكاتب، أنهم يسعون لتحصيلها، فهم أصبر الخلق على المصيبات، وأعظمهم سعيًا في جميع الأسباب النافعات، وليسوا كمن صرف جميع هِمَّته في السلامة من الأمراض البدنية والفقر، ولا يبالي بدفع الأمراض الروحية، التي هي أشد فتكًا وأعظم هلاكًا وأدوم شقاءً،

(١) البخاري (٥٦٧٨).

وهي أمراض القلوب، ولا في دفع الفقر الحقيقي، وهو الإفلاس من الباقيات الصالحات، كما يدعو إليه هذا الرجل، ويحث عليه في كتابه، ويحث على صرف الهمة كلها للوسائل، ويزهد ويثبط عن المقاصد النافعة، التي لا تنفع الوسائل بدونها.

فهل ينفع إصلاح الأبدان فقط مع فساد القلوب؟ وهل يفيد إصلاح الدنيا فقط مع تخريب الآخرة؟ فالآخرة والعمل لها ليس عند هذا الكاتب لها ذكر ولا خبر؛ وإذا انهار الأصل تداعت الأركان والفروع؛ فالمسلمون بالمعنى الحقيقي يقومون بعبودية الله التي خلقوا لأجلها، ويستعينون بما في هذه الدنيا على هذا المطلوب الأعظم، فهم أطيب الخلق نفوسًا وأغناهم قلوبًا وأشكرهم لله عند النعم والمحبوبات، وأصبرهم عند البلايا والمكروهات، فدين الإسلام من محاسنه أنه يدعو إلى هذه الحياة الطيبة، ويجمع بين الوسائل النافعة والمقاصد المطلوبة، حيث تدعو الآراء المنحرفة التي يدعو إليها هذا الكاتب إلى اللذات الحاضرة الجزئية والشهوات والأغراض السفلية.

ومن تأمل كتاب هذا المنحرف رأى أنه يُبدي ويُعيد في صرف القلوب بالكلية إلى الشهوات واللذات وإطلاق السراح للنفوس، وأنه لا ينبغي أن تتقيد بشيء يصدّها عن تحصيل مآربها السفلية، ثم في مقابلة ذلك يهون الجزاء الأخروي، وقد يستهزئ به ويجيء بأساليب استهزاء وسخرية محزنة، كما ذكره في صفحات (١٧، ٣٥، ٣٧، ٦٦، ٧٨، ٨٥، ١٢٦، ١٧٨، ٣١٩، ٣٢٥). فيا ويحه ماذا أبقى على دينه، بل ماذا أبقى على عقله؟ فإن الاستهزاء والسخرية بوعد الله ووعيده، كما أنه مخرج من الدين، فإنه مخرج من طور العقل، فهل في القضايا والحقائق أعظم وأكبر من وعد الله ووعيده؟ وهل في جميع المسائل الكلية والجزئية أجلى برهانًا وأوضح أدلة من أدلة هذا الأصل العظيم، الذي اجتمع على تحقيقه وتصديقه جميع الأنبياء والرسل والأدلة السمعية والعقلية، بل والأدلة الحسية المشاهدة؟ فمن أنكر ذلك واستهزأ به فقد نادى على عقله بالسفه والخروج عن طور العقلاء، بعدما خرج من الدين، فكل من استهزأ بالإيمان وبوعد الله ووعيده، فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ

كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]

ومن بحوث هذا الكاتب الخبيثة أنه أنحى على خيار الخلق، وحمل عليهم في قيامهم بخالص العبودية وروح الدين والإسلام، وهو الافتقار التام إلى الله وتفويض العبد أموره كلها إلى الله، ونقل كلام ابن القيم رحمه الله في حقيقة الفقر، ذلك الكلام النفيس القيم في تحقيق العبد افتقاره إلى ربه وتعلق قلبه التام بربه، الذي جاءت به الكتب ودعت إليه الرسل، وتنافس في نيله أرباب الصدق والإخلاص، وأولو الألباب، فساقه مع غيره، نافيًا له متهكمًا، ساخرًا بعباد الله المخلصين، هازئًا بالأخيار المفتقرين إلى الله خالقهم الغني الحميد، وهو في الحقيقة المسخور منه، المبتلى ببلوى يسألون الله منها العافية، وهذه السخرية في الحقيقة والتكذيب موجهة إلى روح الدين، فإن روح الدين هو التواضع والذل التام لرب العالمين، ورؤية العبد افتقاره الحقيقي إلى ربه واضطراره إليه في جلب مصالحه ودفع مضاره، وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا بوجه من الوجوه، وأن من تمام عبوديته إلى ربه أن يلجأ إليه ويضرع إليه في جميع شئونه، ويعلم أنه في غاية العجز والضعف عن القيام التام بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وعن القيام بجميع الوسائل النافعة، وأنه وإن لم يُعنه ربه لم يتم له أمر؛ فالمسلمون يعلمون أن افتقارهم إلى ربهم لا ينافي قيامهم بالأسباب النافعة، كما أن القيام بالأسباب لا ينافي الافتقار إلى الله تعالى، بل كل واحد من الأمرين يمد الآخر؛ فكلما ازداد العبد افتقارًا إلى ربه والتجاء إليه جاءه من معونة ربه وتيسير أموره ما لا يحصل له بدون ذلك، وكلما قام بالأسباب مستعينًا بالله أمدّه بإعانته وتوفيقه.

فهذا الكاتب ظن أو جعل افتقار المسلمين إلى ربهم يوجب الضعف والكسل وموت الهمم، وصوّره بهذه الصورة الشنيعة، ثم طفق يحط على خيار المؤمنين ويرميهم بضعف الرأي والهمة والعقل، ولم يعلم المسكين أنه ينادي على نفسه بسفاهة العقل وقلة الإدراك، إذ كان هذا ظنه، وإن كان الأمر غير ذلك، فهو يبرهن على خداعه وبهرجته وتصويره حالة المسلمين بحالة شنعاء، ليتوسل إلى القدح فيهم وفي دينهم، عند من لا يعرف الحقائق، ويح

هذا الرجل إذا أنكر روح الدين ومقوماته وأصوله العظيمة، التي لا تستقيم جميع الأمور إلا بها، فماذا يعترف به؟ وإذا ذم الافتقار إلى الله والرجاء له في كل الأحوال، والاعتراف بأنه هو الميسر للأمور المسهل للصعاب الذي ما بالعباد من نعمة وخير وتوفيق فليس إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وهو الذي يجيب دعوات المضطرين ويرحم ضعف المفتقرين ويجبر قلوب المنكسرين لجلاله، الطامعين كل الطمع في فضله ونواله، إذا ذم هذا فأي شيء يحمد ويمدح؟ أيحمد النفس الضعيفة المهينة العاجزة عن مصالحها إلا بإعانة ربها؟ أو يثني على الطبيعة ويأمر بالافتقار إليها وصرف الهمم والقلوب إليها؟ وهذا ما يدعو إليه؛ فيا ويحه ما أخسر صفقته، ويا ليت شعري ماذا يقول في أكمل الخلق في جميع الصفات الكاملة وسيد المتوكلين وقدوة المفوضين وأعظم الخلق افتقارًا إلى ربه بكل معنى واعتبار حين يقول ﷺ: **«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك، وأصلح لي شأني كله، اللهم إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وعجز وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك»**[1]

لا بدَّ أن يقول: إن هذه حالة ذميمة، صاحبها مهين ضعيف النفس كسلان، كما صرح به حيث وجه الذم إلى المسلمين المفتقرين إلى ربهم، حسبك بقولٍ فسادًا وبطلانًا وشناعة أن يبلغ هذا المبلغ؛ ولقد تمم كلامه في الافتقار إلى الله كلامه في التوكل، حيث فسر التوكل بتفسير طويل مردد يرجع حاصله إلى أن معناه العلم بنظام الكون، وأنه لا يتغير ولا يمانعه ممانع، ولا يغير الله أسبابه، بإيجاد أو تقوية أو زيادة أو نقص، فأبطل التوكل من أصله ونفاه من أسه، والتوكل هو من أعظم أصول الدين وأعمال القلوب، التي لا تتم شروطها إلا بالإيمان التام بالله تعالى، والإيمان بقضائه وقدره، وأنه تعالى هو المتصرف ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الأمور كلها بيده وتحت تدبيره، وأن نواصي العباد بيده تعالى، وأن

(١) أحمد (٢٠٤٣٠). وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (١٠٤١٢).

أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وجميع شئونهم الجليلة والحقيرة منتظمة في قضائه وقدره، وأن أفعالهم من طاعات ومعاصٍ داخلة في مشيئته وقدره، وأن الله جعل لهم الاختيار فيها ولم يجبرهم عليها، فإذا علم العبد ذلك حق العلم اعتمد على ربه اعتمادًا حقيقيًّا في جلب مصالحه وفي دفع مضاره الدينية والدنيوية ووثق بتحقيق مطلوبه، وأن الله كافٍ من توكل عليه، فهذا التوكل الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، واتفق عليه جميع أهل الملل والأديان الصحيحة، وهذا قد أبطل ذلك كله؛ لأن من كان أصله نبذ الإيمان والحث على نفيه، وزعمه أنه لا تقوم الأسباب إلا برفض الإيمان، ومن كان مذهبه أن التدبيرات في العالم العلوي والسفلي كلها من تدبيرات الطبيعة ونظامها وتفاعلها وتطورها، ومن كان مذهبه في الوحي ذلك التفسير الذي نبهنا عليه، ومن كان رأيه في الجزاء الدنيوي والأخروي ما أشرنا إليه، ومن كان يدعو إلى رفض القديم الذي هو كتاب الله وسنة نبيه، ومن كان يأمر الناس بثقافة جديدة إلحادية ينبذ فيها تعاليم الدين وأخلاقه كلها، ومن صرّح بالكفر بجميع الأنبياء تصريحًا لا يمتري فيه كما سيأتي إن شاء الله نص كلامه، ومن كانت هذه الأصول الخبيثة وغيرها أصوله التي يبني عليها، فلا تستغرب عليه إنكاره للتوكل على الله، وتكذيبه جميع نصوص الكتاب والسنة في معناه.

وكذلك من مباحث هذا الكتاب الضارة، التي بلغت في الفظاعة ووصلت في الخلاعة مبلغًا ما وصل إليه ولا تجرأ عليه أحد له أدنى عقل وبصيرة من الأولين والآخرين، ما يبديه ويعيده ويكرره، أن الإنسانية لا تزال في تطورها وترقيها، حتى تصل إلى الاتصاف بصفات الرب العظيم، إن كان يثبته بلفظه فالإنسان بزعمه يمكنه أن يكون بكل شيء عليمًا، وعلى كل شيء قديرًا، وأنه قد علم ما كان في أول الموجودات، وما يكون من آخرها، وأنه علم مبدأ هذه الخليقة، وخلَّف علوم الرسل خلف ظهره، وهو يحاول علم ما سيكون في هذا العالم، بل علم مقدار ما بقي من عمر هذا العالم، وقد علم حالة العالم السفلي، وهو يحاول وسيدرك علم العالم العلوي وصنع الصور والأجسام، وهو يحاول أن ينفخ فيها الروح،

فهو لا يستبعد إيجاده للحيوان الصناعي والإنسان الصناعي غير مبالٍ بتكذيبه لله ورسله، فقد زعم أنه قد يتمكن أن يوجد الحيوانات، ويزعم أن التفريق بين الخالق والمخلوق أكبر الأغلاط، وأنه يجب ألا يفرق بين الرب العظيم وبين الإنسان، وأن من فرّق بينهما فلجهله وضلاله وغلطه، كما صرح بذلك في هذه الصفحات من كتابه المذكور (٣٨، ٥٨، ٦٧، ٧٠، ٧٧، ٧٨، ٩٧). فانظر كيف رمى بهذا الأمر الفظيع، وهو تضليله للمفرقين بين الله وبين خلقه، كل رسول أرسله الله إلى الخلق، وفي مقدمتهم محمد ﷺ فضلًا عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى.

فإن زبدة ما جاءت به الكتب السماوية والرسل العظام، هو توحيد الباري واعتقاد انفراده بجميع معاني الكمال المطلق، الذي لا تدركه العبارات ولا تتصوره الأفكار، وأن جميع المخلوقات في العالم العلوي والعالم السفلي، لا يمكن بل يستحيل ويمتنع أن يساووا رب العالمين، وأن يماثلوه في صفة من صفاته، ولا نعت من نعوته، وأن أظهر القضايا الدينية والعقلية والفطرية هو التفريق بين الخالق والمخلوق في كل النعوت، فالرب هو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرزاق المدبِّر وما سواه مرزوق مدبَّر، وهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، والعليم بكل شيء، والقدير على كل شيء، والعزيز بكل معاني العزة، والحكيم الجامع لمعاني الحكمة، والعظيم الذي له جميع صفات الكبرياء والعظمة، إلى غير ذلك من نعوت جلاله وصفات كماله، والمخلوق حادث بعد العدم له أول وآخر، وهو ضعيف العلم، ضعيف القدرة، والله تعالى هو الذي أعطاه ما أعطاه من علم وقدرة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأعظم الخلق وهم الرسل والملائكة قد اعترفوا أنه لا علم لهم إلا ما علّمهم الله، فمن سوّى بين الله وبين خلقه، فلا يَعْدُو إما أن يكون أعظم الخلق جهلًا وضلالًا واغترارًا، وإما أن يكون منكرًا لرب العالمين جاحدًا له من كل وجه، يريد أن يخادع ويماكر بإظهار الإيمان به. فهذا الكاتب خادع ومخدوع، بما رآه في تفوق الأمم المتقدمين في الصناعات والاختراعات والفنون العصرية، وأنهم لما مهروا في علوم المادة والطبيعة، فلا بدَّ أن يصلوا إلى العلوم التي لا يعلمها إلا الله، ويقدروا على

ما ليس في وسع الخلق وطاقتهم القدرة عليه، وإن جاز أن يظن هذا الظن، فليعلم إن كان لم يعلم أن الله تعالى خلق الإنسان في هيئة وخلقة قابلة للترقي في العلوم والأعمال، التي هي في طوره وطاقته، وأمده بالعقل والفكر وإرشادات الرسل ومن سلك سبيلهم في هداية الخلق وهيأ له الأسباب التي توصله إلى أعلى ما يمكن الوصول إليه، من الأطوار البشرية وجعل له حدًّا ينتهي إليه، ويتعذر عليه مجاوزته، جعله يترقى في أشرف العلوم، وهو علم التوحيد والعقائد والأخلاق والأحكام، وفي علوم السياسة وتدبير الأمم وطبقات الناس، وسخّر له هذا الكون يستخرج آثاره ويستمد بقواه على صنائعه ومخترعاته، فحصل للناس في هذه الأمور ارتقاء إلى حيث هيئ لهم كلٌّ على حسب مشربه.

أما الرسل وورثتهم من العلماء الربانيين والأئمة المصلحين الهادين المهديين، فشربوا من العلوم الدينية وتغذوا بالمعارف الربانية المصلحة للقلوب والأرواح المرقية لها إلى أعلى الدرجات، وأكمل السعادات، وكملوا ذلك بعلوم الأحكام ومعرفة الحلال والحرام، وعلوم المعاملات والحقوق المتنوعة بين الخلق المبْنية على كمال العدل والقسط والصلاح والإصلاح، ومعرفة الفنون السياسية وجميع العلوم المعينة على الدين، المصلحة للأحوال الجالبة للمنافع الدافعة للمضار، حتى صاروا هادين مهتدين، بهم يهتدي المهتدون وبإرشاداتهم يقتدي الصالحون، فلم يصل لأحد علم ولا معرفة ولا خير إلا على أيديهم، وبهدايتهم وعلومهم ومعارفهم توزن العلوم والمعارف، وبأخلاقهم وأعمالهم يتبين الصالح من الفاسد، فبلغوا شأوًا وغاية لم يصل إلى قريب منها أحد من الأولين والآخرين، وصار الواحد من أتباع الرسل وأئمة الهدى، لو قيس به جميع من يعظمهم هذا الكاتب، ويخضع لمعارفهم وأحوالهم من أئمة الملاحدة؛ لم يصل إلى عشر معشار ما أوتيه من القوة العلمية، فضلًا عما يترتب على ذلك من أحوال القلوب والإنابة إلى الله تعالى، وكل من له معرفة يشهد بذلك، والكاتب اعترف به وشهد حيث ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الصراع ترجمة حافلة وفضّله على جميع العلماء، وأنه بزّهم بسعة علمه وقوة إرشاده وسعة اطلاعه ومهارته العجيبة، ولا فرق بين المسلمين

منهم والمبطلين، ولكنه كذّب نفسه وتناقض في هذا الكتاب، فيا ويحه المسكين أنى يؤفك ويصرف عن الحق. وأما في هذا الوقت الأخير فقد جدَّت الأمم الإفرنجية والأمريكية ومن تبعهم، واجتهدت في الفنون العصرية، وصرفت لها أوقاتها وراحاتها، وأقبلت عليها إقبالًا عظيمًا، فبلغت هذا المبلغ الذي لم يصل إليه أحد، وهي جادّةٌ في السير إلى تكميل فنونها، وستصل بحسب ما يرى إلى ما تصل إليه قواها ومداركها.

وأما كون معارفهم لا منتهى لها وأعمالهم لا حد لها وأنها ستزاحم رب العالمين وستعلم كل شيء وتقدر كل شيء، فهذا أمر يعرف بطلانه ببداهة العقول. نعم هي قد توصلت من علوم المادة الأرضية والحيوية وتسخير القوى السفلية إلى أمور لا يمكن إنكارها، أما كونها تتصل إلى عالم السماوات والعالم العلوي وعلم ما كان وما سيكون، مما لا سبيل لها إليه بوجه من الوجوه أو أنها ستتمكن من إيجاد الحيوانات ونفخ الروح فيها فهذا ممتنع في العقول الصحيحة كما أنه ممتنع في الشريعة، فإن الله تفرد بغيوب لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب فضلًا عن غيرهم، وتفرد تعالى بأنه هو الذي يميت ويحيي لا يشاركه في ذلك مشارك من أهل السماء وأهل الأرض، فهنا يقال على سبيل التحدي لأي مخلوق يكون: قد صنع هؤلاء المخترعون وأهل المهارة في علوم المادة الصورة والصنائع المدهشة، فهل في إمكانهم إيجاد بعوضة أو غيرها أو يردوا الروح إذا بلغت الحلقوم إلى موضعها؟

ويقال: هذه الأمم قد أوجدت المراكب البرية والبحرية والهوائية وسخّروا مادة الكهرباء حيث يريدون ويشاءون، وفعلوا كذا وكذا مما هو داخل في قدرة الإنسان وحللوا العناصر الكبار والصغار فهل في إمكانهم أن يوجدوا أصغر مخلوق؟ وهل لهم طريق إلى العلوم الغيبية التي انفرد الله بعلمها؟ فهل عندهم علم متى يجيء المطر ومتى يموت الصحيح وما مقدار عمره وماذا يكسب الخلق في مستقبلهم على سبيل العلم الجازم؟ ونهاية ما عندهم التكهنات والتخرصات بحسب ما يشاهد من الأسباب، وهل لهم سبيل إلى العلم بأحوال البرزخ والآخرة مما أخبرت به الرسل وكيفية ما فيهما، وعند هذا الكاتب أن الإنسان لا يتعذر على علمه ولا

على قدرته شيء، فتأمل هذا القول الذي لم يصل إليه أحد من العقلاء ولا الحمقى.

وفي كتابه في مواضع متعددة اعتراف بانفراده عن الناس بكثير مما ذكرناه ونذكره عنه من الأقوال الباطلة وأنه أدرك ما لم يدركه الرسل وأتباعهم، وهذا مع ما فيه من العجب والاغترار البليغ، والكذب الصراح، اعتراف بالشذوذ ومخالفة العقلاء كلهم، وهذا من التجرؤ والافتراء بمكان سحيق، فالمشركون واليهود والنصارى، لم يجرؤوا على ما يقارب هذا القول، وقد اتفق جميع المثبتين للخالق؛ من أهل الأديان وغيرها، أن المخلوق لا يمكن أن يساوي الخالق بوجه من الوجوه، ونهاية ما بلغ شرك المشركين أنهم جعلوا لهم آلهة يزعمون أنها يعمل لها من العبودية ما يستحق لله مع اعترافهم أنها مخلوقة عاجزة ناقصة، وأنهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، فتبًّا لمن صرح بمقالة يتحاشى ويتنزه عنها اليهود والنصارى والمشركون. وأما قصور هؤلاء المتأخرين في علوم التوحيد والدين، مع مهارتهم في فنون الطبيعة، فهذا من آيات الله وبراهين قدرته؛ أن تجد أناسًا في غاية الذكاء والبراعة، وقد أدركوا من العلوم والفنون العصرية ما عجز عنه الأولون وحار فيه الآخرون، ثم هم مع هذه البراعة والذكاء المفرط في هذه الأشياء تجدهم في غاية الجهل والقصور العظيم والضلال البعيد عن العلم بالله وتوحيده، وما يستحقه من العظمة والجلال، وتجدهم يشاهدون من خوارق علم الإنسان ما تخبرهم به الرسل عن الله وأخباره وغيوبه وأحوال الجزاء، وهم مقيمون على الكفر والتكذيب؛ أفبِقُدْرة الإنسان يؤمنون، وبقدرة الملك العظيم يكفرون؟! فهؤلاء برعوا في أمور خاصة ضئيلة بالنسبة إلى العلوم النافعة والمطالب العالية، التي لا سعادة للخلق ولا فلاح لهم إلا بها، وعموا عن المقاصد، فبذلك يعلم أن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه، وأن إعجاب الإنسان بنفسه، وتيهه بمعارفه الضئيلة أكبر حجاب بينه وبين الله، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وشقي.

ومن فروع غلوه في الطبيعة أن ادّعى وكابر، وكذَّب ما جاءت به الرسل، وأخبر الله به في كتابه ورسوله محمد ﷺ عن آدم أبي البشر وزوجه، وعدوهما إبليس وما قص الله من

أنبائهم، فتجرأ هذا الرجل وترك ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية، وسلك مسلك ملاحدة الطبائعيين، الذين نظروا نظرية خرافية تسمى نظرية داروِن الإنكليزي، مآلها تسلسل الإنسان عن القرد، والقرد عن كلب أو حيوان دونه وهكذا، خطّأهم فيها قومهم فضلًا عن الرسل وأتباعهم، حيث زعم أن الإنسان الأول في طور شبيه بالحيوان، أو هو الحيوان وأنه بقي مددًا طويلة ملايين أو ملايين الملايين، حسابًا جزافًا لا ينطق ولا يحسن الخطاب ولا يرد الجواب، وإنما يتناعتون ويتصايحون تصايح الأجنة، في أول وضعهم من بطون أمهاتهم، وأنهم مكثوا تلك المدد العظيمة، وهم على هذا الوصف، ثم إنهم ارتقوا عن هذا الانحطاط، فتمكنوا من الإشارات، وصار بعضهم يشير إلى بعض، من غير أن يهتدوا إلى نطق، ثم مكثوا ما شاءت الطبيعة - إلا ما شاء الله عنده - حتى ترقّوا، فصاروا يتمكنون من النطق، فلم يصلوا إلى هذا الطور حتى مضت عليهم أحقاب بعد أحقاب، وهذا مع ما فيه من تكذيب جميع الكتب والرسل، فإنه أخبث التخرصات، وأبعدها عن الحقائق، فأي طريق دلهم على هذا التخرص الباطل، وأي سند أوصلهم إلى هذه الجراءة، ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يفْضح النابذين لدينه المكذبين له ولرسله، تركوا علوم الرسل والحقائق اليقينية، وتبعوا التخرصات وما خرصوه وتخرصوه في الحفريات، وما يجدونه من جثث بعض الحيوانات، فبعدًا لمن اختار هذه الخرافات والخزعبلات على ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وويل للكافرين من عذاب شديد، الذين يكذبون الله ورسوله ويؤمنون بكل شيطان مريد.

ثم انظر إلى المبحث الأخير من كتابه الذي عنوانه: (المشكلة التي لم تحل) في صفحة (٣١٥) وما بعدها إلى آخر كتابه، كيف أتى فيه بالطامات والفظائع، وأنكر المنكرات، وكيف حاول وصرح بأن الإيمان بالله وإثبات وجوده وربوبيته وأفعاله من أشكل المشكلات، وهي أصل الأمور وأوضحها وأجلاها براهين، ثم صرَّح بهذه الجراءة التي ما وصل إليها أحد من البشر إلا فرعون وأشباهه، الذين أنكروا رب العالمين وجحدوه بالكلية. وقد صرح أن الأولين والآخرين لم يحلوا هذه المشكلة، فجميع الكتب المنزلة من الله: التوراة والإنجيل والزبور

والقرآن وجميع ما قالته الرسل عمومًا وقاله سيدهم وإمامهم خصوصًا، وجميع العلماء الربانيين والهداة المهتدين والحكماء والأساطين، الجميع عنده لم يعرفوا الإيمان بالله، ولم يحلوا هذه المشكلة التي زعمها فبقيت عند هؤلاء مشكلة الإيمان في غاية الإشكال والتعقيد، عند هذا الكاتب، فيا ويحه ما أعظم هذه الطامة، وما أشنع هذه الجراءة على الله وعلى رسله وكتبه، وعلى جميع أهل العلم، وكيف طاوعته نفسه على هذه الطامة الكبرى، وكيف لم يكن له عقل يحجزه ويردعه عن هذه الشناعة التي صار بها مضرب المثل في الإلحاد الجنوني والزندقة المتفننة، سبحان الله العظيم، وصدق رسوله النبي الكريم، هذا الدين العظيم، الذي وضح الحقائق الأصولية والفروعية، وعلوم الباطن والظاهر، والعلوم المتعلقة برب العالمين، والمتعلقة بالمخلوقين، بيَّن كل شيء وأوضح كل شيء، وهذا الرسول الكريم صلى لله عليه وسلم الذي هو أعلم الخلق على الإطلاق وأكملهم في جميع المعاني والصفات، إذا قصر هذا الدين، وهذا الرسول ﷺ عن بيان هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول والأساس الأكبر، لأمور الدنيا والآخرة، فأي شيء بيَّن ووضَّح؟ وإلى أي شيء هدى وأرشد؟ وإذا لم يحلَّ ما زعمه هذا المفتري مشكلًا، فأي مشكل حلَّه؟ وأي علم أبانه ووضحه؟ لقد كان هذا الدين على زعم هذا الكاتب، من أعظم النكبات على البشر، نقول: على زعمه على وجه الإلزام، وقد صرح بذلك في مواضع من كتابه، وعلى زعمه ما زاد الناس هذا الدين الكامل ولا الرسول العظيم ﷺ إلا شرًّا ولا أوقعهم إلا في أعظم الضرر، فسبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. هذا الأصل الكبير قد وضحه الله في كتابه، ووضحه رسوله توضيحًا حتى بلغ من وضوحه أن كان أظهر من الشمس في رابعة النهار، وأبلغ من جميع المسائل كلها، فلا يوجد في الدنيا أي مسألة إلا وكان بيان هذا الأصل أعظم من بيانها، وبراهينه وأدلته أكبر من براهينها وأدلتها.

لقد كاد الكتاب والسنة أن يكونا تأصيلًا وتفصيلًا لهذا الأصل العظيم، وأما البراهين العقلية والفطرية فكلها متفقة على الاعتراف بالله، حتى المشركون الذين يجعلون معه

مخلوقات يدعونها ويصرفون لها شيئًا من العبادة معترفون أن الله هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وقد قالت الرسل: أفي الله شك؟ وقد عظمت هذه المسألة أن يبرهن عليها كما قيل:

وليس يصحُّ في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وهذا المفتري بعد المحاولة والمجادلة، وترديد الكلام والهذر الذي لا حاصل له زعم أنه انفرد بحلها، فاستنتج بعقله الجنوني وجراءته العظيمة أن حلها الوحيد هو أن ينبذ الناس الإيمان وراء ظهورهم، ويكونوا معانقين للطبيعة، منسلخين من الدين والشريعة بالكلية، وأنهم إذا فعلوا ذلك فقد حلّوا هذا اللغز المعقد، وإن بقي عليهم بقايا من الإيمان فإنهم في قيود وأغلال قد تعذر عليهم النهوض والرقي.

فيا ويحه أين قوله إنه مؤمن بالله وبكل ما أخبر به؟ وهل بلغ أحد من الملحدين هذه الهاوية السحيقة؟ لقد وضح كل الوضوح، وزال الإشكال، أن هذا الرجل مخادع، قد سلك نهجًا جديدًا في الدعاية الإلحادية، أتى على جميع الأديان من أصلها ليزيلها ويقلعها فهو بهذه الدعاية قد تصدى لمحاربة الأديان السماوية كلها، ويحه المسكين الذي أضحى فريسة الملحدين، إذا لم يثبت أصل الإيمان فأي شيء يثبت؟ وإذا لم يؤمن بالله فبأي شيء يؤمن؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. فمن وصلت به الحال إلى هذا الحد من الجحد، لم يبق للكلام معه فائدة، لأن المكابر المباهت تريه أظهر الأشياء فينكرها.

يزعم هذا الكاتب أن إيمان المتدينين يمنعهم من مباشرة الأسباب، وإن باشروها فعلى وجه ضعيف، هذا حاصل المعنى الذي طوّل فيه الكلام، وردده واستنتج منه أنه يتحتم على الناس رفض الإيمان بالله وبأقداره، حتى يخرجوا من غلهم وحبسهم، وينطلق سراحهم، لقد صدق هذا الكاتب في أن الإيمان حبس لهم، ولكن عن التهتك في الأخلاق الرذيلة، وعن الانغماس في الفجور والفواحش الظاهرة والباطنة، وقيد لهم عن التجرؤ على الظلم للخلق، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم، وأن أهله لا يمكن أن يكونوا

إباحيين ما داموا متمسكين به؛ لكن بتركه والإعراض عنه تنحل عنهم القيود الشرعية فيصيروا كالبهائم، وتكون أمورهم فوضى.

وهذا ما أراده هذا الكاتب وهو يعلم حق العلم أن هذه الثمرات الجليلة من أعظم محاسن الدين وأجلّ ثمراته، ولكنه يسعى أحث السعي لقطعها ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. فهذا الرجل لم يسلك مسلك الحذاق من الملحدين؛ الذين يموهون بأشياء تروّج على كثير من الناس، ولكنه جاء إلى أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها، فأنكره غاية الإنكار، وكابر فيه أعظم مكابرة. زعم أن الإيمان بالله يضعف القوى ويوهن العزائم؛ والحال أنه لا تقوم القوى كلها، ولا تنهض إلا بالإيمان بالله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فكل حول وقوة مستمدة من حول الله وقوته، والعبد إذا وكل إلى نفسه فقد وكل إلى ضعف وعجز ونقص من جميع الوجوه، فالمؤمنون بالله حقًّا هم أقوى الخلق قلوبًا، وأبلغهم شجاعة، وأصبرهم على المكاره، وأثبتهم في المواطن الحرجة؛ لإيمانهم الكامل بالله ورجائهم لثوابه، وخوفهم من عقابه. فالإيمان هو مادة كل خير، وكل صلاح وإصلاح، وبه تندفع شرور الدنيا والآخرة.

ثم مع ذلك الترويج والجحد للإيمان بالله، يباهت فيزعم أن أهل الدين لا يمكنهم فهمه على وجهه؛ فعلى قوله لم يفهمه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، ولا العلماء الربانيون ولا سائر أهل العلم من المسلمين، وحيث لم يفهموه عنده يتعين عليهم رفضه والأخذ بطريقة الملحدين؛ فأين الإيمان والإسلام الذي يدعيه هذا الرجل، ويزعم أنه يغار على المسلمين وهو متصدٍّ لمحاربتهم ومحاربة دينهم؟ وأين العقل الذي يبقى على صاحبه، ويجعله متماسكًا بين الناس؟ فإن هذا تهور واستهتار ومناداة على عقله بالسفه والجنون ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. وهو مع هذا يبدئ ويعيد في الاستهزاء بشرائع الدين وبأهله وحملته على وجه الوقاحة، كدأب الحمقى والمجانين. فالمؤمن يحمد الله على العافية من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، ويسأل الله ألا يزيغ

قلبه، ولا يجعله مُثلة بين الخلق، وألا يكون كمن آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

ومن بهرجات هذا الكاتب حين قرر أن المسلمين لا يفهمون دينهم، ولا يمكنهم فهمه على حقيقته، استشهد على ذلك بما قصه عن الرازي والآمدي وابن أبي الحديد، وأمثالهم من الحائرين في معرفة الله، وإن كان بعضهم قد تراجع عن حيرته؛ فزعم هذا الكاتب أن المسلمين كذلك، حائرون لا يهتدون إلى أصول دينهم، ولم يعلم أو علم وتجاهل أن هؤلاء الحيارى إنما حاروا في معرفة الله حين رفضوا علوم الدين في هذا الباب، وتركوا ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن حيرتهم في هذه الحال من أدل الدلائل على كمال الدين، وأن كل من ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهذه صفة لكل من كذب بالحق وتركه، لا بدَّ أن يمرج أمره، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. فانظر إلى هذا الرجل كيف لما كذب بالحق وترك الإيمان بالله، ورفضه ودعا الناس إلى رفضه، كيف تقلبت به الأحوال، ولعبت به الأهواء، وصار ينادي ويدعو إلى الإلحاد بعدما كان يدعو إلى دين رب العباد، فالمسلمون ولله الحمد قد فهموا الإيمان فهمًا كاملًا، أعظم من فهم أي قضية كانت، فهم أعظم الناس يقينًا، وأثبتهم إيمانًا، وأصحهم اعتقادًا؛ لأنهم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واستقاموا على الصراط المستقيم، حيث عدل غيرهم عن هذا الطريق.

ومن فروع نَبْذِه الإيمان بالله وبما أخبر به على ألسنة رسله: إنكار الملائكة والجن والأرواح، وسياقَةُ لهذا الإنكار بأساليب تهكمية وعبارات سخرية، بما أخبر الله به وأخبرت به رسله، ونطقت به الكتب، واعترف به علية الخلق، وسائر أهل الأديان السماوية، وجاءت به نصوص الكتاب والسنة في نصوص كثيرة، زادت على التواتر، فأقر بها المسلمون واعترفوا بها، وبكل ما أخبر الله به ورسوله عن الملائكة والجن، وعن أحوال الروح في البرزخ وغيره، ولم ينكر ذلك إلا جاحد ملحد مكذب لله ورسوله، وقد تحاذق هذا الرجل حين نصر قول من كذب بهذه الأصول العظيمة؛ فجمع كل ما يقدر عليه في كتابه من خرافات الخرافيين، عن الجن والأرواح، ونسب ذلك إلى المسلمين،

ليتوسل به إلى القدح في الدين ظنًّا منه أنه يروج على الناس، ثم لما قرر هذا التكذيب بعبارات كثيرة في صفحة (٣٠٠) وما بعدها، شعر أن الناس لا بدَّ أن يقولوا: هذا كلام مكذب بالملائكة والجن والأرواح، فقال نفاقًا: «ليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح والملائكة والجان وبما أخبر الله به...» إلى آخر ما قال. فانظر إلى هذا التناقض والبهرجة التي لا تخفى على من له أدنى عقل، ولكن من غروره بنفسه، يحسب أن الناس كالبهائم. ومن كذَّب بالمدبرات أمرًا، وتهكم بما يذكر في الكتاب والسنة، ويذكره أهل العلم من أنواع التدبيرات في العالم العلوي والسفلي، التي تتولاها الملائكة بأمر الله، لم يستغرب بعد ذلك تكذيبه بتأثير العين، وتحريف النصوص الواردة فيها، وتفسيرها بما لم يفسرها به مسلم، بل ولا عاقل.

ومن كانت هذه الأصول عنده ترهات وخيالات، لم تستغرب عليه ما نصره من سفور النساء وإيجابه لمخالطتهن الرجال الأجانب، في جميع المجامع الصغار والكبار، وأنه ليس للرجال عليهن درجة، ولا لهم فضل عليهن، وأن هذا السفور والتهتك بزعمه هو عين الصلاح، وأنه لا يمكن إصلاحهن وثقافتهن وتعليمهن إلا بهذه الطريقة السافلة، وأن خيار المسلمين من القرون الماضية، من الصحابة والتابعين ومن تمسك بهديهم إلى اليوم من خيار المسلمين، أن هؤلاء كلهم من أولهم إلى آخرهم من الجهلة الهمج، حيث صانوا نساءهم عن التبرج والتهتك.

ثم باهت في ذلك ناقلًا مستحسنًا أن الشر الحاصل من النساء المصونات المحفوظات بحفظ الله، ثم بحفظ أوليائهن أهل الغيرة على الدين وشرائعه، أعظم من الشر الحاصل من النساء المتهتكات المزاحمات للرجال في جميع ميادين الحياة؛ ثم نقله القبيح واستحسانه في هذا الموضوع كلام الساقطين من الإباحيين الذين لا يرون شيئًا حرامًا خبيثًا، بل ما اشتهاه الإنسان فعله ولا قبيح عندهم إلا ما لم تشتهه النفوس؛ كما نقله في صفحة (١٠٣) وما بعدها فيا ويح هذا، ماذا ترك للفضائل الدينية والآداب الدينية والصيانة الإنسانية؟ لقد رفضها كلها، وهذه الطريقة التي استحسنها هي الطريقة الوحيدة للإباحية؛ إباحة جميع ما حرّم الله من

الشرك والفواحش والمنكرات.

إذا تقررت هذه المباحث الخبيثة والمنافية للدين من كل وجه، الدالة على انحراف عقل صاحبها، بعد انحراف دينه فلا تستغرب بعد هذا ردّه وتكذيبه للأدلة الشرعية، وتحريفه لنصوص الكتاب والسنة، وترويجه بجمع الأحاديث الصحيحة مع آثار باطلة، فيرد الجميع، وتفسير النصوص بغير تفاسير المسلمين نصرة لباطله، وإنما هي من جنس تحريفات القرامطة الباطنية، ولنذكر نموذجًا يسيرًا من هذا النوع؛ ليُعرف بذلك إلحاد هذا الرجل في ذلك.

قوله في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. ذكر في صفحة (٤٤) أن معناها: «أن الله نعى على المسلمين الموجودين وقت نزول القرآن ويعاتبهم، كيف لا يبصرون ما في أنفسهم من الآيات؛ وأن الصحابة والقرون المفضلة؛ ومن بعدهم من علماء المسلمين، انطوت قرونهم، والعتاب موجه إليهم، واللوم يقرعهم، لكونهم لم يبصروا ما في أنفسهم، من الاستعداد لاستخراج كنوزها لا لاستخراج كنوز الأرض، حتى جاء هذا الوقت فانطبقت عليهم هذه الآية: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. لكونهم العاملين بها، حيث عمي عنها الأولون، وعلِموها حيث جهلها السابقون».

فهذا التطبيق تحريف لم يسبقه إليه أحد من المسلمين، ولا ممن يدعي الإسلام، ومعناه الجلي عند هذا أن ملاحدة الأمم أكمل وأفضل وأعظم عملًا بهذه الآية من السابقين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى آخر الوقت؛ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن تحريفه لحديث: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...**» إلى آخر الحديث[1]. قال في صفحة (٤٠): إن الحديث يدل على أن العبد غير مقيد، وأنه لا يمتنع على قدرته شيء، وأنه لا حد يقف عنده علمه وقدرته.

نزله على ذلك المبحث الخبيث السابق، أن العبد في إمكانه مزاحمة رب العالمين، فهذا

(١) البخاري (٦٥٠٢).

الإلحاد والتحريف لكلام الله وكلام رسوله لم يقل أحد ما يشبهه إلا الملاحدة من أهل وحدة الوجود، ومعنى الحديث معروف ولله الحمد بين المسلمين، أن ذلك يدل على تسديد الله وتوفيقه ومعونته الخاصة لعبده القائم بمحبوباته من الفرائض والنوافل.

ومن ذلك ما قاله على قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١]. في صفحة (٦١) محتجًّا بها على قوله الباطل، حيث زعم أن علم الإنسان محيط بمبادئ خلق هذا العالم؛ فإنه يزعم أن الآية لا تنفي العلم، حيث قال: ما أشهدتهم، ولم يقل: ما أعلمتهم، وزعم أنهم كانوا عالمين وإن لم يكونوا مشاهدين، وهذا لم يقله أحد من المفسرين. أما تفسيرها المعروف عند المسلمين، فهو أن الله أنكر على الكافرين به المكذبين لرسله، الذين زعموا أن أحدًا من المخلوقين يستحق من العبادة والخضوع ما يستحقه الله فكذبهم الله، وأخبر أن جميع الخلق ليس لهم مشاركة لله بوجه من الوجوه، فلم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وهذا نفي لطرق العلم كلها، يعني فليس لهم سبيل إلى ذلك، فإنهم إذا لم يشهدوا ذلك، فهم لم يعلموه وإذا لم يعلموه فشهادتهم ودعواهم لاستحقاقها العبادة، دعوى في غاية البطلان والتقول على الله تعالى، وهي نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤].

ومن تحريفاته التي تقشعر منها الجلود، ما ذكر في صفحة: (٦١، ٦٧) على قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]. أن المراد بذلك القرن الذي أنزل عليهم، وأوائل هذه الأمة القرون المفضلة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن معناها أن علومهم لم تصل إلى بواطن الأشياء، وإنما علمهم بسيط جدًّا، وأنهم في ذلك الوقت في طور الطفولية، بل في طور قريب من طور الحيوانات، ولم يبلغوا رشدهم، وإنما الذين بلغوا رشدهم عنده ملاحدة هذا الزمان، الذين علموا من علوم المادة ما لم يعلمه الأولون، لأن العلوم النافعة عنده هي الفنون العصرية فقط، وأما الأصول والعقائد وعلوم الأخلاق وتوابعها التي علم الطبيعة فرع من فروعها، فإنها على قول هذا ليست من العلوم

التي يؤبه لها، وكفى به خذلانًا، أن تصل به الحال إلى هذا.

والآية ولله الحمد واضحة لا إشكال فيها، وأن هذا وصف للكافرين المكذبين لمحمد ﷺ، أخبر تعالى أن علومهم ظاهرة، يعلمون ظاهر الحياة الدنيا دون باطنها، وأنهم في غفلة عن الآخرة، فهذا السبب الذي أوجب لهم رد ما جاء به محمد ﷺ وإلا فلو علموا ظاهرها وباطنها المقصود منها؛ لبادروا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، كما فعله أهل العلم الحقيقي الذين بادروا لما رأوا الآيات البينات إلى الإيمان به، لكن هذا الرجل يطبّق هذه الآية على خيار الخلق، وأكمل القرون على الإطلاق، ويسخر من العالمين بباطن الدنيا المستعدين للآخرة، القائمين بعبودية الله، الجاعلين الدنيا وسيلة إلى الدين، وهو يريد ويحاول في كتابه هذا أن تكون الدنيا هي المقصودة والغرض الأصلي، وأما الآخرة فإن كتابه هذا كفيل بتزهيد الناس فيها، وفي عبودية الله، وفي الجزاء الأخروي؛ فأي إيمان وأي إسلام وأي عقل صحيح بقي بعد هذا؟!

ومن ذلك تفسيره لحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1]. بأن الفطرة هي الخبث والشر، وأن الإنسان بطبعه خلق شريرًا، وأن الفطرة معناها أنه مفطور على الشر، ويرفض جهارًا تفسير أئمة الهدى لهذا الحديث، بأن معناه هو أن الله فطر عباده على قبول الخير علمًا وعملًا، وأن الله تعالى جعل في خلقتهم استعدادًا تامًّا لقبوله نعمة منه وفضلًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١]. الآية. ويلزم على قوله أن يُستدْرَكَ على النبي ﷺ حيث قال: «**فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»[2]. فيقال: وأيضًا لم قلت: أو يجعلانه مسلمًا؟ لأن قبوله للجميع على حد سواء عند هذا، وفي نفس الحديث والآية الكريمة حيث قال: «**كالبهيمة الجمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**

(١) تقدم تخريجه ص٩.

(٢) تابع للحديث السابق.

حتى تكونوا أنتم تجدعونها»[1]. أي: كالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق كاملة الأعضاء، حتى يجدعها الناس، بقطع الآذان أو بعض الأعضاء، كذلك الآدمي خلقه الله مفطورًا على الاستعداد لمعرفة الحق وقبوله، فلو ترك وفطرته ولم يعرض له ما يغيّرها من التربية السيئة، لما اختار غير الدين الحق، وعند هذا أن الفطرة معناها الشر والهمجية، وهذا منافٍ للآية والحديث.

ومن أعظم الجرأة جراءته على قوله تعالى في صفحة (٦٦): ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. قال: يعني بذلك الذين اجتمعوا بالنبي ﷺ وآمنوا به من الصحابة الذين هم خيار الخلق وأعلمهم، جعلهم هذا الرجل ينظرون الظواهر، ولا يبصرون البواطن، فهم في طور الأطفال، كما تقدم التنبيه على هذا مرارًا، وهذا من جنس تفاسير الزنادقة من الباطنية والإسماعيلية والقرامطة؛ والآية الكريمة عند جميع المسلمين معناها ظاهر، وأن هذا وصف للكافرين بالرسول أو وصف للأصنام، فمعناها: «أن الكفار تراهم ينظرون إليك نظرًا ظاهرًا وهم لا يبصرون ما فيك من المعاني الجليلة والأوصاف الجميلة والآيات التي تدل أكبر دلالة أنك رسول الله حقًّا؛ أو أن هذه الأصنام صور بلا أرواح تراها كأنها تنظر إليك وهي لا تبصر لأنها جمادات».

ومن ذلك حقّ للراوين عن النبي ﷺ الحديث الذي في مسند البزار: **«أكثر أهل الجنة البله»**[2]. فزعم أنهم بذلك يمدحون البلاهة ويحثون عليها، وجمع في هذا خرافات الخرافيين؛ ونسبها لحملة الشريعة ورجال الدين، وكذّب الحديث المذكور.

وتفسير الحديث ظاهرٌ عند المسلمين؛ فإن النبي ﷺ لم يقل: أهل الجنة البله؛ أو لا يستحق الجنة إلا البله، بل قال: أكثر أهل الجنة البله، فهم لسلامتهم من الغل والحقد والصفات الذميمة صاروا مستحقين للجنة، لئلا يظن الناس أن أمثال هؤلاء أن الله لا يرفع قدرهم؛ مع

---

(١) البخاري (٦٥٩٩)، مسلم (٢٦٥٨).

(٢) البزار (٦٣٣٩).

أن في كتاب الله وسنة رسوله من الثناء على أهل العقول وأولي الألباب والأحلام والنهى والآراء الرزينة، والحث على كل أمر فيه زيادة اللب والعقل، فكم في كتاب الله وسنة رسوله من ذلك، من النصوص ما يدل على ذلك، فلا منافاة بين الأمرين؛ فالدين يحث على السعي في تكميل العقول، ويثني غاية الثناء على أولي الألباب، ويخبر أنهم خواص الخلق، ومع ذلك فكل من آمن وعمل صالحًا ولو لم يصل إلى درجتهم من البله الأغرار، فإنهم سعداء، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ومن العجائب تنزيله الحروب الحاضرة بين الأمم الإفرنجية والأمريكية وتوابعهم على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فجعلها المراد من الآية، وقد أجمع المسلمون على أن المراد قتال المسلمين للكفار، فهو المكتوب المفروض، وهو الذي له الآثار الطيبة، وأما هذه الحروب التي بنيت على الجشع والظلم والقسوة وعدم الرحمة، فأين خيرها وآثارها الطيبة؟ وقد عمّت البسيطة هلاكًا وفناءً وتدميرًا، وهي لا تسكن في وقت إلا للاستعداد لمجازر وشرور يُنسي آخرُها أولها، فيا ويح من ألحد في آيات الله.

ومن تحريفاته لحديث أنس «أنه ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد»[1]. قال في صفحة (١٢٠): إن ذلك مجرد دوران لا مسيس معه، وتهكم بأنس وغيره ممن يفسرون ذلك بالمسيس الذي هو معنى الحديث عند جميع المسلمين، حتى جاء هذا الرجل فأنكر عليهم وكذّبهم، وهذا الوهم الكاذب منشأه أنه ميراث ممن ورثوا القدح في الأنبياء بكثرة الأزواج، فأنزل الله منكرًا ومكذبًا لهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وأي نقص في كثرة أزواجه، وفي قيامه التام بحقوقهن، وذلك من أجلِّ مناقبه، حيث كَمَّل الحقوق الكثيرة، التي عليه وحيث كان في زوجاته من المنافع والمصالح للأمة ما لا يعد ولا يحصى.

---

(١) البخاري (٢٦٨)، مسلم (٣٠٩).

ومن جرأته العظيمة ما ذكره في صفحة (١٢٦) وما بعدها من الصفحات من تكذيبه لجميع النصوص الواردة في الزهد في الدنيا والصبر على البلاء والفقر، وهي جزءٌ كبيرٌ من أجزاء الدين كذَّب ذلك أجمع، وباهت بأمر يعرف كذبه به كل أحد، ثم روّج كعادته القبيحة بذكر أحاديث لا زمام لها ولا خطام، حشدها في كتابه وتوسل بها إلى رد النصوص الصحيحة؛ ورمى جميع المسلمين من أولهم إلى آخرهم بقبول تلك الآثار الساقطة، وتقدمت الإشارة إلى محاسن هذا الدين، وأنه يحث على جميع الوسائل والمقاصد وإصلاح الدين، وما يعين عليه من الدنيا بعكس ما كان يسعى إليه هذا الكاتب، يحضُّ على الزهد في الآخرة، بل يسخر بأهلها العاملين، وبما يذكر من الجزاء الدنيوي والأخروي.

ومن انحرافاته الفظيعة ما نقله تفصيلًا عن التوراة ليس في التوراة، بل في الأمثال المنسوبة لسليمان عليه السلام في الترغيب في الدنيا، ثم قابل بينه وبين ما جاء به القرآن والدين الإسلامي في صفحة (١٧٧) وما بعدها، وغلَّط القرآن والكتب الدينية، حيث علقت السعادة والفوز والفلاح في العاجلة والآجلة على العبادة والتقوى والصلاح، وفضَّل ما نسب إلى التوراة في هذا الموضوع على الكتاب والسنة تفضيلًا عظيمًا، بل لم يجعل لهذا الأخير فضلًا بوجه من الوجوه، بل حمل على هذه النصوص وزعم أنها هي التي خدرت همم الناس وثبّطتهم ومنعتهم من الرقي، وفيه كالتصريح بإنكار عقوبات الله الدنيوية والأخروية.

ومن ذلك في صفحة (٢٩٦) تهكمه بحديث أنس: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه**». وهو في الصحيح **صحيح البخاري**[1]، وتهكّم به وبنقلته وأنكره إنكارًا عظيمًا، والسبب في ذلك أصله الخبيث حيث فضَّل ملاحدة الزنادقة من الأولين والآخرين على الصحابة وخير القرون، وعرف أن هذا الحديث من الأدلة الكثيرة الدالة على كذبه وبطلان قوله؛ وزعم أن اعتقاد فضيلة الأولين من الصحابة والتابعين منعت الرقي، فهذه الدعاية لنبذ الدين التي يسعى لها هذا الرجل سعيًا حثيثًا، ويؤصل أصولًا خبيثة يرد لأجلها الأصول

(١) البخاري (٧٠٦٨).

الشرعية، فهذا في كتابه نهج لهذه الدعاية الإلحادية، دعايات كثيرة تارة بتحريفه لنصوص الكتاب والسنة، وتارة بالقدح في الصحابة والتابعين وحملة الدين من خير القرون الذين لم يصل للناس هذا الدين إلا على أيديهم، وقد أكثر فيه من الاستهزاء والسخرية العظيمة، حتى كادت جميع مباحثه المنحرفة تكون سخرية واستهزاء وتهكمًا بالدين والشريعة وحملة الدين.

فهنا يقف العاقل وقفة تعجب فيقول: هل ترى هذه السخريات والتهكمات الصادرة من هذا الرجل، الحامل عليها الإعجاب العظيم بالنفس واحتقار غيره؟ فإنه لا يستغرب؛ فإن الخيالات متى استحكمت في النفوس تجسَّمت وصارت لها السيطرة على عقل الإنسان، وعدم الإبقاء منه على مكانته بين الناس، فلا يستغرب بهذا أن ذكاءه وفطنته اضمحلت في ضمن هذه السيطرة حتى تلاشت، فلم يكن له إحساس بما يصدر منه، وأنه وصلت به الحال إلى ما يشبه الجنون وعدم الشعور، فإن الذين معهم مسكة من العقل المعيشي - دع العقل الديني - يبقون على أنفسهم، وعلى مكانتهم عند الناس، وفي قلوب من يعظمهم، فلا يرضى أحدهم أن تكون السخرية والاستهزاء ديدنه في الأمور العادية فضلًا عن أن توجه إلى دين الله وإلى رسله وأتباعهم؛ ولكن يأبى الله إلا أن يفضح من تعرض لدينه وشرعه وأوليائه في الدنيا والآخرة.

وإذا كان من جملة مقالاته الشنيعة الفاضحة ما صرَّح به في صفحة (٣١٧) بقوله الصريح: «**إن المتديِّنين على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عجزوا أن يهبوا الحياة شيئًا جديدًا وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة**». فهل بعد هذا التصريح بنبذ الديانات السماوية كلها، والكفر بجميع الأنبياء وتحقيرهم، وتفضيل غيرهم عليهم شيء، وهل وراء هذا التقدم إلى الكفر غاية ونهاية، وكم له في كتابه هذا من هذا النوع شيءٌ كثيرٌ؟ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

واعلم أن عباراته في هذه المواضيع، التي نبهنا عليها كثيرة مكررة بعبارات متنوعة لم

نقلها خوف طول الكلام لغير فائدة، ولكننا أتينا بمقاصدها؛ وأرشدنا لمن يحب الوقوف عليها إلى صفحاتها من كتابه **الأغلال** المطبوع؛ وكذلك في رسالتنا هذه لم نكثر من ذكر الآيات والأحاديث الرادة لقوله؛ لأن الكتاب والسنة كلها رد لقوله؛ لأنه نفى جميع أصول الكتاب والسنة، وأراد قلعها من أساسها، ولأن المقام يقتضي ذلك، فإن المناظرة مع من يعظم الكتاب والسنة نوع، ومع من لا يراهما نوع آخر.

ونحمد الله على ما نبهنا عليه في كتابه من الفظائع والشنائع التي لا يقولها إلا من انتهى إلحاده وكفره، لم نستعمل معه في خطابه الخاص إلا الرفق واللين اتباعًا للكتاب والسنة في خطاب المحاربين المنحرفين أن يقال: قال فلان، وفعل فلان؛ وأما عند ذكر الأقوال الشنيعة، فيذكر ما احتوت عليه من الضرر والمناقضة للأديان، ومرتبتها في البعد من الدين، وبيان ما على قائلها من الضلال والغي، فيكون القدح فيه موجهًا عليه من أقواله، ويبين ما على صاحبها من نقص الدين والعقل والرأي، وليس لنا غرض في شخصية هذا الرجل، ولكن لما اعتدى على ديننا الإسلامي، وعلى قواعده وأصوله وأسسه، وتهكم به وبحملته، وفضّل عليهم زنادقة الملحدين، وصنع مع المسلمين أعظم من صنيع دعاة النصارى من المبشرين، وجب على كل مسلم مدافعته ودفع شره وتبيين أمره، والتحذير من طريقته ودعايته بحسب القدرة، وإلا فوالله إننا لنأسف أشد الأسف على انقلاب هذا الرجل، ونعدّ ذلك من الخسائر علينا، حيث فقدنا هذا الرجل الذي مضى له من المقامات ونصر الحق ما لا ينكر، بل لنا أن نقرأ قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. ونسأل الله أن يرده إلى الحق، وأن يعيده إلى الإسلام بالتوبة والتنصل مما وقع منه، وأن يكتب كتابًا في رجوعه عن هذه المباحث الخبيثة، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

حرر في ٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٦٦هـ، ونقلته من خط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي أنا الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن محمد العوهلي، وحرر في ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٦هـ.

بلغ مقابلة على يد شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٦هـ.

جواب مجمل مطوّل
عما احتواه كتاب «الأغلال» من الضلال

سؤال ورد علينا يستفهمون عما يحتوي عليه الكتاب المسمى: **هذي هي الأغلال**؛ على وجه الإجمال، فأجبنا عن ذلك، بأننا قد كتبنا في موضوعاته رسالة لطيفة لا يمكننا إيرادها هنا، ولكن نظرة إجمالية تفيد عن موضوعه، فنقول مستعينين بالله، راجين منه أن يعيننا على العلم النافع والعمل، وألا يزيغ قلوبنا.

من نظر في هذا الكتاب وتأمله حق التأمل، علم أنه ما صنف أعظم وطأة وعداوة للدين الإسلامي ومقاومة له من هذا الكتاب، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب، فضلًا عمن ألحد ممن يتسمى بالإسلام بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ مثل افترائه، ولا حرّف محرّف مثل تحريفاته، وما صرّح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين والشرع وأصوله وعلومه وأخلاقه وحملته كاستهزائه وسخريته، فإنه احتوى على نبذ الدين الإسلامي ومنابذته ومنافقته، فهو صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله، فضلًا عن فروعه، وهو أكبر دعاية ومقاومة للدين، وعداءٍ له ولأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في قالب نصر الدين، ما يعد من أكبر الزندقة والنفاق والمكر والخداع، فلم يُبْقِ من الشر طريقًا إلا سلكه، فإنه شارك المنحلين عن الدين النابذين له بالكلية، وشايع الدعاة إلى نبذه، وإلى تحبيذ الإلحاد، ودخل في ضمن زنادقة الملحدين.

وهذه الأمور الثلاثة وهي: نبذ الدين ومنابذته ومخادعته، التي هي مجموع طرق أعداء الدين، جعلها موضوع كتابه، وحشا كتابه من أوله إلى آخره بها كما لا يخفى على ذي بصيرة، وذلك أنه تلقى عن جميع الدعاة إلى الكفر برب العالمين، والقدح في رسالة جميع الرسل خصوصًا خاتمهم وإمامهم محمدًا ﷺ، تلقى عن الأولين والآخرين من أئمة الكفر ودعاة

الإلحاد كل ما قالوه، وزاد عليهم زيادات، واستدرك عليهم استدراكات.

وذلك أن المعطلين للباري رأسًا، المنكرين لرسالة رسله، لهم في ذلك أساليب وألوان متنوعة، فصرَّح زنادقة الفلاسفة وفرعون وأشياعهم، بإنكار رب العالمين بالكلية، وصرحوا بقدم العالم، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ثم أظهروه بعد ذلك بأسلوب آخر، وهو الأسلوب الذي سلكه زنادقة الاتحادية الذين يرون الوجود واحدًا بالعين، فلا ثَمّ رب ولا مربوب، ولا خالق ولا مخلوق، ثم أظهره هذا الرجل بأسلوب نفاق ومخادعة أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الرسل وأتباعهم وجميع أهل الأديان فهو غالط عنده.

وقال: إن جميع صفات الباري في إمكان الإنسان أن يتصف بها، فما بعد هذا الإنكار للباري إنكارٌ.

أعداء الرسل قالوا: ساحر شاعر، وقالوا: مفتر كذاب، صارحوه بهذه الأقوال الخبيثة، وزنادقة المتفلسفة قالوا: إن الرسل كذبوا للمصلحة، وخيّلوا للناس تخييلات تخالف الحقائق، وزنادقة دعاة النصرانية لما بهرهم ما جاءهم به محمد ﷺ من الدين الكامل والأخلاق والعلوم والأعمال والفتوحات الإسلامية شرعوا يموّهون على الناس، ويزعمون أنهم حللوا حياة الرسول ﷺ وخرجوا من هذا التحليل الخبيث بنتيجة أن الوحي الذي جاءه ليس من الله، وإنما هو من نفسه لنفسه، وأنه رجل سياسي حكيم، وهذا سلك مسلكهم بعينه؛ حيث زعم أن النبي ﷺ كان يخلو بالطبيعة ويناجيها، ويناجي الليل والنهار والأرض والسماء والضياء والظلام والنسيم، وأنه افتتح رسالته بمناجاة الطبيعة والخلو بها في غار حراء، وختمها بكمال تعلقه بالطبيعة واشتياقه إليها، حيث قال في حالة السياق: «**في الرفيق الأعلى**»[1]. فهذا إنكار صريح لرسالته، وحذو لما قاله دعاة النصارى، إلا أن التعبير مختلف.

(١) تقدم تخريجه ص١٧٨.

أعداء الرسل من الدهريين الطبيعيين زعموا أنه ليس سوى هذه الحياة، وإنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، وطبيعة لا تقلع، وهذا جرى مجراهم بعينه، فقال: إن هي إلا طبيعة تفعل وتتطور، وتتفاعل وتنفعل، وتتنقل من حال إلى حال، وتدير نظام العالم، فهي المدبرة عنده للأمور الدقيقة والجليلة، وليس لله عنده فعل ولا وصف بل ولا وجود.

أعداء الرسل قالوا في رد دعوته وتكذيبه: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وهذا يزعم أن الوحي خيالي غير حقيقي، أعداء الرسول وأعداء سائر الرسل يقولون لرسلهم: إنا تطيرنا بكم، وإنا لم نر الخير على وجوهكم، ولم نر فيما جئتم به إلا الشر، وإنما الخير ما نحن عليه، وهذا قال ما قالوه وأكثر منه عن الدين حيث زعم أنه شر، وأنه من أعظم المصائب عنده، وأن أهله لا خير فيهم، ولا فيهم من الفضيلة شيء، بل هم محتوون على الرذيلة وأهله ساقطون، وإنما الخير فيما جاء به الملحدون وما عليه المكذبون هو الذي به السعادة والفلاح والرقي.

أعداء الرسل وأعداء الرسول استهزءوا بهم وبما جاءوا به، وهذا سخر بالأديان السماوية كلها، وملأ كتابه من الاستهزاء والسخرية بها وخصّ بذلك وكبره دين الإسلام، أعداء الرسول قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. يعنون بذلك رؤساء الكفر والتكذيب بمحمد ﷺ، وقدَّموا أقوالهم وآراءهم على ما جاء به الرسول، وهذا احتقر الرسول وما جاء به الرسول ﷺ وزعم أن العظمة محصورة في زنادقة الملحدين، وقدّم ما قالوه ورأوه على ما جاء به الرسول ﷺ.

أعداء الرسول من اليهود قالوا ماكرين، ودبروا ما دبروه مخادعين: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. وهذا سلك مسلكهم، فزعم أنه ينصر الدين، ليروّج بمقالته ما قاله في هدم الدين، لعل قوله يروج على ضعفاء العقول، لدعوى صاحبه أنه من المؤمنين.

أعداء الرسول من المشركين ينكرون الإيمان بالله، وإخلاص العمل لله وحده لا شريك له، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. وهذا سلك أخبث من

هذا المسلك، حيث ذمّ الافتقار إلى الله وعبودية الله ظاهرًا وباطنًا، فلم يقتصر على مذهب المشركين، بل اختار مذهب المستكبرين الذين لم يجعلوا لله شيئًا من العبادة بالكلية، وإنما الواجب عنده إخلاص العكوف على الطبيعة وعبادتها ظاهرًا وباطنًا.

المشركون الأولون يشركون بالله في الرخاء، ويخلصون لله في الشدائد، وهذا لم يجعل لله شيئًا من الدعاء والعبادة لا في الرخاء ولا في الشدة، وإنما حظه من هذا تهكّمه بالداعين لله واستهزاؤه بالمتعبدين.

أعداء الرسول يفتخرون بزخارف الدنيا ورياساتها وشهواتها، ويستدلون بذلك على أنهم خير من المؤمنين، فيقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. وهذا زاد عليهم فأوجب العكوف على جميع لذّات الدنيا، وأن تكون هي مبلغ علم الإنسان وكل همه، وأن أهل هذا من الملحدين خير من المؤمنين، ثم مكر وخادع، فكذَّب جميع نصوص الكتاب والسنة الواردة في الزهد تكذيبًا صريحًا.

أعداء الرسول قالوا: «إنا وجدنا آباءنا وقومنا على أمة ودين فلن نتركه لدين محمد ﷺ»، وهذا يدعو إلى تحتيم الكفر بما جاء به محمد ﷺ وإلى وجوب الأخذ بأقوال زنادقة الدهريين؛ زنادقة الإباحيين المتهتكين الذين لا يرون شيئًا حرامًا، وأنه ما اشتهاه الإنسان فعله، سلك هذا مسلكهم، فأباح كل ما اشتهته النفوس، وسفور النساء واجتماعهن بالرجال في جميع ميادين الحياة، ونقل كلام الإباحيين مستحسنًا له، وزعم أن سفور الخلاعة خير من الصيانة الشرعية، فأذهب شرف الدين والمروءة الإنسانية، وسلك في ذلك مسلك الإباحيين أهل الخلاعة.

أعداء الرسول قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]. وأحسن أثاثًا ورئيًا، وأعداؤه من اليهود قالوا عن المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. وهذا قال ما قالوه بعينه حيث يقول: أي الفريقين خير؛ الماديون الذين صنعوا المخترعات، ورقوا الحياة، وفعلوا كذا وكذا، أم المسلمون الذين فترت هممهم،

وضعفت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وسفهت آراؤهم، ولم يصلوا إلى ما وصل إليه هؤلاء الملحدون المكذبون للرسل؟

وأعداء الرسول يقولون: كيف نتبعكم وأتباعكم ضعفاء العقول الأرذلون الأحقرون؟ وهذا جعل طبقات المسلمين جميعهم، خصوصًا أئمة الهدى ومصابيح الدجى، موصوفين بضعف العقل والرأي، وهجّنهم وسخر منهم، وهو المسخور منه.

أعداء الرسول والرسل كلهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، فردوا لذلك ما جاءت به الرسل، وهذا فرح بعلوم الطبيعة ومعارف المنحرفين عن الدين، فقدمها على ما جاء به الرسول ﷺ جهارًا، واستهزأ بما جاء به من الدين.

أعداء الرسل كلهم زعموا أن الرسل لم ينفعوا الناس، وهذا قال عن جميع الرسل هذه المقالة بعينها، حيث صرَّح أن جميع الأنبياء وأتباعهم لم ينفعوا الناس، ولم يكونوا مخلوقات متآلفة، وإنما الذي نفع الناس عنده أئمته من الملاحدة النابذين للدين، وقد صرح بذلك مرارًا.

أعداء الرسول يسخرون من الرسول ومن المؤمنين، إذا صلوا لله، وأخلصوا له العبادة، ودعوه متضرعين؛ وهذا حذا حذوهم، فتهكم مرات متعددة بافتقار المؤمنين ودعائهم ورجوعهم إلى ربهم.

أعداء الرسل وأعداء الرسول يستهزئون بوعد الله ووعيده، ويكذبون ما قالته الرسل من العقوبات على الكفر والتكذيب والمعاصي، وهذا سلك مسلكهم بعينه، حيث تهكم بالوعد والوعيد، وكذّب بأن الكفر والفسوق والعصيان أسباب العقوبات الدنيوية والأخروية.

أعداء الرسول من النصارى يجادلونه في دعواهم لإلهية المسيح ابن مريم، وهذا يستحسن ما نقله عن أمثاله أن هذه الدعوى نافعة، حيث كانت تدعو إلى استعداد كل أحدٍ لمزاحمة رب العالمين في صفاته، إن كان يثبت رب العالمين بألفاظه أحيانًا، وأنه بالإمكان أن كل

إنسان يتمكن أن يكون كالمسيح في إلهيته، ولكنه ينكر تخصيص ذلك بالمسيح فقط، نظير ما قاله أهل وحدة الوجود: إن النصارى ضلوا بتخصيصهم هذا المعنى بالمسيح، ولو عمموه في كل أحدٍ لكانوا موحدين.

أعداء الرسول الأولون قدحوا فيه، فقالوا: لم يتبعك إلا عبيدنا وسوقتنا، وهذا قدح في جميع أتباع الرسول ﷺ كلهم، حيث زعم أن الصحابة في طور الطفولية، وأنهم في طور قرد من طور الحيوان، وإنما العقلاء عنده الذين بلغوا رشدهم هم أولئك الملاحدة الذين كان يخضع لهم ويعظمهم غاية التعظيم.

أعداء الرسول مكروا به المكرات[1] المتنوعة، ليقتلوه وليطفئوا نور الله بأفواههم، وهذا مَكَر مُخادعًا، حيث حتَّم الكفر بما جاء به محمد ﷺ من الدين الإسلامي، وأنه يجب الكفر بحملته، وأنهم يعدّون مجرمين ليس فيهم أقل فضيلة، بل هم مليئون من الرذيلة.

أعداء الرسول قالوا: ﴿ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]. وتمسكوا بدينكم، وإياكم أن تتبعوا محمدًا على دينه، وهذا سلك مسلكهم بعينه، حيث زعم أنه يتعين نبذ ما جاء به محمد ﷺ وأن نتخذ لنا ثقافة جديدة من أرواحنا، زاهدين ونابذين لجميع تعاليم الدين وأخلاقه.

الباطنية والإسماعيلية والقرامطة حرّفوا نصوص الكتاب والسنة، ونزّلوها على مذاهبهم التي هي أخبث المذاهب، وهذا صنع أعظم من صنيعهم، فحرفها ونزّلها على ما دعا إليه من الإلحاد.

زنادقة المتفلسفة قالوا: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل على النقل، وهذا قدم عقول ملاحدة الزنادقة على كل ما جاء به الرسول ﷺ، وقدم عقولهم على عقول أولي الألباب والنهى من أئمة الدين وعلماء المسلمين، من غير مبالاة ولا خوف من رب

(١) كذا.

العالمين.

بعض الكفار الذين تغلظ كفرهم ينكرون تعليق الأمور بقضاء الله وقدره، وهذا صرّح بأن الآجال والأرزاق وجميع الأمور ليس لها ارتباط بالقضاء والقدر.

أعداء الرسول يحتجون على المسلمين في هذه الأوقات بتأخرهم وسبق غيرهم لهم في علوم المادة والفنون العصرية، ويجعلون ذلك من الشبه لهم على القدح في دينهم، وهذا قال ما قالوه بعينه.

أعداء المسلمين من دعاة النصارى وغيرهم يريدون بحسب إمكانهم أن يهضموا أئمة الإسلام وقادات المسلمين بعض حقوقهم وتبريزهم، وهذا أهدر جميع محاسنهم وعلومهم وأعمالهم وهدايتهم ونفعهم، فلم يجعل لهم حقًّا أصلًا، ولا فضلًا ولا فضيلة.

بعض ملاحدة الدهريين الذين يرون قدم العالم، أنكروا صريحًا هبوط آدم وقصته، وهذا كذَّب صريحًا جميع ما حكاه الله عنه في كتابه، وحكاه عنه رسوله، وصرح بمقالة السفهاء حيث زعم أن مبدأ الإنسان في طور شبيه بالحيوان، أو هو الحيوان، وأنهم في ذلك الوقت ليس عندهم لغة يتخاطبون بها، ولا إشارات يتفاهمون بها، وإنما هي أصوات كأصوات البهائم، ثم انتقلوا عنه بعد مدد طويلة إلى أن ارتقوا إلى تفهم بعضهم بعضًا بالإشارات، ثم انتقلوا بعد مدد طويلة إلى التخاطب بالألفاظ البسيطة، ولا يخفى ما في هذا من التحريف والتكذيب لجميع الرسل.

أعداء الرسول من المنافقين آمنوا ثم كفروا، وأبصروا ثم عموا، وهذا بعدما صنف التصانيف النافعة في نصر الدين، ومقاومة المبتدعين والملحدين، انقلب هذا الانقلاب الذي محا به كل ما كتبه وقرره عن الدين، فكان ممن خسر الدنيا والآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين؛ إلا أن يتدارك ذلك بتوبة وتنصل ونقض لما كتبه في كتابه من عداوة الدين وقدحه فيه، وفي شرائعه وحملته، فالله يتوب على من تاب.

فهذه الأمور التي احتوى عليها كتابه، وصوّرناها للقارئ تصويرًا، يعرف به مرتبتها وبعدها عن الدين، ومقاومتها لتعاليمه العالية وأخلاقه السامية، وإصلاحه العام، وإتيانه بمصالح الدنيا والدين، يعجب البصير إذا تصورها كيف جمع كتابه هذا جميع ما قاله أعداء الدين ووجهوه إليه، وإلى ما جاء به من المطاعن، فحذا حذوهم، وغيَّر بعض العبارات وزوّقها وروّقها، ثم مع ذلك يظن بسفاهة عقله أنها تروج وتخفى، لقد خاب إذًا ظنه، وبطل سعيه، واضمحل أمله، سيعرف ويدري أنها أورثته تاريخًا مملوءًا بالفظائع والمنكرات، ونزّلته من أعلى المقامات إلى أسفل الدركات، وصيّرته مُثْلَة بين العقلاء في سفاهة عقله ووقاحته وانقلاب قلبه، فبئس ما اشترى، وبئس ما اختار لنفسه، وبئس ما تعوّض عن المقامات السامية بأخس المتاع.

فنلجأ إلى ربنا ونتضرع إليه ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يحبب إلينا الإيمان ويزيّنه في قلوبنا ويكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين.

وليعلم القارئ أننا لم نتجاوز ما قاله في كتابه، ولم نبالغ في شيء مما نقلناه ونسبناه إليه، وقد أشرنا بالرسالة المذكورة إلى الصفحات من كتابه الموجودة فيها هذه المباحث الخبيثة التي لا يخفى على البصير المقصود منها؛ ولا يخفى على العاقل الأسباب التي حملته على تأليفها.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ١٠/ ربيع أول/ سنة ١٣٦٦هـ.

جواب مختصر
عن حقيقة كتاب «هذي هي الأغلال»

وردت علينا أسئلة من إخواننا، يستفهمون عن حقيقة مواضيع وبحوث الكتاب المسمى **هذي هي الأغلال** للمسمى بالقصيمي، وقد كنا كتبنا في مواضيعه رسالة لطيفة، فنّدنا فيها أقواله الزائفة بالعقل والحس مع الشرع، وفيها بحوث نافعة للقارئين، لا يمكننا إيرادها في هذا الجواب المختصر، الذي سنشير فيه إشارة لطيفة لمقاصد مواضيعه الإلحادية، ونبين أنه في هذا كله تابعٌ وحاذٍ على حذو أعداء الشريعة، الذين تلونوا في المحاربة لله ولرسوله.

فنقول مستعينين بالله، راجين منه أن يهدينا، وألا يزيغ قلوبنا بمنّه وكرمه:

من نظر في هذا الكتاب، وتأمله حق تأمله عرف أنه ما كُتِب أعظم وطأة وعداوة ومحاربة للدين الإسلامي منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب وغيرهم، مثل اجتراء هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ مثل افترائه، ولا حرّف أحدٌ مثل تحريفاته، وما صرّح أحدٌ بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالشريعة والدين وأصوله وعلومه وأخلاقه وحملته كاستهزائه وسخريته، فإنه احتوى على نبذ الدين الإسلامي ومنابذته ومنافقته، ثلاثة لا تُبقي من الشر شيئًا إلا تضمنته؛ فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله، فضلًا عن فروعه، وهو أكبر دعاية ومقاومة للدين وأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في صورة نصر الدين، ما يعدُّ من أعظم الإلحاد والنفاق والزندقة والكيد للإسلام وأهله ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك أن جميع أعداء الله وأعداء رسله، تلوّنوا وتنوّعوا في الكفر والتكذيب، ونصروا ما هم عليه، وردوا ما جاءت به الرسل؛ وهذا الرجل تلقى عنهم كل ما قالوه، وزاد عليهم

في المحاربة زيادات، واستدرك استدراكات كثيرة؛ فإن النافين للباري المعطلين له بالكلية، كفرعون وأشياعه، وزنادقة الفلاسفة الدهريين الجاحدين للباري، صارحوا بهذا الجحد لرب العالمين، والإنكار له وتكذيب رسله علنًا، ثم أظهروه بأسلوب آخر، وهو الأسلوب الذي سلكه زنادقة الاتحاديين، الذين يرون الوجود واحدًا بالعين، فلا ثمَّ رب ولا مربوب، ولا خالق ولا مخلوق.

ثم أظهره هذا الكاتب بأسلوب نفاق أشنع من ذلك كله، حيث زعم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما فهو غالط ضال عنده، فغلّط هذا جميع الرسل وجميع الكتب، التي من أعظم الفرقان فيها الفرق بين الخالق والمخلوق، وكما خالف النقل فقد خرج بهذا القول الفظيع عن العقل؛ وهذا معناه الجحد لرب العالمين.

أعداء الرسول تنوعوا في تكذيبه فقالوا: ساحر وشاعر ومفتر كذاب، والفلاسفة جعلوا هذا التكذيب بأسلوب آخر، جعلوا ما جاءت به الرسل تخييلات؛ وهذا جاء به بوجه آخر، حيث حلل بزعمه حياة النبي ﷺ ذلك التحليل الخبيث الباطل، أنه كان يخلو بالطبيعة ويناجيها، وتأخذ بقلبه ولبِّه، ويظل في ليله ونهاره ينزع إليها، وافتتح بها رسالته بخلوته بها في جبل حراء، وختمها به في السياق حيث كان يقول: «**في الرفيق الأعلى**»(1). فهذا التحليل الخبيث، الذي لا يروج على الصبيان، قد أخذه بعينه من دعاة النصارى، حيث قالوا هذا القول الذي هو التكذيب والكفر المحض، فعنده ليس ثمَّ وحي ولا مناجاة لله ولا نزول جبريل من عند الله، فظن بسفاهة عقله أنه بهذا الكلام يسلم من الشناعة، فالوحي عنده خيال لا حقيقة.

أعداء الرسل من الدهريين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. وهذا يقول: ما هي إلا طبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم، وتدبر الأمور الدقيقة والجليلة، وأنكر قضاء الله وقدره، ورجّع ذلك كله إلى الطبيعة، وهذا إنكار منه لله ولصفاته، وتعطيل له، وإنكار لربوبيته؛ وكما أنكر الربوبية، فقد أنكر توحيد

---

(١) تقدم تخريجه ص١٧٨.

الإلهية، ولم يرتضِ ما قاله المشركون، بل أنكر عبادة الله بالكلية، وأنكر الافتقار إليه، وتهكم بالمفتقرين إلى ربهم، المخلصين الداعين، واستهزأ بهم في كلام طويل ساقط مردود، وكما أنكر الربوبية والإلهية والعبادة، فقد تقدم ما يدل على إنكار الرسالة وتفسيره للوحي، وقدحه بالنبي ﷺ، ورميه إياه بعبادة الطبيعة، وكما أنكر هذه الأمور، فقد أنكر عقوبات الله في الدنيا والآخرة، وسخر بمن أثبتها، فيا ويحه ما الذي أبقى عليه من أصول الدين وقواعده، لقد أنكرها كلها، ولم يكتف بإنكارها حتى جعل يحاربها ويتهكم بها، ويرمي المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله بالبلاهة وضعف الرأي والعقل، وقد ملأ كتابه من السخرية بهم، ولم يدر أنه بهذا سيسجل على نفسه بالجنون والانسلاخ من العقل بعد الانسلاخ من الدين؛ وكما أنه جعل المسلمين علماءهم وهداتهم وعبّادهم في أحط الدرجات، فقد جعل الملحدين وزنادقة الفلاسفة في أرفع الدرجات، وعظّمهم وخضع لهم في جميع ما قالوه وفعلوه؛ وكما جَدَّ بنفي أصول الدين العظيمة، فقد أيّد ذلك بإلحاحه البليغ وحثّه على نبذ القديم ومراده به تعاليم الدين وأصوله وآدابه وثقافته وأخلاقه، وحتَّم أن يُتخذ ثقافة جديدة يُنبذ فيها القديم كله بما في مقدمته الكتاب والسنة، وأن تكون هذه الثقافة جديدة إلحادية، يكفر بها بجميع حملة الدين الإسلامي، ويعتقد سقوطهم، وأنه لا فضل لهم، ويهجر كتبهم كلها، من حديث وتفسير وفقه وأصول وفروع وغيرها، وأن يُعَدّوا مجرمين يستحقون الجزاء، وليس هذا بغريب؛ فإنه تجرأ وصرّح على ما هو أطمّ من ذلك، حيث رمى جميع الأنبياء، وزعم أنهم لم ينفعوا الناس والحياة بشيء، ومن كانت هذه تصريحاته ووقاحته، وعدم حيائه من الله ومن الخلق، فقد انتقل من طور إلى طورٍ، هو أسفل الأطوار وأسقطها؛ فلو أن له مسكة من عقل وذكاء، وسلك مسلك الحذاق من الملحدين، لتستّر بعض التستر، ولكنه سلك هذا المسلك الخبيث، وهذا من آيات الله وجملة عقوباته، يري عباده كيف يصير الإنسان المعروف بالعلم والفضل، إلى أن ينحط إلى هذه المرتبة التي صار بها مُثْلة بين العقلاء. فنسألك اللّهم ألا تزيغ قلوبنا بمنّك وكرمك، وكذّب بقصة آدم وزوجه وذريته فزعم أن الإنسان في أول أمره كالحيوان لا ينطق ولا يتكلم، ثم بعد مدد انتقل إلى طور الإشارة، ثم

بعد مدد أخرى تمكن من النطق والكلام، وأن الصحابة في طور الطفولية، وطور قريب من أطوار الحيوانات يعلمون ظواهر الأشياء لا بواطنها، وعنده أن الذين عرفوا العلوم النافعة، هم هؤلاء الملاحدة، مستدلًّا على ذلك بما أوتوا من علم الصناعات وفنون الاختراعات، وأن تأخر المسلمين دليل على فساد دينهم، وقد أخذ هذا عن أعداء الإسلام والمسلمين، وقال فيه أقوالًا أكثر مما ذكرنا عنه، وقد أشرنا إلى الصفحات من كتابه الموجودة فيها هذه البحوث الخبيثة وأشباهها، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

نبذة جامعة مفيدة مختصرة
في التحذير من كتاب «هذي هي الأغلال»

كتاب **الأغلال** مشتمل على نبذ الدين الإسلامي؛ منابذته ومنافقته، فهو صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج عن جميع أصوله فضلًا عن فروعه.

وهو أكبر دعاية، ومقاومة للدين، ومنابذة لأصوله، والتهزي به وبأهله وحملته، وصاحبه جعله بأسلوب الناصر للدين، فلم يبق من الشر شيئًا إلا ارتكبه، فإنه شارك المنحلين عن الدين، النابذين له بالكلية، وشايع الدعاة إلى دين الملحدين، المتصدين لعداوة الدين ومقاومته، ودخل في ضمن زنادقة المنافقين الماكرين الخادعين.

وهذه الأساليب الثلاثة، التي لم تبق من الشر والفظاعة، قد حواها كتابه؛ ورددها في مواضع متعددة:

فبالأول: نبذ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنكر أفعال الله تعالى وربوبيته، وجعل العالم العلوي والسفلي يجري على نظام الطبيعة، ليس لله فيه تدبير ولا تصريف ولا تغيير، وأنكر العقوبات على المعاصي والذنوب في الدنيا والآخرة.

وحلل رسالة محمد ﷺ بكلام لا مستند له فيه، أخذه عن دعاة النصارى.

حيث زعم أنه كان يناجي الطبيعة، ويأخذ كمالاته وأقواله وأفعاله منها؛ وأنه بها ابتدأ وإليها انتهى.

وبالثاني: جعل كتابه هذا أكبر داعٍ لنبذ الدين ومقاومته وعداوته، كما هو مشاهد محسوس من أوله إلى آخره.

وبالثالث: موّه بذلك على الأغرار، أن الدين يدعو إلى ما قال، وأن بعض الآيات والأحاديث تدل على ما قال، فمن نظر وتأمل في كتابه علم أنه ما صنف أعظم وطأة وعداوة للدين من هذا الكتاب، ولا اجترأ أحد من الأجانب فضلًا عمن يتسمى بالإسلام بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ مثل افترائه؛ ولا حرّف أحد تحريفًا يضاهي تحريفه، وما استهزأ أحد بالشريعة وعلومها وأخلاقها وحملتها كاستهزائه وسخريته.

المعطلون للباري المنكرون له رأسًا، لهم في ذلك أساليب ترجع إلى هذا المعنى؛ أسلوب التصريح بالإنكار والصراحة فيه، وذلك مذهب الدهرية، الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ومذهب فرعون حيث يقول: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

ثم أظهروه بأسلوب أظهره زنادقة الاتحاديين، الذين زعموا أن الوجود واحدٌ بالعين؛ ثم أظهره هذا الكاتب بأسلوب أشنع منها كلها، وهو أنه يجب أن يعلم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرّق بينهما من الرسل وأتباعهم، وجميع المعترفين برب العالمين؛ فهو غالط أكبر غلط.

والمكذبون لرسالة محمد ﷺ لهم في ذلك أيضًا أساليب، أسلوب التصريح والتكذيب له، وأنه ليس رسولًا، وأسلوب من يقول: آمنا بالله ورسوله، وقلوبهم منطوية على الكفر والتكذيب، وأسلوب أظهره هذا الكاتب مجاراة لدعاة النصارى، حيث جعل رسالته اختلاء بالطبيعة والدعوة إليها، فكان المجاهرون بعداوته يقولون: ساحر مفترٍ كذاب، وهذا زعم أفظع الزعم، أن رسالته من نفسه إلى نفسه، وأنه ليس من عند الله؛ وإنما هو رجل من عظماء الرجال، وليته لم يفضل عليه رجال الإلحاد والمجاهرين بالكفر برب العالمين.

كان الدهريون الأولون يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وهذا وأمثاله قالوا: إن هي إلا طبيعة تتطور وتتفاعل وتنتقل من حال إلى حال، هي المديرة لنظام هذا العالم، وهي المدبرة للأمور الدقيقة والجليلة، وليس لله عندهم فعل ولا تدبير، بل ليس

عندهم ربٌّ ولا إله، ولا فعال لما يريد.

أعداء الرسول ﷺ تلونوا في رد دعوته ومقاومته، وهذا أخذ عنهم كل ما قالوه، وكل ما قاله الأعداء المتأخرون.

أولئك قالوا: ساحر شاعر مفترٍ كذاب؛ وهذا قال: وحيه إنما كان من تخيله وأفكاره العالية، ولم يكن من عند الله شيء.

وأولئك المكذبون للرسل قالوا للرسل: إنا تطيرنا بما أرسلتم به، ولم نر فيما جئتم به إلا الشر، وإنما الخير فيما نحن عليه، وهذا قال عن الدين الإسلامي إنه شر، وإنه أسقط أهله، ونكسهم على رءوسهم، وإنما الخير فيما جاء به الملحدون، وبه السعادة والفلاح والرقي.

وأولئك قالوا: مستهزئون بكم، وسخروا منهم وبما جاءوا به، وهذا استهزأ بالرسول ﷺ وسخر بما جاء به.

الأعداء الأولون قالوا في رد دعوته: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. وهذا زعم أن الوحي خيال غير حقيقي، والمنافقون واليهود قالوا ماكرين: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. وهذا ادعى في كتابه أنه مؤمن بالله ورسوله، ناصر للدين، يغار للمسلمين، وهو مُجدٌّ في عداوة الدين، لعل تزويره يروج على ضعفاء العقول من المسلمين، فيقبلونه حيث ادعى أنه منهم.

وأولئك يدعون إلى الدنيا والترف والرياسة ويزهدون في الآخرة، وهذا حذا حذوهم، وزعم أن مِن نقص الدين ورجاله حثهم على الزهد في الدنيا وترغيبهم في أعمال الآخرة.

ومنهم من قال محللًا لحياة الرسول ﷺ: إنه يخلو في البراري والقفار، ويناجي الأرض والسماوات، فصار وحيه من نفسه لنفسه، وهذا خطا على ما خطوه.

ودعاة النصارى قالوا لما بهرهم دينه وآثار الإسلام، قالوا: إن محمدًا رجل سياسي، ساس الناس بعقله، وساقهم بتدبيره، حتى صار ما صار من الفتوحات وانتشار الإسلام، وهذا قال:

استلهم الطبيعة والعقل، فجاء بما جاء به.

أعداء الرسول ﷺ ينكرون الإخلاص لله، وعبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]. وهذا ذم الافتقار إلى الله، وإخلاص الدين لله، وأمر بالإخلاص للطبيعة، وعبادتها بالقلب والقالب، والظاهر والباطن، وليته اقتصر على ما اقتصر عليه المشركون؛ حيث عبدوا الله، وعبدوا معه غيره، ولكنه ذمَّ عبادة الله والافتقار إليها بالكلية، وأمر بالإخلاص بالشدة والرخاء للطبيعة وحدها.

أولئك قالوا: إنّا وجدنا آباءنا على أمة ودين، فلن نترك دينهم لدين محمد ﷺ، وهذا زعم أنه يتحتم الكفر بما جاء به محمد، وتقديم ما قاله أرسطو وزنادقة الملحدين عليه، أولئك قالوا: نحن أكثر أموالًا وأحسن أثاثًا ورئيًا، وهذا قال: أي الفريقين خيرٌ، الماديون الذين صنعوا المخترعات وكذا وكذا، أم المسلمون الذين لم يصلوا فيها إلى ما وصلوا؟

المكذبون للرسل قالوا: كيف نتبعكم؛ وأتباعكم الأرذلون الفقراء ضعفاء العقول؟ وهذا قال: المسلمون معروفون بالذل وضعف العقول والرذالة والنذالة، والملحدون هم الأقوياء في القلوب والأبدان وجميع ميادين الحياة.

أولئك لما جاءتهم الرسل بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، فردّوا ما جاءت به الرسل؛ وهذا لما جاء الحق الذي لا ريب فيه، فضّل عليه علوم الطبيعة، وفرح بها وقاومها.

الأولون قالوا عن الأنبياء: إنهم ضروا الناس ولم ينفعوهم؛ وهذا قال عنهم كلهم هذه المقالة بعينها.

الأولون يذمون الرسول ﷺ حيث دعا إلى الإخلاص بالدعاء لله، وهذا جعل الدعاء لله لا نفع فيه بوجه من الوجوه، بل هو ضرر على العبد.

الأولون يقدحون بالرسول ﷺ ويقولون... وهذا يقول: المسلمون يريدون كل شيء من السماء، يقدح في توجههم لله وافتقارهم إليه.

الأولون يستهزئون بعذاب الله ووعيده، وهذا سلك مسلكهم في الاستهزاء بالوعيد.

الأولون ينكرون أن الكفر والمعاصي والفسوق تسبب العقوبات الدنيوية، وهذا يستهزئ بمن جعلها أسبابًا، مستهزئًا بكتاب الله وسنة رسوله ومن تبعهما.

المدعون لألوهية المسيح يجادلون الرسول ﷺ فيها، وهذا يزعم أن كل إنسان في إمكانه أن يكون إلهًا، فدعوى النصارى عنده إلهية المسيح دعوى حسنة في مقصدها؛ لو أنهم عمموا لأصابوا عنده.

الأولون قدحوا في الصحابة، وأنه لم يتبعك إلا عبيدنا وسوقتنا، وهذا زعم أن الصحابة في طور الطفولية، أو طور ينقص عن ذلك، وأن الرشد في هؤلاء الملاحدة الذين يعظمهم.

الأولون مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، ويطفئوا ما جاء به من الدين ويمحقوه، وهذا يقول: متعيّن نبذ ما جاء به محمد من الدين الإسلامي والكفر بحملته، وأن نتخذ ثقافة جديدة من أرواحنا... إلخ.

الباطنية والقرامطة والإسماعيلية حرّفوا الكتاب والسنة، ونزلوه على إلحادهم، وهذا صنع أعظم من صنيعهم.

زنادقة المتفلسفين قالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وهذا يسخر بمن يقدمون نصوص كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

أولئك زعموا أن العظماء هم رؤساء الكفر، والرسل هم المستضعفون، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وهذا زاد عليهم، فزعم أن العظمة منحصرة في أئمة الزنادقة، ومن على شاكلتهم.

من انتهى كفرهم من الأولين ينكرون تعليق الأمور بقضاء الله وقدرته؛ كالآجال والأرزاق ونحوها، وهذا يصرح بذلك.

دعاة النصارى يحتجون بأحوال المسلمين وتأخرهم المادي على الإسلام، وهذا سلك مسلكهم، وينكرون ما لعظمائهم ويهضمونهم حقهم، وهذا لم يجعل لهم حقًّا أصلًا ولا فضيلة.

الأولون عارضوا ما جاء به محمد ﷺ بمخالفته لدين آبائهم الأولين، وهذا عارضه بمخالفته للملحدين الأولين والآخرين.

رسالة الشيخ عبد الرحمن السعدي في التحذير من كتاب «هذي هي الأغلال»

من عنيزة في ١٨ صفر سنة ١٣٦٦هـ.

من المحب عبد الرحمن الناصر السعدي، إلى الولد المكرم عبد الله العبد العزيز العقيل المحترم، حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مع السؤال عن صحتكم، صحتنا مع الوالد والعيال والإخوان تسركم، أرجو الله أن يتم على الجميع نعمه.

وصلني كتابك من الرياض وما شرحته من عزمكم على التوجه لمكة فجيزان؛ لظف[1] أشغالكم هناك، وقد وصلت برقيتكم للوالد بالتوجه، يسَّر الله أمركم في حلكم وترحالكم وجميع حركاتكم.

أما ما شرحته عن كتاب عبد الله القصيمي الذي سماه **الأغلال**، ومقتِ المشايخ للكتاب المذكور، وذكركم أنكم سترسلون لنا بوصولكم مكة نسخة نطّلع عليها، فنحن قد اطلعنا عليه، وهو فوق كل ما قيل فيه من الانحراف عن الدين، فمن أمعن فيه النظر جزم جزمًا لا يمتري فيه أنّه دعاية صريحة لنبذ الدين، مع كثرة تهافت صاحبه وتناقضه واعتذاراته أنّه بريء من الإلحاد، وأنّه مؤمن بالله وبما أخبر الله به، وعدم استقراره.

فصاحب البصيرة والذي يرى تناقض صاحبه وعدم ثبوته وتلوّن آرائه، لا يمتري ببطلان كلامه.

---

(١) ظفّ: جمع وإنهاء.

وهاك على سبيل الإجمال واختصار الزائد جمل ما يحتوي عليه، جُمَلًا رددها وكررها بكتابه بعبارات وأساليب متنوعةٍ.

كتابه هذا عن الدين ينقض جميع كتبه السابقة عنه، فهو قد كذبه أو هي كذبته، يحتوي على الحث الكثير على نبذ الإيمان بالله، ويقول: إنّه من أكبر الأغلال المانعةِ من الرقي، وأنّه لا يمكن المسلمين أن يرتقوا في هذه الحياة ما داموا مؤمنين بالله، وهو مع ذلك يُموِّه، ويزعم أن الناس لا يمكن أن يفهموا دينهم بالكلية، بل ذلك متعذر، يعني فيتعين عليهم أن يرفضوه.

فهو يحث على نبذ الدين والإيمان، ويُرَغِّب غاية الترغيب في طريق الملحدين المعطلين لرب العالمين، ولأفعاله وربوبيته، ويتوسل إلى هذه الدعاية بذكر خرافات المتصوفة وأهل الخرافات؛ كابن عربي والشعراني ومن سلك سبيلهم من أهل الانحراف، ويطبق أحوالهم وما يقولونه على المسلمين، ليتمكن بذلك من القدح في المسلمين.

ومن الطامات أنّه يزعم أن الناس مسلمهم وكافرهم وقت نزول القرآن في طور الطفولية، بل في طور دون ذلك يقرب من طور الحيوانات.

وأن الناس في هذا الوقت - ليس كلّ الناس بل المراد أهل الاختراعات - قد بلغوا رشدهم وكملت عقولهم، وكرر على هذا الأصل الخبيث الحمل على السابقين الأولين، وعلى قرون الأمة، وزعم أنّه لا خير فيهم.

وأنّ الجامعة الإسلامية كلها من أولها إلى آخرها لم يخرج منها عبقري ولا مرشد نافع للأمة.

وأوجب رفض القديم، واعتناق الجديد، وفرَّع على ذلك وجوب نبذ العلوم والأخلاق والآداب السابقة، وفي مقدمته العلوم الدينية والأخلاق الدينية.

وأنّه يجب أن يعلم الناس الكفر بجميع ما خلّفته الجامعة الإسلامية من كتب وعلوم

وأخلاق وأعمال، وأنه يجب مقتهم مع الإقبال على ما قاله الملحدون، كرّر ذلك في مواضع.

وأنّ السابقين من الأنبياء وغيرهم لم ينفعوا الإنسانية، ولم يرشدوها إلى الأمور النافعة، فقدح صريحًا بجميع الأنبياء والأئمة والهداة.

ورغّب في المعاهد الأجنبية.

وحمل حملاتٍ منكرة على المسلمين من أولهم إلى آخرهم.

وزعم أنّ المسلمين من أولهم إلى آخرهم يحثون على الفقر، وحصول الأمراض وأنواع المصائب، ويسعون لطلبها.

وفي هذه الفقرة كذّب كلّ نصّ فيه فضل الفقر والفقراء والأمراض وردّها وحرّفها.

ومن تمويهاته وتزويراته أنّه يذكر الأحاديث الصحيحة، ثمَّ يضم إليها أحاديث باطلة وآثارًا ساقطة فيرد الجميع.

ويتهكم بالرواة لتلك الأحاديث، لا يرفعها عن صحابي ولا تابعي ولا إمام من أئمة الهدى.

وكذلك ردّ الأحاديث الدالة على أنّ هذه الأمة أولها أفضل من آخرها، وتهكم برواة حديث أنس الذي في البخاري: **«لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه»**[1].

وزعم أنّ هذه الآية ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. أنها منطبقة على عصر التنزيل، وأنّ الصحابة والقرون المفضلة لا يعلمون إلا علمًا ظاهرًا بسيطًا، وأما العلوم النافعة فإنّها لمن يعظمهم من الزنادقة الملاحدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. ينظرون

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٠٥.

إلى ظاهر النبي ﷺ ولا يبصرون باطن دينه، ولا حقيقته، ويريد تنزيلها على المسلمين وقت التنزيل، وأنّهم لم يعرفوا الدين لا هم ولا من بعدهم، وفهمهم إياه فهم ظاهري غير حقيقي، ويحتوي على صرف القلوب عن عبادة الله وحده لا شريك له، ويذم الافتقار إلى الله.

ونقل عبارات بعض العلماء - منهم ابن القيم، ولكنه لم يسمّه - في الفقر إلى الله، وجعل يردّها ويتهكم بها، ويسخر منهم ومنها.

ويحث على عبادة الطبيعة وصرف الظاهر والباطن إليها.

ويحتوي كتابه على التهكمات الشنيعة في وعد الله ووعيده وعقوباته ومثوباته الدنيوية والأخروية في مواضع كثيرة من كتابه، ولا يرضى بتفسير التوكل والقدر بتفسير الجبرية، ولا بتفسير القدرية، ولكنه نصر تفسير الفلاسفة الزنادقة، وأن معنى ذلك أن تؤمن فقط بنظام هذا العالم وانتظامه، وأن الأسباب مستقلة لا يقدر الله على تغييرها ولا تحويلها ولا التصرف فيها بوجه من الوجوه، وإنّما ذلك عمل الطبيعة فقط.

ويقول عن النبي ﷺ: إنّه وقت خلواته بالله ووقت انتقاله من الدنيا؛ إنه متوجه إلى الطبيعة وشاخص إليها، وليس لله ذِكْر ولا خَبَر، فخلوته ليست بالله، وقوله عند احتضاره: «**في الرفيق الأعلى**»[1]. ليس طلبه القرب من الله، وإنّما يقصد التعلق بعالم السماوات وبالطبيعة فقط، في كلام طويل مردد.

وصرح أنّ الإنسان في أول أمره مثل البهائم، مكث مدة طويلة لا ينطق ولا يتكلم إلا أصوات مثل أصوات الأطفال وقت ولادتهم، ثمَّ انتقل إلى طور الإشارات فقط، ثمَّ انتقل بعد مدة طويلة إلى طور الكلام، فكذَّب بهذه الجمل التي رددها جميع ما أخبر الله به عن آدم وحواء وأول الآدميين.

ومن بحوثه الفظيعة أنّه يمكن الإنسان أن يزاحم رب العالمين في علمه وقدرته، فيمكنه

(١) تقدم تخريجه ص١٧٨.

أن يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وأنّه علم مبدأ العالم ومنتهاه، وأنّه سيرتقي علمه إلى العالم العلوي بعدما يفرغ من العالم السفلي، وأنّه قد يتمكن من إيجاد المخلوقات الحية وينفخ فيها الروح.

وأنّ التفريق بين الله وخلقه جهل وضلال وغلط، فقدح بجميع الكتب وجميع الرسل وأتباعهم، إذ أصل الدين والتوحيد والإيمان هو التفريق بين الله وبين خلقه، لكن هذا كلام من لا يثبت لله أصلًا.

وكرّر أنّ الإيمان قيد وغلّ مانع من الرقي ومضعف للقلوب والهمم والعزائم، فحثَّ على الرفض حثًّا كثيرًا شنيعًا، وردّ كثيرًا من الأحاديث الصحيحة النبوية.

وأما ما فيه من إنكار الغيرة، والحث على السفور، والتهكم بأهل الصيانات لنسائهم، فحدِّث ولا حرج.

ومن عجيب أمره أن كتابه ملآن من السخريات والتهكمات بالدين وحملة الدين.

ومن نظر في كتابه وكتبه السابقة، وكيف كان هذا الانقلاب الفجائي في أصول الدين وأسسه، فلا بدَّ أن يفهم الأسباب التي حملته على تصنيف هذا الكتاب.

وبالحقيقة كتابه هذا أشنع وأطمّ من كتب دعاة النصارى والمبشرين، لأنّه دعاية لنبذ الدين في قالب أنّه من أنصاره وهو يحاربه ويوهم الناس أنّه يحارب له.

فنؤمل أنّ حكومتنا يوفقها الله تعالى للمنع الصارم لتسرب نسخ هذا الكتاب للمملكة، وإن كان - ولله الحمد والمنة - في المشايخ والمتبصرين بركةٌ بإيقاف الأغرار على ما في كتابه من الأمور الضارة في الدين، ولكن على كل حال إبعاد مثل هذا الكتاب عن المملكة أهون شرًّا، لأنّه يوجد شبيبة لا رأي لهم ويرغبون في الكتب العصرية وقراءة الصحف، فخطره عظيم على أمثال هؤلاء.

ونرجو الله تعالى أن يقمع الملحدين وأن ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين، إنّه جواد كريم.

هذا ما لزم تعريفك، منا السلام على جميع من تتصل به من المشايخ والإخوان والأصحاب.

كما منا الوالد والولد محمّد والإخوان والشيخ[1] وجميع المحبين والسلام.

(١) يعني الشيخ عبد الرحمن بن عودان قاضي عنيزة رحمه الله.

مقدمة رد الشيخ تقي الدين الهلالي على كتاب «الأغلال» بخط الشيخ السعدي رحمه الله

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، وهادي الأمة، وكاشف الغمة، خاتم النبيين وإمام المصلحين، من بعث بدعوته الأموات، وجمع الأشتات، وعلى آله وأصحابه المتصفة بأحسن الصفات.

أما بعد: **فهذا مظهر الضلال في كتاب الأغلال**، نسأل الله أن يوفقنا فيه لإصابة الصواب، ورفع الريبة عن كل مرتاب.

المقام الأول: قوله: «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل». كان العرب قبل الإسلام متصفين بصفات من أقبح ما وصلت إليه أمة منحطة؛ منها: الجهل ولذلك سمي زمانهم زمان الجاهلية، ومنها: تفرق الكلمة، ومنها: الذلة بالنسبة إلى الأمم الأخرى، ومنها: الفقر المدقع، ومنها: الجفاء وغلظ الطبع، ومنها: مساوي الأخلاق كوأد البنات، وعدم توريث النساء والصبيان، بل كانوا يورثون النساء في بعض الأحوال، وأكل مال اليتيم، وقتل النفوس، وشن الغارات، والنهب والسلب، واسترقاق بعضهم بعضًا، والتفاخر بالأنساب لا بالأعمال، واستلحاق أولاد الزنا، إلى غير ذلك مما هو معروف.

فجاء محمد رسول الله ﷺ بكتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من تمسك به نجا، ومن زاغ عنه هلك، فأحيا الله به العرب بعد الموت، وجمعهم بعد الشتات، وأغناهم بعد الفقر، وأعزهم بعد الذلة، وجعلهم سادة لمن كانوا لهم عبيدًا - أي الفرس والروم - وأبدلهم من القسوة رحمة، ومن الخشونة والجفاء لطفًا ولينًا؛ وبالجملة

جعلهم سعداء بعد أن كانوا أشقياء.

وقد أخبر الله في هذا الكتاب وفي بيانه - وهو كلام رسوله ﷺ - أن العرب وسائر المسلمين لن يزالوا الأعلين ما تمسكوا بهذا الكتاب، واهتدوا بهدي النبي الكريم، ومتى تركوه وابتغوا الهدى في غيره أضلهم الله وخيّب سعيهم، وردهم إلى ما كانوا فيه من الشقاء، وهذا ما وقع، وهذا الرجل يقول: إن الأمة العربية بكتابه هذا تبدأ تبصر طريق العقل، كأنَّ كتاب الله وبيان رسوله الذي حييت به الأمة، وسعدت باتباعه، ثم ماتت وشقيت بتركه، والتاريخ أصدق شاهد، لا يكفي لبعث العرب وإبصارهم طريق العقل والرشد، وكل ما ألّفه علماء الإسلام في زمان مجدهم، لا يكفي لإبصارهم طريق العقل، حتى يأتي هذا الكتيب فيفتح أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٦، ١٧].

والمهم أن هذه أمنيته، وخيال تخيله المصنف، وفرح به واستهواه وأغواه، وأخذ يتكهن بمستقبل كتابه، ويهيم في أودية الأحلام.

إن الأماني والأحلام تضليل ....

المقام الثاني: قوله في صفحة (٣): «إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية، التي تفقدها أمة فتهوي؛ لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية، وتأخذ بها أمة أخرى فتنهض؛ لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة؛ ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة مليون مسلم يستغني عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية».

الحقائق الأزلية ليست إلا صفات الله تعالى؛ لأن كل ما سواه حادثٌ، إلا إذا كان المؤلف يقول بقدم العالم فتلك مسألة أخرى، والمسلمون يخالفونه في ذلك؛ وأما كون هذا الكتاب لا يستغني عنه مسلم يريد أن يحيا حياة صحيحة طبيعية، فهذه دعوى وأماني.

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ياالله العجب، لقد ألّف الحكماء من المسلمين وغير المسلمين كتبًا كثيرة، متواضعين لله تعالى، متبرئين من الدعوى، فرفعهم الله تعالى، ونفع الناس بعلمهم، ولا نعلم أحدًا منهم، ادعى لكتابه مثلما ادعى هذا الرجل، كأنه نبي أوحي إليه.

والدعاوي ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

فصل

لا نريد أن نناقش المؤلف في الألفاظ؛ لأن خطأه فيها غير مهم، لا يستحق تضييع الوقت في تتبعه والرد عليه، ولكننا رأيناه يستعمل لفظ الرومان في جمع رومي، وهو خطأ؛ إن اغتفرناه لعامة الكتاب الذين يتعلمون الإنشاء، في الصحف والمجلات، فلا نغتفره لكاتب تعلم في المساجد وقرأ القرآن وفيه: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢]. وبهذا اللفظ سميت السورة نفسها؛ وهو الموجود في الأحاديث، وكتب التاريخ والأدب العربي، ولم يستعمل لفظ الرومان إلا في هذا الوقت، الذي ضربت فيه الفوضى أطنابها في الإنشاء فضاع بذلك أسلوب اللغة العربية، ووقع الفساد في مفرداتها وتراكيبها، بسبب ما ترجم من اللغات المتغلب أهلها على يد تراجمة جاهلين، فأخذ الناس يحاكونهم ويقتدون بهم، حتى صار الفقيه يترك الألفاظ الصحيحة التي يعرفها من القرآن وكلام العرب، ويستعمل الألفاظ الفاسدة، ظنًّا منه أن ذلك يرفعه إلى درجة الفلاسفة ويجعله عصريًّا.

وهذه الألف والنون التي في لفظ الرومان، هي في بعض اللغات الأوروبية بمنزلة ياء النسبة في اللغة العربية، فالرومان في اللغة الإنكليزية مثلًا: صفة كالرومي بالعربية؛ في قولك: العصر الرومي، وتكون اسمًا بمنزلة الرجل الرومي أو الرجال الروميين، ويظهر لنا أن المؤلف في هذا الكتاب لا يصيغ قلمه فكره، بل ينتهب المعاني والألفاظ من كلام كتاب آخرين، يسمون أنفسهم عصريين وأحرار الفكر ليكون مثلهم، وقد خيل إليه أنه بهذا يصير فيلسوفًا عظيمًا.

وقد استعمل أيضًا الإنتاج وإنما هو النتاج...[1] قوله في صفحة (٧): «ولقد صار

(١) كلمة غير واضحة في الأصل الخطي، لعلها: «انظر إلى...».

معلومًا أن عظمة الشعوب ليست في الاستقلال السياسي... إلى أن قال: ولكن عظمة الشعوب الحقيقية، التي تطأطئ لها الدنيا أمامها إجلالًا ورهبة، تتجلى في شيء واحد لا ثاني له، هذا الشيء الواحد هو قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد، فالشعب الذي يتفوق أفراده في هذا الإنتاج، هو الشعب الذي له التفوق المطلق، وله السيادة المطلقة، وهو الشعب الذي تخفض له الدنيا رأسها، والفرق بيننا وبين شعوب أوروبا وأمريكا لا يعدو الفرق بين أفرادنا وأفرادهم في هذا الإنتاج، فإنه لما وفر إنتاج أفرادهم العقلي والمادي، وضعف إنتاج أفرادنا، أو أضحى مفقودًا، أضحوا أقوى منا في كل شيء، فسادوا وتأخرنا... إلخ».

ذكر المؤلف في هذا الكلام سبعة أسباب للعظمة والسيادة المطلقة، فنفى منها ستة، وحصر الأمر في سابعها، وهو ما سماه قدرة الشعب الذاتية على الإنتاج العقلي والمادي من ناحية الأفراد، ولا نريد أن نناقشه في نسبة ذلك إلى الأفراد دون الجماعة مع ما فيه، ولكننا نقول: من أين عرفت هذا، وما دليلك عليه؟ والحق أن رقي الأمة وسيادتها متوقف على أمور كثيرة، لا يغني أحدها عن غيره، فالأمة القليلة العدد مثلًا لا تحصل بها السيادة المطلقة، ولا تستطيع أن تحافظ على استقلالها، وإن بلغت الذروة العليا في النتاج من حيث الأفراد ومن حيث الجماعات، وقد رأينا ما وقع لفلندة ولم تُغلب هذه الدولة التي بلغت أوج الرقي في كل شيء إلا بسبب قلة عددها، والدولة التي غلبتها لا تساويها في الرقي، وإنما غلبتها في كثرة العدد، فظهر أن كثرة العدد جزء من سبب السيادة، ولا ندعي أنها هي السبب كله، وكذلك ثروة البلاد الطبعية لا الطبيعية هي من أسباب عظمتها، فإن الأمة إذا كانت بلادها فقيرة، لا تملك المواد الأولية الضرورية، تكون دائمًا تحت رحمة الأمم التي تمدها بذلك؛ وكذلك الوطنية والحماسة فإنها سبب لا بد منه في...اهـ. الموجود منه على حسب النسخة الخطية المكتوبة بخط علامة القصيم عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله بدون تاريخ.



«نقد كتاب الأغلال»
(كشاف للمسائل الخبيثة والمباحث الخطيرة في كتاب الأغلال)

صفحة ١٤: محل تهكم منه بالمصلحين الذين يقولون: إن رقي المسلمين ينحصر في الرجوع إلى تعاليم الدين وإرشاداته. يقول هو في صفحة ١٤: «ويوجد جماعات تكاد تقيم الدنيا وتقعدها مبشّرة بروح خلقية استاقت في طريقها جماهير الشباب وأوشكت تصيب معظمهم بنوع من جنون الغارة التقي البار والجنون المقدس، خلاصة هذه الرسالة أن طريق المجد ينحصر في الرجوع إلى الأخلاق الدينية الأولى...». إلى آخر ما قال وطوّل يردد هذا القول بكلام أكثره هذيان ولم يزل يهذي حتى قال في...

صفحة ١٦: إن أعاصير رجعية مجنونة لتهب في هذه الآونة على مصر، التي رضيناها لنا زعيمة، وإنها لتترنح تحتها، ولا ندري أتثبت لها أم تتهاوى تحت ضرباتها الوجيعة. لست أحاول وقف العاصفة، فهي لن تقف، ولكنها ستتكسر على الشواطئ الصخرية إلى أن قال: «وحينئذ نرجو أن توجد العوامل التي تمنع هبوبها من جديد أو لا توجد العوامل التي تجعلها تعصف مرة أخرى» [الرجعية: المراد بها عند الملحدين الرجوع إلى القديم].

صفحة ١٧: إلى أن قال في ص١٧: «وتجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة، هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين والتحلل منه...». إلى أن قال فيها: «طبيعة المتدين طبيعة فاترة، ولا تجد أعجز ولا أوهن من الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية». ثم إنه تناقض فقال: ونرجع فنقول: إن الدين نفسه لا ذنب له... إلى آخر عبارته.

صفحة ٢٩: لما تكلم في ص٢٩ عن المسلمين والأجانب قال: إن أولئك - يعني

المسلمين - يريدون كل شيءَ من السماء من الآلهة المتعددة، وأما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم، وأن يطلبوا منها كل شيء، وأن في استطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا إليه، ثم تهكم بعد هذا بالخطباء المتضرعين إلى الله... إلى آخر كلامه.

صفحة ٣٤: بهرجته في صفحة ٣٤ في نقل كلام الزمخشري والرازي والآمدي وابن أبي الحديد في حيرتهم، ونسب هذه الحيرة إلى الأمة الإسلامية كلها.

صفحة ٣٥: بعد تهكمه بمن يذم أرسطو وأمثاله ويقول: إنهم الذين وضعوا اللبنات الأولى للحضارة التي قامت عليها المدنيات ساقًا بعد ساقٍ... إلى آخر ما قال.

صفحة ٣٥: قال في أثناء كلامه في صفحة ٣٥: ولكن الفرق بينهما - أي الصالح والطالح - أن الصالح آمن بالآخرية إيمانًا تامًّا، أما الفاجر فإنه لم يؤمن بها هذا الإيمان، وإنما شك شكًّا وظن ظنًّا أو كفر كفرانًا أو نسي نسيانًا، فراح يأخذ ما استطاع أخذه، ولم يجد إيمانًا بالعاقبة يحمله على أن يعطي عاجلًا ليأخذ آجلًا... إلخ ما قال.

صفحة ٣٦: قال في ص٣٦: من الواجب المفيد من أين جاء للإنسان هذا الكفر بإنسانيته وذاته؟ أو لماذا كفر بهما هذا الكفر؟ يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصوره، فقد تصور أن أساس الإيمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده... إلخ ما قال في هذا المبحث الخبيث.

صفحة ٣٧: إلى أن قال عن أهل الدين في ص٣٧: ولكن الديانات كلها مبنية على العبودية، ومن أجل هذا كله ومن أجل غيره فإنهم ما فتئوا يضعون الأهاجي المريرة الواصفة للإنسان بجميع أوصاف الانحطاط الذهني وغير الذهني، وقد رأوا - وما زالوا يرون - أنهم بهذه الأهاجي يتقربون إلى الله وينالون ويتملقون رضاه؛ لأنهم يذمون غيره، فالخطيب والواعظ والشاعر والمفسر والمحدث... إلى أن قال: وقد أكثروا من هذه الفلسفة المجنونة المخذولة والتدين المدخول.

صفحة ٣٨: إلى أن قال في ص٣٨ في سياق إنكاره على المتدينين: لو قيل لهم إن

الإنسان قد يستطيع التوصل إلى جعل إخصاب المرأة كما يريد إن شاءه ذكرًا وإن شاءه أنثى، كما توصل إلى هذا في كثير من الحيوانات، بل قد قيل: إنهم صنعوه بالإنسان نفسه... إلى أن قال مستدلًّا على إمكان كون الإنسان يقدر على كل شيء، قال: من غريب الاستدلال الباطل في حقيقته، العجيب في مرماه، ثم ذكر قصة بعض النصارى أن القول بإلهية المسيح - وإن كان باطلًا - فإنه مفيد في نتيجته ثم ذكر النتيجة.

صفحة ٤١: إلى أن قال في ص٤١: فإن الحروب بل وكثيرًا من هذه المظالم هي [أعظم] صقل تصقل به القوى... إلى أن قال: فهي شرور في الظاهر فقط.

صفحة ٤٥: في ص٤٥: تحريف لحديث: «**كنت سمعه الذي يسمع به**...» إلخ[1]. يفسره بأن مدارك الإنسان لا حد لها تقف عليه، ولا شيء يقف في وجهها.

صفحة ٥٨: في أثناء كلامه على الإنسان في صفحة ٥٨: إنه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكوينه وتوالده... إلى آخر هذيانه عن تكون الكون بعضه من بعض.

صفحة ٥٩: إلى أن قال في ص٥٩: ثم لم يقف بعلمه عند هذا، بل ذهب يسابق الوجود فيسبقه، وذهب يخبرنا عما بقي من عمر هذا العالم، وعمر هذه الحياة، وهذا الوجود الذي سبق، وعما بقي من عمر هذا الإنسان وغيره، ويخبر عن الأحداث والحوادث التي لا تزال في طريق الوجود، والتي لا تزال تترقب لتثب وثبتها.

صفحة ٦٠: إلى أن قال في ص٦٠: ثم ذهب يتصل بالسماوات العلويات إما بالرسائل الكلامية إلى أن قال: نعم هم لم يصلوا حتى اليوم إلى هذه الغاية، ولكن من زعم أنهم لن يصلوا يومًا ما فقد أساء إلى نفسه. وفي هذه الصفحة تحريفه في تفسير: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الكهف: ٥١].

صفحة ٦١: وفي ص٦١: الإنسان في وقت نزول القرآن إلى طور لا يعدو النظرة السطحية

(١) البخاري (٦٥٠٢).

والإلمام بظواهر الأشياء دون النفوذ إلى بواطنها.

صفحة ٦٢: إلى أن قال في صفحة ٦٢: لطور لا يبعد جدًّا عن الطور الحيواني.

صفحة ٦٣: إلى أن قال عن الأطفال في صفحة ٦٣: يعتقدون أن الأطفال بطبيعتهم ملائكة مع أن الواقع أنهم شياطين أشرار.

صفحة ٦٤: إلى أن قال في تهكمه بأهل الدين الذين يدعون إلى التمسك بآدابه في صفحة ٦٤: من أجل هذا فالحنين إلى الماضي والتصايح بالدعوة لتقليد الأولين والأخذ عنهم بلاهة. ثم حرّف الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[١].

صفحة ٦٥: ثم لما نصر أن الإنسان شرير من كل وجه، قال مستدركًا: ولا يظن أحدٌ من القراء أنه يدخل في هذا الأصل الخبيث الشرير، والظالم آدم والأنبياء الذين جاءوا برسالة الإصلاح العامة... إلى آخر ما قال في ص٦٦.

صفحة ٦٦: كان وقت نزول القرآن لم يعد كثيرًا طور رؤية الظواهر دون معرفة البواطن، وكانت الإنسانية ترى أممًا تسقط وأخرى تقوم، ولكنها ما كانت تعرف لماذا يسقط هذا أو ينهض من ينهض؟ وكل ما يمكن أن تعلل به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة أو الإله قد غضب على الأمم الساقطة الهاوية فحفر لها وأسقطها، ورضي على الأمم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسوّدها. (لا يخفى ما فيه من إنكار عقوبات الله الدنيوية). وفي هذه الصفحة تحريف لقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. وينزلها **على** الناس الذين كانوا مع النبي ﷺ وأولهم الصحابة.

صفحة ٦٧: إلى أن قال في ص٦٧: كان هذا الطور الذي بلغته الإنسانية يوم نزول القرآن، وقد عمل الإسلام أعمالًا باهرة لا تكفل لنقل الإنسانية من طورها هذا إلى ما هو أكمل منه وأفضل. إلى أن قال في هذه الصفحة: وإنا لنخشى أو نرجو - وقد تحقق أي الأمرين أحسن

---

(١) تقدم تخريجه ص٩.

- أن يأتي الزمن الذي يقال فيه: الإنسان الصناعي والحيوان الصناعي - وهذا ما لا يزال العلم عنده حيران عاجزًا، ولكنه لم... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٦٨: قوله: إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا وعلماؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين - فانطلق متهكمًا بهم - أن يقوموا يذمون الإنسان وأنه لا يترقى إلى مزاحمة رب العالمين ومنازعته في علمه وقدرته... إلى ما قال عنهم منكرًا متمسخرًا عليهم.

صفحة ٦٩: إلى أن قال في صفحة ٦٩: إن من الواجب أن تجدد ثقافة جديدة، كل الجدة منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة... إلى أن قال: ثم إن هؤلاء الذين يدعوننا إلى الكفر بالإنسان فندعوهم مجرمين ونفعل معهم كذا وكذا [يعني رجال الدين] ثم انبعث في هذا الكلام الخبيث.

صفحة ٧٠: إلى أن قال في صفحة ٧٠: وأخيرًا لقد زعم هؤلاء الهدامون أن قول الرسول: «**من عرف نفسه عرف ربه**». ثم زعموا أن معناه: من عرف نفسه متصفة بأضداد صفات... إلى آخر كلامه الخبيث إلى أن قال: لا يدعي هذه الدعوى إلا قوم لا نصيب لهم في العقل والدين.

صفحة ٧١: في صفحة ٧١ تهكم بمن روى عن النبي ﷺ الإنكار على من قرأ كتب الأوائل، وقوله: «**أمتهوكون أنتم؟**»[1]. وأنكر على عمر ما جاء في الكتب الأولى على القرآن في كلام هذر كثير، وفي تحريمهم لعلم المنطق قاله متهكمًا متمسخرًا.

صفحة ٧٢: في صفحة ٧٢: رده على ابن القيم في تقسيم العلم إلى قسمين، إلى أن انتقد قوله ﷺ: «**أكثر أهل الجنة البله**»[2].

صفحة ٧٤: إنكاره على المسلمين المجذرين على كتب الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأبي بكر الرازي والكندي ونحوهم.

---

(١) أحمد (١٥١٥٦).

(٢) تقدم تخريجه ص٢٠٣.

صفحة ٧٦: فيه الإشارة لملك الأفغان ولبلاد العرب.

صفحة ٧٧: قال في ص٧٧ في رميه المسلمين بالتعصب: نعم من الممكن أن يقال: إن التعصب الديني هو الذي حمل المسلمين في لبنان على اجتناب تلك المعاهد... إلى أن قال في الفكر العاجز عنده: رأوا بتفكيرهم العاجز أن أعظم فرق بين الخالق والمخلوق هو الضعف والقوة؛ الضعف في المخلوق، والقوة في الخالق... إلى أن قال في:

صفحة ٧٨: صفحة ٧٨: وهذه الفكرة الفاسدة إنما انتزعوها من قياس فاسد أخذوه مما بين أيديهم... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٨٠: إلى أن قال في ص٨٠: ومن الأوهام العظيمة التي جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم اعتقادهم أن الإنسان إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته في العبادة.

صفحة ٨١، ٨٢: إلى آخر ما قال في (٨١، ٨٢) محتجًّا بالمنحرفين على المسلمين.

صفحة ٨٣: قال في ٨٣: تفسيره للعلم وانتقاده لتفسير المسلمين للعلم.

صفحة ٨٤: قال في ٨٤: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فسّرها بقتال الكفار بعضهم لبعض؛ حرَّف كلام الله، ولم يعبأ بتفسير المسلمين!

صفحة ٨٥: قال في ٨٥: مفضلًا عقول الملاحدة على عقول المسلمين: أقوام وهبهم الله عقولًا ممتازة كبيرة عبقرية فشحذوها ثم استخدموها في اختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية، ونجت من ويلات كانت تعانيها منذ خلقت، وقدمت إليها أمورًا كانت محروسة منها أيضًا منذ وجدت، أم قوم ذوو عقول ضيقة حرفية تقليدية... إلى أن قال: راحوا يكتبون في تكفير من يصنع كيت وكيت... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٨٧: كلامه على المرأة.

صفحة ٩٧: إلى أن قال في ٩٧ في تهكمه بمن يلجأ إلى النصوص: ويقوم من يعدون منها مصلحين متنورين يديرون المعارك الجدلية، منتزعين أسلحتهم من تلك النصوص

وهاتيك الأديان ليقنعوا الآخرين بجواز ذلك.... ولقد جهلت وهانت تلك الأمة التي تحتاج إزاء الحقيقة الباهرة الملموسة إلى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها، وإذا ما رأيت... إلى أن قال في تفضيل الملحدين: ولولا هؤلاء لما استطاعت الإنسانية أن تنعم بشيء مما تنعم به اليوم من هذه الحياة المشرقة الواضحة، ولما استطاعت أن تتدرج عن وجودها الأول الفطري البليد، فكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعوّدونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الإنسانية أجمع... إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٩٨: نقله لآراء المنحلين في سفور المرأة وزعمه أنه يريد منهم استحسانه واستيعابه له.

صفحة ١٠٣: قالوا... إلى آخره.

صفحة ١٢٠: قال في ١٢٠: تكذيبه لأنس رضي الله عنه وغيره في طواف النبي ﷺ على نسائه بغسل واحد.

صفحة ١٢٤: قال في ١٢٤: إننا نعلم ونعتقد أن الإسلام دين خالد عام؛ فهل من الممكن أن يكون كذا وكذا؟ إذا كان يحرم تعليم المرأة، ويقضي عليها بالجهالة الأبدية، ونحن حينما نذكر العلم، نريد العلم الناضج لا الناقص، فإن هذا العلم النصفي أو الجزئي قد يكون عاجزًا... إلى آخر ما قال وهذى.

صفحة ١٣٦: قال في ١٢٦ وما بعدها يمدح الحياة الدنيا، ويحمل على المسلمين في نقلهم الأحاديث الزهدية، والحاثة على الصبر والفقر وغيرها، جامعًا معها آثارًا باطلة للتوسل.

صفحة ١٣٢: قال في ١٣٢ مفسرًا تكسب المعدوم: أي أنك لرجل تاجر ماهر.

صفحة ١٤٠: إلى أن قال متهكمًا بالعلماء على اختلاف طبقاتهم: والروايات في مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جدًّا [لا يخلو] منها كتاب، بل ادعى جماعات من

هؤلاء أن غاية الدين وجملته أربع كلمات إحداها كلمة (ازهد في الدنيا). ثم جعل ينحي عليهم بهذر كثير يدل على سخافته وعلى رداءته.

صفحة ١٤٩: إلى أن قال في ١٤٩ في خاتمة ذم المسلمين: فما أعظم خطرهم وأقبح أثرهم، ثم قال مادحًا لقدماء الفلاسفة: لما أراد القدماء من الفلاسفة، ثم عظّمهم تعظيمًا.

صفحة ١٦٠: إلى أن قال في ١٦٠: شاعت هذه الأقاويل المحطمة بين المسلمين، وذكر أن نتائجها اندحار المسلمين... وقد هذر هذرًا كثيرًا.

صفحة ١٦٥: إلى أن قال في ١٦٥: والمسلمون الذين اعتقدوا أقاويل هؤلاء الشيوخ، ثم ذكر ما يروونه عن الدنيا، وفيه منه شيء من التهكم بالجزاء على تقديم الدنيا على الدين.

صفحة ١٦٧: إلى أن قال في ١٦٧: فلأن تأثير هذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة في تلك الكتب الميتة...

صفحة ١٧٠: إلى أن قال في ١٧٠: وقال سهل: وهو أحد أصنامهم.

صفحة ١٧٨: قال في ١٧٨: وهذا خلاف ما عرف وعهد في الكتب الدينية، فإنها تعلق كل فلاح حتى الفوز بالدنيا، وبالخيرات المادية على الصلاح والعبادة والتقوى؛ وتعلق كل شر على ضد ذلك، أي أنها تعلل كل شيء تعليلًا دينيًّا لا تعليلًا طبيعيًّا؛ إلى آخر ما قال مفضلًا ما تعلم عن التوراة عما جاء في القرآن.

صفحة ١٧٩: قال متندمًا على أحواله الماضية حالة الاستقامة، ويود أنها كحالته الموجودة الآن، ثم تهكم بمن يقول: «وكل الذي فوق التراب تراب». وكانت الخطباء... إلى آخر ما سخر به من أحوال الخطباء والوعاظ.

صفحة ١٨٢: إلى أن قال في ١٨٢: كم أرثي لهؤلاء المساكين. وجعل يتهكم بالواعظ والموعوظ.

صفحة ١٨٣: انتقد من قال: الزهد محله القلب.

صفحة ٢٠٠: قال في ٢٠٠: وقد كان الأولون ينسبون إلى الأرواح أغلب حوادث العالم المشهودة المرئية أو كلها، فالأفلاك عندهم... إلى آخر ما قال.

صفحة ٢٠٥: إلى أن قال في ٢٠٥ مستدلًا: وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح والملائكة والجن، وبكل ما جاء من الله.

صفحة ٢٠٦: قال في ٢٠٦ منكرًا للعين ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية: مسألة الإصابة بالعين أو النظرة... إلخ.

صفحة ٢٤٦: قال في ص ٢٤٦ منكرًا الفقر الحقيقي إلى الله، بعد كلام له نقلًا عن ابن القيم ولم يسمه: فصل: من ترك الاختيار... إلى آخر كلام ابن القيم وهو لا يرتضيه لما أنهاه وقال: وهذا كلام صريح في ترك العمل استسلامًا للقضاء والقدر.

صفحة ٢٦٨: قال في ص ٢٦٨ في ذكر الأسباب: لست أريد أن أقول: إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها إن شاء... إلخ.

صفحة ٢٧٩: قال في ص ٢٧٩: أما الآيات التي تنص على آجال الأفراد والأمم، وأنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون... ثم ذكر كلامًا معناه إنكار ارتباطها.

صفحة ٢٩٣: قال في ص ٢٩٣: أما هؤلاء الذين قلدوا الزعامة الدينية، ثم فضّل المتأخرين من الملحدين على السلف من المسلمين، تفضيلًا صريحًا، وأنه يجب تقديم الجديد على القديم.

صفحة ٢٩٦: قال في ص ٢٩٦ متهكمًا بحديث أنس: **«لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه»**[1].

صفحة ٢٩٨: إلى أن قال في ص ٢٩٨: وأن الشر أبدًا في ازدياد، وأن كل شيء ينقص

(١) تقدم تخريجه ص٢٠٥.

إلا الشر فإنه يزيد، روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول ولصحبه، فقد أصر على التنقيص والاتهام.

صفحة ٣٠٢: قال في ص ٣٠٢: كان رشد الإنسانية أمامها... إلى آخر ما قال: إن الرشد في هؤلاء الملاحدة، وضده في الصحابة والقرون المفضلة.

صفحة ٣٠٣: إلى أن قال في ص ٣٠٣: إذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة إسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام، قد عقمت في عددها العديد، إلى آخر ما هذى به.

صفحة ٣٠٥: إلى أن قال في ص ٣٠٥ في ذم رجال الدين السابقين: والسبيل لإنقاذ هذه الجماعات المتعددة أن تعلم الكفر بهؤلاء، والشك فيهم، وإساءة الظن بهم وبعلمهم وأنهم كانوا تحت ظنهم بهم جدًّا، وأنهم أبْعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين.

صفحة ٣١١: إلى أن قال في ص ٣١١: وعلى هذا الاعتقاد - اعتقاد الكمال في الأولين ونقص الآخرين - قامت أكبر جهالة رضيها الإنسان لنفسه... إلخ ما هذى به.

صفحة ٣١٥: قال في ص ٣١٥: المشكلة التي لم تحل، حاول فيها التملص من الإيمان، وأن الإيمان بالله لا نجاح معه، ثم حطَّ على المتدينين، وتهكم في صفحة ٣١٧ بالشرع والدين وأهله.

صفحة ٣١٧: ثم قال: عجز المتدينون على اختلاف أديانهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم على أن يهبوا الحياة شيئًا جديدًا، أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة.

صفحة ٣١٨: قال في ص ٣١٨: على أنه لا خلاف في أن أسمى هذه الآمال... عبارات فيها تهكم بالآخرة.

صفحة ٣١٩: قال في ص ٣١٩: إن أسباب عجزهم هو هذا التصوير أي تصور الآخرة.

صفحة ٣١٩: قال في ص ٣١٩: من المعلوم أن أوروبا... ثم شرع يصب عليها الثناء.

صفحة ٣٢٢: قال في ص ٣٢٢ نقلًا عن بعض فلاسفة الملحدين: إن الإيمان أكبر نكبة على البشر لأنه وقف بالحضارة عن التقدم. واستدرك قائلًا: إنه يبرأ من كل إلحاد.

صفحة ٣٢٢: إلى أن قال: ثم المتدين يفقد الميزان الفكري، الذي توزن به الأمور في الغالب، ويصبحون من الناحية النفسية أناسًا طيبين خيرين فاقدين لكل صناعة عقلية... إلى آخر ما قال عنهم.

صفحة ٣٢٥: إلى أن قال في ص ٣٢٥: بل يرون الوجود كله بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة أو هي كالمجنونة في أفعالها، ثم ظن أنه يستدرك في هذه المهالك الفظيعة فقال: كل هذه حقائق لا ريب فيها، ولكن ما معنى هذا؟ هل معناه أن الدين مفسد للبشر؟ ليس هذا هو المراد، ولا هو الصحيح... إلى آخر ما قال عن الدين بعبارة باردة يراد بها دفع الاعتراض.

صفحة ٣٢٦: إلى أن قال في ص ٣٢٦: إن البشر عاجزون فيما يبدو لنا حتى اليوم، عن أخذه وفهمه، على وجهه النافع المفيد، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين، أو متدينين تدينًا باطلًا، ولا بد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة.

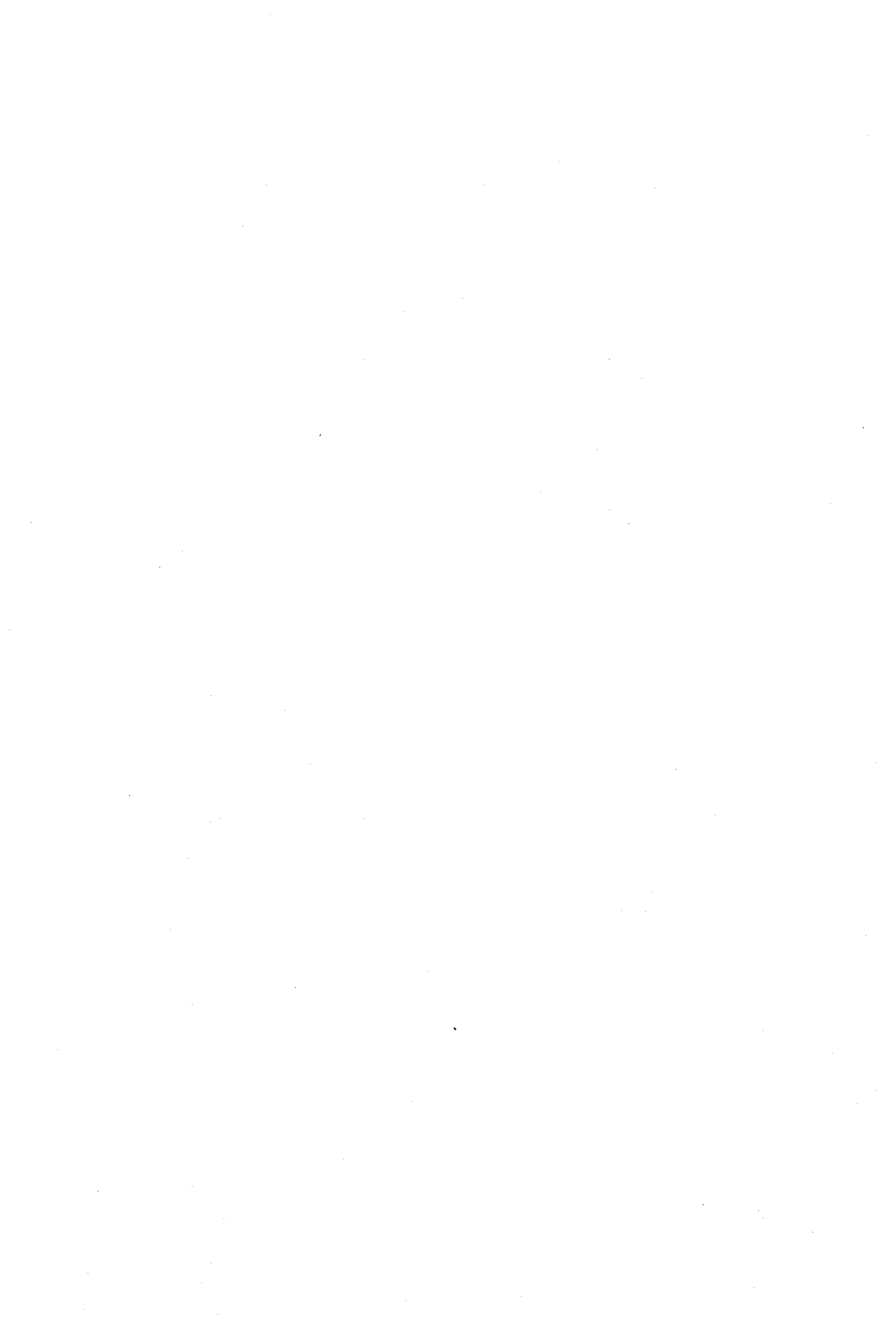
صفحة ٣٢٨: إلى أن قال في ص ٣٢٨ آخر الصفحات: هذه المشكلة التي لم يستطع أحد حلها بعد، وإلا فكما استطاع الدين أن يهب الإنسانية الأمل الحار والوقود لتسير في طريقها... إلى أن قال عن الدين وأحسن بعض الإحسان، ولكن هذا اعتذار لا يفيده عند الناس شيئًا. اهـ. الموجود من نقد كتاب **الأغلال**.



فتنة الدجال

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الدكتور
أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي





في ذكر أحاديث الدجال

روى مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري، أن النبي ﷺ قال: «لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات[1]؛ فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف[2]؛ خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[3].

وفي رواية: «والعاشرة ريحٌ تلقي الناس في البحر»[4].

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «بادروا بالأعمال ستا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»[5].

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»[6].

وعن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقٌ أكبر من الدجال»[7].

وفي المتفق عليه عن عبد الله مرفوعًا: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»[8].

---

(١) كذا في المخطوط، ولفظ مسلم: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها».

(٢) في المخطوط: «وثلاث خسوفات»، والتصويب من صحيح مسلم.

(٣) مسلم (٢٩٠١).

(٤) مسلم (٢٩٠١).

(٥) مسلم (٢٩٤٧).

(٦) مسلم (١٥٨).

(٧) مسلم (٢٩٤٦).

(٨) البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

وعن أنس مرفوعًا: «**ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوبٌ بين عينيه كافر**» متفق عليه[1].

وعن أبي هريرة مرفوعًا: «**ألا أحدثكم حديثًا عن الدجال، ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء بمثال الجنة والنار؛ فالتي يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه**» متفق عليه[2].

وعن حذيفة مرفوعًا: «**إن الدجال يخرج، وإن معه ماءً ونارًا، فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس نارًا فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم، فليقع في الذي يراه نارًا، فإنه ماءٌ عذبٌ طيب**». متفق عليه[3].

وزاد مسلم: «**وإن الدجال ممسوح العين، عليها ظَفَرَةٌ غليظة[4]، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمنٍ، كاتبٍ وغيرِ كاتب**»[5].

وعنه مرفوعًا: «**الدجال أعور العين اليسرى، جُفَال الشعر[6]، معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار**». رواه مسلم[7].

وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط[8]، عينه طافية، كأني أُشَبِّهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ**

---

(١) البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).

(٢) البخاري (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦).

(٣) البخاري (٣٤٥٠)، ومسلم (٢٩٣٤) واللفظ له.

(٤) لحمة تنبت عند المآقي، وقد تمتد إلى السواد فتغشيه.

(٥) مسلم (٢٩٣٤).

(٦) أي كثيره.

(٧) مسلم (٢٩٣٤).

(٨) الشعر الجعد.

عليه فواتح سورة الكهف؛ فإنها جواركم من فتنته، إنه خارج خلة[1] **بين الشام والعراق، فعاثَ يمينًا وعاث شمالًا، يا عباد الله، فاثبتوا»**. قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويومٌ كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**». قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا، اقدروا له قدره**». قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم**[2] **أطول ما كانت ذرًى**[3]**، وأسبَغَه ضروعًا**[4]**، وأمده خواصر**[5]**. ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين**[6]**، ليس بأيديهم شيءٌ من أموالهم. ويمر بالخَرِبَةِ، فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب**[7] **النحل، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل، ويتهلل وجهه، يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقيَّ دمشق، بين مهرودتين**[8]**، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين. إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه مثل جمان اللؤلؤ**[9]**. فلا يحل لكافرٍ يجد من ريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفُهُ. فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدٍّ**[10]**، فيقتله. ثم يأتي**

---

(١) أي طريق بينهما.

(٢) الماشية.

(٣) الذُّرى: جمع ذِروة، وهي أعلى سنام البعير.

(٤) جمع ضرع: الثدي، وهو كناية عن كثرة اللبن.

(٥) جمع خاصرة ما تحت الجنب، ومدها كناية عن الامتلاء وكثرة الأكل.

(٦) الممحِل: الذي قد أجدبت أرضه وقحطت، وغلت أسعاره.

(٧) يعاسيب: جمع يعسوب. وهو فحل النحل ورئيسها.

(٨) أي في شقتين أو حلتين. وقيل: الثوب المهرود: الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران.

(٩) هو اللؤلؤ الصغار.

(١٠) موضع بالشام. وقيل بفلسطين.

عيسى إلى قومٍ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة». إلى آخر الحديث. رواه مسلم[1].

وروى مسلم أيضًا حديث أبي سعيد مرفوعًا في قتل هذا الرجل وإحيائه، وقال في آخره: **«ثم يقول له: قم! فيستوي قائمًا. فيقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحدٍ من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فَيُجْعَلَ ما بين رقبته إلى تَرقُوتِهِ نُحاسًا. فلا يستطيع إليه سبيلًا. قال: فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به. فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة. فقال رسول ﷺ: هذا أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين»**[2].

وروى مسلم أيضًا عن أم شريك مرفوعًا: **«ليفرنَّ الناس من الدجال، حتى يلحقوا بالجبال، قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: هم قليل»**[3].

وروى مسلم أيضًا عن أنسٍ مرفوعًا: **«يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة[4]»**[5].

وفي المتفق عليه من حديث أبي سعيد مرفوعًا: **«يأتي الدجال، وهو محرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ[6] التي تلي المدينة، فيخرج إليه رجل...»**[7]. وذكر قتله كما سبق.

وفي المتفق عليه أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: **«يأتي المسيح من قبل المشرق، همته المدينة، حتى ينزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهة قِبَل الشام، وهنالك يهلك»**[8].

---

(١) مسلم (٢٩٣٧).
(٢) مسلم (٢٩٣٨).
(٣) مسلم (٢٩٤٥).
(٤) الطيالسة: جمع طيلسَان، فارسي معرب، وهو ضرب من الأكسية.
(٥) مسلم (٢٩٤٤).
(٦) الأراضي التي لا تنبت المرعى.
(٧) البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨).
(٨) البخاري (٧١٣٣)، ومسلم (١٣٨٠).

وفي البخاري عن أبي بكرة مرفوعًا: «**لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، ولها يومئذٍ سبعة أبواب، على كل باب ملكان**»[1].

وحديث تميم الداري وقصته معروفة[2].

وعن عمرو بن حريث مرفوعًا: «**الدجال يخرج من أرضٍ بالمشرق، يقال لها خراسان، يتبعه أقوامٌ وجوههم المجانّ المطرقة**[3]» رواه الترمذي[4].

وروى أبو داود عن عمران بن حصين مرفوعًا: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**»[5].

وفي **الصحيحين** عن المغيرة بن شعبة قال: ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته. وإنه قال لي: «**ما يضرك**». قلت: إنهم يقولون إن معه جبل خبزٍ، ونهر ماء. قال: «**هو أهون على الله من ذلك**»[6].

وأحاديث ابن صياد معروفة، وأحاديث قتل عيسى ابن مريم للدجال كثيرة معروفة.

وأمر النبي ﷺ أمته في صلاتهم أن يتعوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال معروف.

وروى مسلم عن نافع بن عتبة مرفوعًا: «**تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال، فيفتحه الله**»[7].

---

(١) البخاري (٧١٢٥). (٢) ويعرف بحديث الجساسة.

(٣) المجان: جمع مجنّة، وهو الترس، والمطرّقة: التي ضوعف عليها العَقبُ، وألبسته شيئًا فوق شيء.

(٤) الترمذي (٢٢٣٧). (٥) أبو داود (٤٣١٩).

(٦) البخاري (٧١٢٢)، ومسلم (٢٩٣٩).

(٧) مسلم (٢٩٠٠).

الكلام على هذه النصوص
في قصة الدجال يقتضي تقديم مقدمات

إحداها: أن المسلمين متفقون على تلقي جميع ما جاءت به النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة بالتصديق والقبول. وأن جميع ما أخبر به الله ورسوله فهو واقعٌ ما له من دافع. وسواء عرفنا تأويله والمراد به بعينه، أو لم نعرف ذلك. فهذا الأصل المتفق عليه بين علماء المسلمين، لا يتم للعبد إيمان إلا به. بل هو أصل الإيمان ومادته.

الثانية: أن إخبارات النبي ﷺ، وأوامره ونواهيه، كلها حقٌّ وصدقٌ ونفعٌ للعباد، وللأمة من أولها إلى آخرها. فإخباره بالدجال، وفتنته، والأمر بالتعوذ بالله من فتنته نافعٌ للأمة كلها. فإن التصديق به، وبما قاله الرسول عنه، يزداد به إيمان المؤمن. وإن الالتجاء إلى الله، والتعوذ به من فتنته في الصلاة وخارجها نفعه عظيم. وكل مؤمنٍ لا يستغني عن هذه الاستعاذة، كما لا يستغني عن الاستعاذة بالله من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات.

المقدمة الثالثة: أن فتنة المسيح الدجال نوعان:

نوع يراد به الشخص الذي وصفه الرسول ﷺ بالصفات السابقة.

ونوعٌ يراد به جنس الفتنة.

ووجه الحاجة إلى القسم الأول من هذين النوعين: أن نفس الاستعاذة بالله من فتنته عبادة وتضرع والتجاء إلى الله، وذلك خير محض. ثم كون ذلك الشخص مجهولًا زمان مجيئه، كل مؤمن لا يأمن على نفسه إدراك ذلك الزمان. والأمر الذي تحت الإمكان، ويخشى من شره وفتنته، معلوم حاجة العبد إلى توقي فتنته بكل سبب. ومن أكبر الأسباب

الالتجاء إلى الله، والتعوذ بالله منه. وأيضًا فهذا الدعاء والخوف من فتنته، لا بد أن يسري في طبقات الأمة ويتوارثوه، ويصير عقيدة راسخة، حتى إذا جاء وتحقق وقوعه، كان عند الأمة، وخصوصًا خواصهم، من العقائد الصحيحة ما يدفع شره، ويقي فتنته، بخلاف ما لو زال خوفه من القلوب، فإنه إذا جاء ذلك الوقت ازدادت به الفتنة، ولم يكن عند المؤمنين من مواد الإيمان ما يبطل فتنته وشره.

وأما القسم الثاني: فالحاجة إليه أظهر؛ فإن جنس فتنة المسيح الدجال هو: كل باطلٍ زُوِّق وبُهرج، وحسِّن فيه الباطل، وقبِّح فيه الحق، وأيِّد بالشبه التي تغر ضعفاء العقول، وتخدع غير المتبصرين. وهذا موجودٌ وشائع. بل بحره طامٍ في كل زمانٍ ومكان. فالعبد مضطر غاية الاضطرار إلى ربه في أن يدفع عنه هذه الفتن التي هي من جنس فتنة المسيح الدجال؛ فتن الشبهات والشكوك، وفتن الشهوات المردية.

المقدمة الرابعة: أن الأمور التي شاهدها الناس أو شاهدوا نظيرها، إذا أخبرهم بجنسها بين لهم الشارع ما يعرفون، وأرشدهم إلى الأمر الذي يفهمونه. وأما الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرًا، فإن الشارع يضرب لهم فيها الأمثال، ويدخلها في العمومات اللفظية أو المعنوية. فإن أنواع المخترعات الحادثة التي لا يعرف الناس لها نظيرًا فيما سبق، قد دلهم الشارع عليها وأخبرهم بها خبرًا عموميًا، من دون أن يعين أعيانها وأوصافها الحادثة، لما في ذلك من بيان الحقائق، وهدى الخلائق، فإدخالها في عمومات الكتاب والسنة ليعلم الموفقون أن الله لم يهمل شيئًا، ولم يفرط في الكتاب من شيء. وأما عدم تعيينها بأوصافها الخاصة، فإنه لا يحصل بذلك، في ذلك الوقت كبير فائدة. بل ربما حصل فيه مضرة على بعض الناس، كما ذكرنا هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. في التفسير، وفي بعض الرسائل التي كتبناها.

قال شيخ الإسلام في رسالته السبعينية: (وفتنة الدجال لا تختص بالموجودين في زمانه. بل حقيقة فتنته: الباطل المخالف للشريعة، المقرون بالخوارق. فمن أقرَّ بما يخالف الشريعة

لخارق، فقد أصابه نوع من هذه الفتنة. وهذا كثير في كل زمانٍ ومكان. لكن هذا المعيّن فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها، سواءً أدركه أم لم يدركه، كان معصومًا مما هو دون هذه الفتنة)[1]. إلى أن قال: ومعلومٌ أن ما ذكر معه من التعوذ من عذاب جهنم والقبر، وفتنة المحيا والممات أُمرَ به كل مصل، إذ هذه الفتن مجرية على كل أحد، ولا نجاة إلا بالنجاة منها. فدل على أن فتنة الدجال كذلك. ولو لم تصب فتنته إلا مجرد الذين يدركونه، لم يؤمر بذلك كل الخلق، مع العلم بأن جماهير العباد لا يدركونه، ولا يدركه إلا أقل القليل من الناس المأمورين بهذا الدعاء.

وهكذا إنذار الأنبياء إياه أممهم حتى أنذر نوح قومه، يقتضي تخويف عموم فتنته، وإن تأخر وجود شخصه، حتى يقتله المسيح ابن مريم عليه السلام.

وكثيرًا ما وقع في قلبي أن هؤلاء الاتحادية أحق الناس باتباع الدجال[2]. ومع هذا فقد جرت للمسلمين مع أتباعهم من المحن ما هي أشهر المحن الواقعة في الإسلام. ومعلوم أن هذه الفتنة هي نتيجة محنة الدجال. بل هذه النتيجة أقرب إلى محنة الدجال من غيرها.

قلت: وهؤلاء الملحدون العصريون الذين ذكر الشيخ أشباههم، هم أعظم الناس قيامًا بفتنته، دعوةً واستجابة.

وفي صفحة (٧٥٦) من المجلد (٢٨) من **المنار** بعد كلام كثير: (والظاهر من مجموعها، أي أحاديث الدجال، أنه يظهر في اليهود دجال، بل أكبر دجال عرف في تاريخ الأمم، فيدعي أنه هو المسيح الذي تنتظره اليهود فيفتتن به خلقٌ كثير، لما يظهره من الغرائب والعجائب التي هي أغرب من جميع معجزات الأنبياء، أو مثل أعظمها. وفي آخر مدته يظهر المسيح الذي هو عيسى ابن مريم، ويكون نزوله في المنارة البيضاء شرقي دمشق، ويلتقي بالمسيح الدجال بباب لدٍّ - وفي فلسطين بلدٌ يسمى باللدّ - فهنالك يقتل المسيح الصادق عيسى ابن

---

(١) بغية المرتاد ص٤٨٣. (٢) بغية المرتاد ص٥١٤.

مريم عدو الله المسيح الدجال، بعد حربٍ طويلة تكون بين المسلمين واليهود).

وفي المجلد (٢٩) من **المنار**، صفحة (١٥٥)، لمّا ذكر ما تعده اليهود في شأن فلسطين، قال: (لا شك عندنا أن كلًّا من اليهود والإنكليز يكيد للآخر ليستعمله في الوصول إلى غرضه المنافي لغرض الآخر. ولا شك عندنا في أن الفتنة المنتظرة، هي من أعظم فتن الأرض، أو أعظمها على الإطلاق؛ وهي محاولة إعادة ملك اليهود، المعبر عنها بالأحاديث بفتنة المسيح الدجال).

وقال في المجلد (٢٨) صفحة (٢٠) بعد كلامه على أحاديث الدجال، وانتقاده لكثيرٍ من تفاصيلها، قال: (ويدل القدر المشترك منها على أن النبي ﷺ كُشف له، وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان، يظهر الناس خوارق كثيرة، وغرائب يفتن بها خلق كثير، وأنه من اليهود). إلى أن قال: (ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى، يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية، كالكهرباء والكيمياء، وغير ذلك).

وكان يقول هذا قبل احتلال اليهود لفلسطين بعدة سنين، فوقع كما ظن رحمه الله.

وفي صفحة (١٩٢) من الجزء السادس من **الفتح الرباني في شرح المسند**، قال الشارح: (ويلوح لي أن اليهود الآن يحشدون إلى بيت المقدس، ليلقوا حتفهم مع رئيسهم الدجال، في هذه الأرض ولو بعد حين، مصداقًا لقول نبينا ﷺ).

أما ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ففي غاية الحسن والمطابقة لفتنة الدجال، وأنها نوعان: **أحدهما**: فتنة الدجال، أي جنسها، وهي الشبهات المزوقة المموهة، التي يفتتن بها الخلق الكثير. ومتى تأملت أحوال البشر، وكيف سرى الإلحاد فيهم بصورة هائلة، وزخرفت له الأقوال، وروج بأساليب متنوعة، ونصر بالقوى المادية، وجرف بتياره وفتنته الخلق الكثير، ولم يسلم من فتنته إلا اليسير ممن عصمهم الله، وحفظهم بالبصيرة النافذة، والبعد عن هذه الفتنة. ويؤيد كلام الشيخ ويقربه من الأحوال الواقعة ما ذكرناه من كلام صاحب **المنار**،

بقوله: (ولا شك عندنا أن الفتنة المنتظرة من أعظم فتن الأرض أو أعظمها على الإطلاق؛ وهي محاولة إعادة ملك اليهود، المعبر عنها بالأحاديث بفتنة الدجال). وأنهم يستعينون على ذلك بالاعتماد على الإنكليز، الذي هو من أكبر الدجالين، وبخوارق العلوم والفنون العصرية، والمخترعات الهائلة. ويكون على هذا ذكر النبي ﷺ لبعض تفاصيل فتنته في الأحاديث السابقة على وجه التقريب والتمثيل. ويدل على ما قاله الحديث السابق، وهو ما رواه مسلم عن نافع بن عتبة عنه ﷺ أنه قال: «**تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تغزون فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله**»[1]. فدل هذا الحديث وترتيب الفتوحات المذكورة بحسب قربهم من المسلمين، وأنهم بعد فتح فارس والروم يغزون الدجال فيفتحه الله، أنهم الأمم الذين وراء فارس والروم، من الأمم الفرنجية وتوابعهم، وكونهم السبب الوحيد الذي مهَّد لليهود ملك فلسطين، وساعدوهم بالقوة المادية والسياسية، كما هو معروفٌ لا يخفى على أحد. ولولا ذلك لم يطمع اليهود بتملك شبرٍ من بلاد العرب، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]. فهؤلاء الناس هم الذين مهدوا لهم الملك، وتداعوا من كل قطرٍ إلى بلاد العرب من فلسطين كما تقدم في الحديث الصحيح أن الدجال يتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا[2]. وهذا معناه أنهم يستدعون إلى فلسطين من أقطار الأرض بسبب دعوة الدجال لهم.

ومن عرف كيف عملت اليهود مع الإنكليز، وتأكد بينهم الوعد المسمى بوعد بلفور، وكيف حاولوا المحاولات العظيمة، وسخروا الأمم القوية لتمهيد مصالحهم، لم يستبعد أن هذه فتنة الدجال الخاصة، التي هي أكبر فتن الأرض، كما ورد في الحديث السابق الصحيح: «**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال**»[3].

وهل أعظم من فتنة جرف تيارها جمهور الناشئة الحديثة بإلحاده، وصير من يرجى منهم

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٥٥.
(٢) تقدم تخريجه ص٢٥٤.
(٣) تقدم تخريجه ص٢٥١.

نصرة الإسلام بالقول والفعل من أكبر الأعوان على هدمه وزواله؟! وهم يسعون استجابةً لفتنة الدجال على القضاء عليه. ونرجو الله أن يلطف، ويدفع عن المؤمنين بحوله وقوته ورحمته، فإنهم لا سبب لهم مادي، ولا قوة حسية، تدافع بها القوات المحتشدة المصممة على القضاء عليه، ولكن سيأتي من لطف الله ما لا يخطر بالبال.

وهل أعظم من فتنة اجتمع العرب وحكوماتهم على مقاومتها، ومدافعتها عن بلادهم، فقاومتهم السياسات، ولعبت بهم الفتن، حتى فرقتهم وشتتهم ومكنت عدوهم من جوف بلادهم، وذهب أهلها مشردين في كل قطرٍ منهم طائفة. وهي في سعيها وجدها الآن لا تزداد إلا قوة، ولا يزداد العرب إلا وهنًا وضعفًا ماديًّا ومعنويًّا، دينيًّا ودنيويًّا؟!

ولا بد أن تتوسع سيطرة اليهود، ولا بد لهم من التضييق على جيرانهم من الحكومات العربية[1]، ولا بد أن يتبين مَن الشخص منهم الذي هو المسيح الدجال المعيَّن بذاته، وتجري بقية ما ذكره الرسول ﷺ على يده، حتى ينزل عيسى ابن مريم، ويعين الله المسلمين، فيقاتلونهم فيقتلون اليهود، ويقتل عيسى ﷺ مسيحهم الدجال.

ومما يؤيد أن العلوم العصرية المتنوعة هي من خوارق الدجال ما تقدم في حديث النواس ابن سمعان، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كغيث استدبرته الريح**»[2]. وهذا بأسباب المخترعات الحديثة من المراكب البرية والهوائية[3]. وقد قال كثير من أهل العلم في قوله ﷺ عن الدجال إنه: «**مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن؛ كاتب وغير**

---

(١) وقد صدقت توقعاته - رحمه الله - ففي عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، أي بعد أحد عشر عاما من وفاة الشيخ - رحمه الله - جرت حرب الأيام الستة، وانتزع اليهود فيها القدس، والضفة الغربية من الأردن، وقطاع غزة من مصر، وهضبة الجولان من سوريا، وهم الآن يسومون الفلسطينيين سوء العذاب بمرأى ومسمع من العرب والمسلمين والعالم، سيما بعد اندلاع ما سمي بالانتفاضة الفلسطينية منذ عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

(٢) تقدم تخريجه ص٢٣٥.

(٣) في هذا الجزم نظر! فالله أعلم بم يكون ذلك.

كاتب»[1]. إن هذا على جهة التمثيل، وإن معناه أن أمره واضح، لا يخفى على كل مؤمن أنه كافر[2]. وأن ما معه ومع أتباعه من الخوارق لا تدل على صحة قوله، وإنما هي صناعات مادية يشترك فيها البر والفاجر.

ومما يدل على أنها تمويهات ما تقدم في حديث المغيرة بن شعبة، الثابت في **الصحيحين** قال: ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته، وإنه قال لي «**ما يضرك؟**». قلت: إنهم يقولون: إن معه جبل خبزٍ، ونهر ماء! قال: «**هو أهون على الله**»[3]. الحديث. فقوله: «**هو أهون على الله**». أي: من أن يكون لهذه المذكورات حقائق صحيحة تدل على صدقه. وإنما معه أمورٌ ومخترعات موجودة مشتركة.

ولكن فتنته على العرب والمسلمين عظيمة، وتفوقه عليهم بالمخترعات أمرٌ معلوم.

والواقع الآن يشهد بما ذكرنا، وهذه الفتنة الصهيونية لها توابع كثيرة إلى الآن لم تتم، وهم يسعون فيها. فمن قارن بين هذه الفتنة العظيمة وتوسعها وضررها، وبين غيرها من الفتن التي جرت على المسلمين؛ علم أنها أكبر قارعة حلت، وأعظم مصيبة أصابتهم، وأن فتنتها السابقة واللاحقة أعظم الفتن، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه.

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٥٢.

(٢) ما نسبه المؤلف رحمه الله إلى كثير من أهل العلم ! تأويل مخالف لظاهر النص. قال النووي، رحمه الله: (الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقة، جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله. ويظهرها الله لكل مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته. ولا امتناع في ذلك. وذكر القاضي فيه خلافًا: منهم من قال: هي كتابة حقيقة، كما ذكرنا، ومنهم من قال: هي مجاز وإشارة إلى سمات الحدوث عليه، واحتج بقوله: «**يقرؤه كل مؤمن كاتب، وغير كاتب**» وهذا مذهب ضعيف). شرح مسلم ١٨/ ٦٠، ٦١.
وفي رواية عند الترمذي: (مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه من كره عمله).
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. حديث رقم ٢٢٣٥.

(٣) تقدم تخريجه ص٢٥٥.

وفي الحديث السابق: «**من سمع بالدجال فلينأ عنه. فوالله إن الرجل ليأتيه فيحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**»[1]. فكم قد شاهد الناس ممن افتتن في هذه الأوقات بدعايات الإلحاد، ودعوة المستعمرين.

ومما يدل على الحال الواقعة الحديث السابق، في **صحيح مسلم** عن أم شريكٍ مرفوعًا: «**ليفرن الناس من الدجال، حتى يلحقوا بالجبال**». قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذٍ؟ قال: «**هم قليل**»[2]. ففي هذا الحديث بيان أن الضرر الأكبر سيصيب العرب، وأنه لم يبق منهم إلا القليل. أي: لم يبق من الذين عصموا من فتنته إلا القليل. وأما من افتتن به فتبعه، أو صار من دعاتهم، أو خدرت أعصابه عن المقاومة، أو استسلم لهم، فهم كثير.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**أشد أمتي على الدجال بنو تميم**»[3]. فهذا يدل على أن عرب الجزيرة، الذين جمهورهم بنو تميم، هم أسلم الناس من فتنته، وهم **أشد** الناس جهادًا له بالحجة والبيان[4]، وبالسلاح والسنان. فنرجو الله أن يوفقهم ويؤيدهم بنصره، ويأخذ بأيديهم، إنه جواد كريم.

سنرجع بقية الكلام إلى أن يتبين لنا ولغيرنا في المستقبل من هذه الفتنة بقية ما ذكره الرسول ﷺ. فإنه أمرٌ واقع، ما له من دافع، وأصوله ومقدماته قد وضحت وبانت لكل أحد له بصيرة. ٧ شعبان ١٣٧٠هـ.

ومن كتاب **الإسلام المفترى عليه** لمحمد الغزالي، صفحة (٢١): (وها قد مضت أربعة عشر قرنًا، ثم عادت إسرائيل مرةً أخرى باسم التوراة، تريد الحكم والسيادة، فهل سمعت أو لمحت في عودة إسرائيل قبسًا من فرقان، أو قطرة من حنان، أم هو التمهيد للنسف

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٥٥.

(٢) تقدم تخريجه ص٢٥٤.

(٣) البخاري (٢٥٤٣)، ومسلم (٢٥٢٥).

(٤) ولعل هذه الرسالة من جهاده بالحجة والبيان. ومؤلفها رحمه الله من بني تميم.

والطغيان والكبر والعدوان؟ وكذلك قيل لكنائس الغرب: استيقظي. ثم أصغينا للدجالين من ساسة أوروبا يبشرون بالدين). إلى آخر عبارته[1].

---

(١) ذيل المؤلف، رحمه الله، رسالته بهذا النقل بعد أن ختمها، مما يدل على أنه استجد له. وربما كان ينوي تبييض الرسالة، وإدراج هذا النقل في موضعه المناسب، والكلام على ما يجد من أمر هذه الفتنة مستقبلًا، فلم يقع له ذلك، رحمه الله.

مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢١)



تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

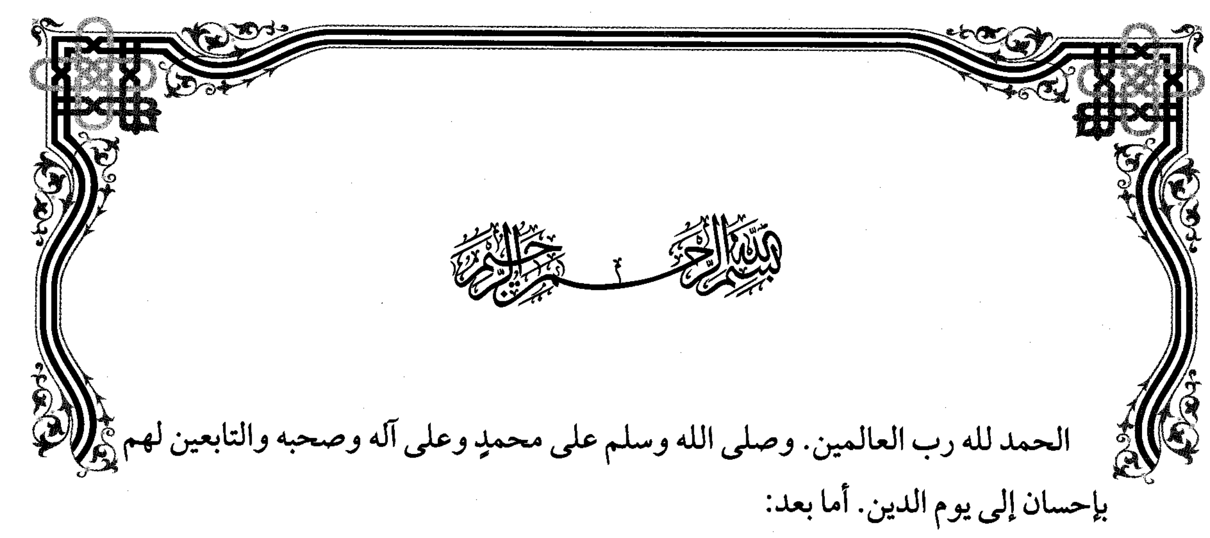
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات

أبرزها نشرة الدكتور

أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي





الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على محمدٍ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإنه يجب على كل مسلم أن يعتقد ويصدق بكل ما أخبر الله به ورسوله؛ سواء كان الخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، أو عن مخلوقاته الماضية والحاضرة والمستقبلة، هذا على وجه العموم والإجمال فرضٌ واجب على كل مسلم، لا يتم الإيمان إلا به، فيصدق الله ورسوله في كل أخبارهما. ثم كلما جاءه عن الله، وعن رسوله خبر تفصيلي في ذلك، وجب عليه الإيمان التفصيلي بذلك الخبر المعين؛ الإيمان بلفظ النص، والإيمان بمعناه. هذا أصلٌ مجمع عليه بين جميع المسلمين.

وقد يخبر الشارع عن أمور مستقبلة، فإذا وقعت كما أخبر كان ذلك زيادة إيمان في حق من عرفها، وعرف تأويلها[1]، ومطابقتها لخبر الله ورسوله، وكان آية وبرهانًا على صدق الرسول ﷺ.

وقد يشكل على بعض المؤمنين بعض الأخبار إذا وقعت، وتطبيقها على الواقع. فعلى

(١) مراده رحمه الله بالتأويل هاهنا: الحقيقة التي يؤول إليها الخبر. وهو عين ما يوجد في الواقع. ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣]. وقول يوسف عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وليس مراده ـ حاشا وكلا ـ التأويل المذموم الذي هو صرف الكلام عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، بلا دليل، أو بدليلٍ باطل. انظر في معاني التأويل، الرسالة التدمرية ص٩١-٩٦.

من أشكل عليه الأمر فيها أن يتوقف في الأمر الذي وقع؛ هل هو المراد بخبر الله وخبر رسوله؟ وهل هو ذلك الموصوف أم لا؟ فمن انتهى إلى ما سمع، وتوقف عما لا يعلم، فقد أحسن في ذلك وسلم، ومن تسرع بالجزم بالنفي أو الإثبات من غير برهانٍ ولا دليلٍ يجب المصير إليه، فهذا من القول بلا علم، وقد علم ما يترتب على ذلك من الوعيد(١).

فالمتعين على كل مؤمن أن يقول بما يعلم، وما تدل عليه الأدلة الشرعية، وأن يتوقف عما لا يعلم نفيًا وإثباتًا. ولهذا أمثلة كثيرة(٢)، منها:

---

(١) سيأتي مزيد تقرير لهذا الأصل في ختام الرسالة.

(٢) قدم الشيخ رحمه الله في النسخة المتوسطة من رسالته في يأجوج ومأجوج بمثالٍ آخر نثبته هاهنا بطوله، فقال:

المثال الأول: لما حدثت في هذه الأزمان الأخيرة الصناعات الباهرة، والمخترعات الغريبة من غواصات بحرية، وسيارات برية، وطيارات جوية، ونحوها، وحدث ما هو أبلغ منها، وهو قرب المواصلات الكهربائية بالتلغراف اللاسلكي، والتلفون الهوائي، والإذاعات المدفوعة من الأماكن البعيدة، حتى تتصل بالراديات البعيدة والقريبة، وما يتفرع على ذلك من المخترعات المدهشة، حصل من كثيرٍ من الناس استغرابها جدًا، لعدم فهم أسبابها، ولكن بعضهم توقف عن القول بلا علم فسلم، ومن الناس من حمله الجهل والتسرع على تحريم هذه المخترعات، وتحريم استعمالها، وزعم بعضهم أنها من السحر المحرم، أو من الشرك، واستخدام الشياطين، وهذا جهل محض، وجراءة صِرفة، فلو أنهم صبروا حتى يتبين لهم أمرها، ويزول اشتباهها، لكان خيرًا لهم. والله غفور رحيم.

وأما من عرف حقيقة الأمر، فإنه يعلم أن هذه من الصناعات التي أقدر الله عليها الآدميين، وأذن لهم في استعمالها، بل أمر بها حيث لا تتم المصلحة الدينية، أو الدنيوية، أو كلاهما، إلا بها، وعرف أنها من أبلغ ما يدخل في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. وأن الله تعالى أعدَّ الآدمي لعلوم ومخترعات كثيرة، وأن الآدمي لا يزال في ازدياد ورقي في العلوم الدينية والكونية، وأن من منع ذلك فقد ضيق رحمة الله، وتحجر
فضله، وقال قولًا ينادي على جهله، فكما يجب شكر الله على تعليمه للعبد العلوم الدينية، فيجب شكره على تعليمه العلوم الكونية، لا سيما إذا أعانت على الخير، وتوقف قتال الأعداء ومدافعتهم =

ما ورد في الكتاب والسنة من الخبر عن يأجوج ومأجوج، وما هم عليه من الصفات التي

= عليها. وكذلك يعرف البصير أنها داخلة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]. فأخبر أنه في مستقبل زمان نزول القرآن، أنه سيخلق من الأمور المستعملة في ركوب الآدميين ومصالحهم المتنوعة ما لا يعلمه الناس في ذلك الزمان. وقد وقع كما أخبر، فقد خلق من الصنائع الهائلة، والمخترعات الباهرة، بواسطة تعليمه الآدمي ما لا يعلمه الناس. فلما وقع، كان من آيات الله الأفقية التي قال فيها: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فعرف المؤمنون واعترفوا أن وعده حق، وخبره صدق. ثم من نعمته على عباده، ولطفه بهم، أنه أخبر بهذه الأمور على وجه العموم والإجمال، لأنه لو أخبرهم بها على وجه التفصيل لوجد الأعداء المعاندون مقالًا يقدحون به في صحة رسالة محمد ﷺ. فإذا كان الإسراء الذي وقع في وقته ﷺ من جملة المعجزات التي لم تزل موجودة مع الأنبياء، وغير مستغربة، ومع ذلك قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وذلك أنهم قالوا: هذا محمد يزعم أنه ذهب في ليلة واحدة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته، فلجُّوا في تكذيبهم، وافتتن بكلامهم من في قلبه ريب، وضعف إيمان، فكيف لو أخبرهم بوقوع هذه المخترعات في آخر الزمان، وقال لهم: سيغوص الناس في البحار، ويركبون الحديد في مهامة القفار، ويطيرون بين السماء والأرض، ويتخاطبون من مشارق الأرض ومغاربها، لو أخبرهم ببعض هذا على وجه التفصيل لقالوا: مجنون، كذاب، مفتر. ولكن الله لطف وسلم، إنه عليم حكيم، وأيضًا، فهذه المخترعات العجيبة من أعظم ما يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهذا البأس الشديد، والمنافع المتنوعة المتخذة من الحديد من أكبر نعم الله على عباده. وقد تعرف بها إليهم، فوجب عليهم أن يشكروا الله عليها، ويستعملوها فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، ويستدفعوا ببأسها الأعداء، ويتخذوا من منافعها ما يثمر لهم الخيرات والمصالح الكثيرة. وأبلغ من هذا كله أنها

أعظم ما يدخل في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذا أمر إيجاب، وأمر استحباب بحسب الأحوال. فأمر الله المؤمنين أن يعدوا لأعدائهم كل ما يستطيعونه من قوة عقلية، وسياسة، ورأي، وسلاح، ومخترعات، وحصون مانعة، وأسلحة فتاكة. فمن ظن بجهله أنه لا يدخل فيها إلا الضرب بالسيف، ورمي النشاب، وركوب الخيل، وطعن الرمح، وأن الأسلحة الوحيدة في هذه الأوقات لا تدخل في هذا الأمر، فقلْ له، بحسب إدراكه، أرأيت لو وقع حادث خطير في طرف مملكة من الممالك الإسلامية، فهل لسرعة تلافيه غير الاستعانة =

وصفها الله ورسوله، فظهرت واتضحت، فوصلت إلى درجة اليقين، حين تطبق عليها الأدلة الشرعية، والبراهين اليقينية، والعلم بالواقع. ويوجد كثير من المؤمنين يتوهمون ويظنون ويعتقدون أن يأجوج ومأجوج، إلى الآن لم يظهروا، ولم يعثر عليهم أحد، ولم يبرزوا إلى الناس، وأنهم وراء السد والردم الذي بناه ذو القرنين، وأنهم أمم عظيمة، أضعاف أضعاف الموجودين الآن في الأرض من الآدميين، في جميع جهات الأرض، وفي كل قاراتها الست المعروفة، وفي جزائرها التابعة لهذه القارات. فكل هؤلاء المذكورين عند هؤلاء الناس أقل بكثيرٍ، بما لا نسبة له إلى يأجوج ومأجوج، الذين هم الآن موجودون في الأرض.

وهذا الظن غلطٌ محض، وسببه عدم فهم ما جاء به الكتاب والسنة على وجهه في هذه المسألة، وعدم العلم بالواقع، وعدم العلم بأحوال الأرض وسكانها، مع ورود أحاديث لا خطام لها ولا زمام في صفاتهم[1]. فتولد من ذلك كله إنكار خروجهم، وأن يأجوج ومأجوج غير الأمم الموجودين في أقطار الأرض، المعروفين، من الروس والصين واليابان وأمريكا، وغير سكان آسيا، وسكان إفريقية، وسكان أوروبا، وسكان أمريكا الجنوبية،

= بالمواصلات البرقية، والسيارات، والطيارات، وما يستطاع من أنواع الأسلحة؟!

وهل إذا تقابل الصفان، وتزاحفت الجيوش الكثيرة، واتسع الميدان، وأريد من الجيش أن تكون حركته واحدة، إقدامًا، وإحجامًا، وهجومًا، ودفاعًا، فهل لذلك طريق غير التلفونات البرقية، وآلات النقل السريعة، وتوابع ذلك؟!

وهل إذا دهم العدو بالدبابات المصفحة، والطيارات، والأطواب الثقيلة، والأسلحة الفتاكة الجهنمية، فهل يمكن مقابلتها إلا بمثلها؟!

ولما كانت هذه المسألة واضحة، متبينة مصالحها، معروفة منافعها، صار الذي ينكرها اليوم، وينكر مصلحتها، وأهميتها، من أندر النادر، بحيث لا ينظر إلى قوله، والله أعلم)، اهـ.

ثم ثنى رحمه الله بالمثال الثاني، وهو يأجوج ومأجوج.

(١) انظر على سبيل المثال الأثر الإسرائيلي، الذي رواه ابن جرير عن وهب بن منبه. جامع البيان ١٦/ ١٩. وانظر كلام الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٥٥٢-٥٦٠ على تلك الأحاديث والآثار.

وأمريكا الشمالية، وغير سكان أستراليا، وتوابع هؤلاء. فيأجوج ومأجوج عند هؤلاء أممٌ غير هؤلاء، وهم في الأرض، وهم أكثر من المذكورين أضعافًا مضاعفة، وأنهم إلى الآن لم يوقف لهم على خبر!

وأمّا من تدبر أوصافهم في الكتاب والسنة الصحيحة الصريحة، وطبقه على الواقع، فإنه لا يشك ولا يستريب أنهم هؤلاء الأمم أو بعضهم. وأن ظهورهم على الوصف الذي وصفوا به في الكتاب والسنة من أعظم الآيات والأدلة على صدق ما جاء به محمد ﷺ. وأن الأوصاف المذكورة في الكتاب والسنة الصحيحة منطبقة عليهم أشد الانطباق.

وسنذكر - إن شاء الله - من أدلة الكتاب والسنة، وكلام المؤرخين الأولين والآخرين والمفسرين ومن الأمور الواقعة ما تعلم به حقيقة هذه المسألة، فهاك ذلك على وجه الاختصار:

الدليل الأول:

إخباره تعالى عن ذي القرنين حين بلغ مغارب الأرض ومشارقها، ثم كرَّ راجعًا من المشرق إلى الشمال[1]، فلما بلغ بين السدين وجد من دونهما، أي من دون السدين الموجودين منذ خلق الله الأرض، وهما سلاسل الجبال المتواصلة يمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار، كما قال ذلك غير واحدٍ من المؤرخين، ومنهم ابن كثير في التاريخ[2]. وهو نص القرآن؛ فالسدان كانا موجودين قبل مجيء ذي القرنين لأولئك القوم. ولكن بينهما فجوة، أي ريع[3]، يتصل منه يأجوج ومأجوج إلى ما جاورهم من الناس، فيفسدون قتلاً

(١) ليس في خبر القرآن عن ذي القرنين التصريح بجهة «الشمال». ولعل المؤلف استفاد ذلك من كلام بعض المؤرخين والمفسرين، كقول ابن كثير في تاريخه (ومَحَلّته - أي السد - في شرقي الأرض، في جهة الشمال، في زاوية الأرض الشرقية الشمالية) البداية والنهاية ٢/ ٥٥٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ٢/ ٥٤٩.

(٣) الرِّيع والرَّيع: الطريق المنفرج عن الجبل. لسان العرب(ر ي ع).

وسلبًا ونهبًا وتخريبًا. فلما وصل إليهم ذو القرنين شكوا إليه ما يلقون من يأجوج ومأجوج، فقالوا: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]. يريدون فقط ذلك الريع والفجوة التي بين الجبال. فقال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أي من الملك والقوة وكمال العدد والعدة، وحسن النظام وسعة الرزق خيرٌ لي مما تبذلون لي من الجعل. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي ساعدوني بأبدانكم وقوتكم على بنيانه ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]. ولم يقل: سدًّا؛ لأن السدين، وهما سلاسل الجبال؛ موجودان. وإنما يريد ردم ما بينهما وسده فقط. ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي قطع الحديد. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي حاذى ذلك الحديد الذي جمعوه، ووضعوه في ذلك الريع، رءوس الجبال ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]. أي نحاسًا مذابًا، ليلتحم بالحديد، فاستحكم ذلك البنيان، ووازن الجبال، وحجز به بين يأجوج ومأجوج ومجاوريهم، وحمد الله الذي أجرى هذه النعمة على يده، وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

فهذه الآيات الكريمات صريحة أن يأجوج ومأجوج من الآدميين، كما ثبت بذلك الحديث الذي في **الصحيحين**، وسنذكره إن شاء الله، وتدل هذه الآيات على أنهم من جنس هؤلاء القوم الذين اشتكوا منهم الأذية، إلا أنهم تميزوا بالإفساد في الأرض، وأن ذا القرنين رحم هؤلاء الذين اشتكوا منهم الأذية، فبنى ذلك الردم الذي ينفذون منه إليهم، وكان ما عن يمين هذا الريع ويساره جبال شاهقة، تتصل ببحارٍ مغرقة، كما هو ظاهر الآيات، وكما صرح بذلك ابن كثير في **البداية والنهاية**[1] وغيره.

وهذا الردم الذي بناه ذو القرنين يسير جدًّا بالنسبة إلى السدود الطبيعية التي عن يمينه وشماله، فلما بناه، صاروا لا يستطيعون أن يظهروا على ذلك البنيان، ولا أن ينقبوه، وكذلك

(١) انظر: البداية والنهاية: ٢/ ٥٤٩، وعبارة ابن كثير رحمه الله: (وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة، وجبال شاهقة).

لا يستطيعون الصعود على سلاسل تلك الجبال الشاهقة، ولا النفوذ من وراء البحار.

فمكثوا على ذلك مددًا طويلة، وهم منحازون في ديارهم وأماكنهم، لا سبيل لهم إلى النفوذ من تلك الحواجز والحوائل؛ لعدم الأسباب التي تمكنهم من ذلك.

ثم بعد ذلك بمدد ترقت الصناعات، وقويت المخترعات، وتنوعت الأسباب التي مكنتهم من النفوذ من تلك الحواجز والحوائل. وكان مبادي ذلك في وقت النبي ﷺ، من حين قال في الحديث الثابت في **الصحيحين**[1]: «**ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**». وحلَّق الإبهام والسبابة. وسيأتي إن شاء الله هذا الحديث.

والنبي ﷺ يكثر من ضرب الأمثال التي فيها تقريب المعاني إلى الأذهان، فهم من ذلك الوقت متهيئون[2] للخروج، وحاصلٌ لهم، ومنهم بعض الأسباب التي تمكنهم، وذلك والله أعلم، حين سمعوا بالنبي ﷺ وأمته ودعوته، وأنهم شارعون في فتح البلدان. فعزموا على مقاومتهم، وعملوا الأسباب لذلك. فلم تزل إرادتهم تقوى، وقوتهم تزداد، وشرهم يطغى، حتى انفتحوا من كل مكان. فبرزوا من فوق رءوس الجبال، ونفذوا فوق متون البحار، وصعدوا في جو السماء، فكان هذا مصداقًا لخبر الله ورسوله.

وقد يتوهم بعض الناس أنه لا بد عند خروجهم أن يشاهد الناس الردم منهدمًا، فإذا لم يشاهدوه، فهم إلى الآن خلفه، وهذا غلطٌ واضح من وجوه:

منها: أن النبي ﷺ أخبر أن ابتداء انفتاحه قد ابتدأ في زمانه. وفحوى ذلك الحديث يدل على أنه في ازدياد من وقتٍ إلى آخر، حتى وصلوا إلى هذه الحالة المشاهدة.

---

(١) البخاري (٣٣٤٧، ٧١٣٦)، مسلم (٢٨٨٠).

(٢) هكذا في الأصل، وقد عدلت عن كلمة أخرى، وأثبتت في الهامش. ولا أدري هل التعديل من الشيخ أو من غيره. والذي في النسخة المتوسطة: «متحركون».

وعلى المؤمن أن يصدق الرسول في كل ما يخبر به، ولا يقع في قلبه أدنى ريب من صدقه. فخبر الرسول أصدق من خبر كل أحدٍ من الخلق. وقد أخبر بذلك.

ومنها: أنه لا يلزم من انفتاح الردم المعين في السد أن يراه كل أحد حال انفتاحه، فقد يراه من يجاوره، ويخفى على غيرهم، وقد يصل النقل إلى الناس، وقد لا يصل.

ومنها: أن المقصود من خروجهم قد حصل. فليس في رؤية نفس الردم الذي بناه ذو القرنين كبير آية. بل الآية المقصودة خروجهم، فإذا رآهم الناس قد خرجوا على الناس من كل حدبٍ وصوب، ومكانٍ مرتفع ومنخفض، عرفوا أن السد قد اندك.

ومنها: أن الله أخبر أنه لما بنى ذو القرنين الردم، أنهم لم يستطيعوا أن يظهروه، أي: يعلوا عليه، ولا على السدود الطبيعية، وما استطاعوا له نقبًا، ومعلوم أن عدم قدرتهم على واحدٍ من الأمرين في ذلك الوقت لعدم الأسباب التي توصلهم إلى ظهوره أو نقبه. وأما الآن فلا يعجزون عن صعود أي جبل يكون، وأي سدٍّ يحصل، ولا على نقبه، بل يقدرون على ما فوق ذلك.

فعلم بذلك أنهم استطاعوا في هذه الأوقات على النفوذ والظهور الذي كانوا سابقًا عاجزين عنه. وهذا ظاهر.

ومنها: أن السد عبارة عن سلاسل الجبال التي عن يمين تلك الثنية، وذلك الربع ويساره. والردم منه عبارة عن تلك الثنية التي سدها ذو القرنين. فالآن قد شاهد الناس خروجهم من وراء هذه الجبال والبحار. ألا ترى سلاسل جبال آسيا وأوروبا وغيرها قد خرجوا من ورائها، والبحر الأسود والأبيض، والبحار المحيطات من كل جانب قد عبروها، ونفذوا من ورائها، بعدما كانوا منحازين في ديارهم، غير متمكنين من الخروج؟

فعلم من ذلك أن يأجوج ومأجوج هم هؤلاء الأمم؛ الروس والصين، وأمريكا، والإفرنج، ومن تبعهم، يوضح هذا:

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٩٦]. أي حتى إذا انفتحوا على الناس، فبرزوا بعدما كانوا منحازين في ديارهم بهذا الوصف الذي ذكر الله عنهم: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ أي مكانٍ مرتفع، كالجبال وما فوقها. ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يسرعون. وهذا مطابق لما هم عليه؛ فإنهم في جميع أقطار الدنيا قد انفتحوا على الناس، وأتوهم من كل جانب. ولهذا أتى بأداة التعميم، وهي قوله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ فلم يبق جبل إلا صعدوه، ولا بحر عميق إلا عبروه، ولا صعب إلا سلكوه، وأبلغ من ذلك أنهم في جو الهواء ينسلون؛ أي يسرعون بالطائرات التي جابت مشارق الأرض ومغاربها، وجميع جهاتها. فإذا لم يصدق عليهم هذا الوصف، فمن تراه يصدق عليه؟! وإذا لم ينطبق عليهم هذا النعت فأخبرني بمن ينطبق عليه؟!

وفي هذه الآية الكريمة برهانٌ ودليل باهر على الإخبار بحدوث هذه المخترعات التي وصلوا بها إلى هذه الحال؛ لأن إخبار الله ورسوله بشيء إخبار به، وبما لا يتم ذلك إلا به، وذلك أنه لا يحصل تمكنهم من الإسراع والنسلان من كل حدبٍ إلا بالصنائع الراقية، والمخترعات المدهشة.

الدليل الثالث:

ما ثبت في **الصحيحين** عنه ﷺ أنه قال: «**يقول الله لآدم: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج من ذريتك بعث النار. فيقول: يا رب وما بعث النار؟! قال: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة**». فضج الناس حين حدثهم النبي ﷺ بهذا الحديث. قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الرجل؟ فقال:«**أبشروا، فإنكم في أمتين،**

(١) لا يلزم أن يكونوا كل هؤلاء المذكورين، بل بعضهم. انظر مقدمة التحقيق.

ما كانتا في شيء إلا كثرتاه؛ يأجوج ومأجوج»[1]. وفي لفظٍ: **«وما أنتم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض»** الحديث[2].

فهذا الحديث صريحٌ في أنهم من ذرية آدم. وسيأتي كلام أهل السير والتاريخ أنهم من ذرية يافث بن نوح، وأن الترك طائفة منهم، وأنهم سموا تركًا لأنهم تركوا خلف ردم ذي القرنين، كما ستأتي الإشارة إليه[3].

وهذا الحديث مطابقٌ لأحوال هذه الأمم الموجودين؛ الروس، والصين، واليابان، والفرنج، ومَن وراءهم من أهل أمريكا، فإنه وصفهم بالكثرة العظيمة، وأن العرب ومن جاورهم بالنسبة إليهم كالشعرة الواحدة بالنسبة إلى شعر جلد الثور. ووصفهم بكثرة الكفر، وأنهم جمهور بعث النار، وذلك لكفرهم، وعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، وقلة إيمانهم بسائر الأنبياء الإيمان الصحيح. فإنهم في أزمانٍ متطاولة لا يكاد يوجد فيهم إسلام. ثم بعد ذلك وجد فيهم إسلام قليل جدًّا بالنسبة إلى كثرتهم. فإذا لم يكونوا هذه الأمم، فمن يكونون؟

وإذا أردت النسبة بين العرب ومن جاورهم من الأمم الإسلامية، وبين تلك الأمم، رأيت الأمر كما ذكر النبي ﷺ، والذي يعارض ويظن أنهم غير هؤلاء يدعي ويعتقد أنهم أممٌ أكثر من المذكورين بأضعافٍ مضاعفة، وأنهم إلى الآن خلف السد لم يُطَّلع عليهم!

فَيَاللهِ! أين هؤلاء، وأين محلهم؟ وأين ديارهم الواسعة من الأرض، وقد اكتشفت جميع قارات الأرض، وما يتبعها من الجزائر؟ وسيأتي إن شاء الله بيان فساد هذا الغلط والظن[4].

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٣٥٥).

(٢) البخاري: (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣)، مسلم (٢٢٢).

(٣) انظر: الدليل العاشر من هذه الرسالة ص٢٨٨.

(٤) انظر: الدليل السابع، والدليل الثامن من هذه الرسالة ص٢٨٥، ٢٨٦.

واعلم أن الآيات الكريمة، والأحاديث الصحيحة، وكلام العلماء العارفين ظاهرة ظهورًا لا ريب فيه أن يأجوج ومأجوج من الآدميين، وأنهم ليسوا عالمًا غيبيًّا، كالجن والملائكة، لا يشاهدهم الناس، بل هم ظاهرون محسوسون مشاهدون. فلا يمكن لأحدٍ أن يقول: قد يكونون موجودين، وقد حجب الله عنهم الأبصار. فلو قال أحدٌ هذا القول، عُرف أنه خلاف الأدلة الصحيحة، وخلاف الواقع. وهو قولٌ بلا علم. بل قول منافٍ لما علم من الآيات والأحاديث أنهم آدميون يشاهدون، ويفسدون في الأرض، ويجوبون مشارق الأرض ومغاربها، وغير ذلك من صفاتهم.

الدليل الرابع:

ما ثبت أيضًا في **الصحيحين** عنه ﷺ أنه قال ذات يوم: «**ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب؛ فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلَّق بين الإبهام والتي تليها(1).

فهذا دليلٌ صريح صحيح أنه من ذلك اليوم الذي تكلم به النبي ﷺ قد وجد بعض الأسباب الداعية لخروجهم، وأنه لا يزال السبب يقوى وقتًا بعد وقت، وسواء كان المعنى أنه مثل ضربه النبي ﷺ يقصد به تقريب الحقيقة إلى الأذهان، وأنهم قد ابتدءوا في السعي إلى الخروج والاندفاع في الأرض، أو أن ردم يأجوج ومأجوج انفتح منه ذلك الوقت هذا المقدار، وأنه لا يزال في زيادة حتى زال واندك(2).

---

(1) تقدم تخريجه ص٢٧٣.

(2) وقد جمع ابن كثير، رحمه الله، بين الحديث السابق، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٧]. بقوله: (أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن، وأن هذا استعارة محضة، وضرب مثل، فلا إشكال. وأما على قول من جعل ذلك إخبارًا عن أمر محسوس، كما هو الظاهر المتبادر، فلا إشكال أيضًا، لأن قوله: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ أي في ذلك الزمان، لأن هذه صيغة خبر ماض، فلا ينفي وقوعه فيما يُستقبَل، بإذن الله لهم في ذلك قدرًا، وتسليطهم عليه بالتدريج قليلًا قليلًا، حتى يتم الأجل، =

وإذا قال قائل؛ لِمَ لَمْ يشاهد الناس اندكاكه؟ فقد مضى الجواب عن هذا الإشكال[1].

ويقال أيضًا: إذا كان من زمان النبي ﷺ، وقد انفتح منه هذا المقدار، ولولا كلام النبي ﷺ لم يدر المسلمون عن انفتاحه، مع قوله: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»، ثم إخباره بمقدار ما انفتح منه فيه دليل ظاهر أنه انفتح بعضه، وأنه عن قريب ينفتح جميعه، ويخرجون على الناس. وأيضًا ففي الحديث هذا وصفٌ ظهر ظهورًا جليًّا، لا يشك فيه من عرف الواقع. فإن النبي ﷺ توعد العرب بالشر القريب الذي يقع بهم من يأجوج ومأجوج، فمن عرف حالة العرب والإسلام، وكيف توسع الفتح الإسلامي في المشارق والمغارب، وكيف حصل للعرب من العز بالإسلام وانتشاره ما لا يعرف لغيرهم، ثم كيف تداعت عليهم الأمم كما تداعت الأكلة على الصحفة، كما أخبر به الصادق المصدوق[2]، ثم كيف تقلص الإسلام، وزال عز العرب عن تلك الممالك الإسلامية، وكيف وقعت بهم تلك الدواهي العظام، والشرور الجسام شيئًا فشيئًا حتى وقعت داهية التتر[3] العظيمة، الذين هم من عنصر يأجوج

= وينقضي الأمد المقدور، فيخرجون، كما قال الله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]) البداية والنهاية ٢/ ٥٥٨.

(١) راجع ما جاء في الدليل الأول من هذه الرسالة، ؟؟؟؟.

(٢) يشير إلى حديث ثوبان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها**». الحديث.. أخرجه أحمد (٢٢٤٩٨) وأبو داود (٤٢٩٧).

(٣) وهي من أعظم الفتن التي حاقت بالمسلمين، حتى أن ابن الأثير (٥٥٥-٦٢٠) رحمه الله، قال في تاريخه: (لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها. فأنا أقدم إليه رجلًا، وأؤخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيًا منسيًا... فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن لم يُبتَلوا بمثلها، لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها... ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج)، الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٣٣ حوادث سنة ٦١٧هـ.

هذا وهو، رحمه الله، لم يعش حتى يشهد بقية فتنتهم، وسقوط بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية، =

ومأجوج، ومن نفس ديارهم، كما ذكره أهل السير، ومنهم ابن كثير رحمه الله[1].

ولم تزل الشرور تتوالى على المسلمين عمومًا، وعلى العرب خصوصًا من هذه الأمم حتى وصلت إلى هذه الحالة الموجودة اليوم، التي يرثى لها. ونرجو الله أن يلطف ببقية المسلمين والعرب، وأن يدفع عنهم من الشرور ما لا يدفعه غيره. فهذه الشرور التي أشرنا لها، وهي معروفة هي وأضعافها وأضعاف أضعافها، من أين أصابت المسلمين عامة، والعرب منهم خاصة، إلا ممن أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى بوقوعها منهم، وهم يأجوج ومأجوج. ولهذا كان بعض العلماء المتأخرين العارفين بأحوال الأمم؛ كالأمير شكيب أرسلان وغيره يرون أن يأجوج ومأجوج هم دول السوفييت أو بعضهم، ولا ريب أنهم منهم، بل هم مبتدأهم، وابن كثير في **تاريخه** جزم بأنهم «منغوليا» الذين تفرعت عنهم التتر، والصين، واليابان، والروس، وغيرهم من الأوروبيين، كما ذكر ذلك المعتنون بالأنساب، ومن وراءهم من الأمم؛ كأمريكا، حكمهم حكمهم.

= وما جرى من الحوادث العظام، كما بسط ذلك ابن كثير، رحمه الله، في البداية والنهاية: ١٧/ ٣٥٦-٣٦٤، حوادث سنة ٦٥٦هـ.

وقد ابتدأت هذه الفتنة عام ٦١٧هـ من أطراف الصين، وانتهت، أو كادت، عام ٦٥٨هـ في عين جالوت، في الشام.

(١) قال ابن كثير، رحمه الله، في تاريخه: (فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك، وهم مغل المغول. وهم أشد بأسًا، وأكثر فسادًا من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل: إن الترك، إنما سموا بذلك، حين بنى ذو القرنين السد، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم، فتركوا من ورائه. فلهذا قيل لهم. الترك) البداية والنهاية ٢/ ٥٥٣.

وقال في التفسير: (إنما سمّوا هؤلاء تركًا، لأنهم تركوا من وراء السد، من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك). يريد يأجوج ومأجوج. تفسير القرآن العظيم ٥/ ١٩٥.

وقال في كتاب الفتن والملاحم، الملحق بالتاريخ: (وهم كالناس، يشبهونهم، كأبناء جنسهم من الترك الغُتْم، المغول، المخرزمة عيونهم، الذلف أنوفهم، الصهب شعورهم، على أشكالهم وألوانهم) البداية والنهاية: ١٩/ ٢٣٩.

فهذه الأوصاف المتنوعة التي وصفوا بها بالكتاب والسنة، لا يشك من فهمها تمامًا وفهم الواقع أنها تنطبق على هؤلاء الأمم، وأما ما يوجد من الآثار الدالة على طولهم المفرط، وقصرهم المفرط، وصفاتهم المخالفة لصفات الآدميين، فكلها كذب[1]، مخالفة للنصوص الصحيحة وللواقع، لا يحل اعتقادها والاعتماد عليها، فضلًا عن تقديمها على دلالة النصوص الصحيحة؛ فهي وإن ذكرها بعض الناس، فقد أولع كثير من المصنفين بذكر أحاديث وآثار لا زمام لها ولا خطام، ومجرد ما يراها البصير يعرف مخالفتها لما دلت عليه النصوص الصحيحة.

فإن قلت: فقد ورد في **صحيح مسلم**، في حديث النواس بن سمعان الطويل أن يأجوج ومأجوج حين يقتل عيسى ابن مريم الدجال، فيقول الله له: قد أخرجت عبادًا لي، لا يدان لأحدٍ بقتالهم[2]، فحرز[3] عبادي في الطور، وأنهم يخرجون فيشرب أوائلهم بحيرة طبرية، ويمر عليها آخرهم، فيقول قد كان ههنا ماء، وأنهم يرمون بنُشَّابهم[4] إلى السماء فتعود عليهم مخضوبة دمًا، فيقولون: قد قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء[5].

فالجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أن هذا الحديث على فرض مخالفته ومناقضته لما دلت عليه تلك النصوص، فإنه

(١) قال ابن كثير رحمه الله: (ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم، فاختلط بتراب، فخلقوا من ذلك، وأنهم ليسوا من حواء... وهكذا من زعم أنهم على أشكالٍ مختلفة، وأطوال متباينة جدًا، فمنهم من هو كالنخلة السحوق، ومنهم من هو غاية في القصر، ومنهم من يفترش أذنًا من أذنيه، ويتغطى بالأخرى، فكل هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان. والصحيح أنهم من بني آدم، وعلى أشكالهم وصفاتهم). البداية والنهاية ٢/ ٥٥٣، ٥٥٤.

(٢) أي لا قدرة ولا طاقة. كأن يديه معدومتان لعجزه عن دفعه.

(٣) أي ضمهم، واجعله لهم حرزًا. والحرز: الموضع الحصين.

(٤) سهامهم.

(٥) قطعة من حديث طويل، أخرجه الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠).

لا يقاومها، ولا يقدم ما يظهر من دلالته على دلالتها. هذا على وجه التنزل، وإلا فليس ولله الحمد بينها مخالفة.

الوجه الثاني: أن دلالة تلك النصوص على صفاتهم المذكورة المشاهدة عيانًا، دلالة يقينية، لا يمكن أن يرد ما يخالفها ويناقضها.

الثالث: أن إخباره بخروجهم بعد قتل عيسى للدجال، وقتل المسلمين لليهود لا يدل على أنهم لم يخرجوا قبل ذلك. بل هذا خروج من محل إلى محل، فإن يأجوج ومأجوج يأتون حنقين، متغيظين، على عيسى ومن معه من المؤمنين، يريدون الإيقاع بهم، فيكبتهم الله ويقمعهم، ويلقي عليهم الموت الذريع. ومما يدل على أن البعث والإخراج لا يراد به ابتداء الخروج والبعث، بل يراد به البعث والخروج من محل إلى محل آخر، آيات متعددة، مثل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ [الحشر: ٢]. فهذا خروج من محل إلى محل. وكذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]. ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧]. **الآيات**. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على أن المراد: الخروج، والإخراج من محل إلى آخر، ليس المراد به الإخراج الابتدائي.

ومثل ذلك البعث، كقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]. وهذا بعث لهم من البلاد الجزرية إلى البلاد الشامية[1]، نظير ما في بعض ألفاظ حديث النواس: «**بعثت عبادا لي، لا يدان لأحد بقتالهم**»[2]. من غير فرق. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]. ليس المراد ببعثه إنشاء خلقه، وإنما المراد به: فأرسل الله غرابًا يبحث في الأرض. ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. ومعناه: عيِّن لنا ملكًا، وهذا ظاهر بيِّن ولله الحمد.

---

(١) أي من الجزيرة، ما بين النهرين، من أرض العراق، وهو بعث بختنصر أو سنحاريب إلى بني إسرائيل في الشام وبيت المقدس.

(٢) مسلم (٢٩٣٧).

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ كثيرًا ما يمثل للناس بما كانوا يعرفون، خصوصًا في الأمور التي لم يشاهد المسلمون لها مثيلًا، ولا نظيرًا في ذلك الوقت. فإخباره ﷺ برميهم بنشابهم إلى السماء إلى آخره يدل على قوتهم وقهرهم لأهل الأرض بسلاحهم ومخترعاتهم. وكأنَّ في هذا إشارة إلى طيرانهم في الأفق[1]، وإلا فمن المعلوم أن سلاح النشّاب ونحوه من السلاح الأول الضعيف قد نسخ من زمان، وأن الأسلحة لا تزال في رقي وازدياد، ولا يرجى في وقتٍ من الأوقات أن يعود الناس إلى سلاح النشاب[2] ونحوه، بل الذي يدل عليه الاستقراء والتتبع للأحوال أن السلاح يترقى ترقيًا فاحشًا، ينسي هذا السلاح الموجود، حتى يكون مادة هلاك الخلق وتدميرهم، ويقع ما أخبر به النبي ﷺ من فناء الرجال بالقتل، حتى يكون قيِّم خمسين امرأة رجل واحد[3].

والرسول ﷺ لا يخبر بما تحيله العقول، بل كلامه فيه الشفاء، والعصمة، والنور، والبرهان، والحق، واليقين. وأما ما فيه من ذكر ماء البحيرة، وأنهم يشربونه، فإما أن ذلك إشارة وتنبيه على كثرتهم العظيمة التي هم في الحقيقة عليها، وإما أن ماء البحيرة سيستخرجونه بالآلات إلى عمارة حروثهم، وزروعهم، حتى ينشفوها. وهذا شرب حقيقي. ويدل على هذا أن ماء البحيرة، لو اجتمع جميع من على وجه الأرض من الآدميين والحيوانات، فشربوا منها بأفواههم لم ينشفوها. والنبي ﷺ ينزه أن يتكلم بخلاف الواقع. فتعين أحد التأويلين[4]، إن

---

(١) في هذا تأويل ظاهر، ورسول الله ﷺ أعلم بما قال، كيف وقد حقق ذلك بقوله: **«فتعود عليهم مخضوبة دمًا»**. وقد كان يسع النبي ﷺ أن يعبر بما يحتمل المعنى الذي ذكر الشيخ، كأن يقول: «بسلاحهم»، فضلًا عن أن يحقق ذلك بوصف يتعلق بالنشاب، فالمتعين حمل النص على ظاهره.

(٢) لا يمتنع أن يفضي الأمر إلى تدمير الأسلحة الحديثة الفتاكة، وأن يعود الناس في آخر الزمان إلى استعمال الأسلحة البدائية، ولهذا النص نظائر كثيرة في أحاديث الملاحم، آخر الزمان.

(٣) البخاري (٨١).

(٤) بل المتعين ما أخبر به المعصوم ﷺ، دون حاجة إلى تأويل، حيث قال: **«فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء»**. رواه مسلم رقم (٢٩٣٧).=

كان حديث النواس بن سمعان محفوظًا[1]، جمعًا بين النصوص، ويدل على التأويل الأخير أن الصهيونيين الذين أكثرهم من عنصر الفرنج، الذين أتوا من البلاد الخارجية، لا زالوا يستخرجون ماء البحيرة بالمكائن وغيرها، ولا زالوا مُجِدِّين على هذا الأمر[2]. ولا بد أن يقع جميع ما أخبر الله به ورسوله.

الدليل الخامس:

ما تواترت به الأخبار من أصناف العلماء؛ من المفسرين، والمؤرخين، وأهل السير والأنساب، من المتقدمين، والمتأخرين، واتفاق محققيهم أن يأجوج ومأجوج في شمالي آسيا، وأنهم جيران الأتراك، وأن الأتراك قيل لهم: ترك، لأن ذا القرنين لما ردم على يأجوج ومأجوج، وترك منهم هذه الطائفة، فقيل لهم: الترك، لأنهم تركوا خلف السد. فالترك منهم، والباقون جيرانهم المتصلون بهم في بلاد تركستان. وقد ذكر ذلك غير واحدٍ من المؤرخين والمفسرين، حتى كاد أن يكون اتفاقًا منهم على هذا.

ومن وراءهم من الأمم تبع لهم، وفرع عنهم. وأيضًا، فإنهم ذكروا أن أولاد نوح الذين انسلوا، ثلاثة: سام، وهو أبو العرب ومن جاورهم، وحام، وهو أبو السودان والبربر، وجميع

= فكونه إشارة وتنبيه على كثرتهم العظيمة لا يمنع من إرادة الظاهر، وأما التأويل الثاني فبعيد جدًّا، وليس في الإخبار به مزية. فإنه لم يزل الناس يستخرجون المياه من البحيرات والغدران بالوسائل القديمة والحديثة. وربما تنضب أحيانًا.

ومع ما ذهب إليه الشيخ، رحمه الله، في التأويل الثاني، فإن بحيرة طبرية لم تنشف حتى الآن. وسياق الحديث النبوي يدل على أن الطائفة الأولى من يأجوج ومأجوج شربت ماء البحرية شربًا حقيقيًا، لا أنها حرثت، وزرعت، وسقت.

(١) هو بحمد الله محفوظ، لا مخالف له، رواه الإمام مسلم في صحيحه، برقم (٢٩٣٧).

(٢) الصهيونيون، وإن كان كثير منهم قدم من بلاد الإفرنج، إلا إنهم يهود من نسل سام بن نوح، وليسوا من يأجوج ومأجوج نسل يافث، الذين جاء الخبر بشربهم بحيرة طبرية. فما يقع من استخراج مائها بالآلات والمكائن من الصهيونيين وغيرهم ليس هو تحقيق خبر النبي ﷺ في يأجوج ومأجوج.

أهل إفريقية، ويافث، وهو أبو الصقالبة، والترك، ويأجوج ومأجوج، والتتر، ومن تفرع عنهم من أهل الصين، واليابان، وبلاد الإفرنج، ونحوها. وكلام المفسرين، وأهل الأنساب في هذا الموضع، وفي هذا المعنى كثير جدًّا، لا يمكن نقله في هذه الرسالة المختصرة[1].

والمنصف إذا عرف الواقع، وأين ديار الترك، ومَنْ جيرانهم، عرف أن كلام هؤلاء العلماء صريحٌ أنهم هؤلاء الأمم الذين ذكرنا، وليكن على بالك أن يأجوج ومأجوج ليسوا عالمًا غيبيًّا، وإنما هم آدميون، بارزون، محسوسون، كما دلت على ذلك أنواع الأدلة.

الدليل السادس:

أن الشارع لا يخبر بأمرٍ تحيله العقول، ويكذبه الحس والواقع.

بل أخباره كلها لا يعارضها حس ولا عقل صحيح، ولا غيرها من الأمور العلمية، ومن زعم أن يأجوج ومأجوج غير هؤلاء الأمم الذين ذكرنا، فإن قوله يتضمن المحال، لأن هذا القائل يدعي، ويعتقد أنهم أمم عظيمة من بني آدم، وأنهم أكثر من هؤلاء الأمم الذين يعرفون الآن على وجه الأرض كلها بأضعافٍ مضاعفة، وهذا قول محال ينزه الشارع من أن ينسب إليه هذا القول، لأنه يطرِّق[2] الكافرين والمعاندين إلى القدح في الشارع، ويقولون: كيف يخبر عن أممٍ على وجه الأرض، أكثر من الموجودين في القارات الست وتوابعها؟! فأين هم؟! وأين ديارهم؟! والأرض كلها مكشوفة، وقد اكتشفها الناس قطرًا قطرًا. ولم يبق محلٌّ

(١) انظر على سبيل المثال: تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري. ١/ ١٢٤-١٣٢. وقد روى في ذلك أحاديث مرفوعة، وآثارًا عن السلف، ومسلمة أهل الكتاب، ومنه قوله عن وهب بن منبه: (.. وإن يافث أبو الترك، وأبو يأجوج ومأجوج، وهم بنو عم الترك) وقال أيضًا: (ومن ولد موعج: يأجوج ومأجوج وهم في شرقي أرض الترك والخزر).

وانظر كلام المفسرين على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

(٢) تطرّق إلى الأمر: ابتغى إليه طريقًا. لسان العرب (ط ر ق).

من الأرض إلا وصل إليه علم الناس، إلا جهة قليلة جدًّا تحت مدار القطبين[1]، وقد غمرتها الثلوج، لا يمكن أن يعيش فيها آدمي، ولا حيوان، ولا نبات، لشدة بردها، وعدم وصول الشمس إليها، وهي رقعة صغيرة جدًّا بالنسبة إلى الأرض المكتشفة، فمجرد تصور العارف لهذا القول يكفي في رده. يوضح هذا توضيحًا تامًّا:

الدليل السابع:

أن قارات الدنيا كلها، القديمة والحديثة، ست قارات:

الأولى: آسيا: من البحر الأحمر والأبيض غربًا، إلى أقصى بلاد سيبيريا من بلاد الروس شمالًا، وإلى البحر الهادي شرقًا، إلى البحر الأسود وأكرانيا مما يلي أوروبا غربًا.

الثانية: إفريقيا: وشرقيها البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي غربًا.

ومن البحر الأبيض شمالًا إلى المحيط الأطلسي المتصل بالمحيط الهندي جنوبًا.

الثالثة: قارة أوروبا: التي يحدها البحر الأبيض جنوبًا، إلى البحر الشمالي، ثم الأطلسي شمالًا وغربًا. ومن بلاد الأندلس غربًا إلى بلاد أوكرانيا السوفيتية شرقًا.

الرابعة: أستراليا: وهي قارة واقعة في الشرق الجنوبي، في وسط المحيط الهادي.

الخامسة: أمريكا الجنوبية: وهي الواقعة من خليج بنما، من المحيط الأطلسي شمالًا، وتنتهي إلى البحر الهادي جنوبًا.

السادسة: أمريكا الشمالية: تتصل من غرب بالبحر الأطلسي، والبحر الشمالي. ومن شرق تتصل بالمحيط الهادي.

فهذه قارات الأرض كلها، باتفاق العارفين بها. ويتبعها جزر صغيرة وكبيرة ملحقة بهذه

---

(١) ربما كان ذلك في زمن المؤلف، رحمه الله، أما الآن فلم يبق موضع إلا وصلته الكشوف، وتم تصويره عن طريق الأقمار الصناعية.

القارات. وهذه القارات قد عرفها الناس كلها معرفة تامة، وعرفوا أجناس أهلها وأصنافهم، وتغلغل علمهم إلى معرفة إحصائياتهم، وتيقنوا يقينًا لا شك فيه أن المذكورين في هؤلاء القارات الست هم أهل الأرض، وأنه لا يوجد على وجه الأرض سواهم. فمتى أخبرنا مخبر أن في الأرض غير هؤلاء المذكورين من بني آدم، أكثر من المذكورين من بني آدم بأضعاف مضاعفة، علمنا غلطه الفاحش، وأنه خلاف الواقع المقطوع به. يوضح هذا ويزيده بيانًا.

الدليل الثامن:

وهو أنه قد ثبتت كروية الأرض ثبوتًا لا امتراء فيه، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير، وغيرهم هذا، وذكر شيخ الإسلام أن دلالة الكتاب والسنة على هذا القول ظاهرة. كما أنه قد اتفق عليه أهل المعرفة، وقد كان في الزمان الماضي يوجد من يعارض في كروية الأرض من أهل العلم قبل اكتشافها، ويظن أن كرويتها تنافي سطحيتها، وهذا غلط؛ فإن الجسم العظيم المسطح قد يكون مكورًا مستديرًا. قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]. أي: مدت ومهدت ووسعت لجميع منافع الآدميين. وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. والتكوير هو الاستدارة، كاستدارة العمامة على الرأس. وقال تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

ثم إن الواقع المعروف معرفةً لا شك فيها يوافق هذا. وبعد ظهور المخترعات، والمقربات، وقرب المواصلات، صارت كروية الأرض معروفة لكل أحد له معرفة بالأرض. وقد يتمكن الإنسان في كل وقتٍ أن يعرف أوقات جهات الأرض، ويعرف أن ليل بعض الجهات نهار لجهات أخرى، وبالعكس، وأن الشمس لا تزال تجري في فلكها، إذا طلعت على جانبٍ من الأرض، غربت عن الجانب الآخر. فمثلًا: إذا زالت الشمس في جزيرة العرب، تكون قد غربت عن أقاصي الصين، وبلاد اليابان. وإذا غربت الشمس في جزيرة العرب، تكون قد ابتدأ شروقها في بلاد أمريكا. ثم إذا زالت الشمس في أمريكا، طلعت على بلاد اليابان والصين. وهلم جرًّا.

وكذلك من عبر مغربًا من البحر الغربي الشمالي[1] ينفذ على أمريكا، ثم منها إلى المحيط الهادي، ثم من المحيط الهادي على اليابان ثم الصين، ثم يرجع إلى موضعه، وهكذا في كل مكان.

ومعلومٌ أنه إذا كانت الأرض كروية، كانت محصورة تحيط بها معارف الناس، فدعوى المدعي أن هنا أممًا أكثر من المذكورين المعروفين، وهم على وجه الأرض؛ دعوى مخالفة للدليل القاطع، وما كان كذلك فهو معروف الغلط.

واعلم أنه ليس مع من عارض ما ذكرنا شيء من الأدلة، إلا ما ذكرنا في حديث النواس ابن سمعان. وقد ذكرنا وجهه[2]. وكذلك يظنون أن الأسماء تبقى على الدوام. فلما رأوا أن هذه الأمم لها أسماء مخصوصة؛ كالروس، واليابان، ونحوهم، ظنوا أنهم غير يأجوج ومأجوج. وهذا غلط واضح. فكم تنقلت وتغيرت الأسماء؛ أسماء الجهات، والحكومات والعناصر، وكم تغيرت من اسم إلى اسم آخر، وكم اندمجت أمم بأمم. وقد ذكر المعتنون بأنساب الترك الطورانيين، الذين هم من نسل يأجوج ومأجوج، وأن هذه الأمة لا تزال تندفع شرقًا وغربًا. ومعلوم أن الأسماء تتنقل بتغير تنقلاتها، والعبرة إنما هي بالأوصاف التي ذكرت في الكتاب والسنة. وقد بينا فيما سبق انطباق أوصافهم على هذه الأمم، مع أن الاسم اليوم موجود، فإن اسم بلاد يأجوج ومأجوج الأصلية، وهو بلاد منغوليا، وشرقي تركستان، لا زال معروفًا. وتلك القبائل لا يزال يقال لهم: يأجوج ومأجوج، وهم الآن تبع لحكومة الروس.

الدليل التاسع:

وهو الجامع لكل ما تقدم. وهو أن دلالة الكتاب والسنة الصحيحة، والأوصاف المذكورة فيهما ليأجوج ومأجوج لا تصدق إلا على من ذكرنا من الأمم. وكذلك الأمور الواقعة المقطوع

(١) هو المعروف بـ«المحيط الأطلسي» أو «الأطلنطي».

(٢) تقدم في ص٢٨٢.

بها حسًّا، وعلمًا، كما تقدمت الإشارة إليها وتقريرها. إذا جمعت ذلك كله علمت علمًا يقينيًّا لا شك فيه، ولا ريب أنها واقعة على تلك الأمم، وأنهم المرادون بها، وأنها من براهين رسالة محمد ﷺ. وعلمت أيضًا بما تقدم أنه لا يوجد غير المذكورين من بني آدم على وجه الأرض، وأن من قال: إنهم غيرهم، لم يقله عن علمٍ وبرهان، وإنما هو قول بلا علم، بل مخالف للعلم.

الدليل العاشر:

أن لفظ «يأجوج ومأجوج» واشتقاقه من الأجيج[1] والسرعة، ووصف الشارع لهم بذلك يدل على ما ذكرنا. ولهذا كان الأولى أن يكون اسم جنس، وإن كان طائفة من أهل العلم يرون أنهم طائفة مخصوصة من دول السوفييت، وهم المعروفون الآن بهذا الاسم. فكونه اسم جنس يشملهم، ويشمل من وراءهم، أولى لوجهين:

أحدهما: أن الأوصاف المذكورة في الكتاب والسنة تنطبق كل الانطباق على تلك الأمم المذكورة جميعهم، مثل قوله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. والشر الذي وصل إلى المسلمين منهم عامة، وإلى العرب خاصة، ووصف كثرتهم، وكثرة كفرهم، وأنهم أكثر بعث النار، وغيرها مما هو صريح فيهم.

الثاني: أن إخبار النبي ﷺ عن بعث النار، وأنه من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة، وأن جمهور هذا العدد من يأجوج ومأجوج، لا يتصور أن يكون إلا اسم جنس. ولما كان الإشكال في هذه المسألة قد وقع لكثير من الناس، لم يتضح لهم الأمر فيها، مع أن من نظر إلى أدلتها الشرعية والعقلية لم يَرْتَب، أحببت أن أورد من كلام أهل العصر المعتبرين، والذين لهم المعرفة التامة في هذه الأمور ما يدل على ما ذكر:

---

(١) ذكر ابن منظور رحمه الله في معاني الأجيج: (وأَجّ يؤج أَجًّا: أسرع... الأَجُّ، الإسراع والهرولة... يأجوج ومأجوج، وهما اسمان أعجميان، واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من: أَجَّتِ النار، ومن الماء الأجاج، وهو الشديد الملوحة المُحرِق من ملوحته.. وهذا لو كان الاسمان عربيين لكان هذا اشتقاقهما، فأما الأعجمية فلا تشتق من العربية: لسان العرب ١/ ٧٧.

فقد ذكر الأمير شكيب أرسلان رحمه الله، في حواشي **حاضر العالم الإسلامي**[1] أن يأجوج ومأجوج هم «المجار»، وهم «المغول». وذكر غزواتهم لبلاد الإفرنج، واندفاعهم إليها، واندماجهم بهم. وقال أيضًا في كتابه الذي سماه **غزوات العرب** المطبوع في ص١٧٠ منه:

(وفي تلك الأيام وصل المجار إلى فرنسة، وملئوا البلاد عيثًا وتدميرًا. ورأى الأهالي فيهم تصديق نبوة حزقيال عن يأجوج ومأجوج[2] إلى آخر ما قال.

وفي المجلد الأول من **الحلل السندسية** للأمير شكيب ص١٧٨ [3]:

(وذكر الرازي أن القوط، أي ملوك الأندلس، الذين آخرهم لذريق الذي هزمه المسلمون، من ولد يأجوج ومأجوج بن يافث بن نوح)[4].

وفي المجلد الحادي عشر من **المنار**، في آخر جواب سؤال ص٢٨٤:

---

(١) كتاب شهير ألَّفه الأمريكي لوثروب ستودار.

(٢) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، للأمير شكيب أرسلان ص٢٢٠.

(٣) أثبت الشيخ رحمه الله، بقية ما قال شكيب أرسلان في التعليقات الملحقة بالنسخة المتوسطة من هذه الرسالة، وهو كما يلي:

(.. ولما كانت سنة الألف للمسيح، ظن الناس أنها قد أزفت الساعة. وسأل مطران «فردن» *Verdin* أحد القسيسين عن صحة هذه المسألة، وهل المجار هم يأجوج ومأجوج أم لا؟ فطمأن القسيس خاطر المطران قائلًا له: إن من أشراط الساعة أن يأتي يأجوج ومأجوج ومعهم شعوب آخرى. والحال أن المجار جاؤوا وحدهم. فلا تنطبق هذه النبوة عليهم. على أنهم في العيث والتدمير بذوا الأولين والآخرين).

(٤) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، للأمير شكيب أرسلان. ص١٧٨ منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، إلا إن عبارته هكذا:

(وذكر الرازي أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح. وقيل غير ذلك) فتعريف القوط من كلام الشيخ رحمه الله.

(هذا، ومن تذكر إغارة المغول التتار، وهم نسل يأجوج ومأجوج، في القرن السابع الهجري على بلاد المسلمين والنصارى، وما أتوه من الإفساد في الأرض، وما أوقعوه بالأمم المختلفة من القتل والسبي والنهب، أمكنه تصور حصول هذا منهم مرةً أخرى، قبل مجيء الساعة، كما قال القرآن الشريف: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]... إلخ).

وقد ذكر شكيب أرسلان في حواشي مقدمة ابن خلدون وحاضر العالم الإسلامي كيفية تسلسل أنساب التتر، ويأجوج ومأجوج والترك، ودخولهم في جملة أهل أوروبا، بعدما كانت مساكنهم في آسيا، فذهب أناس، وبقي في آسيا أكثرهم.

وقد ذكر صاحب التذكرة فيها، في الجزء الثاني ص٨٦ لما تكلم عن طبائع الأقطار، ذكر بلاد يأجوج ومأجوج وموقعها، وما يناوحها من الأقطار، في كلامٍ طويل يؤيد ما ذكرنا.

وقال في مجلة الفتح (٤٤٠) العام التاسع ٨ محرم، ١٢٥٤ ص٩٦ في الجزء المذكور في مقالة الشيخ محمد سليمان، قال: (جاءت القرون الوسطى، فجاء أهل أوروبا عادين على المسلمين يغزونهم في ديارهم، ويحاربونهم على تخومهم، وفتحت يأجوج ومأجوج. فانسل التتار من الشرق على بلاد الإسلام فاكتسحوها وخربوها وهدموا الخلافة وقتلوا الخليفة. ووقع المسلمون بين شقي الرّحا من الشرق، ومن الغرب في بلاءٍ مبين).

وفي منجم العمران، ص٥٨ من الجزء الأول: (ومن الأمم التي عرفت حركات مهاجرتها قبيلة هيونكنو التركية، فإنها أقدم القبائل التي نعرف تاريخ حملها على أمةٍ أخرى، ربما كانت الأمة الهندية الجرمانية، التي كانت قاطنةً بالقرب من يوتي غاته، في الجهة الشمالية الغربية من الصين، فتلك الحملة التي جعلت شأنها الفتح والتخريب، والسلب والنهب، صدرت من السور العظيم المبني لصدها سنة ٢١٤ قبل الميلاد، وامتدت حتى بلغت أقاصي غرب أوروبا، سائرةً في أواسط آسيا في الجهة الشمالية من سلسلة جبال هملايا) إلى أن قال ص٦٢:

(ولما رأى الأوربيون ما رأوا من فتوحات المنغول التي امتدت من سور الصين إلى «كراكو» في أواسط أوروبا، وإلى سواحل البحر المتوسط من غربي آسيا، في ست وعشرين سنة وقع الرعب في قلوبهم). إلى آخر ما قال.

وقال أيضًا في **المنجم** ص٧٢، من المجلد الأول: (اهتمت الدنيا بأسرها بفتوحات روسيا في أواسط آسيا، وإنكلترا باتت في وجل من جراء ذلك. وكانت نهاية حرب روسيا والجراكسة سنة ١٨٦٤، الموافق ١٢٨١ للهجرة، واسطة لهدم الحاجز العظيم الذي كان يمنعها عن توسيع دائرة أملاكها، وهو جبل «قوه قاف» يعني «القفقاس»، وقد تمكنت بذلك من نوال مقصد مهم) إلخ.

وفي **المقتبس** قال المسعودي في كتاب التنبيه: (وحد الإقليم الخامس بحر الشام إلى أقصى الروم مما يلي البحر، إلى «تراقية» وبلاد «برجان»، و«الاستبان»، واليأجوج ومأجوج، والترك والخزر واللان والجلالقة) فجعلهم في أرض الترك.

وقال ابن رسته: (الإقليم السادس يبتدئ من المشرق، فيمر على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الخزر، وينتهي إلى البحر المغرب) فانظر كيف صرّح بمجاورته لأرض الخزر، وهي معروفة قريب من قزوين.

وقال البلخي في **تاريخه**، صفحة ٥٣٤: (الإقليم السادس: يبتدئ من المشرق، فيمر على بلاد يأجوج ومأجوج، ثم على بلاد الخزر، ثم على وسط بحر جرجان، إلى بلاد الروم.

قال أهل العلم: أما ما وراء هذه الأقاليم إلى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فإنه يبتدئ من المشرق، من بلاد يأجوج ومأجوج، فيمر على بلاد التغرغر، وأرض الترك).

وكل هذا ظاهر. وكلامهم في هذا كثير.

والغرض الأصلي هنا: بيان مراد الله ورسوله، وأن الأوصاف التي ذكرت عنهم في الكتاب والسنة الصحيحة المحفوظة، تنطبق عليهم غاية الانطباق، وأن الواقع يصدق ذلك، ويشهد له، وأن كلام أهل السير والمحققين من الأخباريين، يؤيد ذلك ويشهد له، فعلى من تيقن

ذلك، وعرف دخوله في النصوص أن يعتقده، ويدين الله به. وعلى من أشكل عليه الأمر أن يتوقف عن الجزم بأحد الأمرين نفيًا وإثباتًا، وإذا كان لا بد له من الجزم بأحد الأمرين فليصبر وليتأن، حتى يتدبر الأدلة الشرعية والعقلية، ويعرف الواقع، فإذا جزم بأحد الأمرين مستندًا إلى الدليل فقد أدى ما عليه من اتباع الدليل الصحيح، فإذا جزم بأحد الأمرين مقلدًا لغيره من غير معرفةٍ صحيحة بالمآخذ، فهو من القول بلا علم.

وليس هذا الأصل خاصًا بهذه المسألة، بل جميع المسائل الأصولية تجري على هذا الأصل الذي نرجو الله تعالى أن يتحقق به كل طالب للعلم النافع. ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين صراطه المستقيم، هدايةً علمية حتى نعرف ما أنزل إلينا من الكتاب والحكمة إجمالًا وتفصيلًا، وهدايةً عملية حتى نسلك الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته؛ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، إنه جواد كريم. وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

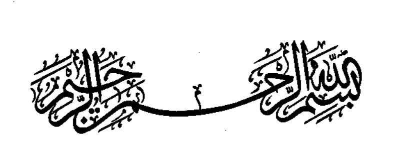
قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله من جميع الوجوه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، غفر الله له ولوالديه ووالديهم، وجميع المسلمين. والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا. سنة ١٣٥٩هـ.



مختصر في أصول العقائد الدينية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين؛ أما بعد: فهذا مختصر جدًّا في أصول العقائد الدينية والأصول الكبيرة المهمة اقتصرنا فيها على مجرد الإشارة والتنبيه من غير بسط للكلام ولا ذكر أدلته، وأقرب ما يكون لها أنها من نوع الفهرست للمسائل لتعرف أصولها ومقامها ومحلها من الدين ثم من له رغبة في العلم يطلب بسطها وبراهينها من أماكنها، وإن يسر الله وفسح في الأجل بسطت هذه المطالب ووضحتها بأدلتها.

الأصل الأول: التوحيد

حد التوحيد الجامع لأنواعه هو: اعتقاد العبد وإيمانه بتفرد الله بصفات الكمال وإفراده بأنواع العبادة.

فدخل في هذا توحيد الربوبية الذي هو اعتقاد انفراد الرب سبحانه بالخلق والرزق وأنواع التدبير. وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وتوحيد الألوهية والعبادة وهو إفراده وحده بأجناس العبادة وأنواعها وإفرادها من غير إشراك به في شيء منها مع اعتقاد كمال ألوهيته.

فدخل في توحيد الربوبية إثبات القضاء والقدر، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه على كل شيء قدير وأنه الغني الحميد وما سواه فقير إليه من كل وجه.

ودخل في توحيد الأسماء والصفات إثبات جميع معاني الأسماء الحسنى لله تعالى الواردة في الكتاب والسُّنة، والإيمان بها ثلاث درجات: إيمان بالأسماء، وإيمان بالصفات، وإيمان بأحكام صفاته؛ كالعلم بأنه عليم ذو علم ويعلم كل شيء، قدير ذو قدرة ويقدر على كل شيء إلى آخر ما له من الأسماء المقدسة.

ودخل في ذلك إثبات علوه على خلقه واستوائه على عرشه، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا على الوجه اللائق بجلاله وعظمته.

ودخل في ذلك إثبات الصفات الذاتية التي لا ينفك عنها كالسمع والبصر والعلم والعلو ونحوها، والصفات الفعلية وهي الصفات المتعلقة بمشيئته وقدرته كالكلام والخلق والرزق والرحمة والاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا كما يشاء، وأن جميعها تثبت لله من غير تمثيل ولا تعطيل وأنها كلها قائمة بذاته وهو موصوف بها.

وأنه تعالى لم يزل ولا يزال يقول ويفعل وأنه فعال لما يريد ويتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، لم يزل بالكلام موصوفًا وبالرحمة والإحسان معروفًا.

ودخل في ذلك الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود وأنه المتكلم به حقًّا وأن كلامه لا ينفد ولا يبيد.

ودخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب وأنه مع ذلك عليٌّ أعلى وأنه لا منافاة بين كمال علوه وكمال قربه؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وصفاته.

ولا يتم توحيد الأسماء والصفات حتى يؤمن بكل ما جاء به الكتاب والسنة من الأسماء والصفات والأفعال وأحكامها على وجه يليق بعظمة الباري، ويعلم أنه كما لا يماثله أحد في ذاته فلا يماثله أحد في صفاته.

ومن ظن أن في بعض العقليات ما يوجب تأويل بعض الصفات على غير معناها المعروف فقد ضل ضلالًا مبينًا.

ولا يتم توحيد الربوبية حتى يعتقد العبد أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله.

وأن لهم أفعالًا وإرادة تقع بها أفعالهم وهي متعلق الأمر والنهي، وأنه لا يتنافى الأمران: إثبات مشيئة الله العامة الشاملة للذوات والأفعال والصفات، وإثبات قدرة العبد على أفعاله وأقواله.

ولا يتم توحيد العبد حتى يخلص العبد لله تعالى في إرادته وأقواله وأفعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى.

وكمال ذلك أن يدع الشرك الأصغر وهو كل وسيلة قريبة يتوصل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك.

والناس في التوحيد على درجات متفاوتة بحسب ما قاموا به من معرفة الله والقيام بعبوديته.

فأكملهم في هذا الباب من عرف من تفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه ومعانيها الثابتة في الكتاب والسنة وفهمها فهمًا صحيحًا، فامتلأ قلبه من معرفة الله وتعظيمه وإجلاله ومحبته والإنابة إليه وانجذاب جميع دواعي قلبه إلى الله تعالى متوجهًا إليه وحده لا شريك له.

ووقعت جميع حركاته وسكناته في كمال الإيمان والإخلاص التام الذي لا يشوبه شيء من الأغراض الفاسدة، فاطمأن إلى الله معرفة وإنابة وفعلًا وتركًا وتكميلًا لنفسه وتكميلًا لغيره بالدعوة إلى هذا الأصل العظيم، فنسأل الله من فضله وكرمه أن يتفضل علينا بذلك.

الأصل الثاني: الإيمان بنبوة جميع الأنبياء عمومًا ونبوة محمد ﷺ خصوصًا

وهذا الأصل مبناه على أن يعتقد ويؤمن بأن جميع الأنبياء قد اختصهم الله بوحيه وإرساله وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرعه ودينه.

وأن الله أيدهم بالبراهين الدالة على صدقهم وصحة ما جاءوا به وأنهم أكمل الخلق علمًا وعملًا وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقًا وأعمالًا.

وأن الله خصهم بخصائص وفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وأن الله برأهم من كل خلق رذيل.

وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله تعالى وأنه لا يستقر في خبرهم وتبليغهم إلا الحق والصواب.

وأنه يجب الإيمان بهم وبكل ما أوتوه من الله ومحبتهم وتعظيمهم، وأن هذه الأمور ثابتة لنبينا محمد ﷺ على أكمل الوجوه.

وأنه يجب معرفة جميع ما جاء به من الشرع جملة وتفصيلًا، والإيمان بذلك والتزام طاعته في كل شيء بتصديق خبره وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ومن ذلك أنه خاتم النبيين قد نسخت شريعته جميع الشرائع وأن نبوته وشريعته باقية إلى قيام الساعة، فلا نبي بعده ولا شريعة غير شريعته في أصول الدين وفروعه.

ويدخل في الإيمان بالرسل الإيمان بالكتب، فالإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بكل ما جاء به من الكتاب والسنة ألفاظها ومعانيها فلا يتم الإيمان به إلا بذلك.

وكل من كان أعظم علمًا بذلك وتصديقًا واعترافًا وعملًا كان أكمل إيمانًا.

والإيمان بالملائكة والقدر داخل في هذا الأصل العظيم.

ومن تمام الإيمان به أن يعلم أن ما جاء به حق لا يمكن أن يقوم دليل عقلي أو حسي على خلافه، كما لا يقوم دليل نقلي على خلافه، فالأمور العقلية أو الحسية النافعة تجد دلالة الكتاب والسُّنة مثبتة لها، حاثة على تعلمها وعملها، وغير النافع من المذكورات ليس فيها ما ينفي وجودها وإن كان الدليل الشرعي ينهى ويذم الأمور الضارة منها.

ويدخل في الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ بل وسائر الرسل.

الأصل الثالث: الإيمان باليوم الآخر

فكل ما جاء به الكتاب والسنة مما يكون بعد الموت فإنه من الإيمان باليوم الآخر؛ كأحوال البرزخ، وأحوال يوم القيامة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب والشفاعة والميزان والصحف المأخوذة باليمين والشمال والصراط، وأحوال الجنة والنار وأحوال أهلها، وأنواع ما أعد الله فيها لأهلها إجمالًا وتفصيلًا، فكل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر.

الأصل الرابع: مسألة الإيمان

فأهل السنة يعتقدون ما جاء به الكتاب والسنة من أن الإيمان هو تصديق القلب المتضمن لأعمال الجوارح، فيقولون: الإيمان اعتقادات القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح وأقوال اللسان وأنها كلها من الإيمان.

وأن من أكملها ظاهرًا وباطنًا فقد أكمل الإيمان، ومن انتقص شيئًا منها فقد انتقص من إيمانه.

وهذه الأمور بضع وسبعون شعبة: «**أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

ويرتبون على هذا الأصل أن الناس في الإيمان درجات: مقربون، وأصحاب يمين، وظالمون لأنفسهم بحسب مقاماتهم من الدين والإيمان.

وأنه يزيد وينقص، فمن فعل محرمًا أو ترك واجبًا نقص إيمانه الواجب ما لم يتب إلى الله.

ويرتبون على هذا الأصل أن الناس ثلاثة أقسام؛ منهم من قام بحقوق الإيمان كلها فهو المؤمن حقًّا ومنهم من تركها كلها فهذا كافر بالله تعالى ومنهم من فيه إيمان وكفر أو إيمان ونفاق أو خير وشر ففيه من ولاية الله واستحقاقه لكرامته بحسب ما معه من الإيمان، وفيه من عداوة الله واستحقاقه لعقوبته بحسب ما ضيعه من الإيمان.

ويرتبون على هذا الأصل العظيم أن كبائر الذنوب وصغائرها التي لا تصل بصاحبها إلى الكفر تنقص إيمان العبد من غير أن تخرجه من دائرة الإسلام ولا يخلد في نار جهنم.

ولا يطلقون عليه الكفر كما تقول الخوارج أو ينفون عنه الإيمان كما تقوله المعتزلة، بل يقولون: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فمعه مطلق الإيمان وأما الإيمان المطلق فينفى عنه.

وبهذه الأصول يحصل الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة.

ويترتب على هذا الأصل أن الإسلام يجبُّ ما قبله وأن التوبة تجبُّ ما قبلها وأن من ارتد ومات على ذلك فقد حبط عمله، ومن تاب تاب الله عليه.

ويرتبون أيضًا على هذا الأصل صحة الاستثناء في الإيمان فيصح أن يقول: أنا مؤمنٌ إن

(١) مسلم (٣٥).

شاء الله؛ لأنه يرجو من الله تعالى تكميل إيمانه فيستثني لذلك ويرجو الثبات على ذلك إلى الممات فيستثني من غير شك منه بحصول أصل الإيمان.

ويرتبون أيضًا على هذا الأصل أن الحب والبغض أصله ومقداره تابع للإيمان وجودًا وعدمًا وتكميلًا ونقصًا ثم يتبع ذلك الولاية والعداوة، ولهذا من الإيمان الحب في الله والبغض لله والولاية لله والعداوة لله.

ويترتب على الإيمان ولا يتم إلا بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويترتب على ذلك أيضًا محبة اجتماع المؤمنين والحث على التآلف والتحابب وعدم التقاطع.

ويبرأ أهل السنة والجماعة من التعصبات والتفرق والتباغض ويرون أن هذه القاعدة من أهم قواعد الإيمان ولا يرون الاختلاف في المسائل التي لا تصل إلى كفر أو بدعة موجبة للتفرق.

ويترتب على الإيمان محبة أصحاب النبي ﷺ بحسب مراتبهم وعملهم وأن لهم من الفضل والسوابق والمناقب ما فضلوا فيه سائر الأمة.

ويدينون بمحبتهم ونشر فضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم وأنهم أولى الأمة بكل خصلة حميدة وأسبقهم إلى كل خير وأبعدهم من كل شر.

ويعتقدون أن الأمة لا تستغني عن إمام يقيم لها دينها ودنياها ويدفع عنها عادية المعتدين.

ولا تتم إمامته إلا بطاعته في غير معصية الله تعالى.

ويرون أنه لا يتم الإيمان إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد وإلا باللسان وإلا فبالقلب على حسب مراتبه الشرعية وطرقه المرعية.

وبالجملة فيرون القيام بكل الأصول الشرعية على الوجه الشرعي من تمام الإيمان والدين، ومن تمام هذا الأصل طريقهم في العلم والعمل.

الأصل الخامس: طريقهم في العلم والعمل

وذلك أن أهل السنة والجماعة يعتقدون ويلتزمون أن لا طريق إلى الله وإلى كرامته إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، فالعلم النافع هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيجتهدون في معرفة معانيها والتفقه فيها أصولًا وفروعًا.

ويسلكون جميع طرق الدلالات فيها: دلالة المطابقة ودلالة التضمن ودلالة الالتزام ويبذلون قواهم في إدراك ذلك بحسب ما أعطاهم الله.

ويعتقدون أن هذه هي العلوم النافعة هي وما تفرع عليها من أقيسة صحيحة ومناسبات حكيمة، وكل علم أعان على ذلك أو وازره أو ترتب عليه فإنه علم شرعي، كما أن ما ضاده وناقضه فهو علم باطل، فهذا طريقهم في العلم.

وأما طريقهم في العمل فإنهم يتقربون إلى الله تعالى بالتصديق والاعتراف التام بعقائد الإيمان التي هي أصل العبادات وأساسها.

ثم يتقربون له بأداء فرائض الله المتعلقة بحقه وحقوق عباده مع الإكثار من النوافل وبترك المحرمات والمنهيات تعبدًا لله تعالى.

ويعلمون أن الله تعالى لا يقبل إلا كل عمل خالص لوجهه الكريم مسلوكًا فيه طريق النبي الكريم ويستعينون بالله تعالى في سلوك هذه الطرق النافعة التي هي العلم النافع والعمل الصالح الموصل إلى كل خير وفلاح وسعادة عاجلة وآجلة والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٣)

أصول عظيمة

من قواعد الإسلام

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

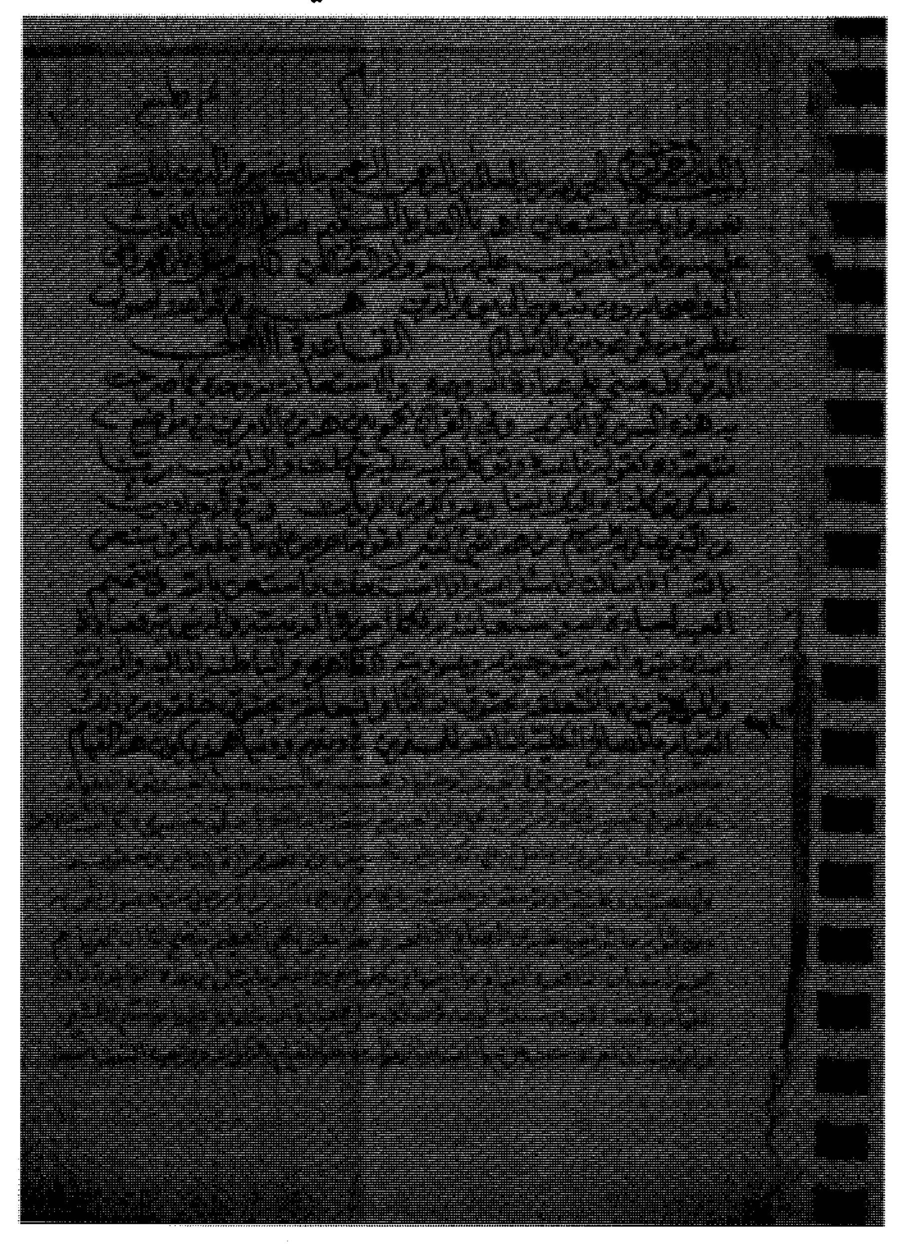
تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على

نشرة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

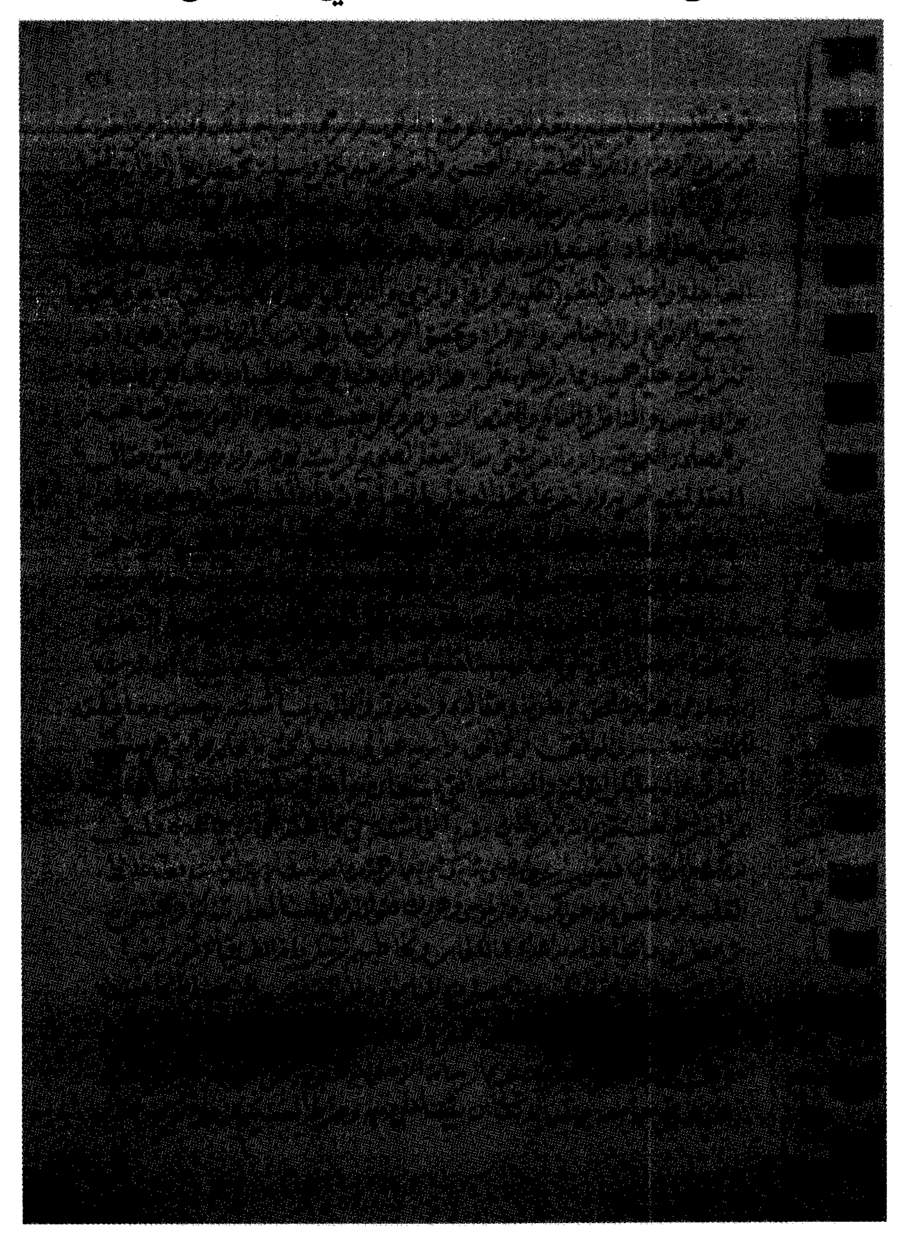


نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق

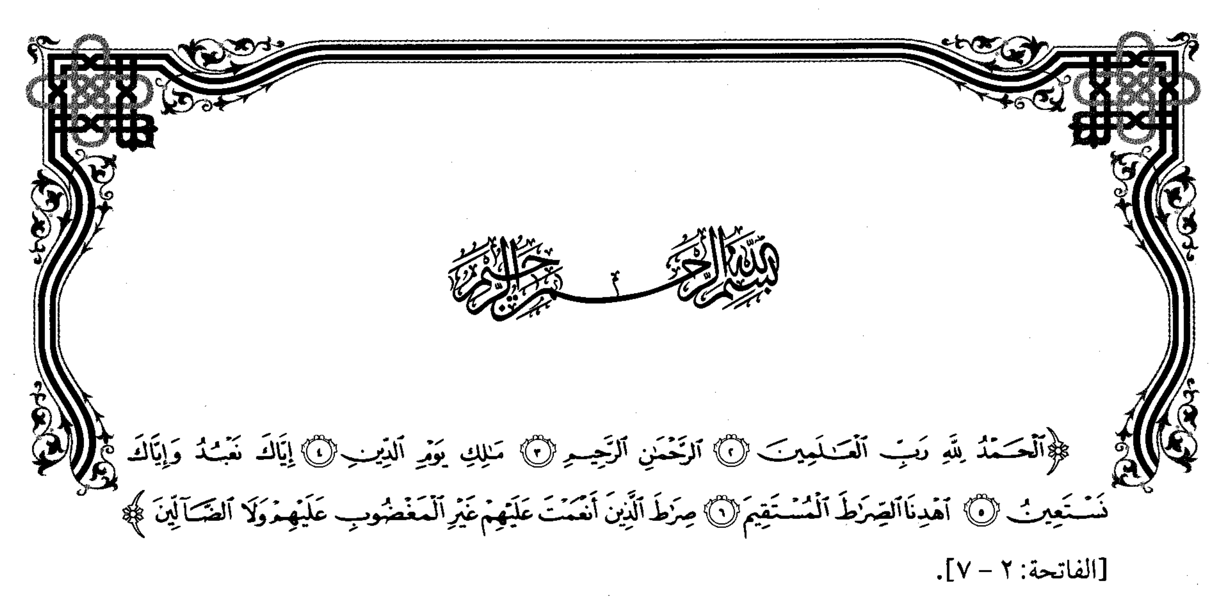


صورة اللوحة الأولى من المخطوط

نماذج المخطوط المعتمد في التحقيق



صورة اللوحة الأولى من المخطوط



﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٧].

اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

هذه قواعد وأصول عظيمة من قواعد دين الإسلام:

القاعدة الأولى: الدين كله مبني على عبادة الله وحده والاستعانة به وحده.

كما صرحت به هذه السورة الكريمة، وفي القرآن الجمع بين هذين الأمرين في مواضع متعددة؛ كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤]. وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ من هذا شيء كثير؛ كقوله: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»**[١]. **«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»**[٢].

وبتتميم العبد لعبادة الله واستعانته به تكمل أموره الدينية والدنيوية، فعبادة الله أن يقوم العبد بتوحيد الله، وعبوديته الظاهرة والباطنة؛ المالية والبدنية والمركبة منهما المتعلقة بحقوق الله تعالى، والمتعلقة بحقوق خلقه، ومن ذلك: القيام بالمصالح الكلية النافعة للمسلمين

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦).

في دينهم ودنياهم، ويكون هذا القيام مصحوبًا بثلاثة أمور: قوة الجد، والاجتهاد بحسب ما يستطيعه العبد، وقوة الاعتماد على الله في تيسير ذلك، الأمر الذي يحاوله العبد مع الثقة التامة بالله في تيسيره وكمال الإخلاص لله؛ بحيث لا يكون الحامل له على ذلك غرض خسيس، ولا قصد مراءاة الناس وسمعتهم، ولا عصبية وطنية أو قومية أو جنسية، بل الحامل له على ذلك إرادة رضا الله، وحصول ثوابه، ومن ثوابه ما يترتب عليه من المصالح النافعة.

وبهذا المعنى الكلي العظيم يتضح لنا أن القيام بجميع الأسباب النافعة، والقيام بما يتممها ويكملها هي من أعظم ما يدخل في هذه القاعدة، فإن القيام بها عبادة لله ووسيلة إلى عبادة الله، فكما يدخل في عبادة الله ما أعان عليها من السعي والمشي والركوب إلى العبادات، فيدخل فيها اكتساب الأموال من حلها للقيام بالزكوات وواجب النفقات، ولقيام الأعمال النافعة التي لا تقوم إلا بالأموال، ويدخل فيها أيضًا تعلم الفنون والصناعات العصرية والاختراعات التي فيها استعداد المسلمين لمقاومة أعدائهم وللسلامة من شرورهم، وذلك بحسب المستطاع؛ قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فكل ما يستطيعه المسلمون من إعداد القوة العقلية والصناعية والسياسية والفنون العسكرية، وما أشبه ذلك فإنه يدخل في عبادة الله وفيما يعين عليها؛ فإن الجهاد الذي هو بذل الجهد في مقاومة الأعداء من أجل العبادات، فما يعين عليه فإنه منه.

فبهذا يعلم أن المسلمين بالمعنى الحقيقي أكمل الخلق في فعل الأسباب النافعة؛ لأنهم يبدون فيها مقدورهم، مستعينين بالله في حصولها وفي تكميلها وفيما لا يقدرون عليه منها، وفي إنجاح أعمالهم وحصول مقاصدهم، فليس بعد هذا الكمال الذي حث عليه الدين الإسلامي كمال ولا فوقه مرتقى، حيث يموّه الدعاة إلى الإلحاد أن الدين الإسلامي يثبط العاملين ويضعف نفوسهم، وهذا من المكابرة والتجري والكذب الصراح بمكان لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، فإذا تبين أن الدين الإسلامي الصحيح يحث على القيام بالأسباب النافعة، ويبعث الهمم والعزائم بالاستعانة بالله عليها والثقة به في تكميلها

ونجاحها، فكم في الكتاب والسنة من الأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات والأخذ بجميع الأسباب النافعات، فاعلم أن ههنا طريقين ذميمين منحرفين في الأسباب يبرأ الدين منهما كل البراءة:

أحدهما: مذهب الجبرية القائلين بأن العبد مجبور على أفعاله، وأن حركاته الاختيارية حركات اضطرارية بمنزلة حركات الأشجار، وأن الأسباب لا تأثير لها في مسبباتها، وأن الله يخلق عندها لا بها، ويوجد الأشياء باقترانها عادة لا أنها طريق ووسيلة إلى مقاصدها، وهذا المذهب باطل شرعًا وعقلًا:

أما شرعًا فإن الكتاب والسنة مملوءان من ذكر إضافة الأعمال للعاملين خيرها وشرها، وأنهم هم الذين يفعلونها طوعًا واختيارًا لا قسرًا واضطرارًا، ومملوءان من ذكر أن الأسباب بها حصول مقاصدها، وهي الطريق الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة، وأن الكسل عنها موجب للحرمان، والضعف فيها داع إلى الخسران، كما تقدم أن الشرع يحث عليها غاية الحث مع الاستعانة بالله عليها.

وأما بطلان هذا القول عقلًا فلأنه من المعلوم بالضرورة أن أفعال العباد، بل والحيوانات تقع باختيارهم وإرادتهم؛ إن شاءوا أرادوا وفعلوا، وإن أرادوا تركوا، وأنه لولا أن العباد تقع أفعالهم طوع اختيارهم لما كان للأوامر الشرعية والعرفية فائدة، فكيف يؤمر ويوجه الخطاب إلى من لا قدرة له على أفعاله، وكيف يوجد النهي واللوم على من لا يقدر على ترك النواهي، فهذا معلوم فساده بالضرورة من الشرع وبداهة العقل.

وأعظم منه بطلانًا وأشد فسادًا مذهب الطبائعيين في الأسباب [الذين][1] يرون الأسباب جارية على مقتضى الطبيعة ونظام الكون، وأنها لا تعلق لها بقضاء الله وقدره، وأن الله لا يقدر على تغييرها ولا منعها ولا إعانتها، وأهل هذا المذهب معروفون بالخروج عن ديانات

(١) في المخطوط: «الذي»، ولعل المثبت أنسب للسياق.

الرسل كلهم؛ لأن هذا القول الخبيث مبني [على][1] نفي الإيمان بالله ونفي ربوبيته، والرب في الحقيقة عند هؤلاء هي الطبيعة، فهي التي تتفاعل وتتطور وتحدث الأشياء كلها، فهؤلاء الملحدون لا يثبتون لله أفعالًا ولا يثبتون أنه يثيب الطائعين بالنعم والكرامات في الدنيا والآخرة، ولا يعاقب العاصين بالنقم في الدنيا والآخرة، وينفون معجزات الأنبياء الخارقة للعادة كلها وكرامات الأولياء، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا المذهب الذي هو أبطل المذاهب، الذي تنزه عنه اليهود والنصارى وكثير من المشركين، فضلًا عن الدين الإسلامي- قد اغتر به بعض الكتاب العصريين وأرادوا من سفاهتهم وجراءتهم العظيمة أن ينسبوه إلى دين الإسلام، ودين الإسلام وسائر الأديان بريئة من هذا القول الخبيث، فهو في شق وأديان الرسل في شق آخر؛ الرسل والشرائع تثبت ربوبية الله وأفعاله وقضاءه وقدره، وانقياد العالم العلوي والسفلي لإرادة الله وقدرته، وهؤلاء ينكرون ذلك، والرسل والشرائع تثبت أن الأسباب والمسببات محل حكمة الله، وأن الله قد جعلها على نظام حكيم دال على كمال حكمة الله وانتظام أمر الدنيا والآخرة، وأنه لا يمكن أحد أن يغير سنن الله ولا يحولها، ومع هذا فإنها تابعة لمشيئة الله وإرادته لا يستقل سبب منها إلا بإعانته، وقد يمنع بعض الأسباب ويغير بعض الأسباب ليري عباده أنه هو المتصرف المطلق، فقد أوقع الله الأخذات الخارقة بالمكذبين بالرسل، وأكرم أنبياءه وأولياءه بالنجاة في الدنيا والآخرة؛ فأهلك قوم نوح بالطوفان ونجى نوحًا ومن معه من المؤمنين، وجعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وأعطى موسى من الآيات؛ كالحية والعصا وفلق البحر ما فيه أكبر عبرة بأنه المتصرف المطلق، وجعل عيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنه.

وأعطى محمدًا ﷺ من الكرامات والخوارق الكونية ما لم يعط أحدًا من الرسل؛ فانشق له القمر وسلم عليه الشجر والحجر، ونبع الماء من بين أصابعه، واستقى الخلق الكثير من الماء القليل وأشبع الخلق العظيم من الطعام اليسير، وأبرأ الله بدعواته أمراضًا كثيرة، وأنزل الله

---

(١) ليس في المخطوط وأثبتناها لاستقامة السياق.

الغيث بدعوته في قضايا كثيرة، وعصمه الله من الناس ونصره في مواطن كثيرة نصرًا خارقًا للعادة ونصر الله أمته في مواطن كثيرة، وأكرم الله الرسل والأولياء في أمور خارقة للعادة. وهذه الأمور كلها مما ينكرها أهل هذا المذهب الخبيث؛ فعلم أنه منافٍ للإيمان بالرسل من كل وجه، وأن من زعم أنه يبقى مع صاحبه من الإيمان شيء فهو مغرور مكابر.

وأما بطلانه عقلًا وفطرة فإن العقلاء كلهم مطبقون على انقياد العالم العلوي والسفلي إلى إرادة الله وقدرته، ولم ينكر ذلك أحد إلا من جحد الله ولم يثبت وجوده، وهؤلاء قد علم أن عقولهم قد مرجت وأنكروا الأمور المحسوسة التي لا يزال الله يريها عباده في جميع الأوقات.

ومن فروع هذا المذهب الإنكار بأن الله ينقذ المضطرين ويجيب دعوات الداعين ويغيث اللهفات ويكشف الكربات، وإنما هي عندهم الأسباب تتفاعل وتتغالب؛ فجحدوا ما علم بالضرورة من شرائع الأنبياء وما أقرت به الخليقة واعترفوا به وفطروا عليه؛ وبذلك حكموا لأنفسهم بمفارقة العقل والدين.

ومن فروع ذلك: إنكار قصة آدم وإهباطه إلى الأرض، وخلق الله إياه وإيحائه إليه، وجميع ما تحتوي قصته مع زوجه، ومع إبليس، وإنكار أنه أول الإنسان، وزعموا أن الإنسان في أول أمره مكث مدة طويلة لا يتكلم ولا يعبر عما في ضميره، ثم انتقل من ذلك الطور البهيمي إلى طور الإشارات دون التكلم باللغات، ثم مكث ما شاءت الطبيعة - لا ما شاء الله - فتطور وصار يتكلم؛ فجحدوا ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب واتبعوا ما تخرصه المعطلون الملحدون الذين بنوا نظرياتهم على تخرصات لا تنبني على العلوم المعقولة ولا العلوم المحسوسة.

ومن فروع هذا المذهب الخبيث أن هذا العالم لم يزل ولا يزال، وأن الله لا يغيره ولا ينقل العباد من هذه الدار إلى دار الجزاء فأنكروا مقصود ما جاءت به الكتب السماوية والرسل الكرام، وما دلت عليه الأدلة العقلية الصريحة التي لا تقبل ريبًا ولا إشكالًا، فإن الطبيعة خلق

من خلق الله، فهو الذي خلقها وطبعها ودبرها وسخرها، فتبًّا لمن جعلها ربه وإلهه وهو يشاهد من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس أكبر الأدلة والبراهين على ربوبيته رب العالمين، وأن جميع الموجودات منقادة لإرادته مصرفة بقدرته.

فبهذا التفصيل يتضح أن هذا القول الأخير ليس مذهبًا لأحد من المعترفين بالأديان، وإنما هو مأخوذ عن زنادقة الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وأن الله لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئًا من الجزئيات، ومذهب هؤلاء معروف أنهم لا يصدقون برسالة أحد من الرسل ولا يقرون بشيء من الكتب.

وأما المذهب الذي حكيناه عن الجبرية فمع بطلانه فأهله أحسن بكثير كثير من أولئك؛ فإنهم ينتسبون إلى الدين ويعظمون الرسول ولكن غلوا في القضاء والقدر فسلبوا العبد قدرته؛ ضلالًا منهم وجهلًا مع إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، لكنهم سلطوا أعداء الرسل على المسلمين؛ حيث نسبوا مذهبهم للدين، والدين بريء منه، فحمل عليهم الفلاسفة وسفهوا رأيهم في هذا، وظنوا أنهم بذلك انتصروا على الدين، ولكن الدين الحقيقي يخطئ هؤلاء ويضللهم، ويحث العباد على القيام بالأسباب النافعة في الدين والدنيا، ويحضهم على الاجتهاد فيها وعلى الاستعانة بالله وبحوله وقوته، وكذلك الدين الحقيقي والعقل الصحيح يخبر أن ضلال هؤلاء الفلاسفة المعطلين في الأسباب أفظع من ضلال الجبرية؛ حيث جعلوا الأسباب مستقلة منقطعة عن قضاء الله وقدره وأنكروا الأصول السابقة العظيمة لهذا الأصل القبيح.

القاعدة الثانية: الدين الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا الأصل الكبير الذي صرح به الكتاب والسنة في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣]. ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف: ٣]. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. ﴿ٱتَّبِعْ

مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]. ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران: ١٦٤]. ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٩٥]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٨٧]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾[النساء: ١٢٢]. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[آل عمران: ١٣٢].

والرسول في مواضع كثيرة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] الآية. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨]. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[الليل: ١٥، ١٦]. ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان: ١٥]. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٣٦، ٣٧]. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾[الشورى: ٥٢، ٥٣] الآية.

فهذه الآيات الكريمات وأضعافها وأضعاف أضعافها دلت دلالات صريحة أنه يتعين على الخلق اتباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، وأن الهدى والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة في اتباع ذلك، وأن في ضد ذلك الضلال والهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة، وأن الصراط المستقيم الذي من سلكه في عقائده وأقواله

وأفعاله وشئونه الدينية والدنيوية هو سبيل الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ من الإخبارات والأوامر والنواهي، وأن وظيفة المكلفين أن يصدقوا كل ما أخبر الله به ورسوله ويطيعوا الله ورسوله في امتثال الأمر واجتناب النهي، وأن السعادة والنجاة في هذا التصديق وهذه الطاعة، والشقاء والعذاب في تكذيب الأخبار والتولي عن الأمر والنهي، وأن من آمن وعمل صالحًا وسلك طريق الرسول فهو من أولياء الله وحزبه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحًا فهو من أعدائه وحربه، وأنه يتعين سلوك طريق المنيبين إلى الله في ظاهرهم وباطنهم، لا طريق الغافلين ولا المعرضين والمعارضين الصادين عن سبيل الله.

فهذه النصوص ونحوها صريحة أنه يجب أن يكون الأصل الذي إليه مرجع المكلفين كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأن جميع المقالات والأحوال والأعمال والعلوم توزن بهذا الأصل، فما وافقه فهو الحق والصدق والصواب، وما خالفه وناقضه فهو الضلال والشقاء، وأن من جعل كلام أعداء الرسل هو الأصل، وغيره ما وافقه قبله وما خالفه رفضه فهو محاد لرسل الله منابذ لدين الله، وأن في مقدمة هؤلاء الملحدين من دعوا إلى رفض كل قديم وجعلوه سلّمًا لهم وطريقًا لرفض الدين وعلومه وأعماله، وأن هذه دعاية إلحادية، القصد منها الدعاية إلى نبذ الدين واعتناق طريق الملحدين، وأن أهل العقول الصحيحة والألباب السليمة هم الذين يدعون إلى رفض الشرور والفساد وأنواع الظلم وإلى الحث على الخير والصلاح والإصلاح.

فهذا هو الأصل الذي يوافق عليه جميع العقلاء أهل الأديان وغيرهم، وحيث كان هذا هو الميزان الذي لا يمكن كل أحد إلا الاعتراف به حتى المنصفين من الأجانب، فعلينا وعلى الخلق كلهم أن يعرضوا القديم والحديث على هذا الأصل الجليل، وحيث عرض على هذا الأصل القديم والحديث وجد ما دل عليه الكتاب والسنة هو الخير وهو

الهدى والسعادة؛ لأنه يدعو إلى الخير قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[1] [آل عمران: ١٠٤]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. فما ثم صلاح وخير ونفع ديني ودنيوي إلا والكتاب والسنة قد حث عليه ورغب فيه، وبين الطريق الموصلة إليه حتى الفنون والاختراعات والصناعات الحادثة التي فيها نفع للعباد، وتقيهم من الشرور والفساد، وما من شر وضرر وفساد إلا وقد نهى الدين الإسلامي عنه سواء كان ذلك متقدمًا أو متأخرًا.

وأما تعنت الملحدين الماديين بوجوب رفض القديم مطلقًا واعتناق الجديد مطلقًا، فهذا أصل لا يمكن أن يوافق عليه أحد من العقلاء؛ لأن القديم منه طيب وخبيث، والجديد منه طيب وخبيث، فالطيب يجب قبوله مطلقًا والخبيث يجب رفضه مطلقًا، والطيب الذي في الحديث إنما استفيد مما دل عليه القديم من علوم وأخلاق وأعمال. فأصل الخير ومنبعه ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، ويقال لأهل هذه الدعاية الخبيثة: هذه دعاية لا يمكن أن يوافق عليها أحد حتى أنتم لا توافقون عليها، فإنكم تقبلون ما نقلتم عن أئمتكم وتحثون على ذلك سواء كانوا من القدماء أو من الآخرين، فأصل لا يوافق عليه أحد من الخلق يجب أن نرفضه وأن نرجع إلى الأصول الدينية والأصول العقلية:

أما الأصول الدينية فقد أريناكم بعض ما دل عليه أشرف الكتب، وهو القرآن بوجوب اتباع كتاب الله وما دل عليه ما جاء عن رسول الله وأنه الخير والحق والهدى، وما سواه شر وضلال وشقا.

وأما الأصول العقلية فهلم فلنتحاكم إلى هذه الأصول التي لا يمكن عاقلًا أن يقدح

(١) بعده في المخطوط: «وأن الله يحب المصلحين».

بها، ومن قدح فيها فهو مكابر [نتحاكم إلى][1] الطيب والخبيث فكل طيب من العقائد والأخلاق والأعمال [والمقاصد والوسائل] فعلينا أن نقبله، وكل خبيث من ذلك فعلينا أن نرفضه و[هلم فلنتحاكم] إلى الخير والصلاح والإصلاح، لا إلى الشر والفساد، فكل خير وصلاح وإصلاح فعلينا أن نقبله، وكل شر وفساد فعلينا أن نتركه، هلم فلنتحاكم إلى ما [يرقي الخَلْق] ويعليهم في دينهم ودنياهم، وإلى ما ينزلهم ويحلل أخلاقهم وآدابهم في [دينهم] ودنياهم فنقبل الأول ونرفض الثاني، هلم فلنتحاكم إلى ما فيه [نفع ديني] ودنيوي، نفع حقيقي فنقبله، وما فيه ضرر ديني ودنيوي [فنرفضه]، هلم فلنتحاكم إلى ما آثاره جليلة وعواقبه حميدة في الدنيا والآخرة فنقبله [ونقبل عليه]، وإلى ما آثاره ذميمة وعواقبه وخيمة فندعه ونرفضه، هلم فلنتحاكم إلى العدل وأداء الحقوق في حقوق الله وحقوق عباده فنقبله وندعو إليه، وأما الظلم وعدم أداء الحقوق الواجبة فلندعه ونتركه، فهذه الأصول العقلية والشرعية وما أشبهها لا يدعى أحد للتحاكم إليها [فيأبى إلا دلنا] على سفاهته وحمقه ومكابرته، فالدين الإسلامي لا [يأبى التحاكم] في [علومه] وأخلاقه وأعماله وآدابه كلها إلى قضايا العقول التي يتفق [العقلاء على صحتها وسلامتها، بل] هو الذي دعا الخلق إليها وحثهم عليها، فكيف يأبى أن يحتكم [إلي ما تقتضيه أصوله وأسسه] وأما إطلاق المحاكمة إلى القديم والحديث فهذا كما تقدم لا يوافق [عليه هؤلاء؛ لأنها] قضية مختلة متزعزعة عند الناصرين لها؛ لأنهم يتناقضون [في رفض] وفي قبول كل حديث، فمنه أشياء يقبلونها، ومنه [أشياء يرفضونها من وجه] دال على فسادها من أنفسهم وحججهم.

ووجه آخر وهو أنهم إذا كانوا يرفضون القديم ويرحبون بالجديد فهذه قضية أول من يحظى بإبطالها واصفوها، وذلك أنهم إذا أسسوا لهم أمورًا يجرونها ويرونها هي الحق الذي يجب تقديمه ونصره كانوا إذا جاء من بعدهم فإما أن يتبعوا ما أسسه الأولون فينتقض أصلهم

(١) ما بين المعكوفين غير مقروء في المخطوط، واستفدناه من نسخة عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، وكذلك ما يأتي مما بين معكوفين.

وتصير الأمور الحادثة عند النشء الحديث لا يعبأ بها وإنما يحافظ على ما قاله الأولون، وهذا بعينه أكبر برهان على نفيها، وأن تسلسل هذه القاعدة عند النشء الذي بعدهم فيوجبون رفض ما قاله هؤلاء واعتناق الأمور المتجددة لم يَثْبُتْ بأيدي الناس حق يكون له الإثبات، بل ما أثبته هؤلاء نفاه الآخرون، وما نفاه هؤلاء أثبته آخرون؛ فصاروا في أمر مريج متهافت مختل الأصول والفروع، هذا من جهة ميزان هذه القضية الجائرة في عقول قائليها، وأما وزنها في الشرائع الدينية وفي العقول الصحيحة فهي أرذل وأخس من أن يقام لها وزن، وإنما هي أقوال صدرت من سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول أرادوا بها التمويه على الأغرار [الذين لا قلب لهم يستفتونه]، ولا ألباب صحيحة يزنون بها الأمور والقضايا، وإنما الموازين التي لا يقدح فيها أحد من العقلاء فتلك الأصول التي أشرنا لها وما أشبهها فهي التي من قالها صدق قوله، ومن حكم بها عدل حكمه، ومن استقام عليها هدي إلى صراط مستقيم، وهي الأصول التي لا يمكن نقضها وتجري مع الزمان والأحوال لا تتغير؛ لأنها حقائق ثابتة صالحة للخليقة موضوعة لنفعهم.

أما المسلمون فليس عندهم أدنى ريب بأن دينهم هو الحق الذي لا تعرف الحقائق إلا به، وهو الدين الذي رسم للخلق حقائق الأشياء ودلهم عليها وأرشدهم إلى منافعها، ولا يستريبون أن جميع أصول دينهم وفروعه وظاهره وباطنه إذا وزنت بتلك الموازين الصحيحة ظهر نورها وجلالها وكمالها، ووجوب تقديمها على كل شيء، وأما المنحرفون عن الدين فربما يصير عندهم في هذا المقام مغالطات، ويدعون دعوتهم [مجردة] عن البرهان أن مذاهبهم هي الموافقة لتلك الأصول، فعند ذلك يقال: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. وبينوا الطريق التي يعرف بها ما ادعيتم، ونحن نعلم علمًا مبنيًّا على البراهين والحقائق أنه ليس لهم طريق صحيح إلى تحقيق كل قول نابذوا به الدين، ثم نقول على طريق التقول في مقام المناظرة: إن الدعاوي إذا تعارضت، والأقوال إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان: الدين الإسلامي والعقل الصحيح.

أما الأول فإن كان المجادل بالباطل يدعي أنه مسلم فإنه يقال له: المسلم بإجماع المسلمين لا يصير مسلمًا حتى يقدم ما جاء به الرسول من كتاب الله وسنة رسوله على ما قاله الناس، فعلينا أن نتبع ما جاء في الكتاب والسنة وما أشكل عليك هل هو موافق أو معارض، وضحنا لك من أدلة الشريعة ما يوجب لك الرضوخ والانقياد التام، وربما كان فهمك قاصرًا عن دلالات النصوص؛ فيبين له دخول جميع المنافع والمصالح في نصوص الشرع، فإن انقاد لذلك فهو مسلم ويصير طريق العقل مؤيدًا لطريق الدين والعقل.

أما الدين فإنه يبين له الأدلة والبراهين العظيمة التي لا تقاوم ولا تصادم على نبوة محمد ﷺ، وعلى الوحي الذي جاء به من عند الله وهي أدلة في أعلى ما يكون من القوة والوضوح والكثرة، وآيات نبوته ﷺ وبراهينها متنوعة؛ أخلاقه العظيمة التي أقسم الله بها بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]. بحيث إذا وضح بعضها عرف أنه لا كان ولا يكون أحد من عظماء الرجال يدانيه في الكمال والفضل والخصال الحميدة التي يستحيل معها أن يكون متقولًا، بل تدل على أنه أصدق الخلق وأبرهم وأتمهم في كل فضل وكمال، وما أمر به ونهى عنه وشرعه فإنه محكم منتظم لا يأمر إلا بكل معروف شرعًا وعقلًا، ولا ينهى إلا عن كل منكر شرعًا وعقلًا، لا تجد في أحكامه اختلالًا ولا سفهًا وعبثًا ومنافاة للحكمة.

والقرآن العظيم الذي جاء به من عند الله فيه تبيان كل شيء وهدى ورحمة، وفيه من العلوم والحقائق العظيمة ما لا يمكن أن يأتي عليه الوصف، لا يمكن أن يأتي علم صحيح ينقض ما جاء به بوجه من الوجوه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. فيه علوم الأولين والآخرين فمجرد نظر المنصف إلى ما جبل الله رسوله ﷺ عليه من الأخلاق وإلى أحكام دينه وكماله وإلى عظمة القرآن وما احتوى عليه من المعجزات، يضطره إلى تصديقه وإلى الخضوع لدينه وشرعه، وإذا علم أنه رسول الله وأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى؛ تعين قبول ما جاء به وأن يكون هو الأصل الذي تعرض عليه الأقوال والمذاهب؛ فما وافقه فهو الحق وما خالفه فهو الباطل، لأنه إذا

علم أنه رسول الله حقًّا كان ما جاء به حقًّا لا يمكن أن يعارض الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فإن أبى المناظر الانقياد إلى شيء مما تقدم فعلى وجه التنزل في المناظرة الدال على غاية الإنصاف وإقناع الخصم، فهلم إلى التحاكم إلى العقول الحرة المعروفة بالاعتدال التي لم تتلوث بالتعصبات ولا بالقصود الفاسدة والأغراض السيئة التي ليس لها قصد إلا طلب الحقيقة والتسليم للحقائق، ولا يستريب من وقف على أصول الدين وتعاليمه العالية والأخلاق السامية وآدابه الرفيعة أنه هو الذي يكفل سعادة الدنيا الحقيقية التي تعد سعادة كما كان كفيلًا بسعادة الآخرة، ولا يعرف ذلك حق المعرفة إلا من تتبع الحقائق الدينية وما تسمو إليه من رقي القلوب والأرواح والأخلاق، وما يعين على ذلك في المادة المالية والصناعية والسياسية وما يقوي ذلك من الأمور المعنوية؛ وبذلك يعرف معرفة على وجه البصيرة التي لا تردد فيها ولا ريب أنه يتعين على الخلق اتباع ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة عقلًا، كما تعين ذلك شرعًا وتقدمت الإشارة إلى بعض ما دل على ذلك من النصوص، وإنما قلنا ذلك وتنزلنا هذا التنزل الذي لا يبقي لمبطله شبهة؛ لأنه في هذه الأوقات طمّ الإلحاد وفشت دعايته بين المسلمين وصار يدعو إليه الأجانب ويدعو إليه من تسمّى بالدين؛ إما نفاقًا وخداعًا، وإما أن يكون صنيعة لغيره وأجيرًا، وإما أن يكون ليس له بصيرة؛ سمع الناس يقولون شيئًا فقاله، وهذا كثير في أهل الصحف الذين لا بصيرة لهم في الدين، ولا يبالون بسقوط صحفهم عن الاعتبار الديني، بل والأدبي، ومن دعا بالطريقة التي شرحناها لم يلق لدعوته معارضًا أصلًا، اللهم إلا لمن عرفوا بالمكابرات وجحد الحقائق والمغالطات التي لا تسمن ولا تغني ولا تفيد شيئًا.

ولنذكر صورة مناظرة[1] جرت بين رجلين كانا رفيقين وكانا مسلمين يدينان بالدين الحق

(١) علق في الحاشية بقوله: «قف على مناظرة عظيمة» يمكن الرجوع إليها في انتصار الحق من هذا الجزء.

علمًا وعملًا، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة ثم التقيا فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وأخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به سيد المرسلين فحاوله[1] صاحبه وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب، فعرف أن هذه علة ومرض تفتقر إلى استئصال الداء وإنزال الدواء على الداء، وأن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته، وإلى تمحيصها وتخليصها وتوضيح مرتبتها ومقابلتها بما يضادها ويقمعها، فقال له مستكشفًا عن الحامل له على ذلك: ما هي يا أخي الأسباب التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه، فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت فيه شريكين وإلا كان غير ذلك، فأعرف من عقلك وأدبك أنك لا ترضى أن تقيم على ما يضرك ويثمر لك الثمرات الرديئة. فقال له: لا أخفيك العلم أني قد رأيت حالة المسلمين حالة لا يرضاها ذوو الهمم العلية؛ رأيتهم في ذل وخمول وأمورهم مدبرة وأحوالهم سيئة، ورأيت في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة وتفننوا في الفنون والمخترعات العجيبة المدهشة والصناعات المتفوقة، فرأيتهم قد دانت لهم الأمم وخضعت لهم الرقاب وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفة بما شاءوا ويعدونهم كالعبيد والأجراء وأقل من ذلك، فرأيت منهم العز الذي بهرني والتفنن الذي أدهشني فقلت في نفسي: لولا أن هؤلاء هم القوم وأنهم على الحق، والمسلمون على الباطل ما كانوا على هذا الوصف الذي ذكرت لك، فرأيت أن سلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خير لي وأحمد عاقبة، فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت.

فقال له صاحبه حين أبدى له ما كان مستورًا: إذا كان هذا هو السبب الذي حولك إلى ما أرى فهذا يا أخي ليس من الأسباب التي يبني عليها العقلاء وأولو الألباب عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم.

أما تأخر المسلمين فيما ذكرت فليس ذلك من دينهم، وقد علمت وتيقنت أن دين الإسلام

---

(١) في انتصار الحق: فحايله.

يدعو إلى الصلاح والإصلاح، والاستعداد بالقوة المعنوية والقوة المادية من كل وجه إلى قوة المسلمين ومقاومتهم لأعدائهم، وإلى السلامة من كل أضرارهم وهو لا تزال تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها هلموا إلى جميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم، أفبتفريط أهل الدين تحتج على الدين؟! أليس هذا التفريط منهم يوجب على أهل البصائر منهم أن يكون خيرهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا لينالوا المقامات الشامخة، ويبتعدوا من الهوة العميقة؟! أليس القيام التام والجهاد من أفرض الفروض وألزم اللوازم في هذه الحال، فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا في هذه الحال التي وصفت؟! فإن الجهاد لا يمكن تعبير المعبرين عن فضائله ومناقبه؛ فإنه في هذه الحال يكون الجهاد قسمين:

قسم منه فيه تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، ولعل هذا أشق النوعين وأفضلهما. وقسم فيه مقاومة الأعداء وإعداد العدة القولية والفعلية والسياسية والداخلية والخارجية لمقاومتهم ومنازلتهم في ميادين الحياة، أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخلفين، فكيف مع ذلك تنضم إلى حرب المحاربين؟! لا تكن يا أخي أرذل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. قاتلوا لأجل الدين أو ادفعوا لأجل الرابطة القومية فأعيذك يا أخي من هذه الحالة التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات، فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعديدهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في حالة اشتدت فيها الضرورة إلى نصرة الأولياء وقمع عدوان الأعداء؟! فهل رأيت يا أخي قومًا خيرًا من قومك ودينًا خيرًا من دينك؟! فقال ذلك المنقلب المنصوح: الأمر كما ذكرت لك ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات وألفوا السياسات والحضارات وترقوا في هذه الحياة. فقال له صاحبه وهو يحاوره: أرفضت دينًا قيمًا، كامل القواعد، نير البرهان، يدعو إلى الخيرات، ويحث على طرق السعادة والفلاح، ويقول لأهله:

هلموا إلى الفلاح والنجاح. دين مبني على الحضارات الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والشفقة وأداء الحقوق، وشملت بظلها الظليل وخيرها الطويل وإحسانها الشامل وبهائها الكامل ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمخالف، أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الطمع والجشع وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، حضارة ظاهرها مزيف وباطنها خراب، وتخالها تعميرًا للوجود وهي في الحقيقة مآلها الهلاك والتدمير، ألم تر آثارها في هذه الأوقات وما جلبته للخلق من الهلاك والفناء والآفات، فهل سمع الخلق منذ أوجدهم الله لهذه المجازر[1] البشرية نظيرًا ومثيلاً، فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادتهم غير تتبيب[2]، فلا يخدعنك يا أخي ما ترى من المناظر والزخرفة والأقوال المموهة والدعاوي الطويلة العريضة، فانظر إلى بواطن الأشياء ولا تغرنك الظواهر، وتأمل النتائج الوخيمة فهل أسعدتهم هذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها، ألم ترهم يتنقلون من شر إلى شرور وأنهم لا يسكنون في وقت إلا وهم إلى شرور فظيعة يتحفزون.

ثم هب أنهم متعوا في حياتهم ومتعوا بالعز والرياسات ومظاهر الحياة، فهل إذا انحزت إليهم وواليتهم يشركونك في حياتهم ويجعلونك كأنفسهم؟! كلا والله إنهم إذا رضوا عنك جعلوك من أخس خدامهم وأقذر أجرائهم، وآية ذلك أنك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم وتتكلم وتجادل وتخاصم على حسابهم ولم نرهم رفعوك حتى ساووا فيك أدنى قومهم وبني جنسهم، فالله الله يا أخي في دينك، والله الله في مروءتك وأخلاقك وأدبك، والله الله في بقية رمقك، فالانضمام إلى هؤلاء والله هو الهلاك.

فلما سمع هذا الكلام وتأمل جميع الطرق والوسائل التي تنال بها الأغراض الصحيحة من

(١) في المخطوط: «المجازت»، والمثبت من انتصار الحق.

(٢) أي: تخسير.

أولئك الأقوام فإذا هي مسدودة؛ عرف أنه في محنته هذه من جملة المغرورين، وأن الواجب عليه متابعة الناصحين، وأن الرجوع إلى الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة خير من التمادي على الباطل الذي يحتوي على الضرر المبين، فقال لصاحبه: كيف لي بالرجوع وأنى لي وقد أظهرت الانحياز إلى أولئك [و] النزوع. فقال له صاحبه: ألم تعلم أن من أكبر فضائل الإنسان أن يتبع الحق الذي تبين له ويدع ما هو فيه من الباطل، وأن الخطأ والزلل قلما يسلم منه بشر، ولكن الموفق [هو] الذي إذا وقع في المهالك طلب الوسيلة والطريق إلى كل سبب يخلصه منها، وأن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. واعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال، ثم تراجع إلى الحق الذي هو حبيب القلوب، ربما كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه فارجع إلى الحق ثابتًا وثق بوعد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فقال: الحمد لله الذي أنقذنا بلطفه وحسن عنايته من الهلاك، ومنَّ علينا بالسعادة والهدى فنسأل الله أن يتم نعمته علينا بالثبات على دينه إنه جواد كريم.

فقال الناصح لأخيه لما رأى ما يسره من رجوعه إلى الحق: وأزيدك يا أخي بيانًا أن هذه المظاهر التي نراها من الكفار قد نبهنا الله في كتابه ألا نغتر بها، فلولا أنه تعالى قد علم أنها من طرق الغرور ووسائل الخداع لما نبهنا عليها وأرشدنا وحذرنا أن نغتر بها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]. والآيات [فبيَّن لنا] أن هذا الاغترار مصيدة للجاهلين، وأن الله أرى عباده من وقائعه وآياته في الأمم الظالمة ما حصلت به العبرة، وأن من بنى أمره ومسالكه على الاغترار بما متعوا به فإنه جاهل أحمق مقلد قاصر ونظره قاصر، وأيضًا فقد أخبر تعالى في آيات كثيرة أنه يستدرجهم فيما أعطاهم

فيغترون ويغتر بهم، وهذا هو الواقع منهم، وممن تعشق أحوالهم، وأنه تعالى يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولسنا ننكر أن الله أعطاهم أسبابًا عظيمة تدرك بها المطالب، لكن هذه الأسباب إن لم تبن على الحق والدين الحق صار ضررها أكثر من نفعها، هذا بالنظر إلى الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم في الآخرة من نصيب ولا خلاق[١].

القاعدة الثالثة: الإيمان بالله هو الأصل الذي دعت إليه جميع الرسل، وبه الرقي الحقيقي في الدنيا والآخرة.

جميع الكتب التي أنزلها الله، وجميع رسول أرسله الله[٢]، الأصل الذي أسدت إليه، والدعوة التي دعت إليها هو الإيمان بالله، والإيمان بوجوده وإيجاده المخلوقات، والإيمان بما له من الأسماء الحسنى وصفات الكمال والإذعان الكامل لعبوديته والافتقار إليه.

القرآن العظيم الذي هو أجل الكتب وأعظمها والمهيمن عليها حث على هذا الأصل بالطرق كلها؛ ففيه من أسماء الله الحسنى أكثر من ثمانين اسمًا معرفتها ومعرفة معانيها تملأ القلوب إيمانًا ونورًا ويقينًا وعلمًا وعرفانًا، هو أفضل ما حصلته القلوب وأرقى الاعتقادات النافعة، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[البقرة: ٢٨٥]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد: ١٩]. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٨٢]. في مواضع كثيرة، يرتب عليها خيرات الدنيا والآخرة، ويرتب على عدم الإيمان جميع الشرور الدنيوية والأخروية، ويخبر أن الأعمال والتعبدات كلها ناشئة عن الإيمان، فمن امتلأ قلبه من الإيمان بالله كانت قوة

(١) علق في الحاشية بقوله: انتهت المناظرة.

(٢) كذا وردت هذه العبارة في المخطوط.

عبوديته لله بحسب ذلك الإيمان الذي في قلبه، وكذلك أعمال الأسباب النافعة التي تنفع الأفراد والشعوب، لا يمكن العبد أن يقوم بها على وجه الكمال والصدق والإخلاص والبناء على الأصول النافعة إلا بالإيمان.

فالإيمان أصل الخير الديني والدنيوي وبه توزن الأمور صالحها وطالحها، وإذا أردت تفصيل هذه الجمل العظيمة والتمثيل لها على وجه يعترف به أهل العقول والألباب، فالأمور التي يحصل بها الرقي الحقيقي والسعادة والفلاح الاعتقادات الصحيحة والأخلاق المزكية للقلوب، المطهرة للأرواح، الباعثة للهمم والعزائم إلى كل خير، والأعمال الصالحة النافعة في الدين والدنيا، وهذه الأمور متلازمة لا يتم بعضها إلا ببعض وبتمامها السعادة والفلاح، فإذا اعتقد العبد ما أخبرت به الرسل عن الله تعالى، وأن له الكمال المطلق من جميع الوجوه بكل وجه واعتبار، وأن الأشياء؛ وجودها وبقاءها وكمالها بالله تعالى ومنه تستمد كل شيء، فعلم أن الله هو الخالق وحده وما سواه مخلوق، وهو الرازق المحسن وما سواه مرزوق مضطر إلى إحسان ربه وكرمه من كل وجه، وهو المدبر المصرف للعالم العلوي والسفلي بحكمته وعلمه وعنايته وحسن تدبيره ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء يسمع الأصوات: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

ويرى جميع ما حواه العالم العلوي والسفلي لا يخفى على نظره أدق المخلوقات في أخفى الأمكنة، وهو مع ذلك واسع الرحمة والجود والكرم والبر والامتنان يفيض الإحسان على مخلوقاته آناء الليل والنهار، يده بالخير سحّاء الليل والنهار: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]. وموصل إليها من بره وإحسانه جميع ما تحتاجه في وجودها وبقائها وتمام أحوالها.

وهو مع ذلك قد أمر المخلوقات أن تنيب إليه وتسأله حاجتها وتفزع إليه في جميع مهماتها وملماتها فيجيب الداعين ويكشف كربات المكروبين ويزيل الضر عن المضطرين ويسوق

الألطاف وأصناف البر لعباده المنيبين، فمتى اعتقدت القلوب هذه الاعتقادات الصحيحة في ربها وإلهها فلا بد أن تنيب إليه بالخوف والرجاء والمحبة وتمتلئ من تعظيمه والإيمان به وتطلب السعي في كل أمر يرضيه وتتجنب كل أمر يسخطه فيضطرها هذا الأمر إلى الإخلاص الذي هو روح الأعمال، فالمخلص لله تنبني أعماله الظاهرة والباطنة على أن يكون الداعي لها والباعث عليها هو الإيمان بالله، وغايتها الذي[1] تنتهي إليه وتسعى إليه طلب رضاه والتنعم بثوابه وخيراته، وبذلك يزول عن القلوب جميع الأخلاق الرذيلة؛ من الرياء والنفاق والعجب ومساوي الأخلاق، وتتحلى بالأخلاق الجميلة؛ من الحب والإخلاص والطمع في فضل الله والخوف من عقابه والصدق الكامل في طلب مرضاته والإنابة التامة إلى ربها في رغباتها ورهباتها؛ لأنها تعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مولى ولا نصير إلا ربها ومليكها.

ويكون محبتها للخير الذي يقربها إلى مولاها مقدمة [على][2] كل محبة، وترى أن قوتها وغذاءها وكمالها بهذه الإنابة وهذا الافتقار، وتعطف بهذا التعبد على عباد الله؛ فتحب للمسلمين ما تحب لنفسها من الخير وتسعى لذلك بحسب مقدورها، ثم إذا أصابتها النكبات وحلت بها المصيبات فزعت إلى ربها ليكشف ضرها ويثيبها على ما قدر عليها، وتطمع غاية الطمع في فضل ربها ورجاء رحمته وطلب ثوابه، وبهذا المعنى الذي تتصف به وهذه العقيدة النافعة تهون عليها المصيبات وتخف عنها المكروهات لما تعلمه من حكمة الله واستناد الأمور إلى تدبيره وقدرته، ولما ترجوه من تفريج كربها؛ لأنها تعلم أنه لا يفرج الكربات ولا يزيل الشدات إلا هو ولما ترجوه من الثواب الذي رتبه على المكاره والصبر عليها.

وأما من لم يحصل له هذا الإيمان فإنه عند المصائب والملمات يجري له من الآلام القلبية، والفظائع الروحية، والزلات العظيمة ما لا يمكن التعبير عنه، وربما أن بعض هؤلاء تصل بهم الحال إلى إتلاف نفسه، أو إلى زوال عقله لعدم ما يستند إليه ويرجوه، وكما أن

---

(١) كذا في المخطوط.

(٢) في المخطوط: «إلى». ولعل المثبت أنسب للسياق.

المؤمن الحقيقي يتلقى المكاره والمصيبات بالصبر والقوة والطمأنينة؛ للأسباب التي أشرنا إليها، فإنه يتلقى أوامر ربه بالقوة والعزيمة الصادقة، ويؤدي حقوقه وحقوق خلقه بالكمال والتمام بحسب استطاعته، ومع ذلك فإنه يعلم أنه لا يمكنه أن تتم له العبودية وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة والمصالح الكلية والجزئية إلا بالسعي بالأسباب الدنيوية النافعة وبالقيام بالقوة المعنوية والمادية [فانبعث] همته لداعي الإيمان وداعي العقل وداعي الفطرة إلى ذلك وأبدى ما يقدر عليه في تحصيل ذلك، وعلم أن المقاصد لا تتم إلا بالوسائل، وأن الوسائل التي تتعين على المصالح مما أمر الله به ومما رتب عليه الثواب، وعلى الاستهانة به العقاب، فدخل في هذا جميع الأسباب الموجودة والتي ستحدث بعد ذلك؛ فعلم بذلك أن الإيمان المذكور هو الباعث على تحصيل خير الدنيا والآخرة، وأن من لا يرجو ثوابًا من الله ولا يخشى منه عقابًا ولا له إيمان يستند إليه أنه ضعيف الهمة ضعيف العزم النافع، وإنما... عزماته في تحصيل لذاته البهيمية وشهواته السفلية وطمعه الدنيء، فربما كانت قوته في هذه الأمور وأسبابه المادية في تحصيلها فوق ما يتصوره المتصور ويعبر عنه المتكلم، ولكن الإيمان يستند إليه ولا غاية حميدة يرتجيها ولا حياة أبدية يعمل لها، فمن كانت هذه حاله لم ينل في هذه الحياة طيبها ولا نجح في تحصيل سعادتها بقطع النظر عن الحياة الأخرى فإنه ليس له في الآخرة من خلاق ولا نصيب.

وبهذا يتضح لنا ما عليه المعرضون الآن عن الإيمان بالله، وأن هذه المناظر وما متعوا به من الحياة ما هي إلا لذات مؤقتة تحتها ما شئت من الآلام والأكدار [وأنه لا غاية لها] وأن المؤمنين بالله مهما تنقلت بهم الأحوال وتطورت بهم الأمور فإنهم خير من [هؤلاء وأحسن] عاقبة، فلو وفق المؤمنون للقيام الكامل بالإيمان على الوصف الذي ذكرنا لحازوا الحياة الطيبة في هذه الدنيا والحياة التي هي أطيب منها في دار القرار، وأزيدك أيضًا أن [الإيمان] والذي وصفنا هو الذي يحث صاحبه على كل خلق جميل ويزجره عن كل خلق رذيل، فالإيمان يدعو صاحبه إلى الصدق في الأقوال والصدق في معاملته الخلق، فمن لم يكن

مؤمنًا هذا الإيمان لم تكن مطمئنًا من أقواله ولا من معاملاته، وربما راعاك في شيء وكذلك في أشياء، وهو الذي يحث على النصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، فإيمان العبد يوجب أن يبذل في هذه الأمور كل ما يستطيعه من النصح ويقدر عليه، ومن لم يكن كذلك فأنت [غير آمن] من غشه إن نصحك فيما يظهر ويبين فما الذي يمنعه أن يغشك فيما يظن أنه لا يبين، ليس معه من الإيمان ما يعصمه من هذا الخلق الرذيل.

الإيمان المذكور يحمل صاحبه على الصبر والقوة والشجاعة والإقدام في المواضع التي يحجم عنها ضعفاء النفوس الذين لا إيمان معهم؛ فالمؤمن لقوة إيمانه وتوكله على الله ورجائه لثوابه وعلمه أن الثواب الديني والدنيوي والأخروي يكون بحسب ما قام به من واجبات الإيمان ومكملاته، وما قام به من الجهاد ويسهل عليه القيام بالأعمال الشاقة [ويهون] عليه وما يلقى من الأهوال والمعارضات ولا يأخذهم في ذلك لوم اللائمين وقدح القادحين ولا [يصعب عليه ما أصابه من جراء] ذلك من المصائب، وكلما قوي الإيمان كان قيامه بهذه الأمور أعظم وأتم.

أما من لم يكن معه ذلك الإيمان الصحيح فمن أين له الثبات على الصبر وعلى المقاومات الشاقة، نعم قد يكون له صبر [بعض الأوقات في تحصيل] أغراضه السفلية وشهواته النفسية، وقد يكون عنده من الشجاعة والقوة [في تحصيل ذلك] ولكن حالة ما أرذلها وأخطرها وأقلها بقاء، فإن الوسائل تابعة [للمقاصدها، فأين من كانت] مقاصده أجل المقاصد؛ نصر الدين وإعانة المؤمنين وقمع أعداء الدين [ومقاومة] الباطل، وتحصيل الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية والقيام بحقوق [الله] كليها وجزئيها، أين هذا ممن نهايته إدراك رئاسة مؤقتة ولذات [فانية مشوبة بـ] الأكدار، وكان عاقبتها الهلاك والبوار فوالله إن بين حاليها لكما بين [المشارق والمغارب. الإيمان] المذكور يحمل صاحبه على العدل وينهاه عن الظلم؛ فإنه يعلم أن إيمانه لا يتحقق [ ] إلا بذلك، وأما من عدم الإيمان، فأين العدل الذي يتأسس عليه، فما تأسس العدل إلا [الإيمان بالله واتباع الرسل و] الكتب السماوية وإلا

فطبيعة الإنسان الظلم والفوضوية لا في جماعاتهم ولا [في أفرادهم، وأما ما لم يتأسس] على العدل، فليس من الدين.

وكيف تأمن من لا إيمان له أن يظلمك في دمك ومالك [فإن] النفوس مجبولة على محبة الأثرة إن لم يكن معها إيمان يردعها [وعلم] صحيح، وعدل يحجرها، الإيمان الموصوف بما ذكرنا كما أنه يدعو أهله [إلى الأخلاق الحميدة وينهاهم عن] الأخلاق الرذيلة ويحثهم على الآداب الحسنة، فكذلك يحثهم [ ] الدينية، والحقيقة الإسلامية عليه من فنون الصناعات وأنواع [المخترعات الحديثة... و] استعداد للأعداء بجميع الوسائل النافعة على حسب الحال المقتضية [ ] وإلى الكسل والضعف وأن يكونوا كلًّا على غيرهم.

كذلك يحثهم [على][1] ما تقتضيه المصلحة وعلى جمع كلمة المسلمين واتفاقهم على [ ]. فالمؤمنون بالمعنى الحقيقي يقومون بهذه الأمور لداعي الدين [ ] إذا قام غيرهم فيها للأمر الثاني فقط، ولكن لمصلحة دنيوية أن يسبقهم هؤلاء القوم في تحصيل الفنون العصرية التي [ ] فيها المقاومة والاقتدار على المهاجمة، وعند المسلمين من الدواعي [ ] وطلب المصلحة ما ليس عند غيرهم، واللوم موجه إلى المؤمنين، فليس لهم عذر عند الله، ولا عند خلقه ولا تعذرهم نفوسهم الأبية ولا أخلاقهم وتعاليمهم الدينية الإيمانية إذا كان الإيمان الحقيقي يدعو إلى هذه الفضائل ويزجر عن جميع الرذائل اتضح أنه الطريق الوحيد والصراط الأقوم للسعادة الحقيقية والرقي الحقيقي، وأن ما نراه في بعض الأمم الفاقدة للإيمان ليس إلا كالسراب حتى إذا جاءه المنصف وحقق أمره لم يجده شيئًا، حتى قال بعض منصفيهم في هذا المقام: إن الناس كانوا ولا يزالون يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان أبعد عنه في هذا الزمان، يريد بذلك قومه؛ فما هم عليه من مظاهر السعادة الدنيوية فإن حشوه الآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين ما يرحمهم لأجله المقصرون عنهم ويزهد الراغبين في مثلها لهم ويصدهم عن اتباعهم، والسبب بعدهم عن الإيمان والحق، وتزوغ أنفسهم إلى الباطل وهرولتهم خلف دواعي الشهوة.

---

(١) غير موجودة في المخطوط.

والسبب الأصلي في ذلك كله خلو نفوسهم من الركون إلى الإله الواحد خالق الجميع ورازق الأحياء ومقدر الأسباب لمكاسبهم، فهذه الأحوال والظواهر التي لم تبن على الإيمان هل يقول صحيح العقل إنها حياة سعيدة، والقلوب قلقة والنفوس محترقة، وإنما الراحة والحياة الطيبة راحة المؤمنين الذين اكتسبوا راحة الضمائر وطمأنينة السرائر والرضا الحقيقي مع السعي الجميل في طلب المنافع والمكاسب، فالمؤمن حيث تجده تجد هذا الوصف منطبقًا عليه؛ فهو سعيد وإن كان بين الأشقياء، حكيم وإن وجد بين السفهاء، وأما من أخذ اسم الإيمان رسمًا ولم يتحقق به عقدًا ولا خلقًا ولا أدبًا فلم تضمن له الحياة الطيبة.

القاعدة الرابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

كم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بهذا الأصل العظيم والقاعدة العامة الجامعة لكل خير، فإن المعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، والمنكر اسم جامع لكل ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا، والحق هو العلوم النافعة والأعمال الصالحة فيدخل في هذا تعلم جميع العلوم النافعة وتعليمها، وكما يدخل في ذلك تعليم المستعدين لطلب العلم، فإنه يدخل فيه تعليم الناس ووعظهم في المساجد والمجامع الصغار والكبار، وفي الحديث مع الأصحاب وغيرهم، وكذلك يتعين أن يكون هيئات وجمعيات من المسلمين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومن أكبر المعروف أن يسعوا في جمع كلمة المسلمين واتفاقهم على مصالحهم الكلية وإزالة ما يقع بين المسلمين من التعادي والتباغض والتنافر التي هي من أكبر الأسباب المُمَكنة للأعداء، وأن يكون من المسلمين طائفة كافية مستعدة للجهاد بالإقبال على تعلم العلوم والفنون العصرية والصناعات والأسلحة التي لا يقوم الجهاد إلا بها، فإن الجهاد في سبيل الله من أكبر ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد نوعان: جهاد واجتهاد في تقوية المسلمين بالروح الإيمانية والقوة المعنوية والشجاعة الدينية، وجهاد الأعداء في مدافعتهم ومهاجمتهم وأخذ

الاحتياطات الكافية لوقاية شرهم وضررهم، ومعلوم أن هذه الأمور تتوقف على الحذق والمهارة في الفنون العصرية النافعة، فيكون السعي فيها وفي تعلمها داخلًا في الجهاد وطريقًا عظيمًا من طرقه، ومن ذلك أن يكون طائفة من المسلمين تتفقد الناس وتلزمهم القيام بالفرائض الدينية؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع حقوق الله وحقوق خلقه الواجبة، وتردعهم عن المنكرات الظاهرة والباطنة.

ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق أن يكون المسلمون في كل أوقاتهم وأحوالهم متناصحين؛ يحث بعضهم بعضًا على الحق الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والصبر على ذلك، فإن الصبر هو الآلة والأساس الذي لا ثبوت للأمور إلا به.

ومن ذلك السعي في المشاريع الخيرية التي تنفع الأمة وتحصيل الأموال لقيامها وتقويمها؛ كالمدارس العلمية في جميع فنون العلم النافع في الدين والدنيا المعينة على الدين، سواء كان ذلك سعيًا على طريق الإحسان المحض أو على طريق التجارة والكسب، فكثير من الأعمال الكبيرة التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بالشركات الواسعة، فإذا كان الناس يسعون للمساهمة في الشركات التجارية المحضة فكيف يتأخرون عن الشركات الجامعة للأمرين؛ للمصلحة الدينية والمصلحة الدنيوية، بل نفس السعي فيها والعمل لها من أعظم ما يقرب إلى الله تعالى، وتعيينها يتوقف على المشاورة واتباع المصلحة الراجحة.

ومن أجلِّ وأفضل ما يدخل في ذلك مجادلة المبطلين وإقامة الحجج والبراهين على أعداء الدين من الكفار والملحدين، وقد يكون مقاومة الملحدين الذين يتسمون باسم الإسلام ويدعون إلى نبذ أصوله ودعائمه أفضل من التصدي للمبارزين من الأجانب المعروفين بمبارزة الدين؛ فإن هؤلاء شرهم أعظم وضررهم أكبر لاغترار كثير من الناس بانتسابهم إلى الإسلام، وهم في الحقيقة من أكبر أعدائه، وهؤلاء قد يكونون أجراء للأجانب، وقد يكونون مخدوعين، لكن من أوجب الواجبات تمييز أحوالهم وإنكار ما أدخلوه على الدين من الدعاية الباطلة.

وبما تلوناه عليك من التقريرات اليقينية عن دين الإسلام يتضح عقلًا كما اتضح شرعًا بطلان ما زعمه بعض المتعصبين من دعاة النصارى وأجرائهم أن دين الإسلام مانع من الرقي، وأن هذا الكلام والزعم الخبيث مكابرة بينة، وأن الرقي الحقيقي محال وغير ممكن أن يتأسس على قواعد الدين، فالقواعد والأصول التي نبهنا عليها عن الدين لا يمكن أحدًا أن ينكر أنها السبب الأعظم والطريق الوحيد إلى الارتقاء في مدارج السعادة والفلاح، وأنه يتعذر النجاح بدونها وأن كل رقي بغيرها فإنه مبني على شفا جرف هار، وكيف يحصل الرقي إذا لم ترتق القلوب والأرواح بمحبة الله والإنابة والافتقار إليه وقوة الإيمان والتوكل عليه؟ وكيف يحصل الرقي التام ولم ترتق الأخلاق بالتحلي بالفضائل والتخلي عن جميع الرذائل، وكيف يتم الرقي بغير الجهاد الشرعي؛ الذي هو الجهاد على تبيين الحق والهدى وعلى قبوله وعلى دفع عادية المعتدين.

الجهاد الشرعي هو الذي جمع بين القوة المعنوية بالإيمان الكامل بالله والاعتماد عليه والتوكل والاستعانة به والعمل بجميع الأسباب التي لا يتم الجهاد إلا بها، وجمع القوة المادية؛ حيث حث على الاستعداد بكل ما يستطاع من القوة العقلية والسياسية والرمي والركوب وتعلم الصناعات والفنون التي تعين على الجهاد، وعلى أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة وطريق، فيا ويح من زعم أن هذه التعاليم العظيمة العالية لا يحصل بها الرقي، وإنما يحصل بالقوة المادية التي لا صلة لها بالدين، المبنية على القساوة والهمجية والوحشية والظلم ونبذ الدين، ولكن أكثر الناس تغرهم المظاهر والصور وليس لهم ألباب ينظرون بها إلى حقائق الأشياء وإلى الأمور النافعة التي نتائجها الخيرات والسعادة الأبدية.

القاعدة الخامسة: الدين الإسلامي هو الصلاح المطلق ولا سبيل إلى صلاح البشر الصلاح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي.

قال تعالى في عدة آيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة، ٢٢٧، يونس: ٩]. ثم يرتب على ذلك خير الدنيا والآخرة ويطلق الصالحات، فكل شيء ينطبق عليه الصلاح

فإنه داخل في الصالحات ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. والله يتولى الصالحين، أي الذين صلحت قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. وهذا يقوله تعالى للمنافقين الذين يزعمون أن ما هم عليه من النفاق وترك الإيمان صلاح، فأخبر تعالى أنه هو عين الفساد، فكل من زعم أن الصلاح في خلاف الدين الإسلامي فهو من هؤلاء المنافقين وعلى شاكلتهم.

وفي القرآن آيات كثيرة فيها الحث على الصلاح والإصلاح والتحذير عن الفساد والإفساد، وهذا الأصل الكبير كما أنه ثابت شرعًا ودينًا فإنه ثابت في العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، وذلك بمعرفة ما هو الصلاح وضده؛ أما الصلاح فَأَنْ تكون الأمور كلها ظاهرها وباطنها دينيها ودنيويها معتدلة كاملة مكملة حاصلًا لها من الأوصاف الصالحة والنعوت المصلحة ما يوصلها إلى الصلاح الحقيقي؛ وبذلك ينتفي عنها الفساد، أما صلاح القلوب فأن تكون عارفة بالحق معترفة به منقادة له تابعة له، فأعظم الحق على الإطلاق الذي يتعين معرفته والانقياد له هو معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق الذي لا يشاركه ولا يماثله فيه مخلوق بوجه من الوجوه، وأنه المتفرد في عظمة صفاته، وتفرده في أفعاله وعطائه ومنعه وخفضه ورفعه وتصريفه الأمور بحكمة وعناية تتناقص عقول العالمين عن بلوغ غايتها ونهاية دقتها، ثم إذا عرفته هذه المعرفة الصحيحة المتلقاة عن كتاب الله وسنة رسول الله اعترفت وانقادت له محبة وخوفًا ورجاء وإنابة إليه وقصدًا في جميع شئونها الظاهرة والباطنة.

وبهذه المعرفة والاعتراف والانقياد التام تنقاد إلى أداء حقوقه وحقوق عباده بانشراح وطمأنينة وإذعان وداعي الإيمان ورجاء الثواب. أليس هذا هو الصلاح الحقيقي الذي لا يمكن صلاح الأحوال إلا به؟ فهل يمكن أن يصلح عبد لم يفرد ربه بمعرفته ومحبته والإنابة إليه ولم ينقد في ظاهره وباطنه إلى القيام بعبوديته وحقوق خلقه؟! فلو خلت القلوب من هذه المعاني الجليلة فهل يمكن أن تصلح، وهل يمكن أن تصلح الحركات الظاهرة والباطنة؟!

هذا ممتنع ومستحيل، فالقلوب الخالية من الإيمان المتجردة عن الانقياد والإذعان إليه، حيث انقطعت عن الله فلا بد أن تتبع شهواتها وأهواءها؛ وبذلك تفسد الأحوال كلها، وهذا برهان ظاهر نير على أن الصلاح في الدين والدنيا منوط بالقيام بالدين الإسلامي.

وأيضًا فإن الناس مضطرون إلى الاجتماع ومفتقرون إلى تبادل المصالح ولا بد لبعضهم من بعض، وشئون بعضهم متعلقة ببعض ولا يشك أحد من العقلاء أن مصالح البشر متعارضة ومطالبهم متباينة والمصالح مختلفة والأهوية غالبة؛ فكان هذا أقوى البراهين على اضطرار الخلق إلى دين وشرع سماوي معصوم يجدد لهم الحدود ويشرع لهم الشرائع وينهج لهم طريق العدل والإنصاف، ويمكن بعضهم من الانتفاع ببعض بطمأنينة وحياة طيبة، والشرع والدين الإسلامي كفيل بذلك على الوجه الأكمل والطريق الأقوم، ألا ترى حسن ما شرعه من المعاملات في المعاوضات كلها والتبرعات، وما أوجبه من الحقوق بين الناس على حسب ما تقتضيه المصلحة والضرورة والظروف، وما فيه من قواعد العدل التي لا غنى للخلق كلهم عنها، وما فيه من الحدود والعقوبات للمجرمين بحسب جرائمهم؟

فلو وكل الناس إلى عقولهم في هذه الأمور لصارت تبعًا للأهوية والأغراض وحصلت الفوضى بحسب ما ترك من نظامات الشريعة، وكل قاعدة نافعة موجودة عند الأجانب وكل نظام نافع عندهم فإنما أصله مأخوذ من الدين الإسلامي، فليذكر لنا المنحرفون أصلًا نافعًا ومعاملة نافعة وعملًا نافعًا خارجًا عن الدين الإسلامي، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وكيف يجدون السبيل والذي أنزله وشرعه للخلق هو الرب الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء وأحاط بكل شيء وعلم أحوال الخلق؛ ماضيها ومستقبلها فلا يخفى عليه منها مثقال ذرة، وأحكم ما شرعه غاية الإحكام، كما أحكم ما قدره في أحسن نظام، أليس من أجل طرق الصلاح الشكر عند النعماء والصبر عند المصائب والضراء؟! الأمران اللذان لم يزل ولا يزال الخلق في هذه الدنيا بينهما يتقلبون، ولا يمكن أن يخلو منهما مخلوق في وقت من الأوقات ولا حالة من الأحوال.

فسل الشاك في اشتمال الدين الإسلامي على غاية الصلاح؛ هل ما يدعو إليه الدين الإسلامي من مقابلة النعم والخيرات بالشكر والثناء على مُولِيهَا، والاستعانة بها على ما يحبه ويرضاه في صرفها في الوجوه النافعة، ومقابلة المكاره والمصائب بالصبر والرضا عن الله والتسليم لأقداره؛ فيكون العباد عند النعم من الشاكرين وعند المكاره من الصابرين، ويكسب الحياة الطيبة في الدنيا مع ما يدخره الله له في الآخرة، أم مقابلة النعم بالأشر والبطر والمكاره بالسخط والآلام القلبية والزلازل الروحية، كما هو أمر لازم للمنحرفين، فالعاقل لا يشك أن الأمرين لا يستويان، وقل له: أي الأمور خير؛ ما دعا إليه الدين من قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. الذي به صلاح الأمور أم طريقة الإسراف والتبذير وطريقة البخل والتقتير، وما دعا إليه الدين من الإحسان في عبادة الخالق وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها والإحسان إلى الخلق بكل وسائل الإحسان، أم ما يدعو إليه المنحرفون من الإعراض عن عبادة الله وحده والإقبال التام على شهوات النفوس الخسيسة، وجعلها هي مبلغ علم الإنسان، وكل همه منع الإحسان إلى الخلق، بل مقابلة الإحسان بالإساءة؟!

فلا بد أن يقول العقل الصحيح: هذا الأمر الجلي لا يحتاج إلى طلب ترجيح، وقل للشاك في حسن الدين الإسلامي: هل ما دعي إليه من وجوب بر الوالدين وصلة الأرحام وأداء حقوق الأصحاب والجيران، والمعاملين بطريقة العدل والفضل خير أم طريق الأثرة والعقوق والقطيعة والجور في المعاملات؟ وقل له: الله قد وهبنا عقولًا وقوى ظاهرة وباطنة نتمكن بها من إدراك سعادتنا ودفع شقاوتنا؛ فهل إذا استعملنا ما وهبنا ربنا من ذلك فيما خلقنا له من عبادة ربنا والقيام بحقوقه وحقوق عباده ورضوخ تلك المواهب والقوى لأحكام من أنعم بها ووهبها، والسلوك من ذلك الطريق المستقيم إلى ربنا، والاستعانة بما أعطانا من المنافع الدنيوية إلى صلاح ديننا ومصالحنا الكلية، أم الأولى بنا أن نستعمل العقول والقوى في أمور تافهة طفيفة لا تغني عن صاحبها شيئًا إن لم يؤسسها ويبنها على الدين، ويجعلها تبعًا لشهواته ووقفًا على مراداته ولو أهلك وضر أخراه؟! فالدين الصحيح

يدعو إلى الأول، وطرق الانحراف تدعو إلى الثاني، وقل له أيضًا: أيما أولى بالعبد أن يتبع ما دعا إليه الدين؛ من إخلاص الدين لله وحده وتعليق الرغبات والرهبات بالله، وألا يرجو ولا يطيع إلا بفضل الله وكرمه وتعليق ذلك بالمخلوقين، والذين لا يملكون لأنفسهم- فضلًا عن غيرهم- نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وقل له: إذا كان الرب هو الذي خلقنا ورزقنا وهدانا وعافانا وتفضل علينا بالنعم الظاهرة والباطنة، ألا يجب علينا أن يكون هو معبودنا، وهو الذي نحمده ونشكره ونبذل له ما في وسعنا واجتهادنا؟ ومع ذلك فإننا لا نبلغ بذلك مقابلة أدنى نعمة من نعمه علينا، فهل يليق بنا أن نصرف شيئًا من ذلك في شكر غيره وعبودية غيره؟ لا والله إن هذا أمر يستقبحه الشرع والعقل والفطرة.

وقل للشاك في تعاليم الدين الراقية: أليس الدين الإسلامي يحث المسلمين أن يكونوا إخوة متآلفين متفقين على دينهم وعلى أصوله وعلى جميع مصالحه ويرغبهم في هذا الأصل غاية الترغيب ويذكر لهم ثمرات ذلك العاجلة والآجلة ويزجرهم أشد الزجر عن كل ما ينافي ذلك من التباغض والتدابر والتقاطع، ويخبرهم أن إصلاح ذات البين هو السبب والطريق لصلاح الأحوال، كما أن فساد ذات البين هو السبب في الأضرار الدينية والدنيوية، فهل يوجد طريق لصلاح الأحوال الكلية غير هذا الطريق الذي يرشد إليه الدين بجميع وجوهه؟

وقل للشاك في كمال الدين إذا قال: نحن نعترف بما احتوى عليه الدين الإسلامي من الإصلاحات الدينية والقلبية أو الأخلاقية، وما احتوت عليه أحكامه من العبادات والمعاملات من الحسن الذي لا مزيد عليه ولا يمكن أن تقترح العقول أحكامًا مثل أحكامه فضلًا عن كونها تقترح أعلى من أحكامه، ولكن نشك في احتوائه على المنافع الدنيوية وعلى الصناعات وعلى علوم السياسة .

فأجبه قائلًا: أليس فيه قواعد وأصول من علم الاجتماع والسياسة لا يمكن أن يخترع المخترعون أحسن منها؟ أليس فيه الأمر بالمشاورة في جميع الأمور الداخلية والخارجية؟ فما

المقصود من المشاورة إلا النظر في المصالح والمضار والخير والشر وتقديم ما تعينت مصلحته أو ترجحت، واجتناب ما تعينت مضرته أو ترجحت، فالسياسة الحكيمة كلها ترجع إلى الشورى في الأمور، ألم يقل الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]؟ أي سخر لنا جميع ما في الأرض لننتفع بغرسها وزرعها وحرثها واستخراج معادنها والانتفاع بصناعاتها، وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فأطلق المنافع فشملت المنافع الدينية والمنافع الدنيوية خصوصًا منافع الأسلحة المتنوعة التي تجري مع الزمان والأحوال والصناعات التي ينتفع بها الناس في كل شيء، ألم يقل الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟ فهذا يدخل فيه كل قوة عقلية وسياسية وتعلم الفنون الحربية والركوب والرمي وتوابع ذلك، وكذلك أمر بأخذ الحذر من الأعداء، وذلك بالتخلص والتحصن والتحرز منهم بكل وسيلة تحصل بها الوقاية والتحرز، وكم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بالجهاد ومقاومة الأعداء فيدخل في ذلك كل وسيلة تعين على الجهاد في سبيل الله؛ فعلم بذلك أن الدين الإسلامي قد احتوى على جميع المصالح والخيرات العاجلة والآجلة والنفع الكلي والجزئي والديني والدنيوي، فهذه كلمات كليات يعرف تحقيقها بتتبع الأنواع والأجناس والأفراد وتحقيق الأمر فيها، وهذا من أكبر الآيات والبراهين أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومما يدل على عظمة هذا الدين أن الله أباح جميع الطيبات من المآكل والمشارب والملابس والمناظر والمناكح والتمتعات، وحرم كل خبيث من هذه الأمور ضار لصاحبه وللمصلحة العمومية، وأنه ما أمر بشيء فقال العقل الصحيح الحر: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به. ولا أخبر بما تحيله العقول، بل إخباره نوعان: نوع تشهد العقول بصحته وكماله وفضله، ونوع لا تهتدي إليه ولا تعرفه لعدم وصولها إليه؛ لكونه من عالم الغيب الذي لم تشاهده ولا شاهدت نظيره، وهذا النوع قد أرى الله عباده في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على صدق ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب السماوية.

من نظر وأمعن النظر في هذه الأصول التي تلوناها ونبهنا عليها تنبيهًا مختصرًا علم علمًا يقينيًّا أن الدين الإسلامي هو الدين الحق في علومه وعقائده وأخلاقه وأعماله وسياسته وحسن معاملته للخلق، وإحسانه إلى الموافق والمخالف، وأنه يدعو إلى سبيل الحق بالحكمة التي هي سلوك الطرق والوسائل القولية والفعلية التي يستعان بها على الدعاية إلى سبيل الله الذي هو الصراط المستقيم، وأنه يأمر باللين وعدم المخاشنة في مخاطبة المحاربين للدين، فكيف بذلك مع المؤمنين؟ فيقول لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. ثم انظر إلى ما يخاطب الله به أعداءه الكفار وتخاطبهم الرسل فإنه الطريق الأقوم لهذا الطريق والدعاية إلى الخير، وبه يحصل من المنافع ودفع المضار ما لا يحصل بالمخاشنة والمشاتمة؛ فإنها طريقة الجاهلين الحمقى وإن حسنت مقاصدهم، فقد ساءت طرائقهم.

وهذا آخر ما يسر الله من هذه الرسالة الأصولية المحتوية على قواعد وأصول مختصرة جامعة، ونسأله تعالى أن يثبتنا على دينه وصراطه المستقيم إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، ونقلته من خط شيخنا المكرم متع الله لنا بحياته، وأنا الفقير إلى رب البريات عبده وابن عبده عبد العزيز بن صالح بن دامغ، وذلك بغاية من العجلة.

حرر في ١ جمادى الثاني سنة ١٣٦٦هـ.

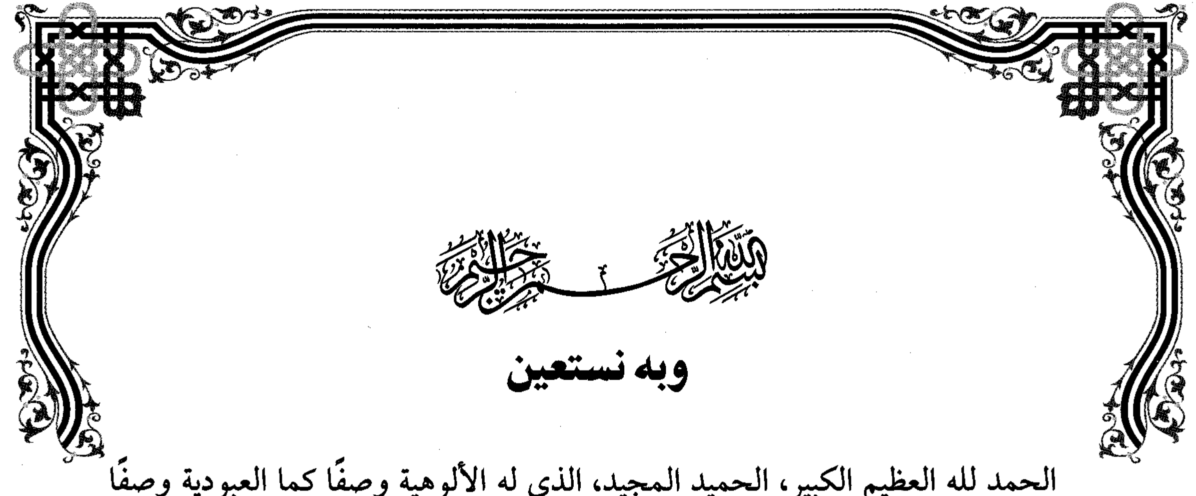


التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تم الاعتماد في تحقيق هذا الكتاب على عدة طبعات
أبرزها نشرة الشيخ
محمد بن سليمان بن عبد العزيز البسام
رحمه الله





وبه نستعين

الحمد لله العظيم الكبير، الحميد المجيد، الذي له الألوهية وصفًا كما العبودية وصفًا للعبيد، الموصوف بالأوصاف الكاملة العليا، المدعو بالأسماء الحميدة الحسنى، الذي له كل كمال وجلال وجمال، ولديه كل إحسان ونعمة وإفضال، الذي خلق الخلق وأدرَّ عليهم واسع الرزق ليقوموا بتوحيده ومحبته وعبادته، فيثيبهم ويتم عليهم نعمته بأصناف كرامته، أحمده على ما له من وصف عظيم، وإحسان جسيم، وبر وتكريم، وأشهد أنه الإله حقًّا، الذي دل على توحيده جميع أدلة من العقل والنقل، وأذعن لعبوديته أهل الكمال والفضل. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضل العارفين، وأجلُّ الموحدين، وواسطة عقد نظام الأنبياء والمرسلين، وهو الإمام الكامل لجميع العابدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، وأوجدهم للقيام بمعرفته ومحبته، وبيَّن لهم في كتبه المنزلة من السماء وعلى ألسنة رسله تبيينًا كافيًا، وأوضح لهم جميع الطرق الموصلة إلى هذه الغاية الفاضلة توضيحًا وافيًا، خصوصًا في القرآن العظيم وعلى لسان محمد النبي الكريم، فإن في القرآن والسنة من تفاصيل معرفة الله بأسمائه وصفاته وتوحيده ما ليس في غيرهما، فتعين على العباد الإقبال عليهما، والتدبر والتفكر فيهما، إذ لا سبيل لهم إلى معرفة ما خلقوا له إلا بمعرفتهما، ولا طريق لهم إلى الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته إلا بالقيام بحقهما.

ولما كان الباري تعالى قد امتن على هذه الأمة بعلماء ربانيين، وفضلاء متقنين، قد بذلوا نفائس أعمارهم، وأعملوا جواهر أفكارهم في استخراج كنوز الوحي ومعانيه، وحل ألفاظه المعصومة ومبانيه، فحصل لهم به علم كثير وفضل غزير، وصاروا الهداة لأمة الأئمة، واقتدى

بهديهم وسيرهم وطريقتهم جميع أصناف الأمة. وممن له في هذا الشأن القدم العليا، والقدح المعلى، والباع الأعلى: الإمامان العظيمان، والحافظان الثقتان، شيخ الإسلام تقي الدين الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، والإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، قدس الله أرواحهما، فإنه قد حصل لهما من العلم والفهم للكتاب والسنة واستخراج علومهما ما فاقا فيه كبار العلماء، وسبقا فيه الجهابذة النبلاء، خصوصًا علم التوحيد والعقائد السلفية، فإن الله منَّ على المسلمين بهما، فبينا لهم من ذلك ما لم يبينه أحد، ونصرا مذهب أهل السنة والحق نصرًا عظيمًا، ودحضا مذاهب الضالين والمبتدعين، فصنفا في ذلك المصنفات التي سارت في مشارق الأرض ومغاربها، وانتفع بها الموافق والمخالف. ومعرفة كتبهما والوقوف عليها فيه كفاية لمعرفة أقدارهما وعلو مراتبهما.

ولما كانت الكافية الشافية لشمس الدين ابن القيم قد اشتملت على ما لم يشتمل عليه كتاب في فن التوحيد والعقائد والأصول، واحتوت على تفاصيل كثيرة لا توجد في سائر الكتب، حتى كتب مؤلفها، وكان قد تكرر عليَّ الطلب من بعض الأصحاب في وضع تعليق عليها، فرأيت ذلك من الأمور المتعسرة عليَّ؛ لأنه يستدعي وقتا كثيرًا، ويشغلني عمَّا هو أهم عندي منه. ثم استخرت الله تعالى على وضع شرح لطيف على توحيد الأنبياء والمرسلين منها، ومتعلقاته ما هو أهم ما فيها وأحسنه، والحاجة بل الضرورة ماسة إلى معرفته، وربما كان الاقتصار عليه أولى وأنفع من السعي في شرح جميعها لأمور كثيرة، وأكثرت فيه من النقل لعبارات المؤلف في كتبه التي فيها إيضاح وتبيين يعين على فهمها؛ لأنه أحسن ما يشرح كلامه بكلامه، فجاء بحمد الله كتابًا وافيًا بمقصوده، محتويًا على جواهر نفائس علم التوحيد، الذي هو أشرف العلوم على الإطلاق.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم رءوف رحيم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



فصل

في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة، الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته، وأدلته وبراهينه، وآثاره الفاضلة، فهو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، وأقام الأدلة والبراهين على صحته، وتعينه طريقًا للنجاة، وأنه لا خير ولا سرور ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بسببه، وهو الذي أعد الله لأهله ومن قام به أنواع الكرامات، ولمن لم يقم به أنواع العقوبات، وهو الذي عليه المدار والأساس لجميع الأعمال، فكل عمل غير مبني على التوحيد فهو باطل مضمحل، وكل بناء بني على غيره فهو بناء على شفا جرف هار، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق، وأكملهم عقولًا وآراء، وأجمعهم للمحاسن، وهم الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم.

ونبذه ورده كل ملحد ومعطل، ممن مرجت أديانهم، وفسدت عقولهم، واكتسبوا شر الأخلاق، وعطلت قلوبهم من معرفته ومحبته، وألسنتهم من ذكره، وجوارحهم من طاعته، ممن خالفوا الأنبياء والمرسلين في توحيدهم وطريقهم في الدليل والمدلول، فتوحيد الأنبياء والمرسلين مشتمل على الحق والصدق، المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح، وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل، مؤيد بالشبه التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي على جهل أهلها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثم اجعله داخـل كفة الميزان
مـع هـذه الأنــواع وانـظـر أيها أولى لدى الميزان بالرجحان

وهذا لأن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويبين بمعرفة الباطل، فإنك إذا وزنت بميزان العقل الحقيقي والفطرة الأولى التي لم تغير، والقواطع الدالة على الحقائق - توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد غيرهم، وجدت بينها من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل، وكيف يوزن توحيد المعطلين والملحدين، المشتمل على مسبة رب العالمين ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق أوصافه الكاملة، والافتراء عليه وعلى رسله وكتبه، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساويًا للخالق الكامل من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المشتمل على تعظيم رب العالمين وتقديسه، والثناء عليه بأكمل الثناء، ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التمثيل والتشبيه، ومشاركة أحد من المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة. وكيف يوزن توحيد يرقى بمن قام به إلى أعلى عليين بتوحيد ينزل بصاحبه إلى أسفل سافلين؟ أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًّا وطاهرًا مرضيًّا بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال، وأرذل الخصال، والشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي؟

توحيدهم نوعان قولي وفعـ ـلي كـلا نـوعـيـه ذو بـرهـان

يعني أن توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلي، وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي في آخر هذه الفصول، وهو المعبر عنه بتوحيد العبادة، وبتوحيد الألوهية. وسمي توحيدًا فعليًّا؛ لأنه يتضمن أفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وألا يتخذ له شريك ولا ند.

والثاني: التوحيد القولي المشتمل على أقوال القلوب، وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، والثناء على الله به. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات، الذي يدخل فيه توحيد الربوبية، وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف

رحمه الله بالتوحيد القولي فقال:

فالأول القولي ذو نوعين أيـ ـضًا في كتاب الله موجودان
إحداهما سلب وذا نوعان أيـ ـضًا فيه مذكوران
سلب النقائص والعيوب جميعها عنه هما نوعان معقولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله: **أحدهما**: سلب، أي نفي للنقائص والعيوب عن الله، **والثاني**: إثبات الصفات الكاملة لله، كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب؛ لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود إثبات صفات المدح والحمد، وكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص فإنه متضمن للمدح والثناء بضد ذلك النقص، من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين، ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصل ومنفصل هما نوعان معروفان أما الثاني
سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ ـع بدون إذن الخالق الديان
وكذاك سلب الزوج والولد الذي نسبوا إليه عابدو الصلبان
وكذاك نفي الكفء أيضًا والولي لنا سوى الرحمن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص ويسلب عنه من العيوب، نوعان:

سلب لمتصل، وضابطه: نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، كما سيأتي.

وسلب لمنفصل، وضابطه: تنزيه رب العالمين أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره، وذلك كنفي الشريك لله، فإن الله متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له شريك في الملك، وليس له أيضًا ظهير؛ أي عوين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوتهم

إلا بالله، فالشريك والظهير منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه ينفى عنه أن يشفع أحد عنده على وجه يكون نقصًا في حق الله، كأن يشفع عنده أحد بغير إذنه؛ كما يشفع الوزراء عند الملوك والسلاطين. وأما الشفاعة عنده بإذنه فإنها ثابتة، كما أثبتها الله في عدة مواضع من كتابه؛ وذلك لأنها دالة على كمال رحمته تعالى وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أمره بالشفاعة فيه، ومع هذا فلا يأذن لأحد بالشفاعة إلا فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا متابعًا للرسول. قال تعالى نافيًا هذه المراتب الثلاثة: الملك والشركة فيه، والعوين له، والشفاعة بغير إذنه عن كل من عبد من دونه من أهل السماء وأهل الأرض: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. فقطع في هذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وأن من كان بهذا الوصف لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله - لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك يسلب وينفى عن الله الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصلبان، وهم النصارى، حيث قالوا: المسيح ابن الله، وكذلك نسبه إليه عباد الأصنام، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من أثبت له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾[الإخلاص: ١ - ٤]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[التوبة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ

مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١]... إلى غير ذلك من الآيات النافيات عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون فقراء إليه. فمن كان كذلك فمن أين يتخذ الصاحبة أو الولد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقول المصنف:

.... نسبوا إليه عابدو الصلبان

هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر، فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان.

وقوله:

وكــذاك نـفـي الـكـفـؤ أيـضًـا ....

أي يتعين أن ينفي عن الله الكفؤ، الذي نفاه عن نفسه في قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. فلا تجعلوا لله الأنداد، ليس كمثله شيء، فليس أحد من الخلق مكافئًا لله، أي مساويًا له في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال؛ لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمله ربه بكماله اللائق به، فليس أحد له صفات تقارب صفات الله، أو له أفعال تشبه أفعال الله، بل

ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلًا، حتى يعينه الله على أفعاله؛ ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئته، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وكذلك مما ينفى عن الله أن يكون لنا ولي من دونه يحصل لنا المطالب الدينية والدنيوية، أو يدفع عنا مضار الدين والدنيا، بل ليس لنا ولي إلا هو، فهو الذي تولى خلقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة، فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير، الشاملة للبر والفاجر. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]. والولاية الخاصة هي ولايته للذين آمنوا وكانوا يتقون، يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكذلك لا يتخذ أحدًا من خلقه وليًّا من الذل، لكمال اقتداره وعظمته، بل يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا منه إليهم، يحبهم ويحبونه، والحاصل أنه ليس أحد من الخلق مساويًا لرب العالمين، أو مماثلًا أو عوينًا أو وزيرًا بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن ... وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ... ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله ... وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله، وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص يناقض كمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال القدرة، منزه عمَّا يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفًا بشيء من ذلك لكان ناقص القدرة. قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ

أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[ق: ٣٨].

وهو تعالى موصوف بالحياة الكاملة التامة، منزه عمَّا يضادها من النوم والنعاس الذي هو أصل النوم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[البقرة: ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**»[١].

وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء، يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ومنزه عن كل ما ينافي ذلك، فلا يعزب؛ أي يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]. وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ... ـمته وحمد الله ذي الإتقان

وكذاك ترك الخلق إهمالًا سدى ... لا يبعثون إلى معادٍ ثاني

كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ... ـهم من إله قادر ديَّان

أي وكذلك ينزه الله عن العبث في الخلق والأمر، وأنه خلق شيئًا عبثًا وباطلًا، أو شرع شيئًا عبثًا، لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المخلوقات وإحكامها، وإحسان المأمورات على أكمل وجه وأتمه، وهذا أمر مشهود في الخلق والأمر، تحير حكمته الألباب، ويستدل بما بان من الحكمة فيها على ما خفي على العباد، ومن تمام الحكمة أنه لم يخلق الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي بالبعث بعد الموت، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية، ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيهم أحكام الجزاء

(١) مسلم (٢٩٣).

والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. أي عن هذا الظن والحسبان، لأنه لا يليق بجلاله. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٨]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه مهملًا سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

وكذاك ظلم عباده وهو الغني فما له والظلم للإنسان

أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الظلم للعباد، بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا: فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، وأما الله تعالى الغني عن خلقه من جميع الوجوه، العادل الحميد، فما له وظلم العباد؟ قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. وقال تعالى على لسان نبيه محمد: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**». رواه مسلم من حديث أبي ذر[(١)].

وكذاك غفلته تعالى وهو عـ ـلام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جل إلهنا لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورز ق وهو رزاق بلا حسبان

أي وكذلك ينزه الله تعالى عن الغفلة والنسيان، لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط، لا يعرض له ما يعرض لعلم غيره، من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها أو الذهول عنها. كما قال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وكذلك ينزه

(١) مسلم (٢٥٧٧).

تعالى عن احتياجه إلى الطعام والرزق، لأنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق، الغني عنهم، وكلهم فقراء إليه محتاجون إليه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

هذا وثاني نوعي السلب الذي	**هو أول الأنــواع في الميزان**
تنزيه أوصــاف الكمال له عن الـ	**ـتشبيه والتمثيل والنكران**
لسنا نشبه وصـفـه بصفاتنا	**إن الـمـشـبـه عـابـد الأوثــان**
كـلا ولا نخليه مــن أوصــافـه	**إن المعطل عـابـد البهتان**
أو عطل الرحمن من أوصافه	**فهو الكفور وليس ذا إيمان**
من مثل الله العظيم بخلقه	**فهو النسيب لمشرك نصراني**

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي، في الميزان أي في هذه القصيدة. وتقدم النوع الأول من قسمي السلب، وهو السلب المتصل والمنفصل، المتضمن لتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به، وعما يناقض كماله. وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله، عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علم الله أو قدرته كعلم الخلق أو قدرهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، ونحو ذلك؛ فإن هذا كله تشبيه لله بالخلق. ومن كان بهذا الحال فإنه يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده، كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم، جعلوه إلههم ومعبودهم، فالمشبه نسيب ومشبه للنصراني، ورب العالمين فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين، فصفاته لا تشبهها صفاتهم.

وعن تعطيل صفاته ونفيها، كما فعلته الجهمية المعطلة ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة، الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن

ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبدًا للعدم المحض، لأنه لا يعقل ذات ليس لها صفة ولا نعت، ولا يعقل من قول الجهمية ومن تبعهم: «إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه» إلا العدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به. ولهذا قال المصنف

.... **فهو الكفور وليس ذا إيمان**

ولكن سيأتي إن شاء الله في كلام المصنف حكم الجهمية وغيرهم من المعطلة، والتمييز بين من يكفر منهم ومن يعذر بتأويله.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبه، ومعطل.

فالمؤمن الموحد يصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من صفات الكمال، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله.

والمشبه هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله، **والمعطل** هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المشبه والمعطل قد حُرِمَ الوصول إلى معرفة ربه على وجهها، وابتلي بالتكلف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه الفطر التي لم تغير، والعقول المستقيمة، فلا معقول لديهم ولا منقول.

وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطوائف من المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأله الهداية لأقوم الطرق وأهداها.

فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف القسمين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت حيث قال:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو صاف الكمال لربنا الرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إثبات كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية والنصوص النبوية، ثم شرع يفصل شيئًا منها، فقال:

كعلوه سبحانه فوق السما وات العلى بل فوق كل مكان

فهو العلي بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا ببيان

وهو الذي حقًّا على العرش استوى قد قام بالتدبير للأكوان

أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها، فقد دل عليها مع النصوص الكثيرة العقل الصريح، فإنه عليٌّ بذاته فوق جميع مخلوقاته، ويستحيل ألا يكون عليًّا، فإنه يستحيل ويمتنع أن يكون هو نفس المخلوقات، ويمتنع أيضًا أن يكون حالًّا فيها، فتعين أن يكون فوقها مباينًا لها.

وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل صريحًا، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وسئل الإمام مالك -رحمه الله- عن كيفية الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. والسؤال عنه (أي عن الكيفية) بدعة، فكما أنه تثبت لله صفاته على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء من جملة أوصافه الفعلية،

فاستوى على العرش، واحتوى على جميع الملك، يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يوجد شيء إلا بمشيئته. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾. وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس: ٣].

حي مريد قادر متكلم ... ذو رحمة وإرادة وحنان

أي: هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، لا تأخذه سنة ولا نوم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وهو المريد القادر؛ أي: كامل الإرادة والقدرة، وجمع بينهما لأن جميع الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء والنزول إلى السماء الدنيا والمجيء يوم القيامة ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه: كالإحياء والإماتة والخلق، وجميع أنواع التدبير، وجميع الأقوال تصدر عن القدرة والإرادة، فما وجد عُلم أن الله أراده وخلقه، وما لم يوجد علم أن الله لم يرده، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا كان كامل القدرة والإرادة علم أنه ما في الكون من حول وقوة إلا مستفادة وتابعة لحول الله وقوته.

متكلم؛ أي: لم يزل ولا يزال موصوفًا بالكلام، فيكلم بما أراد، كيف أراد، وحيث أراد.

ذو رحمة وحنان؛ أي: قد اتصف بالرحمة، وعم خلقه بالنعم والإحسان، والبر والحنان، واللطف والامتنان.

هو أول هو آخر هو ظاهر ... هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده ... شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه ... شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبر ... وتبصر وتعقل لمعاني
وانظر إلى ما فيه من أنواع معـ ... ـرفة لخالقنا العظيم الشان

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وقال

النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء...**» الحديث[1].

ولهذا فسر المصنف هذه الأسماء الأربعة المباركة بما فسرها به النبي ﷺ وقال: «وذا تفسير ذي البرهان» أي تفسير الرسول الذي كلامه أعلى مراتب البيان والإيضاح بعد كلام الله تعالى، فإنه مشتمل على إثبات معانيها ونفي ما ينافيها ويضادها. وحث المصنف على تدبر هذه الأسماء الأربعة وتعقل معانيها، وأنها مشتملة على أمور عظيمة من أنواع معرفة الله تعالى، التي بها تحيا القلوب وتستنير الأفئدة، فلنسق كلام المؤلف في **سفر الهجرتين** على هذه الأسماء الأربعة فإن فيه الشفاء والكفاية.

قال رحمه الله على كلام شيخ الإسلام الأنصاري في قوله: الثانية الرجوع إلى فضل الله، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط، فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأعمال والأقوال الشريفة والمقامات العلية، وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته، وكان سبحانه هو الأول في ذلك كله، كما أنه الأول في كل شيء، وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر في كل شيء، فمن عبده باسمه الأول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرا وباطنا، فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف والالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده؛ وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا، فمنه سبحانه الإعداد، ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزل اسمه «الأول» على هذا المعنى أوجب له فقرًا خاصًّا وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه «الآخر» تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها،

---

(١) مسلم (٢٧١٣).

فإنها تعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق ألا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به، كما نظر العارف إليه بسبق الأولية، حيث كان قبل الأسباب كلها، فكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية، حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه، دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدي بالفضل، حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره. وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرئ، فكما كان واحدًا في إيجادك فاجعله واحدًا في تألهك إليه لتصح عبوديتك، كما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه، لتصح عبوديته باسمه الأول والآخر. وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي ﷺ بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1]. فإذا تحقق للعبد علوه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. صار لقلبه أَمَمًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجه إليه. بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنه ضائع مشتت القلب، ليس لقلبه

(١) مسلم (٢٧١٣).

قبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده.

وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبد طلب قلبه إلهًا يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلى له ويُسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب ولا يرفع إليه العمل الصالح، جال قلبه في الوجود جميعه، فوقع في الاتحاد ولا بد، وتعلق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات، فاتخذه إلهه من دون إله الحق، وظن أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله، ولخيال نحته بفكره، واتخذه إلهًا من دون الله سبحانه، وإله الرسل وراء ذلك كله ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٣، ٤].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٤ -٩]. فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقر به.

والمقصود أن التعبد باسمه «الظاهر» يجمع القلب على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه. فإذا استقر ذلك في قلبه، وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه «الباطن» فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكل اللسان عن وصفه، ثم تصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة

عنه، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف، فمن رزق هذا فهم معنى اسمه «الباطن»، وصح له التعبد به. وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبو الأفهام عنه، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج، إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونورًا يميز به بين الهدى والضلال، وفرقانًا يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين اسم العلو، الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]. وقال ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥]. وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص بين عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فهذا قربه من داعيه، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. فذكَّر الخبر وهو قريب، عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل**»[1]. فهذا قرب خاص، غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي **الصحيح** من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير، فقال: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[2]. فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني: فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب؟! وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر.

وقد تستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلجه، وسببه ضعف تمييزه، وقوة سلطان المحبة، واستيلاء المحبوب على قلبه، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول: سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذره، لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا المعنى فليضرب عنه صفحًا إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

(١) مسلم (٢١٥).

(٢) البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها، فإن المحب كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره، ويفنى عن غيره، ويرق قلبه، وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب به، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي، لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد، وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار، والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية، وإن كان مطابقًا لها، لكن المثال العلمي محله القلب، والحقيقة الخارجية محلها الخارج.

فمعرفة هذه الأسماء الأربعة - وهي الأول والآخر والظاهر والباطن - هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه. واعلم أن لك أنت أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فإحاطة أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وإحاطة ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن،

فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قِدَمُهُ، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد آخر كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

هذا آخر كلام المصنف رحمه الله، وهو في غاية النفاسة في هذا الموضع، وكرر العبارات المتنوعة لأجل أن يفهم المعنى فهمًا صحيحًا تامًّا، لأن هذا الموضع من أهم المواضع وأعظمها حاجة.

وهو العلي فكل أنواع العلـ ـــو له فثابتة بلا نكران

يعني أن الله تعالى هو العلي، الذي له جميع أنواع العلو ثابتة شرعًا وعقلًا، بلا إنكار ولا تعطيل لشيء منها، فله علو الذات لأنه فوق المخلوقات، فوق العرش العظيم، قد باين العالم العلوي والسفلي، وله علو القدر، وهو علو صفاته وعظمتها، بحيث كانت صفاته عالية عظيمة، لا يماثلها ولا يقاربها صفة شيء من المخلوقات، بل لا يقدر الخلق كلهم أن يحيطوا علمًا ببعض صفاته. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وله علو القهر، فعلا على جميع المخلوقات وقهرها، فكلها تحت قبضته، ونواصيها بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، ولو اجتمعوا على إيجاد فعل أو حركة لم يردها الله لم يقدروا على ذلك، وذلك لكمال اقتداره وعظمته، وشدة افتقار المخلوقات إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب الـ ـتعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، بحيث لا يقدر إنسان ولا مخلوق أن يحصي الثناء على الله بعظمته. ومعاني التعظيم نوعان:

أحدهما: أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال الذي وصف به أكمله وأعظمه وأجله، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء والعظمة، حتى إن من عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن كالخردلة في يد المخلوق، كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٤، ٥]. وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئًا منهما عذبته»**[1]. وقال النبي ﷺ: **«جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن»**[2]. فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقادر قدرهما، ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد التعظيم من الخلق غيره تعالى، فيستحق على العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه وإجلاله ألا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه، بل يُخضع لحكمته، وينقاد لحكمه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان

---

(١) أبو داود (٤٠٩٠).
(٢) أحمد (١٩٧٣١).

من بعض آثار الجميل فربها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان

فجماله بالذات والأوصاف والـ ... أفعال والأسماء بالبرهان

لا شيء يشبه ذاته وصفاته ... سبحانه عن إفك ذي بهتان

يعني أن الله تعالى هو الجليل الذي له جميع أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء، ثابتة لله محققة، لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو الجميل بالذات والأوصاف والأفعال والأسماء، فإن ذاته تعالى لها من الجمال ما لا يمكن مخلوقًا أن يعبر عن بعض جماله، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم الذي لا يوصف، واللذات التي لا يقادر قدرها، والأفراح والسرور، إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لَو تدوم لهم هذه الحال، واكتسوا من جماله جمالًا إلى جمالهم، وكانت قلوبهم دائمًا في شوق ونزوع إلى رؤية ربهم، حتى إنهم يفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه؛ لأن أسماءه كلها حسنى، بل هي أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ولهذا لا يسمى باسم محتمل لمدح وغيره، بل لا يسمى إلا بالأسماء الدالة على غاية المدح والحمد.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال، ونعوت ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والإحسان والجود والكرم. وكذلك أفعاله تعالى كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويشكر ويثنى عليه بها، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها الحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا ظلم، بل كلها هدى ورحمة وعدل ورشد. ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧].

ثم استدل المصنف -رحمه الله- بدليل عقلي على جمال الباري، فقال: كيف لا، أي: كيف لا يكون جميلًا والحال أن جمال جميع الأكوان من بعض آثار الجميل، فربها الذي أعطاها الجمال أحق وأجدر منها بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، مما تبهر له العقول، وتحير له الأفئدة، خصوصًا ما يعطى أهل الجنة في الجنة من الجمال، لهم ولنسائهم اللاتي لو بدا كف واحدة منهن إلى الدنيا لطمس نوره نور الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنَّ عليهم بذلك الكمال أحقَّ منهم به؟

فهذا دليل عقلي واضح مسلَّم المقدمات على هذه المسألة العظيمة. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠]. أي كل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا فإن معطيه أحق به من المُعطَى، بما لا نسبة له بينه وبينهم إلا كنسبة ذواتهم إلى ذاته، وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والعلم والقدرة والجمال والكمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: **«لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»**[1]. وقال: **«حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[2].

ولهذا قال المؤلف:

لا شيء يشبه ذاته وصفاته ... سبحانه عن إفك ذي بهتان

سبحانه؛ أي: تنزه وتقدس. إفك ذي بهتان؛ أي: كذب المفترين، الذين لم يقدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق عظمته، حين عطلوا أوصافه التي نطقت بها الكتب، وصرحت بها الرسل، وحسبهم خسارًا ومقتًا أن حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل؛ لأن تمام التعبد لله هو التعبد له بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل

(١) أبو داود (١٤٢٧). (٢) مسلم (١٧٩).

يقتضي محبته والتأله له، وأن يبذل له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث تسبح القلوب في رياض معرفته وميادين جماله، وتبتهج بما يحصل لها من آثار جماله وكماله، فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيد صفاته أوصاف تعـ ـظيم فشأن الوصف أعظم شان

يعني أن معنى اسمه «المجيد» أنه عظيم الصفات واسعها، فكل وصف من أوصافه فشأنه عظيم، فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه.

قال المصنف في **بدائع الفوائد**[1]: فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفًا، ومنه: رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علَّمَنَاه ﷺ يعني قوله: **«اللهم صل على محمد، وبارك على محمد، إنك حميد مجيد»**[2]. لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في **المسند والترمذي**: **«أَلِظُّوا[3] بيا ذا الجلال والإكرام»**[4]. ومنه: **«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال**

---

(١) ١/ ١٦٠.

(٢) أحمد (١٣٩٦).

(٣) أي: الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم.

(٤) أحمد (١٧٥٩٦)، والترمذي (٣٥٢٤).

والإكرام»[1]. فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله. انتهى كلامه.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما	في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر	فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا	يخفى عليه بعيدها والداني
وهو البصير يرى دبيب النملة الـ	ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها	ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها	ويرى كذاك تقلب الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين «السميع، البصير». وكثيرًا ما يقرن الله بينهما، كمثل قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]. فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها - سرها وعلانيتها - حتى كأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تغلطه اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية كلها عنده سواء. قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] .وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآية.

---

(١) أحمد (١٢٢٠٥).

وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وإحاطته بها إحاطة تامة.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والعابدين والمتضرعين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قول العبد في صلاته: سمع الله لمن حمده، أي استجاب الله لمن حمده وأثنى عليه وعبده، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ثم قال المصنف: «وهو البصير». أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون منها، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى جميع أعضائها الظاهرة والباطنة، حتى إنه يرى سريان القوت في أعضائها الصغار جدًّا، ويرى سريان المياه في الأشجار وأغصانها وعروقها وجميع النباتات، ويرى نياط عروق النملة والبعوضة وأصغر من ذلك. فتبارك من تنبهر العقول عند التأمل لبعض صفاته المقدسة، وتشهد البصائر كماله وعظمته ولطفه، وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب والخفي والجلي، ويرى تعالى خيانات العيون بلحظها، أي حين يلحظ العبد منظرًا يخفيه على جليسه، فالله تعالى يراه في تلك الحالة التي يحرص على إخفاء ملاحظته عن كل أحد، ويرى تقلب الأجفان حين يقلبها الناظر من آدمي أو ملك أو جني أو حيوان، وحين يطبقها ويفتحها. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦]. أي مطلع، ومحيط علمه بجميع المعلومات، وسمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المرئيات ما نبصره وما لا نبصره.

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان

وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان

وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ـــف يـــكـــون ذا إمـــكـــان

هذا تفسير للعليم بأحسن تفسير وأجمعه، فهو تعالى العليم الذي له العلم العام للواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم نفسه الكريمة وصفاته المقدسة ونعوته العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فهذا ونحوه من ذكره للممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير. ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها، ما وجد منها وما لم يوجد ما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، بحيث لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن والجلي والخفي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]. وفي غيرها، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٤]. وقال تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على شمول علم الله لكل شيء، وأنه لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن، ولا بعيد ولا قريب، ولا يغفل عنه ولا ينساه، ولا يعرض لعلمه ما يعرض لعلم غيره، فإن علم المخلوق يعرض له عدم الإحاطة، ويعرض له النسيان لما علمه. والله تعالى كما قال المصنف:

.... فهو المحيط وليس ذا نسيان

كما قال تعالى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وقال الخضر - الذي قد علمه الله من لدنه علما كثيرًا، وخصه من علم الباطن بما ليس لموسى ولا لغيره - لموسى كليم الرحمن أعلم الخلق على الإطلاق بعد محمد وإبراهيم عليهم السلام، لما لقي الخضر ليتعلم منه، مرًّا على البحر، فنقر عصفور من البحر بمنقاره، فقال الخضر لموسى: «**ما نقص علمي وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر**»[1].

ولما ذكر المصنف - رحمه الله - إحاطة علم الله بجميع الأكوان، ذكر إحاطته بجميع الأزمان الحاضرة والماضية والمستقبلة، فقال: «وهو العليم بما يكون غدًا»، أي: المستقبلات، «وما قد كان» أي مضى من جميع الأمور الماضيات، «والموجود في ذا الآن»؛ أي: الحاضرات كلها، دقيقها وجليلها، قد أحاط الله بها علمًا. ولما خلق الله القلم قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة[2]. ولهذا يجمع الله كثيرًا بين علمه المحيط وكتابته المحيطة بالأشياء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي

---

(١) البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠).

(٢) الطبراني (١٠٥٩٥).

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ أي من الأمور الماضية، ﴿ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ أي من الأمور المستقبلة، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١، ٥٢].

وحين تستكمل خلقة الآدمي يرسل الله إليه الملك، ويأمره بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف، وإذا مات الخلق وتفرقوا في جهات الأرض وفلوات القفار ولجج البحار وبطون الطيور والسباع، وصاروا رفاتًا، واضمحلت أوصالهم، وتلاشت أعضاؤهم فعلم الله محيط بهم ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴾ [ق: ٤]. فإذا نفخ في الصور أرسل الله كل روح إلى جسدها الذي كانت تعمره، ثم يوقفهم على كل ما عملوا من خير وشر، أحصاه الله ونسوه، فيعلم مقادير أعمالهم، ومقادير ثوابها وعقابها، ثم إذا استقر أهل الجنة بالجنة، وأهل النار بالنار، وجرت عليهم أحكام الجزاء، فعلم الله محيط بتفاصيل أحوالهم، وما هم فيه من النعيم والعذاب. فتبارك الله رب العالمين، ما أعظمه وأجله، وما أوسع صفاته وأكملها وأجملها.

وقول المؤلف:

وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ـــف يـكـون ذا إمـكـان

أي وكذلك يعلم تعالى الأمور التي لم تكن ولا تكون، من الممكنات التي لم يوجدها الباري ولن يوجدها، يعلم لو وقعت كيف تكون، وكيف ينشأ عنها. مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. فردهم لا يكون، ولو كان على الفرض والتقدير لعادوا لما نهوا عنه، فإن أخلاقهم التي اكتسبوا فيها الشر معهم وقد عمرهم الله عمرًا يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير، فسؤالهم هذا لا محل له، وهم كذبة أيضًا في هذا السؤال، لم يكن قصدهم إلا دفع العذاب الذي حتم عليهم، فقالوا ما قالوا. ومثل قوله: ﴿وَلَوۡ

أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]. ونحو ذلك من الآيات التي فيها الإخبار عن أمر لم يكن أنه لو كان لكان كذا وكذا.

فصل

وهو الحميد فكل حمد واقع أو كان مفروضًا مدى الأزمان

ملأ الوجود جميعه ونظيره من غير ما عد ولا حسبان

هو أهله سبحانه وبحمده كل المحامد وصف ذي الإحسان

عقد المصنف - رحمه الله - لهذا الاسم المبارك هذا الفصل على حدته، لشدة الاعتناء به وسعته وعظمته، فذكر أنه الحميد من وجهين:

أحدهما: من جهة حمد المخلوقات له، وذلك أنه كل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا وفي الآخرة، وكل حمد لم يقع من الخلق، بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان وتوالت الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا حسبان، فالله سبحانه أهله ومستحقه من وجوه كثيرة. منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع المكروهات إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، ويثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

والوجه الثاني: من جهة أن المحامد والمدائح والنعوت الجليلة الجميلة أوصاف لله تعالى، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها. فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله تعالى الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته؛ لأنها كلها مدائح وكمالات، وله الحمد لأفعاله؛ لأنها دائرة بين الفضل والإحسان، وبين العدل والحكمة.

قال المصنف - رحمه الله تعالى - في كتابه **سفر الهجرتين وباب السعادتين** لما ذكر الحكمة والقدرة:

فصل

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث، هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين، وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه. فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربنا ولك الحمد ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد**»[١]. فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السماء والأرض، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده، وذاك يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يملأ ما يخلقه الله بعد السماوات والأرض، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته، وملء ما تخلقه بعد ذلك.

الثاني: أن يكون المعنى ملء ما شئت من شيء بعد يملؤه حمدك، أي يقدر مملوءًا بحمدك وإن لم يكن موجودًا، ولكن يقال: المعنى الأول أولى، لأن قوله ما شئت من شيء بعد يقتضي أنه شيء يشاؤه، وما شاء كان، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له.

(١) أحمد (١٠٦٦).

فتأمله، لكنه إذا شاء كونه، فله الحمد ملؤه، فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد، فلا بد أن يكون شيئًا موجودًا يملؤه حمده. وأيضًا فإن قوله: «من شيء بعد». يقتضي أنه شيء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها، ولو أريد تقدير خلقه لقيل: وملء ما شئت من شيء مع ذلك، لأن المقدر يكون مع المحقق. وأيضًا فإنه لم يقل: ملء ما شئت أن يملأه الحمد، بل قال: ما شئت، والعبد قد حمد حمدًا أخبر به وأنشأه، ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب سبحانه، وما يشاء بعد ذلك، وأيضًا فقوله: «وملء ما شئت من شيء بعد». يقتضي إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك.

وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بملء المقدر، وأيضًا فإذا قيل: ما شئت من شيء بعد ذلك كان الحمد مالئًا لما هو موجود، يشاؤه الرب دائمًا، ولا ريب أن له الحمد دائمًا في الدنيا والآخرة، وأما إذا قدر ما يملؤه الحمد وهو غير موجود، فالمقدرات لا حد لها، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده، وتقدير ما لا نهاية له، كتقدير الأعداد، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة، بل قيل: ملء ما لا يتناهى، فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودًا مقدرًا، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها، فهذا كله مما يشاؤه بعد. وأيضا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته، وإما ظاهرة بمخلوقاته، فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها، فلا محامد فيه البتة، فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد، هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته، والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته، وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام، فجعل الحمد مالئًا له جعله مالئًا لما لا حقيقة له.

وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السماوات والأرض وما بينهما، فقالت طائفة: على جهة التمثيل، أي لو كان أجسامًا لملأ السماوات والأرض وما بينهما، قالوا: فإن الحمد من قبيل المعاني والأعراض التي لا تملأ بها الأجسام، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام.

والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالئ والمملوء، فإذا قيل: امتلأ الإناء ماء، وامتلأت الجفنة طعامًا. فهذا الامتلاء نوع، وإذا قيل: امتلأت الدار رجالًا، وامتلأت المدينة خيلًا ورجالًا. فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأ الكتاب سطورًا. فهذا نوع آخر، وإذا قيل: امتلأت مسامع الناس حمدًا وذمًّا لفلان. فهذا نوع آخر، كما في أثر معروف: أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه، وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له. وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود: كُنَيْف ملئ علمًا. ويقال: فلان علمه قد ملأ الدنيا، وكان يقال: ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علمًا، ويقال: صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق، وحبه قد ملأ القلوب، وبغض فلان قد ملأ القلوب، وامتلأ قلبه رعبًا، وهذا أكثر من أن يستوعب شواهده، وهو حقيقة في بابه، وجَعْل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تَحَكُّم باطل، ودعوى لا دليل عليها البتة، والأصل الحقيقة الواحدة، والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك. وليس هذا موضع تقرير المسألة.

والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم سوء، وأوصافه كلها كمال، ليس فيها صفة نقص، وأفعاله كلها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم، موصوف بصفة الكمال، منعوت بنعوت الجلال، منزه عن الشبيه والمثال، ومنزه عما يضاد صفات كماله، فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة، منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنى التام، منزه عما يضاده بوجه من الوجوه، ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي، وله الحمد كله واجب لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون

إلا إلهًا وربًّا وقادرًا.

فإذا قيل: الحمد كله لله فهنا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يحمد به المحمود التام، وإن كان بعض خلقه يحمد إذًا، كما يحمد أنبياؤه ورسله وأتباعهم، فذاك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله**»[1]. وهو سبحانه له الملك، وقد آتى من المملكة بعض خلقه، وله الحمد وقد آتى من الحمد ما شاء، وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه، فحمده أيضًا داخل في حمده، فما من محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية أيضًا، وإذا قال: اللهم لك الحمد، فالمراد به أنت المستحق لكل حمد، ليس المراد به الحمد الخارجي فقط.

المعنى الثاني: أن يقال: لك الحمد كله، أي الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله، وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء، أكمل حمد وأعظمه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد، فإنهم يقولون: إنه خالق كل شيء وربه ومليكه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة، فله الملك كله.

إلى أن قال:



(١) أحمد (٢٥٠١٩).

فصل

والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبلية، وما يقضيه من طاعة ومعصية، والله تعالى محمود على ذلك مشكور، حمد المدح وحمد الشكر. أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمد لله رب العالمين، وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه، والإحسان والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة، والطاعة من أجلِّ نعمه، وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضًا، وإن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للرب سبحانه، ولكنه يحب ما يترتب عليه من التوبة والاستغفار.

إلى أن قال: والمقصود أن الملك والحمد في حقه متلازمان، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته؛ ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره؛ لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده، فهو محمود على ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية، وحمد ثناء ومدح، ويجمعها التبارك، فتبارك الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته، وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جدًّا؛ لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد،

وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله وإحسانه إلى أوليائه حمد، والخلق والأمر إنما قام بأمره بحمده، ووجد بحمده، وظهر بحمده، وكان الغاية هي حمده، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله، فحمده روح كل شيء، وقيام كل شيء بحمده، وسريان حمده في الموجودات، وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

ثم ذكر الطرق الدالة على سريان حمده وشموله بتدبر أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، وأطال في ذلك، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

فصل

وهو المكلم عبده موسى بتكـ ـليم الخطاب وقبله الأبـوان

كلماته جلت عن الإحصاء والـ ـتعداد بل عن حصر ذي الحسبان

لو أن أشجار البلاد جميعها الـ أقـلام تـكـتـبـهـا بـكـل بـنـان

والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كـل زمـان

نفدت ولم تنفد بها كلماته ليس الـكـلام مـن الإلـه بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام موصوفًا، وبالبر والإحسان معروفًا، وهو الذي يتكلم بالكلام القدري الذي يوجد به الأشياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. ويتكلم بكلامه الشرعي الديني، الذي منه الكتب التي أنزلها الله على رسله، فهو الذي يتكلم بها حقًا، ونزل بها جبريل من عنده صدقًا، ليست بمخلوقة، بل هي من جملة صفاته تعالى.

وتكليمه لعباده نوعان: نوع بلا واسطة، كما كلم موسى بن عمران، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وكما كلم الأبوين آدم وحواء ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]. وكما نادى محمدًا ﷺ وخاطبه حين أسرى به، وكما يخاطب الله أهل الموقف، وأهل الجنة في الجنة حين يرونه، ويكلمهم ويكلمونه.

النوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة، إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما شاء، وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

واعلم أن صفة الكلام لله تعالى من صفاته الذاتية، من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية، حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته، فإذا كان معلومًا أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أجلِّ صفات الكمال، التي يستحيل على الله ألا يوصف بها، وكلماته تعالى غير متناهية، فلا تفنى ولا تبيد، فلو أن أشجار الأرض جميعها من عمرانها وقفارها وبحارها أقلام، والبحر تمده من بعده سبعة أبحر - مداد، فكتب بتلك الأقلام بذلك المداد لتكسرت الأقلام ونفد المداد، وكلام الله لا يفنى ولا ينفد، وذلك أن المخلوق متناهٍ، له غاية وحد، وصفات الله ليس لها غاية ولا حد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

وهذا كله من باب تقريب المعنى العظيم الواسع، الذي لا تدركه الأذهان إليها بهذا المثال الذي يبهر العقول؛ ولهذا قال المؤلف:

.... ليس الكلام من الإله بفاني

ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق من جملة المخلوقات التي تنتهي، وكيف يكون الوصف المضاف إلى الله تعالى مخلوقًا، يلزم منه أن يكون كلامًا للخلق، فإذا كان علم الله وقدرته ونحو ذلك من أوصافه يستحيل أن تقوم بغير الله وأن تكون مخلوقة، فكلامه كذلك.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ما رام شيئًا قط ذو سلطان

وهو القوي له القوى جمعًا تعا لى الله ذو الأكوان والسلطان

يعني أنه تعالى القدير كامل القدرة، فكل ما أراده فعله من غير عجز ولا معارض له ولا مضاد، فإذا أراد إيجاد شيء أو إعدامه فلو اجتمعت الخليقة كلها على معارضته في شيء من ذلك لم يكن لهم قدرة على معارضته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه

الترمذي وغيره عن ابن عباس أنه قال لابن عباس: «**واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء** (أي قليل أو كثير) **لم ينفعوك إلا بشيء قدره الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك**»[1]. وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]. وهو القوي الذي له القوة كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فما بالخلق من قوة ظاهرة أو باطنة إلا من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فمن قوته وقدرته أنه خلق السماوات العظيمة، والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق، ثم يميتهم ثم يحييهم بعدما يفرقهم البلى، بل خلقهم وبعثهم عليه كنفس واحدة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. ومن قدرته أنه يحيي الأرض الهامدة اليابسة بعد موتها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ومن آثار قدرته ما فعله بالأمم المكذبين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنهم لم يغن عنهم كيدهم ولا مكرهم ولا أموالهم وأولادهم وجنودهم وحصونهم من عذاب الله شيئًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]. وقال تعالى في سورة الشعراء بعد كل قصة يذكر فيها نجاة الرسل وأتباعهم وإهلاك من كذبهم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي على كمال رحمته

(١) الترمذي (٢٥١٦).

التي منها إنجاء المؤمنين، وعلى كمال عزته وقدرته حيث أباد المكذبين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

ومن تمام قدرته وشمولها أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعاتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا، وتضاف إليهم فعلًا ومباشرة على الحقيقة، من غير منافاة ولا مناقضة، فإن الأعمال يضيفها الله إليهم وينسبها لهم، وهم الفاعلون لها، وهذا معروف عقلًا وشرعًا وحسًّا، والله خالق قدرتهم ومشيئتهم التي لا يوجد فعل إلا بهما، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فأثبت لهم مشيئة وفعلًا، وذكر أن مشيئتهم تابعة لمشيئته وإرادته.

ومن آثار قدرته ورحمته نصره لأوليائه على قلة عَدَدهم وعُدَدهم بالنسبة إلى أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر: ٥١]. ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العذاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع، الذي لا ينقطع ولا يتناهى، وقد أخبر عن كثير من الأشياء أنه قادر على فعلها، ولكنه لا يفعلها؛ لأن الحكمة تقتضي عدم إيجادها، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]. ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]. فقدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهـو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثـلاث معاني

هذه الأبيات الثلاثة مشتملة على معنى اسمه «العزيز» فذكر له ثلاث معانٍ:

الأول: العزيز بمعنى الممتنع الذي لا يرام جنابه، لعظمة سلطانه وجليل كبريائه، قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»(١).

والمعنى الثاني: أنه العزيز بمعنى القاهر لكل شيء، الذي قهر جميع الأشياء، فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ولا حول ولا قوة بأحد إلا بالله العلي العظيم، فلا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو الذي قهر كل شيء، وذل له كل حي، ونفذت إرادته في كل شيء.

والمعنى الثالث: أنه العزيز بمعنى القوي المتين، فله القوة الكاملة التي لا عجز ولا نقص فيها بوجه من الوجوه، فصار معنى العزيز بمعنى القوي الممتنع القاهر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]. وقال:﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. فـ(أل) تفيد الاستغراق والعموم لجميع معاني العز؛ ولهذا قال المؤلف:

وهي التي كملت له سبحانه مـن كـل وجـه عـادم النقصان

أي: هذه المعاني الثلاثة قد كملت لله من جميع الوجوه، فلا نقص في شيء منها.

وهـو الغني بـذاتـه فغناه ذا تـي لـه كـالـجـود والإحـسـان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]. فهو تعالى الغني الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه والاعتبارات لكماله وكمال صفاته، بحيث لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا، وإن غناه من

(١) مسلم (٢٥٧٧).

لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا رازقًا محسنًا جوادًا كريمًا رحيمًا، فلا يكون إلا غنيًّا عن الخلق لا يحتاج إليهم بشيء من الأشياء، بل هم الفقراء إليه في جميع أمورهم، لا يستغنون عن إحسانه وكرمه وتدبيره طرفة عين.

ومن كمال غناه أن خزائن السماوات والأرض بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأنفاس، وأن يديه سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه.

ومن كمال غناه أن يدعو عباده إلى سؤاله، ويعدهم بالإجابة، ويؤتيهم من كل ما سألوه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أهل السماوات والأرض وأول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم في صعيد واحد، فسأله كل واحد منهم ما بلغت أمنيته، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا.

ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من اللذات المتتابعات والشهوات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهو الغني بذاته، المغني لجميع مخلوقاته.

ومن غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا عوينًا، قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾[النجم: ٤٨]. تبارك وتعالى وتقدس.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضًا ما هما عدمان

حكم وأحكام فكل منهما ... نوعان أيضًا ثابتا البرهان

والحكم شرعي وكوني ولا ... يتلازمان وما هما سيان

بل ذاك يوجد دون هذا مفردًا ... والعكس أيضًا ثم يجتمعان

لن يخلو المربوب من إحداهما ... أو منهما بل ليس ينتفيان

لكنما الشرعي محبوب له ... أبدًا ولن يخلو من الأكوان

هو أمره الديني جاءت رسله ... بقيامه في سائر الأزمان

لكنما الكوني فهو قضاؤه ... في خلقه بالعدل والإحسان

هو كله حق وعدل ذو رضا ... والشأن في المقضي كل الشان

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضي حين يكون بالعصيان

فالله يرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضي ما الأمران متحدان

فقضاؤه صفة به قامت وما الـ ... ـمقضي إلا صنعة الإنسان

والكون محبوب ومبغوض له ... وكلاهما بمشيئة الرحمن

هذا البيان يزيل لبسًا طالما ... هلكت عليه الناس كل زمان

ويحل ما قد عقَّدوا بأصولهم ... وبحوثهم فافهمه فهم بيان

من وافق الكوني وافق سخطه ... أو لم يوافق طاعة الرحمن

فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ... ت الحمد مع أجر ومع رضوان

وموافق الديني لا يعدوه أجـ ... ـر بل له عند الصواب اثنان

أطال المؤلف - رحمه الله - الكلام على هذا الاسم المبارك «الحكيم»، لاقتضاء الحال للإطالة والبسط، فإنه كما قال في آخر هذا الكلام: «هذا البيان يزيل لبسا» إلى آخر ما ذكره فذكر أن الحكيم من أوصاف الله تعالى نوعان: أحدهما: حكم، والثاني: أحكام، وكل واحد منهما نوعان، فتصير الأقسام أربعة: حكم قدري كوني، وحكم شرعي ديني، وحكمة في خلقه، وحكمة في أمره. فذكر أن الحكم القدري والحكم الشرعي لا يتلازمان، أي لا يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر، ومن عدمه عدم الآخر، كما هو شأن كل متلازمين، بل

قد يوجد الشرعي دون القدري، وقد يوجد القدري دون الشرعي، وقد يجتمعان، ولكنهما لا يرتفعان، أي لا يفقدان كلاهما، ولهذا قال: «لن يخلو المربوب»؛ أي المخلوق، وهذا شامل للمخلوقات كلها، أي: لن يخلو شيء من المخلوقات من أحد الحكمين، أو منهما، بل ليس ينتفيان أي: لا يعدمان، فيصير المربوب خاليًا منهما، فإن هذا محال.

وبيان ذلك أن الحكم الشرعي هو الحكم الذي تعلقت به محبة الله تعالى، وهو الحكم الذي شرعه وحكم به على ألسنة رسله، ودعوا إليه العباد، فقام به من استجاب لهم، وإذا وجد الحكم الشرعي فعلًا فإنه لا يخلو من الأكوان، أي لا يخلو من الحكم القدري، وذلك أن الإيمان والطاعات الصادرة من المؤمنين بقضاء الله وقدره وتوفيقه، فإذا وجدت الطاعات وجد الحكمان معًا. وإذا وجد الكفر والفسوق والمعاصي وجد الحكم القدري، لكونها واقعة بقضاء وقدر، دون الحكم الشرعي، لعدم تعلق الأمر والمحبة بها، وإذا كان الأمر بالخير والإيمان والطاعة موجودًا، ولم يقم به من أمر به، كان الحكم الشرعي موجودًا لوجود الأمر، دون القدري فإنه لو وجد لحصلت، فإنه ما شاء الله كان، فالحكم الكوني هو قضاؤه على خلقه بالعدل والإحسان، أي لأن أفعاله تعالى لا تخلو من هذين الأمرين، إما إحسان ونعم، وإما عدل، وهو تقديره ما يقدره من وقوع الشر من أهل الشر، ومن عقوباتهم في الدنيا والآخرة، فإنه عدل يحمد عليه، لموافقته الحكمة، ووضعه العقوبة موضعها.

وذكر المصنف الفرق بين القضاء والمقضي، وأن القضاء وصف لله تعالى وفعله الذي يتعين الرضاء به، لكونه غير خارج عن العدل والفضل، وأن المقضي صنعة الإنسان وفعله، وذلك ينقسم إلى قسمين محمود ومذموم، فيرضى بالمحمود من المقضي، كالطاعات والإيمان الصادر من أهل الخير، ويسخط المذموم من ذلك، كالمعاصي الواقعة من فاعليها، وذلك كله موافقة لمحبة الله وكراهته، فإن الله يرضى ويحب من عباده الإيمان والشكر وأنواع الخير، ويكره منهم الكفر والفسوق والمعاصي. فالكون بالنسبة إلى الحكم

الشرعي ينقسم إلى قسمين: محبوب لله ومبغوض له، وبالنسبة إلى الحكم القدري كله واقع بمشيئة الله وقدرته، ولهذا قال: وكلاهما بمشيئة الرحمن.

فبهذا التفصيل الذي ذكره المصنف ينكشف الأمر ويتضح، ويزيل لبسًا أي اختلاطًا واشتباهًا طالما هلكت عليه الناس منذ زمان، بسبب اشتباه الحق بالباطل، وعدم تمييز الأمور وتفصيلها، فإن كثيرًا من المتكلمين أصلوا لهم أصولًا فاسدة ينبني عليها عقائد باطلة، كما قرر كثير من أهل التصوف وأهل الكلام أن الحكم القدري مرادف للحكم الديني، وأن الله يحب كل ما قدره وقضاه، وهذا من أعظم الباطل وأشده، فإنه يتضمن التسوية بين الأبرار والفجار، وبين البر والفجور، ويلزم منه إبطال الشرع وعذر من ظلم وعصى، لأنه موافق للقضاء والقدر، وهذا تكذيب لله ولكتبه ورسله. ولهذا قال المصنف:

هذا البيان يزيل لبسًا طالما هلكت عليه الناس منذ زمان

أي بسبب اختلاط الحق بالباطل، ويحل ما قد عقدوا من الأغلال، والعقائد الباطلة، بأصولهم التي بنوها، وبحوثهم التي هي نتائج آرائهم الفاسدة وعقولهم الضعيفة ومقاصدهم السيئة. فافهمه فهم بيان، لأنه موضع مهم خطر لا يكاد يوجد هذا التفصيل بغير كتب المصنف وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية.

إذا تقرر ما تقدم من أن الأحكام نوعان: أحكام قدرية موافقة للقضاء والقدر، وإن لم توافق محبة الله، وأحكام دينية موافقة للمحبة والأمر الديني، وإن لم يوجد معها الحكم القدري، وأنهما قد يجتمعان أو ينفرد أحدهما، فمن وافق في فعله وقوله ونيته الحكم القدري وحده، بألا يكون ما فعله أو قاله أو نواه محبوبًا لله، فإنه لا يخلو إما أن يوافق سخطه أي سخط الله إذا كان ذلك معصية، وإما ألا يوافق مرضاة الله، وذلك إذا كان ما فعله أمرًا مباحًا غير طاعة ولا معصية، فلذلك لا يعدوه ذم إذا كان معصية، أو فوات الأجر إن كان مباحًا، وموافق الديني وهو الذي امتثل ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه بحسب قدرته وإمكانه، لا يعدوه أجر إن اجتهد فأخطأ الحق، بل له عند الصواب أي إذا

اجتهد فأصاب؛ اثنان أي أجران، كما قال النبي ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[1]. لأن نيته الحق، وسعى لتحصيله، وذلك عمل صالح، ولكن فاته إدراكه بغير تفريط منه.

وحاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل أن الحكيم هو من له الحكم وله الأحكام، وأن الحكم نوعان: حكم كوني شامل لجميع ما قدره وقضاه وكوَّنه من خير وشر، وحكم ديني مختص بما يحبه الله ويرضاه، وأن من وجد منه الخير بالفعل، واجتمع في حقه الحكمان معًا، ومن وجد في حقه الشر بالفعل، انفرد في حقه الحكم الكوني؛ لأنه بقضاء وقدر، والله لا يحب الشر والفساد، ومن توجه إليه الأمر الديني فلم ينقد له، وجد فيه في تلك الحال الحكم الديني؛ لأنه وجه إليه، ولم يوجد الحكم القدري؛ لأنه لم ينقد له، ولو شاء الله لفعله.

وأن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعل الله يجب الرضاء به من غير تفصيل؛ لأنه عدل وإحسان لا يخرج عن الحمد والحكمة، والمقضي فعل العبد، وفي الرضاء به تفصيل، فإن كان خيرًا وطاعة وإيمانًا تعين الرضاء به ومحبته، وإن كان شرًّا ومعصية وكفرًا تعينت كراهته، وإن لم يكن لا خيرًا ولا شرًّا لم يتعين فيه الرضاء ولا الكراهة. ثم ذكر الأحكام والحكمة فقال:

---

(١) مسند أبي عوانة (٦٣٩٧).

فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ ـضًا حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضًا ليس يفترقان
أحكام هذا الخلق إذ إيجاده في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضًا وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللاتي حمدن وكونها في غاية الإحكام والإتقان

هذا النوع الثاني مما يدل عليه اسم الله «الحكيم»، وهو أن له الحكمة التامة في خلقه وأمره، وحكمته علياء لا يشابهها شيء، فليس كمثله شيء في جميع نعوته التي من جملتها الحكمة.

والحكمة في خلقه على نوعين:

أحدهما: أنه أحكم جميع ما خلقه وأتقنه بأحسن خلق وأتم نظام، لا يمكن أحدًا من الخلق أن يقترح أحسن منه، ولا يرى فيه عيبًا ولا عبثًا، فكل ما خلقه فهو محكم متقن، لم يخلق شيئًا عبثًا، ولا خلق شيئًا معيبًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص: ٢٧]. فهم الذين يظنون بالله الظن السيئ، والذي من جملته أنه يخلق شيئًا لغير فائدة ولا مصلحة، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[السجدة: ٧]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ونحوها من الآيات التي يحث الله بها العباد إلى النظر والتفكر في المخلوقات، لاشتمالها على الحكم البالغة والنعم السابغة، وأنها سالمة من كل عبث وعيب. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]. لم ير خللًا ولا نقصًا، بل يرى جميع العالم على أتم نظام وأكمل خلق وأحسنه، فهذا نوع من أنواع الحكمة في الخلق، وهو أنها كلها محكمة متقنة، تشاهد حكمتها بالأبصار والبصائر، ويخفى أكثرها، فيستدل بما علم منها على ما لم يعلم.

والنوع الثاني: أنها مخلوقة لغاية، ومقصود بها مقصود عظيم، فخلقها الله تعالى ليستدل بها العباد على ما لله من صفات الكمال، وما له من جميل الفعال، وهذه غايات يحمد عليها، ليتضمنها ظهور آثار أسمائه وصفاته ومعرفة العباد لها، وأيضًا خلق الله السماوات والأرض وما بينهما بالحق، فهي مخلوقة بالحق وللحق. ومن ذلك أنه ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وخلق الله المكلفين ليعرفوه ويعبدوه ويطيعوه لأجل أن يجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]. ففي هاتين الآيتين الإخبار من أن الغاية لخلق السماوات والأرض والجن والإنس وإنزال الشرائع على الأنبياء لأجل أن يعرفوا الله بأسمائه وصفاته، ويعبدوه بمقتضى ذلك.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]. أي معطلًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب، فإن هذا ظن فاسد؛ لأنه يتضمن العبث في أفعاله تعالى، وهو منزه عن ذلك، ثم قرر ذلك بدليل عقلي، فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠]. فالذي نقل الإنسان بهذه الأطوار المتنوعة، حتى أوصله إلى ما وصل إليه، لا يليق به أن يهمله ويعطله

عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي تنزه عن هذا الحسبان الباطل المنافي لملكه وحمده وكماله؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فإن الملك الحق لا بد أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقال تعالى منزها نفسه عن ظن من ظن أنه يترك خلقه سدى، لا يرسل إليهم رسولًا، ولا ينزل عليهم كتابًا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل الكبير، وهو أن أفعاله تعالى كلها محكمة متقنة، لا عيب فيها ولا خلل، وأنه فعل ما فعله لغايات محمودة ومقاصد سديدة.

ثم ذكر الحكمة الأخرى في شرعه وأنها على نوعين أيضًا:

أحدهما: أنها في غاية الإحكام والإتقان، ويكفي في هذا الموضع معرفة القاعدة العامة، وهي أن الأوامر والنواهي تبع للمصالح والمنافع فعلًا وتركًا، فكل أمر مشتمل على المصلحة الخالصة أو المصلحة الراجحة فإنه مأمور به، وكل أمر مشتمل على مفسدة خالصة أو راجحة فإنه منهي عنه، ويدل على هذا قوله تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فالمعروف الذي يأمر به هو ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، وذلك ما ترجحت مصلحته، وفائدته في القلب والبدن والدنيا والآخرة. والمنكر الذي ينهى عنه هو ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا، وذلك ما ترجحت مضرته في الدنيا والآخرة والقلب والبدن. والطيبات التي أحلها كل مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح، وَصْفُهُ الطيب والمنفعة الذي يضطر أو يحتاج إليه. والخبيثات التي حرمها ضد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. فالبر والتقوى الذي أمر الله بفعله والتعاون عليه كل عمل صالح وخلق فاضل وفعل رشيد وقول

سديد، من الإخلاص لله تعالى، والصدق، وحسن الخلق، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى عموم الخلق، والعدل بينهم، وسلامة الصدر، والنصح للخلق، والتأدب بالآداب الحسنة، والرفق واللين والسماحة، وغير ذلك مما حث الشرع عليه.

وضد ذلك النهي عن الكبر، والتجبر على الخلق، والكذب، والرياء، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وسوء الخلق، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق.

ومن أحكام الأمر والنهي أن شريعة نبينا محمد ﷺ صالحة لكل زمان ومكان، فكل وقت ومحل يحتاج إليها فيه، بل لا تصلح الدنيا والآخرة إلا بالعمل بها؛ ولهذا كانت من أعظم الأدلة على كمال من أنزلها وعلمه وحكمته وصدق رسوله ﷺ؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، فلا نبي بعده، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

والنوع الثاني: من حكمة الأمر أن الله أمر ونهى وشرع الشرائع ليبتلي عباده، المطيع منهم والعاصي، والصادق والكاذب، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي يحبها ويرضاها، ولتتنور القلوب بمعرفته، والألسنة بذكره، والأعضاء بطاعته، وليثيب المطيعين من فضله وكرمه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وليتم عليهم فضله وإحسانه، إلى غير ذلك من الغايات والحكم التي شرع الله الشرائع لأجلها.

قال المصنف في **بدائع الفوائد**(١) نشر دار الكتاب: فتأمل أسرار كلام رب العالمين، وما تضمنته آيات الكتاب المجيد، من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين، والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق، وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى، وهو معنى كونه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، ولم يخلق ذلك باطلًا، بل خلقه خلقًا صادرًا عن

---

(١) ٤/ ١٦٢.

الحق، آيلًا إلى الحق، مشتملًا على الحق، فالحق سابق لخلقها، مقارن له، غاية له؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى، دون اللام المفيدة للغاية وحدها، فالباء مفيدة معنى اشتمالها على الحق السابق والمقارن والغاية، فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته، فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كلية ومصلحة وحقًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. فأخبر عن مصدر المتلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلًا وهدى ورشادًا، وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]. ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠]. وهذا راجع إلى قوله وخلقه، وهو خلق الولد لهما على الكبر. وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت عليه من الحكم والمصالح والمنافع، والآيات الدالة للعباد على إلههم، ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله، وأن لقاءه حق لا ريب فيه.

ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا تقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده شاهدًا دالًّا على فاطره وباريه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه.

وهذه طريقة القرآن في إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع، وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق، ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله؛ حتى يتبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقه، وبما لو تأملوه لوجدوه مركوزًا في فطرهم مستقرًّا في عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به عنه رسله من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته. وهذا باب

عظيم من أبواب الإيمان، إنما يفتحه الله على من سبقت له من الله سابقة السعادة، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد، وطريق سهلة واضحة برهانية، وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط، لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته، والشهادة بأنه لا إله إلا الله والإيمان برسله وملائكته ولقائه، وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وانجابت عنه سحائب غيه، وانكشف عن قلبه حجاب ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه، ويلوح له صباح هو ليله وظلامه.

فقف الآن على كل كلمة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]. ثم تأمل وجه كونها آية، وعلى ماذا جعلت آية؟ على مطلوب واحد أم مطالب متعددة؟ وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط، كآخر آل عمران، وقوله في سورة الروم ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٠]. إلى آخرها، وقوله في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. إلى آخر الآيات، وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن، وكقوله في سورة الذاريات: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، فهذا كله من الحق الذي خلقت به السماوات والأرض وما بينهما، وهو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات، مسطور في صفحاتها، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما الحق الذي هو غاية خلقها، فهو غاية تراد من العباد، وغاية تراد بهم، فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله تعالى، وأن يعبدوه لا يشركون به شيئًا، فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]. فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده.

فأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]. وقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣، ٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السماوات والأرض وما بينهما على الحق أولًا وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق. وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥]. ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وتأمل ما في هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان، الذي ظنه أعداؤه، إذ هو منافٍ لكمال ملكه ولكونه الحق، إذ الملك الحق هو الذي يكون له الأمر والنهي، فيتصرف في ملكه بقوله وأمره، وهذا هو الفرق بين الملك والمالك؛ إذ المالك هو المتصرف بفعله، والملك هو المتصرف بأمره وفعله، والرب تعالى مالك الملك، فهو المتصرف بفعله وأمره.

فمن ظن أنه خلق خلقه عبثًا لم يأمرهم ولم ينههم، فقد طعن في ملكه، ولم يقدره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١]. ومن جحد شرع الله وأمره ونهيه، وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة، فقد طعن في ملك الله، ولم يقدره حق قدره، وكذلك قوله الحق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها، فكما أن ذاته الحق، فقوله الحق، ووعده الحق، وأمره الحق، وأفعاله كلها حق، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق، فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف الله تعالى بأنه الحق المطلق من كل وجه، وبكل اعتبار، فكونه حقًّا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه، فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثًا، وأن يتركهم سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. قال الشافعي: مهملًا لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يجزى بالخير والشر، ولا يثاب ولا يعاقب. والقولان متلازمان، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب، وهو الأمر والنهي، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي، وهو الثواب والعقاب.

ثم تأمل قوله بعد ذلك: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨]، فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة وصرفها، حتى صارت أكمل مما هي وهي العلقة، ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها، فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالها بشرًا سويًّا، فكيف يتركه سدى، لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له، فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد

والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما يدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وباريه، كذلك يدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثًا، أو يتركها سدى بعد كمال خلقها.

وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله، وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب، كيف كان هذا الزعم منهم قولًا بأن خلق السماوات والأرض باطل، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولًا، ولم يجعل لهم أجلًا للقائه كان ذلك ظنًّا منهم أنه خلق خلقه باطلًا، ولهذا أثنى على عباده المتفكرين في مخلوقاته، بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلًا، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به، علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]. فلما علموا أن خلق السماوات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه، ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السماوات والأرض، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]. فكانت ثمرة فكرهم في خلق السماوات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه، فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم، إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم، وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدوها، وذلك تمام نعمته عليهم، فتوسلوا بإنعامه عليهم أولًا إلى إنعامه عليهم آخرًا، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته، وهي إحدى الوسائل إليه، وهي الوسيلة التي أمرهم فيها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وأخبر عن خاصة عباده أنهم يبتغون الوسيلة إليه، إذ يقول تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

على أن في هاتين الآيتين أسرارًا بديعة ذكرتها في كتاب **التحفة المكية في بيان الملة الإبراهيمية**، فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السماوات والأرض أنه لم يخلقهما عبثًا باطلًا، وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه، والتوسل إليه بطاعته والإيمان به.

وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل قطرة من بحر لا ساحل له، فلا تستطله، فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس، ولا يقبله كل محروم، والله يختص برحمته من يشاء.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو كما ذكره في غاية النفاسة، ويوضح هذا المبحث توضيحًا تامًّا، وإذا شئت أن تعرف تفاصيل الحكمة في الشرع فاعتبر المسائل مسألة مسألة، فإنك تجدها في غاية الإحكام والإتقان، وفي أعلى درجات الحكمة والمصلحة، ولهذا كان الفقهاء والمتكلمون على الأحكام الشرعية يعللونها بالمصالح والحكم والمناسبات، فلو كان الأمر والنهي والتحليل والتحريم غير تابع للحكمة لم يكن فائدة في تعليل الأحكام والاحتجاج بها عليها. ومن أراد التوسع في بيان حكمة الله في شرعه وقدره إجمالًا وتفصيلًا وتأصيلًا، فعليه بكتاب **مفتاح دار السعادة** للمصنف رحمه الله، فإنه بسط الكلام فيه بسطًا شافيًا، وفيما نبهنا عليه من ذلك كفاية، والله أعلم.

فصل

وهو الحيي فليس يفضح عبده ... عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره ... فهو الستير وصاحب الغفران

هذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله حيي ستير يستحي من عبده إذا مد يديه أن يردهما صفرا**»[1]. وهذا من رحمته وكرمه وكماله أن العبد يجاهره بالعصيان، وهو الفقير إلى ربه غاية الافتقار، حتى إنه لا يمكنه أن يفعل معصية الله إلا بالتقوي عليها بنعم ربه، فيستحي ربه الكريم الرءوف الرحيم من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة عليه، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر ما لا يخطر على البال، ويعفو عنه، ويغفر له ذنوبه، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل بعدد اللحظات، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بعمل قبيح، ويستحي تبارك وتعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه، وممن يمد إليه يديه أن يردهما من غير شيء، بل يدعو العباد إلى دعائه، ويعدهم بالإجابة، وهو الحيي الستير، يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة. ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه، ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة، فيقرره بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك قال: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتابه بيمينه**»[2].

(١) الترمذي (٣٥٥٦).
(٢) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

ومن العجب أن الكريم يستحي من فضيحة عبده، والظالم الجاهل لا يستحي من ربه، بل لا يزال دائبًا في معصيته، متبعًا لسخطه، يدعوه ربه إلى بابه فيشرد عنه، ويدعوه عدوه إلى ولايته فيلبي دعوته، قد أقبل على عدوه الذي يشقى بطاعته في دنياه وأخراه، وتولى عن وليه الذي كل السعادة في الإقبال عليه والاشتغال بخدمته، وكل الأرباح في معاملته، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].
ولما كان ترك الحق وترك بيانه على أي حال كان، لا يكون من الحياء المحمود، أخبر تعالى أنه لا يستحي من الحق، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]. وذلك لأن بيانه الحق لعباده بأي طريق كان من أجلّ نعمه عليهم.

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان
وهو العفو فعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان

يعني أنه تعالى الحليم الذي له الحلم الكامل، العفوّ الذي له العفو الشامل. ومتعلق هذين الوصفين الكريمين معصية العاصين وذنوب المجرمين، فإن الذنوب في الأصل تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة، فحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم بالعقوبة، ليتوبوا من عصيانهم. وعفوه تعالى يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب العفو من الاستغفار والتوبة النصوح، فإن حلمه وعفوه وسعا أهل السماوات والأرض، فلولا حلمه وعفوه لغارت الأرض بسكانها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [النحل: ٦١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وهو تعالى عفو يحب العفو، ويحب من عباده أن يجتهدوا في تحصيل أسباب عفوه، من السعي في مرضاته على الدوام، والعفو عن زلات العباد، قالت عائشة رضي الله عنها

للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فبم أدعو؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[1]. فمن سامح عباد الله سامحه الله، ومن عفا عنهم عفا الله عنه.

ومن كماله تعالى أن عفوه مقرون بالقدرة، فيعفو عن قدرة، لا كمن يعفو لعجزه عن الانتقام، ولهذا جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

ومن تمام حلمه وعفوه أن المجرم الذي أفنى عمره بالكفر به وبرسله وبتكذيبه، وتكذيب رسله، والسعي في محاربته ومحاربة أوليائه، والحرص على إطفاء الحق وإظهار الباطل، أنه إذا تاب توبة نصوحًا، ورجع إليه نادمًا على جرمه، فإنه يعفو عنه في ساعة واحدة جميع ما تقدم من المعاصي والإجرام. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وقال تعالى لما ذكر أصحاب الأخدود الذين حرقوا أولياءه المؤمنين بالنار، يدعوهم إلى التوبة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. وقال النبي ﷺ: «**الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها**»[2].

وهو الصبور على أذى أعدائه ... شتموه بل نسبوه للبهتان

قالوا له ولد وليس يعيدنا ... شتمًا وتكذيبًا من الإنسان

هذا وذاك بسمعه وبعلمه ... لو شاء عاجلهم بكل هوان

لكن يعافيهم ويرزقهم وهم ... يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الأبيات مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الثابت الصحيح: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**»[3]. وبما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول**

(١) الترمذي (٣٥١٣). (٢) أحمد (١٧٨٢٧).

(٣) البخاري (٦٠٩٩)، مسلم (٢٨٠٤).

الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولدًا، وأنا الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»(1).

ولهذا قال المصنف: «وهو الصبور على أذى أعدائه، شتموه» أي: سبوه سبًّا لا يليق بجلاله، ونسبوه للبهتان الذي يتنزه عنه، فالشتم هو السب بقولهم: له ولد، فإن هذا مناقض لوحدانيته وغناه، وأنه مالك السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾، عن هذه النسبة الباطلة التي لا تصدر إلا من أعظم المبطلين، ثم ذكر ما يدفع ذلك فقال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ثم ذكر مصدر هذا القول الذي قالوه، وأنهم يقولون ويتكلمون بلا علم، وهذا من أعظم المحرمات، فقال: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أي ليس عندكم أدنى حجة بهذا القول الذي قلتم، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ثم ذكر أنه افتراء، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٨، ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. ونسبته للبهتان هو تكذيبه بقول المنكرين للبعث: لن يعيدنا، وهذا تكذيب له ولرسله، قال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]. فلم يبال المعاندون بقول الله، بل كذبوه ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]. أي لا يكون ذلك بزعمهم، فإنهم من جهلهم قاسوا قدرة العظيم بقدرة العبد الضعيف، ولم يفقهوا قوله تعالى مخبرًا عن عظمته وكمال اقتداره: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧].

فقول المؤلف: «شتمًا» عائد إلى نسبة الولد له، وقوله: «تكذيبًا» عائد لإنكارهم البعث.

---

(١) البخاري (٤٩٧٤).

ثم قال: هذا وذاك، أي نسبة الولد والتكذيب بالبعث بسمعه تعالى، يسمع ما به ينطقون، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، والحال أنه لو شاء لعاجلهم بكل هوان، أي بكل عقوبة تستأصلهم، لكمال قدرته، وعدم امتناعهم عن تنفيذ إرادته فيهم، ومع هذا يعافيهم ويرزقهم، فيدر لهم الأرزاق، وينعم عليهم بالنعم، وهم يؤذونه بالشرك والكفران، فهل مثل هذا الصبر شيء، فإنه صبر متضمن لإحسانه وقدرته، فإن الصبر قد يوجبه عدم قدرة الصابر على مقابلة المؤذي، وقد يصبر على الأذى ولا يحسن إلى من أساء إليه، وأما الله تعالى فهو الصبور على الحقيقة، يؤذيه العبد الضعيف العاجز بمعاداته ومعاداة رسله، ومحاربة أوليائه، والسعي في إطفاء دينه، وناصيته بيد الله، وهو المتصرف فيه في حركاته وسكناته، ومع ذلك يمهله، ويستدعيه إلى التوبة، ويحثه على الإنابة ويدر عليه الأرزاق الواسعة. فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، الصابر الذي يحب الصابرين، ويعينهم في جميع أمورهم.



فصل

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

«الرقيب» و «الشهيد» مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية. ولهذا قال المصنف: «وهو الرقيب على الخواطر»؛ أي: يعلم ما يخطر في القلوب من الأفكار والوساوس التي لم يتكلم بها العبد، وعلى اللواحظ بالأبصار اللواحظ الخفية والجلية، فإذا كان رقيبًا على الخواطر واللحظات فكيف لا يكون رقيبًا على ما هو أظهر منها من الأفعال بالأركان والحركات. قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

ولهذا كانت المراقبة هي التعبد لله باسمه «الرقيب»، فإذا علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر العبد لهذا العلم في جميع أحواله؛ أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان، فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. قال تعالى منبهًا على هذا المعنى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]. وقال الشاعر:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري وآخـر يرعى ناظري ولساني

فما خطرت في القلب مني خطرة لـغـيـرك إلا عـرجـا بجناني

ولا نظرت عيني لغيرك نظرة — من الخلق إلا قلت قد رمقاني

ولا بدرت من فيّ بعدك لفظة — لغيـرك إلا قلـت قـد سـمعاني

ثم قال المصنف:

وهو الحفيظ عليهمُ وهو الكفيـ — ـل بحفظهم من كل أمر عاني

ذكر رحمه الله للحفيظ معنيين:

أحدهما: أنه الحفيظ عليهم جميع ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه تعالى محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ومع ذلك فقد وكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين، يعلمون ما تفعلون. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

فهذا المعنى من حفظه تعالى على عبده متضمن لإحاطة علم الله تعالى بأحوال عبده الظاهرة والباطنة والأقوال والأفعال، وكتابتها باللوح المحفوظ وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وعلمه تعالى بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب، ثم مجازاته عليها بعدله وفضله.

والمعنى الثاني: من معنى الحفيظ أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال المصنف: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عاني» أي مشق مكروه، وحفظه تعالى لخلقه نوعان عام وخاص:

فالعام حفظه لجميع المخلوقات، بتيسيره لها ما يقيم بنيتها، ويحفظ قوتها، وتمشي إلى

مصالحها بهدايته العامة التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضي له، مما هو من ضروراته، كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أنواع المكاره وأصناف المضار التي يشترك فيها الأبرار والفجار، بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه أن يفسدوا أو يتلفوا، وقد وكل بالآدميين حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. أي لو تخلى عنكم الرحمن الذي رحمكم بحفظكم، من ذا الذي يقوم بكلاءتكم في نومكم ويقظتكم غيره؟ أي لا أحد يقوم بذلك سوى الرحمن، فتعين أن يكون هو المعبود وحده.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه وعباده المؤمنين سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم، من أنواع المحن والفتن والشبه التي يخاف معها على الإيمان، فيعافيهم الله منها، وإن ابتلوا بها يسر لهم الخروج منها بعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الإنس والجن، فينصرهم عليهم، ويدفع عنهم كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]. ولم يذكر ما يدفع عنهم لأجل العموم والشمول، وأنه يدفع عنهم كل ما يضر إيمانهم، وعلى حسب ما مع العبد من الإيمان يكون دفع الله عنه، قال تعالى في دفعه العام للمؤمنين: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]. ومن الحفظ الخاص ما ورد عن النبي ﷺ في الدعاء الذي يقال عند المنام: «**إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[(١)]. فصار معنى الحفيظ الذي يحفظ على العباد أعمالهم ليجازيهم بها ويحفظهم مما يكرهون.

---

(١) البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

وهـو اللطيف بعبده ولعبده	واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسـرار الأمـور بخبرة	واللطف عند مواقع الإحسان
فيـريك عـزته ويبـدي لطفه	والعبد في الغفلات عن ذا الشان

يعني أن اللطيف هو اللطيف بعبده في أموره المتعلقة بنفسه، وهو اللطيف لعبده، أي يلطف له في الأمور الخارجة عنه، فيسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، ولهذا كان اللطف في أوصاف الله تعالى على قسمين:

أحدهما: خبرته تعالى وإدراكه لأسرار الأمور وخفايا الصدور ومغيبات الأمور، وما لطف ودق من كل شيء، وهذا النوع يرجع إلى إحاطة علمه بالمعلومات، إلا أنه العلم الخاص في الأمور الخفية، ويلزم منه علمه بجليات الأمور، ومن ذلك لما ذكر تعالى تعلق علمه بما في باطن الأرض من خفايا البذور، واستخراجها من باطن الأرض بما ينزل عليها من السماء، وخبرته بشدة حاجة عباده إلى ذلك، ذكر هذا الاسم الكريم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. فهو الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم ما في السماوات والأرض، ويخرج الخبء في السماوات والأرض، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

والنوع الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويمتحنه بأنواع المحن التي تشق عليه ويكرهها، وهي عين صلاحه، والطريق إلى سعادته، كما امتحن أنبياءه بأذى قومهم، وبالجهاد في سبيله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]. وكما ذكر الله عن يوسف عليه السلام بعدما حصلت له المحن بإخوته، ثم بالرق، ثم بمراودة امرأة العزيز، ثم بالسجن الطويل، ثم جعل الله ذلك كله طريقًا إلى علوه وارتفاعه وملكه، وخضوع أبويه وإخوته له، ولهذا قال في آخر قصته: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وكثيرًا ما يمتحن أولياءه بما يكرهون، لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف: فيريك عزته، أي في امتحانك فيما تكره، ويبدي لطفه، والعبد في الغفلات عن ذا الشأن، فلو اطلع على الغيب لفرح بكثير من الأمور التي تجري عليه بخلاف ما يهوى، وكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرق العبد لمطلوب من مطالب الدنيا، من إمارة أو ولاية أو سبب من الأسباب الدنيوية، فيصرفه الله عنه رحمة به، لئلا يفسد عليه دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله وعدم معرفته بربه. وفي الدعاء المأثور: «**اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك، وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت**»[1].

---

(١) الترمذي (٣٤٩١).

فصل

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهمُ في الرفق فوق أماني

وهذا قد أخذه المؤلف رحمه الله من قول النبي ﷺ لعائشة بعدما سمعت اليهودي الذي قال للنبي ﷺ: السام عليك يا محمد، فأجابه النبي ﷺ بقوله: «وعليكم». ففطنت عائشة لليهودي، فقالت: وعليكم السام واللعنة، فقال النبي ﷺ: **«مهلًا يا عائشة، إن الله رفيق يحب أهل الرفق»**[1]. الحديث. وقال: **«إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»**[2].

فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق السماوات والأرض في ستة أيام مع قدرته على خلقها في لحظة واحدة، وكذلك الآدميون والحيوانات وأنواع الأشجار والنبات يخلقها تعالى بالتدريج شيئًا فشيئًا، حتى تتم وتكبر، وهذا من رفقه وحكمته التي فيها من الفوائد والمنافع ما لا يدخل تحت الحصر. وإذا كان رفيقًا فهو يحب أهل الرفق، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا يعطي غيرهم، ولهذا ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه. فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون، تتيسر له الأمور، خصوصًا الذي يأمر الناس وينهاهم في مصالح دينهم ودنياهم، فإنه محتاج بل مضطر إلى الرفق واللين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكذلك من آذاه الناس بالأقوال البشعة، فصان لسانه عن مشاتمتهم، ورفع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم بسبب ذلك ما لا يندفع عمن قابلهم وصنع كصنيعهم، مع راحته

(١) البخاري (٦٠٢٤).
(٢) مسلم (٢٥٩٣).

وطمأنينة قلبه واكتسابه للرزانة والحلم، وتنزهه عن سفسفة الأقوال، ولهذا لما كان اليهود يريدون بخطابهم للنبي ﷺ بقولهم السام عليكم؛ يريدون الموت، من كمال حلمه ﷺ لم يشتمهم، بل قال: «**وعليكم**»؛ أي: ما قلتم، ولهذا قال لعائشة: «**ألم تسمعي ما قلت لهم؟**». فبين عليه الصلاة والسلام أن المقابلة قد تحصل من دون كلام مستبشع ولا قول غليظ. وقال سفيان الثوري رحمه الله: ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون عالمًا بما يأمر به، عالمًا بما ينهى عنه، عدلًا فيما يأمر به، عدلًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، فالرفق يدرك به خير كثير، ويثيب الله عليه ثوابًا جزيلًا، والعنف بخلاف ذلك.

وهو القريب وقربه المختص بالـ ـداعي وعابده على الإيمان

يعني أن القريب من أسمائه تعالى قسمان: قرب عام، وقرب خاص.

فالقرب العام: إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

والنوع الثاني: قربه المختص بالداعين والعابدين والمحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد والإجابة والقبول والإثابة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]. وقال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[١]. فهذا قربه من عابديه. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. فهذا قربه من داعيه بالإجابة والتوفيق.

وللمصنف ههنا كلام حسن ذكره في **بدائع الفوائد**، فلنذكره لشدة الحاجة إليه، وعدم إجزاء غيره عنه، قال[٢] في أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إلى

(١) مسلم (٤٨٢).
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٧.

قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]: ...وسادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا، أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأل مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[مريم:٣]. فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك؛ أخفى دعاءه مهما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع أخفى كلامه، فإنه لو بالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار إليه النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر، فقال: «**اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[1]. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم سألوه فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأله مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي

---

(١) البخاري (٢٩٩٢).

والعابد، كما قال النبي ﷺ رواية عن ربه تبارك وتعالى: «**من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا**»[1]. فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائليه فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]. فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب. وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ونبأ آخر وشأن آخر، قد ذكرناه في كتاب **التحفة المكية**، على أن العبارة تنبو عنه، ولا يحصل في القلب حقيقة معناه، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها.

وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام، وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، فقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوق، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا. وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب **التحفة** أكثر من مائة طريق. انتهى كلامه رحمه الله.

وهو المجيب يقول من يدعو أجبـ ـه أنا المجيب لكل من ناداني

وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان

جعل المؤلف للمجيب معنيين: معنى عام، ومعنى خاص:

فالعام: هو إجابته تعالى لكل من دعاه دعاء عبادة ودعاء مسألة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فدعاء المسألة أن يقول بلسانه: اللهم أعطني كذا، أو: اللهم ادفع عني كذا. فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه للبر والفاجر، فقد يدعو الكافر بحصول رزق أو دفع عدو أو خروج من مشقة، فيستجيب الله له، ولا أعظم كفرًا من إبليس، وقد سأل الله النظرة، فأنظره الله إلى يوم يبعثون، ولهذا يستدل بهذا النوع

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

على كرم الباري وسعة جوده وحلمه.

ولا يدل مجرد الإجابة على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته، حتى يأتي ما يدل على ذلك، فإن اقترن بذلك ما يدل على تعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم، دل ذلك على صدق من أجاب الله دعاءه، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يرى الناس عيانًا إجابته، فيجعلونه من دلائل النبوة وآيات صدقه ﷺ، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة دعواتهم، يجعلونه من كرامات الله لأوليائه.

وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، ومن أعظمها: دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله تعالى يجيب دعوته، وذلك لشدة افتقار العبد لربه في هذه الحال، وانقطاع يقلقه من المخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجاتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ولهذا قال المصنف: «وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يدعوه في سر وفي إعلان».

ومن أسباب إجابة الدعاء إطالة السفر، والتوسل إلى الله بأحب الوسائل المقربة إليه، من أسمائه وصفاته ونعمه، ودعوة المظلوم، ودعوة الوالد لولده أو عليه، وفي الأوقات والأحوال الشريفة، كما وردت بذلك كله النصوص والأخبار التي لا يسعها هذا الموضع. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود:٦١]. وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾[النمل:٦٢].

وهو الجواد فجوده عم الوجو د جميعه بالفضل والإحسان
وهو الجواد فلا يخيّب سائلًا ولـو انـه مـن أمـة الـكـفـران

يعني أن جوده تعالى عام لجميع المخلوقات، قد عمها وشملها، وملأها من فضله وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

وخاص للسائلين بلسان المقال، أو بلسان الحال؛ من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وناله ما طلب. قال تعالى وهو الرحيم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر»**[1]. وفي رواية لغير مسلم: **«ذلك بأني جواد ماجد واجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له كن فيكون»**[2].

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: **«إن خزائن الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط، يخفض بها ويرفع»**[3]. ومن جوده وكرمه ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومن جوده وكرمه أنه المغيث لكل مخلوقاته، فلهذا قال:

وهو المغيث لكل مخلوقاته   وكذا يجيب إغاثة اللهفان

فالمغيث يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها، وتقع في الشدائد والكربات، من إطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وتخليص مكروبهم، وكشف الضر عنهم، وإنزال الغيث عليهم في وقت الضرورة إليه.

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) الترمذي (٢٤٩٥).

(٣) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

وكذا يجيب إغاثة اللهفان، أي دعاء من دعاه في حالة اللهف وشدة الاضطرار، فمن استغاثه أغاثه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله ينظر إليكم آزلين قنطين**[1]**، فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب**»[2]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس:٢٢، ٢٣] الآية. وقال تعالى ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]. وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢]. وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]. وقال النبي ﷺ في حديث ابن عباس الذي رواه الترمذي وغيره: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**»[3]. وقال تعالى عن ذي النون عليه السلام: إنه نادى في الظلمات ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨]. أي إذا وقعوا في الشدائد نجاهم الله، ودفعها عنهم بإيمانهم؛ ولهذا ينجيهم من كربات الموت وشدة القبر وأهوال يوم القيامة، حين تعجز قدرهم، ولا يبقى ملجأ يلجئون إليه إلا الله تبارك وتعالى، وكم أنجى في الدنيا من الكرب والشدائد كثيرًا من أنبيائه وأوليائه، وأغاثهم بلطفه، ودفع عنهم بعزته، ورحمهم ويسرهم لليسرى.

---

(١) كذا بالمخطوط، وفي مصدر التخريج: «مشفقين».

(٢) أحمد (١٦٢٠٦).

(٣) لم نجده في الترمذي، وهو في مسند أحمد (٢٨٠٣).

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهمُ وجازاهم بحب ثاني
هذا هو الإحسان حقًّا لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران
لكن يحب شكورهم وشكورهم ... لا لاحتياج منه للشكران

هذا تفسير لاسمه تعالى «الودود»، وقد اختلف المفسرون في تفسيره، فقيل: إنه فعول بمعنى فاعل، وقيل: إنه فعول بمعنى مفعول. والصحيح أنه يعم النوعين كليهما كما قال المصنف، فهو الودود الذي يود عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين، وهو المودود لأوليائه وعباده المتقين، بل لا شيء أود إليهم منه، ولا تعادل محبة الله محبة، لا في أصلها ولا في متعلقاتها ولا في كيفيتها، وهذا هو الواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة على كل محبة، ويتعين أن يكون كل محبة تبعًا لمحبة الله.

قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] الآية. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف:٤]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]. إشارة إلى أن من أحبه الله غفر له الذنوب، ويسره لكل مطلوب. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]. والدليل على وجوب محبة الله تعالى وأنه يجب تقديمها على سائر محاب النفوس قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]. **فتوعد تعالى من كانت هذه الأمور أحب إليه من الله ورسوله واتباع مرضاة الله.**

ولهذا كانت محبة الله تعالى هي روح الأعمال، وجميع العبودية ناشئة من محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته، فهو الذي أحب عبده، فجعل المحبة في قلبه. ثم لما أحبه العبد جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان على الحقيقة، إحسان محض ليس المقصود به المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده، ومحبة للشكر من غير حاجة منه إلى الشكر، بل المصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي أودع محبته في قلوب عباده المتقين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت إلى حالة تتضاءل عندها المحاب، وتسليهم عن المألوفات، وتهون عليهم المصيبات، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات، التي أعلاها حصول محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه، محبة قبلها صار بها محبًّا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله له على محبته، صار بها من أصفيائه المخلصين. فنسألك اللهم حبك وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أنفسنا وأهلنا وأولادنا ومن الماء البارد، واجعل كل محبة تعلقت منا بغيرك تابعة لمحبتك.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة الله التي هي أعظم المطالب: الإكثار من ذكره، وكثرة الإنابة إليه، وكثرة التقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق متابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني**

لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته» رواه البخاري[1].

والمقصود أن معنى الودود أنه المحبوب المودود، أعظم مودة وأصفاها وأخلصها من عباده المؤمنين، الواد لعباده القائلين بمحابه ومراضيه، وله الفضل والمنة في ذلك كله.

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عُذِّبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنان

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن:١٧]. فمن أسمائه تعالى: الشاكر الشكور، الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، ولا يتركه باطلًا، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة بلا عد ولا حسبان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠]. وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]. وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»**[1]. وقال ﷺ: **«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله يقبلها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم»** متفق عليه[2].

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على سعة فضل الله، وأنه الشاكر لسعي العاملين، الذي لا يضيع عمل عامل، وبعينه ما يتحمل المتحملون من أجله. ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك لأجله عوضه الله خيرًا من ذلك، وهو الذي وفق عباده المؤمنين لمرضاته، ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًّا واجبًا عليه بالأصل، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه. ولهذا قال المصنف:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

وهذا القيد الذي قيده به المصنف أحسن من إطلاق من أطلق ذلك بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع ... ما للعباد عليه حق واجب

وكذلك تقييد المصنف للسعي الذي لا يضيعه الله بقوله:

.... إن كان بالإخلاص والإحسان

أي: مقصودًا به وجه الله، محسنًا فيه على سنة رسول الله؛ لأن العمل لا يكون صالحًا حتى يوجد فيه هذان الشرطان: الإخلاص والمتابعة، كما قال في موضع آخر:

فقيام دين الله بالإخلاص والـ ... إحسان إنهما له أصلان

(١) البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (١٢٨).

(٢) البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

وقول المؤلف: «إن عذبوا فبعدله»، لأنه لا يعذبهم إلا بذنوبهم التي اجترحوها، بعدما قامت عليهم حجة الله، وحذرهم الله منها غاية التحذير، فإذا استمروا على الطغيان بعد ذلك، ولم يقبلوا نصائح الناصحين، علم أنهم لا يصلحون إلا للعذاب، فعدل فيهم حيث عذبهم؛ لأنه لم يضع العقوبة إلا في موضعها. وأما إنعامه وإكرامه فإن ذلك محض فضله وإحسانه؛ لأنه الذي وفقهم وأعانهم وأعد لهم من الكرامات ما لا يقابله أضعاف أضعاف أعمالهم، ولكن له تعالى تمام الحمد وكمال النعمة، وله الفضل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

قال في **بدائع الفوائد**[1]: قد أخبر الله سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه بقوله في الحديث الصحيح: «**لما قضى الله الخلق كتب بيده على نفسه في كتاب، فهو عنده موضوع فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي**»[2]. وفي لفظ: «**سبقت غضبي**».

فتأمل كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتابة، وصفة اليد، ومحل الكتابة، وأنه كتاب، وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع التأكيد، وهو إيجاب منه على نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. فهذا حق أحقه على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ (الحق) ولفظ (على).

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لمعاذ: «**أتدري ما حق الله على عباده؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار**»[3]. ومنه قوله ﷺ في غير حديث: من فعل كذا وكذا كان حقًّا على الله أن يفعل به كذا وكذا في الوعد والوعيد، فهذا الحق الذي أحقه على نفسه.

---

(١) ٢/ ١٦١.

(٢) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

ومنه الحديث الذي في المسند عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة: أسألك بحق ممشاي هذا، وبحق السائلين عليك، فهذا حق السائلين عليه هو أحقه على نفسه، لا أنهم أوجبوه وأحقوه، بل أحق على نفسه أن يجيب من سأله، كما أحق على نفسه في حديث معاذ ألا يعذب من عَبَدَه، فحق السائلين عليه أن يجيبهم، وحق العابدين له أن يثيبهم، والحقان هو الذي أحقهما وأوجبهما، لا السائلون ولا العابدون، فإنه:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة:١١١]، فهذا الوعد هو الحق الذي أحقه على نفسه وأوجبه. ونظير هذا ما أخبر به تعالى من قسمه ليفعلنه؛ نحو قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم:٦٨]. وقوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣]. وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٤، ٨٥]. إلى آخر ما ذكره رحمه الله.

والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يتعلق بقوله:

ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشان

فإن إيجابه على نفسه ما أوجبه فضل منه وإحسان، لا معاوضة ولا في مقابلة عمل مستقل من أحد من العالمين، فله المنة في هذه الدار وفي دار البرزخ ودار القرار.

فصل

وهو الغفور فلو أتى بقرابها من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها سبحانه هو واسع الغفران

يعني أنه تعالى الغفور الذي وصفه المغفرة للذنوب والجرائم، فلو أتى العبد بقراب الأرض خطايا وهو لا يشرك بالله شيئًا، لاقاه الله بقرابها أي بملئها مغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. هذا مع عدم التوبة، وأما التوبة فإن الله يمحو بها الذنوب الكبار والصغار، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. فمغفرته تعالى وسعت كل شيء، فالعباد لا يزالون يذنبون، والله يتجاوز عنهم، ويحب العفو عنهم، وهو وإن كان واسع المغفرة فإنه قد جعل لمغفرته أسبابًا تنال بها؛ لأنها أعظم المطالب، وذلك كالتوبة والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، ومغفرة ما يصدر منهم، وحسن الظن بالله تعالى، وغير ذلك مما جعله مقربًا لمغفرته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال النبي ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يصب منه»**[1].

وقد تكاثرت النصوص الدالة على تكفير السيئات بالمصائب والمكاره التي تصيب

---

(١) البخاري (٥٦٤٥).

العبد، خصوصًا إذا عمل بما أمره الله به من الصبر والاحتساب، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**»[1]. ولولا عفوه ومغفرته ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكنه يعامل عباده بالإحسان إليهم، بحصول الخيرات ودفع المضرات التي انعقدت أسبابها، فيحلها ويزيل آثارها، وسيأتي إن شاء الله وجه عدم دخول الشرك في مغفرة الله في آخر هذه الفصول.

وكذلك التواب من أوصافه ... والتوب في أوصافه نوعان

إِذْنٌ بتوبة عبده وقبولها ... بعد المتاب بمنة المنان

يعني أنه التواب أي كثير التوبة على الخطائين والمذنبين، وتوبته على عبده نوعان:

الأول: إذنه لعبده وتوفيقه للتوبة، فإنه لولا توفيقه لما خطر بقلب العبد إرادة التوبة، ثم لولا توفيقه لما صارت تلك الإرادة عزمًا جازمًا مقرونًا بفعل أسباب التوبة، من الإقلاع عن الذنب في الحال، والندم على ما مضى منه، والعزم على ألا يعود إليه، والاستمرار على ذلك.

النوع الثاني: توبته على عبده بعد توبة العبد، بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فهو الذي من بالسبب والمسبب، وله الفضل والإحسان في أول الأمر وآخره، فعلى العبد الاجتهاد في مرضاته، والشكر له على توفيقه ومنته، قال النبي ﷺ: «**التوبة تجب ما قبلها**» متفق عليه[2]. وقال تعالى بعدما ذكر الشرك والمعاصي الكبار، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) لم نجده في المسانيد بهذا اللفظ.

ومن لطفه تعالى وكرمه أنه يفرح بتوبة التائب، أعظم من فرح من فقد راحلته التي عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، في أرض مهلكة دَوِّيَّة [1]، فطلبها حتى أيس منها، وجعل ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال إذا هو براحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح الذي أذهب حواسه وإدراكه، كما ثبت ذلك في الصحيح [2].

---

(١) الدوية : نسبة إلى الدو بتشديد الواو، وهي : البرية التي لا نبات بها.

(٢) مسلم (٢٧٤٧).

فصل

وهو الإله السيد الصمد الذي صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجو ه كماله ما فيه من نقصان

هذا معنى اسمه «الصمد»، المعنى الجامع، الذي يدخل فيه كل ما فسر به الصمد، فهو الصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويقصده العالم العلوي والسفلي في حوائجه ومهماته، لا يستغني أحد عنه طرفة عين. وهو الصمد الذي له الصفات الكاملة من كل الوجوه، الذي ما في كماله من نقصان، فهو العليم الكامل في علمه، الحليم الكامل في حلمه، الرحيم الكامل في رحمته، وهكذا سائر الصفات، فالصمد الذي تصمد إليه جميع المخلوقات؛ لأنه كامل الصفات.

قال المصنف في البدائع[1]:

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالًّا على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم متناولًا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه، كاسمه العظيم والمجيد والصمد، كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: قال: الصمد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم الذي قد كمل في حلمه، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه وتعالى، هذه صفته لا ينبغي إلا له، ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار. وهذا مما

(١) ١/١٦٨.

خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم.

وكذلك القهار من أوصافه فالخلق مقهورون بالسلطان

لو لم يكن حيًّا عزيزًا قادرًا ما كان من قهر ولا سلطان

«القهار» هو الذي قهر الأشياء، وانقادت لعظمته ومشيئته المخلوقات كلها، فلا يحدث حادث إلا بمشيئة الله، ولا يسكن ساكن إلا بإرادته، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. فالخلق كلهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. والله تعالى هو المالك للملك، الذي له العظمة والسلطان والتصرف.

ثم ذكر المصنف أن القهار من أسمائه مستلزم لكمال حياته وكمال عزته وكمال قدرته؛ لأنه محال أن يكون قاهرًا لكل شيء وهو غير حي ولا عزيز ولا قادر، ولهذا قال:

لو لم يكن حيًّا عزيزًا قادرًا ما كان من قهر ولا سلطان

وسيأتي إن شاء الله تفصيل القول في أنواع الدلالات.

وكذلك الجبار من أوصافه والجبر في أوصافه قسمان

جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ذا كسرة فالجبر منه دان

والثانِ جبر القهر بالعز الذي لا ينبغي لسواه من إنسان

وله مسمى ثالث وهو العلو   فليس يدنو منه من إنسان
من قولهم جبارة للنخلة الـ   ـعليا التي فاتت لكل بنان

يعني أن للجبار معنيين بل ثلاثة معانٍ، كلها داخلة في اسمه الجبار.

فهو الجبار يجبر القلوب المنكسرة من أجله، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، وييسر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتثبيته وتوفيقه للصبر، وإعاضته على ذلك أكمل الأجر، ويجبر قلوب الخاضعين لعظمته، الخاضعين لكبريائه، ويجبر قلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وصنوف مسراته، فالقلب المنكسر لربه جبره من أقرب الأشياء؛ ولهذا كان دعاء المظلوم والمضطر والمريض والمسافر ونحوهم مجابًا للكسرة التي في قلوبهم، ومن هذا قول الداعي: اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني، فإن الجبر معناه: جبر الشيء المنكسر بإصلاحه وتقويمه وإزالة كسره، ومنه الجبيرة وهي اليد التي تكسر فيربط عليها ما يشدها ويقيمها، فسؤال العبد لربه أن يجبره يتضمن الدعاء بإصلاح حاله، وتقويم أموره، وسائر شئونه، وإزالة ما فيه من الوهن والضعف والنقص.

والمعنى الثاني للجبار: أنه القهار لكل شيء، الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، بحيث لا يمتنع عليه شيء.

والمعنى الثالث: أنه الجبار، أي العالي على خلقه، الذي من عظمته وكبريائه قد باين مخلوقاته وعلا عليها، فليس يدانيه أحد منها لكمال رفعته وجلاله، وهذا المعنى مأخوذ من قول العرب للنخلة المرتفعة: نخلة جبارة، فالجبار العالي على كل شيء، القاهر لكل شيء، الجابر للمنكسرين، خصوصًا المنكسرين من أجله.

فصل

وهو الحسيب حماية وكفاية   والحسب كافي العبد كل أوان

يعني أن «الحسيب» معناه الكافي لعبده جميع ما أهمه من أمر دينه ودنياه، الحامي له من جميع المكاره؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، فالحسيب هو الكافي. وللحسيب معنى آخر لم يذكره المصنف، وهو أنه الذي يحفظ على العباد أعمالهم من خير وشر، ثم ينبئهم بها، ويحاسبهم عليها، ويعرفهم مقادير أعمالهم ومراتبها في الخير والشر، ويجازيهم عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي كافيك وكافي أتباعك، فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به العبد من اتباع الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وبحسب عبوديته لربه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. إلى غير ذلك من النصوص الدالة على محاسبته لعباده بما عملوه، وعلى كفايته إياهم جميع أمورهم.

وهو الرشيد فقوله وفعاله   رشد وربك مرشد الحيران
وكلاهما حق فهذا وصفه   والفعل للإرشاد ذاك الثاني

يعني أن معنى «الرشيد» الذي قوله رشد، وأفعاله رشد، المرشد لكل حيران وتائه وضال إلى الصراط المستقيم بيانًا وتوفيقًا. وكلا المعنيين حق، فهذا وصف، أي كون أقواله وأفعاله رشد.

.... والفعل للإرشاد ذاك الثاني

أي كونه مرشد الحائرين وهادي الضالين؛ فأما أقواله تعالى فإنها أقوال قدرية وأقوال شرعية دينية، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء، ويدبر بها ما شاء من أنواع التصاريف، كلها حق؛ لأنها مشتملة على الحكمة التامة التي يحمد عليها تعالى أتم حمد وأكمله. ويعرف ذلك باستقراء المخلوقات وما فيها من الحكم والمصالح، وأنه لا عبث فيها بوجه من الوجوه.

وأقواله الشرعية الدينية هي الأقوال التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله، المشتملة على الصدق التام في الأخبار، والعدل التام في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أحسن منه حديثًا، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. صدقًا في الأخبار، عدلًا في الأوامر والنواهي، وهي أعظم ما يرشد به العباد، بل لا حصول إلى الرشاد بغيرها، فمن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي، وهو بيان الحقائق والهدى والضلال والأحكام الشرعية، ويحصل بها الرشد العملي، فإنها تزكي النفوس، وتطهر القلوب، وتدعو إلى صالح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على الأفعال الجميلة، وترهب عن الأفعال الرذيلة، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو الغاوي، والله تعالى لم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل، وإنزاله عليهم الكتب المشتملة على الهدى، وكم قد هدى ضالًّا، وأرشد حائرًا، فهو الرشيد في قوله وفعله وإرشاده.

والعدل من أوصافه في فعله ... ومقاله والحكم بالميزان

فعلى الصراط المستقيم إلهنا ... قولًا وفعلًا ذاك في القرآن

يعني أن الله هو الحكم العدل في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط، وهذا معنى كونه تعالى على صراط مستقيم، كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. وذلك لأن أفعاله تعالى كلها دائرة بين الفضل والعدل والحكمة، فكلها أفعال رشيدة مستقيمة، وجميع أقواله صدق وعدل، وحكمه الديني عدل، وحكمه بين عباده

فيما اختلفوا فيه عدل، وحكمه بين عباده في الجزاء والثواب والعقاب عدل، فليس في شيء من ذلك ظلم بوجه من الوجوه، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا يحمده الخلائق بعدما يقضي بينهم في القيامة، فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]. وقال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧]. وقال تعالى آمرًا عباده بإقامة العدل والقسط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. ولهذا اتفقت الشرائع كلها على الأمر بالعدل والنهي عن الظلم.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ ... ـتنزيه بالتعظيم للرحمن

وهو السلام على الحقيقة سالم ... من كل تمثيل ومن نقصان

يعني أن من أسمائه القدوس السلام، فالقدوس هو المنزه المعظم عن كل سوء، وكذلك السلام على الحقيقة، وضابط ما ينزه عنه أمران ذكرهما المؤلف:

أحدهما: أنه الكامل المنزه عن مماثلة أحد من المخلوقات، فليس كمثله شيء في جميع نعوته، لكمال أوصافه.

والثاني: أنه المنزه عن كل عيب ونقصان، والنقصان يرجع إلى ما يناقض أوصاف كماله، فالقدوس السلام يرجع معناها إلى التنزيه، ويلزم من التنزيه التعظيم والثناء عليه بصفات الكمال؛ لأن التنزيه والسلب المحض ليس مدحًا، حتى يتضمن إثبات ضده وهو الكمال.

قال المصنف: **في بدائع الفوائد**[1]: فصل: إذا عرف هذا فإطلاق السلام على الله تعالى اسمًا من أسمائه هو أولى به من هذا كله، وأحق من هذا الاسم من كل مسمى به، لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص يتخيله وهم.

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.

وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد،

(١) ٢/ ١٣٥.

والسلام من النظير والكفؤ والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها، فحياته سلام من السنة ومن الموت والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلًا، وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون أو مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن يكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمته، بل لو وضع الثواب مكان العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهمه أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدرته سلام من العبث والجور والظلم ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة...

وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته؛ بل شرعه كل حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز.

واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وحملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة إلى عرش ولا غيره، ولا إحاطة شيء

به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره، من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ليس مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يضاد كماله وغناه، وسلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يكون تحت شيء أو محصورًا في شيء، فتعالى الله ربنا عن كل ما يضاد غناه وكماله، وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

وموالاته لأوليائه سلام من أن يكون عن ذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه.

وسلام مما يتقوله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه «السلام» كل ما ينزه عنه تبارك وتعالى. وكم من يحفظ هذا الاسم ولا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني. والله المسئول أن يوفق على تعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط؛ إنه قريب مجيب. انتهى كلامه رحمه الله. وقد اشتمل من تفصيل معاني هذا الاسم الكريم على خير كثير.

والبر في أوصافه سبحانه	هو كثرة الخيرات والإحسان
صدرت عن البر الذي هو وصفه	فالبر حينئذ له نوعان
وصف وفعل فهو بر محسن	مولي الجميل ودائم الإحسان

يعني أن البر في نسبته إلى الله نوعان:

أحدهما: أنه البر الرحيم الذي اتصف بالجود والكرم، وكثرة الخيرات، وأصناف البر الذي لا منتهى له.

والثاني: أنه البر بمعنى أنه المحسن الذي أنعم على العباد بأصناف النعم، ودفع عنهم جميع النقم، فما بالعباد من بر وإحسان وخير وسرور في دينهم ودنياهم إلا من الله. وبر الأبرار الذي استحقوا به دخول الجنة من لطفه بهم وتوفيقه إياهم، فمعنى البر: هو المتصف بالرحمة العظيمة، الذي والى على خلقه آثارها، وأسدى عليهم من جوده ما به استقامت أحوالهم وتمت أمورهم.

وكذلك الوهاب من أسمائه ... فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السماوات العلى والأرض عن ... تلك المواهب ليس ينفكان

يعني أنه تعالى الوهاب مستمر الإحسان متواتر الفضل، لم يزل ولا يزال محسنًا متفضلًا، دائم الهبات كثير الخيرات جزيل العطايا، لا يخلو مخلوق عن رحمته وإحسانه طرفة عين، فأهل السماوات والأرض وأهل الدنيا والآخرة لا ينفكون عن جوده وإحسانه، ولا يستغنون عنه في حال من الأحوال، بل هم المفتقرون إليه على الدوام، فيهب لهم من إحسانه ما به تقوم أمورهم الدنيوية، ويهب لعباده المؤمنين من لدنه رحمة يلم بها شعثهم، ويصلح فيها نقصهم، ويرقيهم بها إلى أعلى الدرجات والوصول إلى أجل الكرامات، ولا يمكن أحدًا من المخلوقين تعداد بعض نعم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وكذلك الفتاح من أسمائه ... والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا ... والفتح بالأقدار فتح ثاني
والرب فتاح بذين كليهما ... عدلًا وإحسانًا من الرحمن

يعني أن من أسمائه الحسنى الفتاح، وذلك على قسمين:

أحدهما: الفتاح بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتاح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله ما به تقوم أحوال المكلفين، وتستقيم أحوالهم الدينية والدنيوية، ويعرفهم كل ما يحتاجون إليه.

وأما فتحه بحكمه الجزائي فهو فتحه بين أنبيائهم ومخالفيهم، وبين أوليائه وأعدائه، والفتح يوم القيامة بين سائر الخلق حين يوفي كل عامل بعمله: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

وأما فتحه القدري فهو ما يفتحه على عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]. فهذا في فتح الخير. وقال في فتح الشر على من تعرض له: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. واستفتاحهم طلبهم أن يحل بهم ما وعدهم الله على لسان رسوله، تكذيبًا للرسول وتعجيزًا لربهم، وقال تعالى في فتحه بين أنبيائه ومن خالفهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٨، ٢٩]. أي حين ينزل بهم العذاب الذي توعدوا به، وقال شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وقال في الفتح بين عباده في دار الجزاء: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

فالرب هو الفتاح الذي انفرد بالعطاء والمنع، وهو الذي يفتح للعباد خزائن جوده وكرمه، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وهو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، وكل هذا تابع لعدله وفضله، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، ولهذا قال المصنف: «عدلًا وإحسانًا من الرحمن».

وكذلك الرزاق من أسمائه ... والرزق من أفعاله نوعان

رزق على يد عبده ورسوله ... نوعان أيضًا ذان معروفان

رزق القلوب العلم والإيمان والـ ـــرزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا رزاقه والفضل للمنان
والثان سوق القوت للأعضاء في تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبا ر وليس بالإطلاق دون بيان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وذكر المؤلف رحمه الله أن رزقه نوعان:

أحدهما: الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الرزق الذي على يد الرسول ﷺ، رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائقه، ورزق البدن بالحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص الله به المؤمنين والذي يسألون منه شامل لذلك كله. فينبغي للداعي بالرزق أن يستحضر بقلبه هذه الأنواع، فإذا قال: اللهم ارزقني، فمعناه: اللهم ارزقني ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة، ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهني، الذي لا مشقة فيه ولا تبعة تعتريه، وهذا وسيلة للأول، والأول هو المقصود من العبد، ولا بد له من الثاني ليعد بدنه ويصلح لإقامة دين الله.

والنوع الثاني من الرزق: الرزق العام لسائر الخليقة، برها وفاجرها، بل ناطقها وبهيمها، وحقيقته هو أن يسوق الله لكل حيوان قوته الذي به تصلح بنيته ويستقيم بدنه، ولا بد لكل مخلوق من هذا الرزق، وقد تكفل الله به لكل دابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]. أي فيوصل لها رزقها في أي مكان كانت؛ في ظلمات البحار، وفي جوف الأرض والصخور، وفي العالم العلوي أو السفلي، وهذا قد يكون بأسباب، وقد يأتي في بعض الأوقات بلا سعي من المخلوق، وقد يكون السبب مباحًا وقد يكون محرمًا.

ولهذا قال المصنف: هذا يكون من الحلال كما يكون من الحرام، وربنا رزاقه بهذا الاعتبار؛ أي من جهة أنه أوصل إليه بقضائه وقدره ما به يستقيم بدنه، وإن كان محرمًا يلام عليه العبد، ولا يتعلق به أمر الله، بل هو منهي عنه. وقوله: «وليس بالإطلاق» أي: وليس هذا الرزق الذي يكون من الحرام يسمى رزقًا مطلقًا، بحيث يكون رزقا تامًّا لا محذور فيه، وإنما يقال: مطلق رزق.

وبهذا يعرف الجواب عن السؤال المشهور إذا قيل: هل لله على الفاجر نعمة ورحمة؟ وهل الله رزقه أم لا؟

فالجواب أن يقال: أما النعمة المطلقة والرحمة المطلقة والرزق المطلق فإن هذا مخصوص بالمؤمن المتبع لمرضاة الله، فإن هذه الأمور تكون تامة في حقه. وأما الكافر والفاجر فله من ذلك مطلق الرحمة ومطلق الرزق، فإنه لولا رحمته ورزقه لما وجد، ولما استقام بدنه، ولما حصل له ما يوافق هواه.

وفي كلام المصنف إشارة لرد قول من قال من المعتزلة وغيرهم: إن الحرام لا يسمى رزقًا لوجود التبعة فيه، وهذا قول فاسد، من لازمه أن من يغتذي بالحرام فالله لم يرزقه، وهذا مصادم لما دلت عليه النصوص، ولما تقرر عند كافة بني آدم المثبتين لوجود الله، فإنهم متفقون على أن الله هو الرزاق وحده، كما أنه الخالق وحده، وأنه ما من مخلوق يخلو من رزقه في وقت من الأوقات، ولكن الحرام لا يسمى رزقًا مطلقًا، وإنما هو مطلق رزق كما تقدم.

فصل

هذا ومن أوصافه القيوم والـ ... قيوم في أوصافه أمران

إحداهما القيوم قام بنفسه ... والكون قام به هما الأمران

فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كلٍّ إليه الثاني

والوصف بالقيوم ذو شأن كذا ... موصوفه أيضًا عظيم الشان

والحي يتلوه فأوصاف الكما ... ل هما لأفق سمائه قطبان

فالحي والقيوم لن تتخلف الـ ... أوصاف أصلًا عنهما ببيان

هذا تفسير للحي القيوم، وجمعهما في غاية المناسبة؛ لأن الله جمع بينهما في غير آية، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]. وذلك أنهما - كما قال المصنف - مشتملان على جميع أوصاف الكمال ومتضمنان لذلك، فإنك إذا أعطيت هذين الاسمين حقهما من المعنى لم يتخلف عن ذلك شيء من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وبيان ذلك أن الحي هو من له الحياة الكاملة التامة، التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، والحياة الكاملة مستلزمة للسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة النافذة، وسائر الصفات الذاتية داخلة في مسمى الحياة.

وأما الصفات الفعلية التي يفعلها الباري، مما يتعلق بنفسه: كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده، والكلام، وغير ذلك، ومما يتعلق بالمخلوقات: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والرحمة وأنواع التدابير الإلهية، فإنها

داخلة في القيوم؛ لأن معنى القيوم هو الذي قام بنفسه بما له من صفات الكمال ونعوت الجلال؛ بحيث كان مستغنيا عن غيره من جميع الوجوه، الذي قام بجميع المخلوقات في إيجادها وإعدادها وإمدادها، فكما لا وجود لها إلا بالله، فلا بقاء لها ولا صلاح إلا به، فهي مفتقرة إليه في جميع شئونها، لا يمكن أن تستغني عنه طرفة عين.

ومن كمال قيوميته أنه كامل القوة والقدرة، نافذ الإرادة والمشيئة، فعال لما يريد، قام بنفسه وقام به من سواه. فالحياة تستلزم الصفات الذاتية، والقيومية تستلزم الصفات الفعلية.

قال المصنف رحمه الله في مدارج **السالكين**[1] في منزلة الحياة في أثناء كلام له: فيشهد قيام الكون كله بالله، وقيامه سبحانه بنفسه، فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه، فإذا رسخ قلبه في ذلك شهد الصفة المصححة لجميع صفات الكمال، وهي الحياة التي كمالها يستلزم كمال السمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام وسائر صفات الكمال، وصفة القيومية الصحيحة المصححة لجميع الأفعال، فالحي والقيوم من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد. انتهى.

هو قابض هو باسط هو خافض هو رافع بالعدل والميزان

يعني أنه القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، الباسط للأرزاق والرحمة والنفوس، وهو الخافض لأقوام، الرافع لآخرين، وذلك كله عدل من الله وحكمة، يحمد عليه أتم الحمد وأكمله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]. فقبضه نعمة في حق عباده المؤمنين؛ لأنه يمنعهم به من البغي والظلم والعدوان. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

---

(١) ٣/ ٢٦٩.

وإن كان تعالى هو القابض الباسط الخافض الرافع قدرًا وقضاء، فلا يمتنع أن تكون هذه الأمور بأسباب من العباد، متى قاموا بها حصلت لهم، وهذا هو الواقع؛ فإن الأسباب محل حكمته وسنته الجارية التي لا تبدل ولا تغير، وإذا كان أعظم أنواع رفعه رفعَهُ لأوليائه إلى أعلى عليين في محل قربه والدنو منه؛ فهذا محال أن يدرك بدون الإيمان والأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧] الآية. وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: ١٨]. فجعل استحقاقهم لأعلى الأمكنة بسبب برهم؛ فكل قبض وبسط وخفض ورفع قدري أو ديني فإنه من الله تعالى، لانفراده بالتدبير، وهذه من أنواع التدبير والشئون التي يصرفها بحسب حكمته وحمده.

وهـو المعز لأهـل طاعته وذا ... عـز حـقـيـقـي بـلا بـطـلان

وهو المذل لمن يشاء بذلة الـ ... ـداريـن ذل شقا وذل هـوان

يعني أنه المعز لمن يشاء المذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾[آل عمران: ٢٦]. والعز الحقيقي الذي هو عز ظاهر وباطن إنما يكون بالقيام بطاعته واتباع رسله، والذل الحقيقي إنما يكون بعدم القيام بطاعة الله، فإنه وإن وجد مع أهل المعاصي عز ظاهر وأبهة دنيوية فإن ذلك محشو بالذل والهوان. فقد يشعر به صاحبه، وقد تغلب عليه السكرة فلا يشعر بذلك، كما قال الحسن رحمه الله في أهل المعاصي: إنهم وإن طقطقت[1] بهم البراذين[2]، وهملجت بهم البغال[3]، إن ذل المعاصي قد علاهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. فالعاصي له الذل والشقاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ

---

(١) الطقطقة: أصوات حوافر الدواب في سرعة ترددها.

(٢) البراذين: الدواب.

(٣) أي: سارت بهم سيرًا في سرعة وبخترة.

ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وأما أهل العلم والإيمان فإن لهم العز والسعادة في الدنيا والآخرة، ولا يغترون بظاهر ما يعطاه المترفون في الدنيا، ولا يقع في نفوسهم من ذلك شيء، كما قال أهل العلم والإيمان لمن غبط قارون على ما أوتيه من زينة الدنيا، فقالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [القصص: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]. أي من أراد العزة فإنها كلها لله تعالى، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

هو مانع معطٍ فهذا فضله   والمنع عين العدل للمنان

يعطي برحمته ويمنع من يشا   ء بحكمة والله ذو سلطان

يعني أنه تعالى المنفرد بالعطاء والمنع، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فإن أعطى فبمحض فضله وإحسانه، لا بسبب من العبد ولا بتقدم واسطة. وإن منع فبمحض عدله وحكمته. ومن أعظم عطائه عطاء الهدى والأمن والتوفيق للأعمال الصالحة، وليست بحول العبد وقوته، بل بتوفيق الله ومنِّه ولطفه، يضعهما في المحل القابل لها الذي تصلح به، ويمنعها من المحل الذي لا يليق بها ولا تصلح به ولا تزكو عليه، وليس منعه لعبده من التوفيق منعًا لحق للعبد حتى يكون ذلك ظلمًا، وإنما هو محض فضله يمنعه ممن ليس له بأهل، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

والعطاء أحب إلى الله من المنع، وقد فتح للعباد من أبواب رحمته وخزائن جوده وعطائه كل باب، فيسر لهم كل طريق يوصل إلى ذلك، وأمرهم بسلوكها، فمن سلكها حصل له من الجود والعطاء ما لا يخطر بالبال ويدور في الخيال، ومن لم يسلكها، بل سد دون نفسه أبوابها، وسلك الطرق التي تفضي به إلى الحرمان، فلا يلومن إلا نفسه.

والنور من أسمائه أيضًا ومن   أوصافه سبحان ذي البرهان

قال ابن مسعود كلامًا قد حكا ... ه الـدارمـي عـنـه بـلا نـكـران
مـا عنده ليل يكون ولا نها ... ر قلت تحت الفلك يوجد ذان
نور السماوات العلى من نوره ... والأرض كيف الشمس والقمران
من نور وجه الرب جل جلاله ... وكذا حكاه الحافظ الطبراني
فبه استنار العرش والكرسي مع ... سبع الطباق وسائر الأكـوان
وكـتـابـه نـور كـذلـك شـرعـه ... نـور كـذا المبعوث بالفرقان
وكذلك الإيمان في قلب الفتى ... نـور عـلـى نـور مـع الـقـرآن
وحجابه نور فلو كشف الحجا ... ب لأحرق السبحات للأكوان
وإذا أتى للفصل يشرق نوره ... في الأرض يوم قيامة الأبـدان
وكذاك دار الرب جنات العلى ... نـور تـلألأ لـيـس ذا بـطـلان
والنور ذو نوعين مخلوق ووصـ ... ـف ما هما والـلـه متحدان
وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ... ـسوس ومعقول هما شيئان
احذر تزلّ فتحت رجلك هوة ... كم قد هوى فيها على الأزمان
من عابد بالجهل زلت رجله ... فهوى إلى قعر الحضيض الداني
لاحـت لـه آثـار أنـوار العبا ... دة ظنـهـا الأنـوار للرحمن
فـأتـى بـكـل مـصـيـبـة وبلية ... ما شئت من شطح ومن هذيان
وكذا الحلولي الذي هو خدنه ... مـن ههنا حـقًّـا هـمـا أخـوان
ويقابل الرجلين ذو التعطيل والـ ... ـحجب الكثيفة ما هما سيان
ذا فـي كثافة طبعه وظلامه ... وبظلمة التعطيل هذا الثاني
والنور محجوب فلا هـذا ولا ... هـذا لـه مـن ظـلـمـة يـريـان

بسط المصنف الكلام على النور في هذا الفصل، لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة الفرقان فيه. وحاصل ما ذكره أن من أسمائه وأوصافه النور الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار العرش والكرسي مع سبع الطباق وسائر الأكوان، وكتابه نور ورسوله نور، والإيمان الذي في قلوب المؤمنين نور، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. أي نور الإيمان على نور القرآن على نور الفطرة، وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وحجابه تعالى نور كما قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» رواه مسلم[(١)]. وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «**إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات من نور وجهه...**»[(٢)]. الحديث. ولهذا قال المؤلف: «قلت تحت الفلك يوجد ذان»، أي الليل والنهار لا يوجدان إلا تحت الفلك الأسفل؛ لأنهما تبع لوجود الشمس وعدمها، وأما الملأ الأعلى والعالم العلوي ففي غاية السعة والنور.

وقوله: «وكذاك دار الرب نور تلألأ»، يشير إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أسامة ابن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**ألا مشمر للجنة، فإنها لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، ونهر مطرد، وقصر مشيد، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، وفاكهة وخضرة وحبرة في أبد لا يزول**». فقال القوم: نحن المشمرون

(١) مسلم (١٧٩).
(٢) الطبراني (٨٨٨٦).

لها، فقال: **«قولوا إن شاء الله»**. فقال القوم: إن شاء الله[1].

ثم ذكر المؤلف أن النور نوعان: نور وصف لله، وهو ما أطلقه على نفسه الكريمة في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وكما في قول النبي ﷺ: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون»**[2]. وكما في قوله: **«لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[3]. أي: لأحرق نوره وبهاؤه جميع المخلوقات، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. فهذا كله وصف لله تعالى. وكذلك كتابه تعالى نور، وكلامه صفة من صفاته.

أما النور المخلوق فهو نوعان: محسوس ومعقول، فالمحسوس: الذي يدرك بالحواس ويرى عيانًا، فهو نور الحجاب ونور الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الأنوار التي تدخل في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وأما النور الذي لا يدرك بالحس وإنما هو معقول، فهو نور الإيمان وشواهد الإيقان ونور المعرفة وحقائق الذكر ونور المحبة، فهذا نور معقول يشرح الصدر، ويجعل صاحبه في جنة معجلة لا يشبهها شيء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وكما كان النبي ﷺ يدعو في قيام الليل وفي الخروج إلى المسجد: **«اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن فوقي نورًا، وتحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا، وزدني نورًا»**[4]. فهذا النور يقوى بحسب المعرفة وقوة المحبة، وكثرة الذكر الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، وبحسب ما يقوم بالقلب من حقائق العبادات.

(١) ابن ماجه (٤٣٣٢).
(٢) الطبراني (١٨١).
(٣) مسلم (١٧٩).
(٤) أبو داود (١٣٥٣).

ثم حذر المصنف رحمه الله في هذا المقام من اغترار من اغتر من جهلة المتصوفة والمتعبدة، حين عملوا على الحقائق فاجتهدوا في التعبد، فاستنارت بذلك قلوبهم، وعظم الوارد إليها، فظنوا بجهلهم وظلمهم أن تلك أنوار الصفات للذات المقدسة، وتوهموا أن ما يجدونه في أذهانهم موجود في الخارج والعيان، فباحوا بالشطح والطامات الكبرى، وادعوا أنهم يشاهدون الله حقا، بل ربما وصلوا إلى درجة الحلول، فظنوا أن الله حالٌّ فيهم ومتصل بهم، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا. فالمتعبد إن لم يصحبه العلم والتمييز بين النور المخلوق وغيره طرق باب الحلول ولا بد، وسبب ذلك قوة الوارد وضعف المورد وقلة العلم، فلهذا حذر المؤلف، فقال:

احذر تزل فتحت رجلك هوة ....

أي حفرة تهوي بصاحبها إلى أسفل سافلين.

.... **كم قد هوى فيها على الأزمان**

من عابد بالجهل زلت رجله **فهوى إلى قعر الحضيض الداني**

ثم ذكر السبب في قوله:

لاحت له آثار أنوار العبا **دة ظنها الأنوار للرحمن**

أي ظنها نور الذات من جهله.

فأتى بكل مصيبة وبلية **ما شئت من شطح ومن هذيان**

والشطح كلام الغلو الذي يجعل لنفسه منزلة ليست له، بل ربما جعل لها من خصائص الإلهية شيئًا. والهذيان الكلام الذي لا حاصل له، بل هو عبث وباطل.

ثم قال:

وكذا الحلولي الذي هو خدنه ....

أي نظيره ومشبهه من هذا الوجه، فإن المتعبد تعرض له هذه الأمور في بعض الأوقات،

وإن كان اعتقاده اللازم مخالفًا لذلك. وأما الحلولي فهو الذي يعتقد حلول الإله - تعالى الله عن قوله - في بعض الأشخاص، كدعوى النصارى حلوله في عيسى ابن مريم، ودعوى غلاة الرافضة حلوله في بعض أهل البيت، ودعوى كثير من المتصوفة حلوله العام أو الخاص، فكل هذا انحراف عن الصراط المستقيم الذي دلت عليه الكتب، ودعت إليه الرسل، وكفر وزندقة. فهؤلاء حصل لهم الانحراف من جهة الغلو.

«ويقابل الرجلين» أي: جهلة المتعبدة والحلولية رجلان آخران:

أحدهما: المعطل لصفات الله تعالى، الذي ينفر القلوب عن معرفة ربها ومحبته والإنابة إليه، فإن إثبات الصفات شرط لذلك، وهذا يسعى في تعطيلها وتحريفها ونفي حقائقها الثابتة، فهذا محجوب عن الله بتعطيله.

والثاني: صاحب الحجب الكثيفة، وهو الذي قد أعرض عن معرفة ربه، وغفل عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطًا، قد أقبل على شهوات نفسه ولذة جسمه، فقلبه مغمور بالشهوات، مصدود عن حقائق العبادات، فهذا بظلمة طبعه وشهوته ممنوع من نور القلب والأنس بربه والابتهاج بمحبته، لا يصل إليه النور حتى يفرغ قلبه من الشواغل الصادة عن مباشرة حقائق الإيمان إليه، ثم يجعل محبة الله هي غايته ومقصوده، وإرادة وجهه هي منتهى طلبه، ويجاهد نفسه على تخلقها بهذا الخلق الكامل، ويستعين بربه ويلتجئ إليه، فما خاب عبد أمَّل جوده وإحسانه، وتسبب لذلك بما يصل إليه قدرته.



فصل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الـ ـصفتان للأفعال تابعتان
وهما صفات الذات أيضًا إذ هما بالذات لا بالغير قائمتان
ولذاك قد غلط المقسم حين ظـ ـن صفاته نوعان مختلفان
إن لم يرد هذا ولكن قد أرا د قيامها بالفعل ذي الإمكان
والفعل والمفعول شيء واحد عند المقسم ما هما شيئان
فلذاك وصف الفعل ليس لديه إلْـ لَا نسبة عدمية ببيان
فجميع أسماء الفعال لديه ليـ ـست قط ثابتة ذوات معاني
موجودة لكن أمور كلها نسب ترى عدمية الوجدان
هذا هو التعطيل للأفعال كالـ ـتعطيل للأوصاف بالميزان
فالحق أن الوصف ليس بمورد الـ ـتقسيم هذا مقتضى البرهان
بل مورد التقسيم ما قد قام بالذْ ذات التي للواحد الرحمن
فهما إذًا نوعان أوصاف وأفـ ـعال فهذي قسمة التبيان
فالوصف بالأفعال يستدعي قيا م الفعل بالموصوف بالبرهان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما إن بين ذينك قط من فرقان
ومن العجائب أنهم ردوا على من أثبت الأسماء دون معاني
قامت بمن هي وصفه هذا محا ل غير معقول لذي الأذهان
وأتوا إلى الأوصاف باسم الفعل قا لوا لم تقم بالواحد الديان

فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ردوا به أقوالهم بوزان
إن كان هذا ممكنًا فكذاك قو ل خصومكم أيضًا فذو إمكان
والوصف بالتقديم والتأخير كو ني وديني هما نوعان
وكلاهما أمر حقيقي ونسـ بي ولا يخفى على الأذهان
والله قدر ذاك أجمعه بإحـ ـكام وإتقانٍ من الرحمن

أصل ما ذكر المصنف في تفسير المقدم والمؤخر أنه المقدم لمن يشاء من خلقه المؤخر له، والتقديم والتأخير نوعان: كوني قدري وديني شرعي، الأول: متعلق بقدرته وحكمته. والثاني: برحمته وقدرته وحكمته. فالأول لا يدل على رضاه ومحبته. والثاني يدل على ذلك. وحاصل الأول أنه المقدم لبعض المخلوقات على بعض في الخلق والرزق والتدبير، المؤخر لها في ذلك. وحاصل الثاني أنه المقدم بعض عباده على بعض في العلم والإيمان والفضائل الدينية وثواب ذلك، وكل من التقديم والتأخير حقيقي ونسبي، فالحقيقي أن يكون المخلوق مقدما مطلقًا أو مؤخرًا مطلقًا كونًا أو دينًا. والنسبي أن يكون ذلك بالنسبة إلى ما دونه أو إلى ما فوقه.

وقول المؤلف: «ولا يخفى (المثال) على (أولي) الأذهان».

أما التقديم والتأخير النسبي فظاهر في الكوني والديني، كتقديم الأب على الولد، وتقديم بعض القرون على بعض، وتأخرها عما قبلها، وكتقديم موسى في الفضل على غيره من الخلق سوى محمد وإبراهيم وتأخره عنهما، وكتقديم من فضل غيره بصفة دينية على المفضول وتأخره عن الفاضل.

وأما التقديم والتأخير الحقيقي الديني فظاهر، فإنه على الإطلاق محمد ﷺ مقدم بالفضل على سائر الخلق، وإبليس على الإطلاق مؤخر على سائر الخلق، فإنه شر الخليقة قطعًا.

وأما التقديم والتأخير الكوني الحقيقي فهذا لا يدري مثاله إلا الله تعالى، لأنا لا نعلم

ما أول ما خلق الله مطلقًا، ولا ندري آخر ما يخلق الله تعالى، بل لا سبيل لأحد من الخلق إلى علم ذلك، لأن الله لم يزل ولا يزال يفعل، لا مبتدأ لذلك ولا منتهى، فلا يحيط أحد من الخلق بشيء من ذلك.

ثم ذكر المصنف رحمه الله أن المقدم والمؤخر من صفات الأفعال، وذكر الفرق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية، وأنها كلها تشترك بقيامها بالله تعالى، لا فرق في ذلك بين الصفات الذاتية - كالسمع والبصر والعلم والقدرة ونحوها - وبين الصفات الفعلية - كالاستواء والنزول والكلام والخلق وأنواع التدبير - فكلها قائمة بالله تعالى، لاستحالة وجود الفعل من غير أن يتصف به الفاعل، هذا محال عقلًا ونقلًا ولغة، فكيف يضيف تعالى إلى نفسه فعلًا وهو قائم بغيره، هذا من أبطل الباطل، ولكن الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية من جهة أن الصفات الذاتية لا ينفك عنها بوقت ولا حال من الأحوال، كالعلم الذي لا يمكن أن يفارقه بحال، وكالقدرة والغنى الذي هو من لوازم ذاته، وكالعلو على المخلوقات ونحو ذلك.

وأما الصفات الفعلية فضابطها هي كل صفة تعلقت بقدرته ومشيئته، التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها على حسب ما تقتضيه الحكمة الربانية، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية؛ أي المتعلقة بإرادته واختياره تعالى، وذلك كالكلام، فإنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء وكيف شاء، لا يخلو وقت من الأوقات السابقة والأوقات اللاحقة التي لا منتهى لها ولا غاية إلا وهو موصوف بأنه متكلم بما يشاء، بكلماته الدينية وكلماته القدرية، بل لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد، لنفدت ولم تنفد كلمات الله، إذ هي غير مخلوقة، ولا منتهية.

وكذلك الخلق والتدبير والإحسان لم يزل تعالى بذلك موصوفًا وبالإحسان معروفًا، ولا يزال كذلك، ويدل على ذلك كل ما ورد في الكتاب والسنة من أنه قال كذا أو يقول كذا أو فعل كذا أو يفعل كذا مما لا يحاط بذكره لكثرته وانتشاره، ويدل على ذلك عقلًا أنه

قد تقرر أنه تعالى كامل القدرة نافذ المشيئة لم يزل ولا يزال كذلك، ومن كان كامل القدرة تام الإرادة فكيف يخلو وقت من الأوقات أن يكون معطلًا عن فعله وكلامه المترتب على ذلك، وقد تقرر أيضًا أنه الكامل من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، ومن المعلوم أن الكمال إنما يكون باتصافه كل وقت أنه يقول ويفعل ما يشاء، فإنا لو فرضنا أن يكون معطلًا في وقت من الأوقات عن أفعاله لكان ذلك نقصًا، يتعالى عنه الرب العظيم الكامل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

فهذا التقسيم بين صفات الذات وصفات الأفعال هو الحق الذي تدل عليه الأدلة والبراهين، فليس الوصف مورد التقسيم، فإنها كلها قائمة بالله قد اتصف بها، وإنما مورد التقسيم ما قد قام بذات الله من الصفات اللازمة التي لا ينفك عنها أبدًا، والصفات المتعلقة بقدرته ومشيئته وهي الصفات الفعلية.

ثم أنكر المصنف على من قسمها غير هذا التقسيم، ممن ينتسب إلى الأشعري وغيره من أهل الكلام، أنه لم يرد ما ذكره من هذا التقسيم، بل أرادوا أن صفات الأفعال لم تقم بالله ولم يتصف بها، وزعموا أن ذلك يقتضي حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا اللفظ كل صفة فعلية، فأنكروا استواءه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وأفعاله التي يوجدها شيئًا فشيئًا، وبنوا على هذا أن الكلام عبارة عن المعنى النفسي القديم الذي لا يعقل، ونفوا أن يكون متكلمًا في كل وقت بما شاء وإذا شاء، وهذا التعطيل لأفعال الله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين.

ولهذا تعجب المصنف من الأشعرية الذين أثبتوا الصفات الذاتية، وأنكروا غاية الإنكار على الجهمية الذين أثبتوا الأسماء دون المعاني والصفات، وحقيق بهم أن ينكروا عليهم، فإن إثبات الأسماء دون المعاني باطل عقلًا ونقلًا، ولكن الأشعرية نقضوا أصلهم الذي ردوا به على الجهمية في صفات الأفعال، وعطلوا الأفعال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فتناقضوا في هذا الأصل، فاستطالت عليهم الجهمية بما سلموه لهم من الأصل

الذي نفوا به الأفعال لله، وقالوا: الفعل هو المفعول، فحرفوا نصوص الكتاب والسنة، ونزلوها على هذا الأصل الذي أصلوه، وهو أن الفعل هو المفعول، وهذا باطل في الشرع؛ لمنافاته له، فاسد في العقل؛ لأنه محال أن يوجد مفعول بدون فعل متصف به الفاعل.

ولهذا ألزمهم المؤلف أنه إن كان قولكم هذا ممكنًا على الفرض والتقدير، فكذلك قول خصومكم الجهمية في أصلهم الذي ردوا به صفات الله يكون ممكنًا، وإن كان قول خصومكم باطلًا، فقولكم أيضًا باطل، إذ لا فرق بينهما بوجه من الوجوه.

وقول المؤلف في حكايته لقول هذه الطائفة: فلذاك أي لأجل أن الفعل والمفعول شيء واحد عندهم، ليس وصف الفعل عندهم إلا نسبة عدمية الوجدان، أي تنسب إليه باللفظ وهي مفقودة فيه، وهكذا سائر صفات الأفعال، وهل أعظم من هذا التعطيل وأبطل من قول يلزم منه تعطيل الأفعال عن فاعل لها، وتعطيل الكلام عن المتكلم فيه، فالوصف بالفعل يستدعي قيامه بالموصوف قطعًا.

والذي أوجب لهذه الطائفة النافية لصفات أفعاله أنهم ظنوا أن إثباتها يقتضي الحدوث لها، فإذا كانت حادثة كان من قامت به حادثًا أيضًا، وهذا غير لازم لإثباتها، فإنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بالقدرة الكاملة على الأقوال والأفعال، ومشيئته أيضًا نافذة لا مانع لها بوجه من الوجوه، وحدوث أفعاله وأقواله شيئًا فشيئًا لا محذور فيه، بل هو الكمال كما تقدم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: وأما قول القائل لو قامت به الأفعال لكان محلا للحوادث، والحادث إن أوجد له كمالًا فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن لم يوجب له كمالًا لم يجز وصفه به.

فيقال أولًا: هذا معارض بنظيره من الحوادث التي يفعلها، فإن كليهما حادث بقدرته

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ١٠٥-١٠٨.

ومشيئته، وإنما يفترقان في المحل، وهذا التقسيم وارد على الجهتين.

وإن قيل في الفرق: المفعول لا يتصف به، بخلاف الفعل القائم به.

قيل في الجواب: بل هم يصفونه بالصفات الفعلية، ويقسمون الصفات إلى فعلية ونفسية، فيصفونه بكونه خالقًا رازقًا بعد أن لم يكن كذلك، وهذا التقسيم وارد عليهم، وقد أورده عليهم الفلاسفة في مسألة حدوث العالم، فزعموا أن صفات الأفعال ليست صفات كمال ولا نقص.

فيقال لهم كما قالوه لهؤلاء في الأفعال التي تقوم به: إنها ليست كمالًا ولا نقصًا.

فإن قيل: لا بد أن يتصف إما بنقص أو كمال، قيل: ولا بد أن يتصف من الصفات الفعلية إما بنقص وإما بكمال، فإن جاز ادعاء خلو أحدهما عن القسمين أمكن الدعوى في الآخر مثله، وإلا فالجواب مشترك.

وأما المتفلسفة فيقال لهم: القديم لا تحله الحوادث، ولا يزال محلًّا للحوادث عندكم، فليس القدم مانعًا من ذلك عندكم، بل عندكم هذا هو الكمال الممكن الذي لا يمكن غيره، وإنما نفوه عن واجب الوجود لظنهم عدم اتصافه به.

وقد تقدم التنبيه على إبطال قولهم في ذلك، لا سيما وما قامت به الحوادث المتعاقبة يمتنع وجوده عن علة تامة أزلية موجبة لمعلولها، فإن العلة التامة الموجبة يمتنع أن يتأخر عنها معلولها أو شيء من معلولها، ومتى تأخر عنها شيء من معلولها كانت علة له بالقوة لا بالفعل، واحتاج مصيرها علة بالفعل أو بسبب آخر، فإن كان المخرج لها من القوة إلى الفعل هو نفسه صار فيه ما هو بالقوة هو المخرج له إلى الفعل، وذلك يستلزم أن يكون قابلًا وفاعلًا، وهم يمنعون ذلك لامتناع الصفات التي يسمونها التركيب.

وإن كان المخرج له غيره كان ذلك ممتنعًا بالضرورة والاتفاق؛ لأن ذلك ينافي وجوب الوجود، ولأنه يتضمن الدور المعيّ والتسلسل في المؤثرات، وإن كان هو الذي صار فاعلًا

للمعين بعد أن لم يكن امتنع أن يكون علة تامة أزلية، فقدم شيء من العالم مستلزم كونه علة تامة في الأزل، وذلك يستلزم ألا يحدث عنه شيء بوسط وبغير وسط، وهذا مخالف للمشهود.

ويقال أيضًا ثانيًا في إبطال قول من جعل حدوث الحوادث ممتنعًا: هذا مبني على تجدد هذه الأمور بتجدد الإضافات والأحوال والأعدام، فإن الناس متفقون في تجدد هذه الأمور، وفرق الآمدي بينهما من جهة اللفظ، فقال: هذه حوادث وهذه متجددات، والفروق اللفظية لا تؤثر في الحقائق العلمية.

فيقال: تجدد هذه التجددات إن أوجب له كمالًا فقد عدمه قبله وهو نقص، وإن أوجب له نقصًا لم يجز وصفه به.

ويقال ثالثًا: الكمال الذي يجب اتصافه به هو الممكن الوجود، وأما الممتنع فليس من الكمال الذي يتصف به موجود. والحوادث المتعلقة بقدرته ومشيئته يمتنع وجودها جميعًا في الأزل، فلا يكون انتفاؤها في الأزل نقصًا؛ لأن انتفاء الممتنع ليس بنقص.

ويقال رابعًا: إذا قدر ذات تفعل شيئًا بعد شيء وهي قادرة على الفعل بنفسها، وذات لا يمكنها أن تفعل بنفسها شيئًا، بل هي كالجماد الذي لا يمكنه بحال أن يتحرك، كانت الأولى أكمل من الثانية، فعدم هذه الأفعال نقص بالضرورة، أما وجودها بحسب الإمكان فهو الكمال.

ويقال خامسًا: لا نسلم أن عدم هذه مطلقًا نقص ولا كمال، ولا أن وجودها مطلقًا نقص ولا كمال، بل وجودها في الوقت الذي اقتضته مشيئته وقدرته وحكمته وجودَها فيه هو الكمال، ووجودها بدون ذلك نقص، وعدمها مع اقتضاء الحكمة عدمَها كمالٌ، ووجودها حيث اقتضت الحكمة وجودها هو الكمال.

وإذا كان الشيء الواحد يكون وجوده تارة كمالًا وتارة نقصًا، وكذلك عدمه، بطل التقسيم

المطلق، وهذا كما أن الشيء يكون رحمة بالخلق إذا احتاجوا إليه كالمطر، ويكون عذابًا إذا ضرهم، فيكون إنزاله عند حاجتهم رحمة وإحسانًا من المحسن الرحيم، المتصف بالكمال، ولا يكون ترك إنزاله حيث يضرهم نقصًا، بل هو أيضًا رحمة وإحسان، فهو محسن بالوجود حيث كان رحمة، وبالعدم حيث كان العدم رحمة. انتهى كلامه رحمه الله.

وقد برهن فيه بالدليل العقلي ما به يتبين الحق المبين، فجزاه الله خيرًا وأحسن إليه الجزاء. والمقصود أنه تبارك وتعالى هو المقدم المؤخر قدرًا وشرعًا تقديمًا وتأخيرًا تابعا لحكمته وحمده تعالى.



فصل

اعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب، وما لم يذكره منها فإنه ذكر نظيره أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر «المتين» وهو في معنى القوي القدير، ولم يذكر «الأعلى» وهو في معنى العلو، ولم يذكر «الرحمن الرحيم الكريم الرءوف» وهي في معنى البر الجواد الوهاب، ولم يذكر «الرب والله والملك والمالك».

وقد ذكر في **البدائع** أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى؛ فقال[1]: «الرب» هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما «الملك» فهو الآمر الناهي المعز المذل، الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما «الإله» فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فتدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله، كما هو قول سيبويه

---

(١) ٢/ ٢٤٩.

وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تبارك وتعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، فقد شملت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى. انتهى.

فصل

هذا ومن أسمائه ما ليس يفـ ـــرد بـل يقال إذا أتـى بقران

وهي التي تدعى بمزدوجاتها إفـرادهـا خطر على الإنسان

إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب العرش عن عيب وعن نقصان

كالمانع المعطي وكالضار الذي هـو نـافـع وكـمـالـه الأمـران

ونظير هذا القابض المقرون باسـ ـم الباسط اللفظان مقترنان

وكذا المعز مع المذل وخافض مـع رافـع لـفـظـان مـزدوجـان

وحديث إفراد اسم منتقم فمو قوف كما قد قال ذو العرفان

ما جاء في القرآن غير مقيد بالمجرمين وجا بـ«ذو» نوعان

قال المصنف في بدائع الفوائد[1]: أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا أو مقترنًا بغيره، فتقول: يا عزيز يا حكيم يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه به، فيسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله، كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، العفو المنتقم، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به

(1) ١/١٦٧.

أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًّا وعفوًا وانتقامًا، وأما أن يثني عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه، فلو قلت: يا مذل يا ضار يا مانع، أو أخبرت بذلك، لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابله. هذا كلامه رحمه الله، وهو شرح لهذه الأبيات التي ذكرها هنا.

وقوله: ولم تطلق عليه إلا مقترنة، وهنا قال: «وحديث إفراد اسم منتقم فموقوف»، كما قاله أهل المعرفة، فإن الثابت في الصحيحين[1]: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» ولم يذكر عددها، وإنما ذكرت في رواية الترمذي مرفوعة وموقوفة، والموقوف أصح، فإذا كان موقوفًا لم ينقض هذه القاعدة. وأما مجيء المنتقم في القرآن فإنه لم يطلق عليه إطلاقًا، وإنما قيده الله بالانتقام من المجرمين في قوله ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

وجاء في القرآن بلفظ «ذو» نوعان؛ يحتمل أنه في موضعين، ويحتمل أنه نوعان أي نوع مقيد بالمجرمين، ومرة لم يقيد بذلك، كما في قوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦]. وقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

---

(١) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

فصل

ودلالـــة الأســمـــاء أنـــواع ثلا ... ث كـلـهـا مـعـلـومـة بـبـيـان

دلـت مطابقة كـذاك تضمنًا ... وكـذا التزامًا واضـح البرهان

أمـا مطابقة الـدلالـة فهي أن ... الإسـم يفهم منـه مفهومان

ذات الإله وذلك الوصف الذي ... يشتق منه الإسـم بالميزان

لكن دلالـتـه على إحداهما ... بتضمن فافهمه فـهـم بيان

وكذا دلالته على الصفة التي ... مـا اشـتـق منها فـالـتـزام دان

وإذا أردت لـذا مـثـالًا بينًا ... فمثال ذلـك لفظة الرحمن

ذات الإلـه ورحـمـة مدلولها ... فهما لـهـذا اللفظ مـدلـولان

إحداهما بعض لذا الموضوع فهـ ... ـي تضمن ذا واضـح التبيان

لكن وصف الحي لازم ذلك الـ ... ـمعنى لـزوم العلم للرحمن

فـلـذا دلالـتـه عـلـيـه بـالـتـزا ... م بـيّـن والـحـق ذو تـبـيـان

هذه القاعدة التي ذكرها المصنف ليست خاصة بدلالة الأسماء الحسنى على معانيها، بل عامة في جميع الألفاظ بالنسبة لمدلولاتها، وضابط ذلك أن الدلالة نوعان: لفظية وعقلية.

فاللفظية: إما أن تعطي الألفاظ كل ما تناولته من المعاني والأوصاف، فتسمى دلالة مطابقة؛ لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص. وإما أن تعطي الألفاظ بعض ما تناولته من المعاني، فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى بعض اللفظ وداخل في ضمنه.

وأما الدلالة العقلية: فهي خاصية العقل والفكر، لعدم دلالة اللفظ بمجرده عليها وإنما ينظر العقل في ذلك المعنى الذي دل عليه اللفظ، وما يلزمه من المعاني الخارجية، وما يشترط له من الشروط التي لا يتم بدونها، فهذه قاعدة أصولية تجري في جميع الألفاظ، وتعتبر في كل موضع.

وذكر المصنف هنا منها ما يتعلق بالأسماء الحسنى، فأخبر أن الاسم من أسمائه الكريمة إن دل على الذات الإلهية والوصف الذي اشتق منها فدلالته دلالة مطابقة، وإن دل على أحد الأمرين إما الذات وحدها أو الصفة وحدها فدلالته دلالة تضمن، وإن دل على صفة أخرى لازمة لما دل عليه فدلالة التزام.

ومثال ذلك من الأسماء الحسنى لفظة «الرحمن»، فإن دلالته على ذات الإله وعلى رحمته الواسعة دلالة مطابقة، ودلالته على الذات وحدها أو على الرحمة وحدها دلالة تضمن، ودلالته على الحياة الكاملة وعلمه المحيط دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وعلمه بحال المرحوم وما يوصل إليه من الرحمة. وكذلك ما تقدم من استلزام الملك جميع صفات الملك الكامل الذي لا يتم بدونها، واستلزام الرب جميع صفات الربوبية، واستلزام الإله جميع صفات الإلهية، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد.

وحيث ذكر المصنف هذه القاعدة المتعلقة بأسمائه الحسنى، فلنضف إلى ذلك عدة قواعد تتعلق بالأسماء والصفات تتميمًا للفائدة، ذكرها في **بدائع الفوائد**. قال رحمه الله[1]: فائدة جليلة؛ ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك ذات وموجود وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم والقدير والسميع.

---

(١) ١/١٥٩.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض؛ كالقدوس السلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة، بل دال على معاني لا على معنى مفرد، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفا، ومنه رب العرش المجيد، صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ، لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن؛ إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إلى الله، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام**»[1]. ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام**»[2]. فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

فلنرجع إلى المقصود، وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة، فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد، قلت: وقد تقدم ذلك في الصمد.

---

(١) المسند (١٧٥٩٦)، الترمذي (٣٥٢٤).

(٢) أحمد (١٢٢٠٥).

ثم قال: **السادس**: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما. وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت؛ كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يناقض كماله. وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. متضمن لكمال قدرته. وكذلك ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]. متضمن لكمال علمه. وكذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]. متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]. متضمن لتفرده بكماله وأنه لا نظير له. وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإن هذا يخبر به عنه، ولا يدخل في باب أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والصانع والفاعل، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة

والفعل والصنع منقسمة؛ ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة.

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف فيها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة، وفائدتها العلمية محضة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران، اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه في الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًّا؛ كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه. فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها ما لم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلًا ومصدرًا، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه اسم السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]. هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به، نحو الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال: حَيِيَ.

التاسع: أن أفعال الرب تعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة

عن أفعالهم. فالرب تعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل. والرب تعالى لم يزل كاملًا فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا، إما علم بما كونه أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضي بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، ولهذا كله حسن، لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلًا ولا عبثًا ولا سدى، وكما أن كل موجود سواه بإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضياتها ومرتبطة بها. فتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللًا ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته. وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلًا. وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل، نحو الخالق الرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق في ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلًا ولا وصفًا، وإنما يدخل في

مفعولاته. وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله. فتأمل هذا، فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسماء الله تبارك وتعالى التي من أحصاها دخل الجنة، هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومداركها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]. وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثانية: دعاء طلب ومسألة، ولا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود أو يا شيء أو يا ذات، اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلًا إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم وجدها مطابقة لهذا. إلى أن قال:

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والعزيز والملك ونحوها:

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال.

الثاني: مقابله وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشئ.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول الأكثرين، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال وإبطال باطلها وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب أو بالعبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًا به.

الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله وللعبد ما يليق به، وهذا كاسم «السميع» الذي يلزمه إدراك المسموعات، و «البصير» الذي يلزمه رؤية المبصرات، و «العليم» و «القدير» وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها كما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لا يماثل فيه خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك. وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم من علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولًا

به مفتقرًا إليه محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا، وعقلتها كما ينبغي، خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين، آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس عشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أربعة أمور: أمران لفظيان، وأمران معنويان، فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبي أن يمتنع الاشتقاق لغيره. والمعنويان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي ألا يعود حكمها إلى غيره ولا يكون خبرًا عنه.

وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات. فلنذكر من ذلك مثالًا واحدًا وهي صفة الكلام، فإنها إذا قامت بمحل كان هو المتكلم دون من لم يقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهى ونادى وناجى وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصل أهل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحد بحد. إلى آخر ما ذكره مما تقدم مضمونه، ومما سيأتي تتمته في الفصل بعده.

فصل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين، وذكر انقسام الملحدين

والمقصود من هذا الفصل حفظ أسماء الله وأوصافه عن أن تحرف أو تغير، أو ينقص منها شيء، أو يبخس من كمال شيء من أوصافه، أو تعطل أو تمثل، ولهذا ذكر الأصل الجامع في هذا بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت لمعاني

يعني أن أسماءه كلها أوصاف مدح وحمد وثناء، وهي مشتقة من معانيها ثابتة له حقائقها، ولذلك كانت حسنى، فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولو كانت دالة على نقص أو بعضها دالا على ذلك لما كانت كلها حسنى، ولهذا إذا كان الوصف محتملًا للمدح ولغيره لم يدخل بمطلقه في أوصاف الله وأسمائه، كالمريد والصانع والفاعل ونحو ذلك.

قال المصنف في **البدائع**[1]:

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالًا ولا نقصًا. وإن كانت التسمية التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالًا ونقصًا باعتبارين، والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، فصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها،

(١) ١/ ١٦٧.

ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيرها ليس تفسيرًا بمرادف محض، وهو على سبيل التقريب والتفهيم. وإذا عرفت هذا فله تعالى من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص. انتهى.

إياك والإلحاد فيها إنه كفر معاذ الله من كفران

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ إشراك والتعطيل والنكران

فالملحدون إذًا ثلاث طوائف فعليهمُ غضب من الرحمن

بيَّن أن أسماءه تعالى كلها أوصاف مدح، حذر مما ينافي ذلك وهو الإلحاد، وأخبر أنه كفر كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وإنما كان الإلحاد فيها كفرًا لأنه رد لما أخبر الله به ورسوله من صفات الله المقدسة ونعوته الكاملة، بالميل فيها بالإشراك فيها، وجعلها له ولغيره، كما يفعله المشركون، أو نفي معانيها وحقائقها كما يفعله المعطلة، أو إنكارها كاملة كما يفعله الزنادقة.

ولهذا أخبر المصنف أن الملحدين منقسمون إلى ثلاثة أقسام، وهم حل عليهم غضب الله وعذابه.

قال في بدائع الفوائد[1]:

العشرون: وهو الجامع لما تقدم من الوجوه، وهو معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. والإلحاد فيها هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة (ل ح د)، فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

---

(١) ١/١٦٩.

قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]. أي من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه وتبتهل إليه فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تبارك وتعالى أنواع: أن يسمى الأصنام بها لتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها، وهذا الإلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة، ولهذا قال هنا:

المشركون لأنهم سموا بها أوثانهم قالوا إله ثاني

هم شبهوا المخلوق بالخلاق عكـ ـس مشبه الخلاق بالإنسان

أي يدخل في الإلحاد في أسماء الله من جهة التشريك في التسمية المشركون الذين شبهوا المخلوقات الناقصات من جميع الوجوه بالخالق الرب العظيم الكامل من كل وجه، فسموها آلهة ونحلوا لها من أسماء الله ما نحلوا، كما تقدم. ويدخل فيه أيضًا المشبهة من غلاة الرافضة واليهود الذين شبهوا الخالق تعالى بالمخلوق، فحملوا ما جاءت به نصوص الأنبياء من أوصاف كماله على ما يعقلونه من صفات المخلوقين، وأعطوا صفاته خصائص صفات المخلوقين، وهذا من أعظم الإلحاد في أسمائه وآياته.

وكـذاك أهـل الإتحـاد فإنهم إخوانهم من أقرب الإخوان

أعطوا الوجود جميعه أسماءه إذ كان عين الله ذا السلطان

والمشركون أقل شركًا منهمُ هم خصصوا ذا الإسم بالأوثان

ولذاك كانوا أهل شرك عندهم لو عمموا ما كان من كفران

أي وكذلك يدخل في هؤلاء الملحدين الذين شركوا بين المخلوقين والخالق ببعض الصفات أهل الاتحاد، الذين عم شرهم وطغى كفرهم وتلطفوا غاية التلطف

إلى إضلال الناس بكفرياتهم الشنيعة، التي لو أظهروها على صورتها وحقيقتها لرأى الناس منها إنكار رب العالمين جملة، وإنكار الرسل والكتب جملة، وإنكار المعاد والبعث بعد الموت، ولذلك اتفق العارفون بأقوالهم أنهم أكفر من اليهود والنصارى والمشركين.

ومن أكبر العجب اغترار كثير ممن ينتسب إلى الإسلام بهذا المذهب الخبيث، وتعظيمهم لأهل هذا المذهب حتى أدخلوه في كتبهم، واعتبروه في مباحثهم، ونسبوه للتحقيق، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وحقيقة مذهبهم أن جميع العالم العلوي والسفلي شيء واحد متحد بعضه ببعض، وإن تباينت أجزاؤه وتفرقت أحواله، فما ثم خالق ولا مخلوق، ولا رب ولا مربوب، ولا واجب الوجود وممكن الوجود، بل الخالق نفس المخلوق، والرب نفس المربوب، والعبد نفس المعبود، وجعلوا لله كل صفة ممدوحة ومذمومة، إذ كان هو الممدوح المذموم، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فإنهم أعظم الملحدين في أسماء الله وصفاته.

والمشركون أقل شركًا منهمُ ....

لأنهم خصصوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان بأسماء الله، وهؤلاء الملاحدة أعطوا جميع الموجودات أسماء الله وأوصافه، إذ كان أصل مذهبهم أن الله هو عين هذه الموجودات، قالوا: وإنما كفرنا المشركين لأنهم خصصوا الإلهية ببعض المخلوقات، ولو عمموا فجعلوا كل موجود إلهًا ما أشركوا ولا كفروا.

فتبًّا لهم ما أضلهم وأعماهم، حيث أنكروا وجود واجب الوجود الرب العظيم الملك الكبير، واشتبه عليهم بوجود هذه المخلوقات الممكنات التي ليس لها من أنفسها إلا العدم؛ عدم الوجود وعدم الكمال، وهذا القول يكفي في رده مجرد تصوره، فإن فساده معلوم بضرورة العقل والشرع. والمقصود أن هؤلاء الملاحدة من الذين ألحدوا في أسماء الله، وجعلوها لسائر المخلوقات، كما خصها المشركون ببعض المخلوقات.

والملحد الثاني فذو التعطيل إذ ينفي حقائقها بلا برهان
ما ثم غير الإسم أوّله بما ينفي الحقيقة نفي ذي بطلان

هذا القسم الثاني من الملحدين في أسماء الله، وهم المعطلة لأسماء الله النافون لحقائقها ومعانيها بلا برهان، ولا حجة إلا أهوية وآراء فاسدة لا تسمن ولا تغني من جوع، فلا يثبتون لله إلا أسماء مجردة عن المعاني، فيقولون: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، وإن أثبتوا لها معنى أولوها بالمعاني المجازية التي يعلم بالضرورة أن الله ورسوله لم يريداها، بل أرادا غيرها، ويدخل في هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية في الصفات الفعلية الخبرية، فإن مسلكهم فيها كمسلك الجهمية في الصفات الذاتية.

قال في **البدائع**[1]: ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ محدودة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا ولغة وشرعًا وفطرة، وهو مقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله، وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فيهم العالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقلّ أو ليستكثر. انتهى. وقوله:

فالقصد دفع النص عن معنى الحقيـ ـقة فاجتهد فيه بلفظ بيان
عطل وحرف ثم أول وانفها واقذف بتجسيم وبالكفران
للمثبتين حقائق الأسماء والـ أوصاف بالأخبار والقرآن

---

(١) ١/ ١٦٩.

فإذا همُ احتجوا عليك فقل لهم هـذا مـجـاز وهـو وضـع ثاني

فإذا غلبت عن المجاز فقل لهم لا يـسـتـفـاد حقيقة الإيـقـان

أنـــى وتـلـــك أدلـــة لـفـظـيـة عزلت عن الإيـقـان منذ زمان

يعني: أن القصد من هذا المعطل الملحد دفع نص الكتاب والسنة الوارد في صفات الله ونعوته، فهو مجتهد بدفعه غاية ما يمكنه بكل ما يقدر عليه، فيتوسلون إلى هذا المقصد الباطل بتعطيل المعاني الصحيحة وتحريفها؛ أي: تعويجها إلى معان باطلة، فينفي المعنى الحق ويثبت المعنى الباطل، ثم ما يكفيهم هذا حتى يقذفوا أهل الحق المثبتين حقائق أسماء الله وصفاته على ما جاءت به النصوص بالتجسيم والتكفير، لينفروا من قولهم ويقبحوه بما وضعوا لهم من الأسماء الباطلة، ويسمون أنفسهم أهل الحق ومقالتهم هي التنزيه قلبًا للحقائق، كما قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

فإذا هم ناظروا أهل السنة والجماعة عرفوا أن نصوص الكتاب والسنة مع أهل السنة، فيوصي بعضهم بعضًا، فيقولون: إذا احتجوا عليكم فقولوا لهم: هذا مجاز، والمجاز هو ما وضع ثانيًا، وليس المراد به ما يفهم منه، فإذا تمكنوا من هذا صالوا به وجالوا، فإذا غلبوا عن المجاز وأتاهم من الحقائق ما لا قبل لهم به، ولا يمكن دعوى المجاز به كما هو جلي في نصوص الأسماء والصفات، لجئوا إلى قاعدة لهم خبيثة باطلة، وهي أن النصوص أدلة لفظية لا تفيد الحق واليقين، وإنما تفيد غلبة الظن، وبزعمهم أن الذي يفيد اليقين هو آراؤهم الفاسدة وعقولهم الضالة، فإذا أتت النصوص مخالفة لما استقر في نفوسهم رأوا من اللازم صرفها عن المراد بها موافقة لما يعتقدونه.

وقد غلطوا في هذا أكبر الغلط وأفحشه، فإن نصوص الكتاب والسنة في أعلى رتب الحق واليقين، وهي أرفع أنواع الصدق، فإنها كلام الله الذي لا أصدق منه قيلًا ولا أحسن منه حديثًا، وكلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. ومع ذلك فقد أيد الله ورسوله ما أخبرا به من الحق بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، التي

لا تبقي في قلب مريد الحق والهدى أدنى ريب.

وغاية ما يوجد عند المتكلمين من المعقولات والبراهين جزء يسير مما اشتمل عليه كتاب الله وسنة رسوله، بل لا يمكن أن يوجد في الكتاب والسنة مسألة واحدة مخالفة لما يعلمه العقلاء أهل البصائر النافذة، بل أدلة المعقول موافقة لأدلة المنقول، فكيف يقول القائل: إنها أدلة لفظية لا تفيد اليقين. سبحانك هذا بهتان عظيم، يلزم منه بطلان أخباره وأوامره ونواهيه والكفر برب العالمين رأسا، فإنه لا يشاء متأول أن يتأول إذا فتحت لهم هذه القاعدة الشنعاء، والمقالة التي لم يسبق المتكلمين بها أحد من رسل الله ولا من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

ثم إن للمتكلمين أصلًا آخر إليه يفزعون عند تزاحم النصوص عليهم، وبه يتحصنون عن أدلة الكتاب والسنة، ذكره بقوله.

فإذا تضافرت الأدلة كثرة	وغلبْت عن تقرير ذا ببيان
فعليك حينئذ بقانون وضعـ	ـناه لدفع أدلة القرآن
ولكل نص ليس يقبل أن يؤ	ول بالمجاز ولا بمعنى ثاني
قل عارض المنقول معقول وما الـ	أمران عند العقل يتفقان
ما ثم إلا واحد من أربع	متقابلات كلها بوزان
إعمال ذين وعكسه أو تلغيَ الـ	ـمعقول ما هذا بذي إمكان
العقل أصل النقل وهو أبوه إن	تبطله يبطل أصله التحتاني
فتعين الإعمال للمعقول والـ	إلغاء للمنقول بالبرهان
إعماله يفضي إلى إلغائه	فاهجره هجر الترك والنسيان

يعني أن المتكلمين يصولون بهذا القانون الباطل على دفع أدلة الكتاب والسنة، وحاصل تقريره أنهم يقولون: إذا تعارض العقل والنقل فلا بد من واحد من أربعة أمور: إما أن يعملا

كلاهما، أو يلغيا، أو يعمل النقل ويلغى العقل، أو يعمل العقل ويلغى النقل.

وعندهم أن الأقسام الثلاثة الأول غير ممكنة، وأنه يتعين القسم الرابع، وهو إعمال المعقول وإلغاء المنقول، وذلك أن إعمالها مع التعارض غير ممكن، فإنهما لو أعملا والحالة هذه لم يكن تعارض، وإلغاؤهما أيضًا غير ممكن، لأنه يلزم منه إبطال العقل والنقل، وإعمال النقل مع إلغاء العقل غير ممكن على زعمهم، لأن إعمال النقل يقتضي إلغاءه، فإن النقل لم يعرف إلا بالعقل، فهو الطريق لثبوته على زعمهم، فإذا قدحنا في الأصل الذي هو العقل لزم القدح فيما يتفرع عنه وهو النقل، فتعين حينئذ إعمال العقل وإلغاء النقل بهذا القانون الفاسد، ووجب أن توزن به نصوص الكتاب والسنة.

وهذا التقسيم الذي حصروه بهذه الأقسام والحكم الذي حكموا به باطلان عقلًا وشرعًا، وقد تصدى لإبطاله الإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه **العقل والنقل**[1]، فقال لما ذكر تقسيمهم هذا: والمقصود هنا الكلام على قول القائل إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية إلى آخره. والكلام على هذه الجملة بني على بيان ما في مقدمتها من التلبيس، فإنها مبنية على مقدمات: **أولها**: ثبوت تعارضهما، **والثانية**: انحصار التقسيم فيما ذكره من الأقسام الأربعة، **والثالثة**: بطلان الأقسام الثلاثة. والمقدمات الثلاثة باطلة.

وبيان ذلك بتقديم أصل، وهو أن يقال: إذا قيل: تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا، فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا، وهذا متفق عليه بين العقلاء؛ لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية؛ فلا بد أن

---

(١) ١/ ٧٨.

يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو ألا يكون مدلولاهما متناقضين، فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين.

وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًّا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء؛ سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يدفع اليقين. وأما إن كانا جميعًا ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا.

ثم أطال الكلام بما يشفي ويكفي، رحمه الله تعالى.

ولما كان كلام المؤلف عن المتكلمين بذكر هذا القانون يوهم نوع مبالغة دفع هذا الوهم بقوله:

والله لم نكذب عليهم إننا	وهمُ لدى الرحمن مجتمعان
وهناك يجزى الملحدون ومن نفى الـ	إلحاد يجزى ثمّ بالغفران

ولعله أخذه من قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠]. فالملحدون يجزون بالعقاب الوبيل، والمثبتون لله الأسماء والصفات النافون لإلحاد الملحدين يجزون هناك بالعفو والغفران والخلود في الجنة ونيل أعلى الكرامات.

فاصبر قليلًا إنما هي ساعة	يا مثبت الأوصاف للرحمن
فلسوف تجني أجر صبرك حين يجـ	ـني الغير وزر الإثم والعدوان
فالله سائلنا وسائلهم عن الـ	إثبات والتعطيل بعد زمان
فأعدّ حينئذ جوابًا كافيًا	عند السؤال يكون ذا تبيان

يرغّب رحمه الله المثبت لصفات الله على صبره على ذلك، ولو كثر المخالفون ورأى منهم المعارضة والمعاكسة، فإن الصبر عاقبته حميدة، خصوصًا في المحن التي ستنقطع، وربما أعقبها في الدنيا السعادة والفلاح والعز والصلاح، فإن الدنيا كلها قليل، وعمر الإنسان

منها أقل القليل، وأوقات الابتلاء والامتحان نزر يسير بالنسبة إلى عمره ووقته.

فالله سائل العباد عما كانوا عليه في الدنيا، فمن كان جوابه أن يقول: قد قلت يا ربي ما قلته في كتابك وقاله رسولك محمد ﷺ، فهذا الجواب المنجي، ومن كان جوابه تقديم العقول الكاسدة والآراء الفاسدة على ما قاله الله وقاله رسوله لم يكن ذلك منجيًا له من العقاب، ولا موصلًا له إلى الثواب، فإن الله لا يسأل العباد إلا عما جاءت به المرسلون إقرارًا وعلمًا وعملًا.

هذا وثالثهم فنافيها ونا ... في ما تدل عليه بالبهتان

ذا جاحد الرحمن حقًّا لم يقرّ ... بخالق أبدًا ولا رحمن

يعني أن الملحد الثالث هو النافي لأسماء الله ونافي ما تدل عليه من صفات الكمال بالبهتان والقول الباطل، وهذا أعظم أنواع الإلحاد، فإنه متضمن لجحد الخالق وجحد ربوبيته وأوصافه المقدسة، وذلك كفرعون ونحوه، وكالفلاسفة الذين يشتمل قولهم على جحد رب العالمين.

هذا هو الإلحاد فاحذره لعل الـ ... ـله أن ينجيك من نيران

وتفوز بالزلفى لديه وجنة الـ ... مأوى مع الغفران والرضوان

هذا أي جميع ما تقدم من الأقسام هو الإلحاد بينه المصنف لأجل أن يحذر منه، فإنه موجب لدخول النار، والحذر منه موجب للنجاة منها، وللفوز بالزلفى عند الله في جنات النعيم، ونيل المغفرة والرضا من الرب الكريم، فإن العبد إذا نجا من الإلحاد في أسماء الله وآياته كان متبعًا لكتب الله ولما جاءت به الرسل، وهذا الطريق الموصل إلى السعادة الأبدية، وإذا فاته هذا الطريق فما ثم إلا طرق الجحيم.

ولما كان أكثر الناس قد سلكوا طرق المهالك، واقتطعتهم الشياطين عن سعادتهم إلا النادر منهم، وكانت النفس مجبولة على وحشة التفرد وعدم الرفيق، حث المصنف رحمه

الله على لزوم الاستقامة وإن قل الموافق وكثر المخالف، فقال:

لا توحشنك غربة بين الورى ... فالناس كالأموات في الجبان
أوما علمت بأن أهل السنة الـ ... ـغرباء حقًّا عند كل زمان
قل لي متى سلم الرسول وصحبه ... والتابعون لهم على الإحسان
من جاهل ومعاند ومنافق ... ومحارب بالبغي والطغيان
وتظن أنك وارث لهمُ وما ... ذقت الأذى في طاعة الرحمن
كلا ولا جاهدت حق جهاده ... في الله لا بيد ولا بلسان
منّتك والله المحال النفس فاسـ ... ـتحدثْ سوى ذا الرأي والحسبان
لو كنت وارثه لآذاك الألى ... ورثوا عداه بسائر الألوان

وكل هذا من حكمة الله تعالى، حيث جعل لأهل الحق من يعارضهم ويقاومهم، ويحرص على أذيتهم ورد ما معهم بأي طريق، ليقوم بذلك سبيل الجهاد، وليتبين الحق من الباطل، فإن الحق إذا عارضه الباطل وأهله؛ ظهر من أدلته وبراهينه ما يبهر العقول، ووضح واستعلن وتبين من بطلان الباطل وفساده ما به العبرة لمن اعتبر، وليحصل بذلك التمييز بين الصادق من الكاذب، فإن المؤمن الصادق المتبع للحق على الحقيقة لا تزيده المعارضات إلا ثباتًا على ما هو عليه، ويزداد إيمانه ويكمل إيقانه، بخلاف من لم يباشر الإيمان قلبه، ولم يصل اليقين في حقه إلى مرتبة الجزم الذي لا شك فيه، فهذا لا يكاد يثبت عند المحن والقلاقل، فإنه ممن يعبد الله على حرف، فمع العافية المستمرة ربما لزم ما هو عليه، ومن لطف الله في حق هذا ألا يقيض له من المحن ما يزيل إيمانه بل يعافيه، وإلا فسنة الله الجارية التي لا تغير ولا تبدل أنه لا بد من الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

فلو سلم أحد من المعارضين من المعاندين والمنافقين والمحاربين، لسلم الرسول وأصحابه والتابعون لهم بإحسان، فمن ظن أنه متبع لهم على الحقيقة، وأنه سيسلم من الأذى في سبيل الله فهو غالط، فإنه لا بد أن يكون للرسول وأصحابه وراث، ولأعدائهم وراث، ويقوم سوق الجهاد، فإن الدنيا دار مجاهدة وعبادة، لا محل طمأنينة واستقرار، فإن الراحة التامة في جنات النعيم، ومن المعلوم أن الراحة لا تدرك بالراحة، بل لا بد من التعب والعناء، ولكن قد يهونه الله على عباده المؤمنين فيجدون من لذة المجاهدة في طاعة ربهم أعظم مما يجده أهل الشهوات الحسية، وهذا هو الواقع، ولكن مرارة الابتداء تمنع أكثر الناس عن هذا الأمر العظيم. ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.



فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

وهذا النوع هو زبدة رسالة الله لرسله، فإنه كل نبي يبعثه الله تعالى يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، فكل نبي يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وأمرهم به على ألسنة رسله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب في الدنيا والآخرة لمن قام به، والعقاب في الدنيا والآخرة لمن تركه، وبه الفرق بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه من كل وجه، فيعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته، ويعرف شواهده وأدلته وبراهينه وحججه التي تؤيده وتنميه وتقويه، ويعرف شروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع، فأما حدُّه وتفسيره وأركانه ومكملاته فقد ذكرها المصنف في ضمن قوله:

هذا وثاني نوعَيِ التوحيد تو ... حيد العبادة منك للرحمن

ألا تكون لغيره عبدًا ولا ... تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والـ ... إحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك الـ ... ـتوحيد كالركنين للبنيان

فحده أن يعلم العبد أن الله هو المألوه المعبود على الحقيقة، فيفرده بأنواع العبادة كلها الظاهرة والباطنة، يعني أنه يقوم بالإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها من الأعمال الظاهرة، وبالإيمان كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والتزام القيام بما أوجب الله وترك ما حرم الله، وبالإحسان كالقيام بحقائق العلم والإيمان والأعمال الصالحة، وهي روحها ولبها المقصود منها، فيقوم بذلك كله خالصًا لوجه الله تعالى متابعًا فيه سنة رسوله محمد ﷺ.

وهذان الركنان: الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ركنان، وإن شئت قلت: شرطان لكل عبادة ظاهرة وباطنة، فكل عبادة خلت منهما أو من أحدهما فهي باطلة غير معتد بها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[الزمر: ٣]. وقال تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:٢]. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه، قالوا: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وقال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[1]: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**». وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2].

وحقيقة هذا التوحيد أنه يسمى توحيد الإلهية، بالنسبة إلى وصف الله المقتضي لأن يكون هو المحبوب المألوه المعظم المعبود وحده، ويسمى توحيد العبادة بالنسبة إلى وصف العبد، الذي هو إخلاص جميع أنواع العبادة التي شرعها الله ورسوله لله تعالى، فالإلهية وصف الله تعالى، والعبودية وصف العبد، ولهذا جمع الله بين الأمرين في قوله لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه:١٤]. وفي قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ [مريم:٣٦]. وقول الرسل لأممهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥].

---

(١) البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨/ ١٧). (٢) مسلم (١٧١٨/ ١٨).

وإذا علمنا أن هذا حده وتفسيره، فمن المعلوم أن الداخلين في هذا الاسم متفاوتون تفاوتًا عظيمًا، وأنه بحسب قيام العبد بالإسلام والإيمان والإحسان والأعمال الصالحة علمًا وعملًا وحالًا تكون مرتبة العبد في التوحيد وكماله فيه، والأجر والثواب في الدنيا والآخرة على هذا الأصل، بل كل خير في الدنيا والآخرة فإنه من آثار التوحيد وثمراته، كما أنه كل شر في الدنيا والآخرة فمن آثار ترك التوحيد.

ثم فسر المؤلف الإخلاص والمتابعة فقال:

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا　　د فلا يزاحمه مراد ثاني

لكن مراد العبد يبقى واحدًا　　ما فيه تفريق لدى الإنسان

يعني أن الإخلاص حقيقة أن يوحد العبد مراده ومقصوده، فتكون نيته وإرادته متعلقة بالله وحده لا شريك له، فلا يكون لهذا المراد مزاحم يزاحمه من الأغراض النفسية، بل يكون وصف العبد الإخلاص لله على الدوام، ويقوم بما يقوم به من الأعمال مستحضرًا لهذا المعنى الشريف، خاليًا من الرياء والمقاصد المخالفة لهذا المقصود، وبهذا يكون العمل صالحًا مقبولًا مثمرًا للثواب.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» متفق عليه[1]. ففاوت بين العملين، وصورتهما واحدة بحسب تفاوت النية والمقصود. وكذلك لما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» متفق عليه[2].

فعلى العبد أن يجاهد نفسه على الدوام في كل فرد من أفراد العبودية على أن يقصد به

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).　(٢) البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

وجه الله وحده لا شريك له، ويجتهد في دفع الخواطر المنافية لذلك، ليكون الإخلاص له وصفًا وخلقًا، وهو روح التوحيد والأعمال الصالحة، وتمام ذلك أن يراعي متابعة الرسول ﷺ في جميع أقواله وأفعاله الظاهرة والخفية، وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فينفي الإلهية عما سوى الله تعالى، ويثبتها لله وحده، ويتحقق بمعناها، ويصدق الرسول في خبره ويطيعه في أمره.

ثم ذكر نموذجًا من الأدلة الدالة على التوحيد والعبادة فقال:

إن كان ربك واحدًا سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان

أو كان ربك واحدًا أنشاك لم ... يشركه إذ أنشاك رب ثاني

فكذاك أيضًا وحده فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان

يعني إذا كنت مقرًّا بأن ربك واحد فهو الخالق الرازق المربي لك ولسائر المخلوقات، فخصه بالتوحيد والأعمال الصالحة، فإذا علمت أنه الذي أنشأك وحده من غير مشارك له ولا معاون، فكذلك اعبده وحده لا تعبد غيره ممن لم يكن كذلك. وهذا الدليل - وهو الاستدلال بتوحيد الربوبية على صحة توحيد العبادة - كثيرًا ما يذكره الله في كتابه، ويستدل على المشركين الذين ينكرون توحيد الألوهية، فيلزمهم بأقوالهم توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]. وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا دليل واضح جدًّا ينتقل الذهن منه إلى المدلول بأول وهلة، فإنه إذا كان من المعلوم المتقرر عند كل أحد حتى المشركين بالله أن الله هو الخالق وحده المدبر لجميع الأمور،

وكل ما سواه مخلوق مدبر، فإن العقل والفطر يجزمان بتعين عبادة الله وحده، وأنه المستحق للعبادة دون من سواه ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا حياة ولا نشورًا، ولا له من الكمال ما يقتضي أن يعبد لأجله.

واعلم أن أدلة التوحيد كثيرة جدًّا يعسر عد أنواعها، فضلًا عن أفرادها، ولكن سننقل هنا عبارتنا في التفسير على قوله تعالى ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد: ١٩]. الآية.

قلت: العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بما طلب منه علمه، وتمامه العمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به وهو العلم بتوحيد الله فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد معه عقله، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا ولا حياة

ولا موتًا ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرة من جلب خير أو دفع شر، فإن معرفة ذلك والعلم به يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا ورأيًا وصوابًا وعلمًا وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا هو، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت براهين التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم في قلب العبد بحيث يكون أعظم من الجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد على تكرار الباطل والشبه إلا نموًّا وكمالًا. هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته، فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره، إلى آخر ما ذكرته على تلك الآية الكريمة.

وهذه المذكورات أجناس وأنواع للأدلة، لو فصلت وبسطت لبلغت شيئًا كثيرًا.

قال المصنف في **مدارج السالكين** [1] لما ذكر توحيد المبطلين والمثبتين:

---

(١) ٣/ ٤٤٩.

فصل

وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سماواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع حد الإفصاح، كما في أول الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية. وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولًا كليًّا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الطلبي الإرادي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ونهيه وأمره فهو من حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عن حكم من خرج عن التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. فالحمد لله توحيد، رب العالمين توحيد، الرحمن الرحيم توحيد، مالك يوم الدين توحيد، إياك نعبد توحيد، إياك نستعين توحيد، اهدنا الصراط المستقيم توحيد، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد.

ثم أطال الكلام في هذا الموضع بما لا يستغني عنه المؤمن.

والصدق توحيد الإرادة وهو بذ　　　ل الجهد لا كسلًا ولا متواني

والسنة المثلى لسالكها فتو　　　حيد الطريق الأعظم السلطاني

فلواحدٍ كن واحدًا في واحد　　　أعني سبيل الحق والإيمان

يعني أن التوحيد لا يتم إلا بثلاثة أمور:

توحيد المراد: وهو الإخلاص كما تقدم.

وتوحيد الإرادة: وهي ألا تكون الإرادة منقسمة، بأن يبذل العبد جهده ومقدوره في القيام بما أمر الله به علمًا وعملًا ووصفًا من غير كسل ولا توان ولا انحلال عزيمة، فهذا حقيقة الصدق.

وتوحيد الطريق: وهو اتباع السنة ظاهرًا وباطنًا.

ثم أجمل الثلاثة في قوله: «فلواحد» أي الله وحده، وهو الإخلاص، «كن واحدًا » أي مجتمع الإرادة والقصد والعمل، وهو الصدق، في «واحد» وهي المتابعة، فسره بقوله: «أعني سبيل الحق والإيمان»، أي وما سواها من الطرق فإنها طرق الغي والضلال والكفر والوبال.

هذي ثلاث مسعدات للذي　　　قد نالها والفضل للمنان

فإذا هي اجتمعت لنفس حرة　　　بلغت من العلياء كل مكان

يعني أن من اجتمعت له هذه الأمور الثلاثة بأن يكون الإخلاص خلقه ووصفه، وأعماله مقرونة به، والصدق والاجتهاد قرينه وحامله، واتباع الرسول طريقه، فهو السابق حقًّا، المستولي على الغاية التي لا غاية فوقها، والكمال الذي لا كمال فوقه، وحصلت له السعادة والفلاح، والفوز والأرباح، فإن تخلف كمال العبد وحرمانه مداره على فقد واحد من هذه الثلاثة أو اثنين أو كلها.

لله قلب شام هاتيك البرو	ق من الخيام فهمّ بالطيران
لولا التعلل بالرجاء تصدعت	أعشاره كتصدع الحيران
وتراه يبسطه الرجاء فينثني	متمايلًا كتمايل النشوان
ويعود يقبضه الإياس لكونه	متخلفًا عن رفقة الإحسان
فتراه بين القبض والبسط اللذيـ	ـن هما لأفق سمائه قطبان
وبدا له سعد السعود فصار مسـ	ـراه عليه لا على الدبران
لله ذياك الفريق فإنهم	خصوا بخالصة من الرحمن
شدت ركائبهم إلى معبودهم	ورسوله يا خيبة الكسلان

يتعجب المؤلف رحمه الله ويستعظم من قلب مَنّ الله عليه بالتحقق بالصدق والإخلاص والمتابعة، حتى صارت له نعتًا، وصارت رغبته كلها في مراضي ربه في كل وقت، فكلما بدا له منزلة من منازل السائرين، وخصلة من خصال العاملين بادر إليها شوقًا ومحبة، وانقاد لها طوعًا واختيارًا، بمنزلة من طالع البروق من خيام الأحبة على بعد، فصار قلبه ينازعه، حتى يكاد يهم أن يطير إلى أحبابه ويتمتع بلقائهم، الذي هو ألذ للمحبين، يمر عليهم من أرواحهم، فلولا أن المحب يتعلل بقرب اللقاء ويحدث نفسه باجتماعه بأحبته لتصدعت أعشار قلبه، أي جوانبه، كتصدع الحيران الذي حيره الحب وذهب بشعوره.

كذلك المحب لله تعالى، يجهد نفسه في مراضيه حتى تنمو محبة الله في قلبه، ويحدث

له الشوق والقلق، فلولا أنه يلاطف نفسه برجاء اللقاء لذابت نفسه واحترق لبه، ثم إذا نظر إلى نفسه وتقصيره وتخلفه عن رفقة السابقين قبضه اليأس، فتجده بين الخوف والرجاء اللذين هما لعبادته وأعماله كالقطبين في النجوم.

فالعبادات كلها تدور على الخوف والرجاء، فيرجو العبد قبولها وتقريبها لربه، ويخاف من ردها وعدم القيام بها وبحقوقها. إن نظر إلى رحمة الله ولطفه انفتح له باب الرجاء والطمع، وإن نظر إلى تقصيره وما يستحقه الله من العبودية التي لا يمكن العبد القيام بها أحدث له القبض، وباعتدال الخوف والرجاء يعتدل سير العبد، فإذا رجح جانب الرجاء خيف الأمن من مكر الله، وحصل الإدلال والشطح الذي لا يليق بالمخلوق، وإن رجح جانب الخوف خيف منه اليأس والقنوط من رحمة الله.

وهذه المراتب الثلاث المحبة والخوف والرجاء أصل أعمال القلوب، وبها تستقيم الأعمال الظاهرة والباطنة، كما جمعها الله في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء:٥٧].

وقول المصنف: «وبدا له سعد السعود»، البيت يحتمل أن مراده بهذا التشبيه أن سير هذا الفريق لما كان مصاحبًا للخوف والرجاء، وكانت روحه المحبة كان سيرًا محمودًا مآله إلى العز والفلاح، والعلو وحصول الأرباح، بخلاف من كان سيره سير البطالين أهل الكسل، فإن سيرهم إلى وراء. قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

ويحتمل أنه أراد «بسعد السعود» السير على متابعة الرسول والاقتداء بهديه، وتجنب السير على الدبران، كالسير خلف كل من خالف الرسول. وقوله: «لله ذياك الفريق»، أي الموصوف بتلك الصفات الحميدة.

وهذا التصغير المراد به التعظيم والتعجب من حسن حالهم وعلو قدرهم، ولهذا قال: «فإنهم خصوا بخالصة من الرحمن». أي أخلصهم الله من كل كدر واختصهم بولايته. قال تعالى عن خيار أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦]. أي جعلنا ذكر الدار

الآخرة في قلوبهم والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر. وقوله:

شدت ركائبهم إلى معبودهم ....

هذا هو الإخلاص لله ورسوله بالمتابعة. «يا خيبة الكسلان» الذي تخلف عن فريقهم، ولم يسلك مسلكهم في طريقهم.

فصل

في بيان ما يناقض هذا التوحيد من الشرك الأكبر والأصغر ووسائل ذلك

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ـا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

يعني أن الشرك نوعان: ظاهر: وهو الشرك الأكبر المخرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفران، الذي لا يغفره الله ولا يدخل صاحبه الجنة، بل هو من أصحاب النار. وحدّه اتخاذ الند للرحمن من الملائكة أو الرسل أو الأولياء أو الحيوانات أو الجمادات، يتقرب إليه كما يتقرب إلى الرحمن بالدعاء والخوف والرجاء والمحبة وسائر أنواع العبادة، فحقيقته أن يصرف العبد نوعًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى، وسواء سمى من تقرب إليه بذلك إلهًا أم لا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦]. ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على كفر من عبد مع الله غيره وخلوده في النار.

وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة قريبة موصلة إلى الشرك الأكبر، إذا لم تصل إلى رتبة العبادة، كالحلف بغير الله والرياء والتصنع للمخلوقين والغلو في الأموات ونحو ذلك، فلا

يتم للعبد التوحيد حتى يتبرأ من الشرك كله ظاهره وباطنه، ويخلص لله أعماله كلها.

وهذا التوحيد الذي هو عبادة الله وحده هو الذي أنكره المشركون على رسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]. وهم مقرّون بتوحيد الربوبية، وأنه المالك وما سواه مملوك، ولهذا قال المصنف:

والله ما ساووهمُ بالله في	خلق ولا رزق ولا إحسان
فالله عندهمُ هو الخلاق والرْ	زاق مولي الفضل والإحسان
لكنهم ساووهمُ بالله في	حب وتعظيم وفي إيمان
جعلوا محبتهم مع الرحمن ما	جعلوا المحبة قط للرحمن
لو كان حبهمُ لأجل الله ما	عادَوْا أحبته على الإيمان
ولما أحبوا سخطه وتجنبوا	محبوبه ومواقع الرضوان
شرط المحبة أن توافق من تحـ	ـب على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة معْ خلا	فك ما يحب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي	حبًّا له ما ذاك ذو إمكان
وكذا تعادي جاهدًا أحبابه	أين المحبة يا أخا الشيطان

يريد المؤلف رحمه الله قول الله تعالى عن أهل النار حين رأوا بطلان عبادتها: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧، ٩٨]. أي أنهم ما ساووهم بالله بالخلق والرزق والإحسان، فإن المشركين كما تقدم مقرون بأن الله هو الخالق الرازق المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة، وإنما سووهم بالله في الحب والتعظيم والعبادة، فأحبوهم مع الرحمن وشركوهم فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]. فهذا الحب مع الله الذي يقدح في التوحيد فلو كانت محبتهم لهم لله أو لأجله لأحبوا ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، فإن هذا علامة المحبة لله.

وأما من زعم أنه يحب الله ثم عادى أولياء الله وعادى ما يحبه الله من الأعمال، ووالى أعداء الله وما يبغضه من أنواع المعاصي، فهذا كاذب في دعواه. فإن شرط المحبة موافقة المحبوب في محابه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن صفات المحبين لله أنهم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

فالمحبة ثلاثة أنواع:

محبة الله: وهي روح التوحيد وأصل العبادات والتقربات كلها.

ومحبة في الله: وهي محبة ما يحبه الله من أنبيائه وأوليائه والأعمال المقربة إلى الله، وهذه من تمام محبة الله، وبحسب قوة محبة الله تقوى هذه المحبة. ولهذا ورد في الدعاء المشهور: «**اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقرب إلى حبك**»[1].

والثالث: المحبة مع الله؛ وهي محبة المشركين لآلهتهم مع الله محبة عبودية، وهذه منافية للتوحيد من كل وجه. وثم محبة طبيعية لا تحمد ولا تذم إلا لآثارها، كمحبة الطعام والشراب، ومحبة الأليف والوطن ونحو ذلك.

ليس العبادة غير توحيد المحبـ ـة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن حقيقة المحبة هي توحيد المحبة والذل، والتعظيم لله تعالى، فإن العبادة حب كامل وذل تام للمحبوب.

---

(١) الترمذي (٣٤٩٠).

والحب نفس وفاقه فيما يحب وبغض ما لا يرتضي بجنان
ووفاقه نفس اتباعك أمره والقصد وجه الله ذي الإحسان
هذا هو الإحسان شرط في قبو ل السعي فافهمه من القرآن
والإتباع بدون شرع رسوله عين المحال وأبطل البطلان
فإذا نبذت كتابه ورسوله وتبعت أمر النفس والشيطان
وتَخِذْتَ أندادًا تحبهمُ كحب الله كنت مجانب الإيمان

يريد رحمه الله أن المحبة في الحقيقة نفس موافقة الله في محبة ما يحبه وبغض ما يبغضه، وذلك يتحقق باتباع أمر الله الذي شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ في أصول الدين وفروعه في ظاهره وباطنه، مع الإخلاص لله تعالى وإرادة وجهه الأعلى. وهذه الموافقة المشتملة على المتابعة والإخلاص هي الإحسان الذي قال الله فيه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أي أخلصه وأصوبه، وفي قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وفي قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

والمتابعة لا تمكن إلا باتباع الرسول ﷺ، فمن نبذ كتاب الله وسنة رسوله، وتبع أوامر النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، واتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله، خرج من الإيمان من حيث يظن أنه مؤمن، فإن اتخاذ الأنداد من دون الله مناقض لقول لا إله إلا الله، وإن الخروج عن الاهتداء بالكتاب والسنة مناقض لشهادة محمد رسول الله، وما أكثر من هو بهذا الوصف ممن ينتسب إلى الإيمان والتحقيق، كما قال المصنف:

ولقد رأينا من فريق يدعي الـ إسلام شركًا ظاهر التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو وهم به في الحب لا السلطان
والله ما ساووهمُ بالله بل زادوا لهم حبًّا بلا كتمان

والله ما غضبوا إذا انتهكت محا   رم ربهم في السر والإعلان
حتى إذا ما قيل في الوثن الذي   يدعونه ما فيه من نقصان
فأجارك الرحمن من غضب ومن   حرب ومن شتم ومن عدوان
وأجارك الرحمن من ضرب وتعـ   ـزير ومن سب ومن سجان
والله لو عطّلت كل صفاته   ما قابلوك ببعض ذا العدوان
والله لو خالفت نص رسوله   نصًا صريحًا واضح التبيان
وتبعت قول شيوخهم أو غيرهم   كنت المحقق صاحب العرفان
حتى إذا خالفت آراء الرجا   ل لسنة المبعوث بالفرقان
نادوا عليك ببدعة وضلالة   قالوا وفي تكفيره قولان
قالوا تنقصت الكبار وسائر الـ   ـعلماء بل جاهرت بالبهتان
هذا ولم تسلبهمُ حقًا لهم   ليكون ذا كذب وذا عدوان
وإذا سلبت صفاته وعلوه   وكلامه جهرًا بلا كتمان
لم يغضبوا بل كان ذلك عندهم   عين الصواب ومقتضى الإحسان
والأمر والله العظيم يزيد فو   ق الوصف لا يخفى على العميان
وإذا ذكرت الله توحيدًا رأيـ   ـت وجوههم مكسوفة الألوان
بل ينظرون إليك شزرًا مثلما   نظر التيوس إلى عصا الجوبان
وإذا ذكرت بمدحة شركاءهم   يستبشرون تباشر الفرحان
والله ما شموا روائح دينه   يا زكمة أعيت طبيب زمان

وهذه الأبيات واضحة المعنى. والأمر كما قال المصنف عن هذا الفريق المنتسب للإسلام، الذي يقتضي منهم دينهم تعظيم ربهم، والقيام له بحق العبودية، ولرسوله بحق

الرسالة، فعكسوا القضية، فاتخذوا لهم أندادًا من دون الله، يعبدونها ويغضبون لها أعظم مما يغضبون لله، والدليل على هذا أنه لو انتهكت محارم الله لم يغضبوا، وإذا قيل فيما ينتحلونه من ذلك الوثن بعض ما فيه من النقص اشتد غضبهم، ويتباشرون إذا مدحت شركاءهم، وإذا ذكر توحيد الله تغيرت وجوههم واشمأزوا، وكذلك جعلوا لهم رؤساء يطيعونهم في كل حال، وجعلوهم بمنزلة الرسول المعصومة أقواله وأفعاله، فيقدمون طاعتهم على طاعة الرسول، ومن خالفهم لقول الرسول رموه بأنه متنقص لهم مبغض، فهل بقي بعد هذا إيمان؟ ولكن لكثرة الإمساس قل الإحساس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فنسألك اللهم العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، وأن تحفظ لنا ديننا من كل شرك وشبهة وبدعة وضلالة ومعصية، إنك على كل شيء قدير.

تم ما أردت تعليقه، ولله الحمد والمنة والفضل والإحسان، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. فرغت من تسويده في ٢٣ شعبان سنة ١٣٤٤هـ، وأنا الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي.

وتم نقله من خط المؤلف شيخنا رحمه الله في ٢٠ شوال سنة ١٤١٩هـ، بقلم الفقير إلى الله محمد بن سليمان بن عبد العزيز آل بسام، غفر الله له ولوالديه ولشيخه وللمسلمين.

بلغ مقابلة وتصحيحًا على نسخة بخط المؤلف، وذلك بحسب الإمكان، بقلم كاتبه وابنه منصور، نسأل الله المغفرة والرحمة في ١٣ ذي القعدة سنة ١٤١٩هـ.





مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٥)

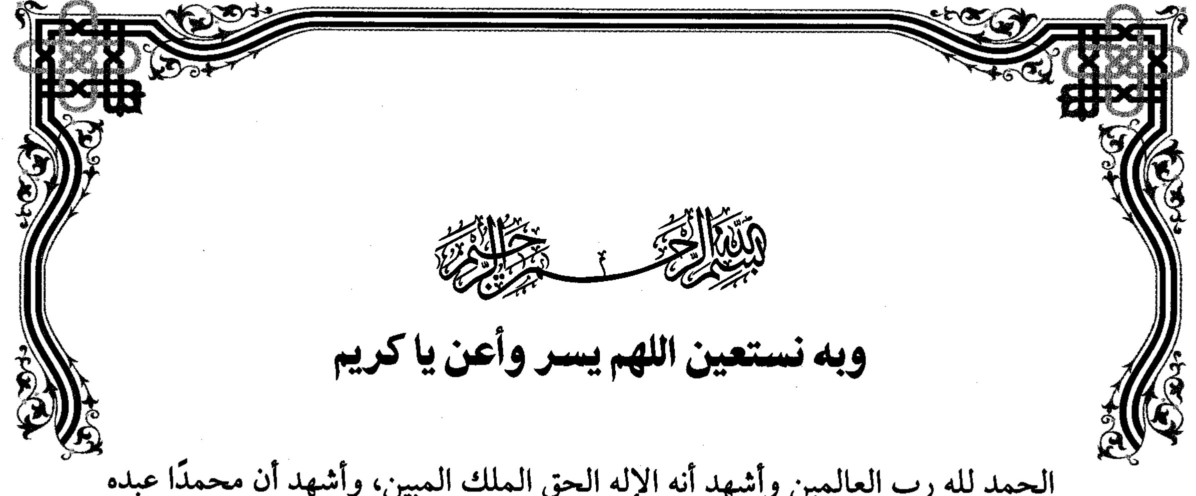
الحق الواضح المبين

في شرح

توحيد الأنبياء والمرسلين

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





وبه نستعين اللهم يسر وأعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أنه الإله الحق الملك المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كنت وضعت شرحًا على توحيد الأنبياء والمرسلين من (الكافية الشافية) للمحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرت فيه من النقول عن كتب المؤلف فبدا لي أن ألخصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده، وأرجو الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، موافقًا لمرضاته، نافعًا لكاتبه وقارئه، إنه جواد كريم.

قال المصنف رحمه الله:

فصل

في توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته وأدلته وبراهينه وآثاره الجميلة وثمراته الجزيلة، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية والآفاقية والنفسية على صحته وكماله ووجوبه، وتعينه طريقًا للنجاة من شرور الدنيا والآخرة، ووسيلة إلى السعادة والفلاح، وهو الذي لا يحصل للقلوب زكاة ولا سرور ولا طمأنينة ولا إيمان صحيح ويقين إلا به، وهو الأصل والأساس لجميع الأعمال، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق وأكملهم عقولًا وأزكاهم نفوسًا وأجمعهم للمحاسن، وهم جميع الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأصحابهم وأتباعهم.

ونبذه وزهد فيه كل ملحد ومعطل، ممن فسدت أديانهم ومرجت عقولهم واكتسبوا شر الأخلاق، وممن خالفوا الأنبياء في طريقهم وتوحيدهم في الدليل والمدلول. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل مؤيد بالشبه التي هي على جهل أصحابها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذًا توحيد رسل الله ثُمّ ... اجعله داخل كفة الميزان

مع هذه الأنواع وانظر أيها ... أولى لدى الميزان بالرجحان

وذلك أن الشيء يعرف بضده، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ومعرفة ما يضاده من الباطل، فإنك إذا وزنت - بميزان العقل الحقيقي والفطر السليمة التي لم تتغير والبراهين الدالة على الحقائق - توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطلين؛ وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل. وكيف يوزن توحيد المعطلين الملحدين المشتمل على مسبّة رب العالمين، ووصفه بكل صفة ناقصة ونفي حقائق أوصافه الكاملة والافتراء عليه وعلى كتبه، ورسله وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساويًا للخالق الكامل في أسمائه وصفاته من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المحتوي على تعظيم رب العالمين وتقديسه وتمجيده، والثناء عليه بأكمل الثناء ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل وعن مشاركة المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة وكماله العظيم، وكيف يوزن توحيد يرقى أصحابه إلى أعلى عليين، بتوحيد النفاة الذي ينزل بأهله إلى أسفل سافلين، أم كيف يوزن توحيد يجعل من اتصف به هاديًا مهديًّا وطاهرًا مرضيًّا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال وأرذل الخصال، ويفضي بهم إلى الشقاء الأبدي.

توحيدهم نوعان قولي وفعـ ـلـيٌّ كـلا نـوعـيـه ذو بـرهـان

يعني أن توحيد الأنبياء ينقسم قسمين:

أحدهما: التوحيد الفعلي وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقربات، ويأتي آخر الفصول، هو المسمى (توحيد العبادة وتوحيد الإلهية)، وسمي توحيدًا فعليًّا؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأنه لا يتخذ له شريك ولا نديد.

والثاني: التوحيد القولي الاعتقادي، وهو المشتمل على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان والثناء على الله بتوحيده. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه (توحيد الربوبية). وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف بالتوحيد القولي فقال:

فالأول القولي ذو نوعين أيـ ـضًا في كتاب الله موجودان

إحداهما سلب وذا نوعان أيـ ـضًا فيه حقًّا فيه مذكوران

سلب النقائص والعيوب جميعها عنه هما نوعان معقولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله وكذلك في السنة: **أحدهما:** سلب أي نفي النقائص والعيوب عن الله تعالى، **والثاني:** إثبات صفات الكمال لله تعالى كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود الأعظم من التوحيد إثبات صفات المدح والحمد، و نفي كل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص، فإنه متضمن للمدح وللثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصل ومنفصل هما نوعان معروفان أما الثاني

سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ ـع بدون إذن الخالق الديان

وكذاك سلب الزوج والولد الذي نسبوا إليه عابدو الصلبان

وكذاك نفي الكفو أيضًا والوليـ ـيِ لنا سوى الرحمن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص نوعان:

سلب لمتصل: وضابطه نفي ما يناقض ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة.

وسلب لمنفصل: وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال، وأن يفرد بالعبودية، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته وإلاهيته، فإنه متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له في ذلك شريك وليس له أيضًا ظهير؛ أي معين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها؛ لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوتهم إلا بالله، فالشريك والظهير

منفيان عنه مطلقًا، وأما الشفيع فإنه من عظمته وكمال ملكه ينزه عن أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم؛ فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه. ومع هذا فلا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله، وهو من كان مخلصًا لله متابعًا لرسول الله، قال تعالى نافيًا مشاركة أحد له في الأمور الثلاثة الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة بغير إذنه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فقطع بهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وبين أن من كان بهذا الوصف - لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك، ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله - لا يستحق من العبادة مثقال ذرة.

وكذلك ينزه الله عن اتخاذ الزوجة والولد الذي نسبه إليه عباد الصلبان؛ حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، وكذلك عباد الأوثان إذ قالوا: الملائكة بنات الله، فكذب الله كل من زعم أن له زوجة أو ولدًا فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]. وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولدًا أو شريكًا؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء، وكل الخلق مملوكون له فقراء إليه، فمن كان كذلك فكيف يتخذ الصاحبة والولد تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ

وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣].

وقول المصنف:

.... نسبوا إليه عابدو الصلبان

هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر مطلقًا، فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان.

قوله: «وكذاك نفي الكفو أيضًا» أي يجب ويتعين أن ينفى أن يكون أحد مكافئًا لله في كماله وحقوقه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فليس أحد مكافئًا لله أي مساويًا له في الأسماء والصفات ولا في الأفعال؛ لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمله ربه بكمال المخلوق اللائق به، فليس لأحد صفات تقارب صفات الله ولا أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلًا حتى يعينه الله على أفعاله؛ ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئة الله مع وقوعها بإرادتهم وقدرتهم، فخالق القدرة والإرادة خالق ما يكون بهما، قال تعالى في بيان الأصلين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

ومما ينفى عن الله وينزه عنه أنه ليس لنا وليّ سواه يجلب لنا المنافع ويدفع عنا المضار، فليس لنا وليٌّ سواه، فإنه تولى خلقنا ورزقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة. فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير الشاملة للبر والفاجر قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ [السجدة: ٤]. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤]. والولاية الخاصة ولايته للمؤمنين المتقين يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿أَلَآ

إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكذلك لم يتخذ من خلقه وليًّا من الذل لكمال اقتداره وغناه وعظمته، وإنما يتخذ منهم أولياء رحمة بهم وإحسانًا إليهم يحبهم ويحبونه. والحاصل أنه ليس أحد مساويًا لله تعالى أو مماثلًا أو معينًا أو وزيرًا، أو محتاجًا إليه بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسنة التي هي أصله وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله: وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص مناقضٍ لكمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة كمال منزه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال الحياة وبكمال القدرة، منزه عما يضادها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفًا بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]. ومنزه أيضًا عما يضاد الحياة والقيومية من النوم والنعاس وهو السنة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»(١). وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يسر العباد وما يعلنون، منزه عما ينافي ذلك، فلا يعزب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]. وقال تعالى ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٠.

أَكۡبَرُ﴾ [سبأ: ٣].

وكذلك العبث الذي تنفيه حكـ ـمته وحمد الله ذي الإتقان
وكذاك ترك الخلق إهمالًا سدى لا يبعثون إلى معادٍ ثاني
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ـهم من إله قادر ديَّان

أي: وكذلك يجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق شيئًا عبثًا ولا باطلًا، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة عظيمة؛ لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه، وهذا مشاهد في خلقه وشرعه، ومن تمام حكمته أنه لم يخلق خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية ويبتليهم بالأوامر والنواهي. ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيها عليهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]. فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه هملًا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

وكذاك ظلم عباده وهو الغنيّ فما له والظلم للإنسان

أي وكذلك ينزه الباري عن الظلم للعباد بأن يزيد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه أو من هو موصوف بالجور، وأما الله الغني عن خلقه من جميع الوجوه، الحكم العدل الحميد، فما له وظلم العباد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا

﴿يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. وقال على لسان نبيه: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» رواه مسلم[١].

وكذاك غفلته تعالى وهو علّـ ـــام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جل إلهنا لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورز قٍ وهو رزاق بلا حسبان

أي كذلك ينزه عن الغفلة والنسيان بوجه من الوجوه؛ لأنه عالم الغيب والشهادة وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وكذلك ينزه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

هذا وثاني نوعي السلب الذي هـو أول الأنـواع فـي الأوزان
تنزيه أوصاف الكمال له عن الـ ـتشبيه والتمثيل والنكران
لسنا نشبه وصفه بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان
من مثل الله العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه، الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي في الميزان؛ أي: في هذه القصيدة، وتقدم النوع الأول من قسمي السلب؛ وهو

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٠.

السلب المتصل والمنفصل المتضمن تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به وعما يناقض كماله، وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علم الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإن ذلك تشبيه لله بالخلق، ومن قال بهذا فإنه يمثل بفكره صنمًا ووثنًا يعبده كما فعل النصارى بالمسيح ابن مريم جعلوه إلههم ومعبودهم.

فالمشبه نسيب أي مشابه للنصراني، وأما رب العالمين فهو فوق ما يظنون وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا تشبهها صفاتهم، وينزه عن تعطيل صفاته ونفيها كما فعلته الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسنة الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبدًا للعدم المحض والنفي الصرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، ورد لما جاءوا به؛ ولهذا قال المصنف:

.... فهو الكفور وليس ذا إيمان

وسيأتي إن شاء الله كلام المصنف في الكلام على الجهمية وغيرهم من أهل البدع.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبِّه، ومعطل؛ **فالمؤمن الموحد**: يصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله.

والمشبِّه: هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله.

والمعطل: هو من نفى شيئًا من صفات الله.

وكل من المعطل والمشبه قد حرم الوصول إلى معرفة الله على وجهها، وابتلي بالتكلف

والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه العقول والفطر التي لم يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبر ما عليه هذه الطرائف في المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق.

فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف النوعين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنف في هذا البيت:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو صاف الكمال لربنا الرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلهية، وثبتت في النصوص النبوية، يتعرفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربانية، فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبة لله وتعظيمًا له وتقديسًا، وأوصاف العزّ والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها، وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعًا فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقًا إليه، وتوجب له التأله والتعبد والتقرب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله، بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه.

وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه[1]. فإحصاؤها فهمها وعقلها والاعتراف بها والتعبد لله بها. ثم شرع يفصلها فقال:

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٥٩.

كعلوه سبحانه فوق السما وات العلى بل فوق كل مكان
فهو العلي بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا ببيان
وهو الذي حقًّا على العرش استوى قد قام بالتدبير للأكوان

أما علو الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها فقد دل عليهما العقل والفطرة مع النصوص الكثيرة المتواترة، فإنه علا بذاته فوق مخلوقاته، ويستحيل ألا يكون عليًّا؛ فإنه يمتنع أن يكون حالًّا في المخلوقات، فيتعين أن يكون فوقها مباينًا لها، وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل؛ الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. وأخبر أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده في مواضع كثيرة.

وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب». وهكذا يجاب عن جميع ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله، فكما أنه ثبت لله صفاته العظيمة على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء على العرش من جملة أوصافه، فاستوى على العرش واحتوى على الملك؛ يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، كما جمع بين الأمرين في قوله ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

حي مريد قادر متكلم ذو رحمة وإرادة وحنان

أي: هو تعالى حي حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، ومن كمال حياته أنه كامل القدرة نافذ الإرادة والمشيئة.

وجمع المؤلف بين القدرة والإرادة وهي المشيئة لأن جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء على العرش، ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص، والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخلق وأنواع التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجد علم أن الله أراده، وما لم يوجد علم أن الله لم

يرده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة لأحد إلا به لشمول إرادته وكمال قدرته.

وقوله « متكلم » أي لم يزل ولا يزال بالكلام موصوفًا، فيكلم بما أراد كيف أراد وحيث أراد ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. وسيأتي إن شاء الله القول في الكلام، «ذو رحمة وحنان». أي: قد اتصف بالرحمة وعمَّ خلقه بالنعم وشملهم بالكرم والبر والحنان والجود والامتنان.

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه	شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبر	وتبصر وتعقل لمعاني
وانظر إلى ما فيه من أنواع معـ	ـرفة لخالقنا العظيم الشان

أي: هذا التفسير لهذه الأسماء الأربعة المباركة قد فسرها به النبي ﷺ بقوله: **«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»**[1] إلى آخر الحديث، ففسر كل اسم بمعناه العظيم، ونفى عنه ما يضاده وينافيه، فتدبر هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في قوله: (الأول والآخر) والمكانية في (الظاهر والباطن).

فالأول: يدل على أن كل ما سواه حادث بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالى.

والآخر: يدل على أنه هو الغاية والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألهها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها.

---

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٥.

والظاهر: يدل على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، وعلى علوه.

والباطن: يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوه. ولا يتنافى الظاهر والباطن؛ لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت.

وهو العلي فكل أنواع العلوّ   له فثابتة بلا نكران

في القرآن من أسمائه الحسنى (العلي الأعلى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات فإنه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى؛ أي: علا وارتفع. وله علو القدر: هو علو صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته.

وله علو القهر، فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ   ـعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه؛ كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: **أحدهما**: أنه موصوف بكل صفة كمال وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة،

ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]. وقال تعالى وهو العلي العظيم: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥] الآية. وفي الصحيح عنه ﷺ أن الله يقول: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»[1]؛ فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه أن يتقى حق تقاته، فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. ومن تعظيمه تعظيم ما حرمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. و﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]. ومن تعظيمه ألا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان
من بعض آثار الجميل فربها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان
فجماله بالذات والأوصاف والـ ... أفعال والأسماء بالبرهان
لا شيء يشبه ذاته وصفاته ... سبحانه عن إفك ذي بهتان

(١) تقدم تخريجه ص٣٩٢.

يعني أن الله تعالى هو (الجليل) الذي له أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء ثابتة محققة لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو (الجميل) بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن مخلوقًا أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى إن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذات والسرور والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لو تدوم هذه الحال، واكتسبوا من جماله ونوره جمالًا إلى جمالهم، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحًا تكاد تطير له القلوب.

وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها حسنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره.

وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد؛ فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلقًا، خصوصًا أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود. وكذلك أفعاله كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويثنى عليه ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا سدى ولا ظلم، كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق وصنع: أتقن ما صنعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وأحسن ما خلقه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم استدل المصنف بدليل عقلي على جمال الباري، وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحسن، فهو أولى

منها لأن معطي الجمال أحق بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، خصوصًا ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كَفٌّ واحدة من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومَنّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحق منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟!

فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصًا؛ فإن معطيه وهو الله أحق به من المعطى بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال أحق منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[١]. وقال «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٢] فسبحان الله وتقدس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علوًّا كبيرًا، وحسبهم مقتًا وخسارًا أنهم حرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل؛ لأن تمام التعبد لله هو التعبد بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتأله له وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد بحيث يسيح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج بما يحصل له من آثار جماله وكماله فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيد صفاته أوصاف تعـ ـظيم فشأن الوصف أعظم شان

(١) تقدم تخريجه ص٣٦٤.

(٢) تقدم تخريجه ص٣٦٤.

(المجيد) الذي له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما	في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر	فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا	يخفى عليه بعيدها والدان
وهو البصير يرى دبيب النملة الـ	ـسوداء تحت الصخر والصوان
ويرى مجاري القوت في أعضائها	ويرى نياط عروقها بعيان
ويرى خيانات العيون بلحظها	ويرى كذاك تقلب الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين (السميع، البصير) وكثيرًا ما يقرن الله بينهما مثل قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[النساء: ١٣٤] فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية عنده سواء ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[الرعد: ١٠]. ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ الآية. وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. وقول المصلي: (سمع الله لمن حمده) أي استجاب.

ثم قال المصنف «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك، فسبحان من تحيرت العقول في عظمة وسعة متعلقات صفاته وكمال عظمته ولطفه وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان، قال تعالى ﴿الَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]. ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. أي: مطلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات.

وهو العليم أحاط علمًا بالذي ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غدًا وما ... قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ ... ـف يكون ذا إمكان

هذا تفسير لاسمه (العليم) بأحسن تفسير وأجمعه، فهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وجدت. كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ

﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن، والجلي والخفي. قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٥]. والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها وإحصاؤها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت كما أن قدرهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي وما فيه من المخلوقات ذواتها وأوصافها وأفعالها وجميع أمورها فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعدما يميتهم وبعدما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها، وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

فصل

وهو الحميد فكل حمد واقع ... أو كان مفروضًا مدى الأزمان

ملأ الوجود جميعه ونظيره ... من غير ما عد ولا حسبان

هو أهله سبحانه وبحمده ... كل المحامد وصف ذي الإحسان

هذا تفسير لاسمه (الحميد) فذكر أنه حميد من وجهين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض الأولين منهم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضًا ومقدرًا حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمدًا يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عد ولا إحصاء، فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة؛ منها: أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلا هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني: أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله؛ لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال

الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولى والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام.

فصل

وهو المكلم عبده موسى بتكـ ـليم الخطاب وقبله الأبوان

كلماته جلت عن الإحصاء والـ ـتعداد بل عن حصر ذي الحسبان

لو أن أشجار البلاد جميعها الـ أقلام تكتبها بكل بنان

والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كل زمان

نفدت ولم تنفد بها كلماته ليس الكلام من الإله بفان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام معروفًا موصوفًا، وكلامه تعالى من صفاته الذاتية الفعلية غير مخلوق كسائر صفات أفعاله، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وذكر كلامه للأبوين في عدة مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧]. ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩]. فالكلام متعلقاته عامة عظيمة، يتكلم تعالى بما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله وبما يتعلق بجميع مخلوقاته، بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، وكلماته كلها عدل وصدق: صدق في الأخبار ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢]. وعدل في الأوامر والنواهي، والقرآن العظيم من أجلّ كلامه وأشرفه وأعلاه، وكذلك الكتب التي أنزلها على رسله.

ويكلم عباده وتكليمه إياهم نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم موسى بن عمران ﷺ والأبوين، وكما خاطب محمدًا ﷺ ليلة أسري به إليه، وكما يخاطب أهل الموقف وأهل

الجنة في الجنة حين يرونه ويكلمهم ويكلمونه.

والنوع الثاني: تكليمه لعباده بواسطة؛ إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما يشاء. وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلقها وقيامها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد، ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق في جملة المخلوقات التي تنتهي، وتصور هذا القول كاف في ردّه.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ... ما رام شيئًا قط ذو سلطان
وهو القوي له القوى جمعًا تعا ... لى الله ذو الأكوان والسلطان
وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معاني
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

هذه الأسماء الثلاثة العظيمة (القدير، القوي، العزيز) معانيها متقاربة، فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]. فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم: عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت، وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه، بل هو الضار النافع المعطي المانع،

وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به، فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه يرجعون ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨]. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادهم غير تتبيب، وخصوصًا في هذه الأوقات، فإن هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أن قواهم وقدرهم ومخترعاتهم لم تغن عنهم شيئًا في صد ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقي ذلك ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضًا أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقًا وتقديرًا وتضاف إليهم فعلًا ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءه على قلة عَددهم وعُددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعُدة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع

العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى.

وهو الغني بذاته فغناه ذا تيٌّ له كالجود والإحسان

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فهو تعالى (الغني) الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًّا فإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا محسنًا جوادًا برًّا رحيمًا كريمًا، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها وفي بقائها وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه، ومن سعة غناه أن خزائن السماوات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلًّا منهم ما سأله وما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه مثقال ذرة.

ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة، ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك ولا وليًّا من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه نوعان أيضًا ما هما عدمان

حكم وأحكام فكل منهما نوعان أيضًا ثابتا البرهان

والحكم شرعي وكوني ولا يتلازمان وما هما سيان

بل ذاك يوجد دون هذا مفردًا والعكس أيضًا ثم يجتمعان

لن يخلو المربوب من إحداهما ... أو منهما بل ليس ينتفيان
لكنما الشرعي محبوب له ... أبدًا ولن يخلو من الأكوان
هو أمره الديني جاءت رسله ... بقيامه في سائر الأزمان
لكنما الكوني فهو قضاؤه ... في خلقه بالعدل والإحسان
هو كله حق وعدل ذو رضا ... والشأن في المقضي كل الشان
فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضي حين يكون بالعصيان
فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ ... ـمقضي ما الأمران متحدان
فقضاؤه صفة به قامت وما الـ ... مقضي إلا صنعة الإنسان
والكون محبوب ومبغوض له ... وكلاهما بمشيئة الرحمن
هذا البيان يزيل لبسًا طالما ... هلكت عليه الناس كل زمان
ويحل ما قد عقدوا بأصولهم ... وبحوثهم فافهمه فهم بيان
من وافق الكوني وافق سخطه ... أو لم يوافق طاعة الرحمن
فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ... ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يعدوه أجـ ... ـر بل له عند الصواب اثنان

فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ ... ـضًا حصّلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه ... نوعان أيضًا ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده ... في غاية الإحكام والإتقان

وصـــدوره مـن أجـل غـايـات له ولــه عليها حمد كـل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضًا وفيها ذانـك الوصفان
غاياتها اللائي حمدن وكونها فـي غـايـة الإحـكـام والإتـقـان

أي هو تعالى (الحكيم) الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان: **أحدهما**: الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملًا على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللًا ولا نقصًا ولا فطورًا، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعًا بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللًا أو نقصًا، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟ فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجلُّ الفضائل لمن يَمُنُّ الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم

الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء وخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علمًا ويقينًا وإيمانًا وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحًا حقيقيًّا إلا بالدين الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه؛ كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح، ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيرًا من هداه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية؛ انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغًا هائلًا، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم. ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به، لكونه محكمًا كاملًا لا يحصل الصلاح إلا به.

وبالجملة فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده وكونه وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه، والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضاد ذلك فقد وجد فيه الحكم

القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله وقدره، ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع للحكم الشرعي ومتعلقه. والله أعلم.

وهو الحيي فليس يفضح عبده عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره فهو الستير وصاحب الغفران

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: «**إن الله حيي يستحي من عبده إذا مد يديه إليه أن يردهما صفرًا**»[1]. وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه حتى إنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات نازل، وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح، ويستحيي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمد يديه إليه أن يردهما صفرًا، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة.

وهو الحيي الستير يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلمًا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصيًا والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. وهذا كله من معنى اسمه (الحليم) الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلًا، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا، ولهذا قال:

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٠.

وهو الحليم فلا يعاجل عبده بعقوبة ليتوب من عصيان

وهو العفو فعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان

يعني أنه تعالى (الحليم) الذي له الحلم الكامل، (العفو) الذي له العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصًا إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات والأرض، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابة، وهو تعالى عفو يحب العفو عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه، من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه، ومن كمال عفوه أن المسرفين على أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كل جرم صغير وكبير، وأنه جعل الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها.

وهو الصبور على أذى أعدائه شتموه بل نسبوه للبهتان

قالوا له ولد وليس يعيدنا شتمًا وتكذيبًا من الإنسان

هذا وذاك بسمعه وبعلمه لو شاء عاجلهم بكل هوان

لكن يعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الأبيات في تفسير اسمه (الصبور) مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الصحيح **«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم»**[1]. وبما ثبت أيضًا في الصحيح قال الله تعالى: **«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولدًا وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم**

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٢.

يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[1]. فالله تعالى يدر على عباده الأرزاق المطيع منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكذيبه وتكذيب رسله والسعي في إطفاء دينه، والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابع عليهم النعم، وصبره أكمل صبر؛ لأنه عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء، الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمورهم.

وهو الرقيب على الخواطر واللوا حظ كيف بالأفعال بالأركان

(الرقيب) و (الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وهو الحفيظ عليهمُ وهو الكفيـ ـل بحفظهم من كل أمر عان

ذكر رحمه الله (للحفيظ) معنيين: **أحدهما:** أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله.

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٣.

والمعنى الثاني: من معنيي (الحفيظ) أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال « وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عاني » أي مشق مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص؛ **فالعام**: حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يُقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي هدى كل مخلوق إلى ما قدر له وقضى له من ضروراته وحاجاته؛ كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضار، وهذا يشترك فيه البر والفاجر بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني: حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]. وهذا عام في دفع جميع ما يضرهم في دينهم ودنياهم، فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك**»[1]. أي: احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله.

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بخبرة ... واللطف عند مواقع الإحسان

فيريك عزته ويبدي لطفه ... والعبد في الغفلات عن ذا الشان

---

(١) الترمذي (٢٥١٦).

يعني أن (اللطيف) من أسمائه الحسنى وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف لعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر، وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور وما لطف ودق من كل شيء.

النوع الثاني: لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى، ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم وبالجهاد في سبيله، وكما ذكر الله عن يوسف ﷺ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدره عليه من تلك الأحوال التي حصل له في عاقبتها حسن العقبى في الدنيا والآخرة.

وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف «فيريك عزته» أي بامتحانك بما تكره، «ويبدي لطفه» في العواقب الحميدة السارة، فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية أو رياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزينًا من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه لحمد الله وشكره على ذلك، فإن الله بعباده رءوف رحيم لطيف بأوليائه، وفي الدعاء المأثور «**اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت**»[1].



(١) تقدم تخريجه ص٤٠٩.

فصل

وهو الرفيق يحب أهل الرفق بل يعطيهمُ بالرفق فوق أماني

هذا قد أخذه المؤلف من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله رفيق يحب أهل الرفق**»[1]. وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئًا فشيئًا بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئًا بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعًا لسنن الله في الكون واتباعًا لنبيه ﷺ فإن هذا هديه وطريقه تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس ونهيهم وإرشادهم فإنه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة والطمأنينة والرزانة والحلم.

وهو القريب وقربه المختص بالـ ـداعي وعابده على الإيمان

من أسمائه (القريب)، وقربه نوعان: قرب عام: وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وقرب خاص: بالداعين والعابدين والمحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين. قال تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

(١) تقدم تخريجه ص٤١٠.

ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهو المجيب يقول من يدعُو أجبـ ـه أنا المجيب لكل من ناداني

وهو المجيب لدعوة المضطر إذ يـدعـوه فـي سـرٍّ وفـي إعـلان

من أسمائه (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين، وإجابته نوعان: إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادة أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فدعاء المسألة أن يقول العبد: اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته.

وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبر والفاجر، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلى صدقه وتعين الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيرًا ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوته وآيات صدقه.

وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات؛ فإنه من أدلة كراماتهم على الله، وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة.

وهو الجواد فجوده عم الوجو د جميعه بالفضل والإحسان
وهو الجواد فلا يخيب سائلًا ولــو انــه مــن أمــة الـكـفـران

يعني أنه تعالى (الجواد) المطلق الذي عم بجوده الكائنات، وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤله، وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. ومن جوده الواسع ما أعده لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهو المغيث لكل مخلوقاته وكــذا يجيب إغـاثـة اللهفان

(فالمغيث) يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها وتقع في الشدائد والكربات؛ يطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويخلص مكروبهم وينزل الغيث عليهم في وقت الضرورة والحاجة، وكذلك يجيب إغاثة اللهفان أي دعاء من دعاه في حالة اللهف والشدة والاضطرار. فمن استغاثه أغاثه، وفي الكتاب والسنة من ذكر تفريجه للكربات وإزالته الشدائد وتيسيره للعسير شيء كثير جدًّا معروف.

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهمُ وجازاهم بحب ثان
هذا هو الإحسان حقًّا لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران
لكن يحب شكورهم وشكورهم ... لا لاحتياج منه للشكران
وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان
ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان
كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان
إن عُذِّبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنان

هذه الأبيات في تفسير (الودود الشكور) فالودود هو المحب المحبوب بمعنى وادّ وبمعنى مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم، بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة، ويتعين أن تكون بقية المحاب تبعًا لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله، ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة؛ إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك

محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محبًّا لربه، ومحبة بعدها شكرًا من الله له على محبة صار بها من أصفيائه المخلصين.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن أسمائه تعالى (الشاكر الشكور) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات؛ الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يتحمل المتحملون[1] لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئًا لأجله عوضه خيرًا منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك، وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًّا واجبًا عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه جودًا منه وكرمًا، ولهذا قال المصنف:

ما للعباد عليه حق واجب　　　هو أوجب الأجر العظيم الشان

---

(١) إشارة إلى ما جاء في بعض الآثار عن الله عز وجل: بعيني ما يتحمله المتحملون من أجلي... حسن الظن بالله (٩٠).

وهذا القيد الذي قيده المصنف أحسن من إطلاق من قال:

ما للعباد عليه حق واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع   إن كان بالإخلاص والإحسان

أي جامعًا للإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، وبذلك يكون العمل صالحًا كما قال في موضع آخر:

وقيام دين الله بالإخلاص والـ   إحسان إنهما له أصلان

فما أصاب العباد من النعم ودفع النقم فإنه من الله تعالى فضلًا منه وكرمًا، وإن نعمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك.

فصل

وهو الغفور فلو أتي بقرابها	من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها	سبحانه هو واسع الغفران
وكذلك التواب من أوصافه	والتوب في أوصافه نوعان
إذنٌ بتوبة عبده وقبولها	بعد المتاب بمنة المنان

فهو تعالى (الغفور التواب) الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب، ففي الحديث: «**إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة والاستغفار والإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى عباد الله والعفو عنهم وقوة الطمع في فضل الله وحسن الظن بالله وغير ذلك مما جعله الله مقربًا لمغفرته.

وتوبته على عبده نوعان: **أحدهما**: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي والندم على فعلها والعزم على ألا يعود إليها واستبدالها بعمل صالح، **والثاني**: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها؛ فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها.

---

(١) الترمذي (٣٥٤٠).

فصل

وهو الإله السيد الصمد الذي ... صمدت إليه الخلق بالإذعان
الكامل الأوصاف من كل الوجو ... ه كماله ما فيه من نقصان

هذا معنى اسمه (الصمد) المعنى الجامع الذي يدخل فيه كل ما فسر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصده جميع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسراره، وهو الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات.

وكذلك القهار من أوصافه ... فالخلق مقهورون بالسلطان
لو لم يكن حيًّا عزيزًا قادرًا ... ما كان من قهر ولا سلطان

(القهار) وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا خيرًا ولا شرًّا. ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره.

وكذلك الجبار من أوصافه ... والجبر في أوصافه قسمان
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ذا كسرة فالجبر منه داني
والثانِ جبر القهر بالعز الذي ... لا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمى ثالث وهو العلو ... فليس يدنو منه من إنسان

من قولهم جبارة للنخلة الـ ـعليا التي فاتت لكل بنان

يعني أن للجبار من أسمائه الحسنى ثلاثة معانٍ كلها داخلة باسمه (الجبار) فهو الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير ويغني الفقير وييسر على المعسر كل عسير ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر يعيضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبرًا خاصًّا قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب، وإذا دعا الداعي فقال: (اللهم اجبرني) فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه.

والمعنى الثاني: أنه القهار لكل شيء، الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والمعنى الثالث: أنه العلي على كل شيء.

فصار الجبار متضمنًا لمعنى الرءوف القهار العلي، وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

وهو الحسيب حماية وكفاية والحسب كافي العبد كل أوان

(فالحسيب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه، والحسيب أيضًا هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]. أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهرًا وباطنًا وقيامه بعبودية الله تعالى.

وهو الرشيد فقوله وفعاله رشد وربك مرشد الحيران

وكلاهما حق فهذا وصفه والفعل للإرشاد ذاك الثاني

يعني أن (الرشيد) هو الذي قوله رشد وفعله كله رشد وهو مرشد الحيران الضال فيهديه إلى الصراط المستقيم بيانًا وتعليمًا وتوفيقًا، فالرشد الدال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى، والإرشاد لعباده فعله، فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور كلها حق لاشتمالها على الحكمة والحسن والإتقان، وأقواله الشرعية الدينية هي أقواله التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الأخبار والعدل الكامل في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلًا ولا أحسن منه حديثًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. في الأمر والنهي، وهي أعظم وأجل ما يرشد بها العباد، بل لا وصول إلى الرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهدى من غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها الرشد العملي فإنها تزكي النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على كل جميل، وترهب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو ضال. ولم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالًّا وأرشد حائرًا وخصوصًا من تعلق به وطلب منه الهدى من صميم قلبه وعلم أنه المنفرد بالهداية.

والعدل من أوصافه في فعله ... ومقاله والحكم بالميزان
فعلى الصراط المستقيم إلهنا ... قولًا وفعلًا ذاك في القرآن

يعني أن الله هو (الحكم العدل) في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط. وهذا معنى قوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. فإن أقواله صدق وأفعاله دائرة بين العدل والفضل، فهي كلها أفعال رشيدة، وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ ـتنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

هذا تفسير (القدوس السلام) فهو المقدس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله، فهذا ضابط ما ينزه عنه؛ ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفؤ أو سمي أو ند أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها. ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له، فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة؛ كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثنيًا على ربه: « سبحان الله » « أو « تقدس الله » أو « تعالى الله » ونحوها كان مثنيًا عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

والبر في أوصافه سبحانه هو كثرة الخيرات والإحسان
صدرت عن البر الذي هو وصفه فالبر حينئذ له نوعان
وصف وفعل فهو بر محسن مولي الجميل ودائم الإحسان
وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السماوات العلى والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان

من أسمائه تعالى (البر الوهاب) الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته وكرمه، فهو مولي الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب، وصفه البر وآثار هذا الوصف جميع النعم

الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين.

وإحسانه عام وخاص: فالعام المذكور في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وهذا يشترك فيه البر والفاجر وأهل السماء وأهل الأرض والمكلفون وغيرهم. والخاص رحمته ونعمه على المتقين حيث قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] الآية. وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وفي دعاء سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل وصلاح الأحوال كلها والسعادة الأبدية والفلاح والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواص الخلق.

وكذلك الفتاح من أسمائه والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا والفتح بالأقدار فتح ثاني
والرب فتاح بذين كليهما عدلًا وإحسانًا من الرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وفتحه تعالى قسمان:

أحدهما: فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي.

والثاني: الفتاح بحكمه القدري.

ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم، وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء واتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفى كل عامل ما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا

مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

وكذلك الرزاق من أسمائه	والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله	نوعان أيضًا ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان والـ	ـرزق المعد لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا	رزاقه والفضل للمنان
والثان سوق القوت للأعضاء في	تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو	ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبا	ر وليس بالإطلاق دون بيان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص.

فالعام إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضًا من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقًا ونعمة بهذا الاعتبار ويقال: « رزقه الله » سواء ارتزق من حلال أو حرام وهو مطلق الرزق.

وأما الرزق المطلق فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد الرسول ﷺ: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة

لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها. ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى « اللهم ارزقني » أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

فصل

هذا ومن أوصافه القيوم والـ ... ـقيوم في أوصافه أمران
إحداهما القيوم قام بنفسه ... والكون قام به هما الأمران
فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كل إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شأن كذا ... موصوفه أيضًا عظيم الشان
والحي يتلوه فأوصاف الكما ... ل هما لأفق سمائه قطبان
فالحي والقيوم لن تتخلف الـ ... أوصاف أصلًا عنهما ببيان

هذا تفسير (الحي القيوم) وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضع من كتابه كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وذلك أنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقدرة والإرادة والعظمة والكبرياء وغيرها من صفات الذات المقدسة، والقيوم هو كامل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحي والقيوم من له صفة كل كمال وهو الفعال لما يريد.

هو قابض هو باسط هو خافض ... هو رافع بالعدل والميزان
وهو المعز لأهل طاعته وذا ... عز حقيقي بلا بطلان
وهو المذل لمن يشاء بذلة الدْ ... ـدَارين ذل شقا وذل هوان

هو مانع معطٍ فهذا فضله والمنع عين العدل للمنان
يعطي برحمته ويمنع من يشا ء بحكمة والله ذو سلطان

هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا ينبغي أن يثنى على الله بها إلا كل واحد منها مع الآخر؛ لأن الكمال المطلق من اجتماع الوصفين، فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق والرحمة والقلوب، وهو الرافع لأقوام قائمين بالعلم والإيمان، الخافض لأعدائه. وهو المعز لأهل طاعته، وهذا عز حقيقي، فإن المطيع لله عزيز وإن كان فقيرًا ليس له أعوان، المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلًّا في الدنيا والآخرة، فالعاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسه في الشهوات، فإن العز كل العز بطاعة الله، والذل بمعصيته ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهو تعالى المانع المعطي فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى. وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة في خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره، فإن الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسبابًا ولضد ذلك أسبابًا؛ من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول ما يحب، ويجتهد في فعل الأسباب النافعة فإنها محل حكمة الله.

فصل

والنور من أسمائه أيضًا ومن ... أوصافه سبحان ذي البرهان

قال ابن مسعود كلامًا قد حكا ... ه الدارمي عنه بلا نكران

ما عنده ليل يكون ولا نها ... ر قلت تحت الفلك يوجد ذان

نور السماوات العلا من نوره ... والأرض كيف الشمس والقمران

من نور وجه الرب جل جلاله ... وكذا حكاه الحافظ الطبراني

فبه استنار العرش والكرسي مع ... سبع الطباق وسائر الأكوان

وكتابه نور كذلك شرعه ... نور كذا المبعوث بالفرقان

وكذلك الإيمان في قلب الفتى ... نور على نور مع القرآن

وحجابه نور فلو كشف الحجا ... ب لأحرق السبحات للأكوان

وإذا أتى للفصل يشرق نوره ... في الأرض يوم قيامة الأبدان

وكذاك دار الرب جنات العلا ... نور تلألأ ليس ذا بطلان

والنور ذو نوعين مخلوق ووصـ ... ـف ما هما والله متحدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ... ـسوس ومعقول هما شيئان

احذر تزلّ فتحت رجلك هوة ... كم قد هوى فيها على الأزمان

من عابد بالجهل زلت رجله ... فهوى إلى قعر الحضيض الداني

لاحت له أنوار آثار العبا ... دة ظنها الأنوار للرحمن

فـأتـى بـكـل مـصـيـبـة وبلية ... ما شئت من شطح ومن هذيان

وكذا الحلولي الذي هو خدنه ... مـن ههنا حـقًّـا هـمـا أخـوان

ويقابل الرجلين ذو التعطيل والـ ... ـحجب الكثيفة ما هما سيان

ذا فـي كثافة طبعه وظلامه ... وبظلمة التعطيل هذا الثاني

والنور محجوب فلا هـذا ولا ... هـذا لـه مـن ظـلـمـة يـريـان

بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك. وحاصل ذلك أن من أسمائه جل جلاله ومن أوصافه (النور) الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والهيبة والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسي: كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور معنوي: يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمد ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه. فعلم الكتاب والسنة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار ويكون نورًا للعبد في الدنيا والآخرة ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. لما ذكر أنه نور السماوات والأرض وسمى الله كتابه نورًا ورسوله نورًا ووحيه نورًا.

ثم إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف الذين لم يفرقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل ولاحت أنوار التعبد في قلوبهم؛ لأن العبادات لها أنوار في القلوب، فظنوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال.

وأما أهل العلم والإيمان والفرقان فإنهم يفرقون بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها ولا يحل بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها. والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علمًا وعملًا، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نورًا وكلامه نورًا وعمله نورًا والنور محيط به من جهاته، والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.



فصل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الـ ـصفتان للأفعال تابعتان
وهما صفات الذات أيضًا إذ هما بالذات لا بالغير قائمتان
ولذاك قد غلط المقسم حين ظـ ـن صفاته نوعان مختلفان
إن لم يرد هذا ولكن قد أرا د قيامها بالفعل ذي الإمكان
والفعل والمفعول شيء واحد عند المقسم ما هما شيئان
فلذاك وصف الفعل ليس لديه إلْـ لَا نسبة عدمية ببيان
فجميع أسماء الفعال لديه ليـ ـست قط ثابتة ذوات معاني
موجودة لكن أمور كلها نسب ترى عدمية الوجدان
هذا هو التعطيل للأفعال كالـ ـتعطيل للأوصاف بالميزان
فالحق أن الوصف ليس بمورد الـ ـتقسيم هذا مقتضى البرهان
بل مورد التقسيم ما قد قام بالذْ ـذَاتِ التي للواحد الرحمن
فهما إذًا نوعان أوصاف وأفـ ـعال فهذي قسمة التبيان
فالوصف بالأفعال يستدعي قيا م الفعل بالموصوف بالبرهان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما إن بين ذينك قط من فرقان
ومن العجائب أنهم ردوا على من أثبت الأسماء دون معاني
قامت بمن هي وصفه هذا محا ل غير معقول لذي الأذهان

وأتوا إلى الأوصاف باسم الفعل قا ... لوا لم تقم بالواحد الديان

فانظر إليهم أبطلوا الأصل الذي ... ردوا به أقوالهم بوزان

إن كان هذا ممكنًا فكذاك قو ... ل خصومكم أيضًا فذو إمكان

والوصف بالتقديم والتأخير كَوْ ... ني وديني هما نوعان

وكلاهما أمر حقيقي ونسـ ... ـبي ولا يخفى على الأذهان

والله قدر ذاك أجمعه بإحـ ... ـكام وإتقانٍ من الرحمن

فصل

هذا ومن أسمائه ما ليس يفـ ... ـرد بل يقال إذا أتى بقران

وهي التي تدعى بمزدوجاتها ... إفرادها خطر على الإنسان

إذ ذاك موهم نوع نقص جل رب ... العرش عن عيب وعن نقصان

كالمانع المعطي وكالضار الذي ... هو نافع وكماله الأمران

ونظير هذا القابض المقرون باسـ ... ـم الباسط اللفظان مقترنان

وكذا المعز مع المذل وخافض ... مع رافع لفظان مزدوجان

وحديث إفراد اسم منتقم فمو ... قوف كما قد قال ذو العرفان

ما جاء في القرآن غير مقيد ... بالمجرمين وجا بـ(ذو) نوعان

ذكر المصنف هذه الأبيات في تفسير اسمه (المقدم المؤخر) وهما كما تقدم من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده على الله إلا مقرونًا بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما، فهو تعالى المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونيًّا كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضها على بعض، وكتقديم الأسباب على مسبباتها والشروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحل له. ويكون شرعيًّا كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عباده على بعض، وقدمهم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخر من أخر منهم بشيء من ذلك، وكل هذا تبع لحكمته. وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله، والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال؛ لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها وأفعالها ومعانيها وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته. فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري، وأن صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال.

وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله، بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف، وهو مخالف لما يعقله العقلاء في قلوبهم، فإن صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ومتصف بها من قالها أو عملها، ولا يتصور في العقل مفعول من غير فعل ولا مخلوق من غير خلق، كما لا يتصور أحد اسمًا مشتقًّا دالًّا على غير صفة في المحل المسمى به، والذي أوجب لهم هذا الغلط الفاحش زعموا أنهم إذا لم يقولوا بهذا اقتضى حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا كل صفة فعلية لله فأنكروا استواءه على عرشه ونزوله، وأفعاله التي يوجدها شيئًا فشيئًا، وأقواله التي يتكلم بها شيئًا بعد شيء. وهذا التعطيل لأفعاله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلًا؛ فكذلك التعطيل لصفاته الفعلية باطل.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله، واعترفوا بها، لا فرق عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته

وكلها قائمة بالله، والله موصوف بها، وهو القول الذي دل عليه النقل والعقل. ومن أوصاف الأفعال الأسماء المزدوجة كالمقدم المؤخر والضار النافع والمعطي المانع ونحوها وتقدمت.

فصل

واعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب شرحًا جامعًا مختصرًا كما تقدم، وما لم يذكره فإنه ذكر نظيره من الأسماء الحسنى أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر (المتين) وهو داخل في (القوي القدير)، ولم يذكر (الأعلى) وهو في معنى (العلي) كما تقدم، ولم يذكر (الرحمن الرحيم الرءوف الكريم) وهي في معنى (البر الجواد الوهاب) ولم يذكر (الرب والله والملك والمالك) وقد ذكر في **البدائع** أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى فقال: الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم السميع العليم البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما (الملك) فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المُقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما (الإله) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أن (الله) أصله (الإله) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى والله أعلم.

فصل

ودلالـة الأسـماء أنـواع ثلا ... ث كلها معلومة ببيان

دلت مطابقة كذاك تضمنًا ... وكذا التزامًا واضح البرهان

أما مطابقة الدلالة فهي أن ... الإسم يفهم منه مفهومان

ذات الإله وذلك الوصف الذي ... يشتق منه الإسم بالميزان

لكن دلالته على إحداهما ... بتضمن فافهمه فهم بيان

وكذا دلالته على الصفة التي ... ما اشتق منها فالتزام داني

وإذا أردت لذا مثالًا بينًا ... فمثال ذلك لفظة الرحمن

ذات الإله ورحمة مدلولها ... فهما لهذا اللفظ مدلولان

إحداهما بعض لذا الموضوع فهـ ... ـي تضمن ذا واضح التبيان

لكن وصف الحي لازم ذلك الـ ... ـمعنى لزوم العلم للرحمن

فلذا دلالته عليه بالتزا ... م بيّن والحق ذو تبيان

هذه قاعدة ذكرها المصنف نافعة في الأسماء الحسنى، وذلك أن الدلالة نوعان: لفظية ومعنوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص، وإن أعطيته بعض المعنى فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه، وأما الدلالة المعنوية العقلية فيه خاصة العقل والفكر الصحيح؛ لأن اللفظ بمجرده لا يدل عليها، وإنما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتم معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهذا

يجري في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة، ويدل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام؛ مثال ذلك (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة، ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام؛ لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته، وكذلك ما تقدم من استلزام (الملك) جميع صفات الملك الكامل، واستلزام (الرب) لصفات الربوبية، و(الله) لصفات الألوهية وهي صفات الكمال كلها، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد. فهذه قاعدة نافعة.

ومن القواعد المتعلقة بأسمائه الحسنى ما ذكره المصنف بقوله:

أسماؤه أوصاف مدح كلها	مشتقة قد حمّلت لمعاني
إياك والإلحاد فيها إنه	كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ	إشراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذًا ثلاث طوائف	فعليهمُ غضب من الرحمن

يعني أن أسماءه الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها، وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء، ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلامًا محضة لم تكن حسنى، ولهذا إن كان الاسم منقسمًا إلى حمد ومدح وغيره لم يدخل بمطلقه بأسماء الله كالمريد والصانع والفاعل ونحوها فهذه ليست من الأسماء الحسنى، فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضًا من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه.

والواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفى من معانيها صفة، ولا تشبه بصفات المخلوقين، ولهذا توعد الله الملحدين في أسمائه. إما أن يسموا بها بعض

المخلوقات كتسمية آلهتهم (اللات) من (الإله) و(العزى) من (العزيز) و(مناة) من (المنان)، وإما أن تمثل بصفات المخلوقين، وإما أن تنفى وتعطل كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من كل معطل لصفات الله أو بعضها.

وأعظم أنواع الملحدين فيها ملاحدة الاتحادية الذين سموا بأسمائه وصفاته كل موجود في الوجود، وهذا تعطيل لذاته وصفاته وأفعاله. ولنقتصر في الإشارة إلى الإلحاد بأسمائه وصفاته على ما ذكرنا، مع أن المؤلف بسط الكلام، لكننا أتينا بالجمل الكلية فيها.



فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

هذا وثاني نوعي التوحيد تو ... حيد العبادة منك للرحمن

ألا تكون لغيره عبدًا ولا ... تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والـ ... إحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التـ ... ـتَوحيد كالركنين للبنيان

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا ... د فلا يزاحمه مراد ثاني

لكن مراد العبد يبقى واحدًا ... ما فيه تفريق لدى الإنسان

إن كان ربك واحدًا سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان

أو كان ربك واحدًا أنشاك لم ... يشركه إذ أنشاك رب ثاني

فكذاك أيضًا وحده فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان

والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ... ل الجهد لا كسلًا ولا متواني

والسنة المثلى لسالكها فتو ... حيد الطريق الأعظم السلطاني

فلواحدٍ كن واحدًا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان

هذي ثلاث مسعدات للذي ... قد نالها والفضل للمنان

فإذا هي اجتمعت لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان

وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له، فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به، ويعرف حده وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته، وما يقويه وينميه، وما ينقضه أو ينقصه، وشروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع.

فأما حده وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة، وأن صفات الإلهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقًّا أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مخلصًا ذلك كله لله، لا يقصد به غرضًا من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعًا في ذلك رسول الله ﷺ، فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله؛ ولهذا كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده، و(توحيد الصدق) وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته، و(توحيد الطريق) وهو المتابعة.

فلهذا قال « فلواحد » وهو الله « كن واحدًا » في عزمك وصدقك وإرادتك « في واحد » أي متابعة الرسول؛ ولهذا فسره بقوله « أعني طريق الحق والإيمان ». فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الثلاثة، وإذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك مشارك، فعليك ألا تتأله ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجأ والفزع في أمورك كلها.

وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الإلهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد، بل وللخلق كلهم والتفرد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم، على أنه هو الإله حقًّا الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئًا من العبودية غيره.

ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق، وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها فإنه من الله تعالى، ليس بها وليس منها. وهذا من أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية، وكذلك هو المنفرد بالنعم كلها، وهو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، وسواه فقير إلى ربه في كل حال، لا يستغني عنه طرفة عين، فمن أعظم الباطل وأكبر المنكرات أن يجعل شيئًا منه شريكًا لله في شيء من خصائصه، وشيء من حقوقه على عباده، فإن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، لا نبيًّا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

وهذا النوع من التوحيد متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيها توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي له صفة الإلهية وهي صفات الكمال كلها. ولهذا كلما قوي إيمان العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته قوي توحيده وتم إيمانه، وأما ما يناقض هذا التوحيد فقد ذكره المصنف بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ـًا كان من حجر ومن إنسان

يـدعـوه أو يـرجـوه ثـم يخافه ويـحـبـه كـمـحـبـة الـرحـمـن

يعني أن الشرك المناقض لهذا التوحيد نوعان: جلي ظاهر مخرج من دائرة الإسلام، وهو الشرك الأكبر، وهذا النوع لا يقبل الغفران قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨، ١١٦]. وتفسيره أن يتخذ العبد لله ندًّا يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، أو يدعوه أو يصرف له نوعًا من العبادة الظاهرة والباطنة.

وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والطالحين والأشجار والأحجار وغيرها؛ فمن صرف لشيء منها نوعًا من العبادة فهو مشرك كافر قد سواها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإن العبودية لا حق فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألههم وتعبدهم لله.

وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يتوسل بها ويتطرق إلى الشرك الأكبر، بشرط ألا يبلغ مرتبة العبادة، كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كله؛ جليّه وخفيه ظاهره وباطنه الأقوال منه والأفعال، وتكون أعماله كلها خالصة لله متبعًا فيها سنة رسول الله ﷺ.

والعبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه مما شرعه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وقد حدها المؤلف بقوله:

ليس العبادة غير توحيد المحبـ ـبَة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحابّ كلها، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم هذا التعليق المبارك على يد جامعه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ثالث ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين. وتم نقله من خط المصنف في تسعة عشر من شهر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين والحمد لله.



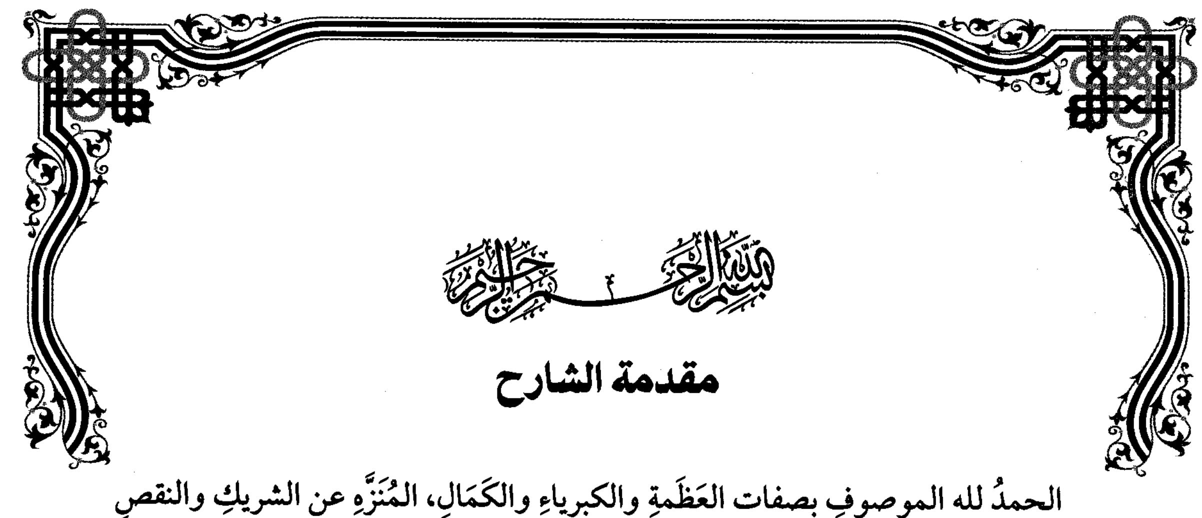


التنبيهات اللطيفة

على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





مقدمة الشارح

الحمدُ لله الموصوفِ بصفات العَظَمةِ والكبرياءِ والكَمَالِ، المُنَزَّهِ عن الشريكِ والنقصِ والشَّبَهِ والمِثَالِ.

وأَشهدُ أَنَّه المُنْفَرِدُ بالوحدانيةِ المستحقُّ لإفرادِهِ بالعبوديةِ في كُلِّ الأحوال.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم في العقائد والأَخلاق والأَقوال والأَفعال.

أما بعد:

فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ «الواسطية» التي جمعت على اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، وهي وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني، تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأَحاديث النبوية وتبين وجه دلالتها على المقصود، وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأَخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه.

وأرجو الله أن يكون هذا التعليق على هذا الوصف، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم مقربًا إليه نافعًا سهلًا في ألفاظه ومعانيه.

مقدمة المصنف

قال المصنِّف رحمه الله وقدس روحه في عليِّين: (الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا).

(الحمد لله) أي: أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها، ومما يحمد عليه نِعَمُهُ على العباد التي لا يُحصي أحد من الخلق تعدادها، وأعظمُها إرساله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين (بالهدى) الذي هو العلم النافع (ودين الحق) الذي هو العمل الصالح (ليظهره) على جميع الأديان بالحجة والبرهان وبالعز والسلطان، (وكفى بالله شهيدًا) على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به، وشهادتُه تعالى بقوله وفِعْله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة الدال كل واحد منها - فكيف بجميعها - على رسالته وصدقه، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها.

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا).

أي: أُقِرُّ وأعترف مصدقًا ومنقادًا أنه لا يستحق الألوهية: وهي التفرد بكل كمال إلا الله، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له.

ولهذا قال: (إقرارًا به)، أي بالقلب واللسان (وتوحيدًا)، أي: إخلاصًا لله في كل عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية، وأعظم ما يوحد به ويتقرب إليه به تحقيق العقيدة السلفية، المحتوي عليها هذا الكتاب، وبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال وتقبل وتستقيم الأمور.

(وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم تسليمًا مزيدًا).

الشهادة للرسول بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد لا يكفي إحداهما عن الأخرى ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي ﷺ لربه وكمال رسالته المتضمنة لكماله ﷺ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال ولا تسمى شهادة حتى يُصدِّقه العبد في كل ما أخبر ويطيعه في كل ما أمر وينتهي عما نهى عنه.

وبهذه الأمور تتحقق الشهادة لله بالتوحيد، وللرسول بالرسالة.

ثم قال المصنف: (أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره).

يقول المصنف رحمه الله: إن ما احتوت عليه هذه الرسالة هو العقيدة المنجية من الهلاك والشرور، المُحصّلة لخيري الدنيا والآخرة الموروثة عن محمد ﷺ المأخوذة عن كتاب الله وسنة رسوله، وهي التي عليها الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة الذي ضمن الله لهم على لسان رسوله النصر إلى قيام الساعة.

والنصر إنما حصل لهم ببركة هذه العقيدة والعمل بها وتحقيقها بالقيام بجميع أمور الدين.

وأصلها الذي تبنى عليه هو الإيمان بهذه الأصول الستة التي صرح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة جملة وتفصيلًا، وتأصيلًا وتفريعًا، وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور[1] حين سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان. فأجابه بها.

فهذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة.

---

(١) البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠).

فصل

الصفات

في الأصل الأول، وهو أصل الأصول كلها وأعظمها وأهمها، وعليه تنبني جميع الأصول والعقائد وهو: الإيمان بالله.

قال المصنف:(ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه ولا يُلحِدون في أسماء الله وآياته ولا يُكَيِّفون ولا يُمَثِّلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له ولا كُفُوَ له ولا ندَّ له ولا يُقَاس بخلقه سبحانه.

فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال سبحانه:

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

(فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب).

ذكر المصنف رحمه الله هذا الأصل والضابط العظيم في الإيمان بالله إجمالًا قبل أن يشرع في التفصيل؛ ليبني العبد على هذا الأصل جميع ما يرد عليه من الكتاب والسنة، فيستقيم له إيمانه ويسلَمُ من الانحراف.

فذكر أنه يجب ويتعين الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه وأخبر به رسوله ﷺ عن ربه إيمانًا صحيحًا سالمًا من التحريف والتعطيل، وسالمًا من التكييف والتمثيل، بل يثبت ما أثبته الله ورسوله ولا يزيد على ذلك ولا ينقص، فإن الكلام على ذات الباري وصفاته واحدٌ، فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات، فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات، فمن مال إلى نفي الصفات أو بعضها فهو ناف مُعَطِّلٌ مُحَرف، ومن كيَّفها أو مثَّلها بصفات الخلق فهو مُمَثِّلٌ مُشَبِّه.

والفرق بين التحريف والتعطيل: أن التعطيل: نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة. والتحريف: تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه.

فالتحريف والتعطيل قد يكونان متلازمين إذا أُثْبتَ المعنى الباطل، ونفي المعنى الحق، وقد يوجد التعطيل بلا تحريف كما هو قول النافين للصفات الذين ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ويقولون: ظاهرها غير مراد! ولكنهم لا يعينون معنى آخر، ويسمون أنفسهم مفوِّضة ويظنون أن هذا مذهب السلف وهو غلط فاحش، فإن السلف يثبتون الصفات، وإنما يفوضون علم كيفيتها إلى الله، فيقولون: الوصف المذكور معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، وإثباته واجب، والسؤال عن كيفيته بدعة، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء[1].

وأما قوله: من غير تكييف ولا تمثيل، فالفرق بينهما أن:

التكييف: هو تكييف صفات الله والبحث عن كنهها.

والتمثيل: أن يقال فيها: إنها مثل صفات المخلوقين فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) اللالكائي في شرح أصول السنة (٦٦٤، ٦٦٥).

ونفي الكفؤ والند والسمي ينفي ذلك التكييف والتمثيلَ.

وقل مثله في ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ ونحوها من إثبات أسماء الله وصفاته تنفي التعطيل والتحريف.

فالمؤمن الموحد يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه.

والمعطل ينفيها أو ينفي بعضها، والمشبه المُمَثّل يُثْبِتُها على وجهٍ يليق بالمخلوقِ.

ونصوص الكتاب والسنة التي يتعذر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل، وهو إثبات الصفات على وجه الكمال الذي لا يشبهه كمال أحد، وهي في غاية الوضوح والبيان وأعلى مراتب الصدق.

فإن الكلام إنما يقصر بيانُه ودلالتُه لأمورٍ ثلاثة:

إما: جهل المتكلم وعدم علمه وقصوره.

وإما: عدم فصاحته وبيانه.

وإما: كذبه وغشه.

أما نصوص الكتاب والسنة، فإنها بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه.

فكلام الله ورسوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق كما قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

والرسول ﷺ في غاية النصح والشفقة العظيمة على الخَلْق، وهو من أعلم الخلق وأصدقهم وأفصحهم، وأنصح الخَلْقِ للخَلْق، وهل يُمكن أن يكون في كلامه شيء من النقص أو القصور؟ بل كلامه هو الغاية التي ليس فوقها غاية في الوضوح والبيان للحقائق.

وهذا برهان على أن كلام الله وكلام رسوله يوصل إلى أعلى درجات العلم واليقين، والله يقول [الحق] وهو يهدي السبيل.

والحق النافع هو ما اشتمل عليه كلام الله وكلام رسوله في جميع أبواب العلم لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها.

وهذا معنى قول المصنف في إيراده للآية الكريمة:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

فسبح نفسه عما قاله المخالفون للرسل وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، أي: قال: الحمد لله ربّ العالمين لدلالة الحمد على الكمال المطلق من جميع الوجوه.

(وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين).

هذا الذي ذكره المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأنه مبني على أصلين:

أحدهما: النفي.

وثانيهما: الإثبات.

أما النفي: فإنه ينفي عن الله ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، وينفي عنه أيضًا أن يكون له شريك أو نديد أو مثيل في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة، فكل ما ينافي صفات الكمال فإنَّ الله منزه عنه مُقَدَّس.

والنفي مقصود لغيره، القصد منه الإثبات، ولهذا لم يرد نفي شيءٍ في الكتاب والسنة عن الله إلا لقصد إثبات ضده، فنفي الشريك والنديد عن الله لكمال عظمته وتفرده بالكمال، ونفي السِّنَةِ والنوم والموت لكمال حياته، ونفي عُزوب شيءٍ عن علمه وقدرته وحكمته، كل ذلك لإثبات سعة علمه وتحول حكمته وكمال قدرته.

ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة.

وأما الإثبات: فإنه يجمع الأمرين: المجملات: كالحمد المطلق، والكمال المطلق، والمجد المطلق ونحوها، وإثبات المفصلات: كتفصيل علم الله وقدرته وحكمته ورحمته ونحو ذلك من صفاته.

فأهل السنة والجماعة لزموا هذا الطريق الذي هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم، وبلزومهم لهذا الطريق النافع تمت عليهم النعمة، وصحت عقائدهم، وكَمُلَت أخلاقهم، أما من سلك غير هذا السبيل، فإنه منحرف في عقيدته وأخلاقه وآدابه.

(وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]).

هذا شروع في تفصيل النصوص الواردة في الكتاب والسنة الداخلة في الإيمان بالله، وأنه يجب فيها إثباتها ونفي التعطيل والتحريف والتكييف والتمثيل عنها، فثبت عنه ﷺ في **الصحيح**[1] أن هذه السورة «تعدل ثلث القرآن». وذلك كما قال أهل العلم: إن القرآن يحتوي على علوم عظيمة كثيرة وهي ترجع إلى ثلاثة علوم:

أحدها: علوم الأحكام والشرائع الداخل فيها علوم الفقه كلها عباداته ومعاملاته وتوابعهما.

الثاني: علوم الجزاء على الأعمال والأسباب التي يجازى بها العاملون من خير وشر،

---

(١) البخاري (٥٠١٣)، ومسلم (٨١١).

وبيان تفصيل الثواب والعقاب.

الثالث: علوم التوحيد وما يجب على العباد من معرفته والإيمان به، وهو أشرف العلوم الثلاثة.

وسورة الإخلاص كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده.

فإن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: الله متفرد بالعظمة والكمال، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء، يحقق ذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله، فهو العظيم الكامل في عظمته، العليم الكامل في علمه، الحكيم الكامل في حلمه، فهو الكامل في جميع نعوته وأسمائه وصفاته.

ومن معاني «الصمد» أنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها، وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها، فهو المقصود، وهو الكامل المعبود.

فإثبات الأحدية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن إثبات تفاصيل جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى.

فهذا أحد نوعي التوحيد وهو الإثبات، وهو أعظم النوعين.

والنوع الثاني: التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل، وهذا داخل في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير، فمتى اجتمع للعبد هذه المقامات المذكورة في هذه السورة بأن نزه الله وقدسه عن كل نقص وند وكفؤ ومثيل، وشهد بقلبه انفراد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين وهما الأحد الصمد، ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجته الظاهرة والباطنة، متى كان كذلك تم له التوحيد العِلْمِي الاعتقادي، والتوحيد العَمَلي، فحق لسورة تشتمل على هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن.

قال المصنف: (ودخل في ذلك ما وصف به نفسه في أعظم آية من القرآن حيث يقول:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]).

ولهذا «**من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح**»[١]. وذلك لاشتمالها على أجلِّ المعارف وأوسع الصفات، فأخبر أنه المتوحد في الألوهية المستحق لإخلاص العبودية، وأنه الحي كامل الحياة، وذلك يقتضي كمال عزته، وقدرته، وسَعَة علمه، وشُمولَ حكمته، وعموم رحمته، وغيرها من صفات الكمال الذاتية، وأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع المخلوقات، وقام بالموجودات كلها فخلقها وأحكمها ورزقها ودبَّرها وأمدَّها بكل ما تحتاج إليه.

وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية، ولهذا ورد أن الحي القيوم هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى[٢]، لدلالة «الحي» على الصفات الذاتية و«القيوم» على الصفات الفعلية، والصفات كلها ترجع إليهما.

ومن كمال قيوميته وحياته أنه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ وهي النعاس ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾، ثم ذَكَرَ عُمومَ ملكه للعالم العُلويِّ والسُّفلي.

ومن تمام ملكه أن الشفاعة كلها لله، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ففيها ذكر الشفاعة التي يجب إثباتها، وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى.

والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون ما كانت تطلب من غير الله وبغير إذنه، فمن كمال عظمة الله أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلَّا فيمن رضي قوله وعمله، وبيّن أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ثم ذكر سعة علمه فقال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا

(١) البخاري (٣٢٧٥ - معلقًا)، والنسائي (٩٥٩).
(٢) أبو داود (٩٨٥)، النسائي (٣/ ٥٢).

﴿خَلْفَهُمْ﴾ أي: علمه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة فلا يخفى عليه منها شيء، وأما الخلق فلا يحيطون بشيء من علم الله لا قليل ولا كثير إلا بما شاء أن يُعْلِمَهُمُ الله على ألسنة رُسُله وبطرق وأسباب متنوعة.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قيل: إنه العرش، وقيل: إنه غيره، وإنه كرسي ملكه من عِظَمِهِ وسعته أنه وَسعَ السماوات والأرض، ومع ذلك فلا يَئودُه أي: لا يثقله ولا يكربُهُ - حفظهما - أي: حفظ العالم العُلويّ والسُّفليّ - وذلك لكمال قُدرته وقُوّته.

وفيها بيان لعظيم نعمة الله على الخلق؛ إذ خلق لهم السماوات والأرض وما فيهما وحَفِظَهما وأمسكهما عن الزوال والتَّزَلْزُل وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المُتعَدِّدة التي لا تحصى وهو ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه:

علوّ الذات بكونه فوق جميع المخلوقات على العرش استوى.

وعلوّ القدر: إذ كان له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها.

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه الذي لا أعظَمَ منه ولا أجَلَّ ولا أكبر، فحقيق بآية تحتوي على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن(1)، وأن يكون لها من الواقع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ما ليس لغيرها.

(وقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]).

قد فسر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بتفسير مختصر جامع واضح حيث قال: **«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء،**

---

(١) كما صح عن أُبي بن كعب أنه قال: قال ﷺ: «يا أبا المنذر! أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟». قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. فضرب في صدري، وقال: «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر». مسلم (٨١٠).

وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1].

وهذا يدل على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها، وبيان إحاطته من كل وجه، فـ «الأول والآخر» إحاطته الزمانية، و«الظاهر والباطن» إحاطته المكانية.

ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ومن العالم العُلويّ والسُّفليّ، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ١، ٢]. ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]. ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) مسلم (٢٧١٣)، الترمذي (٣٣٩٧)، أبو داود (٥٠٥١).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]. ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]. ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣، ١٤]. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]. ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]. ﴿وَقُلِ

اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]. ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]. ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ [النمل: ٥٠]. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]. ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩]. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨]. ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]. ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨]. ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١]. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: ١]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢]. ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢]. ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٤]. ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. في سبعة مواضع من القرآن وقوله: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]. ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]. ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]. ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]. ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠]. ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢]. ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]. ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح: ١٥]. ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الكهف: ٢٧]. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]. ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ

لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣].
﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وهذا الباب في كتاب الله كثير، من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبيَّن له طريق الحق).

أقول: ذكر المصنف رحمه الله في هذا الموضع عدة آيات، وكلها داخلة في الإيمان بالله، ويتضح معناها عمومًا وخصوصًا بذكر أصول وضوابط نوضحها فيما يأتي:

منها: أن هذه النصوص القرآنية تنطبق عليها القاعدة المتفق عليها بين السلف، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما نشأ عنها من الأفعال، مثال ذلك في القدرة، يجب علينا الإيمان بأنه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرة الله، والإيمان بأن قدرته شاملة لجميع الكائنات، وبأنه عليم ذو علم محيط، وأنه يعلم الأشياء كلها.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط كما في هذه الآيات التي ذكرها المصنف من الأسماء الحسنى، فإنها داخلة في الإيمان بالأسماء وما فيها من ذكر الصفات، مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته وكلامه وأمره وقوله ونحوها، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات، وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة مثل: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]. ويعلم كذا وكذا، ويحكم ويريد، وَسمعَ ويسمع، ويرى وأسمع وأرى، وقال ويقول، وكلّم ويكلِّم، ونادى وناجى، ونحوها من الأفعال، فإنها داخلة في الإيمان بأفعاله تعالى.

فعلى العبد الإيمان بكل ذلك إجمالًا وتفصيلًا وإطلاقًا وتقييدًا على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، وأن يعلم أن صفاته لا تشبهها صفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين.

ومن الأصول المتفق عليها بين السلف التي دلت عليها هذه النصوص أنّ صفات الباري قسمان:

صفات ذاتية: لا تنفك عنها الذات كصفة الحياة، والعلم، والقدرة والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، ونحوها، كالعلو المطلق.

وصفات فعليّة: تتعلق بها أفعاله كل وقت وآن وزمان، ولها آثارها في الخلق والأمر، فيؤمنون بأنه تعالى فعّال لما يريد وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته، كما أن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا.

وقد دل على هذا الأصل الكبير ما في هذه النصوص من ذكر (قال) و(يقول) و(سمع) و(يسمع) و(كلم) و(يكلم) و(نادى) و(ناجى) و(عَلِم) و(كتب) و(يكتب) و(جاء) و(يجيء) و(أتى) و(يأتي) و(أوحى) و(يُوحي) ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيدة بأوقاتها كما سمعت في هذه النصوص المذكورة آنفًا.

وهذا من أكبر الأصول وأعظمها.

ولقد صنّف فيه المؤلف مصنفًا مستقلًّا وهو المسمى بالأفعال الاختيارية.

فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش، والمجيء، والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والقول، ونحوها، والمتعلقة بخلقِه كالخَلْقِ والرِّزق وأنواع التدبير.

ومن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة المتفق عليها بين السلف التفريق بين مشيئة الله وإرادته وبين محبته؛ فمشيئة الله وإرادته الكونية تتعلّق بكلِّ موجود محبوب لله وغير محبوب، كما ذُكر في هذه الآيات أن الله يفعل ما يُريد وما يشاء وإذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، وأما محبته فإنها تتعلق بما يحبه خاصة من الأشخاص والأعمال كما ذكر في هذه

الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها، فمشيئته عامة للكائنات ومحبته خاصة ومتعلقة بالمحبوبات.

ويتفرع عن هذا أصل آخر وهو التفريق بين الإرادة الكونية - فإنها تطابق المشيئة - وبين الإرادة الدينية - فإنها تطابق المحبة - فالأولى مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. ونحوها، والثانية نحو: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٢٧] ونحوها.

ومع ذلك فجميع ذلك خاصه وعامه يثبته أهل السنة والجماعة على الوجه الذي قاله الله ورسوله.

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وهي من أهم الأصول التي باين[1] بها أهل السنة الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فما في هذه الآيات من ذكر علو الله واسمه العلي الأعلى، وصعود الأشياء إليه وعروجها ونزولها منه يدل على العلو.

وما صرَّح به من استوائه على العرش برهان قاطع على ثبوت ذلك، وقد قيل للإمام مالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه - أي عن الكيفية - بدعة.

ومن أصول أهل السنة والجماعة إثبات معية الله، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٧].

وهذه المعية تدل على إحاطة علمه بالعباد، ومجازاته لهم بأعمالهم وفيها ذكر المعية الخاصة كقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(١) أي: افترقوا بها عن غيرهم.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذه الآيات تدل مع العلم المحيط على العناية بمن تعلقت به تلك المعية، وأن الله معهم بعونه وحفظه وكلاءته[1] وتوفيقه.

وإذا أردت أن تعرف: هل المراد المعية العامة أو الخاصة؟ فانظر إلى سياق الآيات، فإن كان المقام مقام تخويف ومحاسبة للعباد على أعمالهم وحث على المراقبة، فإن المعية عامة مثل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] الآية.

وإن كان المقام مقام لطف وعناية من الله بأنبيائه وأصفيائه وقد رُتِّبت المعية على الاتصاف بالأوصاف الحميدة، فإنّ المعيّة معيّة خاصة، وهو أغلب إطلاقاتها في القرآن مثل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ونحوها.

ومن الأصول العظيمة: إثبات تفرد الرب بكل صفة كمال وأنه ليس لله شريك ولا مثيل في شيء منها، والنصوص المذكورة التي فيها نفي الند والمثل والكفؤ والسَّمِيِّ عن الله تدل على ذلك، وتدل على أنه منزه عن كل عيب ونقص وآفة.

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في دار القرار والتنعم برؤيته وقربه ورضاه، ويدل على ذلك من الآيات التي ذكرها المصنف قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: جميلة ناعمة حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وهذا صريح في نظرهم إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]. أي: إلى ما أعطاهم من النعيم الذي أجله وأعظَمُهُ النظر إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: وفوا مقام الإحسان. ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ التي هي الجنة. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وهي النظر إلى وجه الله الكريم[2]، وكذلك قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

---

(١) أي: حفظه.

(٢) مسلم (١٨١)، الترمذي (٢٥٥٥).

فصل

أهل السُّنَّة وأهل البِدَع

اعلم أن أهل السنة والجماعة وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأهل القرون المفضلة متفقون على إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها، ولا بين الفعلية كالرضا والغضب والمحبة والكراهية.

وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوها وبين الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة وغيرها.

وكُلُّها يُثْبِتُونَها من غير نفي لشيء منها ولا تأويل ولا تحريف ولا تمثيل، وهذا هو الحق وهو الصراط المستقيم وهو الطريق المُنْجي من عذاب الله، والهدى والنور، وخالفهم في هذا الأصل طائفتان من أهل البِدَع:

إحداهما: الجهمية والمعتزلة على اختلاف طوائفهم، فإنهم نفوا جميع الصفات ولم يثبتوا إلا الأسماء والأحكام، والآيات السابقة كلها تنقض قولهم وَتُبْطِلُه، وكذلك كلامهم هذا يَنْقُض بعضُه بعضًا، فإن إثبات الأسماء والأحكام بلا أوصاف تقوم بالله محال عقلًا كما أنه باطل سمعًا.

الطائفة الثانية: الأشعرية ومن تبعهم وهم أخف حالا وأهون من المعتزلة؛ لأنهم وافقوا أهل السنة في شيء ووافقوا المعتزلة في شيء:

وافقوا أهل السنة في إثبات الصفات السبع وهي الحياة والكلام والعلم والسمع والبصر

والإرادة والقدرة، ووافقوا المعتزلة في بقية الصفات، والجميع محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام.

وأما النفي للصفات كلها أو التناقض فإنه مخالف للكتاب والسنة ومنافٍ للعقل الصحيح، فلا يثبت للعبد إيمان إلا بالإيمان المحض والتسليم لما جاء به الرسول بلا شرط ولا قيد، والدَّوَران مع النصوص الشرعية إثباتًا أو نفيًا.

فصل

في سنة رسول ﷺ

(فالسنة تفسر القرآن وتُبيِّنه وتَدُلُّ عليه، وتُعَبِّر عنه، وما وصف الرسول به ربه عزّ وجل من الأحاديث الصحاح التي نقلها وتلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها كذلك).

أي إيمانًا خاليًا من التعطيل والتحريف، ومن التكييف والتمثيل، بل إثباتًا لها على الوجه اللائق بعظمة الرب.

وحُكْمُ السُّنة حُكْمُ القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فإن السنة توضح القرآن وتبين مجمله وتُقَيِّد مطلقه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. أي: السنة، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

(وذلك مثل قوله ﷺ: **«ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟»** متفق عليه)[1].

فهذا الحديث قد استفاض في الصحاح والسنن والمسانيد، واتُّفق على تلقيه بالقبول والتصديق بين أهل السنة والجماعة، بل جميع المسلمين الذين لم تُغَيِّرهم البدع، وعرفوا به عظيم رحمة ربهم وَسَعَةَ جُوده واعتناءه بعباده وتعرضه لحوائجهم الدينية والدنيوية وأن نزوله حقيقة كيف يشاء فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب

(١) البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨).

والسنة ويقفون عند ذلك، فلا يُكيفون، ولا يُمثلون، ولا يَنْفُون، ولا يُعطِّلون، ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل، وقد علمنا أنه فعال لما يريد وعلى كل شيء قدير.

ولهذا كان خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه، فيقومون بعبوديّته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم إياها على لسان رسوله ﷺ، ويعلمون أن وعده حق ويخشون أن ترد أدعيتهم بذنوبهم ومعاصيهم، فيجمعون بين الخوف والرجاء، ويعترفون بكمال نعمة الله عليهم فتمتلئ قلوبهم من التعظيم والإيمان لربهم ومن التصديق والإذعان.

(وقوله ﷺ: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن التائب من أحدكم براحلته»**... الحديث) متفق عليه[1].

وهذا فرح جود وإحسان، لأنه جل جلاله ينوع جوده وكرمه على عباده من جميع الوجوه ويحب من عباده أن يسلكوا كل طريق يوصلهم إلى كرمه وإحسانه ويكره لهم ضد ذلك، فإنه تعالى جعل لرحمته وكرمه أسبابًا بينها لعباده وحثهم على سلوكها وأعانهم عليها ونهاهم عما ينافيها ويمنعها، فإذا عصوه وبارزوه بالذنوب فقد تعرضوا لعقوباته التي لا يحب منهم أن يتعرضوا لها، فإذا رجعوا إلى التوبة والإنابة فرح بذلك أعظم فرح يُقَدَّر، فإنه ليس في الدنيا نظير فرح هذا الذي في أرض فلاة مُهْلِكة وقد انفلتت منه راحلته التي عليها مادّة حياته من طعام وشراب وركوب فأيس منها وجلس ينتظر الموت فإذا هو بها واقفة على رأسه فأخذ بخطامها[2] وكاد الفرح أن يقضي عليه، وقال من الدهشة وشدة الفرح: **«اللهم أنت عبدي وأنا ربك، فهل يوجد فرح أعظم من فرح الآيس من حياته إذا حصلت له على أكمل الوجوه؟»**[3].

---

(١) البخاري (٦٣٠٨)، مسلم (٢٧٤٤).

(٢) هو زمامها الذي تقاد به.

(٣) البخاري (٢٣٩٢)، مسلم (٢٧٤٧).

فتبارك الرب الكريم الجواد الذي لا يُحصي العباد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

وهذا الفرح تبع لغيره من الصفات كما تقدم أن الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فهذا فرح لا يشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته، فسببه الرحمة والإحسان، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

(وقوله ﷺ: **«يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة»** متفق عليه)[1].

وهذا أيضًا من كمال وجمال إحسانه وسعة رحمته؛ فإن المسلم يقاتل في سبيل الله ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يمنّ الله على ذلك الكافر القاتل فيهديه للإسلام، فيدخلان الجنة جميعًا، وهذا من تنويع جوده المُتتابع على عباده من كل وجه.

والضحك يكون من الأُمور العجيبة التي تخرج عن نظائرها، وهذه الحالة المذكورة كذلك، فإن تسليط الكافر على قتل المسلم في بادئ الأمر أمر غير محبوب، ثم هذا المتجرِّئ على القتل يتبادر لأذهان كثير من الناس أنه يبقى على ضلاله ويعاقب في الدنيا والآخرة، ولكن رحمة الله وإحسانه فوق ذلك كله، وفوق ما يظن الظانون ويتوهم المُتوهِّمون، وكذلك لما دعا النبي ﷺ على أُناسٍ من رؤساء المشركين لعنادهم وأذيّتهم بالطرد عن رحمة الله أنزل الله قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. فتاب عليهم بعد ذلك وحسن إسلام كثير منهم[2].

(وقوله ﷺ: **«عجب ربُّنا من قُنوط عباده وقُرْب غيثه[3] ينظر إليكم أزلين[4] قَنِطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»**. حديث حسن)[5].

(١) البخاري (٢٨٢٦)، مسلم (١٨٩٠).
(٢) البخاري (٤٠٦٩)، الترمذي (٣٠٠٣).
(٣) كذا وهذا اللفظ أورده ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٥٢.
(٤) متضايقين، ومفردها: أزل.
(٥) ابن ماجه (١٨١).

وهذا العَجَبُ الذي وصف الرسول به ربَّه من آثار رحمة الله، وهو من كماله تعالى، والله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فإذا تأخَّر الغيثُ عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم استولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصرًا على الأسباب الظاهرة، وحسبوا ألا يكون وراءها فرجٌ من القريب المُجيب، فيعجب الله منهم.

وهذا محل عجب! كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء؟!

والأسباب لحصولها قد توفرت، فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته، والدعاء لحصول الغيث والرجاء لله من الأسباب، ووقوع الغيث بعد امتناعه مدة طويلة وحصول الضرورة يُوجِبُ أن يكون لفضل الله وإحسانه موقع كبير وأثر عجيب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨، ٤٩].

والله تعالى قدَّر من ألطافِهِ وعوائده الجميلة أن الفرج مع الكرب وأنَّ اليُسر مع العسر. وأن الضرورة لا تدوم، فإن حصل مع ذلك قوة التجاء، وشدَّة طمع بفضل الله ورجاء، وتضرع كثير ودعاء، فتح الله عليهم من خزائن جوده ما لا يخطر بالبال، وفي لفظ: (قُرْب غِيَره) أي: تغييره الشِّدة بالرخاء.

(وقوله ﷺ: **«لا تزال جهنَّم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها رِجْله»**، وفي رواية: **«عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قَط قَطْ»**. مُتفق عليه)[1].

وهذه الصفة تجري مجرى بقية الصفات تُثْبَتُ لله حقًّا على الوجه اللائق بعظمته، وذلك أن الله وعد النار مَلأَها كما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. فلَما كان من مقتضى رحمته ألا يعذِّب أحدًا بغير جُرْمٍ، وكانت النار في غاية القعر والسَّعة

(١) البخاري (٧٣٨٤)، مسلم (٢٨٤٨).

حقَّق وعده تعالى ووضع عليها قدمه فتلاقى طرفاها ولم يبْقَ فيها فضل عن أهلها.

وأما الجنة فإنه يبقى فيها فضلٌ عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وسعته، فينشئ الله لها خلقًا آخر، كما ثبت بذلك الحديث فيقول الله تعالى: (يا آدم) فيقول: «**لبّيك وسعدَيك، فيُنادي بصوت: إِنَّ الله يأمُرُك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**» متفق عليه)[1].

ففي هذا الحديث إثبات القول من الله والنداء لآدم وأنه نداءٌ حقيقة بصوت، وهذا من فضل الله لا يُشْكِل على المؤمنين، فإنّ النداء والقول من أنواع الكلام، وكلام الله صفة من صفاته، والصفةُ تتبع الموصوف. وفيها أن القول والنداءَ يكون في يوم القيامة، وهذا من أدلة الأفعال الاختيارية.

وكم لهذه المسألة من البراهين من الكتاب والسُّنة.

(وقوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»)[2]. وهذا أيضًا إثبات لتكليمه لجميع العباد بلا واسطة، وتكليمه لعباده نوعان:

(**نوع بلا واسطة**): كما في هذا الحديث، وتكليم لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان، وأما ما في الحديث فإنه تكليم محاسبة، ويكون مع البَرِّ والفاجر، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]. فالمنفي كلامٌ خاص وهو الكلام الذي يسر المتكلم.

(**ونوع بواسطة**): وهو كلامه تعالى لرسله من الملائكة بأمره ونواهيه وأخباره لأنبيائه ورسله من البشر.

(وقوله ﷺ في رُقية المريض: «**ربنا الله الذي في السماء تقدَّس اسمك، أمرك في السماء والأرض كما رحْمتك في السماء، اجعل رحْمتك في الأرض، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت**

(١) البخاري (٧٤٨٣)، مسلم (٢٢٢).

(٢) البخاري (٧٥١٢)، مسلم (١٠١٦).

رب الطيِّبين، أنْزل رحمة من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع فيبرأ». حديث حسن رواه أبو داود[1].

وقوله: «**ألا تَأْمَنُونِي وأنا أمين من في السماء**» حديث صحيح [2].

وقوله: «**.. والعرش فوق ذلك والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه**» حديث حسن رواه أبو داود وغيره[3].

وقوله للجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء، فقال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**». رواه مسلم) [4].

فهذه النصوص وغيرُها المصرِّحة بأنه تعالى في السماء حق على حقيقتها، و(في) تكونُ بمعنى (على) كما قاله كثير من أهل العلم واللغة، وقد وردت في مواضع كثيرة على هذا النحو قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. أي: عليها، وقال طائفة من أهل العلم: إنَّ معنى (في السماء) أي: في جهة العُلُوّ، وعلى الوجهين فهي نصٌّ في عُلُوِّ الله على خَلْقِه.

وفي حديث الرُّقية المذكور توسل إلى الله بالثناء عليه بربوبيته وأُلوهيّته وقُدسيّته وعُلُوِّه وعموم أمره الشرعي وأمره القدري؛ فإن الله له الأمر القدري الذي ينشأ عنه جميع الموجودات والحوادث والتدابير القدرية كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وله الأمر الشرعي المتضمن الشرائع التي شرعها لعباده على ألسنة رُسُله.

---

(١) (٣٨٩٢).

(٢) البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٠٦٤).

(٣) أبو داود (٤٧٢٣).

(٤) مسلم (٥٣٧).

فتوسل إلى الله بذلك، ثم توسل إليه برحمته التي شملت أهل السماوات كلهم أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا وافرًا منها، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب - وهو الذنب العظيم والخطايا وما دونها - ثم بربوبيّته الخاصة للطيبين - وهم الأنبياء وأتباعهم الذين غمرهم بِنِعم الدِّين والدنيا الظاهرة والباطنة.

فهذه الوسائل المتنوعة إلى الله لا يكاد يُرَدُّ دعاء من توسل بها، فلهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضًا إلا أزاله، ولا فيه تعلق بغير الله، فأفضل المنن منن المولى التي لا سعي لمخلوق فيها.

وفي شهادة الرسول بالإيمان للجارية التي اعترفت بِعُلُوِّ الله ورسالة رسوله دليل على أن من أعظم أوصاف الباري الاعتراف بِعُلُوِّه على خلقه ومباينته لهم، وأنه على العرش استوى، وأن هذا أصل الإيمان، وأن من أنكر علو الله المُطلق من كل وجه فقد حرم هذا الإيمان.

وقوله: «والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه». فيه الجمع بين الإيمان بعلوه على عرشه وفوق مخلوقاته وبإحاطة علمه بالموجودات كلِّها، وقد جمع الله بين الأمرين في عدة مواضع من كتابه.

(وقوله: **«أفضل الإيمان أن تَعْلَم أن الله معك حيثما كنت»** حديث حسن[1]. وقوله: **«إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإنَّ الله قِبَلَ وجهه فلا يبصقن قِبَلَ وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه»** متفق عليه)[2].

هذان الحديثان دَلّا على أن أفضل الإيمان مقام الإحسان والمراقبة، وهو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وتعلم أن الله معك لا تتكلم ولا تفعل ولا تتصرف إلا والله يراك ويشاهدك ويعلم سرَّك وجهرك وأن تلزم الأدب مع الله خصوصًا إذا دخلت في

(١) الطبراني في الكبير (٤٢٥).

(٢) البخاري (٧٥٣)، مسلم (٣٠٠٨).

الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وبين ربِّه، فتخضع وتخشع وتعلم أنك واقف بين يدي الله فتقلل الحركات ولا تُسيء الأَدب معه بالبصاق أمامك أو عن يمينك، فهذه المعيّة متى حصل للعبد استحضارها في كل أحواله لا سيما في عباداته، فإنها أعظم عون على المراقبة التي هي أعلى مراتب الإيمان، فيجمع العبد بين الإيمان بعُلُوِّ الله واستحضار قُرْبه، ولا منافاة بين الأمرين كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

وقوله: **«اللهم ربَّ السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر»**. رواه مسلم[1]. وقوله ﷺ لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير: **«أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**. متفق عليه[2].

(وقوله: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاةٍ قَبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروبها فافعلوا»** متفق عليه)[3].

وقد تواترت النصوص في رؤية الله لأهل الجنة وأنهم يرون ربهم ويتمتعون بمشاهدته، وهي تدل على أمرين: على عُلُوِّه على خلْقه، لأنها صريحة بأنهم يرونه من فوقهم، وعلى أن أعظم النعيم نعيم النظر إلى وجهه الكريم، وحثُّه ﷺ في هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خصوصًا فيه إشارة على أن من حافظ عليهما نال هذا النعيم الكامل الذي يضمحل عنده كل نعيم، وهذا يدل على تأكُّدهما كما دل على ذلك الحديث الآخر: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر...»** الحديث،

(١) مسلم (٢٧١٣). (٢) البخاري (٧٣٨٦)، مسلم (٢٧٠٤).

(٣) البخاري (٥٥٤)، مسلم (٦٣٣).

متفق عليه[1].

(إلى أمثال هذه الأحاديث التي يُخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه بما يُخبر به، فإنَّ الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم وسط في فرق الأمة، كما أن الأُمة وسط في جميع الأُمم).

والمراد بالوسط العدل الخِيار[2] الذين جمعوا كل حق في أقوال الخَلْقِ وردُّوا ما فيها من الباطل، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه الأمة وسط بين الأمم التي تميل إلى الغلوّ الضار والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك، فمن الأمم من غلا في المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق ومن حقوقه ما جعل.

ومنهم من جفا الأنبياء وأتباعهم حتى قتلهم وردَّ دعوتهم، وهذه الأمة آمنت بكل رسول أرسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت مقاماتِهم الرفيعة التي فضَّلهم الله بها ولم يغلوا في أحدٍ من المخلوقين.

ومن الأمم من أحلّت كل طيِّب وخبيث، ومنهم من حرّم الطيّبات غلوًّا ومجاوزة، وهذه الأمة أحلّ الله لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث ونحو ذلك من الأُمور التي منَّ الله على هذه الأمة الكاملة بالتوسط فيها.

وكذلك أهل السنة والجماعة متوسطون بين فِرق الأمة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

---

(١) البخاري (٥٥٥)، مسلم (٦٣٢).

(٢) الترمذي (٢٩٦١)، أحمد (١١٢٧١).

(فهم وسط في باب صفات الله تعالى بين الجهميّة أهل التعطيل وبين المُشبِّهة أهل التمثيل).

كما تقدم بيان ذلك، وأن أهل السنة يُثبتون جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله على حقيقتها اللائقة بعظمة الباري، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، فإن الجبرية يزعمون أن العبد مجبور على أفعاله لا قدرة له عليها وأن أفعاله بمنزلة حركات الأشجار، كل هذا غُلوٌّ منهم في إثبات القَدَر.

والقدرية قابلوهم فنفوا تَعَلُّقَ قُدرةِ الله بأفعال العباد تنزيهًا لله بزعمهم؛ فأفعال العباد عندهم لا تدخل تحت مشيئة الله وإرادته، وكل من هاتين الطائفتين ردَّت طائفة كبيرة من نصوص الكتاب والسُّنة.

وهدى الله أهل السنة والجماعة للتوسط بين الطائفتين المنحرفتين فآمنوا بقضاء الله وقدره وشمولهما للأعيان والأوصاف والأفعال التي من جملتها أفعال المُكَلَّفين وغيرهم، وآمنوا بأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وآمنوا مع ذلك بأن الله تعالى جعل للعباد قدرة وإرادة تقع بها أقوالهم وأفعالهم على حسب اختيارهم وإرادتهم، فآمنوا بكل نص فيه تعميم قدرته ومشيئته لكل شيء وبكل نصٍّ فيه إثبات أن العباد يعملون ويفعلون كل الأفعال الكبيرة والصغيرة بإرادتهم وقدرتهم، وعلموا أن الأمرين لا يتنافيان بل يتساعدان، كما سيأتي توضيح ذلك إن شاء الله.

(وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم).

وذلك أن المرجئة جعلت الإيمان فقط تصديق القلب وأخرجت عنه جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وجوّزوا على الله أن يعذب المطيعين وأن يُنعِّم العاصين.

وأما الوعيدية من القدرية فخلّدوا في النار كل من مات مصرًّا على الكبائر التي دون الشرك، فانحرفت كل واحدة وردت لأجل ذلك من النصوص ما رَدَّت.

وهدى الله أهل السنة والجماعة فتوسَّطوا وقالوا: إن الإيمان اسم لجميع العقائد الدينية والأعمال القلبية والبدنية، وإنه قد يبقى ناقصًا إذا تجرّأ المؤمن على المعاصي بدون توبة، وإن الله لا يظلم من عباده أحدًا ولا يعذب الطائعين بغير جرم ولا ذنب، وإنه لا يُخلِّد في النار من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولو فعل الكبائر، كما تواترت بذلك النصوص في الكتاب والسنة.

(وفي أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين الجهمية والمرجئة).

وقد تقدم ذلك، لكن الفرق بين الحرورية والمعتزلة: أن الحرورية وهم الخوارج يطلقون الكفر على العُصاة من المؤمنين ويخلدونهم في النار، وأما المعتزلة فلا يطلقون عليهم الكفر بل يقولون: إنهم لا مسلمون ولا كُفار ولكنهم يُخلدونهم في النار كما تقول الخوارج، والنصوص تردُّ قولهم جميعًا.

(وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج).

فإن الرافضة تسبهم وتلعنهم وربما كفَّرتهم أو كفرت بعضهم، وأمّا الرافضة الغالية فإنهم مع سبِّهم لطائفة من الصحابة وللخلفاء الثلاثة فإنهم يَغْلُون في عليٍّ ويَدَّعون فيه الأُلوهية، وهم الذين حرَّقهم عليُّ بن أبي طالب بالنار[1]، وقابلهم الخوارج فقاتلوه وقاتلوا الصحابة وكفّروهم[2] واستحلوا دماءَ الصحابة والمسلمين.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، فاعترفوا بفضل الصحابة جميعًا وأنهم أعلى الأُمة في كل خصْلة كمال، ومع ذلك فلم يغْلوا فيهم ولم يعتقدوا عِصْمتهم، بل قاموا بحقوقهم وأحبُّوهم لما لهم من الحق الأكبر على جميع الأمة، كما سيأتي إن شاء الله.



(١) البخاري (٣٠١٧).

(٢) في نسخة أخرى: وكفّروه.

فصل

العُلوّ والفوقيّة

قال المصنف رحمه الله: (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أن الله سبحانه فوق سماواته على عرشه، عَليٌّ على خلقه وهو تعالى معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه، مُهيمن ومطّلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش، وأنه معنا؛ حقٌّ على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: «في السماء» أن السماء تقلُّه أو تظلُّه، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإنَّ الله قد ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهو الذي ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]).

صرَّح المصنف في هذا الفصل بمسألة العُلُوِّ لله واستوائه على عرشه، وأن ذلك داخل في الإيمان بالله، وذلك لما حصل في هذه المسألة من الاختلاف والمُخاصمات الطويلة بين أهل السنة والجماعة وبين طوائف الجهمية والمعتزلة، ومن تبعهم في هذه المسألة من الأشعرية ونحوهم.

فإن مسألة العُلُوِّ صُنِّفت فيها المُصنفات المستقلة، وأورد فيها أهل السنة من نصوص الكتاب والسنة ما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه، وحقّقوا ذلك بالعقل الصحيح وأن الفِطَرَ والعُقول معترفة بل ومضطرة إلى الإيمان بعلوِّ الله، إلا من غَيَّرت فطرته العقائد الباطلة.

وقد بيَّن المصنف في هذا الموضوع الجمع بين الإيمان بعلوِّ الله وإثبات معيته وعلمه المحيط، وحققه في كلام واضح مبين بالأمثلة المقربة للمعاني بما لا مزيد عليه.

فصل

القُرْب

قال المصنف رحمه الله: (وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب كما جَمَع بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله ﷺ: «**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من عُلُوِّه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عَلِيٌّ في دنوه قَرِيبٌ في عُلُوِّه).

خصص المصنف رحمه الله هذا البحث بهذين الأمرين، وذلك لشدة الحاجة إلى الإيمان بقربه وإجابته؛ ليكون العبد مراقبًا لله إذا آمن بقربه إيمانًا تامًّا، كثير اللهج بذكره ودعائه منيبًا إليه على الدوام إذا آمن بإجابته للسائلين وإثابته للمطيعين.

ثم ذكر رحمه الله الجمع بين الإيمان بعلو الله وقربه ومعيته لئلا يظن الظانّ أن ذلك مثل صفات المخلوقين، وأنه إذا قيل: إنه عَلِيٌّ فوق خلقه كيف يكون معهم وقريبًا منهم؟ فأجاب بما تضمنه هذا الأصل الثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، ومن نعوته اللازمة العُلُوُّ المطلق والقُرْب العام والخاص، وأن القرب والعلو في حقه يجتمعان لعظمته وكبريائه وإحاطته من كل وجه، فهو العليُّ في دُنُوِّه القَرِيبُ في عُلُوِّه.

---

(١) تقدم تخريجه ص٣٥٩.

وهذا الأصل ينفعك في كل ما ورد عليك من صفات الله الثابتة فأثبتها ولا تتوقف، فإن الذي أثبتها هو الله الذي هو أعلم بنفسه، ورسوله الذي هو أعلم الخلق وأورعهم وأنصحهم للمخلوقين، فإن خطر ببالك تمثيل أو تشبيه فتفطن لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وكذلك أيضًا؛ فإنَّ الكلام على الصفات مثل الكلام على الذات، فكما أنه لا نظير له ولا مثيل له في ذاته، فكذلك لا مثيل له ولا نظير له في صفاته.

فصل

القرآن كلام الله

قال المصنف: (ومن الإيمان به وبكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله مُنَزَّل غير مَخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مُبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف).

ووجه ذلك، وأنه داخل في الإيمان بالله وبكتبه أن الإيمان بكلام الله على هذا الوصف الذي ذكره المصنف وأنه من الإيمان بالله لأَنه وصفه، والكلام صفة للمتكلم، فإن الله تعالى موصوف بأنه متكلم إذا شاء بما شاء وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم، وكلامه تعالى لا ينفد ولا يَبيد، ونوع الكلام أزلي أبدي ومفرداته لا تزال تقع شيئًا فشيئًا بحسب حكمة الله تعالى، والله تعالى أضافه إلى نفسه في قوله: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٧٥]. إضافة الصفة لموصوفها، فدل على أنه كلامه لفظه ومعناه ووصفه، وإذا كان كذلك كان غير مخلوق، ومن زعم أنه مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفِرْية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفًا، وجعله وصفًا للمخلوق، ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه كما قاله الكُلَّابية والأشعرية فقد قال بنصف قول المعتزلة.

فالقرآن كلام الله حيث تصرف سواء كان محفوظًا في الصدور أو متلوًّا بالألسنة

أو مكتوبًا في المصاحف فلا يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله كما قال المصنف، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مُبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

وقول السلف: «كلام الله منه بدأ» أي: هو الذي تكلم به لا غيره، وقولهم: «وإليه يعود» أي: يرجع، أي يوصف الله به، وقيل: إن المراد بذلك ما ورد من أن من أشراط الساعة أن يرفع القرآن من الصدور والمصاحف، ولكن الأوّل أوْلَى.

وهذه المسألة مسألة الكلام عظيمة تكلم فيها الناس على اختلاف طرائقهم، ولكن المصنف ذكر في هذا الفصل كلامًا في التكلم جامعًا نافعًا مأخوذًا من الأدلة الشرعية العقلية والنقلية.

وأما كون هذا داخلا في الإيمان بكتبه، فإنَّ الإيمان بالكتب وخصوصًا القرآن، يقتضي أن يؤمن العبد بكل ألفاظها ومعانيها وما دلت عليه من العقائد والمعاني الجليلة، فمن لم يؤمن بجميع ذلك فلن يتم إيمانه.

واعلم أن المؤمنين بالقرآن على قسمين؛ كاملين وناقصين:

أما **الكامِلون**: فإنهم أقبلوا على القرآن فتفهموا معانيه ثم آمنوا بها واعتقدوها كلها، وتخلقوا بأخلاقها وعملوا بما دل عليه امتثالًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه، ولم يفرقوا بين نصوصه، كحال أهل البدع الذين آمنوا ببعض دون بعض.

وأما **الناقصون** فهم قسمان؛ قِسم مبتدعون، وقِسم فاسقون ظالمون.

أما **المبتدعون**: فكل من ابتدع بدعة ترك لها شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله، وهؤلاء على مراتبهم في البدعة بحسب ما خالفوا فيه.

وأما **الفاسقون**: فهم الذين عرفوا أنه يجب عليهم الإيمان بالكتاب والعمل به فاعترفوا بذلك، ولكن أعمالهم ناقضت أقوالهم فتجرءوا على مخالفة الكتاب بترك كثير من واجباته والاقتحام على كثير مما نهى عنه من غير أن يجحدوا، ولكن نفوسهم الأمارة بالسوء غلبتهم

واستولت عليهم، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن آمن بكتابه إيمانًا صحيحًا حتى نكون لجميع نصوصه معتقدين، ولأوامره ونواهيه خاضعين، إنه جواد كريم.

فصل

ما بَعْدَ الموتِ

قال المصنف رحمه الله:

(ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت).

وهذا ضابط جامع يدخل فيه الإيمان بالنصوص الواردة في حالة الاحتضار وفي القبر والقيامة والجنة والنار وجميع ما احتوت عليه من التفاصيل التي صُنِّفت فيها المُصنفات المُطولة والمُختصرة، وكلها داخلة في الإيمان باليوم الآخر، ثم أشار المصنف إلى شيء منها، فقال:

(فيؤمنون بفتنة القبر وبعذابه ونعيمه؛ فأما الفتنة، فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل: مَنْ ربُّك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيِّي، وأما المُرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بِمِرْزَبَة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق)[1].

وهذا الابتلاء والامتحان لكل عبد؛ فأما من كان مؤمنًا إيمانًا صحيحًا ثبته الله ولقنه الجواب الصحيح للملكين؛ كما قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) أحمد (١١٥٥٢، ١٨٦١٤)، أبو داود (٤٧٥٣).

فذكر أن تثبيته لهم جزاء لهم على إيمانهم في الدنيا، فالمؤمن يجيب الجواب الصحيح وإن كان عاميًّا أو أعجميًّا، وأما الكافر والمنافق ممن كان في الدنيا غير مؤمن بما جاء به الرسول فإنه يستعجم عليه الجواب ولو كان من أعلم الناس وأفصحهم كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومن حكمة الله أن نعيم البرزخ وعذابه لا يحس به الإنس والجن بمشاعرهم، لأن الله تعالى جعله من الغيب ولو أظهره لفاتت الحكمة المطلوبة.

(ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى، فتُعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حُفاة عُراة غُرْلًا، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، وتنصب الموازين، فتوزن فيها أعمال العباد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال؛ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

ويحاسب الله الخلق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وُصف ذلك في الكتاب والسنة[1].

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من تُوزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيُوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها. وفي عرصات القيامة الحوض المورود لمحمد ﷺ؛ ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء،

(١) البخاري (٤٦٨٥)، مسلم (٢٧٦٨).

طوله شهر وعرضه شهر، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا[١]، والصراط منصوب على متن جهنم وهو الجسر الذي بين الجنة والنار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كالفرس، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف ويلقى في جهنم[٢]، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن مر على الصراط دخل الجنة، فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة[٣].

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ[٤]. وأول من يدخل الجنة أمته ﷺ[٥]. وله ﷺ ثلاث شفاعات[٦]:

أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وعيسى ابن مريم، حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصدِّيقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته،

---

(١) البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٣٠٠).

(٢) البخاري (٧٤٣٩).

(٣) البخاري (٦٥٣٥).

(٤) مسلم (١٩٦).

(٥) البخاري (٧٤٣٤)، مسلم (٨٥٥).

(٦) راجع شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٩، ٢٣٨).

ويبقى في الجنة فضل عمَّن دخلها من أهل الدنيا فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة.

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكور في الكتب المنزلة من السماء، وفي الآثار من العلم الموروث عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يكفي ويشفي، فمن ابتغاه وجده).

ذكر المصنف رحمه الله هذا الكلام النفيس المتعلق باليوم الآخر المأخوذ من نصوص الكتاب والسنة، وهو كلام واضح جامع، وأحال على الكتاب والسنة في بقية تفاصيل اليوم الآخر، وقد كتب أهل الإسلام من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة فيما يتعلق باليوم الآخر وبالجنة والنار، وتفاصيل ذلك الكثير، وصنفوا المصنفات المطولة والمبسوطة، والمهم أن ذلك كله داخل في الإيمان باليوم الآخر.

واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل، كما هو ثابت بالسمع، فإن الله نبه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب، وذكر ما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يليق بحكمة الله وحمده أن يُتْرَكَ الناس سدى، أو أن يكونوا مخلوقين عبثًا لا يؤمرون، ولا يُنهون، ولا يُثابون، ولا يُعاقبون، وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار، وكذلك نبههم على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا من إثابة الطائعين وتعجيل بعض ثوابهم وعقوبة الطاغين وإذاقتهم بعض ما وعدوا به.

وهذا شيء مشاهد محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك، ولا يزال يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبيّن به الحق لأولي العقول والألباب.

وأما تفاصيل الجزاء ومقاديره فلا يُدْرَكُ إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن النبي ﷺ المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن الحكمة في محاسبة الخلق على أعمالهم وزنها وظهورها مكتوبة في الصحف مع إحاطة علم الله بذلك لِيُري عباده كمال حمده، وكمال عدله، وسعة رحمته، وعظمة ملكه،

ولهذا قال ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. مع أن ملكه عام مطلق لهذا اليوم ولغيره.

قال المصنف رحمه الله: (وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقَدَرِ خيره وشره، والإيمان بالقَدَرِ على درجتين كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله يعلم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق «**فأول ما خلق الله القلم. قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»(١). فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف(٢)، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وهذا التقدير تابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلًا، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد(٣)، ونحو ذلك، فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا ومنكره اليوم قليل.

وأمّا **الدرجة الثانية**: فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات ولا في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير؛ من الموجودات والمعدومات.

---

(١) أحمد (٢٢٧٠٧).

(٢) أحمد (٢٦٦٩)، الترمذي (٢٥١٦).

(٣) البخاري (٦٥٩٤)، مسلم (٢٦٤٣).

فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه.

ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد.

والعِبَادُ فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة[١] ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها).

اعلم أن الإيمان بالقدر أمره عظيم وشأنه مهم جدًّا وهو أحد أركان الإيمان الستة، وقد انحرف فيه طوائف من أهل البدع والضلال، فضلًا عن المنكرين من الملحدين وغيرهم، وقد فصله الشيخ في هذا الفصل بهذا الكلام الجامع النفيس الذي لا يوجد له نظير في تحقيقه وتفصيله وجمعه وتوضيحه، وهو مجموع من نصوص الكتاب والسنة ومن العقيدة السلفية الخالصة.

فذكر أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيق هذه الأمور الأربعة التي يفتقر كل منها إلى البقية، وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا لا ينفصم إلا بالانحراف إلى الأقوال المنحرفة، وذلك

(١) أبو داود (٤٦٩١).

أنه ثبت في نصوص الكتاب والسنة إحاطة علم الله بجميع الموجودات السابقة والحاضرة والمستقبلة من أعيان وأوصاف وأفعال للمكلفين وغيرهم، وتثبت النصوص أيضًا أن الله أثبت علمه بالكائنات والموجودات دقيقها وجليلها باللوح المحفوظ في نصوص لا يمكن إحصاؤها، وتثبت النصوص أيضًا أن مشيئة الله عامة، وإرادته القدرية شاملة لا يخرج عنها حادث صغير ولا كبير ولا عين ولا فعل ولا وصف، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والنصوص على شمول قدرة الله ومشيئته لكل حادث لا تحصى، وتثبت النصوص أيضًا أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم، وأن أعمالهم خيرها وشرها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم التي خلقها الله لهم، وخالق السبب التام خالق للمُسَبِّب.

وبهذا ينحل عن العبد الإشكال ويتسع قلبه للجمع بين إثبات عموم مشيئة الله وقدرته وشمولهما لأفعال العباد مع وقوعها شرعًا وحسًّا وعقلًا باختيارهم.

فمتى جمع العبد هذه المراتب الأربع وآمن بها إيمانًا صحيحًا كان هو المؤمن بالقدر حقًّا الذي يعلم أن الله بكل شيء عليم وعلمه بالحوادث قد أودعها في اللوح المحفوظ، والحوادث كلها تجري على ما علمه الله وكتبه، وتقع بأسباب ربطها العزيز الحكيم بمسبباتها.

والأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة أو النار**»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**». ثم قرأ ﷺ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] متفق عليه[1].

(١) البخاري (٤٩٤٦)، مسلم (٢٦٤٧).

وتوضيح ذلك أن العبد إذا صلى وصام وعمل الخير أو عمل شيئًا من المعاصي كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح وذلك العمل السيئ، وفعله المذكور بلا ريب واقع باختياره، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك وأنه لو شاء لم يفعل، وكما أن هذا هو الواقع فهو الذي نص الله عليه في كتابه ونص عليه رسوله حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد وأخبر أنهم الفاعلون لها وأنهم محمودون عليها إن كانت صالحة، ومثابون عليها ومذمومون إن كانت سيئة ومعاقبون عليها.

فقد تبين بهذا واتضح أنها واقعة منهم وباختيارهم، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإن شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًّا وشرعًا ومشاهدة، ومع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها كذلك واقعة منهم واعترض معترض وقال: كيف تكون داخلة في القدر، وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها، فهي بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وهذا يعترف به كل أحد، ويقال أيضًا: إن الله خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، والجواب كذلك يعترف به كل أحد وأن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال كما أنه الخالق للأفعال، وهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع كما قال ﷺ: **«وأمّا من كان من أهل السعادة فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة»**[1]. وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم إلى أنفسهم ولم يُعِنْهُمْ لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوه لأنفسهم.

ولما ضاق تحقيق هذا المقام على قلوب كثير من الخلق انحرفت هنا طائفتان من الناس:

طائفة يقال لهم الجبرية، غلوا في إثبات القدر وتوهموا أن العبد ليس له فعل حقيقة، وأنه

---

(١) البخاري (١٣٦٢)، مسلم (٢٦٤٧).

لا يمكن أن يثبت للعبد عموم المشيئة ويثبت للعبد الاختيار.

والطائفة الأخرى: القدرية قابلتهم فشهدت وقوع أفعالهم بقدرتهم واختيارهم، وتوهموا أنه لا يمكن مع ذلك أن يدخل ذلك في قضاء الله وقدره ولم تتسع قلوب الجبرية والقدرية للجمع بين الأمرين فرد كل منهما قسمًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة للقول الصحيح.

وهدى الله أهل السنة والجماعة فآمنوا بجميع الكتاب والسنة وآمنوا بقضائه وقدره وشمولهما لكل موجود وبشرعه وأمره، وأن العباد فاعلون حقيقة مختارون.

فإيمانهم بعموم القدر يوجب لهم الاستعانة التامة بربهم لعلمهم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن له في عباده المؤمنين ألطافًا وتيسيرًا لا يناله أحد منهم إلا بقوة الإيمان والتوكل، وأوجب لهم إيمانهم بالشرع والأمر والنهي والأسباب وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا وقدرًا الجد والاجتهاد في فعل الأسباب النافعة، وبذلك تعرف أن الإيمان الصحيح سبب لكل خير.

ومن فوائد الإيمان بالقضاء والقدر: أنه يوجب للعبد سكون القلب وطمأنينته وَقُوَّته وشجاعته لعلمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

كما أنه يُسلي العبد عن المصائب ويوجب له الصبر والتسليم والقناعة بما رزقه الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلِّم.

ومن فوائده أنه يوجب للعبد شهود مِنَّةِ الله عليه فيما يَمُنُّ به عليه مِن فعل الخيرات وأنواع الطاعات، ولا يُعْجَبُ بنفسه ولا يُدِلُّ بِعَمَلِهِ لعلمه أنه تعالى هو الذي تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق، وأنه لو وكِلَ إلى نفسه لضعف وعَجَزَ عن العمل.

كما أنه سبب لِشُكر نِعمِ الله بما يُنْعِمُ عليه من نعم الدين والدنيا، فإنه يعلم أنه ما بالعبد من نعمة إلا من الله، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة.

فصل

الإيمان

قال المصنف رحمه الله: (ومن أصول أهل السنة أن الدِّين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنَّ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]).

قد دل الكتاب والسنة على ما قاله الشيخ، وأجمع على ذلك سلف الأمة، فكم من آية قرآنية وأحاديث نبوية أطلقت على كثير من الأقوال والأعمال اسم الإيمان، فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، ويدخل فيه العقائد التي يجب اعتقادها في كل ما احتوى عليه هذا الكتاب.

ويدخل فيه أعمال القلوب كالحب لله ورسوله وإرادة الله والإنابة إليه.

والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله: أن أقواله هي العقائد التي يعترف بها القلب ويعلمها ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وضابطها: محبة الخير وإرادته الجازمة وكراهية الشر، والعزم على تركه لله وهذه الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح؛ فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد من الإيمان، وبر الوالدين وصلة

الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه المتنوعة كلها من الإيمان وكذلك الأقوال؛ فَقِراءة القرآن وذكر الله والثناء عليه والدعوة إلى الله والنصيحة لعباد الله وتعلم العلوم النافعة كلها داخلة في الإيمان.

ولهذا لما كان الإيمان اسمًا لهذه الأمور ترتب عليه أنه يزيد وينقص كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد في تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وجوارحهم.

ومن زيادته ونقصه أن قسم الله المؤمنين إلى ثلاث طبقات:

سابقون بالخيرات: وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات. فهؤلاء المقربون.

ومقتصدون: وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات.

وظالمون لأنفسهم: وهم الذين تجرءوا على بعض المحرمات وقصروا في بعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم، فهذا من أكبر البراهين على زيادة الإيمان ونقصه.

فما أعظم التفاوت بين هؤلاء الطبقات.

ومن وجوه زيادته ونقصه: أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان وتفاصيله؛ فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به إيمانه وتم به يقينه، ومنهم من هو دون ذلك ودون ذلك، حتى تصل الحال إلى أن من المؤمنين من معه إيمان إجمالي ولم يتيسر له من التفاصيل شيء وهو مع ذلك مؤمن! ومعلوم الفرق بين هذه المراتب.

ومن وجوه زيادة الإيمان ونقصه أن المؤمنين متفاوتون تفاوتًا كبيرًا في أعمال القلب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها، وهذا شيء محسوس.

ومن وجوه زيادته ونقصه أن من المؤمنين من لم تجرح المعاصي إيمانه وإن وقع منه

شيء من ذلك بادر إلى التوبة والإنابة، ومنهم من هو متجرئ على كثير من المعاصي ومعلوم الفرق بينهما.

ومن وجوه زيادته ونقصه أن من المؤمنين من هو واجد حلاوة الإيمان وقد ذاق طعمه واستحلى الطاعات واستنار قلبه بالإيمان، ومنهم من لم يصل إلى ذلك؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله: (ولا يسلبون الفاسق المِلِّيَّ اسم الإيمان بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهْبَةً ذاتَ شَرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»**[1]. ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يُسْلبُ مُطْلَقَ الاسم).

وهذا تحقيق مذهب السلف الذي باينوا فيه الخوارج المارقين الذين يسلبون العصاة اسم الإيمان ويخلدونهم في النار.

وباينوا فيه المعتزلة الذين وافقوا الخوارج في المعنى وخالفوهم في اللفظ؛ أما الكتاب والسنة فإنهما دلا من وجوه كثيرة على أن العبد يكون فيه خير وشر وإيمان، وخصال كفر وخصال نفاق لا تخرجه عن الإيمان بالكلية، وأن الإيمان المطلق إنما يتناول الإيمان الممدوح الكامل في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣]. ونحو ذلك من النصوص.

---

(١) البخاري (٢١٧٥)، مسلم (٥٧).

وأما مطلق الإيمان الذي يدخل فيه الإيمان الكامل والإيمان الناقص فإنه قد ثبت في الكتاب والسنة إطلاقه على العصاة من المؤمنين، وأجمع على ذلك سلف الأمة وأئمتها، قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ١٩٢]. ومن المعلوم دخول أي مؤمن من الأرقاء في هذا النص، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. فسماهم إخوة بعد وجود الاقتتال.

ويقال أيضًا في توضيح ذلك: إن الإيمان الممدوح الذي يؤتى به في سياق الثناء على أهله إنما يتناول الإيمان الكامل، والإيمان الذي يقال لصاحبه: إنه من المؤمنين يدخل فيه هذا وهذا، ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع صاحبه من التجري على الزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها من الفواحش هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي لا يمنع من ذلك هو الناقص.

وهذا هو وجه الحديث الذي ذكره المصنف «**لا يزني الزاني**»[(١)] إلخ.

ويقال أيضًا: الإيمان الذي يمنع من دخول النار هو الإيمان الكامل، والإيمان الذي يمنع من الخلود فيها يكون إيمانًا ناقصًا.

وقد تواترت الأحاديث بخروج من في قلبه حبة خردل من إيمان[(٢)].

ويقال أيضًا: الأحكام الأصولية والفروعية تدور مع أسبابها وعللها، وإذا وجد في العبد أسباب متعارضة عمل كل سبب في مُسَبِّبِهِ، فالطاعات سَبَبٌ لدخول الجنة والثواب، والمعاصي سَبَبٌ لدخول النار والعقاب، فأَعْمِلْ كُلَّ واحد في مقتضاه.

ولكن لما كانت رحمة الله قد سبقت غضبه[(٣)] وفضله على العباد قد غمرهم وتنوع عليهم من كل وجه كان أقل القليل من الإيمان له الأثر المُسْتَقِرُّ الذي يَضْمَحِل ضِدُّه من كل وجه، وإن كان معه شيء من الإيمان فإنَّ مَآله إلى الخلود في دار النعيم.

(١) تقدم تخريجه ص١٥٧.

(٢) البخاري (٧٥١٠)، مسلم (٩١).

(٣) البخاري (٧٤٢٢)، مسلم (٢٧٥١).

فصل

الصَّحابة

(ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]).

وهذا الدعاء الصادر ممن اتبع المهاجرين والأنصار بإحسان يدل على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله وثنائهم عليهم، لأن من سعى في أمر من الأمور فهو ساعٍ في تحقيقه فاجتهد في طلبه متضرعًا لربه أن يتم ذلك له، وأولى من دخل في هذا الدعاء الصحابة الذين سبقوا إلى الإيمان وحققوه وحصل لهم من براهينه وطرقه ما لم يحصل لغيرهم.

ونفي الغل من جميع الوجوه يقتضي تمام المحبة لهم فهم يحبون الصحابة لفضلهم وسبقهم واختصاصهم لصحبة الرسول ولإحسانهم إلى جميع الأمة؛ لأنهم هم المبلغون جميع ما جاء به نبيهم، فما وصل لأحد علم ولا خير إلا على أيديهم وبواسطتهم.

(وطاعة النبي ﷺ في قوله: **«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»**)[1]. فعلى الأمة أن يطيعوا النبي ﷺ في كل أمر وخصوصًا في هذا الأمر الخاص، وأن يوقروا أصحابه ويحترموهم ويعتقدوا أن العمل القليل منهم يفضل العمل الكثير من غيرهم، كما في هذا الحديث، وهذا من أعظم براهين فضلهم على غيرهم.

(١) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

(ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية[1] - وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل). وقد ذكر الله ورسوله للصحابة فضائل كثيرة على الأمة، فيجب على الأمة الإيمان بها، وأن يحبوا الصحابة لأجلها، وقيل لصلح الحديبية: فَتْحٌ، لما ترتب عليه من المصالح والخير الكثير ودخول الكثير في الإسلام، ولهذا كان من أسلم قبل ذلك وأنفق وقاتل أفضل ممن فعل ذلك بعده لما حصل لهم من السبق في الإسلام وقت ضعف المسلمين وكثرة الأعداء ووجود الموانع والمصاعب الكثيرة في طريق الإسلام.

ثم قال المصنف: (ويقدمون المهاجرين على الأنصار). وهذا لأن المهاجرين جمعوا الوصفين: النصرة والهجرة، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين، وقد قدم الله ذكر المهاجرين على الأنصار في سورة التوبة والحشر[2]، وهذا التفضيل للجملة على الجملة لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الآخرين.

(ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[3]. وبأنه: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[4]. كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة) أي: رضي الله عنهم في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وكان عددهم يتراوح ما بين ألف وأربعمائة أو خمسمائة، فأهل بدر وأهل بيعة الرضوان يشهد لهم بالجنة والنجاة من النار على وجه أخص من الشهادة بذلك لجميع الصحابة في قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٤٤١) للحافظ ابن حجر.
(٢) سورة التوبة الآيتان: ١٠٠، ١١٧، وسورة الحشر آية: ٨.
(٣) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).
(٤) الترمذي (٤٢٣٣).

ولهذا قال المصنف: (ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة وثابت بن قيس بن شَمَّاس[١] وغيرهم من الصحابة).

وهذا من أعظم الفضائل تخصيص النبي ﷺ لهم بالشهادة والجنة، وهو من جملة براهين رسالته ﷺ، فإن جميع من عينه النبي ﷺ بالشهادة له بالجنة ولوازمها لم يزالوا مستقيمين على الإيمان حتى وصلوا إلى ما وعدوا به رضي الله عنهم.

(ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[٢] وغيره[٣] من أن: «خير هذه الأُمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر». ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة).

أي: والخلافة، وخلافة أحد الاثنين لم يكن إلا بعد مشاورة جميع المسلمين على اختلاف طبقاتهم، والقصة مشهورة في كتب التاريخ[٤].

(مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وسكتوا، وربَّعُوا بعلي، وقدم قوم عليًّا وتوقفوا، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يُضَلَّلُ المخالف فيها عند جمهور أهل السنة ولكن التي يُضَلَّلُ فيها: مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله).

يريد المؤلف رحمه الله أن الخلاف الكائن بين الأمة على وجهين:

---

(١) البخاري (٣٦١٣)، مسلم (١١٩).

(٢) البخاري (٣٦٧١).

(٣) البخاري (٣٦٥٥)، أحمد في فضائل الصحابة (٣٧٩).

(٤) البداية والنهاية (٧/ ١٨).

أحدهما: الخلاف في الفروع والمسائل الاجتهادية التي إذا اجتهد فيها الحاكم من قاضٍ ومفتٍ ومصنف ومعلم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد[1].

الوجه الثاني: الخلاف في المسائل الأصولية كمسائل صفات الباري والقَدَرِ والإيمان ونحوها، وهذا يُضَلَّلُ فيها المخالفون لما دل عليه الكتاب والسنة، ولما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فمسألة الخلافة وتقديم علي على عثمان فيها يعد من البدع التي من اعتقدها فهو في الغالب متشيع، وقد أَزْرَى بالمهاجرين والأنصار كما قال ذلك غير واحد من السلف.

وأما التفضيل بينهما فإنها مسألة خفية من جنس مسائل الخلاف في المسائل الاجتهادية.

(ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية محمد ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»[2]. وقال أيضًا للعباس عمه، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم فقال: «والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[3]) فمحبة أهل بيت النبي ﷺ واجبة من وجوه:

منها أولًا: لإسلامهم وفضلهم وسوابقهم.

ومنها: لما يتميزون به من قرب النبي ﷺ واتصالهم بنسبه.

ومنها: لما حث عليه ورغب فيه.

ولما في ذلك من علامة محبة الرسول ﷺ.

(وقال: «إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى

---

(١) كما عند البخاري (٧٣٥٢)، مسلم (١٧١٦).

(٢) مسلم (٢٤٠٨).

(٣) أحمد (١٧٥٦).

من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»)[1]. فهو ﷺ خيار من خيار، وقد جمع الله له أنواع الشرف من كل وجه.

(وَيتَوَلَّوْن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصًا خديجة أمّ أكثر أولاده).

فإن جميع أولاده الذكور والإناث منها إلا إبراهيم فإنه من سُريتِهِ مارية القبطية.

(وأوّل من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة الطيبة، والصدِّيقة بنت الصديق التي قال فيها النبي ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»)[2].

وعائشة وخديجة رضي الله عنهما هما أفضل نساء النبي ﷺ وقد اختلف العلماء أيهما أفضل، والتحقيق أن لكل واحدة منهن من الفضائل والخصائص ما ليس للأخرى، فلخديجة من السبق ومعاونة النبي ﷺ على أمره في أول الأمر وتثبيته وكون أكثر أولاد النبي ﷺ منها ما ليس لعائشة، ولعائشة من العلم والتعليم ونفع الأمة ما ليس لخديجة رضي الله عنهما.

(ويتبرءُون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل).

وأول من سمى الروافض بهذا اللقب زيدُ بن علي الذي خرج في أوائل دولة بني العباس وبايعه كثير من الشيعة، ولما ناظروه في أبي بكر وعمر وطلبوا منه أن يتبرأ منهما فأبى؛ تفرقوا عنه فقال: رفضتموني، فمن يومئذ قيل لهم: الرافضة[3] وكانوا فرقًا كثيرة، منهم الغالية ومنهم من هم دون ذلك، وفرقهم معروفة، وأما النواصب فهم الذين نصبوا العداوة والأذية لأهل بيت النبي ﷺ، وكان لهم وجود في صدر هذه الأمة لأسباب وأمور سياسية معروفة، ومن زمن طويل ليس لهم وجود والحمد لله.

---

(١) مسلم (٢٧٦).

(٢) البخاري (٣٤٣٣)، مسلم (٢٤٤٦).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٣٢٧).

ثم قال المصنف رحمه الله: (ويمسكون عما شَجَر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه وَنَقَصَ وغُيِّرَ عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون [1] وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم)[2].

أي: وهذه الأمور إذا قوبلت بالمساوي على فرض أن هناك مساوي اضمحلت تلك المساوي معها، ولا يقاربهم أحد في شيء من ذلك رضي الله عنهم.

(ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته ﷺ أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين؛ إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطئوا فلهم أجر، والخطأ مغفور؟!

ثم إن القَدْر الذي يُنكَرُ من فعل بعضهم قليلٌ نَزْرٌ مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل عَلِمَ يقينًا أنهم

(١) البخاري (٢٦٥١)، مسلم (٢٥٣٥).

(٢) تقدم تخريجه ص٦٢٣.

خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله).

وهذا كلام نفيس في غاية التحقيق والإبداع ولا زيادة عليه في إقامة البرهان على كمال فضل الصحابة رضي الله عنهم لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

فصل

كرامات الأولياء

قال المصنف رحمه الله: (ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يُجْري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سلف الأمة في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة). وتواترت نصوص الكتاب والسنة والوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لأنبيائه.

وكرامتهم في الحقيقة تفيد ثلاث قضايا:

أعظمها الدلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته، وكما أن لله سننًا وأسبابًا تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعًا وقدرًا، فإن لله أيضًا سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم؛ فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء؛ بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله، والتقدير والتدبير كله لله، وأن لله سننًا لا يعلمها بشر ولا ملك؛ فمن ذلك قصة أصحاب الكهف والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة العظيمة، وقيض أسبابًا متنوعة لحفظ دينهم وأبدانهم كما ذكر الله في قصتهم.

ومنها: ما أكرم الله به مريم بنت عمران وأنه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكذلك حملها وولادتها بعيسى على ذلك الوصف الذي ذكر الله، وكلامه في المهد هذا فيه كرامة لمريم ومعجزة لعيسى عليه السلام.

وكذلك هبته تعالى الولد لإبراهيم من سارة وهي عجوز عقيم على كبره، كما وهب لزكريا يحيى على كبره وعقم زوجته، وهذه معجزة للنبي وكرامة لزوجته.

وقد أطال المؤلف النفس وبسط الكلام في هذا الموضوع في كتابه: **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** وذكر قصصًا كثيرة متوافرة تدل على هذه القضية.

القضية الثانية: أن وقوع الكرامات للأولياء في الحقيقة معجزات للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذي نالوا به خيرًا كثيرًا من جملتها الكرامات.

القضية الثالثة: أن كرامات الأولياء هي من البشرى المعجلة لهم في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٦٤]. وهي على قول بعض المفسرين: كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم، ومن ذلك الكرامات، ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في أي وقت وفي أي زمن، وقد رأى الناس منها العجائب والأمور الكثيرة، ولم ينكرها إلا زنادقة الفلاسفة، وليس غريبًا عليهم، فإنه فرع عن جحودهم وإنكارهم لرب العالمين ولقضائه وقدره.

وقد أنكرها أيضًا طائفة من أهل الكلام ظنًّا منهم أن في إثباتها إبطالًا لمعجزات الأنبياء وهذا وهم باطل أبطله المؤلف في كتابه **النبوات** وغيره من كتبه.

فأهل السنة والجماعة يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالًا وتفصيلًا، ويثبتون ذلك على وجه التفصيل كما ورد عن المعصوم ﷺ وكما تحقق وقوعه، ولكن قد أدخل كثير من الناس في الكرامات أمورًا كثيرة اخترعوها وافتروها وخدعوا بها العوام والسذج من الناس وأوهموهم بأنها من الكرامات وليست إلا قسمًا من الخرافات والشعوذات.

وأهل السنة أبعد الناس عن التصديق بالخرافات والأكاذيب المفتراة، وأعرفهم بالطرق التي يتبين بها كذب الكاذبين وافتراء المفترين.

فصل

أهل السنة

قال المصنف رحمه الله: (ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ظاهرًا وباطنًا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كل بدعة ضلالة**»[١].

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد؛ ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين.

والإجماع هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين، وهم يُزَيِّنُونَ[٢] بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تَعَلُّق بالدين.

والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشر في الأمة)[٣].

لَمَّا ذكر طريقة أهل السنة في مسائل الأصول المعينة؛ ذكر طريقهم الكلي في أخذ دينهم: أصوله وفروعه، وأنهم سلكوا في ذلك الصراط المستقيم، والعصمة النافعة؛ الكتاب

---

(١) أحمد (١٧١٤٤).

(٢) الصواب: يَزِنُونَ.

(٣) في الخطّية: وانتشرت الأمة.

والسنة، واتبعوا أعظم الناس معرفة وعلمًا واتباعًا للكتاب والسنة، وهم الصحابة رضي الله عنهم عمومًا، والخلفاء الراشدون خصوصًا، فسلكوا إلى الله ذلك الطريق مستصحبين هذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس أو ذهبوا إليه من المقالات، وزنوه بمعيار الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة والقرون المفضلة؛ فاستقامت طريقتهم وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال، فلم يتعبدوا ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله.



فصل

قضايا كلية

ثم قال المصنف رحمه الله:

(ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة).

أي باليد ثم باللسان ثم بالقلب، تبعًا للقدرة والمصلحة، ويسلكون أقرب طريق يحصل به المقصود بالرفق والسهولة، متقربين بنصيحة الخلق إلى الله، قاصدين نفع الخلق وإيصالهم إلى كل خير، وكفهم عن كل شر، ساعين في ذلك حسب وسعهم.

(ويرون إقامة الحج والجهاد والجُمَعِ والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا).

وذلك لأن غرضهم الوحيد تحصيل المصالح وتكملتها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير وترغيبه فيه قولًا وفعلًا؛ فيشاركون الولاة الظلمة في الخير ويفارقونهم في الشر ويحرصون على الاتفاق، وينهون عن الافتراق (ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة).

(ويعتقدون معنى قوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. وشبَّك بين أصابعه»**[1]. وقوله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»**[2]. ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، والرضا بِمُرِّ القضاء، وَيَدْعُون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون

---

(١) البخاري (٤٨١)، مسلم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري (٦٠١١)، مسلم (٢٥٨٦).

معنى قوله ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»**[1]. ويندبون إلى أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها[2]، وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ، لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة.

وفي حديث عنه أنه قال: **«هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**[3]. صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشَّوْبِ هم أهل السنة والجماعة، وفيهم الصدِّيقون والشهداء والصالحون ومنهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وأولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»**[4]. فنسأل الله أن يجعلنا منهم وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب).

وهذا كلام جامع واضح نادر جمعه في موضع واحد، لا يحتاج إلى شرح ولا إلى مزيد من الإيضاح.

---

(١) الترمذي (١١٧٢)، أبو داود (٤٦٨٢).

(٢) الحاكم (١٤١).

(٣) الطبراني في الأوسط (٧٨٤٠).

(٤) البخاري (٧٣١١)، مسلم (١٩٢٠).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وقال ذلك وكتبه معلقه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

وتم الفراغ منه في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٩ هجرية.



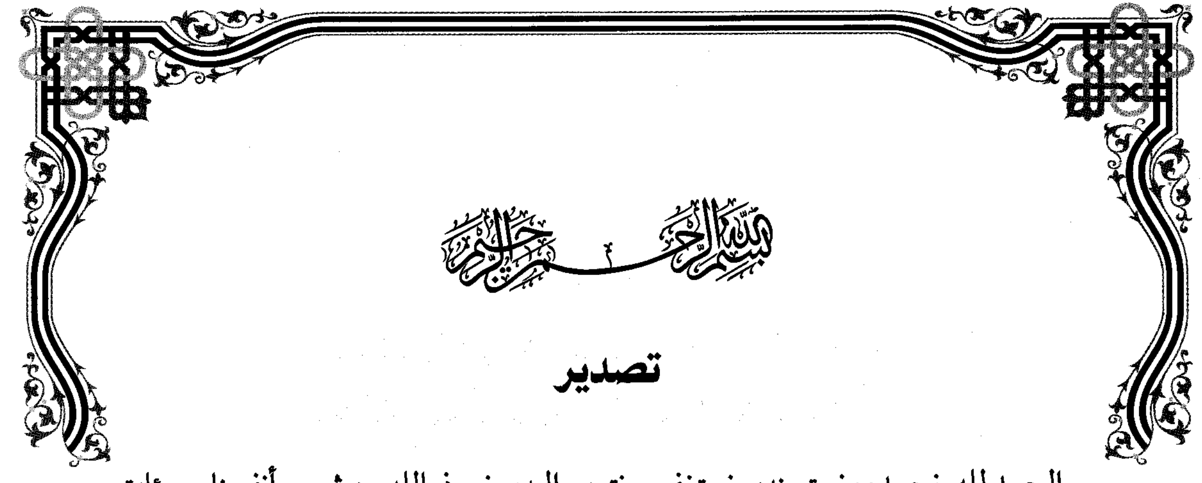
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٧)

القول السديد

شرح كتاب التوحيد

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





تصدير

الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد سبق أن كتبنا تعليقا لطيفا في مواضيع كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - قدس الله روحه - فحصل فيه نفع ومعونة للمشتغلين ومساعدة للمعلمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مع الوضوح التام. وطبع بمطبعة الإمام، ثم نفدت نسخه مع كثرة الطلب عليه.

ودعت الحاجة الشديدة إلى إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بدا لي أن أقدم أمام ذلك مقدمة مختصرة تحتوي على مجملات عقائد أهل السنة، في الأصول الستة وتوابعها، فأقول مستعينًا بالله:



مُقَدِّمَة

تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال، فيعبدونه وحده مخلصين له الدين، فيقولون: إن الله هو الخالق البارئ المصور الرزاق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور، وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، وأنه العلي الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي؛ وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب، وأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرءوف الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم.

ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر. فهو ينزل كما يشاء، ويفعل ما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وفي قدره، فما خلق شيئًا عبثا، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم، وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته كالرحمة والرضا، والسخط والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء، كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنه لم يزل ولا يزال موصوفا بأنه يفعل ما يريد، ويتكلم بما يشاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب، وتواترت به السنة؛ أن المؤمنين يرون ربهم تعالى عيانًا جهرة، وأن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم وألذه، وأن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبدًا، وأن أرباب الكبائر إذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة، فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها.

وأن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقًّا، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئا نقص من إيمانه بقدر ذلك، ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع الاستعانة بالله، فهم يحرصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله. وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله، فالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين طريقهم.

فصل

ويشهدون أن محمدا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلى الإنس والجن بشيرا ونذيرا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله، ويستعينوا برزقه على ذلك.

ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بيانًا، فيعظمونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه على قول كل أحد وهديه، ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلى الخلق مقامًا، وأعظمهم جاهًا، وأكملهم في كل فضيلة، لم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهم منه.

وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله، ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد - خيرها وشرها - قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها، بل جعلهم مختارين لها، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين بفضله ونعمته، وولى غيرهم ما تولوه ورضوه لأنفسهم من الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر

الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوي الأخلاق وأرذلها، ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم إيمانًا ويقينًا، وأحسنهم أعمالًا وأخلاقًا، وأصدقهم أقوالًا، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة، ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها، ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيًا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين؛ جهاد العلم والحجة وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها، ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ، وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ، خصوصا الخلفاء الراشدين، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون الله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساويهم، ويدينون الله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وأن يثبتهم على دين نبيهم إلى الممات. فهذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون.

قال المصنف رحمه الله:



كتاب
التوحيد

هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغنى بها عن الخطبة؛ أي أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلهية والعبادة بذكر أحكامه وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه، وما به يتم ويكمل.

اعلم أن التوحيد المطلق العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق؛ من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

الثاني: توحيد الربوبية: بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

الثالث: توحيد الإلهية، ويقال له توحيد العبادة: وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية

والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده، وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي وصفه تعم جميع أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم الدعوة إلى هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصًا محمدًا ﷺ، وهذا القرآن الكريم فإنه أمر به، وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه، فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.



باب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد؛ ذكر هنا فضله وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة، وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة- مثل التوحيد، فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

فقول المؤلف رحمه الله: (وما يكفر من الذنوب) من باب عطف الخاص على العام، فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما.

ومن أجلِّ فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية. ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة، ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال: لا إله إلا الله. خالصًا من قلبه.

ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها- على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين، ومنها أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، ويكون مع ذلك متألهًا متعبدًا لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام؛ فإنه يصير القليل من عمله كثيرًا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد؛ بحيث لا تقابلها السماوات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلًّا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرورَ الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.



باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره.

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدخل في تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله؛ بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصودًا بها وجه الله متبعا فيها رسول الله. والناس في هذا المقام العظيم درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان، وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة، فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع

الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

باب
الخوف من الشرك

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي، **فأما الشرك الأكبر**: فهو أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء، وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا فرق في هذا بين أن يسمي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة، أو يسميها توسلا أو يسميها بغير ذلك من الأسماء، فكل ذلك شرك أكبر؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك؛ كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة؛ كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك، فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر، وأنه لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه؛ كان حقًّا على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه، كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق، وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألها وإنابة وخوفا ورجاء وطمعا وقصدا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة؛ فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

باب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهرا وباطنا، والخوف من ضده: وبذلك يكمل العبد في نفسه. ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه ثم يسعى في تكميل غيره، وهذا هو طريق جميع الأنبياء، فإنهم أول ما يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ، لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ولم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن؛ وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وإذا كانت الدعوة إلى الله وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضًا على كل أحد، كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره؛ فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم، وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة؛ قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد

من الدعوة إلى هذا الدين.

باب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

هما بمعنى واحد، فهو من باب عطف المترادفين، وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف رحمه الله، وحقيقة تفسير التوحيد العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين: **نفي الألوهية كلها عن غير الله**: بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلهية ولا شيئا من العبودية أحد من الخلق، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له وتفرده بمعاني الألوهية كلها وهي نعوت الكمال كلها، ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه، قاصدا بذلك وجه الله وطالبا رضوانه وثوابه، ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل لله؛ ينافي معنى لا إله إلا الله أشد المنافاة.

وبين المصنف- رحمه الله- أن من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»[1]. فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتى يضيف إلى

(١) مسلم (٢٣).

ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادا ونطقا، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده طاعة لله وانقيادا ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقدا وقولا وفعلا، ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، ولا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة ولا الدعاوى الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متى تخلف واحد منها تخلفت البقية، والله أعلم.



باب
من الشرك لبس الحلقة
والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: ألا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: ألا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء؛ إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته؛ ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته؛ حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصدًا بذلك رفع البلاء بعد نزوله أو دفعه قبل نزوله، فقد أشرك لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكًا مع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعًا ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا سببًا، وهذا محرم

وكذب على الشرع وعلى القدر: أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي، وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة، وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود ولا من الأدوية المباحة النافعة.

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه، فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضا الله وثوابه ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقًا قلبه بها راجيًا لنفعها فتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده، فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضًا نقص في العقل حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها، والله أعلم.

باب
ما جاء في الرقى والتمائم

أما التمائم فهي تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها، والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم؛ فمنها ما هو شرك أكبر كالتي تشتمل على الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين، فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتي إن شاء الله، ومنها ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل بها المواضع القذرة.

وأما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهي جائزة في حق المرقي إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه ألا يسأل أحدًا من الخلق لا رقية ولا غيرها، بل ينبغي له إذا سأل أحدًا أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد. وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله، فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.



باب
من تبرك بشجر أو حجر أو غيرهما

أي فإن ذلك من الشرك ومن أعمال المشركين؛ فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها، فإن هذا التبرك غلو فيها، وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر؛ كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبي ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله، وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد، فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له، فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.



باب
ما جاء في الذبح لغير الله

أي أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة؛ فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه، وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام، فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله.

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع؛ فصرفُه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء، كما أن حد الشرك الأصغر هو: كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة، فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها، والله المستعان.



باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

ما أحسن اتباع هذا الباب بالباب الذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل. ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربًا إليها وشركًا بالله قد صار مشعرًا من مشاعر الشرك، فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعادًا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفًا من التشبه المحذور.



باب من الشرك النذر لغير الله
باب من الشرك الاستعاذة بغير الله
باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بينها، فإن النذر عبادةٌ مدح الله الموفين به، وأمر ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة، والنذر من ذلك.

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضًا من العقل، فإن أحدًا من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره، بل الكل فقراء إلى الله في كل شئونهم.

باب
قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره، فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها. فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه، هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبد مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئًا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع كل شيء وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء، فأي برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله وأنه الحق، وعلى بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحما؛ فكيف بغيره؟ فتبًّا لمن أشرك بالله وساوى به أحدا من المخلوقين؛ لقد سلب عقله بعدما سلب دينه، فنعوت الباري تعالى وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة إلا هو، وكذلك صفات المخلوقات كلها وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربها في كل شئونها، وأنه ليس لها من الكمال إلا ما أعطاها ربها؛ من

أعظم البراهين على بطلان إلهية شيء منها، فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفا ورجاء وطمعا، والله أعلم.

باب
قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾

وهذا أيضا برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء، فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة، ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

باب
الشفاعة

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم مع علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث إن لهم عند الله جاهًا عظيما ومقامات عالية ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين؛ ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم.

وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه لله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها، بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم، فأبطل الله هذا الزعم وبين أن الشفاعة كلها له كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له، فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة، وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوًا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة، وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها وأناله المقام المحمود. فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة.

وقد ذكر المصنف رحمه الله كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كاف شاف، فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء؛ لا استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة

ومظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

باب
قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

وهذا الباب أيضا نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ هو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاها وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات، فتبين أنه الإله الحق، وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]. فالمراد بالهداية هنا هداية البيان وهو ﷺ المبلغ عن الله وحيه الذي اهتدى به الخلق.

باب
أن سبب كفر بني آدم
وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

والغلو هو مجاوزة الحد بأن يُجْعَلَ للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيبا من هذه الأشياء فقد ساوى به رب العالمين وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحدا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين.

والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء: الذين يهضمونهم حقوقهم ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو: الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.

وأهل الحق: الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية، ولكنهم يبرءون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضا يتبرءون من أن يدّعوا لأنفسهم حقا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى ﷺ: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦].

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

حق خاص لله: لا يشاركه فيه مشارك، وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة

والإنابة إليه وحده حبًّا وخوفا ورجاء.

وحق خاص للرسل: وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلا وللرسل تبعا لحق الله، فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم، والله أعلم.

باب
ما جاء فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده
باب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

ما ذكره المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم؛ وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل؛ يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموما ولأقاربه ومعارفه خصوصا، فيكون محسنا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرّم ووسيلة للشرك، كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون

بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يكفر؛ من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين؛ وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.



باب
حماية المصطفى حمى التوحيد
وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصًا كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه، من الحث على الإنابة إلى الله، وانحصار تعلق القلب بالله رغبة ورهبة، وقوة الطمع بفضله وإحسانه، والسعي لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو في أحد منهم، والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها، وخصوصا حث النصوص على روح العبودية، وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين، ونهى عن التشبه بالمشركين، لأنه يدعو إلى الميل إليهم، ونهى عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوسل بها إلى الشرك، كل ذلك حماية للتوحيد ونهي عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

باب
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمى ذلك توسلا لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله، لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع وهو العبادة، فإنها حق الله وحده، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنًا، وخرج بذلك عن الدين ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق. والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.

باب السحر
وباب شيء من أنواع السحر

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوصل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر، فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره، ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه؛ ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر، وفيه أيضا من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات، وذلك من الشرك ووسائله، ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.



باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

أي من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق، وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله. وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله، وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.



باب
النُّشْرة

وهو حل السحر عن المسحور. ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع، وفيه كفاية.

باب
الطيرة

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغيرها؛ فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة، والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة النشاطُ والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة، وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره أو يسمع كلامًا يسره مثل: يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره؛ أثر في قلبه أحد أمرين: أحدهما أعظم من الآخر؛ **أحدهما**: أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازما على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازما عليه، فهذا - كما ترى - قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله؛ وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: ألا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا، فهذا وإن

كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل، وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين الله على ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

باب
ما جاء في التنجيم

التنجيم نوعان: نوع يسمى علم التأثير، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية، فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك وهذا ينافي التوحيد، لما فيه من هذه الدعوى الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل؛ لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني: علم التسيير؛ وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات، فهذا النوع لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الاهتداء به في الجهات، فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

باب
الاستسقاء بالنجوم

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولا واعترافا واستعانة بها على طاعته، كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء، والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله، فإنه الذي تفضل بها على عباده، ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

باب
قول الله تعالى:
﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله والبغض في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة، أحوج ما يكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضا وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من

الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها، وهي أصل الشرك وأساسه.

وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة؛ إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات، والله أعلم.

باب
قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك، ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه شرّك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله، وأيضا فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعله لله ندًا في الخشية؛ كمن جعل لله ندًا في المحبة، وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروها أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعيًا؛ كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري؛ فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفاً محققًا قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم، وإن كان خوفًا وهميًا؛ كالخوف الذي ليس له سبب أصلًا أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوّذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة؛ ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة

تدفع هذا النوع، حتى إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنًا وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية، وكمال توكلهم؛ ولهذا أتبعه بهذا الباب:

باب
قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة، فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علَّق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلَّق به وكل إليه وخاب أمله.

باب
قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾

مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيًا له، راغبًا راهبًا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه؛ خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل؛ رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين؛ فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد، وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها، ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع

الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها - فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل؛ لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضًا سببان مهلكان:

أحدهما: إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضًا غافلًا مقصرا عن الواجبات، منهمكا في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدا جاهلا معجبا بنفسه مغرورا بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدِلَّ بعمله ويزول الخوف عنه ويرى أن له عند الله المقامات العالية؛ فيصير آمنًا من مكر الله متكلا على نفسه الضعيفة المهينة، ومن ههنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه، فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

باب
من الإيمان الصبر على أقدار الله

أما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وأصله وفرعه، فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله.

فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به، فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد؛ رضي بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره تقربا إلى الله ورجاء لثوابه وخوفا من عقابه واغتناما لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

باب ما جاء في الرياء
باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين وروح التوحيد والعبادة، وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس وحقائق الإيمان التي هي الإحسان، وبحقوق الله وحقوق عباده، مكملا لها قاصدا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط، وهو شرك أصغر ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر، وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس ولم يقلع عن الرياء بعمله فظاهر النصوص أيضا بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله؛ فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء، والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والاستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها وأغراضها، فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة، وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان، فهذا وإن كان مؤمنا فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصا تاما ولكنه يأخذ على عمله جُعلا ومعلوما، يستعين به على العمل والدين؛ كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يترتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينا له على قيام الدين، ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءا كبيرا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة، كما قد عرف تفاصيل ذلك، فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها، والله أعلم.



باب
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

باب
قول الله تعالى:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر؛ فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى، بحيث تكون الطاعات كلها تبعا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هي الأصل، وطاعة الله ورسوله تبعا لها؛ فقد اتخذهم أربابا من دون الله يتألههم ويحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، وهذا هو الكفر بعينه؛ فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله، والواجب على كل أحد ألا يتخذ غير الله حكما، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله؛ وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصا لوجه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وفي كل الحقوق؛ كما ذكره المصنف في الباب الآخر، فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا وقد حاكم إلى الطاغوت.

باب
من جحد شيئا من الأسماء والصفات

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال، متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل؛ أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئا من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

باب
قول الله تعالى:
﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولا واعترافا كما تقدم، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جارٍ على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وألا يضيف النعم إلا إلى موليها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولا واعترافا، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره، والتحدث بها والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم.



باب
قول الله تعالى:
﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾[البقرة: ١٦٥].

يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله ندًّا في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات - وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر؛ كالشرك في الألفاظ، كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كـ: لولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كـ: لولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد، والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: لولا الله ثم كذا؛ ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله ندًّا في قلبه وقوله وفعله.

باب
من لم يقنع في الحلف بالله

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فيحلف، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه، لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله، وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد لأن حالته متيقنة، والله أعلم.

باب
قول ما شاء الله وشئت

هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾.

باب
من سب الدهر فقد سب الله

وهذا واقع كثيرا في الجاهلية وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى؛ إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت وربما لعنوه. وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء؛ فإنه مدبر مصرف، والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره، وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا منافٍ للتوحيد، أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره، وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.



باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه
وباب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق[1]، وهو أنه يجب ألا يُجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته؛ كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

(١) يقصد باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ص٦٩٥.

باب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

أي فإن هذا منافٍ للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين، لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد، لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء، فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون، فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفرا وأعظم فسادا، والهازل بشيء منها من هذا النوع.

باب
قول الله تعالى:
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا منافٍ للتوحيد؛ لأن المؤمن حقًّا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقا على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس، والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

باب
قول الله تعالى:
﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾

مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله لهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وألا يُعَبِّدُوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم منافٍ للتوحيد.

باب
قول الله تعالى
﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها، فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه، فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب؛ حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجلِّ المعارف. فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيمًا لله وإجلالًا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا. وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه، وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية، والإرادات الفاسدة.

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطرارًا إليه والتفاتًا إليه كل وقت في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبُّده بها لله لا يحصِّل العبد في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التوحيد ورَوْحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكمَّل من الموحدين. وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة، والإلحاد أنواع إما أن ينفي الملحد معانيها؛ كما تفعله الجهمية ومن تبعهم، وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين؛ كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم، وإما بتسمية المخلوقين بها؛ كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى فشبهوها بالله، ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة، فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظًا أو معنى، تصريحًا أو تأويلًا أو تحريفًا. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.



باب
لا يقال: السلام على الله

وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله: « **فإن الله هو السلام** »[1]. فهو تعالى السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

(١) البخاري (٨٣٥)، مسلم (٤٠٢).

باب
لا يقول: اللهم اغفر لي إن شئت

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلبًا ملحًّا جازمًا، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور: «**اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي**»[1]. وكدعاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة ولطفًا.

(١) البخاري (٥٦٧١)، مسلم (٢٦٨٠).

باب
لا يقل: عبدي وأمتي

وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول: عبدي وأمتي إلى فتاي وفتاتي، تحفظًا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور، ولو على وجه بعيد، وليس حرامًا وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذورًا بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصًا هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام.

باب لا يرد من سأل بالله
وباب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

الباب الأول: خطاب للمسئول، وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احترامًا وتعظيمًا لحق الله، وأداءً لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

والباب الثاني: خطاب للسائل، وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وألا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد، وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية، والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه.

باب
ما جاء في الـ «لو»

اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» يقع على قسمين: مذموم ومحمود:

أما المذموم: فأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان؛ لأن فيه محذورين:

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه، وليس فيها نفع.

الثاني: أن في ذلك سوء أدب على الله وعلى قدره، فإن الأمور كلها، والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده. فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا؛ نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك: فأن يقولها العبد تمنيا للخير، أو تعليمًا للعلم والخير كقوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة»**[1]. وقوله في الرجل المتمني للخير: **«لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان»**[2].

و**«لو صبر أخي موسى لقص الله علينا من نبئهما»**[3]. أي في قصته مع الخضر.

---

(١) مسلم (١٢١١).

(٢) الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٠).

(٣) أحمد (٢١١٢٦).

وكما أن «لو» إذا قالها للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنيا للشر فهو مذموم، فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها، إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر، أو تمني الشر كان مذمومًا، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودًا؛ ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

باب
النهي عن سب الريح

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر[1] إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر، وفي هذا خاص بالريح. ومع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريح مصرَّفة مدبَّرة بتدبير الله وتسخيره، فالسابُّ لها يقع سبُّه على من صرَّفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالبًا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

(١) يقصد باب من سب الدهر فقد سب الله، ص٦٩٨.

باب
قول الله تعالى:
﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد؛حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية النافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده. والله أعلم.

باب
ما جاء في منكر القدر

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر، فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان، وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون، بل جعلهم مختارين لطاعاتهم ومعاصيهم.

باب
ما جاء في المصورين

وهذا من فروع الباب السابق[1] أنه لا يحل أن يجعل لله ندًّا في النيات والأقوال والأفعال. والندُّ هو المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشبُّه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير؛ فلذلك زجر الشارع عنه.



(١) يقصد باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ص٦٩٥.

باب
ما جاء في كثرة الحلف

أصل اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه، وتعظيمًا للخالق؛ ولهذا وجب ألا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم ألا يحلف بالله إلا صادقًا. ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

باب
ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها، بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركًا لتعظيم الله وارتكابًا لأكبر المفسدتين؛ كما نبَّه عليه ﷺ، وفي ذلك أيضًا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.



باب الإقسام على الله
وباب لا يستشفع بالله على خلقه

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد.

أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأنًا من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسَّل به غالبًا دون رتبة المتوسَّل إليه، وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب وذلَّت له الكائنات بأسرها.

باب
ما جاء في حماية المصطفى
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

تقدم نظير هذه الترجمة، وأعادها المصنف اهتمامًا بالمقام؛ فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين، أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرًا وباطنًا، قولًا وفعلًا، وإرادة واعتقادًا. وقد مضى من التفاصيل ما يوضح ذلك.

باب
قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾

ختم المصنف - رحمه الله - كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه؛ لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، المحمود وحده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل. وهذا حقيقة التوحيد ولبُّه وروحه، وسر الإخلاص، فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه. إنه جواد كريم.

الخَاتِمَة

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد، ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها، والحمد لله على تيسيره ومنته. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.



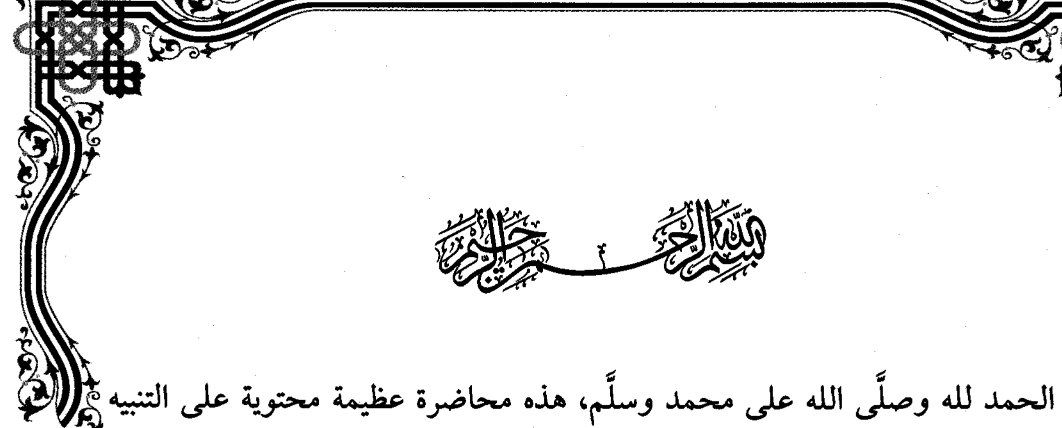
مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٨)

البراهين العقلية

على وحدانية الرب ووجوه كماله

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





الحمد لله وصلَّى الله على محمد وسلَّم، هذه محاضرة عظيمة محتوية على التنبيه الواضح إلى البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله.

اعلم أن هذه المسألةَ أعظمُ المسائل على الإطلاق، وأكبرُها وأوجبُها وأنفعُها وأوضحُها، وعليها اتفقت جميعُ الكتب المنزلة من الله على رسله، وجميعُ الرسل.

وهي أهمُّ ما دعا إليه الرسل أممَهم، فكلُّ رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ويذكرون لأممِهم من أسماء الرب وأوصافه ونعمه وآلائه وألطافه ما به يعرفون ربهم ويخضعون له ويعبدونه.

والقرآنُ العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة ويذكر لها البراهينَ المتنوعة، ويصرِّف لها الآيات، والسنّةُ كذلك.

وليس القصد في هذه المحاضرة ذكر الأدلة النقلية عليها؛ فإن الكتاب والسنّة فيهما من البراهين والأدلة على ذلك ما لا يعد ولا يحصى، ولا يمكن استيفاء بعضه، وهي واضحة جلية؛ يعرفها الخواص والعوام، وبعض ذلك كافٍ وافٍ بالمقصود.

ولكننا نريد في هذه المحاضرة أن نشير إشارةً يسيرةً إلى براهينها العقلية التي يشترك في معرفتها والخضوعِ لها جميعُ العقلاء من البشر، ولا ينكرها إلا كلُّ مكابر مستكبر منابذٍ للعقل والدين.

وهذه المسألة أوضحُ وأظهر من أن يحتجَّ لها وتذكر براهينها، ولكن كلما عرف المؤمنُ

براهينَها قوي إيمانه، وازداد يقينهُ، وحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم وأجلها.

ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فاستفهموهم استفهامَ تقرير ، فإنه متقررٌ في قلوب جميع العقلاء الاعترافُ بربوبيته ووحدانيته. فنقول وبالله التوفيق:

حدوث الأشياء له ثلاثة أقسام عقلية:

اعلم- رحمك الله- أنك إذا نظرتَ إلى العالم العلوي والسفلي وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة الكثيرة جدًّا، والحوادث المتجددة في كل وقت، وتأملتَه تأملًا صحيحًا؛ عرفت أن الأمورَ الممكن تقسيمُها في العقل ثلاثةٌ:

أحدُها: أن توجدَ هذه المخلوقات والحوادثُ بنفسها من غير محدِث ولا خالِق، فهذا محالٌ ممتنعٌ؛ يجزم العقل ضرورة ببطلانه، ويعلم يقينًا أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل؛ لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجَد شيء من غير موجِد، ولا محدِث.

الثاني: أن تكون هذه المخلوقات محدِثةً وخالقةً نفسَها، فهذا أيضًا محالٌ ممتنعٌ؛ يجزم العقل ضرورة ببطلانه وامتناعه، فكل من له أدنى عقل يجزم أن الشيء لا يحدِث نفسه، كما أنه لا يحدُث بلا محدِث.

وإذا بطل هذان القسمان عقلًا وفطرة تعيَّن **القسم الثالث**: وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالِقٌ خلقها، ومحدِثٌ أحدثها، وهو الله الرب العظيم، الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء، المدبر للأمور كلها.

ولهذا نبَّه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فالمخلوق لا بد له من خالِق، والأثر لا بد له من مؤثِّر، والمحدَث لا بد له من محدِث، والموجَد لا بد له من موجِد، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعِل.

هذه قضايا بديهية عقلية، يشترك في العلم بها جميعُ العقلاء، وهي من أعظم القضايا العقلية، فمن ارتاب فيها أو شكَّ في دلالتها فقد برهن على اختلالِ عقله وضلاله.

من الأدلة: التفكر في خلق الإنسان والأكوان:

تفكَّرْ- رحمك الله- في نفسك، وانظر في مبدأ خلقك؛ من نطفة إلى علقة إلى مُضغة، حتى صرتَ بشرًا كامل الخَلْق، مكتمل الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ أما يضطرك هذا النظرُ ويُلجئك إلى الاعتراف بالربِّ القادرِ على كل شيء، الذي أحاط علمه بكل شيء، الحكيمِ في كلِّ ما خلقه وصنعه؟

فلو اجتمع الخلقُ كلهم على هذه النطفةِ- التي جعلها الله مبدأ خلقك- على أن ينقلوها في تلك الأطوار المتنوِّعة، ويحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوا لها أعضاء ظاهرة وقوى باطنة، وسمعًا وبصرًا وعقلًا، وينموها هذه التنمية العجيبة، ويركِّبوها هذا التركيب المنظم، ويرتبوا الأعضاء على هذا الترتيب المحكم بحيث يكون كلُّ عضوٍ في محلِّه اللائق به؛ لو اجتمعوا على ذلك؛ فهل في علومهم وهل في اقتدارهم واستطاعتهم الوصولُ إلى ذلك؟

فهذا النظرُ السديدُ يوصلك إلى الاعتراف بقدرة الله وعظمته ووحدانيته، والخضوع له، والتصديق بكتبه، ورسله، ومعرفته، والإيمان باليوم الآخر.

تأمل في حفظِ الله للسماواتِ والأرض، وما فيهما من العوالم التي لا يعلمها إلا هو، وفي إبقائها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه في بقائها، من الأسباب المتنوعة، والنظاماتِ العجيبة، أما يدلك ذلك على كمال الرب وربوبيته ووحدانيته وسعةِ علمه وشمولِ حكمته؟

وقد نبه الله على هذا الدليل الواضح العقلي بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

تدبر يا أخي في هذا الفلك الدوَّار، وما ترتب عليه من تعاقب الليل والنهار؛ وفي تصريفِ الأوقات بفصولها وكمال انتظامها لمصالح العباد ومنافعهم التي لا يمكن إحصاؤها.

هل حصل ذلك صدفةً واتفاقًا من غير محدِث وفاعِل؟ أم الذي خلق ذلك ودبَّره هذا التدبير المتقن هو الذي أحسنَ كل شيء خلقه؟ كما نبّه على ذلك البرهان العقلي بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وانظر- هداك الله- إلى أنه أعطى كل شيء خلقَه اللائق به؛ ثم هدى كلَّ مخلوق إلى مصالحه ومنافعه وضروراته التي لا بد فيها من بقائه؛ حتى البهائمَ العُجمَ صغيرَها وكبيرَها قد ألهمها وهداها لكل أمر فيه نفعها وبقاؤها، ويسَّر لها أرزاقها وأقواتها، وهداها لتناولها.

فمن نظر في هذه الهداية العامة، وبثِّها في جميع المخلوقات، وإلهامها هذا الإلهام العجيب الذي تهتدي به إلى مصالحها؛ عَلِم بذلك عنايةَ المولى العظيمة، وعلم أنه الربُّ لكل مربوب، الخالقُ لكل مخلوق، الرازقُ لكل مرزوق، الذي علَّم المخلوقاتِ وأعطاها من الأذهان ما يصلحها ويدفع عنها المضار، وذلك برهانٌ عقليٌّ واضحٌ عظيمٌ على وحدانية الله وكماله. وقد نبَّه الله على ذلك بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فهل في طبيعة الحيوانات المتنوعة هذه الهداية، وهذا الإلهام إلى تحصيل منافعها ودفع مضارها، والحنو على أولادها، وقيامها بهم، حتى يَدرجوا ويستقلوا بأنفسهم؟

وهل هذا الحنانُ والرحمةُ الموضوعة في الحيوانات على أولادها؛ إلا من أكبر الأدلة على سعة رحمة الله وشمول علمه وحكمته؟

من الأدلة: رحمة الله العامة:

ثم انظر - رحمك الله - إلى سعة رحمة الله التي ملأت أقطارَ العالم، وشملت كلَّ مخلوق في كل أحواله وأوقاته.

فبرحمته أوجد المخلوقات، وبرحمته أبقاها وحفظها، وبرحمته أمدها بكل ما تحتاج إليه، وأسبغ عليها النِّعم الظاهرة والباطنة التي لا يمكن أن يخلوَ مخلوقٌ منها طرفة عين، وهي متنوعة عليه من كل وجه:

نِعَمُ التعليمِ لأمور الدين والدنيا، ونِعم العافية للأبدان عمومًا ولكلِّ عضوٍ وقوةٍ على وجه الخصوص، ونِعم الأولادِ والأهلِ والأتباعِ، ونِعم الأرزاقِ الواسعة، ونِعم الحروث والزروع والثمار، ونِعم المواشي وأصناف الأمتعة، ونِعم الدور والقصور، ونِعم اللذات والحبور.

النِّعمُ التي فيها جلب المنافع كلها، والنِّعمُ التي فيها دفع المضار.

كلُّ ذلك يدل أكبر دلالة على وحدانية موليها ومسديها والمتفضل بها، وعلى سعةِ كرمه، ووجوبِ شكره والخضوع له، وإخلاص العمل له؛ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[النحل: ١٧]. ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[النحل: ٥٣].

من الأدلة: النظر في أحوال المضطرين:

ثم انظر أحوال المضطرين الواقعين في المهالك، والمشرفين على الأخطار، والبائسين من فقرهم المدقع، أو مرضِهم الموجع؛ وكيف تضطرهم الضروراتُ وتلجئهم الحاجاتُ إلى ربهم وإلههم؛ داعين مفتقرين وسائلين له مستعطين، فيجيب دعواتِهم ويكشف كرباتِهم، ويرفع ضروراتِهم.

أليس في هذا أكبرُ برهانٍ على وحدانيته، وسعة علمه ورحمته، ودقيق لطفه، وأنه ملجأ الخليقة كلها؟ وقد نبّه الله على هذا البرهان العقلي بقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٦٢]. ﴿ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]. ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]... الآية.

وهذا النوع – وهو تخليص المضطرين – قد شاهدته الخليقةُ بأعينهم؛ ورأوا من الوقائع ما لا يعد ولا يحصى، وهذا يضطرهم إلى الاعترافِ بالله وبوحدانيته.

فانظر إلى حالة المضطرين إذا كَرَبَتهم الشدائد وأزعجتهم النوائبُ، كيف تجد قلوبَهم متعلقةً بالله، وألسنتَهم ملحةً في سؤاله، وأفئدتَهم متشرفةً لنواله؟ لا تلتفت عن الله يَمنةً ولا يَسرةً؛ لعلمها الضروريِّ أنه وحده كاشفُ الشدائد، فارج الكروب؛ لا ملجأً للخليقة إلا إليه؛ ولا معوَّل لهم إلا عليه؟

فهل هذه الأمور إلا لأن الخليقةَ مفطورةٌ على الاعترافِ بوحدانية ربها، وأنه النافع الضارُّ، وأن ملكوتَ كلِّ شيء بيديه؟ وهل ينكرُ ذلك إلا من فَسَدت فطرتُه بالعقائدِ الفاسدة والإراداتِ السيئة؟

وانظر إلى فقرِ الخلائق إلى ربهم في كل شيء؛ فهم فقراءُ إليه في الخلق والإيجاد، وفقراءُ إليه في البقاء والرزق والإمداد، وفقراءُ إليه في جَلْب جميع المنافع، وفقراءُ إليه في دفع المضار.

فهم يسألونه بلسانِ المقال ولسانِ الحال، فيعطيهم مطالبَهم، ويسعفُهم في كلِّ مآربهم؛ إن رغبوا لم يرغبوا إلا إليه، وإن مستهم الضراءُ لم يلجئوا إلا إليه.

فكم كشف الضرَّ والكروب، وكم جبر الكسيرَ ويسَّرَ المطلوب، وكم أغاث ملهوفًا، وكم أنقذ هالكًا، ففقرهم إليه في جميع الأحوال ظاهر مشاهد، وغناه عنهم لا ينكره إلا كلُّ مكابرٍ وجاحد.

من الأدلة: إجابة الله للدعوات:

ومن براهينِ رُبوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدعواتِ في كلِّ الأوقات، فلا يحصي الخلقُ ما يعطيه السائلين، وما يجيبُ به أدعيةَ الداعين، من برٍّ وفاجر، ومسلمٍ وكافر.

تحصلُ للعباد المطالبُ الكثيرة ولا يعرفون لها شيئًا من الأسباب سوى الدعاء، والطمع في فضل الله والرجاء لرحمته.

هذا برهانٌ مشاهدٌ في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهت جاحد.

يدعونه في مطالب دينهم فيجيبهم، وفي مطالب دنياهم فيجيبهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

من الأدلة: آيات الأنبياء:

ومن براهين وجود الله ووحدانيته: ما يجريه الله على أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات والبراهين القاطعات، وما يكرمهم به في الدنيا وينصرهم، ويجعل لهم العواقب الحميدة، ويخذل أعداءَهم ويعذبهم بأصناف العذاب.

وهذا متواترٌ معروفٌ بين الخواص والعوام، وقد نقلتها الأمم والقرون والأجيال، وصارت أعظمَ من برهانِ الشمس والقمر، وهي كلها براهينُ على ربوبية من أرسلهم، ووحدانيته، وعظمة سلطانه، وكمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، وما ينكرها إلا كل متكبر جبار.

من الأدلة: الكتب السماوية والسنّة النبوية وما فيها من الشرائع:

ومن أعظم براهين وحدانيته: ما أنزله الله على أنبيائه عمومًا؛ من الكتب والشرائع،

وما أنزله على محمد ﷺ خصوصًا؛ من الكتاب العظيم والسنّة والشريعة الكاملة التي بها صلاح الخلق، وبها قوام دينهم ودنياهم.

وفيها من الآيات والبراهين ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدِرُ أن يصفه الواصفون، وآياته قائمة في جميع الأوقات، متحدية للخلق كلِّهم؛ على اختلاف مللهم ونحلهم، وقد تبين عجزُهم ووضح عليهم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فمن نظر فيما احتوى عليه القرآن العظيم من الأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والشرائع المحكمة، والصلاح العام، وجلب المنافع الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما، والخير العظيم والهداية، والصلاح المطلق الكامل؛ اضطر إلى الاعتراف بأنه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، وربٍّ كريمٍ.

وكذلك من نظر إلى ما جاء به الرسول ﷺ من السنّة والشرع الكامل، والدين القويم والصراط المستقيم في كل شئونه؛ اضطره بعضُ ذلك- فكيف بكله- إلى الاعتراف بوحدانية الله، وأن الذي شرعه هو الربُّ العظيم الحكيم في شرعه ودينه؛ كما هو حكيم في خلقه وتقديره.

من الأدلة: الفطرة السوية مضطرة إلى الاعتراف بالله:

ومن براهين وحدانية الله: أن العقولَ والفطرَ مضطرةٌ إلى الاعتراف بباريها، وكمالِ قدرته ونفوذ مشيئته، وذلك أن الخلقَ محتاجون ومضطرون إلى جلب المنافع ودفع المضار.

ومن المعلوم لكلِّ عاقلٍ أن حاجة النفوس إلى خالقها وإلهها أعظمُ من جميعِ الحاجات والضرورات، فهي مضطرةٌ إلى علمها بأنه خالقُها وحده، ومالكُها وحده، ومبقيها وحده،

وممدها بمنافعها وحده؛ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

ولم يخرج عن هذي الفطرة إلا من اجتالتهم الشياطين[١]، وحوَّلت فِطَرَهم، وغيّرتها بالعقائدِ الفاسدة، والخيالاتِ الضالة، والآراءِ الخبيثة، والنظرياتِ الخاطئة.

فلو خُلُّوا وفطرَهم لم يميلوا لغير ربهم، منيبين إليه في جلب المنافع ودفع المضار، ومنيبين إليه في التألُّه والتعبُّد والخضوع والانكسار.

من الأدلة: الثواب المعجَّل للمحسنين، والعقاب المعجَّل للظالمين:

ومن براهين وحدانية الله تعالى وكرمه: ما يكرم الله به الواصلين لأرحامهم، المحسنين إلى المضطرين والمحتاجين، وخَلَفُه العاجل لهم في نفقاتِهم، وتعويضُه لهم من جوده وكرمه، وفتحُه لهم أسبابًا وأبوابًا من الرزقِ بسبب ذلك الإحسان؛ الذي له الموقع الطيب.

وقد علم الخلقُ المتأملون أن سببَ ذلك تلك الأعمالُ الصالحة والصلةُ والإحسانُ والمقدماتُ الحسنة؛ ألا يدلنا ذلك أن الله قائمٌ على كل نفس بما كسبت؟ وأن هذا جزاء معجل وثواب حاضر؛ نموذجٌ لثواب الآخرة؟

وأنواعُ ذلك وأفرادُه لا تدخل تحت حصر، وقد رأى الناسُ من ذلك عجائب؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]. و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ولقوله ﷺ: «**من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه**» متفق عليه[٢].

فكم أحسن الله على المحسنين، وكم أخلفَ نفقاتِ المنفقين، وكم جبر قلوبَ الواصلين لأرحامهم المشفقين.

---

(١) اجتالتهم: أي ذهبت بهم وجالت.
(٢) البخاري (٥٩٨٦)، مسلم (٢٥٥٧).

ونظيرُ هذا البرهانِ العقوباتُ التي يعجِّلها الله للباغين والقاطعين والظالمين والمجرمين بحسَبِ جرائمهم؛ عقوباتٌ يشاهدها الناسُ رأيَ العين، ويتيقنون أن ذلك جزاءٌ وعقوبةٌ لتلك الجرائم.

فمن تأمل وسمع الوقائعَ، وأيامَ الله في الخلق، وعَلِم ارتباطها بأسبابها الحسنة والسيئة؛ عَلِم بذلك وحدانيةَ الله وربوبيتَه وكمالَ عدلِه وسعةَ فضلِه؛ فضلًا عن الاستدلال بها على وجوده، ووجوبِ وجوده.

فإن كل ما دلَّ على شيء من أوصافه وأفعاله؛ فإنه يتضمن إثباتَ ذاتِه ووجوبَ وجوده.

وعَلِم استنادَ العوالم العلويةِ والسفليةِ إليه في إيجادها وبقائها وحفظها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه.

فصلٌ
تابع لما قبله
طرق معرفة الله واسعة غير منحصرة

واعلم أن طرقَ معرفةِ الله واسعةٌ جدًّا؛ وذلك بحسَبِ حاجةِ الخلق وضروراتِهم إليها، وكلٌّ يعبّر عنها بعباراتٍ؛ إما كلية وإما جزئية؛ بحسب الحال التي تحضره، وبحسَبِ الأمورِ التي تغلب عليه.

وإلا فكلُّ ما خَطَر في القلوب، وشاهدته الأبصار، وأدركته الحواس والمشاعر، وكلُّ متحركٍ وساكنٍ، وكلُّ حيوانٍ وجماد؛ أدلةٌ وبراهينُ على وحدانية الله وآيات عليه.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

ولكن الجزئيات تسبق إلى الأذهان، وتفهمها القلوبُ تفصيليًّا، ويحصلُ بها النفعُ والفائدةُ العاجلة؛ لسهولتها وبساطتها، وكونها تدرك بالبديهة، فلنذكر لها أمثلةً وحكاياتٍ عن المتقدمين والعصريين، وكلّ يفهم منها ما يناسبه ويليق بفهمه.

أمثلة وحكايات في الاستدلال على الله

سئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: إن البَعْرةَ تدل على البعير، وآثارَ السيرِ تدل على المسير؛ فسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فِجَاجٍ، وبحارٌ ذات أمواج؛ ألا تدل على اللطيف الخبير؟

واجتمع طائفةٌ من الملاحدة ببعض أهل العلم - أظنه أبا حنيفة - فقالوا: ما الدلالةُ على وجودِ الصانع؟ فقال لهم: دعوني فخاطري مشغولٌ بأمر غريب، قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلةَ سفينةً عظيمةً مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحدٍ يحركها، ولا رُبَّانٍ يقوم عليها.

فقالوا له: مجنونٌ أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: هذا يصدقه عاقل؟ فقال لهم: فكيف صدقت عقولُكم أن هذا العالمَ؛ بما فيه من الأصناف والأنواع والحوادثِ العجيبة، وهذا الفَلَكَ الدوارَ السيَّارَ يجري وتجري هذه الحوادثُ بغير محدِث، وتتحرك هذه المتحركاتُ بغير محرِّك، فرجعوا على أنفسهم بالملام.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: هذه النطفةُ التي يلقيها الفحل في رحم الأنثى، فيطوِّرها الله من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر أطوارها، فيكون بشرًا سويًّا كاملَ الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ له سمعٌ يسمع به الأصوات، وبصرٌ يبصر به المشاهدات، وعقلٌ يهتدي به

إلى مصالحه، ويدان يبطش بهما ويعمل بهما الأعمال الدقيقة، ورجلان يمشي بهما، وأعضاء كثيرة خلقت لمنافع أخرَ معروفة، وله منافذُ يدخل منها ما يغذي البدنَ، ومنافذُ أخرُ يخرج منها ما يضره؛ وقد رُكِّب هذا التركيبَ العجيبَ الذي لو اجتمعت الخلق على إيجاد شخصٍ واحد على هذا الخلق المحكم العجيب؛ لعجزت معارفهم وقُدَرُهم عن ذلك، أليس ذلك دليلًا وبرهانًا على وجودِ الخالق وعظمتِه ووحدانيتِه؟

قلت: وقد ذكر الله هذا البرهانَ في كتابه في أساليب متنوعة.

وقيل لبعضهم: بم عرفتَ ربك؟ قال: بنقضِ العزائم والهمم.

ومعنى ذلك: أن العبد يعزم في كثير من أموره عزمًا جازمًا مصممًا لا تردد فيه، ثم بعد ذلك تنتقض همته، وينحلُّ عزمه إلى تركه، وإلى أمرٍ آخر يرى فيه مصلحته.

وما ذلك إلا لأن اللهَ على كل شيء قدير، يصرف القلوبَ كما يدبرُ الأبدانَ، وقد يصرفه عن بعض ما يعزم عليه لطفًا به، وإبقاءً على إيمانه ودينه، فيتلطَّف به من حيث لا يشعر؛ فنسأله اللطفَ في الأمور كلها، والتيسير لليسرى.

وسئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: كم كنتُ مكروبًا ففرج كربتي، وكنتُ مريضًا فدعوته فشفاني، وكنتُ فقيرًا فأغناني، وكنتُ ضالًّا عن الهدى فتلطف بي وهداني، وليس هذا الأمر لي وحدي؛ فكم له على عباده من هذه النعم وغيرها مما لا حصرَ له ولا عدَّ، وهذا يضطرني إلى الاعتراف بوحدانيته وقدرته ورحمته.

وقيل لبعضهم: بم عرفتَ الله؟ فقال: قد رأينا ورأى الناسُ في الدنيا مصارعَ البغاةِ المجرمين وعواقبهم الوخيمة، كما رأينا ورأوا في المحسنين عواقبهم الحميدة، فعجَّل للعبادِ نموذجًا من الثواب والعقاب، ليعرفوه، ويخضعوا له وحده، ويعبدوه وحده.

وقيل لآخر: بم عرفتَ الله؟ فقال: بإيصاله النعمَ إلى خلقه وقت الحاجة والضرورة إليها.

هذا الغيثُ ينزله وقتَ الحاجة، ويرفعه إذا خِيف منه الضرر، وهذا الفرج يأتي إذا اشتدت الأزمات، وهذه المطالبُ تأتي منه وقت الحاجة إليها، وهذه أعضاءُ الآدمي وقواه؛ يعطيها الله إياها شيئًا فشيئًا بحسب حاجته إليها.

فهل يمكن أن تكون هذا الأمورُ صدفةً؟ أم يُعلم بذلك علمَ اليقين أن الذي أعطاهم إياها وقتَ الحاجة والضرورة هو الربُّ المعبود، الملك المحمود؟

قلتُ: ومن هذا الباب ما نتكلم فيه من معرفة الله؛ فإنه لما كانت حاجةُ العبادِ إلى معرفة الله فوق جميع الحاجات، والضرورةُ إليها تفوق جميع الضرورات؛ يسَّرها الله لعبادِه ونهج لهم طرقَها، وفتح لهم أبوابَها ومسالكها، وأوضحَ أدلتها، وذلك لشدة الحاجة إليها، وسعة رحمةِ الله وإحسانه.

وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: يُعرَف بأنه علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فأعطاه آلاتِ العلم، ويسَّر له أسبابه، فلم يزل يتعلم أمور دينه حتى صارَ عالمًا ربانيًّا، ولم يزل يتعلم أمور دنياه حتى صار ماهرًا مخترعًا للعجائب، ويسَّر له كلَّ سبب ينال به ذلك.

ومن عجيب الأمر أن اللوحَ إذا كتب فيه، وشُغِل بشيء من الأشياء؛ لم يسع غيرها، ولم يمكن أن يكتب فيه شيء آخر قبل مَحْيِ[1] ما كُتِب فيه، وقلبُ الإنسانِ لا يزال يحفظ ويعقل الأمورَ والمعارفَ المتنوعة.

وكلما توسعت معارفُه وغزر علمُه قويت حافظته، واشتدَّت ذاكرته، وتوسعت أفكارُه، فهل هذه الأمورُ في طوق البشر وقدرتهم؟ أم هذا من أكبر البراهينِ على عظمةِ الله ووحدانيته وكماله وسعة رحمته؟

---

(١) المحي: من قولهم: محاه يمحوه أو يمحيه؛ محوًا أو محيًا: أي أذهب أثره؛ على ما في القاموس المحيط.

وقيل لبعضهم: بم يعرف الله؟ فقال: هذه النواةُ يغرسها الناسُ؛ فيأتي منها النخيلُ والأشجارُ المتنوعة، وتخرج الثمارُ اللذيذةُ النافعة، وهذه الحبوبُ تلقى في الأرضِ فتخرج أصنافُ الزروعِ التي هي مادَّةُ أقواتِ الآدميين وبهائمهم، ثم لا تزال تعاد وتُغَلُّ كلَّ عام ما يكفي العبادَ ويزيد عن حاجتِهم.

أليس هذا برهانًا ودليلًا على وجود الله وقدرته، وعنايته بعباده ورحمته؟

وقد نبَّه الله على هذا الدليل والبرهان العقلي المشاهد في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]. وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

وقيل لمن بادر إلى الإيمانِ بالرسول ﷺ: ما الذي دعاك إلى ذلك؟ فقال: رأيتُه ما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به.

فاستدلَّ بنور عقلِه وقوة بصيرته على صدق الرسول باشتمال ما جاء به على الصلاح ودفع الفساد، وأن ذلك موافق للعقول السليمة.

وقيل لبعض العارفين: بأي شيء يعرف الله؟ فقال: بذوق حلاوة الطاعاتِ، وتجرُّعِ مرارة المخالفات.

وهذا استدلال برهانيٌّ وجدانيٌّ لمن وُفِّق لهذه الحال، يضطرُّ العبدَ إلى كمالِ الإيمان وزيادة اليقين؛ فإن من وجد حلاوة الطاعات والإيمان، وذاق لذة اليقين، وتألم إذا غلبته النفسُ الأمارةُ بالسوءِ على اقتحام بعض المعاصي، اضطره الأمرُ إلى معرفة الله ووحدانيته.

وقيل لبعضهم: بأي شيء يُعرَفُ الله؟ فقال: بانتظام الأسباب على وتيرة واحدة، ثم بتحويله لبعضها ومنع سببيته، وبإيجادِه أشياءَ بغير أسبابٍ تعرف.

وهذا صحيح، فإنه تعالى أجرى الأمورَ على أسبابها ومسبَّباتها قدرًا وشرعًا؛ لتُعرف بذلك حكمتُه البالغة، ولينشط العاملون على أعمالهم التي ربطها الله بمسبباتها، وأجراها

على سنته، ثم إنه مع ذلك منع بعضَ الأسبابِ عن ترتب آثارها عليها، كما في معجزات الأنبياء الخارقة للعادة، وكرامات الأولياء.

وكذلك يُوجِدُ كثيرًا من الأشياء بغير الأسباب المعهودة، كما أوجدَ عيسى من أمٍّ بلا أب، ويحيى بين أبوين لا يولد لمثلهما.

وأشياء كثيرة من هذا النوع؛ ليعرِف العبادُ أنه المتصرِّفُ التصريفَ المطلقَ، وأنه كما يتصرَّف بالأشياء بأسبابها المعلومة المرتبطة بها؛ كذلك يتصرف فيها بغير المعهودة.

ولهذا كان جمهورُ هذا النوعِ من معجزات الأنبياء والكرامات للأولياء، وقد تكون لغيرهم، وهي كلها براهينُ على وحدانية الله وإلهيته وربوبيته.

وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: من نظر في موادِّ الرزق، وتأمل حالة من لهم موجودات كثيرة وعقارات وغلَّات كثيرة، ولكنهم قد اتكلوا عليها، فضاقت عليهم الأمور، وركبتهم الديون، وجاءت الأمور على خلاف ما يأملون.

ثم نظر إلى أناسٍ كثيرين؛ ليس لهم عقارات ولا غلَّات ولا موجودات، وإنما يسرت لهم أسباب بسيطة، لا تخطر على بال أحدٍ أن تكفيهم، ولكن الله بارك فيها، وبسط لهم الرزقَ، فكانوا أبسط قلوبًا، وأريح نفوسًا، وأرغد عيشًا من الأولين.

والسبب في ذلك أنهم قاموا بالأسباب؛ متوكلين على مسبِّبها، فقلوبُهم على الدوام متطلعةٌ إلى ما عند الله، راجيةٌ منه تسهيلَ الرزق، والأولون بالعكس: قلوبُهم متعلقةٌ بأملاكِهم وموجوداتِهم، فبذلك يُعرَف اللهُ، ويعرف أن الأمرَ كلَّه للهِ.

لذلك إذا نظرنا لكثير من الأقوياء الأذكياء العاملين ليلًا ونهارًا؛ نجد رزقهم مقتَّرًا، وأسبابَهم مخفقةً، ونجد كثيرًا من الضعفاء البُلَداء الذين ليس عندهم من القوة والذكاء ما عند الأولين، والله قد بسط لهم الرزقَ، ويسَّر لهم أمرهم، وهذا كله مشاهدٌ يضطرُّ العاقلَ أن يشهد لله بالتصرف المطلق، وأن الأمر كلَّه لله.

وقيل لآخر: بم يُعرف الله؟ فقال: بمداولته الأيامَ بين العباد في العزِّ والذلِّ، والغنى والفقر، بأسباب وبغير أسباب.

وقيل لآخر: بأي شيء يُعرَف الله؟ فقال: بمشاهدةِ مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فتنظر مصداقها شاملًا للخليقة، وأن كلَّ أحد قد يسَّر الله له من أسباب الرزق ما به يعتاش؛ هذا بتجارته، وهذا بصناعته، وهذا بحراثته، وهذا بعمله وخدمته، وهذا بمخلَّفات من قبله، وهذا بتنميةِ المواشي، وهذا بإحسانِ غيره عليه؛ بسؤالٍ وغير سؤال، وهذا بكدِّ غيره عليه، إلى غير ذلك من الأسباب المعروفة، التي قدرها العزيز الحكيم رزقًا للعباد، فسبحان من وصل رزقه إلى أصغر الذرات، ومَهَامِه البراري، وقعور البحور والظلمات.

وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: إن لمعرفة الله أبوابًا وطرقًا كثيرة جدًّا، ومن جملتها ما هدى الله له العباد في هذه الأوقات، من المخترعات الكثيرة، وأعمالِ الكهرباء، وإيصالِ الأصوات والأنوار ونحوها إلى مسافات شاسعة، وأمكنة متباعدة.

وهو الذي علَّم الإنسان، وهو الذي أقدره على ذلك، وهو الذي خلق له المواد والمعادن التي تُسْتَخرَج بها هذه الأشياء، وهداه إلى تأليفها.

ومعلومٌ أنه خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء، فعَلِم جميع هذه الأمور، وكانت هذه من جملة منن الله عليه، فخالق السبب هو خالق المسبَّب تبارك وتعالى.

فهذا أكبر برهانٍ على كمال قدرة الله الذي أقدر العبدَ الضعيفَ على هذه الأمور؛ التي تعد سابقًا من الأمور المحالة الممتنعة.

قلتُ: وهذه الأجوبة كلها عن الكليات والجزئيات صحيحة، تضطرُّ العقولَ إلى الاعتراف بربها ووحدانيته، ويمكن مضاعفتُها إلى أضعاف كثيرة.

فإنك إذا نظرتَ نظرةً عمومية إلى العالم العلوي والسفلي وعظم هذه المخلوقات، وانتظامها العجيب، وتركيبها المحكم وترتيبها، وما ينتج عن ذلك من مصالح العالم

والمخلوقات؛ عَلِمتَ أن لهذا العالَمِ ربًّا عظيمًا، ومَلِكًا كبيرًا، وقادرًا مقتدرًا، قد خضعت له الأكوانُ، ودانت له الخليقةُ، وأخذ بنواصي العباد، وعلمتَ أن كلَّ ما في السماواتِ والأرض عبيدٌ ومماليك لربهم؛ ليس لهم من الأمر شيء.

ثم إذا نظرتَ إلى كلِّ مخلوق على حِدَته، وتأملت ما اشتمل عليه من الخلق العجيب والحِكَم الباهرة، ثم نظرتَ على وجه الخصوص إلى نفسِك وصفاتك، وما أُودِع فيها من الخلق العجيب والحِكَم الباهرة؛ عرفتَ أن الله هو الربُّ الخالق الرازق، المدبِّر لكل شيء، الحكيم في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

فجميعُ مخلوقات الله وجميعُ الحوادث التي يحدثها الله آياتٌ وبراهينُ على أنه واحدٌ عظيم، ورب كريم، وملك جواد.

وكذلك إذا تأملت الشرعَ الكامل، وأن أخبارَه كلَّها صدقٌ، وقد قامت البراهينُ على صدقها، وأحكامه كلَّها عدل، تأمر بالخير والصلاح، وتنهى عن الشر والفساد، وتجري أحكامُها المحكَمةُ وحقوقها العادلة مع الأزمان؛ مهما تطورت الأحوالُ، واختلفت العوائد؛ لا يختلُّ صلاحها، ولا ينتقض هداها.

بل لا يكون هديٌ وصلاحٌ وخير إلا بها، ولا تأتي بأمرٍ تحيله العقول، وتكذبه الحواس الصحيحة، بل تشهد العقول الكاملة أنَّ أحكامَها أحسنُ الأحكام، وأعدلُها وأقومها وأهداها.

أليس هذا أكبرَ برهانٍ على عظمة الله وقدرته، وسعةِ علمه وشمولِ حكمته ورحمته؟ وأنه المحمودُ في كلِّ حال؛ على خَلْقه للمخلوقات وعلى شرعه الشرائع؟

أحسنَ ما صنعه، وأحكمَ ما شرعه؛ ليس في ذلك عيبٌ وعبث، وليس فيه ما ينافي الحكمة بوجه من الوجوه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فصل
من الأدلة: أن وجود الرب أظهر من كلِّ شيء

ومن أعظم البراهينِ على وحدانيةِ الله ووجوبِ وجوده: ما دعت إليه الرسلُ - صلواتُ الله وسلامه عليهم - أُمَمهم، ونبَّهتهُم على البراهينِ العقلية على ذلك، وأخبروهم خبرًا معلنين به ومتفقين عليه: أن وجود الرب أظهرُ من كل شيء، وأجلى وأوضحُ من كل شيء، وأعلى من كل شيء، وأنه لا يمكن أن يعترض ذلك شكٌّ ولا ريب بوجه من الوجوه، ولهذا قالت رسلهم جميعًا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذا استفهامٌ وإنكارٌ عظيم على من يشك أو يمتري بالله، وبيان أنه متقرر في عقول الخلق وفطرهم أن وجودَ الله ووحدانيتَه أظهرُ الأشياء وأجلاها، وأن من شكَّ في ذلك فهو مباهِتٌ مكابِرٌ، غيرُ مبالٍ بمخالفة العقل والدين.

فإن جميعَ الأشياء - وجودَها وبقاءَها وحفظَها وحصولَ جميع كمالاتها - بالله تعالى؛ فهو الأولُ الذي ليس قبله شيء، وهو الذي أوجد كلَّ شيء، ولهذا قالوا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فالذي خلق السماواتِ والأرض- العالمَ العلوي والعالم السفلي- بما فيها من المخلوقات، أوجدها من العدم، وأبدعها وأتقن صنعها؛ لا ينكره إلا من جُنَّت عقولهم، وانقلبت قلوبهم، وفسدت فطرهم، واختلت آراؤهم.

وأكثرُ أعداء الرسل مشركون معترفون بالرب وتفرده بالخلق، وذلك كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم، ومنهم ملاحدةٌ معطلون كفرعون؛ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. على وجه الإنكار، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وجميع الرسل ذكَّروا أممهم المكذِّبين، واحتجوا عليهم بخلق الربِّ للمخلوقات كلِّها، وأنه ربُّ العالمين، وربُّ الأولين والآخرين، وذكّروهم بكثرة النعم من الله عليهم، وكل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فاحتجوا عليهم وبرهنوا على ذلك بأنه الربُّ الخالق المدبر، المنعم بالنعم كلِّها، وأن من كان هذا وصفَه فهو المستحق لإخلاص العبادة له، ولكثرة ذكره وشكره وحمده والثناء عليه.

وهذه كلُّها براهينُ عقلية لا ينكرها إلا من نبذ العقل والدين.

من الأدلة: أيام الله ووقائعه:

وكذلك ذكَّروهم بأيامِ الله ووقائعه في الأمم الطاغية، وذكروهم أن هذه العقوبات ثمرةُ الكفرِ والتكذيب، وأنها نموذج من عقوبات الآخرة؛ وهي عقوباتٌ ومَثُلات شاهدها الناسُ بأبصارهم، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها الأمم والقرون، وتواترت أخبارها.

ولهذا يجعل الله هذا النوعَ من الآياتِ العقليةِ الحسية؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]. ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الروم: ٩]. ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

من الأدلة: ما عليه الأنبياء من الكمالات وما لهم من الآيات:

وكذلك ذكَّرتهم الرسل بما هم عليه من النصحِ الكامل، والعلمِ الواسع، والصدقِ، وأن جميعَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أعلم الخلق، وأصدق الخلق، وأنصح الخلق للخلق، وأنهم معصومون محفوظون عن كلِّ وصف ذميم.

وذَكَروا من معجزاتهم وبراهين صدقهم ما يضطر العبادَ إلى الاعتراف بأنهم أصدق الخلق، وأن كلَّ ما جاءوا به فهو حقٌّ.

وأعظمُ ما دعوا إليه توحيدُ الله ومعرفته، فجميع آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبراهين صدقهم من جملة الأدلة على وحدانية ربهم، وأنه الملك الحق المبين.

من الأدلة: اجتماع كلمة الرسل على توحيد الله:

ثم إن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - الذين هم أعلى الخلق في كل علمٍ وصدقٍ وبيانٍ وفضلٍ وكمالٍ؛ قد اتفقت كلمتهم، واجتمعت دعوتهم على الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والاعتراف لله بوجوب الوجود والكمال المطلق.

وهذا أعظمُ الحقائقِ كلها، وهو التوحيد، قد أجمع عليه أكملُ الخلائق عقولًا وأديانًا وفضائل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

من الأدلة: شهادة الله وشهادة الملائكة وأولي العلم والمهتدين:

ومن ذلك أنه شهد لنفسه - ومن أكبر منه شهادةً - أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِالْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالملائكةُ كلُّهم، وأهل العلم الصحيح الذين أئمتُهم وسادتهم الرسلُ، ثم العلماءُ الربَّانيون، والهداةُ المهتدون؛ شهدوا لله بالوحدانية، لم يتخلَّف منهم أحدٌ.

ومن زَعم أن عنده علمًا، ولم يشهد لله بهذه الشهادةِ؛ فإنه ليس بعلمٍ نافع، بل علم ضارّ، أثّر في قلب صاحبه العلو والاستكبار، وهو العلم المورث عن أعداء الرسل الذين قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فأخبر تعالى أن عند أعداء الرسل علومًا قاوموا بها علوم الرسل، ورضوا بها، واطمأنوا لها، واستهزءوا بما جاءتهم به الرسل، حتى نزل بهم العذاب المحيط، والخزي الفاضح.

وهذا نظيرُ ردِّ الملاحدة والماديين لما جاءت به الرسلُ من التوحيد والإيمان، والسخريةِ بها وبأتباعها بأنهم رجعيُّون مقلدون، أتباعُ كل ناعق، وأنهم متخلفون عن ركب الإنسانية! وما أشبه ذلك مما ينعق به سفهاء الأحلام ضعفاء العقول، الذين قلدوا الملاحدة في كلِّ ما يقولون ويفعلون، واغتروا بعلوم مادية دنيوية لا تغني عن أهلها شيئًا حين فقدت روح الدين، بل صار ضررُها عليهم أكثر من نفعها، وشرها عليهم أكثر من خيرها.

ومن أعظم أضرارها وشرورها عليهم أنهم بها تكبروا على الحق وعلى الخلق، واحتقروا بها علومَ الرسل وأتباعهم؛ التي هي النافعة المزكية للقلوب، المطهرة للأخلاق، المصلحة للأمور كلها، الجالبة للخير والهدى، الدافعة للشرور كلها.

فهؤلاء الملاحدةُ ومن قلَّدهم علومُهم نفخت فيهم روحَ الكبرياء، وصيَّرتهم بطورٍ غير طورهم، ورأوا بها العبادَ أخسَّ من الحيوان البهيم، وهم في الحقيقة الأرذلون.

ومن أضرارها عليهم أنها- وإن رقَّت حضارتَهم ومدنيتهم- ولكنها حضارة ومدنية مادية محضة، مهددة كل وقت بالهلاك والتدمير.

فأي مدنيَّة وحضارةٍ روحُها الظلمُ والجشع واستعباد الضعفاء، والاستعداد بالأسلحة الفتاكة، المهلكة للحرث والنسل ونتائجها وثمرتها التطاحن بين أهلها؛ يصبُّ بعضهم على بعض العذابَ الفظيع؟ فهل هذا إلا أكبرُ دليلٍ وبرهان على كمال قدرة الله وعدله وحكمته؟

وهذه الأمورُ من أيامه ووقائعه وعذابِه الأليم بين الناس، ولم تزدهم هذه المواعظُ والعبرُ إلا عتوًّا ونفورًا، فهم ينتقلون من عذاب شديد إلى أشد منه، وهم في طغيانهم يعمهون، وبمدنيتهم الشنيعةِ وآثارها يتمدحون، ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

ما أعظمها من عِبَرٍ لو أن القلوبَ واعية! وما أدلها على كمال عدل الله وحكمته لو أنَّ الفهومَ صالحة! ولكنَّ القلوبَ غطيت بأغشيةِ الغفلةِ والكبرياء والاغترار، والنفوس

أقبلت على الأمور الضارة، قد خلبتها المناظرُ البراقةُ وسحرت الأبصار: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣، ٤٤].

وأما شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية فقد نطقت بذلك جميعُ الكتب التي أنزلها على رسله، وأنطق بها رسلَه، واتفقت على ذلك دعوتُهم، وتبعهم على ذلك جميعُ أتباعهم من العلماء الربَّانيين والهداة، وجميع طبقات أهل العلم والإيمان.

وكذلك أقام على ذلك الشواهد النفسية والأفقية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

والعالم العلوي والعالم السفلي كلها آياتٌ بيناتٌ، وبراهينُ قاطعاتٌ على وحدانية خالقِها، ومدبرها، ومتقنِ صنعها، ومبدعِها بالخلقِ العجيب، والنظامِ الباهر، والحِكَم التي يعجز الفصحاءُ والبلغاء عن التعبير والإحاطة ببعض آياتها وبراهينها.

من الأدلة: العواقب الحميدة للمؤمنين، والذميمة للكافرين:

ومن شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية والتفرد بالعظمة والكمال: ما عجَّله لأنبيائه وأتباعهم من الآياتِ والمعجزاتِ، والنصر العظيم، والكرامات المتنوعة، والعواقب الحميدة، وما عجَّله لأعدائهم من الهلاك الخاص والعام، والمَثُلاتِ والأخَذاتِ الصوارم، والعواقبِ الوخيمة.

وكذلك ما تركه لأنبيائه وأصفيائه من لسان الصدق، والثناء العام المنتشر، والمحبة في قلوب الخلق، وما لأعدائه من البُغضِ والذم، واللعنِ المتتابع.

كلُّ ذلك آياتٌ بينات على وحدانية الله وصدق رسله؛ قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الصافات: ١٢٠، ١٢١]. ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ

ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ١٠].

من الأدلة: إخبار الله ورسوله ﷺ عن أمور من الغيب:

ومن أعظم البراهين الجامعةِ بين كونها نقليةً وعقليةً حسيةً إخبارُ الله في كتابِه، وفي سنة رسوله ﷺ عن أمورٍ من الغيب كثيرةٍ جدًّا؛ أمورٍ ماضية سابقة لوقت التنزيل، وأمورٍ حاضرة وقعت أيامَ الرسالة، وأمور مستقبَلَةٍ لا تزال تحدث شيئًا فشيئًا؛ موافقةٍ مطابقةٍ لما أخبر اللهُ به ورسولُه على الوجه الذي أخبر، وهي غير محصورة في أنواعها فضلًا عن أفرادها؛ تَستحقُّ أن يصرف لها تصنيفٌ مستقل.

فكل واحد منها برهان، ثم هو مع الثاني ومع الثالث والرابع وما بعده؛ براهين متعددة، وكلها تضطرُّ الناظرَ فيها إلى الاعتراف لله بالوحدانية ولنبيِّه بالرسالة، وأن جميعَ ما أخبر الله به وأخبر رسوله فهو حق لا ريب فيه.

من الأدلة: تحدّي الله لجميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن:

ومن ذلك تحدي الله لجميعِ الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وإخبارُه أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، والتحدي قائمٌ في كل وقت، والعجز من الخلق ظاهرٌ، مع توفر دواعي الأعداء، وحرصهم الشديد على ردِّ ما جاء به الرسول، والقدح في رسالته.

وهذا برهان عظيم يضطرُّ كلَّ عاقلٍ معه إنصافٌ أن يعترفَ بالحق الذي قامت البيناتُ الظاهرة والدلالات الباهرة على صدقه من كل وجه؛ ولله الحمد.

من الأدلة: الآثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد ﷺ:

ومن براهين وحدانية الله وصدق ما جاء به محمد ﷺ: الآثارُ الجليلة التي نشأت وترتبت على رسالة محمد ﷺ.

فإنه بعث في أمة أمية، والأرض مملوءة من الجهل والشرك والشرور المتفاقمة، فهداهم الله به من الضلالة، وعلَّمهم به بعد الجهالة، واستقامت أخلاقهم وصلحت أعمالهم، وامتلأت الأرض من الخير والهدى والصلاح، وانتشرت الرحمة والعدل، وتم به الفلاح والنجاح.

وفتحت القلوبُ بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة والإيمان، وأظهر الله دينه على سائر الأديان، وانتشر وقبلته القلوب المستقيمة في جميع الأقطار، وزهق به كل باطل ومحال.

ولم يزل أهلُه ظاهرين على غيرهم حين كانوا مستمسكين به، وقائمين حق القيام به، حتى حصل الانحراف من أهله في العقائد والأخلاق، والأعمال الدينية والدنيوية، فزالت عنهم بذلك آثارُه الجليلة وتبدلوا بأضدادها.

أفليس في هذا أكبرُ برهانٍ على أن هذه الشريعة شَرَعها العزيز الحكيم، ونصرها الرب العظيم؟ وأن الخيرَ كلَّه ملازمٌ لها وتابع لتعاليمها وأخلاقها؟ وأنها تنزيلٌ من حكيم حميد؟ وأن أخبارها كلها صادقة تشهد العقول بصدقها؟

ولم يأتِ منها خبرٌ واحد صحيح يناقض الواقعَ ويخالف المحسوسَ؛ فإنها لا تأتي بما تحيله العقولُ، وربما أتت بما تحارُ فيه العقولُ ولا تهتدي إليه، لأن في الشريعة من التفاصيلِ العظيمةِ الخبريةِ والحُكميةِ ما لا تصل إليه عقول العقلاء، ولا تهتدي إليه فطنة الفطناء.

ولم يأت علم صحيح أو نظرية صادقة متفق عليها بين العقلاء تناقض ما جاء به الرسول محمد ﷺ، وهل في البراهين اليقينية أعظم من هذا البرهان وأوضح من هذا البيان؟ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]؛ صدقًا في إخبارها، وعدلًا في أحكامها وشرائعها.

من الأدلة: إحكام الشريعة وصدق أخبارها واتفاق أحكامها:

ومن البراهين على وحدانية الله وصدق رسوله وحقيقة ما جاء به: أن الشريعةَ كلَّها محكمةٌ في غاية الحسن والانتظام، متصادقة أخبارها، متفقة حقائقها، متعادلة أحكامها؛

لا يمكن البَشَرَ أن يقترحوا مثلها في الحسنِ، وموافقتِها لكل زمان ومكان، ومجاراتِها لجميع الأحوال، وجريانِها على الهدى والرشد والسدادِ والصلاح، لا تناقضَ فيها ولا اختلاف، ولا عبث ولا نقص ولا اختلال.

وكلما أمعن فيها العالِمُ البصيرُ عَلِم أنها أصدقُ الأخبار وأنفعها للقلوب، وأنها أحسنُ الأحكامِ وأصلحها في عباداتها ومعاملاتها، وتفصيلها للحقوق الخاصة والعامة، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

فنبّه الله أولي الألباب والعقولِ على هذا البرهانِ العظيم، الذي هو من أعظم البراهين وأوضحها وأجلاها على أنه من عنده، وأنه حقٌّ كله، وأن ما ناقضه فهو الباطل، قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].

أما جاء هذا الدين بكل صدقٍ وصدَّق الصادقين؟ أما زجر عن الكذب وأبعد الكاذبين؟

أما حثَّ على العدل الكامل في حقوق الله وحقوق العباد؟ أما نهى عن الظلم والجور والشرور كلها والفساد؟

أما تأسس على الإيمان والإخلاص والتوحيد ونهى عما ينافي ذلك من الشرك والتنديد؟

أما أمر ببرِّ الوالدين وصلة الأقارب، والإحسان إلى الجيران والمساكين، والإحسان إلى عموم الخلق؛ حتى البهائم العجم، وأخبر أنه يحب المحسنين؟

أما أمر بوفاء العهود والعقود والوعد والأيمان؟ ونهى عن الغدر والنكث والعدوان؟

أما حث على فعل الأسباب النافعة في الدنيا والدين؟ وأمرنا ألا نعتمدَ عليها، بل نعتمد على مسبِّبها ونرجو فضل رب العالمين؟

أما أحل لنا جميعَ الطيبات وحرَّم علينا كلَّ خبيث؟ وحثنا على كل أمر نافع وحذرنا عن المضار؟

أما أمر بالصبر على المكاره والشكر عند المحابِّ والمسار؟

أما نهانا عن الهلع والجزع والجبن والخور والأخلاق الرذيلة؟ أما حثنا على القوة والشجاعة والعفة وجميع الأخلاق الجميلة؟

أما أمر بكل معروف شرعًا وعقلًا وفطرةً؟ ونهانا عن كل منكر شرعًا وعقلًا وفطرةً؟

فما أمر بشيء إلا رآه أهل العقول السليمة أحسنَ الأمورِ وأعدلَها، ولا نهى عن شيء إلا عن أقبحِ الخصال وأرذلِها.

وضَّح العقائدَ الصحيحةَ النافعةَ التي لا تصلح القلوب إلا بها، وأوجبها وجعلها أساسًا تنبني عليه الأقوالُ والأفعالُ، وأمورُ الدين والدنيا، وجاء بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة التي تُصْلِح الأفرادَ والجماعات، وتستقيم بها العباداتُ والمعاملات.

فأيُّ خيرٍ وهدى وصلاح عاجل وآجل لم يبينه ويدعُ إليه؟ وأيُّ شرٍّ وفساد وضرر عاجل وآجل لم يحذِّر عن طرقه ومسالكه؟

وأيُّ أصلٍ من أصوله، وقاعدةٍ من قواعده، وخبرٍ من أخباره، وحكمٍ من أحكامه ناقضته العلومُ الصحيحة أو خالفته العقولُ والنظم المستقيمة؟

بل قامت البراهينُ التي لا تنقض على أن كل شيء أُسِّس على غيره فهو ضرر وخراب، وكل بناء بني على غير تعاليمه وأحكامه فآخره الانهيارُ والتباب، وكلُّ نظام استمد من غيره فعواقبه وخيمة؛ لأن الذي شرعه عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء رحمة وبرًّا، وتكفّل لمن قام به واستقام عليه بالسعادة والفلاح، وضمن لمن تعبّد به ودان لله به الثواب والنجاح.

فهو أكبرُ البراهينِ على عظمة الله ووحدانيته وسلطانه، وأعظمُ الآيات الدالة على حكمته وحمده وجوده وامتنانه، فهو الهدى والرحمة والشفاء والنور، وهو الرشاد والصلاح لكلِّ الأمور: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

فلهذا القرآنِ وهذه الشريعةِ أكملُ الصفات وأجلُّ النعوت، ومَخْبَرُها - في جميع مواردها ومصادرها - يفسِّر هذه الأوصافَ الجليلةَ التي لا سعادة للبشر إلا بعلمها وسلوكها والاهتداء بأنوارِها، والتحقق بحقائقها وأسرارِها.

فصل
من الأدلة: صدق الرسل ووجوب توقيرهم وتقديم أقوالهم

ومن براهين وحدانيته وكماله وتوحده بالعظمة والكمال: أنه قد ثبت بالبراهين والآيات المتنوعة- التي لا يمكن إحصاؤها؛ لا إحصاء أنواعها، ولا أفرادها - صدقُ الرسل، وأن ما جاءوا به هو الحق، وخصوصًا إمامهم وسيدهم محمدًا ﷺ.

وأنه يجب على الخلق أن يعرفوا قَدْر الأنبياءِ، وتميزَهم عن أصناف الخلق بكل أوصاف

الفضائل، وأن الإيمان بهم ومحبتهم وتوقيرهم وتبجيلهم من أفرض الفرائض وأوجب الواجبات.

وأنه يجب أن يكون لهم في قلوب العباد من العظمة والخضوع لما جاءوا به ما يضمحِلُّ معه جميعُ المقالات، وألا تُعارَض أقوالهم بمعقولاتٍ أو قياساتٍ أو ذوقياتٍ، أو غيرها مما ينتمي إليه أهل الباطل، بل أقوال الرسل لا يتم للعبد إيمانٌ ولا إسلام حتى يجعلها هي الأصلَ الأصيلَ، والأساسَ الذي يُردُّ إليه كل شيء.

وقد عُلِم أن زبدةَ دعوتِهم وأساسها الدعوة إلى توحيد الله ومعرفته، وإلى عبوديته وإخلاص العمل له، وقد قامت البراهينُ التي لا تعارض ولا تمانع على صدقهم، وصحة ما جاءوا به.

فتعيَّن على كل مكلَّف- له دين أو عقل- أن يعترفَ بما جاءوا به بغير قيد ولا شرط، لأن الأصلَ صحيحٌ، والأساسَ ثابتٌ ثبوتًا يقينيًّا، والمعارضات كلها باطلة؛ لأن ما عارض الحق فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فمن خَضَع لمعقولاتِ المتحذلقين، أو نظريات المبطلين، وقدمها على ما جاءت به الرسل؛ فقد برهن على نقصان عقله، بل فقده لدينه.

هذا كلُّه مع التنزُّل على فرض وجود معقولاتٍ تناقض ما جاءت به الرسل؛ فكيف والمعقولاتُ الصحيحة تؤيد ما جاءت به الرسل، وهي من أكبر الشواهد على صدقهم، وإنما تقع المعارضة بين معقولات أناس سفهاء الأحلام، متكبرين بمعلوماتهم وآرائهم الضئيلة، والله المستعان.

كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية في آيات الأنبياء:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (آياتُ الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم؛ ليست مما تكون لغيرهم، فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آياتهم التي كانت

في حياة قومهم، وآياتهم التي فرَّق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم؛ بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء؛ ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم.

وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح ومن ركب معه في السفينة، فهذا لم يكن قط في العالم نظيره.

وكذلك إهلاك قوم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٧، ٨]. مع كثرتهم وقوتهم وعظم عمارتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية؛ مسخرةٍ عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسومًا، حتى صاروا كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، ونجا هود ومن اتبعه، فهذا لم يكن له نظير في العالم.

وكذلك قومُ صالح؛ أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين، أهلكوا كلهم بصيحة واحدة، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قومُ لوطٍ أصحابُ مدائن متعددة؛ رفعت إلى السماء ثم قلبت عليهم، وأُتبعوا بحجارة من السماء تتبع شاذَّهم، ونجا لوط وأهله إلا امرأته أصابها ما أصابهم، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قوم فرعون وموسى، جمعانِ عظيمان ينفرق لهم البحر؛ كلُّ فِرْق كالطَّود العظيم، فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين، فإذا سلك الآخَرون انطبق عليهم الماء، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

فهذه الآياتُ تعرِف العقلاءُ عمومًا أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم، وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جربٌ ونحو ذلك، وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر، بل كلُّ حادث من آيات الله، ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد.

وكذلك الكعبةُ؛ فإنها بيتٌ من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من

عدو، ولا عندها بساتينُ وأمورٌ يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها يأتيها خاضعًا ذليلًا متواضعًا في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الأرض؛ محبةً وشوقًا من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبِنْية غيرها، وهذا مما حيَّر الفلاسفةَ ونحوهم.

وكذلك ما فعل اللهُ بأصحابِ الفيل لما قصدوا تخريبها، قصدها جيشٌ عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منها، فبرك الفيل وامتنع عن المسير إلى جهاتها، وإذا وجَّهوه إلى غيرها توجَّه، ثم جاءهم من البحر طير أبابيل، أي جماعات في تفرقةٍ؛ فوجًا بعد فوج، رَموا عليهم حصى أهلكوا بها كلُّهم، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم، فآيات الأنبياء هي آيات وأدلة على صدقهم.

ومن هذا سنة الله في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم وبين مكذبيهم).

ثم ذكر الآياتِ في إهلاك المكذبين للرسل ونجاة الرسل، قال:

(وهذه الأخبار كانت منتشرة ومتواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء وعقوبة لمكذبيهم، ولهذا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار، والقرآن آيته باقية على طول الزمان؛ من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدي فيه ويتلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]... الآية.

فنفسُ إخبارِ الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعُه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق دليلٌ على أنه كان خارقًا يُعجِز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافقُ والمخالف، والعربُ والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرأه الناس وقال إنه مثله.

وهذا يعرفه كلُّ واحد، وما من كلامٍ تكلَّم به الناس- وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظًا ومعنى- إلا وقد قال الناسُ نظيره وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا أو خطابةً أو

كلامًا في العلوم، والحكمة، والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك، وما وجد من ذلك شيء إلا وُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآنُ مما يعلم الناسُ عربُهم وعجمُهم أنه لم يوجد له نظير؛ مع حرص العرب وغير العرب على معارضته.

فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية؛ كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم...) إلى ما قال رحمه الله.

فصل
من الأدلة: أن ما جاء به الرسل هو الحق النافع، وما خالفه فباطل

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وصدق رسله: أن الرسلَ كلهم- وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمدا ﷺ - قد جاءوا بالحق النافع، فأخبارهم كلُّها حق وصدق، وأحكامهم كلُّها حق وعدل وحكمة، فلم يبق حق إلا جاءوا به وبيَّنوه وحثُّوا الخلق عليه، ولا باطل إلا وضَّحوه وحذَّروا الخلق منه.

وهذا الأصل متفَقٌ عليه بين جميع المعترفين بالنبواتِ اعترافًا صحيحًا؛ فمن ادعى عقلًا ومعقولًا يناقض هذا الأصلَ الذي جاءت به الرسلُ عرفنا يقينًا أن معقوله فاسد، وأن دعواه باطلة؛ فإن العقل الصحيح لا يخالف الحق الصريح.

ومما يوضح هذا ويؤيده: أن الحق الذي جاءت به الرسلُ - خبرًا وحكمًا - حقٌّ واضحٌ معلومٌ معصومٌ؛ لا ينقسم إلى محمودٍ ومذمومٍ؛ بل كلُّه حقٌّ محمود، وأما ما ادَّعاه المخالفون

للرسل من المعقولات؛ فإنهم يعتمدون على المعقولات التي تنقسم إلى حق وباطل، ومحمود ومذموم باتفاق العقلاء.

وأهلها مع ذلك متباينون تباينًا عظيمًا؛ كلُّ طائفة لها معقولات تنصرها وتقدح في معقولات غيرهم، وهم في خبطٍ وخلطٍ، وخلاف لا ينضبط، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

فهل اتباع هؤلاء الضالين الجاهلين المتخبطين أولى من اتباع رسل الله الذين هم أعلم الخلق، وأهدى الخلق، وأصدق الخلق، وأفضل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال؟

وقد سلموا من كل نقص وعيب وعثرة، وقد عصموا في أقوالهم وأفعالهم، وقد أنزلت عليهم الكتب العظيمة من الرب العظيم؛ التي هي مادة الهدى ومنبع الرحمة والخير والرشد والنور، وأصل السعادة والفلاح.

وقد نوَّع الله البراهين الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، وأنه الحق وما سواه ضلال، وأنه نور ورحمة وخير، وما سواه ظلمات وشرور وفساد: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

أما والله لقد وضحت السبل للسالكين، وظهرت براهينُ الحق وآياتُه للموقنين، وبان الهدى والنور اليقين للمستبصرين، وقامت الحجة على المعاندين.

ولهذا كان جميع الأشقياء المخالفون للرسل يعترفون بأنهم خالفوا الرسل وخالفوا العقل، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

من الأدلة: الفطرة في قلوب العباد، وخصوصًا الأنبياء:

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وغناه، وافتقار الخليقة كلها إليه: ما فطر الله عليه عباده، وخصوصًا خواصّ الخلقِ من الأنبياء والرسل؛ أئمةِ الهدى ومصابيحِ الدُّجى، وأهلِ العقول الوافية والألبابِ الرزينة، الذين هم الطبقة العليا من الخلق.

فإنهم فُطروا على الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وأنه المقصود المعبود في كل الأحوال، وصار هذا الأمرُ في قلوبهم أعظمَ الحقائق كلِّها، وأوضحَها وأجلاها، وهي علوم بديهية ضرورية لا يمكن أحدًا دفعُها.

وليس عند المنكِر لذلك ما يدفع هذا العلمَ اليقينيَّ والطريقَ البرهانيَّ، إلا عدمُ علمه بذلك؛ لفساد إدراكه، واشتغاله بالعقائد الفاسدة، وإعراضه عن طلب الهدى.

ومن المعلوم المتفق عليه بين العقلاء أن عدمَ العلم بالشيء ليس من الشُّبَه في شيء، فضلًا عن أن يكون برهانًا يدفع أقوى البراهين وأجلها وأصدقها من العالِمين الموقنين؛ الذين هم أعظم الخلق علومًا، وأبلغهم يقينًا، وأصدقهم وأبرّهم عقولًا وأصفاهم أفئدة.

فهذا اليقين في قلوب هؤلاء- الذين هم سادات الأولين والآخرين- لا يساويه ولا يقاربه شيء، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦-٨].

فهذا العلم اليقيني البديهي الضروري المتفقُ عليه بين أهل العلم واليقين، وأعلى الخلق في كل صفة كمال، وهو أكمل علم عندهم وأوضحه وأجلاه؛ محالٌ وممتنع أن يقاربه علمٌ بشيء من الحقائق اليقينية أصلًا؛ فمن شك فيه أو تردد فقد برهن على نفسه بالجهل والضلال والحمق، وهو مكابرة واضحة، والله الموفق.

من الأدلة: الإجماع من المسلمين وممَّن عرف حال النبي ﷺ:

ومن أعظم البراهين على أن الحق هو ما جاء به الرسول محمد ﷺ، في جميع الحقائق الصحيحة النافعة: الإجماعُ من جميع المسلمين ومن جميع من عرف حال النبي ﷺ أنه أعلمُ الخلق على الإطلاق بالله وبالحقائق النافعة، وأعظمُهم بيانًا، وأوضحُهم عبارةً، وأفصحُهم وأنصحُهم للخلق.

وهذه الأمور إذا كمُلت- وقد كمُلت- على وجه الكمال التامِّ في محمد ﷺ؛ بحيث لا يدانيه ولا يقاربه أحدٌ في العلم والبلاغة والنصح؛ عُلِم يقينًا ضروريًّا أن جميع ما جاء به هو الحق الذي لا ريب فيه.

لا سيَّما في باب التوحيد، وبيانه العظيم في أن لله الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا؛ التي تفرد بها وتوحد، ولم يشاركه فيها مشارك، وهذا وحده برهان كافٍ شافٍ لمن له أدنى عقل أو ألقى السمع وهو شهيد.

فيا عجبًا لمن يعارض ما جاء به هذا النبيُّ العظيم؛ الذي جاء بشريعة ما طَرَق العالمَ أعظمُ منها ولا أكملُ ولا أصحُّ؛ بأقوال الماديين الذين سَفهت أحلامهم وفَسَدت عقولهم، واتضح أن جميع ما عارضوا به الأديان جهل وضلال ومكابرة صريحةٌ، وذلك معروف بالتتبع لجميع المسائل التي عارضوا فيها الرسل!

قال تعالى في حقِّهم وحق أمثالهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

والحاصل أن جميعَ الموجودات، وجميعَ الحوادث والمعارف والحركات أدلةٌ وبراهين على وحدانية ربِّ الأرض والسماوات؛ من الذي أنشأ المخلوقاتِ من العدم؟ من الذي دبَّر الأمورَ وصرَّفها؟ من الذي خلق السماوات والأرض وحفظها بقدرته وأمسكها؟ من الذي خلق الآدميَّ من نطفة فإذا هو خصيم مبين؟ من الذي أمات وأحيا وأسعد وأشقى،

وأهلك الأمم الطاغية بأنواع المَثُلات، ونجَّى الرسل وأتباعهم؟ إن في ذلك لعبرًا وبراهينَ واضحات.

من الذي خلق الحبَّ والنوى وفجَّر الأرض بالأنهار والعيون؟ أليس ذلك من آثار من يقول للشيء: كن، فيكون؟ من الذي أعطى كلَّ شيء خلقَه اللائقَ به؛ ثم هدى كلَّ مخلوق إلى مصالحه التي لا يصلح له سواها؟ من الذي علَّم العلوم المتنوعة والفنون؟

من الذي أخرج الثمارَ الرَّطبة من يابس الغصون؟ من الذي أحكم الأشياءَ بغاية الحكمة وكمال الانتظام وأتقنها؟ من الذي أحسن كل شيء صنعه؟ وشرع الشرائع وجعلها في غاية الهدى والصلاح وأتقنها؟

من الذي سيَّر السحابَ الموقَرَةَ بالمياه العظيمة، فأصاب بها البلاد والعباد؟ أليس ذلك الذي يعيد الخلقَ بعد موتهِم إلى يوم الحشرِ والتناد؟

يا عجبًا لنفوس تنكر الربّ والبعثَ؛ ما أضلَّها وأعماها! كيف لا تعترف بهذه القضية التي هي أعظم القضايا وأوضحها وأجلاها؟!

إله عظيم لم يزل إلهًا، ومَلِكٌ كبيرٌ مُلْكه لا يتناهى، شَمِل العالمين برحمته ورزقه فلا يترك ذرةً ولا ينساها.

يسمع أنين المُدْنِفين[1]، ويجيب أسئلة السائلين، ويجود بمغفرته ورحمته على التائبين.

(١) الدنف: المرض الملازم؛ على ما في القاموس المحيط.

الخاتمة

فنسألك يا الله بأسمائك الحسنى وأوصافك العليا، أن ترزقنا إيمانًا كاملًا، ويقينًا صادقًا، وتنفعنا بآياتك المسموعة، وآياتك المشهودة، وآياتك الأفقية، وآياتك النفسية؛ فإنها براهين للموقنين، وآيات للمستبصرين، وحجة على المعاندين والمكابرين، ورحمة منك وإحسان على الخلق أجمعين.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، الأحياء منهم والميِّتين. آمين.

بخط: عبد الله السليمان السلمان

٢٠ جمادى الآخرة ١٣٧٠

قال ذلك الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٢٩)

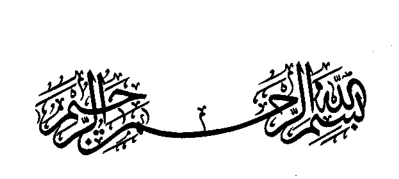
الدرة البهية

شرح القصيدة التائية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله





الحمد لله رب العالمين، وأشهد أنه الإله الحق الملك المبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وصحبه، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فقد طلب مني بعض الإخوان أن أشرح المنظومة التائية في القدر لشيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، لما فيها من التحقيق العظيم في مسألة القضاء والقدر ولمتانتها وصعوبة فهمها واحتياجها إلى شرح متوسط يوضحها، ويكشف عن معانيها ولكون المقام والموضوع مقاما مهمًّا جدًّا، والحاجة بل الضرورة داعية إلى علمه والتحقق به معرفة واعتقادًا.

وهذا النظم قد أتى فيه الشيخ بالعجب العجاب، وبيّن الحق الصريح، وكشف الشكوك والشبهات التي طالما خالطت قلوب أذكياء العلماء، وحيرت كثيرًا من أهل العلم والفضلاء. فأجبت هذا السائل لما طلبه، وأرجو الله وأسأله أن يعين على تحقيقه وتوضيحه، فإن التوضيح والبيان خصوصًا في هذا المقام أولى من الاختصار، وذكر الشواهد والأمثلة الموضحة أولى من الاقتصار، وأسأله تعالى أن يجعل الداعي إليه إرادة وجهه الكريم وإرادة النفع للمشتغلين به.

والشيخ رحمه الله وقدس روحه نظمها جوابًا لسؤال أورده عليه من قال: إنه ذمي؛ ليشبه على المسلمين وليشككهم في أصول الدين، فإن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أصول الإسلام ومبانيه العظام.

وهذا نص السؤال:

أيا علماء الدين ذمي دينكم	تحير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم	ولم يرضه مني فما وجه حيلتي
دعاني وسد الباب دوني فهل إلى	دخولي سبيل بيّنوا لي قضيتي
قضى بضلالي ثم قال ارض بالقضا	فهل أنا راض بالذي فيه شقوتي
فإن كنت بالمقضي يا قوم راضيا	فربيَ لا يرضى بشؤم بليتي
وهل لي رضا ما ليس يرضاه سيدي	فقد حرت دلوني على كشف حيرتي
إذا شاء ربي الكفر مني مشيئة	فهل أنا عاصٍ باتباع المشيئة
وهل لي اختيار أن أخالف حكمه	فبالله فاشفوا بالبراهين غلتي

هذا آخر السؤال المذكور، وحاصله أنه إيراد على مذهب الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله، وأنه لا قدرة له على شيء منها، بل هي عندهم واقعة بغير اختياره، وهذا القول باطل بالكتاب والسنة وباطل بالعقل والحس، كما يأتي- إن شاء الله- بيانه.

وجميع المسلمين من جميع الطوائف أهل السنة وغيرهم ينكرون هذا المذهب ويتبرءون منه، فيقول هذا المشبه على المسلمين المشكك لهم بانيًا على مذهب الجبرية الذي يتبرأ منه جميع الطوائف سوى غلاة الجهمية من الجبرية، يقول: إذا كان الله قضى عليّ بالكفر وقدر عليّ ألا أكون مسلمًا أو قدر عليّ المعاصي، وألا أكون طائعًا، فكيف لي الخلاص من الكفر والمعاصي، وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة بعدما قضى عليّ الكفر والمعصية، فهل أكون معذورًا إذا تجرأت على الكفر والفسوق والعصيان، وأنا لا حيلة لي في الانفكاك عنها، وكيف أجمع بين الرضا بالقضا وبين الرضا بالمقضي من الكفر والمعاصي، فإن الله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، فكيف قدرها عليّ، وهو لا يرضاها؟ هذا حاصل هذا السؤال.

وجواب هذا السؤال على وجه الإجمال بسيط ولله الحمد، فإنه لا يرد على مذهب جمهور طوائف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى المشهود لهم بالعلم والإيمان، بل ولا على مذهب المعتزلة والقدرية والخوارج وغيرهم من أهل البدع، فإن الجميع يقولون بما جاء به الكتاب والسنة من إثبات الأصلين:

أحدهما: الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها أعيانها وأوصافها وأفعالها بقضاء وقدر لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الأصل الثاني: أن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وغيرها واقعة بإرادتهم وقدرتهم، وأنهم لم يجبروا عليها، بل هم الذين فعلوها بما خلق الله لهم من القدرة والإرادة، ويقولون: لا منافاة بين الأمرين، فالحوادث كلها التي من جملتها أفعال العباد، بمشيئة الله وإرادته، والعباد هم الفاعلون لأفعالهم المختارون لها، فهم الذين اختاروا فعل الخيرات وفعلوها، واختاروا ترك المعاصي فتركوها، والآخرون اختاروا فعل المعاصي وفعلوها، واختاروا ترك الأوامر فتركوها، فاستحق الأولون المدح والثواب واستحق الآخرون الذم والعقاب ولم يجبر الله أحدًا منهم على خلاف مراده واختياره، فلا عذر للعاصين إذا عصوا، وقالوا: إن الله قدرها علينا فلنا بذلك العذر. فيقال لهم: إن الله قد أعطاكم المِكْنَة والقدرة على كل ما تريدون، وأنتم بزيغكم وانحرافكم أردتم الشر ففعلتموه، والله قد حذركم وهيأ لكم كل سبب يصرف عن معاصيه وأراكم سبيل الرشد فتركتموه وسبيل الغي فسلكتموه.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا المقام فإنه من المعلوم لكل أحد أن كل فعل يفعله العبد وكل كلام يتكلم به فلا بد فيه من أمرين: قدرة منه على ذلك الفعل والقول، وإرادة منه، فمتى اجتمعا وجدت منه الأقوال والأفعال.

والله تعالى هو الذي خلق قدرة العبد وإرادة العبد، وخالق السبب التام خالق للمسبب، فالله تعالى خالق أفعال العباد، والعباد هم الفاعلون لها حقيقة، فهذا الإيراد الذي أورده هذا المشكك وما أشبهه من الإيرادات التي يحتج بها أهل المعاصي بالقدر يجيبونهم بهذا

الجواب المفحم، فيقولون: دلت أدلة الكتاب والسنة الكثيرة على أن الله خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير، وأن كل شيء بقضاء وقدر، الأعيان والأوصاف والأفعال.

ودلت أيضًا أدلة الكتاب والسنة أن العباد هم الفاعلون لفعلهم حقيقة بقدرتهم واختيارهم؛ فإنه تعالى نسب إليهم وأضاف إليهم كل ما فعلوه من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وأنه تعالى مكنهم من هذا ومن هذا، ولكنه تعالى حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وولى الآخرين ما تولوا لأنفسهم حيث اختاروا الشر على الخير، وأسباب العقاب على أسباب الثواب، وهذا كما أنه معلوم بالضرورة من الشرع فهو معلوم بالحس الذي لا يمكن أحدًا المكابرة فيه، فإن العبد يفرق بين أفعاله التي يقسر ويجبر ويقهر عليها، وبين أفعاله التي يختارها ويريدها ويحب حصولها، فهذا الجواب المجمل.

وأما الجواب المفصل فقد ذكره الشيخ قدس الله روحه فقال:

فصل

سؤالك يا هـذا سـؤال معاند ... مخاصم رب العرش باري البرية
فهذا سؤال خاصم الملأ العُلَى ... قديما به إبليس أصل البلية
ومن يك خصمًا للمهيمن يرجعن ... على أم رأس هاويًا في الحفيرة

بيّن الشيخ في أول الجواب أن هذا السؤال والإيراد إنما صدر عن رجل معاند مكابر مخاصم لله، فإن هذا السؤال في الحقيقة موجه إلى الله، والسائل قد أورده على ربه، واعترض عليه وزعم أن الله ظالم له، حيث قدر عليه الكفر والمعاصي وعذبه عليه، وكل من عاند الله فحجته داحضة باطلة وهو مخصوم محجوج، وهذا السؤال من جنس سؤال إبليس حيث قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. فقال: فبما أغويتني، ولم يقل: غويت، وإبليس هو الذي غوى واستكبر عن أمر ربه حيث أمره بالسجود لآدم فقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]. فإبليس خاصم الله وباداه بالمعصية واستكبر عن أمره واستكبر على آدم.

فكل من خاصم عن نفسه أو عن غيره في معصية الله فهو وارث إبليس، وعنه أخذ هذه الخصومة، فكل من خاصم الحق فُلِجَ وخصم، كما أن كل من خاصم بالحق فَلَجَ وغلب. ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. فكل من نصر الباطل فهو من خصوم الله. ولكن أصناف القدرية الثلاثة هم أحق الناس بهذا الوصف.

فلهذا قال الشيخ:

وتدعى خصوم الله يوم معادهم   إلى النار طرًّا فرقة القدرية
سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا   به الله أو ماروا به للشريعة

يشير الشيخ إلى ما رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من تكلم في شيء من القدر سئل عنه يوم القيامة**»[1]. أي سؤال تقريع وتوبيخ وهو كما ذكر الشيخ يشمل طوائف القدرية الثلاث: القدرية النفاة، والقدرية المجبرة، والقدرية المشركين، فكل الطوائف الثلاث خاضوا في القدر خوضًا منحرفًا، وبعضهم أغلظ من بعض، وكلهم عن الصراط ناكبون.

فأما القدرية النفاة فهم الذين يطلق أكثر العلماء عليهم اسم القدرية، وهم الذين ورد فيهم الحديث الذي في السنن: «**إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله**»[2]. وأكثر المعتزلة على هذا المذهب الباطل، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره، فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم، بل هم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالًا بدون مشيئة الله، ويزعمون أنهم بهذا القول ينزهون الله عن الظلم؛ لأنه لو قدر المعاصي عليهم ثم عذبهم عليها لكان ظالمًا لهم، وللزم من إثبات قدرة الله على أفعالهم الجبر الذي هو باطل بالشرع والعقل كما تقدمت الإشارة إليه، ولكنهم بهذا القول الباطل ردوا نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة تثبت وتصرح أن جميع أعمال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره، كما أجمع المسلمون أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وسُمُّوا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم أشبهوا المجوس الذين أثبتوا خالقًا للخير وهو الله، وخالقًا للشر وهو إبليس على زعم المجوس، وهؤلاء القدرية أثبتوا أن الله خالق للعباد لأعيانهم وأوصافهم، ولم يثبتوا أنه خالق لأفعالهم، فأخرجوا أفعال العباد عن قدر الله ولم

---

(١) ابن ماجه (٨٤).

(٢) ابن ماجه (٩٢)، والأوسط للطبراني (٤٤٥٥).

يهتدوا إلى ما اهتدى إليه أهل السنة من أن الله كما أنه الذي خلقهم وخلق ما به يفعلون من قدرتهم وإرادتهم، ثم فعلوا الأفعال المتنوعة من طاعة ومعصية بقدرتهم وإرادتهم التي خلقها الله باتفاق المسلمين، حتى هؤلاء القدرية يثبتون أن قدرة العباد وإرادتهم مخلوقة لله، وحيث وقعت أفعال العباد بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله في العبد ليتمكن بهما من كل ما يريده من أقواله وأفعاله، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

فالعبد المؤمن هو الذي يصلي ويصوم ويتصدق ويحج ويعمل أعمال البر بما مكنه الله وأعطاه من قدرة وإرادة يتمكن بها من أفعال الخير، والعبد الكافر أو الفاجر هو الذي يشرك ويقتل ويزني ويسرق ويعمل أجناس المعاصي بما مكنه الله به وأعطاه من قدرة وإرادة، يفعل بها تلك الأفعال، والقدرة والإرادة اللتان أعطاهما الله للعبد هما خير ونعمة وفضل من الله، لكن العبد العاصي هو الذي وجه قواه وأفعاله إلى أعمال الشر فلم يكن له على الله حجة، بل لله عليه الحجة البالغة، نهج الله له طريق الخير فأباه، وسلك بنفسه طريق الشر وارتضاه فلا يلومن بعد ذلك إلا نفسه.

فمن احتج مع ذلك على ربه وقال: إنه قدر عليَّ المعاصي فلا لوم عليَّ، قيل له: هذه حجة أبطلها الله في كتابه حيث قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩]. فتضمنت هاتان الآيتان أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل من وجوه:

منها: أن هذا هو احتجاج المشركين.

ومنها: أن هذا الاحتجاج بالقدر على الشر لم يمنعهم من عذاب الله، حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾.

ومنها: أن الله وبخهم على ذلك وطالبهم بالبرهان في قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ

﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾. فنفى عنهم العلم وأخبر أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئًا.

ومنها: أنه أخبر أن له الحجة البالغة على جميع من تجرأ على معاصيه، فمن احتج بالقدر على المعاصي فهو من أظلم الظالمين، وأيضًا فهذا المحتج بالقدر المقيم لعذر نفسه على ربه هو يكذب نفسه بنفسه، فإنه لو تجرأ عليه أحد بتعدٍّ على ماله أو بدنه أو محبوباته، واعتذر بالقدر لم يقبل عذره، فكيف يقبل عذر نفسه على تجريه على ربه، فالمحتج بالقدر على المعاصي يكذبه الكتاب والسنة والعقل، وضميره يكذبه كما ذكرنا، وإنما يقصد باحتجاجه دفع الشنعة عن نفسه. وكانت طائفة القدر في أول أمرهم ينكرون العلم وينكرون القدر فيقولون: إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها ولا تعلقت بها مشيئة الله، فلما شنع عليهم المسلمون وكفروهم بذلك تحللوا عن قولهم الأول، فأثبتوا العلم وأنكروا القدر.

ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد وغيره يقولون: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أنكروا العلم كفروا وإن اعترفوا به خصموا، يعني أن القدرية النافين لعلم الله بأفعال عباده جاحدون لنصوص الكتاب والسنة المصرحة بإحاطة علم الله بما كان وما يكون من أعيان وأوصاف وأفعال مما دق وجل، فمن أنكر ذلك فقد كذب الكتاب والسنة صريحًا، وذلك هو الكفر، وإن اعترفوا بإحاطة علم الله بكل شيء وبأفعال العباد قبل وقوعها كما هو القول الذي استقر عليه مذهبهم خصموا، ووجه ذلك أنهم يقولون: إن أفعالهم لا تتعلق بها مشيئة الله وإرادته، وإنما هم مستقلون بها من كل وجه، إذا كان هذا قولهم في مشيئة الله مع قولهم: إن الله يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها، فهذا تناقض محض، كيف يعلمها وهو لم يقدرها ولم يردها؟! هذا محال ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فيلزمهم أحد أمرين: إما ألا يتناقضوا فينفوا الأمرين؛ علم الله بأفعالهم ومشيئته لها؛ فيتضح كفرهم، وإما أن يرجعوا إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه المسلمون، وهو أنه كما أنه بكل شيء عليم وبكل شيء محيط؛ فإنه على كل شيء قدير، ومن جملة الأشياء أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، فهو تعالى يعلمها إجمالًا وتفصيلًا قبل أن يعملوها،

وأعمالهم وأفعالهم داخلة تحت مشيئة الله وإرادته، فقد شاءها منهم وأرادها ولم يجبرهم لا على الطاعات ولا على المعاصي، بل هم الذين فعلوها باختيارهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فهذه الآية فيها رد على القدرية النفاة وعلى القدرية المجبرة، وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة، فقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾. فأثبت لهم مشيئة حقيقية وفعلًا حقيقيًّا، وهو الاستقامة باختيارهم؛ فهذا رد على الجبرية، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. أخبر أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ففيها رد على القدرية القائلين: إن مشيئة العباد مستقلة ليست تابعة لمشيئة الله، بل عندهم يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله ولا يُقَدِّره.

ودلت الآية على الحق الواضح؛ وهو أن العباد هم الذين يعملون الطاعات والمعاصي حقيقة، ليسوا مجبورين عليها، وأنها مع ذلك تابعة لمشيئة الله كما تقدم كيفية وجه ذلك. والآيات الدالات على هذا كثيرة جدًّا، فهذه إحدى الطوائف الثلاث المخاصمين لله، فإنهم أنكروا عموم مشيئته وقدره، وجحدوا ما قرره الله في كتابه وعلى لسان رسوله من شمول قدره لكل شيء، فزعموا أن أفعال العباد خارجة من هذا العموم.

وأما الطائفة الثانية: فهم الجبرية الذين يقال لهم القدرية المجبرة وهم غلاة الجهمية الذين إمامهم في هذا وغيره جهم بن صفوان المتفق على بدعته، بل بدعه الخبيثة المتنوعة، فزعموا أن عموم مشيئة الله وعموم إرادته تقتضي أن العبد مجبور على أفعاله مقسور مقهور على أقواله وأفعاله لا قدرة له على شيء من الطاعات، ولا على ترك المعاصي، ومع أنه لا قدرة له على ذلك عندهم فهو مثاب معاقب على ما لا قدرة له عليه.

وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأئمة المهتدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومخالف للعقول والفطر ومخالف للمحسوس، وكل قول يمكن صاحبه أن يطرده إلا هذا القول الشنيع، فإنه لا يمكنه أن يعمل به ويطرده؛ كما

تقدم أنه لا يعذر من ظلمه وتعدى عليه واعتذر المعتدي بالقدر، فإن الجبري لا يعذره بل يرى اعتذاره بالقدر زيادة ظلم وتهكمًا به، فكيف يسلك هذا المسلك مع ربه وهو لا يرتضيه لنفسه من غيره، والمقصود أن هذه الطائفة خالفت المنقول والمعقول.

ونصوص الكتاب والسنة تبطل قولهم، فإن الله نسب أعمال العباد إليهم من الطاعات المتنوعة والمعاصي الكثيرة، كلها يضيفها إلى الفاعلين ويخبر أنهم هم الفاعلون لها ويستحقون جزاءها من خير وشر، فلو كانوا مجبورين عليها لم ينسبها لهم ولم يضفها إليهم، بل ينسب الأفعال إلى نفسه حاشاه وتعالى عن ذلك، فلا يقال: الله الذي فعل الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، بل يقول كل أحد: العبد هو الذي فعلها، والله هو الذي قدرها من غير أن يجبره عليها، ويلزم على قول الجبرية أيضًا إسقاط الأمر والنهي؛ لأنه كيف يؤمر وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر واجتناب النهي، ويلزم أيضًا على قولهم إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم؛ إذ كيف يعاقبون وتقام عليهم الحدود وهم غير قادرين بل مجبورين، فهذا القول الباطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه، ويلزم أيضًا على قول الجبرية تعطيل الأسباب الدنيوية والدينية، وذلك أن الله تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها، وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع لهم في دينهم ودنياهم، فكيف يؤمرون وهم مجبورون غير قادرين.

فالقول بالجبر فيه فساد الدين والدنيا، والذي حملهم على هذا القول مع ظهور فساده ظنهم أنه لا يمكنهم إثبات عموم مشيئة الله وقدره حتى يسلبوا العبد قدرته، وقد غلطوا بهذا الظن، فإنه كما تقدم يتمكن العبد من إثبات عموم القدر ومن إثبات أن الأعمال هي أعمال العباد حقيقة؛ لأن الله خلقهم وخلق كل ما فيهم من القوى الظاهرة والباطنة وبقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله ومكن العبد بهما من كل ما يريده من خير وشر، فعلوا الأمرين باختيارهم من غير إجبار.

وقد تصل هذه الطائفة وتغلو في القدر حتى يعتقدوا أن معاصيهم طاعات؛ لأنها بمشيئة الله فيشاركون الطائفة الثالثة وهم القدرية المشركون الذين اعتذروا عن شركهم وتحريمهم ما

أباح الله بالمشيئة وجعلوا مشيئة الله هي محبته فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية. وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فهذه الطوائف الثلاث هم خصماء الله في قضائه وقدره، منهم من نفاه، ومنهم من غلا فيه غلوًّا أوقعه في الباطل، وهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه بإذنه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. فأثبتوا عموم قضاء الله ونفوذ مشيئته في كل شيء، وأثبتوا مع ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وقالوا: إنها واقعة باختيارهم ولا حجة للعاصين على الله إذا احتجوا على معاصيهم بقدره، بل حجتهم داحضة باطلة وقالوا: إن مشيئة الله غير محبته، فمشيئته تعلقت بكل شيء موجود من خير وشر وطاعة ومعصية، ومحبته خاصة للطاعات وأهلها، كما أخبر بذلك في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ.

ثم قال الشيخ رحمه الله:

وأصل ضلال الخلق في كل فرقة ... هو الخوض في فعل الإله بعلة

فإن جميع الكون أوجب فعله ... مشيئة رب الخلق باري الخليقة

وذات إلـه الخلق واجبة بما ... لها من صفات واجبات قديمة

مشيئته مـع علمه ثـم قـدرة ... لوازم ذات الله قاضي القضية

وإبداعه ما شاء من مبدعاته ... بها حكمة فيه وأنـواع رحمة

يذكر الشيخ أن أصل ضلال الخلق من جميع فرق الضلال هو الخوض في فعل الرب، وذلك أن جميع الكون، العالم العلوي والسفلي وما فيهن من المخلوقات خلقها الله، وأوجدها بمشيئته وقدرته، فإنه تعالى هو الواجب بأسمائه وصفاته القديمة التي لا أول لها؛ لأنه الأول الذي ليس قبله شيء ولم يزل بأسمائه وصفاته كذلك، فإذا كانت أوصافه كلها قديمة

واجبة، لأنه واجب الوجود، فمن لوازم صفاته اللازمة لذاته العلم المحيط بكل شيء، والقدرة الشاملة لكل شيء، والمشيئة العامة لكل موجود، فهو تعالى لم يزل عليما فعالًا لما يريد، وأفعاله تعالى وإبداعه لمبتدعاته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، فلم يخلق ولن يخلق شيئًا عبثًا، بل خلق المخلوقات وأبدع المبدعات بالحق وللحق، فهي صدرت عن الحق واشتملت على الحق، وكانت غاياتها المقصودة الحق.

فهذا التقرير الصحيح لمذهب أهل السنة والجماعة، وهو الذي دلت عليه الأدلة الكثيرة، فكما أنه تعالى أخبر أنه على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه إذا أراد أمرًا قال له: كن فيكون، وأن كل شيء خلقه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر، فكذلك قد أخبر أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض ومن فيهن بالحق ولم يخلقهما باطلًا، ذلك ظن الذين كفروا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالات على الأصلين، وهما عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر، هذا الذي يتعين على المكلفين الاعتراف به واعتقاده.

وأما مذهب الجبرية فإنهم زعموا أن فعل الرب وإبداعه لجميع المبتدعات لغير حكمة، بل أوجدها عندهم بمشيئة مجردة وقالوا: إنه لا يسأل عما يفعل، ولا حجة لهم بالآية الكريمة، بل هي حجة عليهم، فإنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته، فلا يمكن مخلوقًا أن يعترض على الله اعتراضًا صحيحًا في شيء من مخلوقاته، بل لو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا أحسن من خلقه وإبداعه وتكوينه؛ لعجزت عقولهم وقواهم، وإنما حسب العقول الكاملة أن تدرك حكمة الله وأن تفهمها وما يخفى عليها من الحكم أعظم وأكثر قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي نقص وخلوّ من الحكمة ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

ومن تأمل في المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع المصنوعات ورأى ما فيها من الحسن والانتظام والإتقان، وشاهد ما فيها من المنافع التي لا تحصى؛ شهد لله بكمال الحكمة وعموم الرحمة، فتبًّا لمن زعم أن أفعال الباري صادرة عن محض المشيئة الخالية من الحكمة والرحمة، وأنه يرجح مثلًا على مثل بلا معنى ولا سبب مرجح، لقد ضلت أفهامهم حيث أنكروا أظهر الأشياء وأوضحها.

ولهذا قال الشيخ:

ولسنا إذا قلنا جرت بمشيئة — من المنكري آياته المستقيمة

بل الحق أن الحكم لله وحده — له الخلق والأمر الذي في الشريعة

أي إذا قلنا: إن جميع الكائنات جرت بمشيئة الله وإرادته فلسنا ننكر حكمته وآياته المستقيمة الدالة على الغايات المحمودة، بل نجمع بين إثبات الأمرين، ونعتقد شمول الأصلين لكل ما خلقه وشرعه، لأنه تعالى له الحكم وحده ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. أي له - وصفًا وفعلًا - الخلق الشامل لكل مخلوق، والأمر الشامل لجميع الأحكام الشرعية، فكما لا خالق سواه فلا حاكم بين العباد سواه، وكما أن مخلوقاته مملوءة من الحكمة والرحمة فشرعه العظيم أعظم وأعظم، كله حكمة وكله رحمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فلهذا قال:

هو الملك المحمود في كل حالة — له الملك من غير انتقاص بشركة

أي له الملك كله وله الحمد كله، لا شريك له في ملكه ولا في حمده، فهو المحمود على ما له من الأسماء الحسنى، وعلى ما له من الصفات الكاملة العليا، وهو المحمود على فضله الشامل ورحمته الواسعة، وعلى عدله وحكمته التي وضع بها الأشياء مواضعها، فيحمد على عدله كما يحمد على فضله، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا   فبفضله وهو الكريم الواسع

وقد قرر الشيخ هذا المقام فقال مقررًا مكررًا للمعاني بعبارات مختلفة؛ لأن المقام مهم جدًّا:

فما شاء مولانا الإله فإنه   يكون وما لا لا يكون بحيلة
وقدرته لا نقص فيها وحكمه   يعم فلا تخصيص في ذي القضية
أريد بذا أن الحوادث كلها   بقدرته كانت ومحض المشيئة
ومالكنا في كل ما قد أراده   له الحمد حمدًا يعتلي كل مدحة
فإن له في الخلق رحمته سرت   ومن حكم فوق العقول الحكيمة
أمورًا يحار العقل فيها إذا رأى   من الحكم العليا وكل عجيبة

يعني أنه ما شاء الله كان لا مانع من كونه ووجوده إذا شاءه الله، وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يدرك بحيلة ولو اجتمع عليه جميع الخلق، وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: «**واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[1]. فقدرة الباري تعالى كاملة لا نقص فيها حدثت جميع الحوادث ووجدت الموجودات بها وبمشيئته، وله في ذلك الخلق والإيجاد كمال الحكمة وسعة الرحمة التي تحار العقول في كثرتها وسعتها وعظمتها، وهو المحمود تعالى على ذلك كله.

ثم قال أيضًا:

فنؤمن أن الله عز بقدرة   وخلق وإبرام لحكم المشيئة
فنثبت هذا كله لإلهنا   ونثبت ما في ذاك من كل حكمة

---

(١) الترمذي (٢٥١٦).

وهذا مقام طالما عجز الألى	نفوه وكروا راجعين بحيرة
وتحقيق ما فيه بتبيين غوره	وتحرير حق الحق في ذي الحقيقة
هو المطلب الأقصى لرواد بحره	وذا عسر في نظم هذي القصيدة
لحاجته إلى بيان محقق	لأوصاف مولانا الإله الكريمة
وأسمائه الحسنى وأحكام دينه	وأفعاله في كل هذي الخليقة
وهذا بحمد الله قد بان ظاهرًا	وإلهامه للخلق أفضل نعمة
وقد قيل في هذا وخط كتابه	بيان شفاء للنفوس السقيمة

كرر المؤلف هذه المعاني بهذه العبارات لما ذكره أن المقام مقام عظيم طالما عجز الذين نفوه ولم يفهموه وبقوا حائرين غير مهتدين، ومسائله العظيمة مستمدة من أسماء الله وأوصافه وأفعاله ومعرفة دينه والتدبر لكتابه، فمن تفقه في الأسماء الحسنى واعترف بما لله من الصفات العليا وعرف أن أفعاله تعالى مشتملة على الحق، والحق غايتها ومقصودها، وتدبر كتاب الله الذي فيه الهدى والشفاء، وسنة نبيه ﷺ، من عرف ذلك كله واعترف به جزم جزمًا لا تردد فيه بأنه تعالى خلق المخلوقات وأوجدها ودبرها بمشيئة نافذة وحكمة شاملة ورحمة واسعة.

وذلك أن عظمة المخلوقات تدل على عظمة خالقها ومبدعها وكمال قدرته، وما فيها من التخصيصات المتنوعة من كل وجه تدل على نفوذ مشيئته وإرادته، وما فيها من الحكم والانتظام والحسن والالتئام والخلق الغريب والإبداع العجيب يدل على شمول علمه وإحاطته وشمول حكمته وحمده، وما فيها من الخيرات الكثيرة والمنافع الغزيرة والصلاح والإصلاح يدل ذلك على سعة رحمته وبره وكرمه وإحسانه، وتحقيق هذه المقامات هو المطلب الأقصى لرواد الحقيقة، ولا سبيل لذلك إلا الاستمداد من كلام الله وكلام رسوله والاستنارة بهداية الأئمة المهتدين ومعرفته وإلهامه للعباد من أجلّ نعم الله عليهم، والقرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات.

ثم قال الشيخ مجيبًا للمعترض:

فقولك لِمْ قد شاء؟ مثل سؤال من ... يقول فلِمْ قد كان في الأزلية
وذاك سؤال يبطل العقل وجهه ... وتحريمه قد جاء في كل شرعة

يعني رحمه الله أن سؤال السائل واعتراض المعترض بقوله: لِمَ شاء، وكيف شاء كُفْرَ الكافرين ووقوع العصيان من العاصين؟ ونحوها من الأسئلة المشابهة لذلك كلها محظورة ممنوعة؛ لأن الله هو الحاكم ليس محكومًا عليه ولا يلزم أن يبدي لعباده كل حكمة اشتملت عليها مراداته ومفعولاته؛ فقد أخبر عباده بالأمر العام، وهو أنه حكيم في كل ما خلق وكل ما شرع، وأما دقائق الخلق وأسرارها وأسرار أفعاله، فعنده علمها لا يلزم أن يطلع العباد عليها إلا ما شاء منها، وهذا مثل سؤال السائل: لِمَ قدم الله هذا المخلوق على هذا المخلوق؟ ولِمَ كان المخلوق سابقًا وهذا المخلوق لاحقًا؟ فإنه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؛ فالعقل والشرع لا يبيح أمثال هذه الأسئلة التي يعترض بها العبد الحقير على الرب العظيم، فإنه محرم في جميع الشرائع حتى وصلت بهم الحال إلى ما قال النبي ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خلق هذا الخلق فمن خلق الله، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان ولينته**»[1]. وفي رواية: «**فليقل: آمنت بالله**»[2]. فأمر ﷺ عند هذه الشكوك والأسئلة المحرمة بثلاثة أشياء: بالإيمان بالله؛ لأن الإيمان الصحيح يدفع هذه الشبهات، لعلم العبد المؤمن أنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه لا منتهى لأوليته كما لا منتهى لآخريته، وبالاستعاذة بالله من الشيطان الموسوس الموقع لهذه الشكوك والشبهات، وأمره أن ينتهي وأن يعلم أن هذا سؤال باطل شرعًا وعقلًا وهو من باب المكابرة والمباهتة؛ لأنه تعالى واجب الوجود، ووجود كل شيء بإيجاده.

(١) البخاري (٣٢٧٦)، مسلم (١٣٤).
(٢) البخاري (٧٢٩٦)، مسلم (١٣٤).

وفي الكون تخصيص كثير يدل من ... له نوع عقل أنه بإرادة

وإصداره عن واحد بعد واحد ... أو القول بالتجويز رمية حيرة

ولا ريب في تعليق كل مسبب ... بما قبله من علة موجبية

بل الشأن في الأسباب أسباب ما ترى ... وإصدارها عن حكم محض المشيئة

يقول: إن في العالم العلوي والسفلي تخصصات كثيرة جدًّا تدل دلالة عقلية صريحة أنها بإرادة العزيز الحكيم؛ مثل جعل بعضها عاليًا، وبعضها سافلًا، وبعضها كبيرًا، وبعضها صغيرًا، وبعضها متصلًا بغيره، وبعضها منفصلًا، وبعضها على صفة، وبعضها على صفة أخرى مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٥].

والتخصيصات لا يحيط بها الوصف، وكلها تدل على أنها متعلقة بإرادة الله ومشيئته، وأنه الفعال لما يريد، ومن الغلط العظيم والحيرة والضلال[1] قول الفلاسفة: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد. فإن هذا باطل شرعًا وعقلًا من وجوه كثيرة ذكرها الشيخ في كتاب **العقل والنقل** وفي **المنهاج** وغيرهما من كتبه، لكن الأمر الذي لا ريب فيه أن كل مسبب لا بد له من سبب، وكل معلول لا بد له من علة موجبة، وكل شيء لا بد له من مادة قد خلق منها، ولكن جميع الأسباب تنتظم في قضاء الله وقدره، وهي من القضاء والقدر، ولهذا لما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها؛ هل ترد من قدر الله شيئًا قال: «**هي من قدر الله**»[2].

وثبت في **الصحيحين** أن الصحابة رضي الله عنهم حين ذكر لهم النبي ﷺ القدر السابق قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا الأول وندع العمل، فقال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له.**

---

(١) في المطبوع: «الضلاة» والتصويب من المخطوط.

(٢) الترمذي (٢٠٦٥)، ابن ماجه (٣٤٣٧).

أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة». ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠][1].

فبين ﷺ أن السعادة والشقاوة وإن كانت مقدرة مفروغًا منها، فإن الله قدرها بأسبابها وهو أن الله يسر أهل السعادة لليسرى بما فعلوه من الأسباب الثلاثة، وهي قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾. وأن الله يسر أهل الشقاوة للعسرى بما فعلوه من الأسباب الثلاثة، وهي قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

ومشيئته تعالى لا تنافي ما جعله الله من الأسباب الدنيوية والأخروية، فقد أخبر في عدة آيات أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وفي آيات أخرى أخبر بها بالأسباب التي تنال بها هداية الله ويستحق العبد أن يبقى على ضلاله كقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٦]. وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وكقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. ونحوها، وقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف: ٥]. وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠]. وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر في هداية من يهديه وإضلال من يضله ما يشهد لله بكمال الحكمة والحمد، وكذلك أخبر في عدة آيات أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وفي آيات أخر أخبر عن الأسباب التي تنال بها مغفرة الله مثل قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. والأسباب التي يستحق بها العذاب مثل قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨].

---

(١) تقدم تخريجه ص٦١٧.

وكذلك أخبر في آيات كثيرة أنه يرزق من يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء، وفي آيات أخرى ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه، مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه**»[1].

وكذلك الأسباب المادية مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. وجميع المطالب الدنيوية والأخروية جعل لها أسبابًا متى سلكها الإنسان حصل له مطلوبه، وقد جمع النبي ﷺ ذلك في كلمة واحدة فقال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**»[2]. فقوله: «**احرص على ما ينفعك**». أي في دينك ودنياك، واسلك كل طريق يوصلك إلى هذه المنفعة، ولكن لا تتكل على حولك وقوتك، بل توكل على الله واستعن به، فمن فعل ذلك فهو عنوان سعادته ونجاحه وإلا فلا يَلُم العبد إلا نفسه.

وقولك لِمْ شاء الإله هو الذي ... أضل عقول الخلق في قعر حفرة

فإن المجوس القائلين بخالق ... لنفع ورب مبدع للمضرة

سؤالهم عن علة السر أوقعت ... أوائلهم في شبهة الثنوية

يعني أن هذا السؤال الذي مضمونه الاعتراض على الله، ومضمونه أيضًا الدخول فيما ليس للعقل سبيل إليه، لم يزل يضل عقول الخلق ويلقيهم في الهلاك، وهو الذي أوقع المجوس القائلين: إن الخالق اثنان؛ خالق الخير هو الله، وخالق الشر هو الشيطان؛ فأشركوا بالربوبية بعد شركهم في الإلهية، فكانوا يعبدون النار ويستحلون المحارم؛ فزاد شرهم على المشركين من جهة استحلال المحارم، ومن جهة اعتقادهم أن إبليس خالق الشر؛ فجعلوا رب

(١) البخاري (٢٠٦٧)، مسلم (٢٥٥٧).

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

العالمين اثنين، ولهذا يقال لهم: الثنوية، والذي أوقعهم في هذا الشر العظيم الذي لم يصل إليه المشركون هذا السؤال، فقالوا: كيف يخلق الله الشر؟ فعلينا أن ننزه الله عن خلق الشر فأتوا بهذه الطامة الكبرى والمقالة الشنعاء، يقول الشيخ رحمه الله: فهؤلاء المشككون الذين يقولون: كيف يقدر الله علينا الكفر والمعاصي ويعذبنا على ذلك؟ قد تابعوا في اعتراضهم كل كفار عنيد من المجوس الثنوية، وكذلك من هم أعظم منهم شرًّا وجُرْمًا ملاحدة الفلاسفة.

فلهذا قال الشيخ:

وإن ملاحدة الفلاسفة الألى ... يقولون بالفعل القديم لعلة
بغوا علة في الكون بعد انعدامه ... فلم يجدوا ذاكم فضلوا بضلة

يعني أن ملاحدة الفلاسفة المعطلين لله ولكتبه ورسله المكذبين لهم أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك، حيث حكّموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون، فلم تهتد لذلك لقصورها وتقصيرها، فزعم كثير منهم أن هذا العالم قديم، وأنه لم يزل ولا يزال. وبذلك أنكروا وجود الرب العظيم، ومن باب أولى أنكروا رسله وكتبه وتضاربت نظرياتهم الفاسدة؛ فضلوا وأضلوا، ولقد صدق عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. ثم إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة في هذه الأوقات أبطلوا بأنفسهم نظرية أسلافهم، وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة مبنية على الخرص والجهل المركب، ولم يزالوا في اضطراب، وهذه حالة كل من ترك الحق واستكبر عنه وتاه بعقله، قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

ولهذا قال الشيخ:

وإن مبادي الشر في كل أمة ... ذوي ملة ميمونة نبوية
لخوضهم في ذاكم صار شركهم ... وجاء رءوس البينات بفترة

يعني: وكذلك الأمم الذين ينتسبون للأنبياء كاليهود والنصارى، مبادي شرهم وشركهم جنس هذا السؤال وخوضهم بالباطل، فانحرفوا عن أديان الأنبياء واتبعوا كل شيطان مريد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢] الآية. فأخبر أنهم تركوا الإيمان بسيد الرسل محمد ﷺ وأفضل الكتب، وتعوضوا عن ذلك بالعلوم الباطلة التي هي السحر ونحوها. فكل من ترك الأمور النافعة ابتلي بالأمور الضارة، وكل من زهد بالحق وقع في الباطل، وهذا مطرد في كل زمان ومكان وكل أمة.

ويكفيك نقضا أن ما قد سألته … من العذر مردود لدى كل فطرة

فأنت تعيب الطاعنين جميعهم … عليك وترميهم بكل مذمة

وتنحل من والاك صفو مودة … وتبغض من ناواك من كل فرقة

وحالهم في كل قول وفعلة … كحالك يا هذا بأرجح حجة

وهذا كما تقدم إلزام ونقض واضح على من اعتذر عن مخالفته ومعاصيه بالقدر، فإنه في كل فطرة عاقل أن من ذمك ذممته، ومن عابك عبته، ومن ظلمك في نفسك أو مالك عاملته معاملة الظالم، فكيف تعذر نفسك إذا عصيت الله ولا تعذرهم إذا ذموك أو ظلموك، بل تبغضهم وتذمهم وتقابلهم على ظلمهم بما تقدر عليه، وهذا شيء كل أحد يعرفه، فاتضح بهذا أن المحتج بالقدر على المعاصي كما أنه مخالف للشرع والعقل، فهو مخالف للفطرة التي فطر عليها كل أحد، بل هو مكابر مستهزئ.

ثم أعاد هذه المعاني بذكر أمثلة توضح المقام لكونه من أهم المهمات فقال:

وهبك كففت اللوم عن كل كافر … وكل غويّ خارج عن محجة

فيلزمك الإعراض عن كل ظالم … على الناس في نفس ومال وحرمة

فلا تغضبن يومًا على سافك دمًا ... ولا سارق مالًا لصاحب فاقة

ولا شاتم عرضًا مصونًا وإن علا ... ولا ناكح فرجًا على وجه غية

ولا قاطع للناس نهج سبيلهم ... ولا مفسد في الأرض من كل وجهة

ولا شاهد بالزور إفكًا وفرية ... ولا قاذف للمحصنات بزنية

ولا مهلك للحرث والنسل عامدًا ... ولا حاكم للعالمين برشوة

وكف لسان اللوم عن كل مفسد ... ولا تأخذن ذا جرمة بعقوبة

وسهل سبيل الكاذبين تعمدا ... على ربهم من كل جاءٍ بفرية

وإن قصدوا إضلال من يستجيبهم ... بروم فساد النوع ثم الرياسة

وجادل عن الملعون فرعون إذ طغى ... فأغرق في اليم انتقامًا بغصة

وكل كفور مشرك بإلهه ... وآخر طاغ كافر بنبوة

كعاد ونمروذ وقوم لصالح ... وقوم للوط ثم أصحاب أيكة

وخاصم لموسى ثم سائر من أتى ... من الأنبياء محييا للشريعة

على كونهم قد جاهدوا الناس إذ بغوا ... ونالوا من العاصي بليغ العقوبة

وإلا فكل الخلق في كل لفظة ... ولحظة عين أو تحرك شعرة

وبطشة كف أو تخطي قديمة ... وكل حراك بل وكل سكينة

هم تحت أقدار الإِلَـهِ وحكمه ... فما أنت فيما قد أتيت بحجة

هذه الإلزامات التي ذكرها الشيخ في غاية القوة والوضوح يبطل كل واحد منها اعتذار المعتذر بالأقدار، ومثل بأمثلة كثيرة يعرفها كل أحد؛ لأن كثرة الأمثلة توضح المعاني وتصور المقالات القبيحة بأشنع صورة، ولأنه لو فرض أنه تأول من التزم بها بعض هذه الأمثلة باحتمالات ضعيفة لم يكن له سبيل إلى بقيتها، فالشيخ يقول لهؤلاء المعارضين المعترضين بأقدار الله على المعاصي: يلزمكم أن تعرضوا عن كل ظالم للناس في

دمائهم وأعراضهم وأموالهم، فلا تغضبون على من سفك الدماء وأخذ الأموال بالغصب والسرقة، ولا من شتم الأعراض، ولا على الزناة وقطاع الطريق والمفسدين في الأرض، ولا على قاذف أو شاهد بالزور ولا من سعى في الأرض ليهلك الحرث والنسل، ولا على من حكم بالرشوة وجار في حكمه، بل يجب عندهم كف اللسان عن كل مفسد معتد على الخلق، بل عليك أن تسهل سبيل الكاذبين على ربهم وتعتذر عنهم، وإن سعوا في إضلال الناس، بل وجادل عن أئمة الكفر؛ كفرعون وقارون وهامان، وكل مشرك وكافر؛ كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وما أشبههم من الكفار المعاندين، بل على قول هؤلاء عليك أن تخاصم جميع الرسل والأنبياء حيث جاهدوا الناس على الإيمان وعاقبوا أهل الجرائم؛ لأن الخلق كلهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ولفظاتهم ولحظاتهم تحت أقدار الله، وهذا القول الفظيع الذي يفضي إلى هذه المكابرات والمجاهرة بتكذيب الله ورسله وكتبه، حَسبُ الناظر لهذا القول أن يتصور هذه اللوازم التي هي غاية المشاقة لله ولرسله وفيه فساد الدين والدنيا والآخرة.

وهبك رفعت اللوم عن كل فاعل ... فعال ردى طردًا لهذي المقيسة

فهل يمكنن رفع الملام جميعه ... عن الناس طرًّا عند كل قبيحة

وترك عقوبات الذين قد اعتدوا ... وترك الورى الإنصاف بين الرعية

فلا تضمنن نفس ومال بمثله ... ولا يعقبن عادٍ بمثل الجريمة

وهل في عقول الناس أو في طباعهم ... قبول لقول النذل ما وجه حيلتي

لما ذكر الشيخ تلك الإلزامات التي لا محيد لهم عنها ألجأهم أيضًا إلى إلزامات أخر، فقال: فلو فرض وقدر أنك أيها المعتذر بالقدر على المعاصي رفعت اللوم عن العاملين لمعاصي الله المتجرئين على محارمه؛ فهل يمكنك طرد ذلك وترك عقوبات المعتدين وترك الحدود عن أهل الجرائم، بحيث لا يضمن القاتل نفسًا، ولا الغاصب والمتلف مالًا، ولا ينصف الحكام بين رعاياهم إذا قالوا وادعوا أنهم معذورون بالقدر، وهل في عقل أحد

أو فطرته قبول قول الواحد من هؤلاء المجرمين: ما وجه حيلتي وأنا معذور، فإني وإن خالفت الشرع فقد وافقت القدر، وهل هذا إلا تلاعب محض وتهكم صرف.

ثم قال الشيخ:

ويكفيك نقضًا ما بجسم ابن آدم	صبي ومجنون وكل بهيمة
من الألم المقضي من غير حيلة	وفيما يشاء الله أكمل حكمة
إذا كان في هذا له حكمة فما	يظن بخلق الفعل ثم العقوبة
فكيف ومن هذا عذاب مولد	عن الفعل فعل العبد عند الطبيعة
كآكل سم أوجب الموت أكله	وكل بتقدير لرب المشيئة
فكفرك يا هذا كسم أكلته	وتعذيب نار مثل جرعة غصة
ألست ترى في هذه الدار مَن جنى	يعاقب إما بالقضا أو بشرعة
ولا عذر للجاني بتقدير خالق	كذلك في الأخرى بلا مثنوية

يعني أنه يكفيك نقضًا لقولك وإبطالًا له أن الله تعالى يقضي بحكمته الآلام على غير المكلفين من الصبيان والمجانين والبهائم، وهذه الإلزامات من لوازم الطبيعة، فلا تنفك الطبائع إلا أن تكون على هذه الصفة؛ تكون صحيحة ومريضة ومرتاحة ومتألمة، بحسب ما يعرض للطبيعة من استقامة وانحراف.

فإذا كانت أسباب الآلام إذا وجدت تولدت عنها الآلام وترتبت عليها الأسقام، كمن أكل سمًّا ترتب عليه الهلاك، أو ألقى نفسه في نار أو مهلكة، فكفر الكافرين وإجرام المجرمين بمنزلة من أكل سمًّا أو قذف نفسه في نار أو مهلكة؛ لا بد أن يترتب عليه مقتضاه وأثره، فإذا كنت لا تعذر من أكل سمًّا، أو ألقى نفسه في تهلكة وتنسب هلاكه إلى عمله فالكفر والمعاصي كذلك، بل أبلغ لأن آكل السم والملقي نفسه بالهلكة ربما يعرض بعض العوارض المانعة من الهلاك بخلاف الكفر وتوابعه، فإن آثاره مترتبة عليه قطعًا إلا إذا

رفعها العبد بتوبة نصوح.

ومما يؤيد هذا أنك تشاهد في هذه الدار عقوبات الباغين والظالمين والمعتدين، عقوبات يشاهدها كل أحد، إمّا عقوبات قدرية يوقعها الله بالمجرمين؛ كما أهلك الأمم السابقة بالعقوبات المتنوعة، وكما يشاهده من سَبَرَ أحوال الخلق وتتبع مجرياتهم، وكيف كانت عواقب الباغين والمجرمين أشنع العواقب، وإمّا بعقوبات شرعية يقتل القاتل، ويقطع السارق، ويقام الحد بالرجم أو الجلد على الزاني، ويجلد الشارب للخمر، ويعزر في كثير من المعاصي، وهذه عقوبات قدرية شرعية.

فهل تقول أيها المعتذر عن العاصين بالقدر: إن جميع هؤلاء قد ظلمهم الله؛ حيث أوقع بهم هذه العقوبات، وحيث أحل بهم المثلات، فإن قلت ذلك فقد بلغت من عداوة الله وعداوة رسله، ومحاربة الله مبلغًا ما بلغه أحد، وإن رجعت إلى الحق، وقلت: إن هذه العقوبات القدرية والشرعية هي عدل الله بين عباده، وهي حكمته التي وضعها موضعها وجعلها في محلها اللائق بها، وليس لهؤلاء الجناة المعاقبين عذر، بل ما أصابهم من مصيبة فبما كسبت أيديهم ويعفو عن كثير، فالرجوع إلى الحق أحق، وبذلك وغيره يتضح بطلان الاعتذار بالقدر عن المجرمين.

وشبيه بهذا أيضًا قول الشيخ:

وتقدير رب الخلق للذنب موجب	**لتقدير عقبى الذنب إلا بتوبة**
وما كان من جنس المتاب لرفعه	**عواقب أفعال العباد الخبيثة**
كخير به تمحى الذنوب ودعوة	**تجاب من الجاني ورب الشفاعة**
وتقديره للفعل يجلب نعمة	**كتقديره الأشيـاء طـرًّا بعلة**

يعني كما جعل الله الذنوب والجرائم أسبابًا للعقوبات، فقد جعل الله التوبة وأعمال الخير والدعوات والشفاعات تمحى بها الذنوب، وتكشف بها الكروب، فالله تعالى بحكمته

ورحمته جعل أعمال العباد خيرها وشرها تترتب عليها آثارها وتحصل موجباتها عاجلًا وآجلًا، فكم جلبت أفعال الخير من نعم، وكم دفعت من نقم! كذلك أفعال الشر كم حصل بها من عقوبات، وكم ترتب عليها من شرور ومصائب! فهذه أمور لا بد منها في قدر الله، وفي حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي الذي يحمد عليه لما فيه من العدل والفضل.

ثم قال الشيخ رحمه الله:

وقول حليف الشر إني مقدر ... علي كقول الذئب هذي طبيعتي

فهل يرفعن ذم الملوم بأنه ... كذا طبعه أم هل يقال لعثرة

أم الذم والتعذيب أوكد للذي ... طبيعته فعل الشرور الشنيعة

يعني أن المجرم إذا اعتذر بذلك العذر المردود، وقال: إن الذنب مقدر علي فهو مثل قول الذئب والسبع المفترس، ومثل الشرير إذا فعل الشر والعدوان والبغي وقال: هذه طبيعتي فلا لوم علي، فهل يرفع هذا القول عنه الملام والعقاب أم يكون لومه أشد وعقوبته أوكد، لأنه عمل العمل القبيح واتصف بالخُلُق القبيح، فكان أغلظ جرمًا وأشد عقوبة ممن فعل جرمًا عارضًا؛ فإنه يرجى له الرجوع والتوبة بخلاف الشرير الذي طبيعته وقوته متوجهة إلى الشرور والمعاصي.

ثم ذكر الشيخ ما ينجي العبد من هذا المأزق الحرج فقال:

فإن كنت ترجو أن تجاب بما عسى ... ينجيك من نار الإله العظيمة

فدونك رب الخلق فاقصده ضارعًا ... مريدًا لأن يهديك نحو الحقيقة

وذلل قياد النفس للحق واسمعن ... ولا تعص من يدعو لأقوم شرعة

ودع دين ذي العادات لا تتبعنه ... وعج عن سبيل الأمة الغضبية

وما بان من حق فلا تتركنه ... ولا تعرضن عن فكرة مستقيمة

ومن ضل عن حق فلا تقفونه ... وزن ما عليه الناس بالمعدلية

هنالك تبدو طالعات من الهدى ... بتبشير من قد جاء بالحنفية

بملة إبراهيم ذاك إمامنا ... ودين رسول الله خير البرية

فلا يقبل الرحمن دينًا سوى الذي ... به جاءت الرسل الكرام السجية

وقد جاء هذا الحاشر الخاتم الذي ... حوى كل خير في عموم الرسالة

وأخبر عن رب العباد بأن من ... غدا عنه في الأخرى بأقبح خيبة

فهذي دلالات العباد لحائر ... وأما هداه فهو فعل الربوبة

وفقد الهدى عند الورى لا يفيد من ... غدا عنه بل يجري بلا وجه حجة

هذه نصائح نفيسة من نصائح الشيخ مستندة إلى الكتاب والسنة، يقول: إذا كنت أيها العبد تريد نجاتك من عذاب الله والفوز بثوابه فاقصد ربك متضرعًا له آناء الليل والنهار، واسأله أن يهديك الصراط المستقيم، ووطن نفسك للانقياد للحق، واقبله ممن قاله، وكن ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ودع عنك دين العادات والاقتداء بأهل الغضب والضلال، وأكثر من التدبر لكتاب الله وسنة نبيه، ثم ما بان لك من الحق فاتبعه غير مبال بخلاف المخالفين، واجعل كتاب الله وسنة نبيه نصب عينيك، وزن بهما أحوالك وأحوال غيرك، فإنهما الميزان العادل غير العائل، فإنك إذا فعلت ذلك حصلت لك تباشير الخير وأمارات السعادة.

واتبع ملة إبراهيم حنيفًا مائلًا عن جميع الأديان والبدع إلى دين محمد ﷺ، فإن الله لا يقبل من أحد دينًا سوى الدين الذي ارتضاه لرسله وأتباعهم، حتى ختمهم بإمامهم وسيدهم محمد ﷺ، الذي جمع الله به وله من المحاسن والكمالات ما لم تجتمع في غيره، وقد أخبر عن ربه أن من اتبعه فهو المهتدي السعيد، ومن تولى عنه فهو الضال الطريد.

ثم قال: وهذا الذي بينته في هذه الأبيات فيها الدلالة للحيران، والتفاصيل التي يحصل بها الفرقان، والهداية بيد الله، لكنه من أقبل على ربه صادقًا وعمل بأسباب الهداية فلا بد أن

يقبله الله ويسلك به الصراط المستقيم.

وحجة محتج بتقدير ربه — يزيد عذابًا كاحتجاج مريضة

وذلك لأنه عمل في الحقيقة جرمين بل ثلاثة:

أحدها: فعله للذنب.

ثانيًا: احتجاجه عليه بالقدر، وهو كذب، فإن مضمون الاحتجاج بالقدر يعني أن الله اضطره وألجأه إليه وأكرهه عليه وهو لا يريد الذنب، وهذا كذب صريح، فإن الله مكنه من الترك، بل فتح له كل باب يصده عن الذنب، وقد أبت نفسه الأمارة بالسوء إلا أن توقعه في الذنب، فالملام عليه لا على ربه.

ثالثًا: أنه بهذا الاعتذار يمهد لنفسه الإصرار على الذنوب، والإقامة على ما يسخط علام الغيوب، فإن هذا الاعتذار يهون عليه كل ذنب كما هو مشاهد.

وأما رضانا بالقضاء فإنما — أمرنا بأن نرضى بمثل المصيبة
كسقم وفقر ثم ذل وغربة — وما كان من مؤذ بغير جريمة
فأمّا الأفاعيل التي كرهت لنا — فلا نص يأتي في رضاها بطاعة
وقد قال قوم من أولي العلم لا رضا — بفعل المعاصي والذنوب الكبيرة
فإن إله الخلق لم يرضها لنا — فلا نرتضي مسخوطةً لمشيئة
وقال فريق نرتضي بقضائه — ولا نرتضي المقضي أقبح خصلة
وقال فريق نرتضي بإضافة — إليه وما فينا فنلقى بسخطة
كما أنها للرب خلق وأنها — لمخلوقه كسب كفعل الغريزة
فنرضى من الوجه الذي هو خلقه — ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

يعني إذا أورد المورد علينا أنه يجب الرضا بقضاء الله؛ يعني: والمعاصي من قضائه،

فقد أجاب الشيخ بأربعة أجوبة كل واحد منها كافٍ شافٍ، فكيف إذا اجتمعت.

أحدها: أن الذي أمرنا أن نرضى به المصائب دون المعايب، فإذا أصبنا بمرض أو فقر أو فاقة ونحوها من حصول مكروه أو فقد محبوب فيجب علينا الصبر على ذلك.

واختلف في وجوب الرضا، والصحيح استحبابه؛ لأنه لم يثبت وجوب الأمر به على وجه الوجوب، ولتعذره على أكثر النفوس؛ لأن الصبر حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط من نتف الشعر وشق الجيوب وحثو التراب على الرءوس ونحوها، وذلك واجب مقدور.

وأما الرضا الذي هو مع ذلك طمأنينة القلب عند المصيبة، وألا يكون فيه تمنٍّ أنها ما كانت، فهذا صعب جدًّا على أكثر الخلق، فلهذا لم يوجبه الله ولا رسوله، وإنما هو من الدرجات العالية، وهو مأمور به أمر استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعايب فلم نؤمر بالرضا بها، ولم يأت نص صحيح أو ضعيف في الأمر بها، فأين هذا من ذاك؟!

الجواب الثاني: ما قاله طائفة من أهل العلم أن الله لم يرض لنا أن نكفر ونعصي، فعلينا أن نوافق ربنا في رضاه وسخطه، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]. فالدين موافقة ربنا في كراهة الكفر والفسوق والعصيان مع تركها، وموافقته في محبة الشكر والإيمان والطاعة لنا مع فعلها.

الجواب الثالث: أن القضاء غير المقضي فنرضى بالقضاء؛ لأنه فعله تعالى، وأما المقضي الذي هو فعل العبد فينقسم إلى أقسام كثيرة؛ الإيمان والطاعة علينا الرضا بها. والكفر والمعصية لا يحل لنا الرضا بها، بل علينا أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها؛ من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها، والمباحات مستوية الطرفين.

الجواب الرابع: أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها؛ فهي من الله خلقًا وتقديرًا وتدبيرًا، وهي من العبد فعلًا وتركًا، فحيث أضيفت إلى الله قضاء وقدرًا نرضى بها من هذا الوجه، وحيث أضيفت إلى العبد نسخطها ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض.

ثم قال الشيخ:

ومعصية العبد المكلف تركه	**لما أمر المولى وإن بمشيئة**
فإن إله الخلق حق مقاله	**بأن عبادي في جحيم وجنة**
كما أنهم في هذه الدار هكذا	**بل البهم في الآلام أيضًا ونعمة**

يعني أن معصية العبد تركه لما أمر الله به ورسوله، وإن كان ذلك بمشيئة الله، فالله تعالى شاءه وأراده لما له في ذلك من الحكمة، ولعلمه تعالى أن العبد يفعله باختياره ومراغمته لربه، فلا حجة له في ذلك، وقد أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ إما الجنة أو النار، بل البهائم في الدنيا، منها ما هو منعم، ومنها ما هو مريض أو مصيبه شيء من الآلام، ولذلك كله أسباب وطرق معروفة يحمد المولى بوضعه الأسباب المنوعة مفضية إلى مسبباتها، ولهذا قرر الشيخ هذا المقام بقوله:

وحكمته العليا اقتضت ما اقتضته من	**فروق بعلم ثم أيدٍ ورحمة**
يسوق أولي التعذيب بالسبب الذي	**يقدره نحو العذاب بعزة**
ويهدي أولي التنعيم نحو نعيمهم	**بأعمال صدق في رجاء وخشية**
وأمر إله الخلق بيّن ما به	**يسوق أولي التنعيم نحو السعادة**
فمن كان من أهل السعادة أثرت	**أوامره فيه بتيسير صنعة**

ومن كان من أهل الشقاوة لم يُبَلْ　　بأمر ولا نهي بتيسير شقوة
ولا مخرج للعبد عما به قضى　　ولكنه مختار حسن وسوأة
فليس بمجبور عديم إرادة　　ولكنه شاء بخلق الإرادة

يعني أن حكمة الرب العليا اقتضت افتراق العباد بالعلم والجهل والعمل والكسل والنعيم وضده، وذلك بحسب عملهم بالأسباب النافعة أو الأسباب الضارة، فإن الله دعا إلى دار السلام وبيّن طريقها، وأعمال البر الموصلة إليها التي مرجعها إلى ثلاثة أمور؛ تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله وأمر رسوله واجتناب نهيهما، وأمر العباد بسلوكها وأخبر بما لهم عنده من الكرامة، فمن كان من أهل السعادة يسره لعمل أهل السعادة، وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فسار بحسن طريقه إلى سعادته الأبدية، ومن كان من أهل الشقاوة لم يبال بأمر الله ولا نهيه، بل كذب وتولى، فاستحق العذاب بجرمه وذنوبه، بيّن الله له الهدى وأمره بسلوكه فأدبر وتولى، فولاه الله ما تولى لنفسه ووكله إليها، ومن وُكِلَ إلى نفسه الأمارة بكل سوء، الظالمة الجاهلة فقد هلك، وذلك بما كسبت يداه ليس بمجبور على ذلك ولا مكره ولا مقسور، بل هو مختار مسرف كفور.

فلهذا قال الشيخ:

ومن أعجب الأشياء خلق مشيئة　　بها صار مختار الهدى والضلالة
فقولك هل أختار تركًا لحكمه　　كقولك هل أختار ترك مشيئتي
وأختار لا أختار فعل ضلالة　　ولو نلت هذا الترك فزت بتوبة
وذا ممكن لكنه متوقف　　على ما يشاء الله من ذي المشيئة

يقول الشيخ: إن من أعجب الأشياء أن خلق الله للعبد مشيئة يتمكن بها من كل ما يريد، فيختار بها الهدى إن كان من أهل السعادة، ويختار بها الضلالة إن كان من أهل الشقاوة،

والعبد هو الذي يفعل ويعمل ويكسب من غير مانع له عما يريده، فقولك أيها المعترض عليه: هل أختار ترك حكم الله وقدره؟ مثل قولك: هل أختار ترك مشيئتي؟ يعني: فأنت الذي اخترت أفعال المعاصي، فلو زعمت أنك لا تختار ولا تحب فعل الضلالة والغي، فأنت بين أمرين: إمّا أن تكون كاذبًا، وهو الواقع لكل من يعترض على المعاصي بالقدر، ولكنه يريد بهذا الكلام دفع الشنعة عليه، وقصده معروف، فهو يعرف من نفسه أنه لا يختار ولا يحب أن يترك ما باشره من الكفر والإجرام، فلو فرض وقدر على وجه الإمكان أنه صادق في قوله: إني أختار ألا أختار فعل الضلالة، وكان ذلك من صميم قلبه صادقًا في ذلك، لو كان الأمر كذلك لكان هذا توبة؛ لأن العبد متى كان له إرادة مصممة على فعل ما يحبه الله، وعلى ترك ما يكرهه الله أقبل بهذه الإرادة إلى الخيرات، وانصرف عن السوء والسيئات، وكان توبة له من جميع الموبقات، ولكن من وفق لهذه الحال كان أبعد الناس عن الاحتجاج بالقدر، والوصول إلى هذه الدرجة العالية ممكن في حق كل أحد، ولكنه يتوقف على مشيئة الله وإرادته، ومن لجأ إلى الله وأناب إليه وتضرع له هداه الله وشاء منه أن يفعل ما يحبه ويرضاه، وأشار الشيخ إلى هذا الفرق اللطيف بقوله: على ما يشاء الله من ذي المشيئة.

وذو المشيئة هو العبد، وهذا الفرق اللطيف هو أنه إن شاء تعالى أن يعين عبده على فعل ما يحبه ويرضاه وشاء من عبده ذلك الفعل حصل المطلوب، وفاز العبد بكل مرغوب، وإن لم يشأ تعالى إعانة عبده، بل أمره بالخير وأحب منه أن يفعله ونهاه عن الشر وكره له فعله، ولكن لم يشأ من نفسه إعانته بقي العبد على ما اختاره لنفسه من الإقامة على مساخط الله.

قال الشيخ بعدما أجاب بهذه الأجوبة السديدة والمعارف المفيدة:

فدونك فافهم ما به قد أجبت من ... معان إذا انحلت بفهم غريزة
أشارت إلى أصل يشير إلى الهدى ... ولله رب الخلق أكمل مدحتي

أي: دونك هذه الأجوبة لما سألت عنه، سواء كان السؤال سؤال استرشاد أو سؤال اعتراض وعناد، كما هو الظاهر من ألفاظ السائل وفحوى كلامه، وهو الذي فهمه الشيخ، فهذه الأجوبة التي تشير وتبين هذا الأصل وهو أصل القدر، الذي هو أحد أصول الإيمان، وقد بيّن الشيخ في تفاصيل جوابه هذا الأصل بيانًا شافيًا، ووضحه توضيحًا كافيًا، لا تجد هذا التفصيل وهذا التحقيق في كلام غير هذا الإمام العظيم، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين عمومًا وأهل العلم خصوصًا أفضل الجزاء، ورفعه في أعلى درجات الصديقين، ونفع بعلومه جميع المسلمين. آمين.

خاتمة
في ذكر أمثلة منوعة تكشف لك مسألة القضاء والقدر

حيث كان هذا المقام من أهم الأمور، وقد حارت فيه أفهام كثير من الأذكياء، ولم يهتد إلى الصواب المحض كثير من العلماء، وكثير منهم يأخذ مسائله على وجه التقليد غير مقتنع بوجه يجمع فيه بين الإيمان بشمول القضاء والقدر، مع أن العبد هو الفاعل حقيقة لفعله، وهو الممدوح أو الملوم على كسبه، مع أن الشيخ رحمه الله في هذا النظم حقق هذا المقام غاية التحقيق وبيّن الهدى فيه من الضلال حتى وضح الطريق، لكن الأمثلة تزيد البصير بصيرة وتزيل عن الشاك الطالب للحق الريب والحيرة، لهذا نقول في ضرب الأمثلة المتعلقة بهذه المسألة العظيمة:

المثال الأول:

رجل كان مسرفًا على نفسه كثير الجرأة على المعاصي، فقال له صاحبه وهو يناصحه ويحاوره: أما ترتدع عما أنت عليه، أما تتوب إلى ربك وتنيب إليه، أما علمت أن عقابه شديد على العاصين، فقال المسرف: دعني أتمتع فيما أريد، فلو شاء الله لهداني، ولو أراد لي غير ذلك لما أغواني، فقال له الناصح بهذا الاعتذار الكاذب: ازداد جرمك وتضاعف ذنبك، فإن الله لم يغوك، بل الذي أغواك الشيطان، وانقادت له النفس الأمارة بالسوء، حيث قال الشيطان مخاطبًا لربه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. فالشيطان دعاك إلى المعاصي فأجبته، والله دعاك إلى الهدى فعصيته، بيّن الله لك السعادة وطرقها، وسهل أسبابها ورغبك فيها، ووضح لك طريق الشقاوة وحذرك من سلوكها واتباع خطوات الشيطان، وأخبرك بما تئول إليه من العذاب

الشديد فرضيت واستبدلت الضلالة بالهدى والشقاوة على السعادة، وجعل لك قدرة وإرادة تختار بهما وتتمكن بهما من كل ما تريد، ولم يلجئك إلى فعل المعاصي ولا منعك من الخير، فسلكت طريق الغي وتركت طريق الرشد، فلا تلم إلا نفسك، أما سمعت ما يقول الداعي لأتباعه يوم القيامة حيث يقوم خطيبًا فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] الآية. فقال المسرف: كيف أستطيع أن أترك ما أنا فيه، والله هو الذي قدره عليَّ، وهل يمكنني الخروج عن قضائه وقدره، فقال له الناصح: نعم يمكنك الخروج من قَدَرِه بقَدرِه، فالتوبة والإقلاع عما أنت فيه، وأنت تعلم علمًا لا تشك فيه من قدر الله، فارفع قدر الله بقدره.

ثم إن قولك: إن المعاصي الواقعة مني من قدر الله، إن أردت أن الله أجبرك عليها وحال بينك وبين الطاعة، فأنت كاذب، وأول من يعلم كذبك نفسك، فإنك تعلم كل العلم أنك لو أردت ترك الذنوب لما فعلتها، ولو أردت إرادة جازمة فعل الواجبات لفعلتها، فلقد أقدمت على المعاصي برغبة منك ومحبة لها وإرادة لا تشك ولا يشك غيرك فيها، وتعلم أن قولك: إنها بقضاء الله وقدره. دفع للوم عنك، فهل تقبل هذا العذر لو ظلمك ظالم أو تجرأ عليك متجرئ، وقال: إني معذور بالقدر فلا تلمني، أما يزيدك كلامه هذا حنقًا، وتعرف أنه متهكم بك، فقال المسرف: بلى هذا الواقع، فقال الناصح: كيف ترضى أن تعامل ربك الذي خلقك وأنعم عليك النعم الكثيرة بما لا ترضى أن يعاملك به الناس.

وإن أردت بقولك أنها بقضاء وقدر، بمعنى أن الله علم مني أني سأقدم عليها وأعطاني قدرة وإرادة أتمكن بهما من فعلها، وأنا الذي فعلت المعاصي بما أعطاني ربي من القوى التي مكنني فيها من المعاصي، وأعلم أنه لم يجبرني ولم يقهرني، وإنما أنا الذي فعلت، وأنا الذي تجرأت فقد رجعت إلى الحق والصواب، واعترفت بأن لله الحجة البالغة على عباده.

المثال الثاني:

رجل جاء لبعض العلماء فقال له: أحب أن ترشدني إلى أمر يطمئن له قلبي وتقتنع به نفسي من جهة القضاء والقدر، فإني لا أشك أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأعلم مع ذلك أن أفعالي كلها باختياري وإرادتي وأنا الذي عملتها، هذا أمر ضروري لا أشك فيه، وأعتقد أنه لا يشك فيه أحد، ولكن أحب طريقة تهديني إلى كيفية الجمع بين الأمرين.

فقال العالم: الجواب المقنع في هذه المسألة أنك إذا علمت أن الله خلقك وخلق أعضاءك الظاهرة وأعضاءك الباطنة، هذا أمر لا تشك فيه ولا يشك فيه مسلم، ومن أعظم الأعضاء الباطنة أن الله جعلك مريدًا لكل ما تحبه، كارهًا لما تبغضه إجمالًا وتفصيلًا، وأن الله أعطاك قدرة توقع بها جميع ما تريد فعله، وتنكف بها عما تريد تركه، فأنت تعترف بذلك ولا تستريب فيه، وتعرف مع ذلك أنك إذا أردت أمرًا من الأمور إرادة جازمة، وأنت تقدر عليه فعلته من دون توقف، حتى إن الأمور المستقبلة التي تريد فعلها إرادة جازمة تقول فيها: سأفعل كذا إن شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فإذا اعترفت بذلك كله، يعني اعترفت بأنه تعالى خلقك وخلق قواك الظاهرة والباطنة، ومكنك من كل ما تريد بما أعطاك من قدرة ومشيئة، وأنت الذي تختار وتفعل أو تترك فقد جمعت بين الأصلين؛ الاعتراف بعموم قدر الله، وأن أفعالك كلها من كسبك، وأنه إن وفقك للخير فبفضله وتيسيره، وإن لم يوفقك بل وكلك إلى نفسك فلا تلومن إلا نفسك، ومعرفة هذه المقدمات سهلة بسيطة، وبها يحصل لك الاقتناع التام.

ففعلك داخل في عموم قدرة الله وخلقه؛ لأن خالق السبب التام هو الخالق للمسبب، والسبب التام قدرتك وإرادتك، والله هو الذي خلقهما وأنت الذي تفعل بهما، وإنما الإشكال الذي لا يمكن حله لبطلان أحد أصليه اعتقادك أنك مجبور على أفعالك، فهذا

الذي لا يمكن العبد أن يعترف معه أن الأفعال أفعاله، وهذا يعلم بطلانه بالضرورة كما سبق بيانه، فقال الرجل السائل المسترشد: لقد وضحت المسألة وضوحًا لا أشك فيه، علمت بأن الله خلقني وخلق جميع أوصافي، وخلق الأسباب التي أتمكن بها من الأفعال، وأنا الذي أفعل وأطيع إن ساعدني الله بتوفيقه، وأعصي وأغفل إن وكلني إلى نفسي.

فقال العالم: وأزيدك إيضاحًا وبيانًا لهذا السؤال، قال الله لخيار المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فلم يقل: ولكن الله أجبركم على الإيمان إلى آخره، ولكنه لما علم تعالى حالة النفس وأنها ظالمة جاهلة أمارة بالسوء لطف بالمؤمنين، وحبب إلى قلوبهم الإيمان وزينه فيها، فانقادت إلى الخيرات باختيارها لما جعل في قلوبهم من هذه الأوصاف الجليلة، ولما كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان انصرفوا عنها لكراهتهم لها، وكان هذا لطفًا وكرمًا منه.

وأما الآخرون فلم يجعل لهم نصيبًا من هذا اللطف فانحرفوا باختيارهم وكانوا هم السبب لأنفسهم، حيث كانت مقاصدهم فاسدة، وحيث عرض عليهم الخير فرفضوه، واعترض لهم الشر والغي فاختاروه فولَّاهم ما تولوا لأنفسهم، واللوم كله عليهم، والحجة البالغة لله على العباد كلهم: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وأزيدك إيضاحًا وبيانًا: ألست تفرق ويفرق كل أحد بين حركة المرتعش بغير اختياره وبين حركة الباطش، والكاتب باختياره وتعلم أن الأخير فعل العبد حقيقة، والأول مقسور عليه وما أشبه ذلك من الحركات التي من هذا النوع، تفرق بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية، فمن ألحق أحد القسمين بالآخر وساواه فهو مختل الشعور.

قال الرجل: جزاك الله خيرًا، فلقد أزلت عني كل إشكال، واقتنعت بذلك غاية الاقتناع.

المثال الثالث: قضية الرجل الجبري:

كان رجل قد غلا في الجبر والقدر غلوًّا عظيمًا، فكان يعتذر بالقدر عند كل جليل وحقير

حتى آلت به الحال إلى الاستهتار وانتهاك أصناف المعاصي، وكلما نُصح وليم على أفعاله جعل القدر حجة له في كل أحواله، وكان له صاحب يعذله وينصحه عن هذه المقالة التي تخالف العقل والنقل والحس، ولا يزيده العذل إلا إغراء، وكان صاحبه ينتظر وينتهز الفرصة في إلزامه بأمور تختص به وتتعلق، وكان هذا الجبري صاحب ثروة، له أموال منوعة قد وكل عليها الوكلاء والعملة، فصادف في وقت متقارب أن جاءه صاحب ماشيته فقال: إن الماشية هلكت وتلفت جميعها لأني رعيتها في أرض جدبة، ليس فيها عود أخضر، فقال له: فعلت ذلك وأنت تعلم أن الأرض الفلانية مخصبة فما عذرك في ذلك، فقال: قضاء الله وقدره، وكان ممتلئًا غضبًا قبل ذلك، فزاد غضبه من هذا الكلام واستشاط غضبه وكاد يتقطع من هذا الاعتذار.

وجاءه صاحب البضائع فقال: إني سلكت الطريق المخوف فاقتطع المال قطاع الطريق، فقال له: كيف تسلك هذا الطريق المخوف مع علمك أنه مخوف وتترك الطريق الآمن الذي لا تشك في أمنه، فأجابه بمثل جواب الراعي للماشية وعمل معه الجبري ما عمله مع صاحبه.

ثم جاءه وكيله على تربية أولاده وحفظهم، فقال: إني أمرتهم أن ينزلوا في البئر الفلانية ليتعلموا السباحة فغرقوا، فقال: لِمَ فعلت ذلك وأنت تعلم أنهم لا يحسنون السباحة، والبئر المذكورة تعلم أن ماءها غزير فكيف تتركهم ينزلون فيها وحدهم، وأنت لست معهم؟! فقال: هكذا قضاء الله وقدره. فغضب عليه غضبًا لا يشبه الغضب على الأولين، وكاد الغضب أن يقتله، وكل واحد من هؤلاء الذي وكلهم على ما ذكرنا يزداد غضبه عليه إذا قال له: هذا قضاء الله وقدره.

فحينئذٍ قال له صاحبه: يا عجبًا لك يا فلان، كيف قابلت هؤلاء المذكورين بهذا الغضب البليغ، ولم تعذرهم حين اعتذروا بالقدر، بل زاد هذا الاعتذار في جرمهم عندك، وأنت مع ربك في أحوالك المخجلة قد سلكت مسلكهم وحذوت حذوهم، فإن كان لك عذر فهم

من باب أولى أعذر وأعذر، وإن أعذارهم تشبه التهكم والاستهزاء، فكيف ترضى أن تكون مع ربك هكذا.

فانتبه الجبري حينئذٍ وصحا بعدما كان غارقًا في غلوِّه، وقال: الحمد لله الذي أنقذني مما كنت فيه، وجعل لي موعظة وتذكيرًا من هذه الوقائع التي وقعت لي، ولمست فيها غلطي الفاحش، والآن أعتقد أن ما حصل لي من نعمة الهداية إلى الحق أعظم عندي من هذه المصائب الكبيرة، كما تحقق فيها قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

المثال الرابع: تخاصم القدري مع الجبري:

طال الخصام بين قدري يعتقد أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله، وبين جبري يعتقد ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم؛ لأنهما متباعدان في طرفي نقيض، فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

فقال السني ليعرض كل منكما علي مقالته، ولكما علي أن أدقق الحكم بينكما، وأن أرد ما مع كل واحد من باطل وأثبت ما معه من الحق.

فقال القدري: أنا أقول: إن الله حكم عدل لا يظلم من عباده أحدًا، ومن مقتضى إثباتي لهذا الأصل أنِّي أنزه ربي عن أن تكون الفواحش الواقعة من العباد واقعة بمشيئة الله، بل العبد هو الذي تجرأ عليها، وهو الذي فعلها استقلالًا، وأدلتي على هذا جميع النصوص الدالة على أن الله ليس بظالم لعباده مثقال ذرة، وأنه حكم عدل؛ لأن تعلق مشيئته بأفعالهم، ثم تعذيبهم عليها ظلم من جهتين؛ من جهة إضافتها إلى مشيئته، وظلم من جهة كيف يعذبهم على أمر هو الذي شاءه وقدره، ثم إني لو قلت: إنها واقعة تحت مشيئة الله، لأبطلت بذلك أمر الله ونهيه، بل في ذلك إبطال للشرع، فأنا ما رأيت السلامة من هذا المحذور والمحظور إلا بهذه الطريقة العادلة التي يرتضيها كل عاقل منزه لله.

فقال الجبري: أنا أقول: إن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، قضايا لا يمكن لمسلمٍ أن ينكرها ولا ينازع فيها، وهذا عموم لا يخرج عنه حادث، ومن أعظم الحوادث أفعال العباد من طاعات ومعاصٍ وغيرها، فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته لم يكن الله قديرًا على كل شيء، ولا خالقًا لكل شيء، ومقتضى ذلك أن العباد مجبورون على أفعالهم غير مختارين لها؛ لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة لخرجت عن مشيئة الله وقدرته، فتعين القول بالجبر، وأنهم مجبورون مقسورون على أفعالهم قد نفذت فيهم مشيئة الله وصرفتهم الإرادة.

وأدلتي على قولي هذا جميع النصوص المثبتة لعموم خلق الله ومشيئته وقدرته، وأني لو قلت: إن العبد فاعل حقيقة لفعله لأخرجت هذا القسم عن مشيئة الله وإرادته.

فقال الحاكم السني: لقد وضح كل واحد منكما مذهبه توضيحًا كاملًا، واستدل كل واحد منكما بأدلة لا يمكن المنازعة فيها لكثرتها ووضوحها، ولكن كل واحد منكما لم ينظر المسألة من جميع نواحيها، بل لحظ جانبًا وعمي عن الجانب الآخر، وكثير من الأغلاط يأتي من هذا السبب، وسأحكم بينكما بحكم يستند على الكتاب والسنة ويستند إلى العقل والفطرة، وسأقنع كل واحد منكما إن كان قصده طلب الحقيقة.

أما أنت أيها القدري فأصبت بقولك: إن أفعال العبيد كلها من كسبهم، وكلها من فعلهم طاعاتها ومعاصيها وغيرها من أفعالهم، وأصبت في استدلالك عليها بأن الله نسبها وأضافها إليهم، وأصبت في تبريك من قول يلزم منه إسقاط الأمر والنهي وهو الجبر، ولكنك أخطأت خطأً كبيرًا، حيث زعمت أن مشيئة الله وقدرته وخلقه لا تعلق لها بأفعال العباد، فنفيت عموم النصوص الدالة على هذا الأصل، وظننت أن إثبات عموم الخلق والمشيئة لله ينافي كون الأفعال الصادرة من العباد تكون باختيارهم ومن كسبهم، وهذا الظن غلط محض، بل المؤمن العارف يجمع بين الأمرين يثبت لله تعالى أنه خالق كل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال، وأنه مع ذلك، الأفعال صادرة منهم حقيقة.

وأما أنت أيها الجبري، فلقد أصبت بإثباتك أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان، ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وأصبت في هذا الاستدلال ولكنك أخطأت خطأ كبيرًا، حيث زعمت أن من لوازم إثبات عموم مشيئة الله أن العبد مجبور على أفعاله، لم تقع بمشيئته، وظننت أن إثبات عموم القدر يقتضي منك أن تقول هذا القول.

ثم قال السني أيضًا لهما: لقد قال كل منكما قولًا ممزوجًا حقه بباطله، وسأحكم بينكما بحكم يتضمن إثبات ما مع كل منكما من حق، وإبطال ما مع[1] كل منكما من باطل، وقد دل على هذا الحكم عدة نصوص، منها قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

فهذه الآية الكريمة حكمت بينكما؛ فإن الله أثبت للعبد مشيئة، بها يفعل ويسلك الصراط المستقيم أو يدعه باختياره ومشيئته، وأخبر أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله غير خارجة عنها، فمشيئة الله عامة لا يخرج عنها شيء، ومع ذلك فالعباد هم الذين يعملون ويطيعون ويعصون، ومع أن هذا هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، فهو الذي يدل عليه العقل والواقع والحس، فإن الله خلق العبد وخلق ما فيه من جميع الأوصاف والقوى، ألستما تعترفان بذلك وكل عاقل يعترف به؟ قالا: بلى.

قال السني: فإن من جملة أوصاف العبد التي خلقها الله فيه أنه أعطاه قدرة ومشيئة يتمكن بهما من كل ما يريده من خير وشر وطاعة ومعصية، وبهما تقع طاعاته ومعاصيه، وتعلمان أن العبد متى أراد أمرًا من الأمور التي يقدر عليها فعله بتلك القدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه، فإذا أوقع العبد بهما فعلًا من أفعاله دخلت تحت عموم قدر الله؛ لأن خالق السبب التام الذي هو قدرة العبد وإرادته خالق للمسبب، يعني لما يصدر عنهما، وكل منكما يعترف أن الله خالق قدرة العبد ومشيئته؛ كما خلق جميع قواه الظاهرة والباطنة.

---

(١) في المطبوع: «مع ما». والتصويب من المخطوط.

فإذا اتفقتما على هذا القول، الذي هو الصواب، بما عرف من دلالة النصوص الشرعية عليه، وأنه هو المعقول المحسوس عاد الأمر إلى الوفاق، فليتبرأ كل منكما من الباطل الذي معه، وليعترف بالحق الذي مع صاحبه؛ ليتبرأ الجبري من اعتقاده أن العبد مجبور مقهور على أفعاله، وليعترف أنها واقعة بكسبه وفعله حقيقة، وليتبرأ القدري من اعتقاده أن أفعاله غير داخلة تحت مشيئة الله، وغير شامل لها خلق الله وقدره، وليعترف بعموم خلق الله وشمول قدره.

والحمد لله الذي بيّن الصواب ووفق من شاء من عباده لاتباعه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المثال الخامس: في الآجال والأرزاق:

اعلم أن الآجال والأرزاق كسائر الأشياء، مربوطة بقضاء الله وقدره، فالله تعالى ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. فهذا أمر لا ريب فيه ولا شك، ومع ذلك فهي أيضًا كغيرها لها أسباب دينية وأسباب طبيعية مادية، والأسباب تبع قضاء الله وقدره، ولو كان شيء سابق القضاء والقدر من الأسباب لسبقته العين لقوتها ونفوذها.

فمن الأسباب الدينية لطول العمر وسعة الرزق لزوم التقوى والإحسان إلى الخلق لا سيما الأقارب؛ كما ثبت في **الصحيحين** عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره (أي يطيل عمره) فليصل رحمه**»[1]. وذلك أن الله يجازي العبد من جنس عمله، فمن وصل رحمه وصل الله أجله ورزقه وَصْلًا حقيقيًّا، وضده من قطع رحمه قطعه الله في أجله وفي رزقه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ومن الأسباب الدينية لقطع طول العمر البغي، والظلم

(١) تقدم تخريجه ص٧٧٩.

للعباد، فالباغي سريع المصرع، والظالم لا يغفل الله عن عقوبته، وقد يعاقبه عاجلًا بقصم العمر.

ومن الأسباب الدينية لمحق الرزق المعاملات المحرمة كالربا والغش، وأكل أموال الناس بالباطل، فصاحبها يظن بل يجزم أنها توسع عليه الرزق، ولهذا تجرأ عليها، والله تعالى يعامله بنقيض قصده، قال تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. فالمعامل بالربا يمحق صاحبه ويمحق ماله، وإن تمتع به قليلًا فمآله إلى المحق والقل، كما أن المتصدق يفتح الله له من أبواب الرزق ما لا يفتحه على غيره، كما قال النبي ﷺ: **«ما نقصت صدقة من مال»**[1]. بل تزيده ثلاثًا[2]، وكذلك الغش وأكل أموال اليتامى والأوقاف بغير حق من أكبر أسباب المحق، مع ما على صاحبها من الإثم والعقوبة.

ومن أسباب طول العمر وقصره الطبيعية: الصحة والمرض، فالعافية من الأسقام سبب لطول العمر، كما أن الأمراض بأنواعها سبب لقصره، والمسكن والبقعة إذا كانت صحيّة طيبة الهواء صارت من أسباب عافية أهلها وطول أعمارهم، والعكس بالعكس، البقاع الرديئة المناخ والهواء أو البقاع الوبيئة[3] سبب لقصر العمر كما هو مشاهد، والتوقي عن المخاطر والمهالك واستعمال الأسباب الواقية؛ فائدتها في طول العمر ظاهرة، والإلقاء بالنفس إلى التهلكة وسلوك المخاطر وكل أمر فيه خطر سبب ظاهر للهلاك والأمثلة في هذا كثيرة.

ومن الأسباب المادية في حصول الرزق وسعته استعمال المكاسب النافعة، وهي كثيرة متنوعة؛ كل أحد يناسب له منها ما يوافقه ويحسنه ويليق بحاله كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. فيدخل في

(١) مسند أحمد (٧٢٠٦).

(٢) كذا في المطبوع والمخطوط، وورد في مسند البزار (٩٦٩٧): «...ولكن تزيد فيه».

(٣) البقاع الوبيئة: هي التي كثر فيها الوباء.

هذا العمل جميع الأسباب النافعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكل هذه الأمور تابعة لقضاء الله وقدره، فإن الله تعالى قدر الأمور بأسبابها، فالأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره، ولهذا لما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[١].

وكذلك الأدعية المتنوعة سبب كبير لحصول المطلوب والسلامة من المرهوب، وقد أمر الله بالدعاء ووعد بالإجابة والدعاء نفسه، والإجابة كلها داخلة في القضاء والقدر.

وقد جمع النبي ﷺ الأمر بالعمل بكل سبب نافع مع الاستعانة بالله، كما ثبت في الصحيح مرفوعًا: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**»[٢]. فهذا أمر بالحرص على الأسباب النافعة في الدين والدنيا مع الاستعانة بالله؛ لأن هذه الاستقامة، وذلك لأن الانحراف من أحد أمور ثلاثة: إما ألا يحرص على الأمور النافعة، بل يكسل عنها وربما اشتغل بضدها أو يشتغل بها ولكن يتوكل على حوله وقوته، وينظر إلى الأسباب ويتعلق جميع قلبه [بها][٣] وينقطع عن مسببها، أو لا يشتغل بالأسباب النافعة ويزعم أنه متوكل على الله، فإن التوكل لا يكون إلا بعد العمل بالأسباب، فهذا الحديث بيّن به النبي ﷺ الطرق النافعة للعباد.

ولنقتصر على هذا فإنه يحصل به المقصود والله أعلم، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وافق الفراغ منه في ٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٦ هـ. وتم نقله من خط المؤلف بيد الفقير إلى مولاه بكل أحواله محمد بن سليمان البسام في ٢٠ شعبان سنة ١٤٢١ هـ.

---

(١) تقدم تخريجه ص٧٧٧. (٢) تقدم تخريجه ص٧٧٩.

(٣) في المطبوع ومخطوطتين للكتاب «به». ولعل المثبت هو الأنسب.

مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣٠)

أصول الدين

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

يطبع لأول مرة





الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد فسر الله الإسلام في مواضع من كتابه مثل قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]. ففسره بإسلام الوجه الذي هو انقياد الباطن والظاهر لله، خالصا وهو محسن في هذا الانقياد بأن يكون على الصراط المستقيم، الذي هو طريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ففسره بالاعتقادات والإيمان بالله، وما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وبالإيمان بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله على جميع الرسل، خصوصا ما سمى بهذه الآية الكريمة من صفوة الرسل أهل الشرائع الكبار، وبالخضوع والانقياد لله ظاهرا وباطنا بطاعته وطاعة رسله، وبين تعالى أن هذا هو الهدى، وأنه لا يحصل الاهتداء

بغير هذا الطريق، ولهذا قال: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فبين تعالى أنه لا يحصل الهدى والاهتداء بغير هذا الطريق كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وهو الذي هدى به عباده على ألسنة رسله، خصوصا الهدى العظيم التام الذي جاء به خاتم الرسل وإمامهم محمد ﷺ من الحق علما وعملا واعتقادا وسلوكا، وهو الصدق في أخباره النافعة، والعدل في أوامره ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وإذا أردت بيان ذلك والإشارة إليه على وجه التفصيل فإن دين الإسلام أمر العباد أن يؤمنوا بالرب العظيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الذي أحاط بكل شيء رحمة وعلما وقدرة ومشيئة؛ فإنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير ونفذت مشيئته في جميع الموجودات فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ووقع كمال قدرته ومشيئته؛ فإنه حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات، وحكيم في جميع التصرفات، وحكيم في كل ما شرعه من الشرائع، فما خلق شيئا عبثا بل نفس خلقه صادر عن حكمته، وما أوجده من المخلوقات فإنه مشتمل على غاية الحكمة، وهو الحسن والإتقان والانتظام الذي تشهده الأبصار والبصائر، وتصريف الأمور كلها وتقليبها من حال إلى حال كله على سعته موافق للحكمة والرحمة والمصلحة، وكذلك ما شرعه من الشرائع وحكم به من الأحكام الشرعية بين عباده جميعه أصوله وفروعه وغاياته مشتمل على الحكمة التي لا غاية لها ولا منتهى لكمالها وحسنها.

وكما أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وله الحكمة في خلقه وأمره وقضائه وشرعه فإن ذلك كله مملوء من رحمته التي من آثارها الخيرات، والبركات وأنواع المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة، وفيها من النعم والخيرات ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، بل هي نعم لا تعد ولا تحصى ولا يحصي أحد

ثناء عليه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨].

وهذا أمر قد اعترف به البر والفاجر؛ ولهذا أخبر الله عن المشركين أنهم يعترفون أن الله هو الخالق وحده، المالك وحده، المدبر وحده المنعم وحده، وإنما يتخذون أوثانهم، ومعبوداتهم يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، وإلا فهم يعلمون عجزها وفقرها وغير ذلك من صفات النقص، فإذا علم أن الله تعالى هو الذي له الأسماء العظيمة الحسنى، والصفات الكاملة العليا، وأنه المتفرد بكل كمال وعظمة وجلال، وأنه الخالق الرازق المدبر، ومن سواه مخلوق فقير إليه مدبَّر، وأن جميع النعم والفضل والخيرات والمنافع من الله وحده، وأنه الدافع لكل شر وسوء، فهو الذي يستحق أن يكون هو الإله المألوه وحده ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]. أي: هو إله أهل السماء وإله أهل الأرض، الذي يعظمه ويحبه ويدعوه أهل السماء والأرض دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهذا هو الغاية والمقصود الأعظم من خلق جميع المكلفين ليعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وليعبدوه وحده لا شريك له فيخلصوا له الدين؛ يقومون بالإيمان والإسلام والإحسان على الوجه الذي ينبغي، على وجه الإخلاص والذل لله الواحد القهار، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فأخبر أنه أوحى إلى جميع رسله أن يعترفوا بإلهيته وحده، وأن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنا، وهذه العبودية التي أمر الله بها عباده هي طاعته وطاعة رسوله بتصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهي الله ورسوله، وذلك هو القيام بحقه تعالى على عباده، وبالقيام بحقوق العباد بحسب حالهم ومراتبهم وذلك كله مبناه على العدل؛ فإن أصل العدل وأساسه عبادة الله وحده لا شريك له؛ فإن توحيده أوجب الواجبات، وأفرض الفرائض شرعا وعقلا، والإخلال بالإخلاص أظلم الظلم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ

لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]. وأي ظلم أعظم من ظلم من تفرد الله بخلقه وتدبيره فعبد سواه، وتفرد بالإحسان إليه وإيصال الفضل إليه بكل سبيل، فصرف شكره لغيره، وإذا كان الشرك أظلم الظلم فما الظن بما هو أفظع من الشرك، وهو الإنكار والإلحاد والاستكبار عن عبادته أو عن الاعتراف به، فكل من لم يؤمن بالله ولم يخلص أعماله لله فهو ظالم على تفاوت في عظمة الظلم وشناعته، وكذلك حكمه وأحكامه بين عباده في المعاملات والحقوق الخاصة والعامة على كثرتها وتبحرها، كل ذلك مبني على العدل الذي تعترف بحسنه وكماله العقول السليمة والفطر المستقيمة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقد ذكر الله أصول العدل والإحسان في أصول الدين وفروعه قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام: ١٥١]. إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣][1]. إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٣٩].

فتأمل هذه الأوامر الجليلة الجميلة وما فيها من الخيرات وما تضمنته من أداء الحقوق التي هي أفرض الحقوق شرعا، وعقلا، وما نهت عنه من أصناف المحرمات المحتوية على الظلم والشر والضرر والفساد. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. فقد جمعت هذه الآية الكريمة الأمر بكل عدل وإحسان وخير، وحثت على أداء الحقوق العامة والخاصة، ونهت عن كل منكر وفحشاء في حق الله، وبغي على عباد الله بدمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وقد جمع الله أيضا أصول العدل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

(١) ذكر في المخطوط مكان هذه الآية آية سورة النساء، ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦]. وأثبتنا آية الإسراء لاقتضاء السياق لها.

كما جمع أصول الشر والظلم في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذه المحرمات في كل شريعة، وكل زمان ومكان؛ لأن الشر والضرر والفساد ملازم لها حيثما كانت، وقال تعالى في بيان أصول البر والتقوى التي هي روح العدل.

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على أصول الشريعة وبيان صدقها وعظمتها وكمالها ومراعاتها للعدل والقسط والمصالح في كل زمان ومكان، وفي كل حالة من الأحوال، وتفاصيل الشريعة كلها تفصيل لما نصت عليه هذه الآيات وذلك أكبر برهان على أنها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. عالم بمصالح عباده، رحيم بهم حيث حثهم على ما ينفعهم، وحذرهم عما يضرهم، وأرشدهم إلى كل خير وهدى، ونهاهم عن كل شر وسوء وردى، وهي كلها حق مصدق يعترف أولو الألباب بها، وتخضع العقول الصحيحة لها، ويعلم أن كل ما ناقضها وخالفها فإنه شر وغي وضلال ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢]. ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. فأخبر أن الذين أوتوا العلم الحقيقي هم الذين يرون ويعترفون أن الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق في ذاته وأوصافه، وأنه يهدي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الله العزيز الحميد، يعني: ويرون أن ما خالفه وناقضه هو الباطل في ذاته وأوصافه، وما يوصل إليه من غي وضلال، وجهل وشر، فهو تعالى الحق ودينه حق ووعده حق وقوله حق وما خالف ذلك باطل.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢]. ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠]. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. والحق هو الصلاح وبه الصلاح المطلق، وضده هو الفساد.

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فأخبر أن الحق لو كان تابعا لأهواء كل مخالف للرسول لحصل منه الفساد العام والضرر العظيم؛ فكل شريعة وقانون وسياسة للمخلوق تنافي ما جاء به الرسول؛ فإن شرها مستطير، وضررها كبير، والتجربة والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، وحيث كان الحق وصف الدين اللازم الملازم قاوم كل ما عارضه من جيوش الباطل المتكاثرة الجبارة، فصمد لها وقاومها وأبطلها ومحقها، وهو لا يزال - ولله الحمد - في كل وقت مستعد لمقاومات المعتدين ومنازلة الظالمين وتحدي كل معتد كفار أثيم. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

فانظر إلى حالة النبي ﷺ، وما عانى من مقاومات المبطلين، وكيف أيده الله بالحق على جميع طوائف الظالمين مع حنقهم وتكالبهم وتناصرهم على باطلهم حتى خرج منتصرا بالحق الذي أيده الله.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٦]. ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

ثم تأمل ما قام به الخلفاء الراشدون ومن معهم من الصحابة الأخيار، ومن بعدهم من الملوك العادلين، وكيف فتحوا القلوب بالعلم والإيمان، وفتحوا الأمصار، والحق معهم ملازم لهم والنصر من الله مؤيدهم، ولم يزل الدين الإسلامي قد خضع له أهل المشارق والمغارب، وقد تقبلوه وقبلوه بما فيه من العدل والرحمة والخير الذي لا يوجد في غيره، فلما تحللوا بعد ذلك عن هذا الدين الحق شيئا فشيئا تقلص عزهم، وسلطت عليهم الأعداء من كل مكان، وهو مع كثرة الأعداء وشدة حنقهم واتفاقهم على محقه وإبطاله، ومع قلة أهله الحقيقيين ووقوع التخاذل بين المنتسبين إليه - مع ذلك لم يزل - ولله الحمد - قائم الأصول، محفوظا بحفظ الله، مقاوما كل جيش يغزوه من أصناف الكفار المحاربين المعلنين محاربته، ومن الزنادقة المنافقين الملحدين الذين يظهرون إلحادهم، والذين يخفونه ويعملون في الباطن على القضاء عليه، ولكنهم في كل وقت مخذولون يبدون المقاومات المتنوعة فيظهر للخلق باطلهم وإلحادهم ومكرهم، ولا يروج باطلهم إلا على من لا بصيرة له ولا حق معه، ولما علموا بذلك وعرفوا أنه ليس في إمكانهم مقاومة الحق سعوا في إضعاف الحق من قلوب من ينتسب إليه، ففتحوا المدارس التي تحت سيطرتهم، وطردوا عنها علوم الدين أو جعلوه اسما بلا مسمى ليتمكنوا من بذر باطلهم في قلوب المتعلمين فيها، الذين ليس عندهم علم بالحق يقاوم مكر هؤلاء وخداعهم، وكان هذا من أكبر النكبات التي أصيب بها المسلمون، ومن أكبر السلاح لأعداء الإسلام؛ حتى صار الخريج منها قد تسلح بسلاح أعداء الإسلام، وصار أكبر عون على من ينتسب إليهم دينا وقومية ووطنا، ففضل دين الأجانب الأعداء وقوميتهم ووطنيتهم على دينه وقومه ووطنه فزال دينه وفسدت أخلاقه وذهبت مروءته وإنسانيته، فيتعين على كل أحد السعي في إصلاح التعليم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعاليم الدينية ومراعاة الأخلاق والمحافظة على المتعلمين وملاحظتهم؛ فإن إصلاح التعليم هو السبب الوحيد لحفظ الدين، ومقاومة كل شر وفساد، وسبب لصلاح الأمور كلها. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

وذلك بالتعليم والإلزام بالحق علما وعملا؛ فمن أهمل أولاده ومن [يقوم][1] عليهم مما هو مسترعى عليه فقد عصى أمر الله وأمر رسوله، وعرضهم للعقوبات، فكيف إذا أهملهم عن التعاليم النافعة، والآداب الصالحة، وأشغلهم بضدها من التعاليم الضارة؟ فما أعظم خسارة من خسر أولاده، بل ما أعظم حسرة من كان أولاده الذين كان يرجو نفعهم، بإهماله إياهم، وتوجيههم للعلوم الضارة، قد صاروا أعظم نكبة عليه وخسر دينه ودنياه.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2]. وذلك بالتعاليم المنحرفة، وهذه المدارس الإلحادية تخرج الناشئين فيها من الأديان كلها؛ لأن هذا هو الغرض المقصود بها، ولأنها تلقي في أذهانهم قاعدة من أخبث أو أخبث أصول الإلحاد وهي أن العلم الحقيقي عندهم ما يدرك بالحواس فقط، وما لم يدرك بالحواس فليس عندهم بعلم، ولا يعد من الحقائق الصحيحة، وهذه القاعدة الخبيثة خالفوا فيها جميع الأديان الصحيحة، بل خالفوا فيها جميع العقلاء؛ فإن مدارك العلم كثيرة متنوعة؛ مدركات الحس ومدركات العقل ومدركات الأخبار الصحيحة، والنوعان الأخيران مدركاتهما أعظم وأكمل وأوسع، فإذا نفيت لم يبق إلا المدركات التي تدرك بالحس وهي دائرة ضيقة توقع أهلها في المهالك، فأعظم آثارها وأبطلها إنكار علوم الغيب كلها، وهو إنكار جميع ما أخبرت به الرسل، والكتب المنزلة من السماء من توحيد الله، وتفرده بصفات الكمال، وتوحده بالخلق والتدبير، وإنكار البعث والجزاء في الدار الآخرة، وإنكار الملائكة والجن، وجميع ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أنباء الغيب الواسعة المنتشرة التي قامت البراهين المتنوعة على حقها وصدقها وعدم الريب فيها، فأنكرها هؤلاء الملحدون كما أنكرها أسلافهم الدهريون الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(١) في الأصل: (يقول) ولعل المثبت أنسب للسياق.

(٢) البخاري (١٣٨٥).

وقد علم أن آيات التوحيد، وآيات البعث، وآيات صدق الرسل والبراهين الدالة على ذلك التي لا يمكن إحصاؤها كلها - تبطل قول هؤلاء الملحدين، وتخبر أنهم كما خرجوا من الدين خرجوا من العقل الصحيح، وخالفوا فطرة الله التي فطر الله عباده عليها، فجميع ما أخبر الله به في كتبه وعلى ألسنة رسله من أمور الغيب التي هي أعلى أنواع الصدق - أنكرها هؤلاء الملاحدة.

ومن المعلوم عند العقلاء المعتبرين أن من لم يؤمن بذلك الحق المبين الذي قامت الأدلة والبراهين بصدقه وحقيقته ويقينه لم يكن عنده علم وحق يؤمن به ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

وقد تحدت الرسل عليهم الصلاة والسلام جميع من كذبهم أن يعارضوا ما جاءوا به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فظهر عجز المكذبين، وبانت مكابرتهم، وأنهم ليسوا على شيء، وأنهم كانوا كاذبين، وقد تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأخبر أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. والتحدي قائم منذ نزل القرآن وإلى أن تقوم الساعة، وعجز المعارضين المكذبين قد ظهر لكل أحد، وهذا من أعظم البراهين الموجبة لتصديق جميع ما أخبر به من علوم الغيب والشهادة.

كما أن من أعظم البراهين أحكام هذا الدين، وصدق ما جاء به من الأخبار عن الأولين والآخرين، وعن جميع أمور الغيب، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض خبرا من أخباره، كما أن أحكامه أعدل الأحكام وأهداها وأقومها، وبها الصلاح المطلق في كل زمان ومكان، وقد بان لكل عاقل أن الأمور العامة، والخاصة لا يمكن صلاحها واستقامتها واعتدالها حتى تطبق على أحكام الله بين عباده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ولا ينكر هذا ولا يكابر فيه إلا أحد رجلين؛ إما معاند مكابر ينكر الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة، وإما ضال جاهل من أعظم

الضالين، فالعناد والضلال لا يستغرب على صاحبهما إنكار أعظم آيات الله، وأعظم البراهين والمعجزات الدالة على صدق الرسل وحقية ما جاءوا به فهؤلاء داخلون في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ الآيات [غافر: ٧٠، ٧١]. فهم كذبوا بجميع آيات الله التي هي أبين الآيات وأعظمها وأوضحها، وبما أرسل الله به رسله من الحق النافع والصدق.

فصل

وحيث كان الملحدون المكذبون بآيات الله، وبما أرسل به رسله قد علموا أنه متى تقابل ما جاءت به الرسل من الحق مع باطلهم لم يكن لباطلهم أدنى ثبوت بل اضمحل كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. فحيث علموا بهذا الأمر مكروا مكرا كبارا، ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٦، ٤٧]. الذي من جملته ظهور الحق على الباطل وانتصاره في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، فمن أعظم مكرهم ما أشرت إليه سابقا بإضعاف علوم الدين أو منعها من مدارسهم. ومنها أنهم قالوا: يجب أن تكون الأفكار حرة وألا تتقيد بشيء من القيود؛ وذلك لقصد التحلل عما جاءت به الرسل والأديان الصحيحة؛ لأنهم إذا زعموا أن لكل أحد فكره، وأنه مهما خطر بباله من الأفكار، والعقائد الهدامة فله أن يبوح بها، ويدعو إليها، وألا يعارضها بعقيدة صحيحة ولا فاسدة - كان مضمون هذا وجوب التحلل عن الأديان، وعدم التقيد بها، وهذا هو الإلحاد والزندقة، وهؤلاء أعظم جرما وأشد طغيانا من إخوانهم السابقين الذين ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فأولئك معهم نوع اعتراف بالله صحبه الاستكبار عن الانقياد للرسل، وأما هؤلاء فقلوبهم منكرة للحق الذي جاءت به

الرسل وهم مستكبرون عن الانقياد لرسل الله وكتبه، بل مستكبرون عن الإيمان بالله، ومن المعلوم الذي لا يتمارى فيه العقلاء أن إطلاق الحرية للأفكار، وعدم تقيدها بالحق الثابت الذي قامت البراهين على صدقه وحقيته هو الكفر بالرسل، وهو الفوضى، الذي يؤدي بأهله إلى الهلاك الدنيوي قبل الهلاك الأخروي، ففوضوية الأفكار هي فوضوية الأفعال فعلى ذلك فليفعل كل أحد ما أراد من فسق وفجور وتهتك، وليطلق لحريته ما شاءت نفسه الأمارة بالسوء من فحشاء ومنكر وبغي، لا يتقيد بشريعة ولا بمروءة ولا بإنسانية، بل ينتقل من طور الإنسانية إلى طور البهائم، بل إلى طور الشياطين وهذا ما أرادوه، وهذا ما وصلوا إليه؛ المتوغلون منهم والباقون يسعون خلفهم، ثم إنه من المعلوم أن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد أن يتكلم بما يريد ويشتهي، والإرادات متباينة، والأغراض مختلفة - أن في هذا هلاك الحكومات والشعوب، فالخلق في غاية الضرورة إلى ضابط يضبطهم، وإلى قوانين صارمة قوية تحجزهم عن الشرور المتنوعة، ومتى أعطوا حريتهم مرجت أقوالهم، واختلت أعمالهم، وتباينت أفعالهم فوقعوا في الفوضى المهلكة، والشرور القاتلة، والأمم التي تعمل على هذا هي ساعية في طريق هلاكها الدنيوي قبل الهلاك الأخروي.

فالأفكار الصحيحة هي الأفكار السليمة المتقيدة بالحق التي غايتها الحق وسيرها مع الحق، وهي الأفكار التي دعا الله عباده إلى التفكير فيها في آياته المتلوة وآياته المشهودة؛ ليعرف الحق ويعمل بالحق، وذلك هو الصلاح للظاهر والباطن، وحيث قد علم أهل العلم والهدى والرشد أن ما جاء به الرسول هو الحق، وهو الذي يهدي إلى كل خير كان الواجب المتعين والفرض الأكيد التقيد بهذا الحق علما وإرادة وعملا، فتكون الأفكار حائمة حول هذا الحق المبين لاستخراج علومه ومعارفه النافعة، وحول إرشاداته ومواعظه لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا التقيد الذي هو أفرض الفروض على المكلفين هو ينبوع العلم وأصل الخير، ومدار صلاح الدين والدنيا عليه، وهو المانع من الفوضى، ومن الانطلاق في الهلاك، فيتقيد العبد

بهذا الحق، ولا يتقيد بأي قول يعارضه، ولا بأي عمل ينافيه ولو صدر من أكابر الناس؛ لأن ما سوى الرسول ﷺ غير معصوم، وأما ما جاء به الكتاب والسنة من الحقائق في الأصول والفروع فهو محكم معصوم يدل على كمال اليقين العلمي واليقين العملي ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٦].

وإذا أردت أن تعرف الفرق العظيم بين من يدعو إلى تحرير الأفكار من كل القيود، وبين من يلتزم الحق الذي جاءت به الرسل ولا يبالي بمن خالف ذلك، وبين من يلتزم العمل بالحق، وبين من يمشي بعمله مع غريزته ودواعي نفسه- فاضرب لذلك مثلين:

أحدهما: من قلبه خال من التزام الحق والعمل به، وهو يجري في أعماله وأقواله على مقتضى ما تدعوه إليه نفسه من الإرادات المتنوعة؛ فإنه لا يبالي بالظلم والبغي والفحشاء والمنكر؛ فإن النفس أمارة بالسوء فمن أطاعها طاعة عمياء قادته إلى الهلاك والخسار، تجد مثل هذا أفكاره متضاربة ونظرياته متناقضة وعلومه غير صحيحة، فهو في أمر مريج؛ في فكره وسعيه وعمله وجميع تصرفاته.

والثاني: من الرجلين رجل عرف الحق والتزمه، وعرف أن ما جاءت به الرسل حق، وأن الكتاب القرآن وسنة محمد ﷺ جاءا بكل علم صحيح، وبكل حق وصدق، وبكل هدى ورشاد، وبكل خير عاجل وآجل؛ فحصر أفكاره في هذا الميدان الجليل، واستخرج من كنوز الكتاب والسنة كل حق وهدى ورشد، وتحلت نفسه بكل خلق جميل يدعو إليه الشرع، وتخلت عن كل خلق رذيل؛ فصار عارفا بالحق، عاملا بالحق فهذا لا تسأل عما يحصل له من المعارف الجليلة، والعلوم اليقينية، والأخلاق الجميلة، والسير في جميع تصرفاته على العدل الذي هو الصراط المستقيم فهل يستوي هذا وذاك؟ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ

﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢]. فالأول ضال غاو ساع إلى الهلاك والخسران، والثاني مهتد عالم بالحق، عامل به يسعى إلى كل خير وبر وكرامة.

والمقصود أن الملحدين والمغتر بهم أبدوا وأعادوا في الدعوة إلى حرية الأفكار، والغرض من هذا: التحلل من أديان الرسل، ومن الأخلاق الجميلة؛ لتنطلق النفوس فيما شاءت فتكون البهائم أحسن حالا منها، والعقول والأفكار متفاوتة في إدراكها، وفي مقاصدها وفي غاياتها كالإرادات، بل الإرادات تبع الأفكار، ولو أنهم قيدوا أفكارهم بالحق الذي جاءت به الرسل وإراداتهم باتباع ما نزل الله - لكان خيرا لهم وأقوم.

﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الروم: ٢٩]. ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»**(١). فمن كان هواه تبعا لما جاء به الرسول لا يزيغ عنه فهو المؤمن الحقيقي، وهو الذي قد هدي للتي هي أقوم في علومه ومعارفه وأخلاقه، وهو الذي أطمأنت نفسه إلى الصدق والحق، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة(٢) والباطل صاحبه في أمر مريج.

فصل(٣)

ومما روج به الملحدون باطلهم وعلومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسموها تجديدا ورقيًّا وتقدما ونحوها من الأسماء التي يغرر بها ويغتر بها من لا بصيرة

(١) السنة لابن أبي عاصم (١٥). (٢) مشكل الآثار (٢١٤٠).

(٣) هذا الفصل موجود بنصه في كتاب (الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي).

له، وسموا الحق الذي جاءت به الرسل جمودا ورجعية ورجوعا إلى الوراء وتخديرا كما قال تعالى عن أسلافهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان أنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم وتقبيح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصون بذلك، ويفترون على الله الكذب، وأنه يغتر به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين، وزادوا زيادات، كم اصطادوا فيها من ضعفاء البصائر.

وليس ما جاءت به الرسل جمودا ولا رجوعا إلى الوراء وإنما هو الحق والنور والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود ولا للقلوب إلا به، ولا نور إلا باقتباس نوره، وهو الموقظ للهمم والعزائم إلى كل خصلة حميدة، وإلى كل رقي صحيح وتقدم نافع؛ فإن من أصول الشريعة الكبرى العمل بالأسباب النافعة، والحث على كل عمل ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك، ومن المعلوم أن من تحقق بهذين الوصفين؛ بذل المجهود والاستعانة بالمعبود فإنه لا يزال في تقدم مطرد في إصلاح الدين وإصلاح الدنيا المعينة على الدين. في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**»[1]. وهذا شامل للأمر بالحرص على ما ينفع في العاجل والآجل، وكم في كتاب الله من الأمر بالأعمال الصالحة النافعة، والأمر بالاستعانة بالله التي هي روح الأعمال، وبها قوامها؛ فإن من استعان بالله كفاه وأعانه وقواه وأيده بروح منه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) مسلم (٢٦٦٤).

وقال تعالى في الأمر بالصبر على الجهاد ومقاومة الأعداء والترغيب في ثواب ذلك ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فهذا الأمر بملازمة الصبر على كل عمل نافع، والبشارة لهم بمعية الله ومعونته.

وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين وروحه فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدم إلى هدم كل خلق جميل والاتصاف بكل خلق رذيل، والمشاهدة والحس أكبر شاهد على هذا، وذلك أنه من الممتنع المحال أن يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق؛ فإن الباطل وإن كان له نوع صولة فآخره الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسار والهلاك والتبار[1].

فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبه بهم في أخلاقهم ولباسهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[2]. فيرون البقاء على أخلاق دينهم وقومهم التي هي الأخلاق العالية - يرون البقاء عليها جمودا، والانحلال عنها هو الرقي؛ فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس فصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وصاروا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، وبهذه الحال تنحل معنوياتهم، ويندمجون في غيرهم في كل شيء وهذا أبلغ ما يريده الأعداء من المتسمين بالإسلام.

---

(١) التبار: (الهلاك). لسان العرب، مادة (ت ب ر).

(٢) أحمد (٥١١٤)، أبو داود (٤٠٣١).

فصل[1]

ومما يروج به المنحرفون باطلهم لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تتهذب ولا تتعدل إلا بها، ويطنبون في مدحها والثناء عليها ومدح المتصفين بها، وذم من لم تكن له هذه الثقافة، والسخرية منه وهم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة؛ كل يتكلم بما يخطر له، لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها هكذا يكون أهلها لا يتفقون في نظرياتهم وأعمالهم وأخلاقهم، ولا يمكننا شرح ما يقولونه عن هذه الثقافة المنحرفة، ولكنه قد علم أهل العلم والحجا وأهل العقول الراقية أن الثقافة التي يلهجون بها هبوط أخلاق، وذهاب المعنويات الصحيحة والزهو والعجب والكبر الذي هو أكبر داء يبتلى به العبد، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي، فإنه محال أن تتهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها الفضائل، وعجزت عن ترفعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح، ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة والأعمال إلى الخير والهدى والصلاح، ويزجرها عن كل شر - هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للظاهر والباطن، للعقائد والأخلاق والأعمال، حاث على كل فضيلة، زاجر عن كل رذيلة، فروح ما دعا إليه الدين الإسلامي الإيمان بالغيب؛ المتضمن للإيمان بالله العظيم، وما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، والأفعال الحميدة، والتصاريف السديدة، ويتضمن الإيمان بالجزاء العاجل والآجل عن الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة التي لا يعرف تفاصيلها إلا من جهة الرسل،

(١) هذا الفصل موجود بنصه في كتاب (الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي).

وهي التي تزرع في القلوب الرغبة في فعل الفضائل والخيرات، والتنافس في اكتساب الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق، وتزرع فيها كراهة الشرور والرذائل، وهي التي يكون لها التأثير العظيم في إصلاح الأفراد والجماعة، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فهو الذي يوجه الأفكار والإرادات والأعمال إلى كل خير، ويزجرها عن كل ضرر، ويأمرها بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهاها عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم.

وأما علوم المادة المحضة فإنها جافة لا تنهض بأصحابها إلى مكرمة، ولا تزجرهم عن منكر وسوء، وإنما نفوسهم آلية محضة أخس من نفوس السباع الضارية، لا تسعى إلا إلى أغراضها مهما كانت - فكم بين قلب مملوء من الإيمان بالله ومن الرغبة في ثوابه ورضاه والخشية من سخطه وعقابه، وأخلاقه أكمل الأخلاق وأفضلها قد أثر هذا الإيمان وتوابعه في توجهه وتوجيهه وسعيه فكانت أعماله صالحة، وكان مخلصا لله ومؤديا لحقوق عباده يرعى العهود والأمانات، ويحترم الحقوق والمعاملات، قد اطمأن كل أحد في ثقته وأمانته وقيامه بما عليه من الحقوق - كم بين هذا وبين من هو بضده ليس في قلبه من الإيمان مثقال ذرة ولا رغبة في الخير ورهبة من الشر لا يرعى العهود والأمانات، ولا يطمئن إلى ثقته كل من علمه وخبر حاله، ولا عنده خشية لله تردعه عن المحرمات والخيانات، قد هبطت به أخلاقه إلى أسفل سافلين، ثقافته وهمته مصروفة إلى تنميق بدنه وشعره، وتجميل لباسه وهيئته وكلامه، وليس وراء هذا شيء إلا العار والدمار؛ لما هو عليه من الأخلاق الهدامة لأحواله ولمن يتصل به، فبين هذا وهذا كما بين السماء والأرض، وهذا الفرق العظيم عائد إلى الاتصاف بالثقافة العصرية الجافة، أو الثقافة الدينية التي روحها الرحمة والعدل والقسط والأمانة والوفاء بالحقوق.

فأعظم نعمة ينعم الله بها على العبد أن يكون عنده بصيرة يبصر بها الأشياء على ما هي عليه، فيعرف الحق ويعمل به، ويعرف الباطل فيدعه، والله هو الموفق وحده، ولا تنظر إلى من تسمى بالإسلام ونبذ أخلاقه وراء ظهره، وتحتج به على الإسلام والمسلمين في صفته وجموده وهبوط أخلاقه؛ فإن الإسلام والمسلمين الحقيقيين يتبرءون ممن هذه حاله وإن تسمى بالإسلام، وليس له منه إلا رسمه؛ فإن الدين الإسلامي دين الرفعة والعزة والرقي الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الإحكام والانتظام، وهي الغاية في توجيه المتصفين بها إلى كل خير وصلاح وإصلاح؛ كما هو معروف عند كل أحد ما كان عليه المسلمون الأولون من الكمال والقيام بجميع المقومات الدينية والدنيوية، وبهم يضرب المثل في الكمال الإنساني الذي ليس له نظير، فمن أراد أن يعرف تأثيرات الدين الجميلة فلينظر إلى هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغرير، فله نظر غير هذا، والله المستعان.

فصل

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

أخبر تعالى في هذه الآيات وغيرها أن المكذبين بالرسول والجاحدين لآيات الله إنما حملهم على ذلك الكبر الذي في صدورهم واحتقارهم واستهزاؤهم بما جاءتهم به الرسل وفرحهم بعلومهم المنافية لعلوم الرسل. ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

وهذا الذي ذكره الله هو أفظع وأشنع آثار الكبر الذي هو شر الأخلاق، الذي من في قلبه مثقال حبة منه لا يدخل الجنة[1]، وهكذا خلف هؤلاء السلف الطالح؛ فإنهم قد اتفقت كلمة سفهائهم ومعانديهم أنهم لا يؤمنون، ولا ينقادون إلا لما دخل تحت حواسهم وتجاربهم، ونظرياتهم وما سوى ذلك أنكروه وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام: ١٢٤].

وقد علم عقلا وشرعا وفطرة أن العلوم والحقائق التي لا تدخل تحت الحواس، وتدرك بالعلوم التي جاءت بها الرسل، وبالعقول والفطر السليمة - قد علم أنها أكمل العلوم وأقواها وأنفعها، فهم جحدوها رأسا إلا ما أحاطت به معارفهم الضئيلة مما يدخل تحت الحواس؛ فلو فرض الفرض المحال أن جميع العلوم المدركة بالحواس قد أحاطوا بها لكانت ضئيلة جدا بالنسبة إلى علوم الرسل ومدركات العقول، فكيف وما أدركوه من علوم الطبيعة والكون قليل بالنسبة إلى ما لم يعرفوه وهم معترفون بذلك، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجارب يحكمون عليها ثم بعد ذلك يتبن لهم أخطاؤها، ويستأنفون غيرها، وهكذا فإذا كان هذا قصورهم وتقصيرهم في علوم المادة التي إنما تكبروا وافتخروا بعلمها فكيف بالعلوم العظيمة التي لم يشموا رائحتها؛ علوم الشرع وأصوله وفروعه، وعلوم الغيب وتفاصيل ما أخبر الله به وأخبرت به رسله؟! قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية [فصلت: ٥٣].

فقد أرى الله عباده في هذه الأوقات من مخترعاتهم، ومما عملته أيديهم من الخوارق والآيات ما يزداد به المؤمن إيمانا، وتقوم به الحجة على المعاند المكابر.

فهذه الكهرباء وما نتج عنها من الأعمال العظيمة المعروفة، وهي من أعمال البشر الذي علم الله الإنسان ما لم يعلم، فقبل أن يشاهدوها لو قيل لهم عن بعض أعمالها: إنها ستكون

(١) مسلم (٩١).

وتقع لبادروا بالإنكار كما بادر أسلافهم من المكذبين للنبي ﷺ حين حدثهم بالإسراء والمعراج، مع أنها من آيات الرسل وخوارقهم التي لا تزال يشاهد نظيرها أو ما يقاربها، فإذا كانوا يجحدون لما لم يحيطوا به علما، وقد حدث من المخترعات البشرية ما يكذبهم، ويبطل الأصل الذي به يحتجون مع أن هذه الخوارق من صنع الآدميين، والله هو الذي علمهم إياها، فكيف ينكرون ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أمور الغيب؟ إذ لم تدخل تحت مداركهم ومعلوماتهم، وعجزت عقولهم عن إدراكها، وهذه الحالة هي دأب الأمم المكذبين للرسل إذا أخبرتهم الرسل بما لم يعرفوه أنكروه وجحدوه واستكبروا عنه. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ٣٩]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

وهل أعظم شقاء وضلالا ممن ينكر قدرة الخلاق العليم، وهو يشاهد من آياته في الآفاق والأنفس أمورًا كثيرة تبطل حجته، وتزهق باطله: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فطغيانهم الشنيع وكبرهم البليغ حملهم على هذا القول الفظيع وهم أحق بالجنون؛ إذ زعموا أن هذه الموجودات العظيمة التي هي في غاية الإتقان والانتظام في خلقها وتصريفها وتدبيرها، وغاياتها الحميدة، وحكمها البديعة - زعموا أنها وليدة المصادفة وآثار الطبيعة، من غير خالق خلقها، ولا مبدع أبدعها وأتقنها، مجرد ما ينظر العاقل ويتصور قولهم هذا يعلم أنهم قد ابتلوا ببلية هي أعظم البلايا، وكيف سولت لهم نفوسهم أن يتفوهوا بهذا القول الذي هو أكبر معبر عن ضلالهم وجهلهم وحماقتهم، بل هو من أقوال المجانين الذين يهذون بما لا يدرون، فمن تأمل بعض المخلوقات وما أودعها الله من الخلق العجيب، والنظام المحكم والتدابير العجيبة جزم جزما لا يمتري فيه بكذب هؤلاء وافترائهم في جحدهم، ومكابرتهم للمحسوسات، فضلا عن المعقولات وما جاءت به الرسل.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[الطور: ٣٥، ٣٦]. ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١]. أي: من الكبر الذي في صدورهم ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ الآيات [الإسراء: ٥١].



مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣١)

شرح كتاب

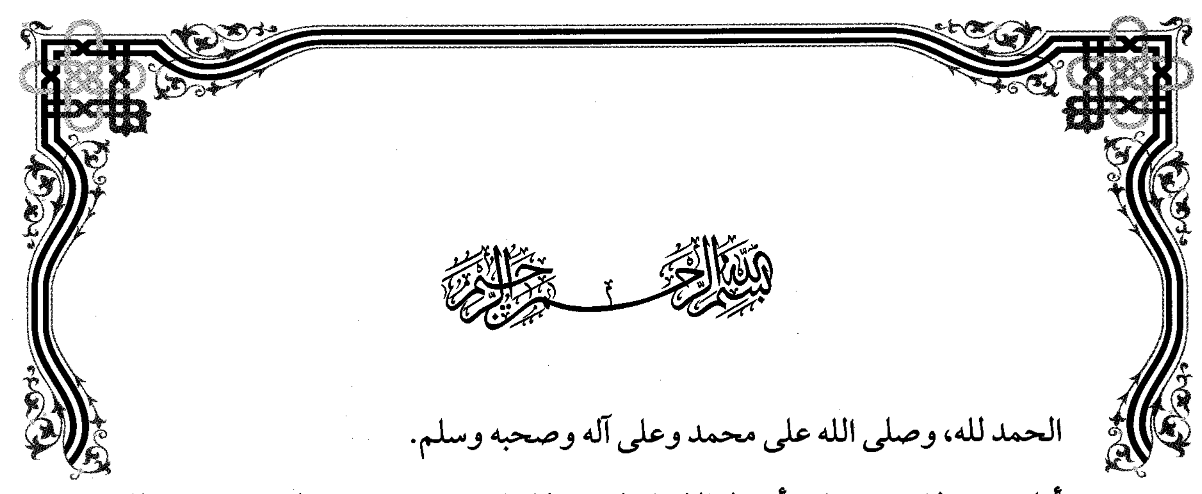
أصول الإيمان

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

يطبع لأول مرة





الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فهذا شرح كتاب **أصول الإيمان** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه، قال رحمه الله:

باب معرفة الله والإيمان به

معرفة الله والإيمان به أصل الأصول كلها، وكلها تتأسس على ذلك، ومعرفة الله تعالى هي معرفة ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وأفعاله الحكيمة، ولا بد مع معرفة الله من الإيمان به وهو الخضوع التام في الباطن والظاهر لله والقيام بعبوديته وإخلاص الدين لله تعالى، واعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على هذه المعارف الجليلة وفصلها تفصيلا عظيما، وهي أعظم مقاصد القرآن لكن المؤلف رحمه الله لم يذكر الآيات القرآنية وإنما ساق شيئا من الأحاديث النبوية؛ لعل ذلك اكتفاء بما هو معروف لكل أحد أن القرآن مشتمل على هذه المقاصد.

١- قال رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**». رواه مسلم[١].

هذا الحديث عظيم يشتمل على وجوب الإخلاص لله في كل عمل ديني؛ وهو أن يقصد العامل بعمله وجه الله وثوابه لا غير ذلك من الأغراض قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. فأعظم الفروض على الإطلاق أن يقوم العبد بأصول الإيمان الستة وشرائع الدين الخمسة، ويقوم بالإحسان يقصد بذلك وجه الله والدار الآخرة، وهذا هو مقصود توحيد الإلهية وتوحيد العبادة؛ لأن الألوهية وصف الله الذي لا يشاركه فيه مشارك، فالله أعظم الأسماء الحسنى، معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. والعبودية حقه تعالى الذي لا يصرف شيء منها لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما

(١) مسلم (٢٩٨٥).

من المخلوقات، فمن أشرك بالله شيئا فقد رفض هذا الإيمان الذي هو أوجب الواجبات وقد دخل في الشرك وعمله باطل؛ لأن الله أغنى الشركاء لا يقبل عملا أشرك فيه العبد.

ولكن الشرك في العمل نوعان:

- شرك أكبر يخرج العبد من الدين بالكلية؛ وهو أن يعمل العمل ويتعبد به لغير الله بأن يصرف نوعا من العبادة لغير الله؛ فمن صلى لغير الله أو سجد لغير الله أو دعا غير الله أو خافه أو رجاه أو تقرب إليه بشيء مما أمر الله به ورسوله - فهو مشرك كافر.

- **النوع الثاني**: أن يعمل العمل لله لكن يقصد به مع ذلك مراءاة الخلق وتعظيمهم، فهذا هو الرياء وهو من الشرك الأصغر، والعمل الذي يشاركه الرياء من أصله يدل عموم هذا الحديث أنه باطل مردود على صاحبه، ومع بطلانه فقد باء صاحبه بالإثم؛ لأنه ترك الإخلاص الواجب عليه، ولأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، وجميع الوسائل للشرك والذرائع التي توصل إليه من الشرك الأصغر، فالشرك الأكبر هو: صرف شيء من العبادات لغير الله، والأصغر هو: ارتكاب ما يوصل إلى ذلك؛ لكن لو عمل العبد العمل لله ثم طرأ عليه الرياء في أثناء عمله فإن دفعه ولم يساكنه لم يضره؛ بل هذا من جهاد الخواطر الردية التي تعرض لكثير من النفوس، فإن لم يدفعه بل ساكنه واطمأن إليه نقص العمل نقصا كبيرا، ويخشى من استمراره مع الإنسان أن يوصله إلى الرياء المحض المبطل للعمل بالكلية.

وقد دل على هذا الأصل العظيم الذي تضمنه هذا الحديث نصوص كثيرة جدا من الكتاب والسنة؛ لأنه الأصل الذي خلق الله له الخلق من الإنس والجن وأمرهم به، ودعت إليه جميع الرسل وجميع الكتب، وهو روح الدين الذي لا يقوم إلا به.

٢- وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل**

النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». رواه مسلم[1].

وهذا أيضا حديث عظيم تضمن معنى الحي القيوم، العظيم، المقسط، فهذا الحديث فيه بعض التفصيل لمعاني هذه الأسماء الحسنى؛ فالقيوم هو الذي قام بنفسه وقامت به جميع الموجودات؛ به وجدت، وبه صلحت وحفظت، وبه قامت السماوات والأرض، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام؛ لأنه جل جلاله كامل من جميع الوجوه لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، والنوم فيه راحة من التعب، وفيه غيبة الأشياء عن النائم والله تعالى لا يمسه تعب ولا لغوب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه وتدبيره مثقال ذرة في العالم العلوي والعالم السفلي، وهو القائم على كل نفس بما كسبت بعدله وقسطه وحكمته ولهذا قال: «**يخفض القسط ويرفعه**». يعني: أن تدبيره للموجودات التي تنزل من عنده والتي تصعد إليه كلها لا تتجاوز القسط والعدل؛ بل هي دائرة بين فضله وعدله فلا يظلم العباد مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]. وهو المجازي للمحسن بإحسانه وفضله، والمسيء بعدله وحكمته، فالخلق كلهم معترفون بحكمته وحمده؛ ولهذا بعدما يقضي بين العباد يوم القيامة بالقسط العظيم ينطق الكون كله بحمده والثناء عليه كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. حتى المعذبون في النار يدخلون النار وقد اعترفوا بعدله وأنهم هم الظالمون كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

ومن كمال قيوميته على كل نفس بما كسبت أن أعمال العاملين من خير وشر ترفع إليه بوقتها حتى إن عمل الليل الماضي يرفع إليه قبل عمل النهار الذي يليه، وعمل النهار الماضي

---

(١) مسلم (١٧٩).

إذا انتهى النهار يرفع إليه قبل عمل الليل الذي يليه، ترفعه الحفظة وترفعه الملائكة الذين يتعاقبون على الناس؛ ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الصبح، فتنزل ملائكة الليل عند الشروع في صلاة العصر، وتبقى ملائكة النهار حتى تفرغ صلاة العصر، وكذلك في الصبح كما ثبت بذلك الحديث الصحيح[1]. وهذا من نعمته على الآدميين أن نزول هؤلاء الملائكة وقت الصلاة الفاضلة وصعودهم بعد فراغها ولهذا إذا سألهم ربهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي قالوا: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون، وما فعل ذلك جل جلاله وعظم كرمه إلا تنويها بهم وإرادة لإكرامهم وصلاة منه عليهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٩]. ثم ختم الحديث بذكر كمال عظمته وجلاله ومجده وملكه وملكوته؛ فقال: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه** - أي: جماله وجلاله وبهاؤه - **ما انتهى إليه بصره من خلقه**». وذلك العوالم كلها لأنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه وعلمه منها شيء، فلو كشف هذا الحجاب العظيم لاحترقت المخلوقات بأسرها؛ لأنها لا يمكن أن تثبت لعظمة العظيم؛ ولهذا لما سأل موسى ﷺ ربه أن ينظر إليه قال: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أي: لن تقدر ولا تثبت لرؤيتي ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية. ولهذا كان أصح الأقوال أن النبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا وإنما حال النور بينه وبينه كما في حديث أبي ذر[2] الذي في الصحيح قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «**نور أنَّى أراه**»[3]. ولولا أن الله تعالى ينشئ أهل الجنة نشأة عظيمة وحياة كاملة لما ثبتوا لرؤية ربهم، وقد ذكر في هذا الحديث النور المخلوق وهو نور الحجاب الذي بينه وبين خلقه، والنور الذي هو وصفه بقوله: «**لأحرقت سبحات وجهه**

---

(١) البخاري (٥٥٥)، مسلم (٦٣٢).

(٢) في المخطوط (ذكر). وهو خطأ محض.

(٣) مسلم (١٧٨).

ما انتهى إليه بصره من خلقه». أي: نوره وبهاؤه وجماله وجلاله الذي هو وصفه، فالله تعالى نور وحجابه نور، ومعرفته والإيمان به في القلوب نور، وكتابه نور ورسوله نور.

واعلم أنه لا تتم معرفة الله والإيمان به إلا بثلاثة أمور:

- **أحدها**: معرفة ما لله تعالى من الأسماء والصفات والأفعال الثابتة بالكتاب والسنة والتفقه في معانيها.
- **الثاني**: الاعتراف بها والإقرار بها على الوجه اللائق بعظمة الله تعالى وجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير نفي لشيء منها ولا تعطيل.
- **الثالث**: الانقياد ظاهرا وباطنا لله، وطاعة الله بتصديق خبره وامتثال أمره واجتناب نهيه.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: **«يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه، والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض»**. أخرجاه في الصحيحين[١].

هذا الحديث دل على سعة فضله وكمال عدله وإثبات اليدين لله، وسبيلهما سبيل جميع الصفات أنه تعالى موصوف بكل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها وأوسعها، وأنه كما لا يماثله أحد في ذاته لا يماثله أحد في شيء من صفاته، ومن نفى شيئا منها متوهما أن ظاهر ذلك التشبيه فقد غلط أفحش غلط؛ فإن الصفات تابعة للموصوف، ومن أثبت شيئا منها دون شيء فقد غلط فيما نفاه وتناقض تناقضا يدل على بطلان قوله، وقد وضح النبي ﷺ في هذا الحديث سعة غناه وسعة عطاياه، وأنه كما أن جميع الموجودات في فضله وكرمه منذ خلقها ولا يخلو آنٌ وحال من الأحوال إلا ولله عليها كلها نعم وإحسان لا تحصى أنواعه فضلا عن أفراده، ومع هذا العطاء الواسع الشامل لجميع المخلوقات في كل الآفاق لم يغض من فضله وكرمه مثقال ذرة؛ لأن فضله وكرمه وغناه من لوازم ذاته، وخزائن العوالم

(١) البخاري (٧٤١١)، مسلم (٩٩٣).

كلها بيده وتحت تصريفه وتدبيره، وإذا أراد شيئا قال له كن فيكون، فلا يتصور أن ينقص شيء من كمال غناه ومن سعة عطاياه مثقال ذرة، والله ذو الفضل العظيم وكذلك سائر صفاته؛ كعلمه وكلامه وقدرته وحكمته وغيرها، فلو نسب علم الخلائق كلهم من أولهم إلى آخرهم إلى علمه لم ينقص من علم الله إلا كما ينقص العصفور إذا نقر في البحر كما قال ذلك الخضر لموسى ﷺ[1]، ومن كمال غناه أنه قال على لسان نبيه ﷺ: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ورطبكم ويابسكم قاموا في صعيد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر**». رواه مسلم[2].

وإذا أخبرنا الله في كتابه أو على لسان نبيه عن غناه وسعة كرمه فذلك يتضمن أمرين:

- **أحدهما**: أن نعرف ربنا بهذا الوصف العظيم، فإن معرفة الله أجلّ المطالب وأعلى الرغائب.
- **والثاني**: حث منه لنا أن نزداد طمعا في فضله وكرمه وأن نسأله كل وقت جميع مطالبنا الدينية والدنيوية.

ولما بين في هذا الحديث سعة فضله ذكر فيه أيضا شمول عدله وأن القسط بيده الأخرى يخفض من يستحق الخفض ويرفع من يستحق الرفع، بحسب الأسباب التي جعلها الله موصلة إلى كل من الأمرين، وهو المحمود على رفعه وخفضه. وحكمته وضعه للأشياء مواضعها وتنزيله للأمور منازلها اللائقة بها؛ ولهذا كان المسلمون كلهم يقولون: إن تفضل وتكرم وأحسن إلى عباده فذلك من فضله، وإن عذب وعاقب فإن ذلك من عدله.

وما أحسن ما قاله بعضهم[3]:

---

(١) البخاري (١٢٢)، مسلم (٢٣٨٠). (٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٩٥.

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

وفي قول النبي ﷺ: «**وبيده الأخرى القسط**». ولم يقل: اليسرى ولا الشمال بيان أنه لا يوصف إلا بالكمال ولا يستعمل لذلك إلا أحسن الألفاظ، ولهذا في بعض ألفاظ هذا الحديث: «**وكلتا يدي الرحمن يمين**»[1].

٤- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيحكم بينهما**». رواه أحمد[2].

هذا الحديث مع الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «**إن الله ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء**»[3]. مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. على قول أكثر المفسرين تدل على أن الحيوانات غير المكلفين يحشرها الله ويقتص لبعضها من بعض؛ ليرى العباد كمال عدله حتى في الحيوانات العجم، ولا ينافي ذلك أن التكليف بالأمر والنهي والشرائع خاص بالثقلين الإنس والجن، لأن هذا نوع خاص من القصاص في ظلم بعضها بعضا، والله تعالى جعل لها معرفة لمنافعها ومضارها؛ فإنه أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلق له، فهي تعرف ما ينفعها من مأكل ومشرب ووقاية من الإضرار، والقوي فيها إذا آذى الضعيف منها عرف ظلمه في ذلك، وكما أنه تعالى يجري عليها في الدنيا من التنعم والتألم وأسباب الإضرار ما يجري مما هو مقتضى طبيعتها ومقتضى حكمة الله - فأي مانع يمنع من بعثها، وأن يجري عليها من الجزاء المؤقت ما يوافق العدل والحكمة؛ ولهذا ورد

---

(١) الطبراني في المعجم الأوسط (٧٦٣٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٠٩).
(٢) أحمد (٢١٤٣٨). وأثبتنا الحديث كما ورد في أحمد وغيره، وقد ورد في المخطوط بلفظ: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال: «**أتدري ما ينتطحان يا أبا هريرة؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري وسيقضي بينهما**».
(٣) مسلم (٢٥٨٢)، أحمد (٧٢٠٤)، الترمذي (٢٤٢٠).

أنه بعدما يقتص لبعضها من بعض يقول لها: كوني ترابا[1].

وأما الجزاء على التكاليف الشرعية التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب والانتهاء إلى دار القرار إما الجنة أو النار دائما أبدا - فذلك خاص بالمتقين كما تواترت به النصوص، وإذا كانت هذه الحيوانات في الدنيا قد تكون عند من يكرمها ويدفع عنها الأذى، وعند من هو بضد ذلك، وذلك راجع إلى حسن الملكة أو إلى سوئها، وهي لم تعمل من الظلم ما يوجب عقوبتها ولا من الإحسان ما يوجب إكرامها في كثير من الأوقات، بل إباحة الله للإنسان ذبحها الذي هو أعظم آلامها؛ تقديما لمصلحة الإنسان على مصلحتها، وأباح له استعمالها بالحمل والركوب والحرث وغيرها من الأعمال لهذا الغرض فكيف لا يجازي ظالمها على ظلمه.

هذا كله بيان أن ذلك موافق للحكمة وللواقع؛ ليعرف بذلك حكمة الشارع، مع أنه يجب على العبد أن يخضع لكل ما ثبتت به نصوص الكتاب والسنة سواء فهم حكمته أو فهم بعضها أو لم يفهمها، فإننا نعرف من حيث العموم أن لله الحكمة في كل شيء وفي كل تدبير قدري وشرعي وجزائي، وهو المحمود على ذلك وإنما قلت ذلك دفعا لقول من قال: إن مثل هذه النصوص يراد بها التمثيل لبيان عدله وأن الواقع بخلاف ذلك، وهذا قول ينافي صريح النصوص، ولكن بعض الناس إذا انعقد في قلبه بعض الشبه حمل على النصوص بالتأويل والتحريف الباطل، والواجب أن تكون العقول تابعة لما جاءت به الرسل مهتدية بشرائع الله وأحكامه التي هي غاية في الكمال والحسن ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. والعقول لا تكمل ولا تهتدي بغير ما جاءت به الرسل؛ انظر إلى من طغوا بعقولهم وعلومهم واستكبروا بها عما جاءت به الرسل كيف كان حالهم وكيف كانت لهم العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]. الآية. وقال تعالى:

---

(١) الغيلانيات (١١٢٥)، تفسير عبد الرزاق (٧٨٦).

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. ثم انظر إلى أئمة الهدى ومصابيح الدجى لما تم اهتداؤهم بما جاء به الرسول كيف فَضَلوا جميع الخلق في عقولهم وعلومهم وهدايتهم وأخلاقهم؟ وكيف كانت لهم العواقب الحميدة والآثار الجميلة والذكر الحسن مدى الأوقات؟ وفي هذا وهذا عبرة لأولي الألباب.

وفي هذا الحديث بيان إحاطة علم الباري بجميع المخلوقات جلائلها ودقائقها حتى إنه يعلم الأسباب التي دعت الحيوانات إلى تصرفاتها المتنوعة فهو يعلم السر وأخفى، ومن باب أولى وأحرى يعلم تعالى ما صدرت عنه أعمال المكلفين من النيات الصالحة وغيرها؛ ولهذا يخبر في كتابه عند ذكر الجزاء والثواب والعقاب باطلاعه وعلمه بذات الصدور وبنيات العباد ومقاصدهم وسيجازيهم على ذلك إن خيرا فخير وإن شرًّا فشر.

٥- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. إلى قوله: ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]. ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تليهما على عينيه. رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم[١].

إنما وضع رسول الله ﷺ إصبعيه على أذنيه وعلى عينيه تحقيقا لإثبات سمع الله وبصره، وذلك أن كل اسم من أسماء الله الحسنى يشتق له صفة من صفاته ويترتب على ذلك حكم تلك الصفة؛ فالسميع البصير من أسمائه الحسنى ويدلان على سمع الله وبصره، وعلى أنه تعالى يسمع جميع المسموعات؛ السر والإعلان والخفي والجلي، ويبصر تعالى جميع المبصرات وإن دقت وصغرت كما قال بعضهم[٢]:

يا من يرى مد البعوض جناحها   في ظلمة الليل البهيم الأليل

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨)، ابن حبان (٢٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٥٥٢٤).

(٢) الكشاف ١/ ٧٢، وفيات الأعيان ٥/ ١٧٣.

ويرى نياط عروقها في نحرها — والمخ من بين العظام النُّحل
امنن علي بتوبة تمحو بها — ما كان مني في الزمان الأول

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. يشمل هذا أمانات الولايات؛ فيجب ألا يولى الولاية كبيرة أو صغيرة إلا الأمناء أهل الكفاية والمعرفة بتلك الولاية، وكذلك أمانات الأموال؛ يجب على من هي بيده أن يحفظها وألا يسلمها إلا إلى صاحبها أو نائبه.

﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النساء: ٥٨]. وهذا يشمل القاضي والأمير وكل من يتولى الحكم بين اثنين أو جماعتين من الناس فعليه العدل في حكمه، وألا يراعي قريبا ولا صديقا ولا يحمله عداوة شخص على الحكم عليه بالهوى.

ولما أمر بأداء الأمانات إلى أهلها الذي هو وظيفة المؤتمنين، وبالحكم بالعدل الذي هو وظيفة الحاكمين، وكانت هذه الأحكام والأصول العظيمة قد بلغت نهاية الحسن والصلاح والإصلاح وأثمرت كل خير وبركة وفلاح - أثنى تعالى على أحكامه ومواعظه الجليلة فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٥٨]. أي: نعم ما يعظكم به ويرشدكم إليه من أصول الرشد والخيرات المنافية للشرور والهلكات.

وختمها بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء: ٥٨]. ليعرفنا بنفسه وليرغبنا في قبول مواعظه ونصائحه، ويرهبنا من الإعراض عنها، ويحثنا على إصلاح النية فيما نأتي ونذر؛ فإن النية الصالحة روح الأعمال وبها يتحقق كل خير وكمال.

٦- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا متى تقوم الساعة إلا الله تبارك وتعالى**». رواه مسلم[1].

---

(١) البخاري (٤٦٩٧). وغير موجود في مسلم.

قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. المفاتيح قيل: إنها الخزائن. وقيل: إنها المفاتيح التي تفتح بها الخزائن. والمعنى متقارب؛ فالباري جلت عظمته وتعالى مجده قد أحاط علمه بكل شيء بجميع وجوه الإحاطة، يعلم جميع ما مضى وجميع ما سيأتي وما هو حاضر، ويعلم العالم العلوي والعالم السفلي، ويعلم الظواهر والبواطن والخفيات والجليات، ويعلم الواجبات والمستحيلات والممكنات، ويعلم ما اطلع عليه الخلق وما لم يطلعوا عليه، ومع سعة علمه وإحاطته فلا يضل ربي ولا ينسى، ولا يغيب عنه مثقال ﴿ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] . وقد أطلع عباده على كثير من المعلومات وأخفى عنهم أكثرها حيث لا سبيل لعلومهم إلى إدراكها، أو حيث لا مصلحة لهم في علمها، ومن ذلك مفاتيح الغيب الخمس المذكورة في هذا الحديث، وهذه المذكورات كلها مستقبلة خفية عن علم الخلائق كلهم كما هو نص الحديث، وغاية ما عندهم علم أسباب ومقدمات لما يقع في مستقبل الزمان، وما يحصل من المطر فعلم الأسباب غير علم المسببات؛ لأن الأسباب لا تكفي وحدها لوجود مسببها، بل لا بد من انضمام قضاء الله وقدره؛ ولهذا كم من أمور يعزم عليها الخلق ويجزمون بوقوعها لتوفر أسبابها ثم تخفق الأسباب؛ ليري عباده أن الأمر أمره والحكم حكمه والقضاء قضاؤه ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فإن ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده، فالأمر بفعل الأسباب النافعة لوجود مسبباتها الدينية والدنيوية لا ينافي أن الله مختص بعلم الغيوب المستقبلة، وكذلك علم الملك بوجود الجنين في بطن أمه إذا أرسله الله لنفخ الروح فيه، وكذلك الكشف الطبي عما في أرحام النساء من الأجنة كله لا ينافي أن الله مختص بعلم ما في الأرحام، فإن الماء الذي يتولد منه الولد لا سبيل لعلم أحد من الخلائق إليه، وأما انتقاله بعد ذلك في أطوار التخليق فقد

يعلمونه من وجه دون وجه آخر، والأطوار الأولة علمهم فيها قاصر جدًّا لا ينتهي إلى درجة العلم بل نهايته الظن، ثم ما تغيض الأرحام وما تزداده من إلقاء الجنين أو إبقائه أو زيادته أو نقصه أو موته أو حياته - كل ذلك لا علم لأحد من الخلق به، وكذلك معرفة الطبيعيين لبعض حوادث الجو وانعقاد السحاب وعدمه علم ظني بعلم بعض الأسباب التي قد يتولد عنها سحاب وقد لا يتولد، وإذا تولد سحاب قد يكون فيه مطر وقد لا يكون؛ فعلم ذلك على الحقيقة يختص الله به ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[1]. أي: أنا وأنت كلنا لا نعلمها، ولما سأله عن أشراطها وعلاماتها أخبره بها، فالعلم بالمقدمات غير العلم بالمقصود.

وهذه الخمس المذكورة في حديث ابن عمر رضي الله عنه نص الله عليها في كتابه في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]. وسعة علم الرب وإحاطته بكل شيء أكبر دليل على عظمة الله وعظمة سلطانه وحكمته وعلى كمال قدرته، وأنه سيبعث العباد الأولين منهم والآخرين؛ ولهذا يستدل على البعث بالعلم مثل قوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق: ٤]. ويستدل به على إيصال جزاء المحسنين والمسيئين إليهم، وأنه يعلم ما عملوه من خير وشر وما يترتب على أعمالهم من الجزاء والثواب والعقاب ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦].

ومن نعمة الله وحكمته طيه عن خلقه علم هذه الأشياء، وخصوصا علم الآجال ومتى تقوم الساعة، فإنهم لو علم كل إنسان إلى أين ينتهي أجله لحضره الهم والغم الذي ربما يقضي عليه، ولحصل التفريط والتجرؤ على المحارم، إذا علم أجله يقول المسرف: سوف أقضي لذاتي المحرمة ثم إذا دنا أجلي تبت وأنبت. ولم يعلم أن الذنوب والجرائم إذا رانت

(١) البخاري (٥٠)، مسلم (٨).

على القلوب فبعيد عليه جدًّا أن يتخلص منها، بل وكذلك إذا دنا أجله ربما وزع ماله على شهوته وإرادته وحرم ورثته المستحقين، وكذلك لو علم الناس ما يكون وما يجري في غد وفي مستقبل أمورهم من خير وشر ونفع وضرر - لتكدرت معيشتهم بل لتعطلت معائشهم، ولكن الأمور المستقبلة في الأرزاق والأسباب والخير والشر جعلها الله مجهولة لهم؛ لينشطوا على الأسباب النافعة ويحذروا من كل ما يخشى منه الضرر، وإبهام الله هذه الأمور وما أشبهها نافع للناس في أمور دينهم ودنياهم كما هو ظاهر لكل متأمل، مع أنه أيضا يضعف بذلك قوة توكل العباد على ربهم في حصول المنافع ودفع المضار فالتوكل يضعف، والنشاط في عمل الأسباب يضعف، وفي ذلك الضرر العظيم، فالحمد لله الذي علم العباد من شرعه وقدره ما به ينتفعون، وطوى عنهم ما ليس لهم به مصلحة، وما ليس لعقولهم سبيل إلى إدراكه.

٧- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لله أشد فرحا بتوبة عبده حيث يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»** أخرجاه[(١)].

هذا الحديث عظيم يدل على سعة رحمة الله وجوده، وعلى رحمته ورأفته الخاصة بالآدمي، وأنه من إحسانه ومحبته تعالى لاستقامة عبده يفرح إذا تاب ورجع إليه هذا الفرح الذي ضرب له النبي ﷺ هذا المثل الذي لا يمكن أن يوجد فرح يتصور أبلغ منه؛ حيث فقد هذا الرجل الذي انفلتت منه راحلته أسباب حياته والأرض فلاة مهلكة لا يرجو من يستنقذه مما هو فيه فاضطجع ينتظر الموت ولا يشك فيه؛ لفقد أسباب الحياة كلها، فبينما هو كذلك إذ راحلته قائمة عند رأسه فأخذ بخطامها وأيقن بالحياة والنجاة دفعة واحدة؛ فانتقل من

---

(١) مسلم (٢٧٤٧). وغير موجود في البخاري.

اليأس الكامل إلى الأمن التام، فلا يتصور فرح أعلى من هذا، ومع هذا فالرب فرحه بتوبة عبده أشد من هذا الفرح، وهو جل جلاله لا ينتفع بطاعة الطائعين وإنما نفعها عائد إليهم، فهذا برهان على أنه تبارك وتعالى لم يخلق الخلق إلا ليتم عليهم نعمته بقيامهم بعبوديته أولا، ثم بنيلهم لغاية كرامته آخرا، فإنه يحب التوابين ويحب القائمين بعبوديته ظاهرا وباطنا، فإذا رجع عبده من ولاية الشيطان إلى ولايته ومن خروجه إلى مساخطه إلى رجوعه إلى محابه - أحب الله ذلك منه محبة شديدة مع غناه التام عنه، وفي هذا من البشارة والرجاء ما لا يمكن التعبير عنه، وفيه حث للعباد إلى رجوعهم إلى ربهم كل وقت، فإن في ذلك صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم العاجلة والآجلة.

وفي هذا الحديث إثبات محبة الله لعباده المؤمنين وفرحه بتوبة التائبين، وسواء كان لتوبةٍ من الكفر إلى الإسلام أو من المعصية إلى الطاعة فإنه الرحمن الرحيم الرءوف الكريم، وهذا من آثار رحمته ورأفته وكرمه الخاص، اللهم أدخلنا برحمتك الخاصة في جملة عبادك الصالحين.

وفيه دليل أن الكلام الذي يصدر من الإنسان بلا قصد، بل خطأ لا إثم عليه، فهذا الرجل أراد أن يشكر ربه ويثني عليه بهذه النعمة العظمى، ويريد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك فأخطأ الصواب في لفظه فلم يؤاخذ بما قال، وفي تشبيه النبي ﷺ بصاحب الراحلة الموصوفة بتلك الصفات فائدة جليلة، وهو أن الطعام والشراب وتوابعها والركوب هي زاد السفر الحسي فكذلك التقوى والقيام بعبودية الله زاد السفر المعنوي، زاد الآخرة، وكما أن فقد الطعام والشراب وتوابعها يؤدي إلى التلف والهلاك، ووجودها به تحصل الحياة؛ فكذلك فقد التقوى بالإصرار على المعاصي يؤدي إلى الهلاك والشقاء، والتوبة منها والرجوع إلى الله هو طريق حياة القلب وحياة الدنيا والآخرة.

وفي هذا الحديث أيضا أكبر دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين؛ بل أرحم بهم من أنفسهم، وعلى أن محبة الله غير مشيئته فالله تعالى يحب التوابين والمؤمنين والصالحين،

ومشيئته متعلقة بكل شيء، وعلى أنه تعالى بيّن لعباده طريق الخير وطريق الشر، ورغبهم في الخير ورهبهم من الشر، وجعل أفعالهم تابعة لإرادتهم واختيارهم فليس لأحد على الله حجة؛ لكنه تعالى جعل لهدايته أسبابا من سلكها هداه وزاده هدى وإيمانا، ولإضلاله أسبابا من اختارها لنفسه ولاه ما تولى لنفسه، ولم يوفقه للهداية لكمال حكمته تعالى، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٨- عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»**. رواه مسلم[1].

وهذا من آثار جوده وكرمه ورحمته أن العاصين لا يعاجلهم بالعقوبات، بل يحلم عليهم ويمهلهم، بل يستدعيهم إلى التوبة عاجلا وعدم الإصرار عليها، ويرغبهم في رحمته ومغفرته وثوابه، وييسر لهم كل طريق يوصلهم إلى التوبة والإنابة، وأن هذا الاستدعاء والترغيب والتشويق لهم إلى التوبة مستمر لا ينقطع حتى تأتي مقدمات القيامة وتطلع الشمس من مغربها فيسد باب التوبة قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وقد فسر ذلك النبي ﷺ بطلوع الشمس من مغربها، فكل من أسلم بعد ذلك أو تاب من ذنوبه أو ازداد عملا غير الذي كان يعمل لم ينفعه؛ لأن الأمر صار شاهدا والإيمان وتوابعه إنما ينفع إذا كان غيبا، ومفهوم الآية الكريمة أن المؤمن الذي كانت له أعمال يعملها قبل هذه الآيات أنه ينتفع بإيمانه السابق وأعماله السابقة، ويقارب هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم مرفوعا: **«من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل**

---

(١) مسلم (٢٧٥٩).

صحيحا مقيما»[1]. ويدخل في المرض: الجنون والإغماء وكذلك بلوغ العبد سن التخريف إذا ترك ما كان يعمله وعقله معه يرجى أن يكتب له ما كان يعمله ومن نيته الاستمرار عليه، ولا يستغرب ذلك على كرم الكريم.

وفي هذا الحديث إثبات اليدين لله وقد ثبت بهما الكتاب والسنة، وطريقها عند أهل السنة طريق باقي الصفات أنه يجب إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته رسوله على الوجه اللائق بعظمة الباري من غير تعطيل ولا تمثيل، ومن الانحراف عن الصراط المستقيم أن نستدرك على الله وعلى رسوله فنحرف شيئا من صفاته ونقول: إن المراد بها كذا وكذا. مما هو مخالف لصريح النصوص؛ بل نقول ما قاله الله عن نفسه أو قاله رسوله متيقنين أنه الحق وما سواه باطل، ونسأل الله العافية من داء التعطيل لشيء منها وداء التمثيل.

وهذا الحديث الدال على كمال رحمة الله وسعة كرمه ومغفرته المقصود به أمران: أن نعرف الله تعالى بما عرفنا به نبينا ﷺ، وأن نسلك كل طريق يوصلنا إلى رحمته وكرمه ومغفرته نسأل الله أن يحقق لنا ذلك بمنه وكرمه.

٩- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قدم على النبي ﷺ بسبي هوازن فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار»**. قلنا: لا والله. فقال: **«الله أرحم بعباده من هذه بولدها»**. متفق عليه[2].

وهذا الحديث أيضا يدل على سعة رحمة الله وغلبتها وتقدمها على رحمة كل راحم، والنبي ﷺ أحب أن يفهم المسلمون عنه شدة رحمة الله ورأفته؛ حيث مثل بهذه الأم الحنون التي ذهلت نفسها وذهلت غيرها عند فقدها لولدها، ثم لما وجدته ألزقته في بطنها

---

(١) البخاري (٢٩٩٦). وهو غير موجود في مسلم كما قال الشيخ.

(٢) البخاري (٥٩٩٩)، مسلم (٢٧٥٤).

وأرضعته فالله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكيف تقارب رحمة الأم - وإن بلغت في الحنان ما بلغت - رحمة أرحم الراحمين الذي رحمة الوالدين ورحمة غيرهم لا تنسب إلى رحمة الله بوجه من الوجوه، فالله تعالى هو الذي برحمته أوجدهم، وبرحمته أحسن خلقهم وقوى أسرهم، وبرحمته جعل لهم القوى الظاهرة والباطنة، وبرحمته سبب لهم أسباب المعائش والأرزاق المتنوعة، وبرحمته أسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة فما بالعباد من نعمة فمن الله، وبرحمته أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبين لهم طريق النجدين؛ طريق الخير والشر، وبرحمته حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين فضلا منه ونعمة، وبفضله ورحمته ألقى في قلوبهم التوبة فتابوا ثم قبلها منهم، وهو الذي برحمته أتاهم من كل ما سألوه بلسان المقال أو بلسان الحال، وبرحمته أعد للطائعين - الذين طاعتهم من رحمته - أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى غير ذلك من أجناس رحمته وأنواعها فضلا عن أفرادها، فمن هذه رحمته وهذا شأنه يستحيل أن تكون رحمة أحد تقارب أو تنسب إلى رحمة أرحم الراحمين.

وفي هذا الحديث الحث على السعي في طلب رحمته بسلوك كل سبب يوصل إلى الرحمة، وهي مذكورة في الكتاب والسنة، وفيه إثبات رحمة الله وأنها من جملة أوصافه والقائمة به التي لا تزال آثارها في كل اللحظات تترى على العباد، ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

١٠ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»**. رواه البخاري[(١)]، ولهما عنه[(٢)] أن رسول الله ﷺ قال: **«جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ونزل في الأرض جزءا واحدا**

---

(١) البخاري (٣١٩٤)، وهو في مسلم (٢٧١٥).

(٢) أي: للبخاري ومسلم عن أبي هريرة.

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1]. ولمسلم من حديث سلمان معناه وفيه: «**كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة**»[2].

هذان الحديثان كما سبق يدلان على سعة رحمة الله وأنها وسعت كل شيء، وكمال ذلك أن الله كتب على نفسه أن رحمتي تغلب أو تسبق غضبي، فهذا فيه بشرى عظيمة أنه إذا وجد موجبان؛ موجب للرحمة وموجب للغضب فإن رحمة الله تغلب غضبه، وقد ظهر ذلك في شرعه وفي قدره؛ حيث إن العامل للسيئات تكتب له السيئة واحدة، وهي على رجاء الغفران، وتكتب له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، والكون كله مملوء من رحمة الله، وهذه الرحمة التي في قلوب الخلق، والحنان فيما بينهم - خصوصا الأمهات على أولادها - جزء من مائة جزء من رحمة الله، وسيضم هذا الجزء إلى تسعة وتسعين جزءا؛ كل جزء يملأ ما بين السماوات والأرض فيرحم بها عباده، ويظهر في موقف القيامة للخلائق من رحمة الله وجزائه للطائعين وعفوه عن العاصين ما لا تعبر عنه الألسن، ولعل هذا سر ذكر الرحمن مقرونا بيوم الدين في عدة مواضع من القرآن؛ مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨]. والعبد في هذه الدنيا إذا استحضر كثيرا من نعم الله عليه وعلى غيره وآثار رحمته أوجب له ذلك أن يمتلئ قلبه من محبة الله، وأن يسعى في كل سبب جعله الله موصلا إلى رحمته، وهذا من أعظم مقاصد نصوص الكتاب والسنة، فإنها كما أنها خبر عن الله فإنها حث للعباد على تعلق قلوبهم وأعمالهم بالله وبرحمته وجوده.

واعلم أن الرحمة صفة من صفات الله الذاتية الفعلية فإنه لم يزل ولا يزال رحيما متصفا بالرحمة، ومن آثارها جميع خيرات الدنيا والآخرة؛ ولهذا لما كانت الجنة جامعة من أصناف

---

(١) البخاري (٦٠٠٠)، مسلم (٢٧٥٢).

(٢) مسلم (٢٧٥٣).

النعيم وفنونه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح والأبدان سماها الله رحمته فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. وفي الحديث الصحيح حين تحاجت الجنة والنار وفيه: «**فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها**»[١].

١١- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته**». رواه مسلم[٢].

هذا الحديث يدل على خلاف ما يقوله كثير من أهل العلم من أن عمل الكافر مهدر غير مقبول، ويطلقون الكلام إطلاقا، والتحقيق أن في ذلك تفصيلا تدل عليه النصوص، وهو أن الحسنات التي يستحق بها دخول الجنة أو النجاة من النار أو الخروج منها لا يستثنى منها شيء، فليس شيء من أعمال الكفار - وإن كثرت - توجب دخول الجنة أو توجب النجاة أو توجب الخروج من النار؛ لأن النصوص من الكتاب والسنة تواترت في تحريم الجنة على كل كافر، وأنه لا يدخلها إلا المؤمنون كذلك تواترت في خلود جميع أصناف الكفار في النار، وأنه لا يخرج منها أحد لا بعمل عملوه ولا بشفاعة ولا غيرها، وأما الحسنات التي يعملها الكافر في الدنيا لله - وخصوصا الإحسان المالي أو غيره إلى الخلق - إذا كان قصده وجه الله فإن الله يطعمه في الدنيا ويجازيه فيها على ذلك العمل؛ إما بعافية بدنه أو سلامته من أخطار أو زيادة رزق أو حصول ولد أو غير ذلك مما يتنعم به في الدنيا كما دل عليه هذا الحديث، بل وكذلك في تخفيف عقوبات الدنيا وعقوبات الآخرة فإن الكفار في النار دركات بحسب غلظ كفرهم وخفته ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]. ولهذا

(١) البخاري (٤٨٥٠)، مسلم (٢٨٤٦).

(٢) مسلم (٢٨٠٨).

لما كان أبو طالب عم النبي ﷺ له من نصرة النبي ﷺ، والقيام معه ما هو معروف؛ خفف الله عنه عذاب النار فكان في ضحضاح من نار عليه نعلان يغلي منهما دماغه[1]. ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار،لأن كفره كفر معرفة وعناد؛ لأنه تحقق أن محمدا رسول الله واعترف بذلك ولكن دين قومه وأجداده اختاره على دين الله، بل وكذلك العقوبات الدنيوية من تأمل عقوبات الله للطاغين رآها بحسب ما هم عليه من الطغيان؛ كما جرى للأقوام الذين كذبوا الأنبياء فعاقبهم عقوبات مناسبة لجرائمهم، وانظر لقضية الأحزاب الذين تحزبوا على النبي ﷺ وأصحابه يوم الخندق لما كان اليهود هم الأصل والسبب الذي جيشوا وحزبوا الأحزاب؛ صارت العاقبة السيئة على رءوسهم، ومن نظر في أحوال وقته وما قبله بيسير رأى معظم الشرور وفظائعها عمل أهل البغي والطغيان، وإن كان لغيرهم نصيب منها، هذه حالة الله في أعدائه وكلها موافقة للعدل والحكمة، وأما المؤمنون فإن الله يجمع لهم بين خير الدنيا والآخرة، فإذا عملوا الحسنات حصل لهم جزاء في الدنيا ورزق وحياة طيبة، وجزاء أخروي بحسب أعمالهم وفضل الله عليهم كما في هذا الحديث وكما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤].

١٢- وله عنه مرفوعا: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»**[2].

هذا الحديث فيه أن الله يرضى عن عبده إذا عمل ما يحبه: إما عبادات مستقلة كالصلاة والصيام والصدقة ونحوها وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الخلق وتوابع ذلك،

(١) البخاري (٣٨٨٥)، مسلم (٢١٠).

(٢) مسلم (٢٧٣٤).

فإن الأعمال الصالحة هي موضوع مراضيه، فمن فعل منها ما يرضيه؛ رضي الله عنه؛ ولهذا لما كمل المؤمنون مراتب الخير كلها أخبر عنهم بالرضا المطلق منه ومنهم فقال: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] الآية. وقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية.

فقد أخبر عن جميع طبقات المؤمنين أنهم نالوا رضا ربهم لما قاموا بما يحبه ويرضاه، هذا النوع أشرف أنواع ما ينال به رضا الله.

النوع الثاني: العادات وتناول الطيبات من أكل وشرب وتوابعها، إذا تناولها العبد لقصد الاستعانة بها على طاعة الله وإقامة البنية والقيام بالواجب والمستحب له ولعائلته، ثم حمد الله عند تمامها - فإن الله يرضى عنه وتنقلب عاداته عبادات، وتكون الطيبات له خالصة يوم القيامة، فيجمع الله له بين نعيم الدنيا وطيبها وبين نعيم الآخرة، فسبحان من لا يحصي أحد ثناء عليه ولا تعد نعمه وآلاؤه.

وفي هذا الحديث إثبات الرضا لله كما في بقية النصوص من الكتاب والسنة، وهو صفة من صفات الله، وفيه إثبات الأفعال الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله وقدرته، وأنها لا تزال في كل وقت، فالله في كل وقت ويوم له شأن من الشئون يبديها ويبتديها ولم يزل ولا يزال فعالا لما يريد مما تقتضيه حكمته وحمده تبارك وتعالى.

١٣- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا فيه ملك ساجد لله تعالى، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجئرون إلى الله»**. رواه الترمذي، وقال حديث حسن[١].

(١) الترمذي (٢٣١٢).

قوله: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»** في الصحيحين من حديث أنس[1].

هذا الحديث دليل على عظمة الله وعظمة سلطانه وكثرة الملائكة، واشتغالهم في كل أوقاتهم بالعبادات والخضوع لله تعالى فهم على سعة السماوات وعظمها قد ملئوها حتى لم يبق فيه موضع إلا هو معمور بهم، والأطيط: صوت الرحل إذا ثقل عليه الراكب أو الحمل. فالسماوات من كثرة الملائكة الذين عليها أطت ويحق لها أن تئط، وقال تعالى عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ثم خوفهم ﷺ هذا التخويف العظيم فقال: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجئرون إلى الله»**. فأبهم ﷺ الشرط فدل على أنها المعلومات التي توجب هذه الآثار؛ وذلك كالعلم بعظمة الله وكبريائه وشدة عقابه وما أعد للعاصين من العذاب والنكال، والنبي ﷺ وإن كان يعلم هذه الأمور لكن لقوته وكماله وقدرته على أداء الحقوق لا يمنعه هذا العلم من القيام بحقوق الخلق والتلذذ بالنساء، أما أمته فلضعفهم وعجزهم عن تحمل هذا المعلوم الذي أشار إليه ﷺ، فمن رحمة الله بهم أنه لم يظهر لهم من عظمته وشدة عقابه إلا بقدر ما يتحملون، وبقدر ما يحصل به المقصود منهم بحيث لا يشغلهم عن القيام بمصالح دينهم ودنياهم، وهذا من نعمته وحكمته، ويقارب هذا أنه ﷺ كان يواصل وينهي أمته عن الوصال ويقول: **«أيكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»**[2].

١٣- ولمسلم عن جندب مرفوعا: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؛ إني قد غفرت له وأحبطت عملك»**[3].

---

(١) البخاري (٤٦٢١)، مسلم (٢٣٥٩).

(٢) البخاري (٧٢٩٩)، مسلم (١١٠٣).

(٣) مسلم (٢٦٢١).

وهذا أيضا فيه بيان سعة فضل الله ومغفرته، فإن هذا الرجل الذي غفر الله له قد كان مسرفا على نفسه وكان هذا القائل يراه على الذنب المرة بعد المرة فينهاه، فحمله ما حمله حتى قال هذه المقالة التي فيها التألي على الله والحجر على رحمته، وفيها شوب ترفع ونوع كبر لعل هذا هو السبب الذي أحبط الله به عمله بهذه المقالة؛ فليحذر العبد من المقالات التي فيها نوع تألٍّ على الله وإدلال وترفع، وليعلم أن الله فوق ما يظن الظانون؛ فإنه الحليم الرحيم الذي يمهل عباده ويعفو عنهم ويفتح لهم أبواب الخير، ولا يمنعه معاودتهم للذنوب إذا رجعوا إليه وأنابوا.

١٤- وله عن أبي هريرة مرفوعا: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد»**[(١)]. وللبخاري عن ابن مسعود مرفوعا: **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»**[(٢)].

هذان الحديثان يوجبان للعبد أن يكون بين الخوف والرجاء إن نظر إلى رحمة الله العامة والخاصة رجا وطمع، وإن نظر إلى عدل الله وعقوبته للعاصين خاف وخشي، وكذلك في حديث ابن مسعود أن الجنة والنار أقرب إلى العبد من شراك نعله؛ لأن مدار ذلك على صحة الإيمان والتوحيد أو عدمه، فمن كان مؤمنا لا يشرك بالله شيئا فهو من أهل الجنة، ومن كان مشركا فهو من أهل النار، ومن قرب الجنة والنار أن العبد قد يعمل بطاعة الله في كل عمره ثم يزيغ عن الحق في آخر حياته فيكون من أهل النار، وقد يعمل بعمل أهل النار ثم يوفقه الله آخر حياته للإنابة إليه فيختم له بعمل أهل الجنة.

ومن ذلك: **«إن العبد يتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له رضوانا، ويتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له سخطه»**[(٣)].

---

(١) مسلم (٢٧٥٥).

(٢) البخاري (٦٤٨٨).

(٣) الترمذي (٢٣١٩)، ابن ماجه (٣٩٦٩)، وأصله في الصحيحين بلفظ آخر، البخاري (٦٤٧٨)، مسلم (٢٩٨٨).

ومن ذلك أن بَغِيًّا سقت كلبا يلهث من العطش ورحمته فرحمها الله وغفر لها، وأن امرأة عُذبت في هرة ربطتها حتى ماتت جوعا وعطشا. ومن ذلك أن من وصل رحمه وصله الله ومن قطعها قطعه الله. ومن ذلك أن من علم الله من نيته وقصده اتباع الهدى وفقه الله إليه وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن رد الحق ورأى طريقه فزهد فيه ولاه الله ما تولى وخذله وضل عن الصراط المستقيم، ومن أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن أعرض عن الله أعرض عنه، وهكذا ما أشبه هذا من الأمثلة، وكذلك الأعمال تابعة لنياتها وإنما لكل امرئ ما نوى؛ ولهذا ذكر الشيخ بعده هذا الحديث.

١٥- وعن أبي هريرة مرفوعا: «**إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر قد اندلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته فغفر الله لها به**»[١]. وقال: «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**». قال الزهري: لئلا يتكل أحد ولا ييأس. أخرجاه[٢].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم**». رواه البخاري[٣].

وذلك أن من أسمائه الحسنى الذاتية الحليم الصبور، فحلمه تعالى وصبره لا يمكن أن يماثله فيه أحد كبقية صفاته، وحلمه وصبره عن كمال قدرة وعن سعة رحمة، فالخلق يؤذونه بتكذيبه ومحاربته ومحاربة رسله، وهو تعالى يمهلهم ويمدهم بالعافية والأرزاق والنعم السابغة، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم مع كمال غناه عنهم ويتمقتون إليه بالمعاصي مع شدة فقرهم إليه، وهذا الحلم والصبر العظيم الذي لا يشبهه شيء مما يجذب قلوب العباد إليه وإلى الإنابة إليه والحياء منه، ولما كانت هكذا معاملته

---

(١) مسلم (٢٢٤٥).

(٢) البخاري (٣٣١٨)، مسلم (٢٦١٩). وقول الزهري رواه مسلم.

(٣) البخاري (٧٣٧٨)، وهو في مسلم كذلك (٢٨٠٤).

للعاصين فكيف معاملته للطائعين، ومع هذا الحلم والصبر إذا تاب العبد إليه محي عنه ما سلف من الجنايات فكأنه ما كان منه شيء، فنسأله تعالى أن يعرفنا به وبأسمائه وصفاته معرفة صحيحة إنه جواد كريم.

١٦- وله عن أبي هريرة مرفوعا: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»[١].

وهذا من آثار رحمته ولطفه بأصفيائه وأحبائه الذين قاموا بمحابه أن الله يحبهم ويحببهم إلى ملائكته وإلى أهل الأرض، وهو من البشارات العاجلة، ولا ريب أن محبة الملائكة لهم ومحبة المؤمنين ينالهم فيها خيرات كثيرة فنفس محبتهم لهم نافعة لهم حيث كانت لله متصلة به وما يتأثر عنها من الدعاء والثناء والصلاة عليهم، وإذا أحبه المؤمنون ووضع له القبول بين الناس كان كلامه معتبرا ونصائحه مقبولة وآثاره مأثورة وأقواله وأفعاله مؤتما بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفي هذا الحديث كغيره من النصوص في الكتاب والسنة إثبات محبة الله لأحبابه ولخيار خلقه، وأن ثمراتها أجلّ الثمرات، فإذا كانت هذه الثمرات الخارجية محبة خيار الخلق له من الملائكة والآدميين فما ظنك بما يوفقه الله له من الأعمال الداخلة في كسبه وأن الله سينميها له أضعافا مضاعفة وما ذلك على كرم الودود بعزيز.

١٧- وعنه رضي الله عنه مرفوعا: «**عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**». رواه أحمد والبخاري[٢].

وهؤلاء هم الذين كانوا راضين بما هم عليه من الكفر وترك الإيمان بالله المفضي

(١) البخاري (٣٢٠٩)، مسلم (٢٦٣٧).
(٢) البخاري (٣٠١٠)، أحمد (٨٠١٣).

بصاحبه إلى الهلاك الأبدي، فيقيض الله لهم من يلزمهم أن يهتدوا إلزاما؛ إما بجهاد المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا؛ فيقاومونهم هؤلاء الكفار فينصر الله المسلمين عليهم ويذعنون إلى الحق ويدخلون في الدين كرها وخوفا، وبعد ذلك يكون الدين أحب إليهم من كل شيء كما هو حال أكثر من يدخل في الإسلام رهبة أو رغبة، وكذلك من يلتزم التوبة من العصاة، أو يسلك طريقا من الخير بغير اختياره ثم بعد ذلك يحسن نيته وقد ورد في الحديث: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1].

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» - وتلا قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. رواه الجماعة[2].

هذا الحديث من جملة الأدلة الكثيرة الدالة على أن المؤمنين يرون ربهم تعالى في الجنة ويتنعمون برؤيته، وذكر لهم هذا المثال الذي هو أوضح الأمثلة، وهذا تمثيل للرؤية بالرؤية لا للمرئي - وهو القمر - بالمرئي وهو الله؛ لأنه ليس كمثله شيء. وبعدما ذكر النبي ﷺ رؤيتهم لله تعالى حضهم على المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر؛ لأنه ثبت في الصحيحين: «**من حافظ على البردين دخل الجنة**»[3]. أي: ومن دخل الجنة رأى ربه تبارك وتعالى.

وقد ثبت في الصحيح أن خواص الخلق ينظرون إلى ربهم بكرة وعشيا[4]، فلعل الحديث أشار إلى أن من حافظ على الفجر والعصر وافتتح نهاره وختمه بذكر الله - رجي أن يكون من الذين ينظرون إلى الله بكرة وعشيا.

---

(١) قول مأثور عن عمر بن الخطاب، أورده الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ١٠٧.

(٢) البخاري (٥٧٣)، مسلم (٦٣٣)، أبو داود (٤٧٢٩)، الترمذي (٢٥٥١).

(٣) البخاري (٥٧٤)، مسلم (٦٣٥). بلفظ مقارب.

(٤) الترمذي (٢٥٥٣).

١٨- وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه**». رواه البخاري[1].

هذا أشرف حديث في فضل الأولياء أو كرامتهم على الله؛ فمن ذلك أن الله جعل معاداتهم محاربة له لمحبته لهم وعلو مقامهم وأن الله تعالى يسددهم في جميع حركاتهم وسكناتهم ويكون معهم في كل أحواله إذا قاموا بولايته، وأن ولاية الله مدارها على أداء فرائض الله والقيام بحقوقه وحقوق عباده، ثم الازدياد من نوافل العبادات كلها من صلاة وصيام وصدقة وحج وذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه، وذلك من العبادات ومن الإحسان المتعلق بمن لهم حق خاص من أقارب وجيران ومماليك ومعاملين وأصحاب، ومن لهم حق عام من جميع الخلق فمن أدى الفرائض وتقرب إلى الله بالنوافل - أحبه الله وسدده وكان الله معه وأجاب الله دعوته وأحب الله كرامته وكره الله مساءته حتى في الأمر الذي لا بد منه وهو الموت، فإن الله قضى قضاء محتما أن كل نفس ذائقة الموت، ولما كان وليه عنده في غاية الكرامة والله أرحم به من والديه ومن نفسه - صارت كراهة الولي للموت يكرهها الله لمشقتها على عبده المؤمن، ولكن الله منفذ أمره، ومع ذلك فهذه المشقة العظيمة التي يجدها المؤمن عند الموت يثيبه الله عليها، فإنه تعالى قضى أنه لا يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه[2]. وكذلك مع ثوابه يلطف به في هذا المصرع ويتحمل عنه ويسهل عليه، فإنه من تعرف إلى الله في الرخاء عرفه في الشدة وأعانه على كل مشقة.

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) البخاري (٥٦٤٢)، مسلم (٢٥٧٢).

وفي هذا الحديث إثبات محبة الله لعباده المؤمنين وأنها تتفاوت بتفاوت ما منّ الله به على أوليائه من طاعته وطاعة رسوله قلةً وكثرة وحسنا وضده، وفيه أن الفرائض أفضل من النوافل وأنها مقدمة عليها فمتى تزاحمت الفرائض والسنن فالفرائض هي المقدمة. اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك.

وفي الحديث برهان على أن محبة الله غير مشيئته، فإن مشيئته تتعلق بكل كائن موجود فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأما محبة الله فإنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال فمحبته خاصة ومشيئته عامة.

واعلم أن معاداة أولياء الله نوعان:

- **أحدهما**: أن يعاديهم لأجل ولايتهم لله وقيامهم بدينه، فهذا كفر وردة ومحاربة تامة لله ورسوله.
- **والنوع الثاني**: أن يعاديهم لأغراض دنيوية ولعصبية جاهلية ولتأويل يحسبه المتأول حقًّا، فهذا لا يلحق بالأول، وهذا النوع مراتب بحسب الدواعي إلى هذه المعاداة، وبحسب ما يقوم في القلوب من الشبه حتى قد يشتبه الأمر على طائفتين أو شخصين كل منهم يرى أن الحق معه، وكلهم يريد الحق، فهذا النوع لا يدخل في هذا الحديث فلا بد من هذا النظر وهذا التفصيل، وتفصيل القضايا في هذا يطول. والله أعلم.

١٩- وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من ما يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»**. متفق عليه[1].

أحاديث نزول الرب إلى السماء الدنيا تواترت واعتقدها أهل السنة على حقيقتها وتبرءوا من تحريفات أهل البدع، وعلموا مع ذلك أن الله لم يزل ولا يزال عليًّا، وأنه ينزل كيف يشاء

(١) البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٨٥).

ليس كمثله شيء، وهذا يدل على كمال رحمته وعنايته العظيمة بعباده ولهذا في بعض ألفاظ هذا الحديث أن الله يقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري**»[1]. وهذا من رحمته الخاصة حيث يدعو عباده إلى دعائه وسؤاله واستغفاره ووعده أن يستجيب لهم، وحث لهم على القيام في آخر الليل والتهجد والتضرع إليه، وهذا أخص من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. فتبارك من كثرت خيراته وتوالت على عباده مبراته وبركاته.

٢٠- وعن أبي موسى مرفوعا: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**». رواه البخاري[2].

الظاهر أن هاتين الجنتين الذهبيتين والجنتين الفضيتين هما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وهما الذهبيتان، ثم وصفهما بتلك الأوصاف العظيمة ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]. وهما الفضيتان، ثم وصفهما، وفي كلتا الجنتين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي هذا الحديث بيان لكمال قربهم من ربهم وابتهاجهم برضوانه والنظر إليه، وأهل الجنة درجات متفاوتة جدًّا بحسب ما قاموا به من الإيمان وشرائعه؛ فأعلاهم المقربون وهم السابقون في الدنيا إلى كل خير، ثم المقتصدون، ثم من دونهم وما فيهم دني، بل كل واحد عنده من النعيم الكامل والسرور التام وأصناف الخيرات ما لا يريد له بدلا ولا يطلب عنه حولا، نسأل الله من فضله وكرمه.



(١) أحمد (١٦٢١٥)، الدارمي (١٥٢٢).

(٢) البخاري (٤٨٧٨)، مسلم (١٨٠).

مجموع مؤلفات ابن سعدي (٣٢)

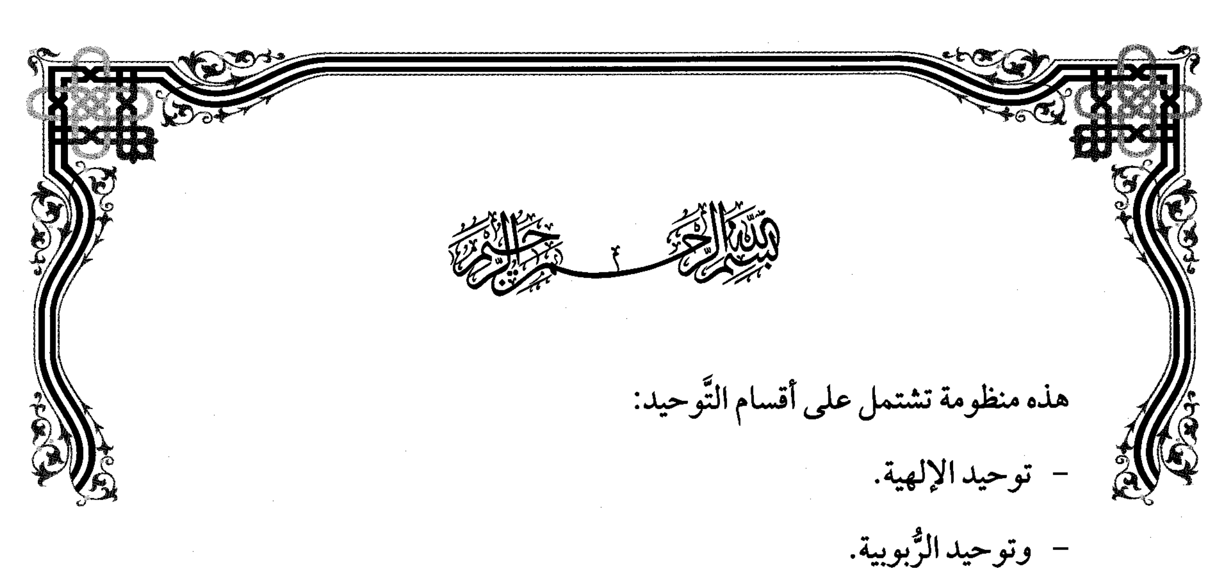


منهج الحق

منظومة في العقيدة والأخلاق

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

يطبع لأول مرة



هذه منظومة تشتمل على أقسام التَّوحيد:

- توحيد الإلهية.
- وتوحيد الرُّبوبية.
- وتوحيد الأسماء والصِّفات.
- وعلى أمَّهات عقائد أهل السُّنَّة والجماعة التي اتَّفقوا عليها.
- وعلى التَّفكُّر في مخلوقات الله، وآياته الدَّالة عليه.
- وعلى أسمائه وصفاته.

ومشتملة على:

- التَّخلُّق بالأخلاق الجميلة.
- والتنزُّه من الأخلاق الرَّذيلة.

إذ هذه الأمور أصول العلوم وأمَّهاتها، وهي للشَّيخ: عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي، جزاه الله خيرًا، آمين، وهي هذه

مقدمة

١- فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْـحَقِّ يَبْتَغِي ... سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ[1] حَقًّا وَيَسْعَدُ

٢- تَأَمَّلْ هَدَاكَ اللهُ مَا قَدْ نَظَمْتُهُ ... تَأَمُّلَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ

[في التوحيد]

٣- نُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ... إِلَـهٌ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مُمجَّدُ

٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي ... نُخَصِّصُهُ بِالحُبِّ ذُلًّا وَنُـفـرِدُ

٥- فلِلَّهِ كُلُّ الْـحَمْدِ وَالْـمَجْدِ وَالثَّنَا ... فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلٌّ إِلَى اللهِ يَقْصُدُ

٦- تُسبِّحهُ الْأَمْلَاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَا ... وَكُلُّ جَمِيعِ الْـخَلْقِ حَقًّا وَتَحْمَدُ[2]

[في التنزيه وصفات الرب الكريم]

٧- تَنَزَّهَ عَنْ نِدٍّ وَكُفْءٍ مُمَاثِلٍ ... وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَلَّ الْـمُوَحَّدُ

٨- وَنُثْبِتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا ... وَنَبْرَأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

٩- فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ ... فسَلِّمْ لِـمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ

١٠- هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعِظْمِ صِفَاتِهِ ... وَكُلُّ جَمِيعِ الْـخَلْقِ للهِ يَصْمُدُ

١١- عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرُهُ ... قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِالوَرَى مُتَوَدِّدُ

---

(١) يريد بالقوم الصحابة والتابعين وتابعيهم من السلف الصالح رضوان الله عليهم جميعا.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٢- هُوَ الحَيُّ وَالْقَيُّومُ ذُو الْجُودِ وَالْغِنَى ... وَكُلُّ صِفَاتِ الْحَمْدِ للهِ تُسْنَدُ

١٣- أَحَاطَ بِكُلِّ الْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً ... وَبِـرًّا وَإِحْـسَـانًـا فَـإِيَّـاهُ نَعْبُدُ

١٤- وَيُبْصِـرُ ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا ... وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَيَشْهَدُ

١٥- لَهُ الْـمُلْكُ وَالْحَمْدُ الْـمُحِيطُ بِمُلْكِهِ ... وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الْخَلْقُ تَشْهَدُ

١٦- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى ... كَمَا قَالَهُ الْـمَبْعُوثُ بِالحَقِّ أَحْمَدُ(١)

[الإيمان بالرسل]

١٧- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ رُسْلَهُ ... بِآيَاتِهِ لِلْخَلْقِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ(٢)

١٨- وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسْلِ وَالْخَلْقِ كُلِّهِمْ ... بِحِكْمَتِهِ جَلَّ العَظِيمُ الْـمُوَحَّدُ(٣)

١٩- فَأَفْضَلُ خَلْقِ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَا ... نَبِيُّ الْهُدَى وَالعَالَـمِينَ مُحَمَّدُ(٤)

[في الصحابة وآل البيت]

٢٠- وَخَصَّ لَهُ الرَّحمنُ أَصْحَابَهُ الأُلَى ... أَقَامُوا الْهُدَى وَالدِّينَ حَقًّا وَمَهَّدُوا

٢١- فَحُبُّ جَمِيعِ الآلِ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا ... مَعَاشِرَ أَهْلِ الْحَقِّ فَرْضٌ مُؤَكَّدُ

(١) يشير إلى قول النبي ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

(٣) كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(٤) كما قال النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ». الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) وغيرهما.

[القرآن كلام الله ليس بمخلوق]

٢٢- وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا مُجَوَّدُ

٢٣- وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنَّى لِخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ اللهِ إِذْ هُوَ أَمْجَدُ

[كل الأمور بتقدير الله]

٢٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّـرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ

[في الإيمان]

٢٥- وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ[(١)] مِنَ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقَيِّدُ

٢٦- وَيَزْدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعْ تَرْكِ مَا نَهَى وَيَنْقُصُ بِالعِصْيَانِ جَزْمًا وَيَفْسُدُ[(٢)]

[أحول القيامة]

٢٧- نُقِرُّ بِأَحْوَالِ القِيَامَةِ كُلِّهَا وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ

---

(١) يشير إلى قول أهل السنة: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان. على أن عبارات السلف تختلف فى التعبير عن هذا المعنى . فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع سنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح . وكل هذا صحيح . وقد بينه ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٠، والإيمان ص١٢٢. ويمكن الرجوع إلى ابن أبى شيبة: الإيمان ص ٥٠، والبغوي: شرح السنة ١/ ٣٨، ٣٩، والنووي: شرح صحيح مسلم ١/ ١٤٦، واللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٣٢، وابن عبد البر: التمهيد ٩/ ٢٣٨، وابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٤/ ١٩٤، ١٩٥، وابن تيمية: مجموع الفتاوي ٧/ ١٧٠، وابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧، وابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٥٩، والسفاريني: لوامع الأنوار ١/ ٤٠٣ .

(٢) وهو مذهب أهل السنة خلافا للأشاعرة، ينظر اعتقاد الإمام المنبل أبي عبد الله أحمد بن حنبل ص ٣٧، وشرح النووي على صحيح مسلم ١/ ١٤٦، وشرح السنة للبغوي ١/ ٣٨، وشعب الإيمان للبيهقي ١/ ٧٧، والتمهيد لابن عبد البر ٩/ ٢٣٨، ولوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٤٣١.

[آثار الخالق]

٢٨- تَفَكَّرْ بِآثَارِ العَظِيمِ وَمَا حَوَتْ ... مَمَالِكُهُ العُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ
٢٩- أَلَمْ تَرَ هَذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا ... فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ
٣٠- تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعِهَا ... كَوَاكِبُهَا وَقَّادَةٌ تَتَرَدَّدُ
٣١- أَلَيْسَ لِهَذَا مُحدِثٌ مُتَصَرِّفٌ ... حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَفَرِّدُ
٣٢- بَلَى وَالَّذِي بِالحَقِّ أَتْقَنَ صُنْعَهَا ... وَأَوْدَعَهَا الأَسْرَارَ للهِ تَشْهَدُ

[آيات الله في الكون]

٣٣- وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِـمَنْ كَانَ مُوقِنًا ... وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ
٣٤- وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ ... بِهَا يُعْرَفُ اللهُ العَظِيمُ وَيُعْبَدُ
٣٥- لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ ... إِلَـهٌ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ
٣٦- فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرْسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ ... وَلَيْسَ لِـمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ

[الأمر بالتقوى والإخلاص والتوكل]

٣٧- عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ ... وَتَجْتَنِبُ الْـمَنْهِيَّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ
٣٨- وَكُنْ مُخْلِصًا للهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَا ... وَتَابِعْ رَسُولَ اللهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ
٣٩- تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحمنِ حَقًّا وَثِقْ بِهِ ... لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ

[في الصبر وتطهير القلب من الآفات]

٤٠- تَصَبَّرْ عَنِ العِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِـحُكْمِهِ ... وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَّكَ تَسْعَدُ
٤١- وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْـمَخَافَةِ وَالرَّجَا ... هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ
٤٢- وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ ... وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

[إسداء النصح للخلق]

٤٣- وَجَمِّلْ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ ... لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

[في الصاحب]

٤٤- وَصَاحِبْ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ ... يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

٤٥- وَإِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ ... خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ

[التحلي بمكارم الإخلاق]

٤٦- خُذِ العَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ ... كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

٤٧- تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً ... وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ

٤٨- وَكُنْ سَالِكًا طُرْقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا ... إِلَى المَنْزِلِ البَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْفَدُ

[في الذكر]

٤٩- وَكُنْ ذَاكِرًا للهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ ... فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللهِ وَقْتٌ مُقَيَّدُ

٥٠- فَذِكْرُ إِلهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا ... يُزِيلُ الشَّقَا وَالهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

٥١- وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجِلًا ... وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَرِّدُ

٥٢- فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ ... بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ

٥٣- وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلهَهُ ... عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ

٥٤- وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ ... وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ

٥٥- بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانُكَ هذِهِ ... تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسْعِدُ

٥٦- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ ... بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالمَسَاكِنُ تُمْهَدُ

٥٧- وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ ... وَمَعْهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ

٥٨- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ ... وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُوا

٥٩- وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ ... طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَـهِ وَمُرْشِدُ

[النهي عن مساوئ الأخلاق]

٦٠- وَيَنْهَى الفَتَى عَنْ غِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ ... وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدُ

٦١- لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ ... بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللهِ نِعْمَ المُوَحِّدُ

٦٢- وَلَكِنَّنَا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا ... كَـمَـا قَـلَّ مِـنَّـا لِـلْإِلَـهِ التَّعَبُّدُ

[الخاتمة]

٦٣- وَسَلْ رَبَّكَ التَّوْفِيقَ وَالفَوْزَ دَائِمًا ... خَـابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَقْصِدُ

٦٤- وَصَلِّ إِلهِي مَعْ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ ... عَلَى خَيْرِ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشِدُ

٦٥- وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا ... صَـلَاةً وَتَسْلِيمًا يَـدُومُ وَيَخْلُدُ

تَمَّت، غفر الله لكاتبها وناظمها وقارئها ومن قال: آمين، وجميع المسلمين.

وصلَّى اللهُ على محمدٍ ١٣٤٥هـ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الأدلة القواطع والبراهين
في إبطال أصول الملحدين

الموضوع **رقم الصفحة**

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الرد على الزنادقة
والقائلين بوحدة الوجود

النصيحة الربانية في الرد على المغترين
بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية
(انتصار الحق)

الموضوع	رقم الصفحة

التوضيح والبيان
لشجرة الإيمان

تنزيه الدين وحملته ورجاله
مما افتراه القصيمي في أغلاله

الموضوع	رقم الصفحة

أصول عظيمة
من قواعد الإسلام

التوضيح المبين
لتوحيد الأنبياء والمرسلين
من الكافية الشافية

الموضوع	رقم الصفحة

الحق الواضح المبين
في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين
من الكافية الشافية

الموضوع	رقم الصفحة

التنبيهات اللطيفة
على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية
من المباحث المنيفة

الموضوع	رقم الصفحة

القول السديد
شرح كتاب التوحيد

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

البراهين العقلية
على وحدانية الرب ووجوه كماله

الموضوع	رقم الصفحة

الدرة البهية

شرح القصيدة التائية

أصول الدين

الموضوع	رقم الصفحة

شرح كتاب أصول الإيمان
للشيخ محمد بن عبد الوهاب

الموضوع	رقم الصفحة

منهج الحق
منظومة في العقيدة والأخلاق

الموضوع	رقم الصفحة

